كنز الفوائد

للإمام أبي الفتح الشيخ محمد بن علي بن عثمان
الكراجكي الطرابلسي المتوفى ٤٤٩ هـ

حققه وعلق عليه
العلامة الشيخ عبد الله نعمه

دار الأضواء
بيروت



كنز الفوائد

للإمام أبي الفتح الشيخ محمد بن علي بن عثمان

الكراجكي الطرابلسي المتوفى ٤٤٩هـ

كنز الفوائد

للإمام أبي الفتح الشيخ محمد بن علي بن عثمان
الكراجكي الطرابلسي المتوفى ٤٤٩هـ

حققه وعلق عليه
العلامة الشيخ عبدالله نعمه

الجزء الأول

دار الأضواء
بيروت • لبنان

جميع الحقوق محفوظة

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

دار الأضواء

بيروت - الغبيري - شارع عبد الله الحاج - بناية الروضة

ص.ب: ٢٥/٤٠ - برقياً: الغبيري - حسنكو

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلواته وتحياته على أكرم رسله، سيدنا محمد وآله المصطفين الأبرار، وصحبه الأخيار.

وبعد فأنا أمام كتاب «كنز الفوائد» الذي يعتبر - بحق - من الآثار القيمة الحية، التي تركها لنا سلفنا العلماء الخالدون، قد ضم بين دفتيه مجموعة كبيرة من أبحاث علمية، متعددة الألوان، مختلفة المواضيع، قد تبوأ مكانةً كريمة لدى العلماء والباحثين، وأولوه إهتمامهم وعنايتهم، فكان من المصادر التي اعتمدوها واخذو عنها.

وهذا الكتاب من آثار العلامة الفقيه المتكلم الشيخ أبي الفتح محمد بن علي الكراجكي الطرابلسي، من ألمع العلماء الإسلاميين في القرن الخامس الهجري، وأكثرهم إحاطة بمعارف عصره، وأوفرهم إنتاجاً ونشاطاً في سبيل العقيدة الإسلامية، ونعرف ذلك من ثبت مؤلفاته كما يأتي إن شاء الله.

وقد طبع هذا الكتاب في إيران منذ أكثر من ثمانين سنة على المطابع الحجرية ونفدت نسخة وأصبحت نادرة الوجود، رغم رداءة طباعته وكثرة أغلاطه. لذلك أصبح مجهولاً لا يعرفه إلا قليل.

وقد عنيت منذ مدة طويلة بنسخه عن النسخة المطبوعة، وبترتيبه والتعليق عليه، رغبةً في نشره بين القراء، وتعميماً للفائدة، وإبرازاً لآثار علمائنا الأبرار وجهودهم في مجالات العلم والثقافة الإسلامية.

وكان من حق هذا الكتاب أن يصدر بحلته الجديدة، منذ زمن، إلا أن الظروف القاسية التي مرت بها البلاد حالت دون ذلك.

وأخيراً قيّض الله سبحانه الصديق البر الحاج جعفر الدجيلي صاحب دار الأضواء، فتولى طبعه وإخراجه، فله شكري ودعائي له بالتوفيق. والله سبحانه يتولى الصالحين العاملين.

٤ ربيع الاول سنة ١٤٠٥ هـ

٢٧ / ١١ / ١٩٨٤م

عبد الله نعمة

بسم الله الرحمن الرحيم وله الحمد

مقدمة

عاش أبو الفتح محمد بن علي بن عثمان الكراجكي مؤلف هذا الكتاب « كنز الفوائد » الشطر الكبير من حياته ما بين النصف الأخير من القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس للهجرة.

وكانت هذه الفترة التي عاشها الكراجكي بالذات حافلة إلى حدٍ كبير بضروب من الإنقسامات السياسية الهائلة، وبقيام دول صغيرة، منيت بها المملكة الإسلامية (الأم)، وانفصلت عنها.

فقد استقل بنو بويه بفارس والري وأصبهان والجبل.

وأصبحت كرمان في يد محمد بن الياس، والموصل وديار بكر وربيعة ومضر في أيدي الحمدانيين، والمغرب وأفريقيا في أيدي الفاطميين، والأندلس في أيدي الأمويين، وخراسان في يد السامانيين، والأهواز وواسط والبصرة في أيدي البريديين، واليمامة والبحرين في يد أبي طاهر القرمطي، وجرجان وطبرستان في أيدي الديلم.

ولم يبق في يد العباسيين سوى بغداد وأعمالها، محتفظين بسيادة معنوية على هذه الدويلات المنفصلة عنها، التي كانت تقدم للخليفة العباسي في بغداد الدعاء والخطب في المساجد أيام الجمع والأعياد وفي المناسبات الدينية، وتشتري منه الألقاب[١].

---

(١) أنظر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع لآدم متز، ج١ ص١ وما بعدها.

كما حفلت هذه الفترة أيضاً بضروب عديدة من المذاهب والنحل، وبانقسام كبير في الآراء والنزعات، في مجادلات ومناظرات عنيفة وحادة، بصراحة وحرية، حفظتها لنا تلك المؤلفات التي وضعت في هذه الفترة، والتي تبرز لنا تلك الألوان المذهبية بوضوح وعنف، حول القدم والحدوث، وحول الخالق وصفاته، وحول أفعال الإنسان في الجبر والإختيار، وحول الخلافة والإمامة وما إليها من العصمة والنص والإختيار، وحول ما يراه المعتزلة من نظرية الأحوال، ونظرية الأشاعرة حول نظرية الكسب، وحول ما يراه الإسماعيلية والقرامطة من الباطن والظاهر، وحول جميع هذه المواضيع الكلامية وغيرها، التي كانت محور المناظرات العلمية والفكرية آنذاك.

فقد برز في هذه الفترة من شيوخ الأشاعرة أمثال أبي بكر محمد بن الطيب البصري المعروف بالقاضي الباقلاني المتوفي سنة (٤٠٣هـ).

ومن المعتزلة القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني شيخ المعتزلة في عصره المتوفي سنة (٤١٥هـ).

وأبو الحسن البصري محمد بن علي بن الطيب المتوفي سنة (٤٣٠هـ).

ومن الشيعة الإمامية الشيخ محمد بن محمد بن النعمان التلعكبري المعروف بالشيخ المفيد المتوفي سنة (٤١٣هـ) وهو عالم الشيعة في عصره.

والشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي المتوفي سنة ٤٣٦. وتلميذهما أبو الفتح الكراجكي المتوفي سنة (٤٤٩هـ).

وفي هذه الفترة بالذات تنفس الشيعة الإمامية الصعداء حين أخذ ينحسر عنهم الكثير من الحرمان والكبت والملاحقة، التي عاشوها طيلة أكثر العهود الماضيــة، وتنسموا شيئاً من حريتهم، واستطاعوا الإعـلان عن آرائهم واتجاهاتهم، مما لم يحظوا به في عصور سابقة. ذلك حين عطف بنو بويه على الشيعة، وسيطروا على الخليفة في بغداد، الذي كان مصدر ذلك الكبت والحرمان، وتحكموا بمقدرات الدولة وبمصيرها، وأصبح الخليفة العباسي دمية بين أيديهم يحركونها كيفما شاؤوا

وفي هذه الفترة بالذات أيضاً، استطاع الشيخ المفيد وتلميذه الشريف المرتضى وتلامذهما، أن ينشطوا للقيام بواجبهم الديني والعلمي دون خوف أو تقية، وأن يتغلغلوا في دفع الفكرة الشيعية إلى المناطق التي كانت موصدة أمامهم من قبل، كإيران وأكثر جهات العراق وسوريا، وأن يبرزوا التشيع في حقيقته النقية الصافية الممدودة بالمنطق والأدلة العلمية، وقد أخذوا على عاتقهم مهمة الدعوة الإسلامية، وصد هجمات الملاحدة من القرامطة والغلاة وغيرهما.

وكان أبو الفتح الكراجكي من أبرز من تحملوا المسؤولية في هذا السبيل. وكان الدور الذي قام بأعبائه مهماً وخطيراً. فقد قدّر له أن يعيش في هذا الثغر الشامي وفي الساحل اللبناني، ليقوم بترسيخ العقيدة الإسلامية، والحد من النزعة الإسماعيلية، يوم كانت فلسطين ولبنان واقعة تحت نفوذ الدولة الفاطمية، وحين كانت الفكرة الإسماعيلية الفاطمية تعيش في أكثر بقاعها.

وقد إختار الكراجكي مدينة طرابلس اللبنانية قاعدة لإنطلاقه وعمله، حين كان أمراء بني عمار الشيعة يتولون حكمها، ويسيطرون عليها.

ومن هذه القاعدة- طرابلس- انطلق الشيخ الكراجكي يناظر ويجادل ويعلم، بكل ما يملك من طاقة علمية وفكرية، وصمد في وجه الموجة الإسماعيلية العارمة، واستطاع أن يحد من نشاطها، حتى انحسرت عن أكثر هذه المنطقة، وحلت مكانها الفكرة الشيعية الأمامية، وأصبحت مذهب الأكثرية لسكان المناطق الساحلية في ذلك العهد..

وشمل في نشاطه مقاومة سائر المخالفين، كالمعتزلة والأشاعرة، وأهل الديانات الأخرى، كاليهود والنصارى والبراهمة وسواهم، كما يبدو ذلك من كتبه والفصول التي أدرجها في كتابه (كنز الفوائد).

كل ذلك بفضل جهوده المتواصلة، وبما كان يملكه من شدة المعارضة وروح الجدل، ووفور: العلم، وعمق الملاحظة، وتنوع الثقافة، وقوة الحجة، وبما كان يتمتع به من وعي وإدراك، ومن حيوية وحركة وصبرٍ وعملٍ دائب.

مؤلف الكتاب

هو أبو الفتح محمد بن علي بن عثمان المعروف بالكراجكي، نسبةً إما إلى (كراجك) وهي قرية تقع على باب مدينة (واسط) العراقية التي بناها الحجاج الثقفي والي الأمويين سنة ٨٣/٨٤هـ[١]، وكان بينها وبين كل من البصرة والكوفة والأهواز وبغداد مقدار واحد، وهو خمسون فرسخاً.[٢]

وهذا ما قاله كثير من مترجميه.

وإما نسبةً إلى عمل الكراجك وهي الخيم كما في لسان الميزان.[٣]

وقد وصفه غير واحد بالخيمي نسبةً إلى (الخيم) قرية أو محلة في مصر، كان أبو الفتح قد نزلها.

والأرجح أن نسبته بالكراجكي إنما هي إلى عمل الخيم، التي هي الكراجك كما قاله في لسان الميزان، إما لأنه هو كان يعملها أو أن الذي يعملها أحد آبائه فنسب إليها. بدليل ما قاله العماد الحنبلي: «وفيها توفي أبو الفتح الكراجكي أي الخيمي» الذي يفسر الكراجكي بالخيمي.

كما ينسب الكراجكي إلى طرابلس الشام، فيوصف بالطرابلسي، لإقامته فيها مدة طويلة أيام حكامها بني عمار، وقد عده المجلسي في كتاب البحار في فقهاء طرابلس، كما يفهم من عبارته التالية:

«ومن أجلاء علمائنا وفقهائنا ورؤسائهم فقهاء حلب، وهم جمع كثير، ومنهم

---

(١) و(٢) أنظر: التنبيه والإشراف للمسعودي ص٣١١.

(٣) ج ٥ ص ٣٠٠

فقهاء طرابلس، ومنهم الشيخ الأجل السعيد أبو الفتح الكراجكي نزيل الرملة البيضاء ».(١)

ويعزز هذه النسبة وإقامته الطويلة في طرابلس، أنه ألف أثناء إقامته فيها عدة مؤلفات، ومنها:

١ - عدة المصير في حجج يوم الغدير، ألفه في طرابلس للشيخ أبي الكتائب ابن عمار.

٢ - التلقين لأولاد المؤمنين.

٣ - التهذيب متصل بالتلقين.

٤ - نهج البيان في مناسك النسوان، أمره بعمله الشيخ الجليل أبو الكتائب أحمد بن محمد بن عمار بطرابلس.

٥ - معونة الفارض على استخراج سهام الفرائض، ألفه بطرابلس لبعض الإخوان.

٦ - ردع الحاصل وتنبيه الغافل، وهو نقض كتاب أبي المحاسن المعري الذي رد به على الشريف المرتضى في المسح على الرجلين، ألفه في طرابلس.

٧ - مختصر طبقات الوراث، عمل للمبتدئين بطرابلس.

كما ينسب إلى (صور) المدينة الساحلية اللبنانية، فقد وصفه الطهراني في الطبقات بالصوري، إذ أقام فيها، وفيها توفي ودفن، وقد وضع فيها بعض مؤلفاته، منها: الأصول إلى مذهب آل الرسول سنة ٤١٨هـ.

* * *

وقد اتفقت كلمة مؤرخيه على أنه توفي سنة (٤٤٩هـ)[٢] في الثاني من ربيع الآخر[٣].

---

(١) البحار ج ١٠٥ ص ٧٦.

(٢) أنظر: شذرات الذهب للعماد الحنبلي ج٣ ص٢٨٣، ولسان الميزان للعسقلاني ج ٥ ص٣٠٠ ومرآة الزمان لليافعي م٣ ص٧٠ والقمي في الكنى والألقاب ج٣ ص٩٤ ومعجم رجال الحديث م١٦ ص٣٧٦.

(٣) أنظر: لسان الميزان ج٥ ص٣٠٠.

أما تاريخ ولادته فقد أهملته كتب التراجم، لكن وجدنا الكراجكي في كتابه (كنز الفوائد) يروي عن أبي الحسن علي بن أحمد اللغوي المعروف بركاز (بميا فارقين) في سنة ٣٩٩هـ.

وهذا يعني أن الكراجكي كان إذ ذاك في سنٍ تمكنه من تلقي الرواية والأخذ عن الرواة، وهذا عادة لا يكون إلا في سن الخامسة والعشرين من عمره، على أدنى الإفتراضات، وعلى هذا فتكون ولادته سنة ٣٧٤هـ. أي أنه عاش خمساً وسبعين سنة تقريباً.

والكراجكي من أئمة عصره في الفقه والكلام والفلسفة والطب والفلك والرياضيات وغيرها، وقد وصفه أصحاب التراجم بما يدل على مكانته العلمية وشخصيتهالبارزة في أكثر معارف عصره. قال العماد الحنبلي في شذرات الذهب ج٣ ص٢٨٣ في حوادث سنة ٤٩٩هـ.

«وفيها توفي أبو الفتح الكراجكي أي الخِيَمي رأس الشيعة وصاحب التصانيف محمد بن علي، مات بصور في ربيع الآخر، وكان نحوياً لغوياً، منجماً، طبيباً، متكلماً متقناً، من كبار أصحاب الشريف المرتضى، وهو مؤلف كتاب «تلقين أولاد المؤمنين».

وقريب منه ما قال اليافعي في مرآة الزمان (ج٣ ص٧٠).

وقال العسقلاني في لسان الميزان ج٥ ص٣٠٠ «محمد بن علي الكراجكي، بفتح الكاف وتخفيف الراء وكسر الجيم ثم الكاف، نسبة إلى عمل الخيم وهي الكراجك، بالغ ابن طي[1] في الثناء عليه في (ذكر الإمامية)، وذكر أن له

---

(١) هو يحيى بن حميد بن ظافر بن علي بن الحسين بن علي بن محمد بن الحسن بن صالح بن علي بن سعيد بن أبي الخير الطائي أبو الفضل البخاري الحلبي المعروف بابن أبي طي (٥٨٥- ٦٥٠هـ) أنظر: طبقات الشيعة القرن السابع ص ٢٠٥. وله ترجمة في لسان الميزان ج٦ ص٢٦٣- ٢٦٤ وقال: أنه ولد بحلب سنة ٥٧٥ وله تصانيف عدة منها (معادن الذهب في تاريخ حلب) و(شرح نهج البلاغة) في ست مجلدات و(فضائل الأئمة) و(خلاصة الخلاص في آداب الخواص) في عشر مجلدات و(الحادي في رجال الإمامية) و(سلك النظام في أخبار الشام)، أخذ الفقه عن ابن شهراشوب وكان بارعاً في الفقه على مذهب الإمامية، وله مشاركة في الأصول والقراءات.

تصانيف في ذلك، وذكر أنه أخذ عن أبي الصلاح،[1] واجتمع بالعين زربى، ومات في ثاني ربيع الآخر سنة ٤٤٩».

وقال الحر العاملي في الأمل:

عالم فاضل متكلم فقيه محدث ثقة جليل القدر. ثم ذكر بعض مؤلفاته.

وقد أطراه عدد من مترجميه، فوصفوه بالشيخ المحدث الفقيه المتكلم المتبحر الرفيع الشأن من أكابر تلامذة المرتضى والشيخ (أي المفيد)، والديلمي، والواسطي، وسلار وأبي الحسن ابن شاذان القمي، وهو من أجلة العلماء والفقهاء والمتكلمين، وأُسند إليه جميع الإجازات[2]. ويعبِّر عنه الشهيد الأول العاملي كثيراً، في كتبه بالعلامة، مع تعبيره عن العلامة الحلي بالفاضل[3].

وقد وصفه ابن شهراشوب في كتاب معالم العلماء ص٧٨٨ بالقاضي، وتابعه على ذلك السيد الكبير مهدي الطبطباني في رجاله فقال: أبو الفتح القاضي شيخ فقيه متكلم من تلامذة الشيخ المفيد.

وربما جاءت كنيته بأبي القاسم، وإنه من ديار مصر ويحتمل أنه من ديار الشام. ويؤيد هذا الإحتمال الأخير ما ذكره صاحب لسان الميزان من أن الكراجكي نسبةٌ إلى عمل الكراجك وهي الخِيَم، وعلى هذا فهو ليس مصرياً كما احتمله بعضهم من أنه نسبة إلى الخيم قرية في مصر، كما أنه ليس لدينا ما

---

(١) هو تقي الدين بن النجم الحلبي من تلاميذ الشريف المرتضى، له عدة مؤلفات، منها. (تقريب المعارف) و(البداية)، و(البرهان على ثبوت الإيمان) و(الكافي في الفقه). وصفه الشهيد الثاني، بالشيخ الفقيه السعيد خليفة المرتضى في البلاد الحلبية.
أنظر: (الكنى والألقاب ج١ ص٩٧). وفي لسان الميزان ج٢ ص٧١: تقي بن عمر بن عبيد الله ابن محمد الحلبي أبو الصلاح، مشهوربكنيته من علماء الإمامية ولد سنة ٣٧٤ ومات بحلب سنة ٤٤٧، أخذ عن أبي جعفر الطوي وغيره، ورحل إلى العراق فحمل عن الشريف المرتضى.

(٢) يراجع في ذلك بحار الأنوار ج١٠٢ ص٢٦٣ هامش للمعلق، والكنى والألقاب ج٣ ص٩٤. وأنظر: معجم رجال الحديث ج١٦ ص٣٧٦ ومقدمة الطبعة القديمة لكنز الفوائد.

(٣) أنظر الكنى والألقاب ج ٣ ص ٩٤.

يدل على أنه عراقي نسبةً إلى كراجك وهي قرية على باب واسط كما تقدم، بل المحتمل قريباً أنه من بلاد الشام.

وقد وصف المؤلف كما سبق بالقاضي، ولا نعرف البلد الذي كان فيه قاضياً، ولا الجهة التي أسندت إليه هذا المنصب، وإن كان المظنون أن أُمراء بني عمار حكام طرابلس هم الذين أسندوا إليه القضاء وفي مدينة طرابلس الشام بالذات.

وكان المؤلف الكراجكي جيّاشاً بكل فن، يطلب المعرفة أينما كانت، وفي حركة دائبة بدون ملل، يفيد ويستفيد، فقد كان صاحب رسالة إسلامية وعلمية، يعيشها ويدعو إليها، ويتجول في سبيلها في كثير من العواصم الإسلامية، وبخاصة الشامية منها، ويجول فيها عرضاً وطولاً، إشباعاً لرغبته في نشر رسالته، فلم يقر له قرار، فكان في مصر سنة ٤٠٧ و٤٢٦، وفي الرملة من فلسطين سنة ٤١٠ و٤١٢[1] و٤١٦، وفي مكة المكرمة سنة ٤١٢، وفي بلبيس سنة ٤١٨، وفي ميافارقين سنة ٣٩٩.

كما كان يتجول بين دمشق وبغداد، وحلب وطبرية، وبين صيدا، وصور وطرابلس، ويقيم في كلٍ منها مدة طويلة، يؤلف فيها ويصنف، كما يظهر من ثبت مؤلفاته، ومن لقاءاته مع أهل العلم، مما ذكره في كتابه (الكنز).

وحيث يستقر في بلدٍ يعكف على التأليف في مواضيع الساعة آنذاك. ومن هنا وجدنا شطراً من مؤلفاته وضعها بالقاهرة، وبعضها في الرملة، وآخر في دمشق وطبرية وصيداء وصور وطرابلس وغيرها.

كما كان يؤلف لبعض شخصيات عصره من أُمراء وقواد وعلماء وقضاة، وثبت مؤلفاته يشير إلى هذا.

وكان على إلمام تام بمعارف عصره، كما يظهر ذلك من مؤلفاته المتعددة المواضيع، وذا ثقافة واسعة.

---

(١) يقول الكراجكي ص٢٤٧ من طبعة الكنز القديمة: ورأيت بالرملة في جمادى الآخرة من سنة ٤١٢ شريفاً من أهل السند يعرف بأبي القاسم عيسى بن علي العمري من ولد عمر بن أمير المؤمنين (ع).

فقد كتب في الفقه والأصول، والحساب، والرياضيات والفلك، والأدب والحديث، والفلسفة والكلام، والنحو، والأخلاق والتاريخ والرجال، والتفسير، وغير ذلك مما تشير إليه عناوين كتبه التي وضعها.

ومن هنا نجد مترجميه يصفونه بأنه نحوي لغوي منجم طبيب متكلم، محدث فقيه متفنن على ما سبق.

«شيوخ المؤلف وأساتذته»

أخذ أبو الفتح الكراجكي العلم عن جماعة كثيرة من أعلام عصره، كما أخذ الحديث من عدد كبير من الرواة والعلماء من شيعة وسنة، وروى عن أكثرهم في كتابه (الكنز).

ومنهم:

١- الشيخ المفيد أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان الحارثي العكبري البغدادي المعروف بابن المعلم (٣٣٦/٣٣٨- ٤١٣هـ).

٢- الشريف المرتضى علي بن أبي أحمد الحسيني بن موسى الموسوي المعروف بذي المجدين وبعلم الهدى، والمكنى بأبي القاسم ٣٥٧- ٤٣٦

٣- أبو يعلى حمزة بن عبد العزيز الديلمي الطبرستاني المعروف بسالار ومعناه الرئيس أو المقدم من تلاميذ المفيد والمرتضى، توفي سنة ٤٤٨هـ وقيل سنة ٤٦٣هـ.

٤- أبو عبدالله الحسين بن عبدالله بن علي المعروف بابن الواسطي المعاصر للشريف المرتضى.

٥- أبو المرجا (أبو الرجاء) محمد بن علي بن طالب البلدي وهو ممن روى عنه بالقاهرة.

٦- الشريف أبو عبدالله محمد بن عبيدالله بن الحسين بن طاهر الحسيني.

٧- القاضي أبو الحسن محمد بن علي بن محمد بن صخر الأزدي البصري، روى عنه بمصر سنة ٤٢٦هـ قراءة عليه.

٨- أبو محمد عبدالله بن عثمان بن حماس، روى عنه بمدينة الرملة.

٩- أبو القاسم هبة الله بن ابراهيم بن عمر الصواف، روى عنه بمصر.

١٠- القاضي أبو الحسن أسد بن إبراهيم بن كليب السُلمي الحراني نزيل بغداد، روى عنه في مدينة الرملة سنة ٤١٠هـ، وقد أكثر الراوية عنه في كنز الفوائد، وقال ابن عساكر عنه: كان من أشد الشيعة وكان متكلماً. مات بعد الأربعمائة.[١]

١١- أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي بن الحسن بن شاذان القمي، روى عنه الكراجكي بمكة المكرمة سنة ٤١٢هـ[٢] وأورد في الكنز كثيراً من رواياته عنه، وهو ابن أخت أبي القاسم جعفر بن محمد بن قولديه القمي الشهير المتوفى سنة ٣٦٨/٣٦٧هـ.

١٢- الحسين بن محمد بن علي الصيرفي البغدادي، قال الكراجكي عنه: وكان مشتهراً بالعناد لآل محمدوالمخالفة لهم. وسمعت من هذا الراوي المخالف عدة فضائل لآل محمد (ص) سخّره الله لنقلها فرواها راغماً حجةً عليه بها.[٣]

١٣- الشريف أبو منصور أحمد بن حمزة الحسيني العريضي، روى عنه في الرملة.

١٤- أبو العباس أحمد بن إسماعيل بن عنان، روى عنه بحلب.[٤]

١٥- أبو الحسن علي بن أحمد اللغوي المعروف بابن ركاز، روى عنه في ميافارقين سنة ٣٩٩.

١٦- القاضي أبو الحسن علي بن محمد السباط البغدادي.

١٧- أبو الحسن طاهر بن موسى بن جعفر الحسيني، روى عنه بمصر سنة ٤٠٧هـ.

١٨- أبو سعيد أحمد بن محمد بن أحمد الماليني الهروي، روى عنه في الرملة سنة ٤١٠هـ في شوال.

---

(١) أنظر: لسان الميزان ج١ ص٣٨٢.

(٢) ورد في الكنى والألقاب ج١ ص٣١٨ تاريخ قراءة الكراجكي سنة ٣١٢ وهو اشتباه دون ريب.

(٣) أنظر كنز الفوائد ص ١٥٤ من الطبعة القديمة.

(٤) أبو العباس هذا يروي عن أبي المفضل محمد بن عبد الله الشيباني شيخ عدة من مشايخ الطوسي (الطبقات ج٢ ص٧٣).

١٩- أبو العباس أحمد بن نوح بن محمد الحنبلي الشافعي، روى عنه بالرملة سنة ٤١١هـ حديثاً عن المعمر الشرقي.

٢٠- أبو الحسن علي بن الحسن بن مندة، روى عنه الكراجكي حديث الطائر المشوي في طرابلس سنة ٤٣٦هـ، وأورد هذا الحديث في كتابه (تفضيل علي على غيره).

٢١- أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي، شيخ الطائفة وصاحب كتابي التهذيب والإستبصار (٣٨٥- ٤٦٠هـ) ذكره كما حكي عن منتجب الدين صاحب الفهرست في مشايخ الكراجكي.

ومن الملاحظ أن الكراجكي لم يرو حديثاً واحداً عنه في كتابه (كنز الفوائد). ومن هنا شك بعضهم في صحة ذلك.

«تلاميذ المؤلف»

عرفنا من تلاميذه الذين أخذوا عنه جماعة وهم:

١- الشيخ عبد الرحمن بن أحمد بن الحسين الخزاعي المعروف بالمفيد النيسابوري، وهو من شيوخ العلماء، صاحب التصانيف، وعم والد الشيخ أبي الفتوح الرازي جعفر بن علي بن محمد بن أحمد.[١]

٢- أبو محمد ريحان بن عبدالله الحبشي.[٢]

٣- السيد أبو الفضل ظفر بن الداعي بن مهدي العلوي المصري العمري الإسترابادي، كان فقيهاً صالحاً، يروي عن عبدالله بن عمر الطرابلسي.

---

(١) هو تلميذ الرضي والمرتضى والطوسي وسالار وابن البراج والكراجكي (الذريعة ج٢ ص٣١١).

(٢) في لسان الميزان ج٢ ص٤٦٩: ريحان الجبش أبو محمد السبيعي الإمامي المصري، تفقه على علي ابن عبد الله بن كامل، روى عنه شاذان بن جبريل، قال: ابن أبي طي قال لي أبي: كان الفقيه ريحان من أحفظ الناس، وقيل كان يصوم كثيراً ولا يأكل إلا من طعام يعلم أصله، وكان ابن رزيك (أي الوزير الفاطمي) يعظمه ويحترمه، كان بعد الخمسين وخمسماية.

٤- عبد العزيز بن أبي كامل القاضي عز الدين الطرابلسي.

٥- الفقيه أبو عبد الله الحسين بن هبة الله الطرابلسي[١]، روى عن الكراجكي كتاب معدن الجواهر، وكتاب روضة العابدين الذين ألفه الكراجكي لولده موسى..

٦- الشيخ شمس الدين أبو محمد الحسن الملقب بحسكا الرازي ابن الحسين بن الحسن بن الحسين بن علي بن بابويه القمي من تلاميذ الطوسي وسالار الديلمي وابن البراج، وحسكا مخفف (حسن كيا) ومعنى كيا الرئيس ونحوه من كلمات التعظيم، وهو فقيه عصره، روى عن الكراجكي، وهو جد منتجب الدين ابن بابويه صاحب الفهرست[٢]

« مؤلفاته »

وقد وضع الكراجكي عدداً ضخماً من مؤلفاته في مواضيع مختلفة، كما أشرنا من قبل.

وقد ذكرها العلامة النوري في كتابه (المستدرك) ص٤٩٧- ٤٩٩.

وفيما يلي شطر من هذه المؤلفات.

١- روضة العابدين ونزهة الزاهدين، ثلاثة أجزاء في الصلاة، ألفه لولده موسى. ينقل عنه الشيخ شمس الدين محمد وأخوه تقي ابراهيم الكفعمي،[٣] ويرويه عنه الحسين بن هبة الله الطرابلسي.[٤].

٢- الرسالة الناصرية في عمل ليلة الجمعة ويومها، عملها للأمير ناصر الدولة بدمشق.

٣- التلقين لأولاد المؤمنين، ألفه بطرابلس.

---

(١) في الذريعة ج١٩/ص١٥٦ ذكر له كتاب (الفرج في الغيبة) وورد اسمه هكذا أبو عبدالله محمد ابن هبة الله بن جعفر الوراق الطرابلسي تلميذ الطوسي.

(٢) أنظر: البحار ج١٠٢ ص٢٤٤ وص٢٦٤ هامش وأنظر: الكنى والألقاب ج٣ ص١٨١- ١٨٢

(٣) أنظر: طبقات الشيعة ج٥ ص١٧٩

(٤) المصدر ص٦٩.

٤- التهذيب متصل بالتلقين، ألفه بطرابلس.

٥- معونة الفارض على استخراج سهام الفرائض، ألفه بطرابلس لبعض الإخوان.

٦- المنهاج إلى معرفة مناسك الحاج، ألفه للأمير صارم الدولة ذي الرياستين.

٧- المقنع للحج والزائر، سأله لتأليفه القائد أبو البقاء غرز بن براك.

٨- المنسك العضبي أمره بعمله صارم الدولة بطبرية.

٩- منسك لطيف في مناسك النسوات أمره بعمله صارم الدولة.

١٠- نهج البيان في مناسك النسوات أمره بعمله الشيخ الجليل أبو الكتائب أحمد بن محمد بن عمار بطرابلس.

١١- الاستطراف فيما ورد في الفقه من الانصاف، صنفه للقاضي أبي الفتح عبد الحاكم.

١٢- مختصر دعائم الإسلام للقاضي النعمان، قاضي الفاطميين.

١٣- الإختيار من الأخبار، وهو اختصار كتاب الأخبار للقاضي النعمان.

١٤- ردع الجاهل وتنبيه الغافل، وهو نقض كلام أبي المحاسن المعري الذي نقض به على الشريف المرتضى في المسح على الرجلين، عمله بطرابلس.

١٥- البستان في الفقه، صنفه للقاضي أبي طالب عبد الله بن محمد بن عمار.[١]

١٦- الكافي بصحة القول برؤية الهلال، عمله بمصر.

١٧- نقض رسالة فردان المروزي في الجزء.

١٨- غاية الانصاف في مسائل الخلاف، وهو نقض على أبي الصلاح الحلبي في مسائل خلافية بينه وبين الشريف المرتضى، نصر فيها رأي المرتضى.

١٩- حجة العالم في هئية العالم، ذكر فضلاً منه في كتاب كنز الفوائد.

٢٠- كتاب ذكر الأسباب الصارفة عن معرفة الصواب.

٢١- دامغة النصارى، وهي نقض كلام أبي الهيثم النصراني فيما رامه من تثبيت الثالوث والإتحاد.

---

(١) ويقع في نيف وثلاثين شجرة طبقات ٥ ص١٠٩ وربما كان هو كتابه المشجر الآتي.

٢٢- الغاية في الأصول في حدوث العالم وإثبات محدثه.

٢٣- رياضة العقول في مقدمات الأصول.

٢٤- الراشد أو (الرائد) المنتخب من غرر الفوائد وهو كتاب الأمالي للشريف المرتضى.

٢٥- جواب رسالة الأخوين، يتضمن الرد على الاشعرية وفساد أقوالهم وطعنهم على الشيعة.

٢٦- عدة البصير أو (المصير) في حجج يوم الغدير[1]، عمله بطرابلس للشيخ أبي الكتائب ابن عمار.

٢٧- التعجب في الامانة من أغلاط العامة، وهو مطبوع في آخر كنز الفوائد في ربيع الأول سنة ١٣٢٢ هـ وعدد صفحاته ٦٩ صفحة.

٢٨- الاستنصار في النص على الائمة الاطهار، وهو مطبوع مع كتاب مقتضب الأثر للعياشي أحمد بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن عياش المتوفي سنة ٤٠١هـ، وقد طبع سنة ١٣٤٦هـ في النجف في المطبعة العلوية عن نسخة كانت في مكتبة المرجع مبرزاً محمد حسن الشيرازي المتوفي سنة ١٣١٢ وكانت كتابتها قبل سبعة قرون سابقة على طباعتها.

٢٩- معارضة الأضداد باتفاق الأعداد.

٣٠- المسألة القيسرانية في تزويج النبي (ص) عائشة وحفصة.

٣١- المسألة التبانية في فضل أمير المؤمنين (ع) على جميع البرية سوى سيدنا رسول الله (ص).

٣٢- مختصر تنزيه الأنبياء، والأصل للشريف المرتض.

٣٣- الإنتقام ممن عذل أمير المؤمنين (ع) وهو النقض على ابن شاذان الأشعري فيما أورده في آية النار.

٣٤- القاضح في ذكر معاصي المتغلبين على مقام أمير المؤمنين لم يتم.

---

(١) قال النوري في المستدرك ج٣ ص٤٩٨: هذا كتاب مفيد يختص باثبات أمامة أمير المؤمنين (ع) في يوم العدير، جزء واحد مائتا ورقة، بلغ العاية فيه (الغدير ج١ ص١٥٥).

٣٥- مزيل اللبس ومكمل الانس.
٣٦- نظم الدرر في مبنى الكواكب والصور، يتضمن ذكر أسماء الكواكب المسماة على ما نطقت به العرب وأهل الرصد.
٣٧- إيضاح السبيل إلى علم أوقات الليل.
٣٨- كتاب في الحساب الهندي وأبوابه وعمل الجذور والمكعبات.
٣٩- معدن الجواهر ورياضة النواظر، في الآداب والحكم ومما روي عن رسول الله (ص)[١].
٤٠- رياضة الحكم، عارض فيه ابن المقفع.[٢]
٤١- موعظة العقل، عملها لنفسه.
٤٢- التعريف بوجوب حق الوالدين، عملها لولده موسى
٤٣- إذكار الاخوان بوجوب حق الأيمان، أنفذها إلى الشيخ الأجل أبي الفرج البابلي.[٣].
٤٤- نصيحة الأخوان، أنفذها إلى الشيخ أبي اليقظان.
٤٥- التحفة في الخواتيم.
٤٦- الرسالة العلوية في تفضيل أمير المؤمنين (ع) على سائر البرية سوى الرسول (ص) عملها للشريف أبي طالب. وهو على الظاهر نفس كتاب التفضيل المذكور سابقاً، وفيه يروي عن ابن مندة[٤] حديث الطائر

---

(١) رواه عنه تلميذه الفقيه أبو عبد الله الحسين بن هبة الله الطرابلسي، أنظر الطبقات ٥ ص ١٧٩ وترجمه إلى الفارسية الشيخ عباس القمي المحدث المعروف.
(٢) هو عبدالله بن المقفع البليغ المشهور مترجم كتاب كليلة ودمنة.
(٣) يحمل أن يكون البابلي هذا نسبة إلى قرية البابلية العاملية أو القرية المذكورة نسبة إليه وهي تقع جنوبي مدينة صيداء قريبة من بلدة الصرفند.
(٤) هو أبو الحسن علي بن الحسن بن مندة، روى عنه الكراجكي سنة ٤٣٦هـ في طرابلس حديث الطائر المشوي في كتابه تفضيل علي على غيره، وقال أنه روى ابن مندة رواية الطير المشوي عن شيخه الحسين بن يعقوب البزاز سنة ٣٧٠هـ. عن (الطبقات ج٢ ص١١٩) أنظر: الحياة الثقافية في طرابلس ص٢٨١.

المشوي، توجد فيه نسخة ضمن مجموعة في مكتبة مجد الدين صدر الأفاضل في طهران. كما يبدو انه عملها للشيخ أبي طالب ابن عمار، لا للشريف ابن طالب.

٤٧- الجليس شبيه الكشكول في خمسة أجزاء في خمسماية ورقة.

٤٨- انتفاع المؤمنين بما في أيدي السلاطين، عملها للأخوان حرسهم الله بصيداء.

٤٩- الأنيس، يقع في ألفي ورقة، وهو مبوب في كل فن، مات ولم يتمه.

٥٠- مختصر ابن جذاع في ذكر المعقبين من ولد الحسن والحسين (ع) في الأنساب

٥١- الزاهد في آداب الملوك، عمله للأمير صارم الدولة ذي الفضيلتين.

٥٢- كنز الفوائد، وهو مطبوع سنة ١٣٢٢هـ[1].

٥٣- تسلية الرؤساء عملها للأمير ناصر الدولة.

٥٤- التأديب عمله لولده.

٥٥- المجالس في مقدمات صناعة الكلام، أمر بعملها الأمير صارم الدولة ولم يتم.

٥٦- الاقناع عند تعذر الإجماع في مقدمات الكلام ولم يتم.

٥٧- الكفاية في الهداية في مقدمات أصول الكلام ولم يتم.

٥٨- الأصول إلى مذهب آل الرسول، يتضمن الأخبار بالمذهب من غير أدلة، عملها للاخوان بصور سنة ٤١٨هـ أو سنة ٤١٦.

٥٩- البيان عن دلالة شهر رمضان، يتضمن نظرة القول بالعدد في معرفة أوائل الشهور، عمله بالرملة لقاضي القضاة.

---

(١) عمله لابن عمه، صرح بذلك الطهراني في الذريعة ج ١٨ ص ١٦١ من دون ذكر اسمه. وقال: انه كبير في خمسة أجزاء. لكن الموجود منه حسب النسخة المطبوعة جزءان فقط، وهذا يعود إما لسقوط طائفة كبيرة منه، وإما للاختلاف بين المطبوع والأصل في الترتيب والتقسيم.

٦٠- جواب الرسالة الحازمية في إبطال العدد وتثبيت الرؤية، وهي رد على أبي الحسن بن أبي حازم المعري.

٦١- الرسالة العامرية في الجواب عن مسألة سألت عنها الغلاة، أمر بعملها الأمير قوام الدولة وأنفذها. إلى العامري، عملت بالقاهرة.

٦٢- مختصر القول في معرفة النبي (ص) بالكتابة وسائر اللغات، عمله بالقاهرة لأبي اليقظان.

٦٣- مختصر طبقات الورّاث، عمله للمبتدئين بطرابلس.

٦٤- المدهش سأله في عمله سائل، ولا نعرف موضوعه.

٦٥- الرسالة الصوفية، سأله عملها بعض الاخوان.

٦٦- الإيضاح عن أحكام النكاح، أمر بعمله الأمير ذخر الدولة بصيدا، في سنة ٤٤١ هـ في جزء واحد يحرر فيه الخلاف بين الامامية والاسماعيلية.

٦٧- التنبيه على أغلاط أبي الحسن البصري في فصل ذكره في الأمامة.

٦٨- الباهر في الاخبار.

٦٩- نصيحة الشيعة لم يتم.

٧٠- مسألة العدل في المحاكمة إلى العقل لم يتم.

٧١- هداية المسترشد لم يتم.

٧٢- الفهرست. وينقل عنه السيد ابن طاووس في آخر كتاب (الدروع الواقية) عند ذكره جعفر بن أحمد القمي قال ما لفظه: ذكر الكراجكي في كتاب الفهرست أنه صنف ٢٢٠ كتاباً بقم والري[١] كما ينقل عنه في لسان الميزان في أكثر من مورد.

٧٣- رسالة في الخلاء والملاء، وهي مما احتوى عليه كنز الفوائد.

٧٤- رسالة في الرد على الغلاة، وهي مما تتضمنه كنز الفوائد.

---

(١) الطبقات ٥ ص١٧٩.

٧٥- رسالة في الرد على المنجمين، وهي مما احتواه كنز الفوائد، ولكنها من النصوص المفقودة لم تطبع في الكنز، إلا أن السيد ابن طاووس في كتابه النجوم نقل عن كنز الفوائد قطعة كبيرة يحتمل أن تكون من هذه الرسالة.

٧٦- الرحلة، أشار إليها ابن أبي طي في فهرسته في ترجمة القاضي الحسين بن بشر بن علي الطرابلسي، له مناظرة مع الخطيب البغدادي ذكرها الكراجكي في رحلته، وقال: حكم له على الخطيب بالتقدم في العلم، وأشار إلى هذا في لسان الميزان ج ٢ ص ٢٧٥ نقلاً عن ابن أبي طي.

٧٧- الاعلام بحقيقة إسلام أمير المؤمنين عليه السلام، وهي مما تضمنه كنز الفوائد.

٧٨- رسالة كتبها إلى بعض الاخوان تتضمن كلاماً في وجوب الامامة.

٧٩- رسالة في جوابه عن سؤال ورد إليه عن الحج، وهي مما تتضمنه كنز الفوائد.

٨٠- كتاب البرهان على صحة طول عمر الإمام صاحب الزمان ألفها سنة ٤٢٧، وهي مما تضمنه كنز الفوائد.

٨١- كتاب النوادر.

٨٢- كتاب الأبانة عن المماثلة في الإستدلال بين طريق النبوة والإمامة.

٨٣- المزار وهو مختصر في زيارة إبراهيم الخليل (ع).

٨٤- شرح جمل العلم للشريف المرتضى.

٨٥- كتاب النصوص، ولعله كتاب الاستبصار في النص على الأئمة الأطهار الذي مر ذكره.

٨٦- الأخبار في الآحاد.

٨٧- الوزيري.

٨٨- المشجر.

هذا الكتاب

إذا كان هناك كتاب يطابق اسمه مسماه، ويعبر عنوانه عن حقيقته تعبيراً صادقاً عن واقع محتواه، فهو هذا الكتاب (كنز الفوائد) ودون مبالغة وتجوز.

وما على القارىء ليدرك صحة هذا القول، إلا ان يقلب صفحاته، ويمعن في قراءته ودراسته، فإنه سيخرج - بعد هذا- دون ريب بهذه الحقيقة التي اشرنا إليها، وسيجد بين يديه ثروة متنوعة دسمة من المعرفة، من أنواع الفكر والثقافة والتاريخ والأدب، مما لم يجده في سواه، تتفق مع مستويات القراء الثقافية المختلفة.

فهو ينبوع معين، تأخذ منه وتستفيد مختلف الطبقات، وعلى مختلف اتجاهاتهم العلمية والثقافية.

ويمتاز بالإضافة إلى ذلك في تناوله أمهات مسائل إسلامية وفلسفية بالبحث والدراسة العميقة، ويسهب في عرضها ومناقشتها، وتفنيد ما حولها من آراء أخرى، ويدلي بالأدلة والبراهين العقلية والعلمية على صحة ما يذهب إليه.

كما يمتاز باسلوبه الواضح الخلو من التعقيد، حتى في أدق المسائل الفكرية التي عرضها في كتابه وناقشها، كمسألة حدوث العالم، ومسألة الحال التي يقول بها المعتزلة، ومسألة الكسب الأشعرية، والمسائل الخلافية بين الشيعة والسنة، كالامامة والعصمة وسواها. يناقش كل ذلك بدقة وعمق ووضوح.

ويمتاز أيضاً أنه قد ضم بين دفتيه موضوعات فلسفية وكلامية وأدبية

وفقهية، وتاريخية وتفسيرية، وغير ذلك من حكم ومواعظ وتعاليم. أتى عليها بروح عالم يقدر المسؤلية، وذي طبيعة ثقافية جياشة، وباحساس المفكر العالم الذي يريد للمعرفة أن تشمل، وللحقيقة أن تبرز، وللباطل أن يزهق.

انه مجموعة من مواضيع شتى علمية وفلسفية وغيرها، لا يكتفي بعرضها عرضاً عابراً، بل يحرص على تقريرها ونقدها، وعلى بيان ما فيها من صحة وفساد.

وقد كان هناك مفكرون وضعوا مجاميع سبقت عصر الكراجكي أو تأخرت عنه، كتلك المؤلفات التي تعرف بالأمالي، أو التي تعرف (بالكشكول) في العصور المتأخرة عن الكراجكي ،لكنها لم ترتفع إلى مستوى هذا الكتاب (كنز الفوائد) لأن غالبها ذو لون واحد، وذو إتجاهات معينة، فبعضها كان الغالب عليه التاريخ، وبعضها كان فقهياً، وبعضها كان أدبياً، وبعضها الآخر جمع بين هذا وهذا، إلا أنه كان الغالب فيها السرد والغرض دون مناقشة علمية أو بحث موضوعي.

وميزة أسلوب الكراجكي في هذا الكتاب اسلوب تعليمي، ومن هنا تجده يسهبأحياناً كثيرة في بيان ما يريد وفي مقام النقد والمناقشة.

وإن كثيراً من آرائه هي آراء شخصية خاصة به، لا تمثل الوجهة الشيعية بصورة واضحة وبخاصة تلك المواضع الكثيرة التي تختلف فيها وجهات النظر والإجتهاد، كما في كثير من تفسير الآيات والأحاديث.

كما أن كثيراً مما يرويه لا يمكن الإعتماد عليه,وبخاصة فيما يتعلق بالخوارق، ولكن الرجل ناقل عن غيره (وناقل الكفر ليس بكافر) كما يقال.

وهذا الكتاب يعكس اهتمامات العلماء والمفكرين في المسائل المطروحة في عصرهم، والتي أخذت كثيراً من جوانب تفكيرهم، وكانت محور نزاعاتهم ومناظراتهم.

وقد ضمن المؤلف كتابه (كنز الفوائد) بعض رسائله، فأدرجها فيه، من ذلك:

١- مختصر من الكلام في أن للحوادث أولاً.
٢- القول المبين عن وجوب المسح على الرجلين، وهي رسالة كتبها إلى أحد الأخوان.
٣- البيان عن جمل اعتقاد أهل الايمان، وهي رسالة كتبها إلى أحد الاخوان.
٤- كتاب الإعلام بحقيقة إسلام أمير المؤمنين عليه السلام، كتبه لبعض الإخوان.
٥- المقدمات في صناعة الكلام.
٦- رسالة في وجوب الإمامة، كتبها لبعض الاخوان.
٧- مختصر التذكرة بأصول الفقه، استخرجها لبعض الاخوان من كتاب استاذه الشيخ المفيد.
٨- البرهان على صحة طول عمر صاحب الزمان، كتبها سنة ٤٢٧.
٩- الرد على الغلاة.
١٠- رسالة في جوابه عن سؤال ورد إليه عن الحج.

* * * *

لقد كانت النسخة المطبوعة سنة ١٣٢٢ سقيمة جداً، وكثير من الكلمات فيها غير واضح، لكن حافظت على نص كلام المؤلف كما هو بقدر الإمكان، إلا في المواضع غير الواضحة، فصححتها ووضعتها بين قوسين، وإلا في المواضع التي لم يتضح المراد منها، فوضعت مكانها ثلاث نقط.

ونجد شطراً كبيراً من مؤلفاته قد وضعه بطلب من بعض شخصيات عصره، من علماء وأمراء وقضاة وغيرهم في مواضيع فقهية وغيرها.

فقد ألف للأمير ناصر الدولة بدمشق، الرسالة الناصرية في عمل ليلة الجمعة ويومها، وكتاب تسلية الرؤساء.

وألف للأمير صارم الدولة ذي الرئاستين بطبرية (المنسك العضبي) و (المنسك اللطيف في مناسك النسوان)، و (المنهاج إلى معرفة مناسك الحاج) و

(الزاهد في آداب الملوك)، و (المجالس في مقدمات صناعة الكلام) لم يتم.

وألف للشيخ الجليل ابي الكتائب أحمد بن محمد بن عمار بطرابلس، نهج البيان في مناسك النسوان، بِطلبٍ منه، وعدة البصير (أو المصير) في حجج يوم القدير.

وألف للشيخ الأجل أبي الفرج البابلي، كتاب (إذكار الأخوان بوجوب حق الإيمان).

وألف للقاضي أبي طالب عبد الله بن محمد بن عمار، كتاب (البستان في الفقه) والرسالة العلوية في تفضيل أمير المؤمنين على سائر البرية سوى الرسول (ص).

وألف للقاضي أبي الفتح عبد الحاكم، كتاب (الاستطراف فيما ورد في الفقه من الأنصاف).

وألف بالقاهرة للشيخ أبي اليقظان، كتاب (نصيحة الإخوان)، ومختصر القول في معرفة النبي (ص) بالكتابة وسائر اللغات.

وألف بالقاهرة أيضاً للعامري، الرسالة العامرية في الجواب عن مسألة سألت عنها الغلاة. وأمره بعملها الأمير قوام الدولة.

وألف بصيداء سنة ٤٤١ هـ بأمر الأمير ذخر الدولة، (كتاب الإيضاح عن أحكام النكاح) في جزء واحد، يحرر فيه الخلاف بين الإمامية والإسماعيلية.

وألف للقائد أبي البقاء فرز بن براك بسؤالٍ منه كتاب المقنع للحاج والزائر.

ونجد إلى جانب ذلك أن فهرست مؤلفاته قد اشتمل على مؤلفات وضعها في الرد على المخالفين، من ذلك:

١ - ردع الجاهل وتنبيه الغافل، وهو نقض كلام أبي المحاسن المعري الذي نقض به على الشريف المرتضى في المسح على الرجلين في مسألة الوضوء، ألفه بطرابلس.

٢ - نقض رسالة فردان المروزي في الجزء، وهي المسألة الفلسفية في قضية الجزء الذي لا يتجزأ.

٣- غاية الانصاف في مسائل الخلاف، وهو نقض على أبي الصلاح الحلبي من فقهاء الشيعة في مسائل خلافية بينه وبين الشريف المرتضى، نصر فيها رأي المرتضى.

٤- دامغة النصاري، وهي رد كلام أبي الهيثم النصراني فيما رامه من تثبيت الثالوث والإتحاد.

٥- جواب رسالة الأخوين، في الرد على الأشعرية وفساد أقوالهم وطعنهم على الشيعة.

٦- الإنتقام ممن عذل أمير المؤمنين (ع)، وهو النقض على ابن شاذان الأشعري فيما أورده في آية الغار.

٧- جواب الرسالة الحازمية في إبطال العدد وتثبيت الرؤية، وهي رد على أبي الحسن بن أبي حازم المصري.

٨- التنبيه على أغلاط أبي الحسن البصري في فصلٍ ذكره في الامامة.

٩- رسالة في الرد على الغلاة.

١٠- رسالة في الرد على المنجمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين فإنه خير معين

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد رسوله خاتم النبيين وآله الطاهرين.

« مختصر من الكلام في أن للحوادث أولاً »

إعلم- أيدك الله- أن من الملحدة فريقاً يثبتون الحوادث ومحدِثَها، ويقولون إنه لا أولَ لوجودها، ولا إبتداء لها.

ويزعمون أن الله سبحانه لم يزل يفعل ولا يزال كذلك، وأن أفعاله لا أول لها ولا آخر. فقد خالفونا في قولهم أن الأفعال لا أول لها. إذ كنا نعتقد أن الله تعالى ابتدأها، وأنه موجود قبلها. ووافقونا بقولهم: لا آخر لها، لأنهم وإن ذهبوا إلى بقاء الدنيا على ما هي عليه، واستمرار الأفعال فيها، وأنه لا آخر لها، فإنا نذهب في دوام الأفعال إلى وجهٍ آخر، وهو تقضيٌّ أمر الدنيا، وانتقال الحكم إلى الآخرة، واستمرار الأفعال فيها، من نعيم الجنة الذي لا ينقطع عن أهلها، وعذاب النار الذي لا ينقضي عن المخلدين فيها[1]. فأفعال الله عز وجل من هذا الوجه لا آخر لها.

---

(١) وذهب الجهم بن صفوان المقتول في تستر في أواخر حكم بني أمية قتله سالم بن أحوز المازني، ذهب إلى القول بأن حركات أهل الخلدين (الجنة والنار) تنمطع، والجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلها فيها، وتلذذ أهل الجنة بنعيمها وتألم أهل النار بجحيمها، متعللاً بأنه لا يتصور حركات لا تتناهى آخراً كما لا تتصور حركات لا تتناهى أولاً، وحمل ما دل على التخليد في كلام الله على المبالغة والتأكيد دون الحقيقة، ومستشهداً بقوله تعالى (خالدين فيها ما دامت =

وهؤلاء - أيدَّك اللهُ- هم الدهرية القائلون: بأن الدهر سرمديَّة لا أول له ولا آخر. وأن كل حركةٍ تحرك بها الفلك فقد تحرك قبلها بحركةٍ من غير نهاية، وسيتحرك بعدُ بحركةٍ بعدها حركة لا إلى غايةٍ. وأنه لا يوم إلا وقد كان قبله ليلة، ولا ليلة إلا وقد كان قبلها يوم، ولا إنسان إلا أن يكون من نطفةٍ، ولا نطفة تكوَّنت إلا من إنسان، ولا طائر إلا من بيضةٍ، ولا بيضة إلا من طائر، ولا شجرة إلا من حبةٍ، ولا حبة إلا من شجرة.

وأن هذه الحوادث لم تزل تتعاقب ولا تزال كذلك، ليس للماضي فيها بداية، ولا للمستقبل فيها نهاية. وهي مع ذلك صنعة لصانع، لم يتقدمها، وحكمة من لم يوجد قبلها، وأن الصنعة والصانع قديمان لم يزالا[1]. تعالى الله الذي لا قديم سواه، وله الحمد على ما أسداه، من معرفة الحق وأولاه.

وأنا بعون الله أُورد لك طرفاً من الأدلة على بطلان ما ادعاه الملحدون، وفساد ما تخيَّله الدهريون.

= السموات والأرض إلا ما شاء ربك) ووافقه على انقطاع حركات أهل الخلدين كل من أبي الهذيل العلاف وإبراهيم النظام من المعتزلة.

وقد فات هؤلاء أن حركات أهل الخلدين ليست لذاتها ولنفسها، وإنما بقاؤها بالعرض تابع لوجود المبقي وهو الله الحي الباقي.

وزاد أبو الهذيل والنظام على ذلك أن أهل الخلدين بصيرون إلى سكون دائم جموداً وتجتمع اللذات في ذلك السكون لأهل الجنة، وتجمع الآلام في ذلك السكون لأهل النار.

كل ذلك فراراً من وجود حوادث لا آخر لها كوجود حوادث لا أول لها، إذ كل منهما لا يتناهى.

وقد فاتها أن السكون كالحركة يلزم منه ما فرا مما يلزمها في الحركة، وبخاصة أنه أحد الأكوان الأربعة.

ولهشام بن الحكم مناظرة طريفة مع أبي اسحاق النظام حول هذه المسألة، لم يحر النظام معه جواباً. ذكرناها في كتابنا (هشام بن الحكم) أنظر ص٢١٥- ٢١٦.

(١) وهذا الرأي منسوب إلى كثير من الفلاسفة الإسلاميين كأبي بكر محمد بن زكريا الرازي الفيلسوف والطبيب المشهور المولود عام (٣١١هـ).

وخلاصة هذا الرأي ان الصانع متقدم على الصنعة رتبةً لا زماناً، كتقدم العلة على المعلول الذي لا يتخلف عن علته الموجبة وقد ترجمنا له في كتابنا (فلاسفة الشيعة)، وعرضنا فيه لرأيه في هذا الموضوع بدراسة وافية.

دليل

مما يدل على أن الحوادث الماضية لا بدَّ لها من أول، أننا في كل وقتٍ من أوقات زماننا، بين آخر ما فيها، وأول مستقبلها. فقد علمنا - لا محالة - آخر ما مضى، وهو أحد طرفيه.

ثم نحن نعلم علماً لا نشك فيه أن ما يأتي من مستقبل الحوادث إلى ماية سنة، يُكَثِّر عدد الماضي، ويزيد فيه.

فمعلوم أنه قبل الزيادة أقل عدداً منه إذا انضمت (أي الزيادة) إليه.

وهذا يدل على تناهي عدد ما مضى، وحصر طرفيه. لأنه لو كان لا نهاية له، لم تتصور العقولُ دخولَ التكثُّرِ فيه.

وقد صح بما بيناه أن الحوادث الماضية تصير إلى ماية سنة أكثر عدداً مما هي اليوم عليه[1].

فبان بهذا تناهيها، وصح أولها كما صح آخرها، ويبطل مقال الدهرية فيها.

معارضة

وقد قال الملحدون إن جميع ما ذكرتموه في الماضي عائد عليكم في المستقبل، لأنكم تقولون: أن أفعال الله تعالى المستقبلة لا آخر لها، ومع هذا فقد علمتم أولها، وهو أحد طرفيها، فيجب أن يكون ما يوجد إلى ماية سنة ينقص منها. وإذا دخل النقصان فيها دَلَّ على تناهيها وإنحصار طرفيها.

انفصال

فيقال لهم: بين الماضي والمستقبل في ذلك فرق وهو أن الحوادث الماضية ليس منها إلا ما كان موجوداً قبل مضيه، فقد شمل جميعها حكم الوجود، فوجب أن يزيد فيها كلُ ما يخرج إلى الوجود.

وليس المستقبل كذلك، لأنها لم توجد، وإنما هي في إمكان الفاعل. فلا يصح فيها النقض، ولا سبيل إلى القول فيها بالتناهي.

---

(١) يعني به اليوم الذي افترضه.

دليل آخر على تناهي ما مضى

وهو أنه قد مضت أيام وليالٍ، ووقفنا اليومَ عند آخرها، فلا يخلوا: أن تكون الأيام أكثر عدداً من الليالي، أو يكون الليالي أكثر من الأيام، أو يكونا في العدد سواء.

فإن كانت الأيام أكثر من الليالي تناهت الليالي، لأنها أقل منها، واقتضى ذلك تناهي الأيام أيضاً. لبطلان إتصالها قبل الليالي بغير ليالٍ بينها. فوجب على هذا الوجه تناهيها معاً.

وإن كانت الليالي أكثر من الأيام كان الحكم فيها نظير ما قدمنا من تناهي الأوَل، فتناهي الأيام لزيادة الليالي عليها. ويقتضي ذلك تناهي الليالي أيضاً، لفساد اتصالها قبل الأيام بغيز أيامٍ بينها. فوجب على هذا الوجه الآخر تناهيها معاً.

وإن كانت الأيام والليالي في العدد سواءً، كان بمجموعها أكثر عدداً من أحدها بانفراده.

وهذا يشهد بتناهيها. إذ لو كان كل واحدٍ منها في نفسه غير متناهٍ ما تصورت العقول عدداً أكثر منه.

وقد علمنا أن الليالي مع الأيام جميعاً أكثر عدداً من أحدها، وهذا موضح عن تناهيها.

وبهذا الدليل نعلم أيضاً تناهي جميع ما مضى من الحركات والسكنات، ومن الإجتماعات والإفتراقات، ومن الطيور والبيض، والشجر والحب، وما يجري مجرى ذلك.

معارضة

قال الملحدون هذا الكلام عائد عليكم في نعيم المؤمنين في الجنة، وعذاب الكافرين في النار. وقد زعمتم (أن) كل واحدٍ منها لا نهاية له، ولستم تذهبون إلى أن أحدها أكثر من الآخر، فنخاطبكم بما ذكرتم ولكن نقول لكم: أنها بمجموعها أكثر عدداً من أحدها. وهذا يوجب تناهيها جميعاً وحصرها.

إنفصال

يقال لهم: هذا الذي ذكرتموه لا يصح في المستقبلات، وهو لازم لكم في الماضيات. لأن الأعداد إذا يضم بعضها إلى بعض بعد وجودها وحصرها، وعدد الليل والنهار الماضيات فقد وجدا وانحصرا بالفراغ منها، والوقوف عند آخرها. فصح ضم بعضها إلى بعض، وأمكن ما ذكرنا فيها.

والمستقبلات من نعيم أهل الجنة وعذاب أَهل النار، فأمور متوقعة لم توجد، وليس لها آخر، لأنها تكون دائمة بغير انقضاء. وما لم يوجد من العدد فلا يصح فيه ضم بعض إلى بعض. وما يتوقع حدوثه أبداً بغير نهاية لا يكون مثل ما قد حدث وكان وتناهَى، بادراك آخره في كل حال.

دليل آخر

ومما يدل على أن للأفعال الماضية أولاً، كونُها ووجودها، ولو لم يكن لها أول، ما صح وجودها، لأنها كالعدد الذي لا يصح أن يتوالى إلا أن يكون له أول. إما واحداً، أو جملةً يبتدىء بها، تقوم مقام الواحد.

إنفصال[1]

قيل لهم لا يجب ذلك من قبَل أن المستقبل منوط بقدرة القادر، والعادُّ يصح منه أَن يَعُدَّ ما دام حياً، فإذا كان ليس لوجوده آخر صح أن ليس لعدِّه آخر. ومع ذلك فلا بد من أن يكون لعدده أول.

دليل آخر

ومما يدل على أَن الأَفعال لا يصح وجودها إلا بعد أن يبتدىء بأَولها، أنه لو قيل لرجل: لا تدخلن داراً حتى تدخل قبلها غيرها، لم يصح منه دخول شيءٍ من الدور أَبداً، ولم يمكن ذلك إلا بأن يبتدىء بواحدةٍ منها.

---

(١) ورد هذا الإنفصال أو الجواب من دون أن يذكر الإعتراض، وهو على الأرجح سقط من قلم الناسخ.

سؤال

فإن قالوا: هذا يستحيل كما ذكرتم في المستقبل من الأفعال، لأنه لا بد للمستقبلات من أول، فمن أين لكم أن هذا حكم الماضيات؟

جواب

قيل لهم: علمنا ذلك من قِبَل أن الماضيات قد كانت مستقبلة قبل وجودها ومضيها، فلو لم يكن لها أول ما صح وجودها.

وبعد فلو رأينا هذا الرجل الذي مثلنا به وهو يدخل داراً بعد دار، فقلنا له: هل كان بعد دخولك هذه الدور ابتداء، حتى يقول لنا لم ابتدأ بدار منها، ولا دخلت داراً حتى دخلت قبلها دوراً لا تتناهى، فعلمنا أنه كاذب فيما ادَّعى.

دليل آخر

ومما يدل على تناهي الأفعال الماضية وانحصارها وصحة طرفيها، خروجُها إلى الوجود على كمالها وفراغ فاعلها منها، وكل شيء فعله الفاعل فقد يتوهم منه أن يفعل أمثاله. وهذا وجه صحيح يدل على تناهيها وانحصار طرفيها، لجواز وجود أكثر منها.

معارضة

وقد قال الملحدة: هذا راجع عليكم في نعيم أهل الجنة، لأن الله تعالى يقدر على أمثاله، فيتناهى بوجود أكثر منه.

إنفصال

فيقال لهم: ومتى صحت المماثلة بين الموضعين؟ والأفعال الماضية قد خرج جميعها إلى الوجود.

ونعيم أهل الجنة ليس له جميع يخرج إلى الوجود، وإنما يوجد شيء من غير أن يوقف له على وجهٍ آخر من الوجوه.

فإن قالوا: فقد لزمكم على هذا أن يكون الله تعالى وعد أهل الجنة بنعيم لا يصلون إلى جميعه، ولا ينالون سائره.

قيل لهم: قد أعلمناكم أنه لا جميع له في الحقيقة ولا سائره إذ ليس له (آخر)[1]. والذي وعدهم الله به هو نعيم متصل غير منقطع، فلو وجد حتى لا يبقى منه شيء يُنتظر ،لكان في الحقيقة لم يَفِ لهم بما وعده.

فإن قالوا: إن الأفعال الماضية أيضاً لا كُلَّ لها في الحقيقة، لاستحالة حصرها.

قيل لهم: ولِمَ زعمتم ذلك؟ وقد سلمتم لنا أنها قد دخلت في باب الوجود عن آخرها، واشتمل الحدوث عليها.

مسألة على الملحدة

يقال لهم: أخبرونا عن الشمس، أليس لم تتحرك بحركةٍ حتى تحركت قبلها بحركات لا نهاية لها؟

فإن قالوا: بلى. قِيل لهم: فإذا جاز أن تفرغ الحركات التي لا نهاية لها، وتحركت الشمس بها كلها حتى تنتهي إلى آخرها. فألاَّ جاز أن تتحرك بالحركات المستقبلة كلها حتى تفرغ منها، وتقف عند آخرها، ولا يبقى مستقبل بعدها.

فإن قالوا: إن المستقبلات لا كُلَّ في الحقيقة لها.

أجابوا بمثل قولنا. ثم لم ينفعهم ذلك فيا سألنا، لأن الفراغ مما لا نهاية له قد صح عندهم، وهو غير صحيح عندنا، إذ يلزمهم تقضيٌّ المستقبلات حتى توقف عند آخرها.

فإن قالوا: إن الشمس تتحرك بحركةٍ واحدةٍ باقية دائمة. قيل لهم: إنه ليس يلزمنا قبول ما لا طريق إلى فهمه، ولا سبيل لمدعيه إلى إثبات علمه. وهذا الذي زعمتموه دعوى عارية من برهان.

وبعد فإنا إذا لم ننازعكم في ذلك نسألكم:

فنقول: ألستم معترفين بأن الشمس قد دارت الفلك قبل هذه الدورة التي هي فيها دوراتٍ لا نهاية لها؟

---

(١) في الأصل (أخرى).

فلا بد لهم من الأقرار بذلك، فيقال لهم: فقد عاد الأمر إلى الفراغ مما لا نهاية له. فما أنكرتم أن تنقضيَ دوراتها المستقبلة التي تقولون أنها لا نهاية لها، ويفرغ منها حتى يقف عند آخرها كما فرغت فيما مضى، وهي الآن في آخره؟

فإن قالوا: هذا مستحيل في المستقبل، وهو صحيح في الماضي.

قيل لهم: بنظير الكلام المتقدم، وهو أن الماضي قد كان مستقبلاً، فلو استحال أن يصير المستقبل ماضياً، لاستحال في الماضي، لأنه قد كان مستقبلاً.

مسألة أُخرى عليهم

يقال لهم: أيجوز أن تدور الشمس في المستقبل دورات بعد الدورات الماضية أم لا يجوز ذلك؟

فإن قالوا: غير جائز، قيل لهم: لِمَ زعمتم ذلك؟ وعندكم أنها تدور في المستقبل دورات لا نهاية لعددها، أفليس في ذلك ما يفي بما قد مضى؟

فإن قالوا: لا يفي به، جعلوا الماضي أكثر من المستقبل، وأوجبوا تناهي المستقبل.

وإن قالوا: إن الشمس ستدور دورات يفي عددها بما مضى، أوجبوا تناهي ما مضى. وقيل لهم: أفيبقى من المستقبل بعد ذلك بقية؟

فإن قالوا: لا، أقروا بوجود الأول والآخر، وأوجبوا تناهي الزمان من طرفيه، وجعلوا له لدورات الشمس بداية ونهاية، وهو خلاف ما ذهبوا إليه.

وإن قالوا إنه ستدور دورات يفي بما مضى، ويبقى من المستقبل ما لا نهاية له أيضاً. لم يبق شبهة في تناهي الماضي، وصح أوله، وبطل مذهبهم في قدمه والحمد لله.

دليل آخر على أن للأفعال الماضية أُولاً [1]

مما يدل على ذلك أنه قد ثبت أن كل واحدٍ منها محدث كائن بعد أن لم يكن، ولها محدِث متقدم عليها، فوجب أن تكون جميعها محدثة كائنة بعد أن لم

---

(١) وهذا الدليل من أوضح الأدلة وأرسخها في الموضوع.

تكن، ولها محدث متقدم عليها، لأن جميعها هو مجتمع آحادها، ولا يصح أن يختلف في الجمع والتفريق هذا الحكم فيها.

كما أن كل واحد من الزنج بانفراده أسود فالجميع باجتماعهم سود. والحكم في ذلك واحد في الجمع والتفريق.

وقد اجتمع معنا على أن جميعها أفعال الفاعل، وصنعة الصانع، والعقول تشهد بوجوب تقدم الفاعل على أفعاله، وسبق الصانع لصنعته وليس يخالف في ذلك إلا مكابر لعقله.

واعلم أن الملحدة لما لم تجد حيلةً تدفع بها تقدم الصانع على الصنعة. قالت انه متقدم عليها تقدمَ رتبة لا تقدمَ زمان، فيجب أن نطالبهم بمعنى تقدم الرتبة ليوضحوه، فيكون الكلام بحسبه.

وقد سمعنا قوماً منهم يقولون: إن معنى ذلك أنه الفعال فيها، والمدبر لها.

فسألناهم. هل ذلك يدافع عنها حقيقة الحدوث، فعادوا إلى الكلام الأول، من أن كل واحدٍ من أجزاء الصنعة محدث.

فأعدنا عليهم ما سلف، حتى لزمهم الأقرار بحدوث الكل. وطالبناهم بحقيقة المحدث والقديم، فلم يجدوا مهرباً من أن التقدم والقديم في الوجود على المحدث، هو التقدم المفهوم المعلوم، الذي يكون أحدهما موجوداً والآخر معدوماً.

وليس أيضاً من شرط التقدم والتأخر في الوجود أن يكون ذلك في زمان. والله تعالى متقدم على جميع الأفعال.

وليس أيضاً من شرط التقدم والتأخر في الوجود أن يكون ذلك في زمان، لأن الزمان نفسه قد يتقدم بعضه على بعض، ولا يقال إن ذلك مقتضٍ لزمان آخر.

والكلام في هذا الموضع جليل، ومن الحق[1] فيه سقطت عنه شُبه كثيرة.

---

(١) كذا في النسخة.

وقد كنت اجتمعت في الرملة برجلٍ عجمي، يعرف (بأبي سعيد البرذعي)[1]، وكان يحفظ شُبَهاً في هذا الباب. وكنت كثيراً ما أكلمه، واستظهر باثبات الحجة عليه. فأورد عليَّ شُبهةً، كانت أكبر مما في يديه، وتكلمت عليها بكلام لم أقنع به فأحكيه.

ثم إني كتبت كتاباً إلى بغداد، إلى حضرة سيدنا الشريف المرتضى ذي المجدين رضي الله عنه.[2] وذكرت الشبهة فيه، فورد إليَّ جوابه عنها.

فأنا أذكر الشبهة والجواب وما وجدته بعد ذلك من الكلام في هذا الباب.

الشبهة

قال الملحد مستدلاً على أن الصانع لم يتقدم الصنعة: إني وجدت ظاهرها لا يخلو من ثلاث خصال: إما أن تتقدم الصنعة عليه، أو أن تتأخر عنه، أو أن يكونا في الوجود سواءً.

وقد فسد باتفاقٍ تقدمها عليه.

---

(١) ورد ذكر البرذعي في بعض رسائل حمزة بن علي الزوزني الذي يعتبر مؤسس المذهب الدرزي به يبدأ تاريخ الدروز سنة ٤٠٨هـ أقول ورد ذكر البرذعي في رسالة حمزة السادسة عشرة سنة ٤٠٨هـ والرسالة التاسعة عشرة وغيرها بإسم أبي منصور البرذعي لا أبي سعيد كما ذكره المصنف وقد يكون أبو سعيد البرذعي الذي لقبه الكراجكي هو نفس أبي منصور البرذعي الوارد ذكره في رسائل حمزة بن علي.

(٢) هو أبو القاسم علي بن أبي أحمد الحسين بن موسى الموسوي المعروف بعلم الهدى، أكبر شخصية شيعية في القرن الرابع الهجري، بالعلم والفقه والآثار والكلام والأدب والشعر وغيرها.

كان فقيهاً انتهت إليه زعامة الإمامية في عصره، كما كان أحد أعمدة علم الكلام والفلسفة الإسلامية، والأدب والشعر واشتهر بعلم النجوم، وبرز في غير ذلك من جوانب المعرفة والفكر.

وكان حادقاً في المناظرة والجدل، حاجَّ النظراء والمتكلمين، وناظر العلماء والمخالفين، وقد عده ابن الأثير من مجددي مذهب الإمامية في رأس المئة الرابعة. وتعتبر آراء الشريف المرتضى وآثاره سجلاً كاملاً لآراء الشيعية الإمامية وأقوالهم، وفي كتبه حفظت عقائدهم وآراؤهم الإسلامية. وله مؤلفات عديدة أبرزها من المطبوع: الشافي والإمالي وتنزيه الأنبياء، وهو من تلاميذ الشيخ المفيد. ولد في رجب سنة ٣٥٥هـ وتوفي ربيع الأول سنة ٤٣٦هـ وله في كتابنا (فلاسفة الشيعة) ترجمة بدراسة وإسهاب.

قال: ويفسد أيضاً تقدمه عليها. إذ كان لا يخلو من أن يكون تقدمه بمدة محصورة وتقدير أوقات متناهية، أو بمدةٍ غير محدودة وتقدير أوقات غير محصورة.

قال: وإن [كان] تقدمها بمدةٍ لا تحد، وتقدير أوقات لا تتناهي وتحصر، فلا آخر متناهٍ، وله أول وآخر. فكما أن آخره حدوث الصنعة، فكذلك أوله حدوث الصانع. ونعوذ بالله من القول بذلك.

قال: وإن [كان] تقدمها بمدةٍ لا تحد، وتقدير أوقات لا تتناهى وتحصر، فلا آخر لهذه المدة، كما لا أول لها. وإذا لم يكن لها آخر فقد بطل حدوث الصنعة[1].

وإن نفيتم الأوقات والأزمان التي يصح هذا فيها فإنه لا يمكنكم إنكار تقديرها. وفي التقدير يلزم هذا هنا.

قال: فهذا دليل على أن الصنعة والصانع قديمان لم يزالا.

و«الجواب» قاله الشريف المرتضى رحمه الله

أما الصانع من حيث كان صانعاً فلا بد من تقدمه على صنعته، سواء أكان قديماً أو محدثاً. لأن تقدم الفاعل على فعله حكمٌ، يجب له من حيث كان فاعلاً.

ويستوى في هذا الحكم الفاعل القديم والفاعل المحدث. غير أن الصانع القديم يجب أن يتقدم صنعته بما إذا قدرناه أوقاتاً وأزماناً كانت غير متناهية ولا محصورة.

ولا يجب هذا في الصانع المحدَث، بل يتقدم الصانع من المحدَثين صنعته بالزمان الواحد والأزمان المتناهية المحصورة.

والذي يدل على أن الصانع لا بد من أن يتقدم صنعته ويستوى في هذا الحكم القديم والمحدَث. أنه لو لم يتقدم عليها لم تكن فعلاً له وحادثةً به، لأن من

---

(١) لأنه ان كان الصانع متقدماً على الصنعة بمدة غير متناهية، فلا يمكن والحال هذه أن يكون لها آخر، كما لا يمكن حدوث الصنعة، لأن حدوثها يعني تناهي المدة التي فرض عدم تناهيها، وهذا خلف.

شأن الفاعل أَن يكون قادراً، ولا يقدر على الموجود، لأَن وجوده يُغني عن تعلق القدرة به. فهذا يدل على استحالة مصاحبة الفاعل لفعله.

فأَما تقدم الفعل على فاعله فأظهر فساداً، لأَن المؤثر في وجود الفعل وحدوثه كونُ فاعله قادراً. فكيف يتقدم المؤثر فيه على المؤثِر.

وأَما تقدم الصانع القديم تعالى على صنعته فيجب أن يكون غير محصور الأَوقات. وإنما وجب ذلك فيه ولم يجب في الصانع المحدث، لكونه قديماً. لأنه لو كان بين القديم والمحدَث أَوقات متناهية لخرج من أَن يكون قديماً ودخل في أَن يكون محدثاً. لأن من شأن القديم أن لا يكون بوجوده إبتداء. وتناهي ما بينه وبين الأَوقات وبين المحدَث يقتضي أن يكون بوجوده أَول وابتداء.

فأما ما تضمنه السؤال من التقسيم والتعديل في إفساد تقدم الصنعة على الصانع على الإتفاق على ذلك، فغير صحيح، لأَن مثل هذا لا يعول فيه على الإتفاق، بل لا بد أن يعين طريق العلم: إما من ضرورة، أو استدلال. وقد بينا ما يدل على أَن الصنعة لا تتقدم الصانع.

فأَما ما مضى من السؤال من إلزام نفي التناهي والآخر عن المدة التي تكون بين الصانع والصنعة كما نفى عنها الابتداء والتناهي من قبَل أولها، فغير صحيح ولا لازم. لأَنا قد بينا أَنا متى جعلنا بين الصانع القديم وصنعته مدةً متناهية الإبتداء محصورة، لحق القديم بالمحدَث، وخرج من أَن يكون قديماً.

وإذا جعلناها[1] محصورة الإنتهاء لم يجب ذلك فيها، ولا أَدّى إلى ما قد علمنا فساده من كون القديم محدثاً، ولا إلى غيره من ضروب الفساد. فلم يلزم نفي الآخر عن المدة قياساً على نفي الأَول.

وقد بيّن شيوخ أَهل العدل[2] في كتبهم الفرقَ بين هذين الأَمرين، وقالوا:

---

(١) الظاهر سقوط كلمة (غير) هنا، إذ لا يتم المعنى بدونها فتكون الجملة هكذا: وإذا جعلناها غير محصورة الإنتهاء لم يجب ذلك فيها..

(٢) المراد بأهل العدل هم المعتزلة والإمامية الذين يقولون باستحالة صدور الظلم والمنافي منه سبحانه، إما لعدم قدرته عليه كما يقوله المعتزلة أو أكثرهم، وإما لقبح صدوره عنه عقلاً مع قدرته عليه كما يقوله الإمامية.

من المستحيل إثبات فاعلٍ لم[1] يزل فاعلاً، وليس بمنكرٍ ولا مستحيل إثبات فاعلٍ لا يزال فاعلاً، وبينوا أن نفي التناهي والإبتداء عن الأفعال من قِبَل أولها يخرجها من أن تكون أفعالاً. وليس نفي التناهي عنها من قِبَلِ آخرها يخرجها من أن تكون أفعالاً.

وذكروا أن نعيم أهل الجنة وعقاب أهل النار دائمان، لا إنقطاع لهما ولا آخر، ولم يؤدِ ذلك إلى المحال والفساد ما أدّى إليه نفي التناهي عن الأفعال من قبَلِ أولها.

وقالوا: ليس بمنكر أن يدخل داخل داراً بعد دارٍ أبداً بغير انقطاع.

ومن المستحيل المنكر أن يدخل داراً قبل دارٍ أبداً بلا أول.

وقد استقصينا نحن هذا الكلام في مواضع كثيرة من كتبنا، وذكرناه في «الملخص»[2] وغيره من أجوبة المسائل والنقوض على المخالفين.

وأما ما تضمنه السؤال من أن هذا يدل على أن الصنعة والصانع قديمان لم يزالا، فمناقضة ظاهرة، لأن وصف المتصف بالقدم ينقض كونه صفة، كما أن وصف القديم بأنه مصنوع ينقض كونه قديماً.

وهل هذا إلا تصريح بأن المحدَث قديم، والقديم محدَث. ولإخفاء بفساد ذلك.

وهل آخر الجواب الوارد إليّ من حضرة السيد الشريف المرتضى رضي الله عنه عن هذه الشبهة.

وجميع ما تضمنه من إطلاق القول بأن بين القديم وأول المحدَثات أوقات لا

---

(١) ويفهم من هذه العبارة أن كون الفاعل مرتبطاً بما يصدر عنه من أفعال، فإذا كان الفاعل فاعلاً منذ الأزل كانت أفعاله منذ الإبتداء قديمة معه وتخرج عن كونها أفعالاً محدثة، لذلك يستحيل كونها قديمة وبالتالي استحالة أن يكون الفاعل لم يزل فاعلاً. على خلاف اثبات فاعل لا يزال فاعلاً من حيث الآخر إلى غير نهاية فلا استحالة إذ لا يخرجها ذلك عن كونها أفعالاً. وهذا يتضح من قوله: وبينوا أن نفي التناهي الخ).

(٢) هو كتاب للشريف المرتضى في الأصول، ذكره الشيخ أبو جعفر الطوسي، والنجاشي، وابن شهر أشوب.

أول لها، فإنما المراد به تقدير أوقات، دون أن يكون القصد أوقاتاً في الحقيقة، لأن الأوقات أفعال.

فقد ثبت أن للأفعال أولاً، فلو قلنا أن بين القديم وأول الأفعال أوقاتاً في الحقيقة لَناقضناه ودخلنا في مذهب خصمنا. نعوذ بالله من القول بهذا.

جواب آخر عن هذه الشبهة

وقد قال بعض أهل العلم: أنه لا ينبغي أن نقول بين القديم وبين المحدَث، لأن هذه اللفظة إنما تقع بين شيئين محدودين، والقديم لا أول له.

والواجب أن نقول: إن وجود القديم لم يكن عن عدم.

ونقول: إنه لو أمكن وجود حوادث بلا نهاية ولم يتناقض ذلك، لأمكن أن يفعلها حادثاً قبل حادثٍ لا إلى أول، فيكون قد وُجدت حوادث بلا نهاية.

ولسنا نريد بذلك أنه كان قبل أن فعل مدة، يزيد امتدادها، لأن هذا هو الحدوث والتجدد، وهو معنى الزمان والحركة.

فإن قال قائل: إنه لا يثبت في الأوهام إلا هذا الإمتداد.

قيل له: ليس يجب إذا ثبت في الوهم أن يكون صحيحاً.

أليس عندكم أنه ليس خارج العالم خلاء؟ وذلك غير متوهم.

ثم يقال لهم: أيثبت في الوهم ذلك؟ مع فرضكم نفي الحركات والتغييرات، أم مع فرضكم إثبات ذلك.

فإن قالوا: مع فرضنا إثبات ذلك قيل لهم: فيجب مع نفي ذلك أن لا يثبت هذا التوهم.

وإن قالوا: يثبت هذا التوهم مع فرضنا نفي ذلك.

قيل لهم: فقد ثبت في التوهم النقيضان، لأن هذا التوهم هو أن ينتقل ويمتد.

قال: ثم يقال أرأيتم لو قال لكم قائل: ليس يثبت في ذهني موجود ليس في

جهةٍ، فيجب أن يكون الباري عز وجل في جهةٍ، أليس يكون يمكن أن يقال: إنما يثبت ذلك في الوهم متى فرضتموه جسماً

وأما متى فرضتموه غير جسم ولا متحيز فإنه لا يثبت ذلك في الوهم، فهكذا يكون جوابنا لكم.

ثم قال هذا المتكلم:

فإن قالوا: فإذا لم تثبتوا مدةً مديدةً قبل الفعل فقد قلتم ان الباري سبحانه لم يتقدم فعله.

قيل: بل نقول إنه يتقدم على معنى أن وجوده قارن عدم فعله ثم قارن وجود فعله. وقولنا (ثم) يترتب[1] على عدم الفعل لا غير.

قال: ونقول إذا فعل الله سبحانه شيئاً، إنه يجوز أن يتقدم، على معنى أنه يفعله، فيكون بينه وبين يومنا من الحوادث أكثر مما هو الآن، وليس الكثرة والتقدم والتأخر راجعاً إلا إلى الحوادث دون مدةٍ يقع فيها.

ثم تكلم في نفي المدة فقال:

والذي يُبَيِّن أن تقدم الحركات وتأخرها يثبت من دون مدةٍ يقع فيها، أنه لا يخلو هذه المدة من أن يكون شيئاً واحداً، لاإمتداد فيه ولا ينقل من حال إلى حال. أو يكون فيه تَنَقُّل وامتداد.

والأول يقتضي إثبات الزمان على غير الوجه المعقول، ويقتضي أن تكون الأشياء غير متقدم بعضها على بعض، إذا كان بالأجل تقدمه وتأخره تتقدم الأشياء وتتأخر ليس فيه تقدم وتأخر.

فليت شعري أَثَبَتَ التقدم والتأخر بنفسه أم بغيره؟

إن كان يثبت فيه بغيره أدَّى إلى ما لا نهاية له. وإن كان ذلك الزمان متقدماً ومتأخراً بنفسه من غير أن يكون في شيءٍ متقدم ومتأخر، فهلا قيل ذلك في الحركات واستغنى عن معنى غيرها.

---

(١) لأن كلمة (ثم) من أدوات العطف مع ترتب مدخولها على ما قبلها ولا يلزم أن يكون ما قبلها أمراً وجودياً بل يكفي في صحة الترتب مقارنة مدخولها لما قبله وإن كان عدماً.

فصل وبيان

وهذه الطريقة التي حكيتها هي عندي قاطعة لمادة الشبهة، كافية في إثبات الحجة على المستدل وهي مطابقة لإختيار أبي القاسم البلخي.[1] لأنه لا يطلق[2] القول بأن بين القديم وأول المحدَثات مدة.

ويقول: إنه (أي الصانع تعالى) قبلها، بمعنى أنه كان موجوداً ثم وُجدت. وهو معنى ما ذكر هذا المتكلم في قوله: إن وجوده قارن عدم فعله ثم قارن وجود فعله، فهو على هذا الوجه قبل أفعاله.

واعلم- أيدَّك الله- أن العبارات في هذه المواضع تضيق عن المعاني، وتدعو الضرورة إلى النطق بما عُهد ووُجِدَ في الشاهد، وإن لم يكن المراد حقيقة في المتعارف، ويجوز ذلك إذا كان مؤدياً لحقيقة المعنى إلى النفس، كقولنا: قبل، وبعد، وكان، وثم. فليس المعهود في الشاهد استعمال هذه الألفاظ إلا في الأوقات والمدد.

فإذا قلنا ان الله تعالى كان قبل خلقه ثم أوجد خلقه، فلبس هذا التقديم والتأخير مفيداً لأوقات ومددٍ وقد يتقدم بعضها على بعض بأنفسها، من غير أن يكون لها أوقات أُخر.

وكذلك ما يطلق به اللفظ من قولنا: إن وجود الله قبل وجود خلقه. فليس الوجود في الحقيقة معنى غير الموجود. وإنما هو إتِّساع في القول، والمعنى مفهوم معقول.

وقد سأل أبو القاسم البلخي نفسَه، فقال:

إن قال قائل أخبرونا عن أول فعلٍ فعله الله تعالى، أكان من الجائز أن يفعل قبل غيره؟

---

(١) هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي البلخي توفي سنة (٣١٧هـ) وسو من زعماء المعتزلة وشيوخهم ورأس طائفةٍ منهم يقال لها الكعبية، وهو أستاد أبي جعفر محمد بن عبد الرحمن المتكلم الشيعي المعروف (بابن قبة). وللبلخي مؤلفات عديدة منها كتاب (عيّون المسائل والجوابات) ذكره المسعودي في مروج الذهب ج ص ١٥١. ولأبي الفاسم البلخي آراء كلامية تنقل عنه في كتب الكلام والفرق.

(٢) في الأصل (والقول) ويبـدو أن الواو فيها زائدة.

وأجاب عن ذلك فقال: هو جائزٌ، بمعنى أن يكون لم يفعله وفَعَل غيره بَدَله، وفعله هو. فأما غير ذلك فلا يجوز، لأنه يؤدي إلى المحال.

وفي هذا القدر كفاية في الكلام على الملحدة الدهرية والحمدلله.

مسألة في تأويل خبر

إن سأل سائل فقال: ما معنى قول النبي صلى الله عليه وآله في الخبر المروي عنه:

«لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»

الجواب

قيل له: الوجه في ذلك. أن الملحدين ومن نفى الصانع من العرب كانوا[1] ينسبون ما ينزل به من أفعال الله تعالى كالمرض والعافية والجدب، والخصب والفناء، إلى الدهر. جهلاً منهم بالصانع جلت عظمته، ويذمونه في كثير من الأحوال، من حيث اعتقدوا أنه الفاعل بهم هذه الأفعال، فنهاهم النبي (ص) عن ذلك، وقال لهم: لا تسبوا من فعل بكم هذه الأفعال، ممن يعتقدون أنه هو الدهر، فإن الله تعالى هو الفاعل لهذه الأفعال. وإنما قال إن الله هو الدهر من حيث نسبوا إلى الدهر أفعال الله تعالى.

وقد حكى الله تعالى عنهم قولهم:

«ما هي إلا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر». سورة الجاثية: ٢٤

وقال لبيد:[2]

---

(١) في الأصل (كما) واتساق الكلام يقتضي أن يكون كما ذكرنا.

(٢) هو لبيد بن ربيعة الشاعر الجاهلي المشهور الذي أدرك الإسلام وأسلم توفي سنة (٤٠هـ) و(٦٦٠م) وهو صاحب احدى المعلقات السبع التي أولها

عفت الديار محلها فمقامها ... بمنى تأبد غولها فرجامها

وله أمثال شعرية سائرة.

في قرومٍ سادةٍ من قومــــه		نظر الدهر إليهم وابتهـــــل

أي دعا عليهم.[1]

« قصيدة في الآداب والأمثال لإبن دريد »[2]

ما طاب فرع لا يطيب أصله		حمى مؤاخاة اللئيم فعله

وكل من آخى لئيماً مثله

من يشتكي الدهر يطل في الشكوى		فالدهر ما ليس عليه عدوى

مستشعر الحرص عظيم البلوى

مَن أَمِن الدهر أُتي من مأمنه		لا تستثر ذا لبدٍ[3] من مكمنه

وكل شيء يُبتغى من معدنه

لكل ناعٍ ذات يوم ناعي		وإنما السعي يقدر الساعي

قد يهلك المرعيَّ عنف الراعي

من يترك القصد تضق مذاهبه		دل على فعل امرىءٍ مصاحبه

لا تركب الأمر وأنت عائبه

من لزم التقوى استبان عدله		من ملك الصبر عليه عقله

نجا من العار وبان فضله

---

(١) تجد الكلام على ذلك في أمالي المرتضى ج(١) ص٤٥.

(٢) في الأصل (لابن دريده) وهو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (٢٢٣ - ٣٢١هـ) من مشاهير علماء الأدب واللغة والشعر، وهو شاعر، له ديوان شعر، وعده ابن شهراشوب من شعراء أهل البيت، وذكر من شعره قوله.

أهوى النبي محمداً ووصبه		وابنيه وابنته البتول الطاهرة

أهل الولاء فانني بولائهم		أرجو السلامة والنجا في الآخرة

وله مؤلفات عديدة منها كتاب الجمهرة في اللغة، وله مقاطيع محبوكة الطرفين، وقصيدة في المقصور والممدود، والمقصورة المشهورة التي تبلغ حوالي مائتي بيت، وهو أستاذ لجماعة من العلماء منهم أبو سعيد السيرافي وأبو عبدالله المرزباني، وقد مات هو وأبو هاشم الجبائي في يوم واحد، فقال الناس يموت ابن دريد وأبو هاشم. أنظر الفهرست ص٩١ - ٩٢ والأمل قسم (٢) ص٦٢.

(٣) صفة للأسد.

يجلو اليقـــينُ كـــدرَ الظنون والمرء في تقلـــــــب الشئون
حتى توفاه يد المنون

يـــــا رب حلوٍ سيعود سما ورب حمدٍ تحوز ذمـــــــا
ورب رَوح[1] سيصير هماً

من لم تصل فـارضَ إذ حباكاً وأولــــهِ حمداً إذا قلاكـــا
أو أوله منك الذي أولاكا

مالـــك إلا عليـــك مثلـــه لا تحمـدَّن المرء مـا لم تبلُـه
والمرء كالصورة لولا فعله

يـا ربمـا أدرئت اللجاجـة مـا ليس للمرء إليـه حاجـه
وضيق أمرٍ يبتغي انفراجه

ليس يقي- من لم يقِ اللهُ- الحذر وليس يقـدر امرؤ عـلى القـدر
والقلب يعمى مثلما يعمى البصر

كم من وعيـــدٍ يخرق الآذانـا كأنمـا يُعنـــى بـــه سوانـا
أَصَمَّنا الاهمال بل أعمانا

مـا أفسد الخرقَ وساء الرفـقُ وخـير مـا أنبـا عنـك الصدقُ
كم صعقةٍ دل عليها البرق

لكـل مـا يؤذي وإن قَـلَّ ألم ما أطول الليـل على من لم ينم
وسقم عقل المرء من شر السِقمَ

أعـداء غيـبٍ إخوة التلاقـى يـا سوأتـا لهـذه الأخـلاق
كأنما اشتقت من النفاق

أنـف الفتى وهو صريم أجدع[2] من وجهـه وهو قبيـح اشنـع
هل يستوى المحظوظ والمضيع

---

(١) الراحة والرحمة

(٢) الصريم والأجدع بمعنى واحد وهو الأقطع.

مــا منــك من لم يقبل المعاتبة وشر أخــلاق الفــتى المؤاربــة

ينجيك مما نكره المجانبة

مــتى تصيــب الصاحــب المهذبا هيهـات مـا أعسر هـذا المطلبـا

وشر ما طالبته ما استصعبا

أُفٍ لعقـل الاشمــط النصــاب رُبَّ معيـــب فعلـــه عيـــاَّب

ذم الكلام حذر الجواب

لكـــل مـــا يجري جواد كبوة مالـــك إلا ان قبلـــت عفوه

من ذا الذي يسقيك عفواً صفوه

لا يسلــك الشر سبيــل الخــير والله يقضي ليس زجر الطــير

كم قمر عاد إلى قمير

[لم]يجتمـــعّ جمع لغـــير بـــينِ لفرقـــةٍ كـــلُ اجـــتماع اثنـــين

يعمى الفتى وهو البصير العين

الصمت إن ضاق الكلام أوسعُ لكـــل جنـــب ذات يوم مصرع

كم جامع لغيره ما يجمع

مالـــك إلا مـــا بذلـــت مـــالُ في طرفـــة العـــين يحول الحـال

ودون آمال الفتى الآجال

كم قـد بكت عين وليس تضحك وضـــاق من بعـــد اتساع مسلك

لا تبر مَنْ أمراً عليك يملك

خـــير الأمور مـــا حمدت غِبّـــه لا يرهـــب المذنـــب إلا ذنبـــه

والمرء مقرون بمن أحبه

كـــل مقـــامِ فلـــه مقـــالُ . كـــل زمـــانٍ فلـــه رجـــال

وللعقول تضرب الأمثال

دع كـل أمرٍ منـه يومـاً تعتـذر عِـف كل وردٍ غير محمود الصَدَر

لا تنفع الحيلة في ماضي القدر

نومُ أمرئٍ خير له من يَقَظَه لم يرضه فيه الكرام الحفظه
وفي صروف الدهر للمرء عِظه

مسألة الناس لباس ذل من عَفَّ لم يُسئَم ولم يُمَلّ
فارضَ من الأكثر بالأقل

جواب سوء المنطق السكوت قد أفلح المبتدىء الصَموت
ما حُمّ[1] من رزقك لا يفوت

في كل شيء عِبرة لمن عقل قد يسعد المرء إذا المرء اعتدل
ترجو غداً ودون ما ترجو الأَجل

من لك بالمحض وليس محض يخبث بعض ويطيب بعض
ورب أمرٍ قد نهاه النقضُ

كم زاد في ذنب جهولٍ عذره ذا مرض يعنى عليك أمره
يخشى امرء شيئاً ولا يضره

يا رب إحسان يعود ذنبا ورب سلمٍ سيعود حربا
وذو الحجى يحمل إن أحبا

قد يدرك المعسر في إعساره ما لم يبلغ الموسر في إيساره
وينتهي الهاوي إلى قراره

الشيء في نقصٍ إذا تناها والنفس تنقاد إلى رداها
مذعنةً يحتثُّ سائقاها

الناس في فطرتهم سواء وإن تساوت بهم الأهواء
كل بقاءٍ بعده فناء

لم يغلُ شيء وهو موجود الثمن مال الفتى ما قصه لا ما احتجن
إذا حوى، جثمانه ثرى الجبن (كذا)

---

(١) حُمّ: قُدّر

المـــال يحكي الغي في أثقالـــه وإنمـــا المنفـــق من أموالـــه
ما غمر الخلة من سؤاله

من لاح في عارضــه القتــير[1] فقـــد أتـــاه بالبلـــى النذيرُ
ثم إلى ذي العزة المصير

رأيـت غـب الصـبر مما يحمـد وإنمـــا النفس كما تُعـــدَّد
وشر ما يطلب ما لا يوجد

إن اتبـــاع المرء كــل شهوة لَيلبس القلـــب لبـــاس قسوة
وكبوة العجب أشد كبوة

من يزرع المعروف يحصِد ما رضي لكـــل شيءٍ غايـــةٌ ستنقضي
والشر موقوف لدى التعرض

لا يأكـل الإنسان إلا مـا رزق مـا كـل أخلاق الرجال تتفق
هان على النائم ما يلقى الأرِق

من يلذع النـاس يجد من يلذعه لسان ذى الجهـل وشيكاً يوقعه
لا يعدم الباطل حقاً يدمغه

كـــل زمـــانٍ فلـــه نوابـــغ والحـــق للباطـــل ضـــد دامغ
لا يغصك المشرب وهو سائغ

رب رجـــاءٍ قـــص من مخافـــه ورب أمنٍ سيعود آفـة
ذو النجح لا يستعبد المسافة

كم من عزيز قـــد رأيـــت ذَلاَّ وكم سرورٍ مقبـــــــلٍ تولى
وكم وضيع شال فاستقلا

لا خير في صحبة من لا ينصف والدهر يجفو أمره ويلطــــــف
والموت يفني كل عينٍ تطرف

---

(١) القتير هو الغبار وأراد به هنا الشيب مجازاً.

رب صبـــاح لأمرئٍ لا يُمسِه حتــف الفـــتى موكـــل بنفسه
حتى يحل في ضريح رمسه

إني أرى كــل جديـــدٍ بــالي وكـــــل شيء فـــــإلى زوال
فاستشف من جهلك بالسؤال

آن رحيـــــلاً فأعـــــدَّ الزادا آنَ معـــاداً فاحـــذر المعـــادا
لا يُملك العمر وإن تمادى

إنـــك مربوب مـــدين تُسئـــل والدهر عن ذي غفلـة لا يغفـل
وكلما قدمتــه محصــــــــل حـــتى يجيء يومـــك المؤجـــل

(فصل)

رُويَ عن أحد الأئمة عليهم السلام، أنه قال رسول الله ص):

إن الله عز وجل كتم ثلاثةً في ثلاثة: رضاه في طاعته، وكتم سخطه في معصيته، وكتم وليهُ في خلقه، ولا يستخفّ أحدكم شيئاً من الطاعات، فإنه لا يدري في أيها رضا الله تعالى، ولا يستقلنّ أحدكم شيئاً من المعاصي، فإنه لا يدري في أيها سخط الله، ولا يزرينَّ أحدكم بأحد من خلقه، فإنه لا يدري أيهم ولي الله.

ومن كلامه (ص):

من سرته حسنته، وساءته معصيته فهو مؤمن.

لا خير في العيش إلا لرجلين: عالم مطاع، ومستمع واعٍ.

كفى بالنفس غنى، وبالعبادة شغلاً.

لا تنظروا إلى صفير الذنب، ولكن انظروا إلى من اجترأتم.

وقال عليه وآله السلام:

آفة الحديث الكذب، وآفة العلم النسيان، وآفة العبادة الفترة، وآفة الطرف الصلف.

لا حسب إلا بتواضع، ولا كرم إلا بتقوى، ولا عمل إلا بنية، ولا عبادة إلا بيقين.

إن العاقل من أطاع الله وإن كان ذميم المنظر، حقيرِ الخطر، وإن الجاهل من عصى الله وإن كان جميل المنظر عظيم الخطر.

أَفضل الناس أعقل الناس.

إن الله تعالى قسَّم العقل ثلاثة أَجزاء، فمن كانت فيه كمل عقله، ومن لم تك فيه فلا عقل له: المعرفة بالله تعالى، وحسن الطاعة، وحسن الصبر.

إن لكل شيءٍ آلة وعدة، وآلة المؤمن وعدته العقل، ولكل تاجر بضاعة، وبضاعة المجتهدين العقل، ولكل خراب عمارة، وعمارة الآخرة العقل، ولكل سفر [1] فسطاط يلجئون إليه، وفسطاط المسلمين العقل.

(فصل)

رُوي عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليه أنه قال:

العقل ولادة، والعلم إفادة، ومجالسة العلماء زيادة.

وروي عنه عليه السلام أَنه قال:

هبط جبرئيل (ع) على آدم (ع) فقال:

يا آدم أُمرت أن أُخيّرك في ثلاث، فاختر منهن واحدة ودع اثنتين، فقال آدم وما الثلاث؟ قال: العقل والحياء والدين. فقال آدم فإني قد اخترت االعقل، فقال جبرئيل للحياء والدين انصرفا، فقالا يا جبرئيل إنا أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، قال فشأنكما وعرج.

(مسألة): إن سأل سائل فقال: كيف يحسن مخاطبة الحياء والدين؟ وكيف يصح منهما النطق؟ وهما داخلان في باب الأعراض، التي لا تقوم بأنفسها، ولا تصح الحياة والنطق منهما.

(الجواب): قيل له: هذا مجاز من القول، وتوسع في الكلام، والمعنى فيه: أَنهما لو كانا حيين قائمين بأنفسهما، تصح المخاطبة لهما، والنطق. لكان هذا حكمهما، والمحكي عنهما جوابهما.

---

(١) سفر: القوم المسافرون.

وقد يستعمل العرب ذلك في كلامها، وهو نوع من أنواع فصاحتها، قال الشاعر:

امتـــلأ الحوض وقـــال قطني[1] مهـلاً رويـداً قـد ملأت بطـني

ونحن نعلم أن الحوض لا يصح منه النطق، ولكنه استعار النطق، لأنه عنده لو كان في صورة ما ينطق لكان هذا قوله.

(خبر آخر): في هذا المعنى، وهو المشتهر بين الخاصة والعامة، من أن أول شيء خلق الله تعالى العقل، فقال له: أقبل، فأقبل. ثم قال له أدبر، فأدبر.

فقال: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقاً هو أحب إلي منك. بك أُعطي، وبك أَمنع، وبك أُثيب، وبك أُعاقب. وعزتي وجلالي، لا أكملتك إلا فيمن أَحببت.[2]

فالمعنى فيه نظير ما تقدم، هو أن العقل لو كان قائماً بنفسه حتى يوجد مفرداً، لكان أول شيء خلقه الله تعالى لفضله، ولأن المنازل العالية لا تستحق إلا به، ولو كان حياً قادراً، لصح منه امتثال أمر الشارع إلى ما يؤمر به، ولم يقع خلاف للمراد منه.

وهذا كله بينة على شرف العقل وجلالته، وحث على وجوب الرجوع إليه، والتمسك بحججه، وفي القران لذلك نظائر.

(فصل مما ورد في القرآن في هذا المعنى)

فمن ذلك قول الله عز وجل:

«إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون» النحل: ٤٠.

فدليل شاهد بأن المراد بذلك ليس هو القول، ولا يصح فيه حقيقةً الأمر.

لأنه لو كان يأمر الشيء في الحقيقة بالكون، كان لا يخلو من حالين:

---

(١) معناه حسبي

(٢) تجد أكثر هذا الحديث في كتاب مشكاة الأنوار ص٢٢٧ وفي كتاب الأربعين للمجلسي وهو الحديث الثاني من أحاديثه ص٥ رواه بأسانيده.

إما أن يأمره بذلك، والشيء في حال عدمه، أو في حال وجوده.

ومحال أن يأمره وهو في حال عدمه، لأن المعدوم في الحقيقة ليس بشيء، فيتوجه إليه الأمر.

والذين يثبتون أنه شيء في حال عدمه من المتكلمين[1] لا يخالفون في أنه لا يصح أن يؤمر.

ومحال أيضاً أن يأمره وهو في حال وجوده، لأن الموجود هو الكائن.

ولا يقال للكائن (كن)، كما لا يقال للساكن (اسكن).

وأيضاً فلو كان يأمره في الحقيقة (بالكون) لكان الشيء المأمور هو الذي يفعل نفسه ويكوّنها.

ولا يصح من شيء أن يفعل إلا أن يكون حياً قادراً، ولا يصح منه أن يفعل الحكم المتقن إلا بعد كونه عالماً.

وهذا كله[2] على أن المعدوم لا يؤمر ولا يفعل نفسه.

ولم يبق إلا أن يكون ذلك مجازاً في القول.

والمراد به الإخبار عن تيسر الفعل على الله سبحانه، أنه إذا أراده، وأنه غير متعذر منه، ومتى أراد كونه كان بغير حائل ولا مانع، حتى كأن الذي يريده لو كان حياً قادراً، يصح أن يكوّن نفسه، ثم أمره الله تعالى بذلك، ليبادر إليه، ولم يتأخر عنه.

---

(١) اختلف المتكلمون في المعدوم هل هو شيء أم لا، فذهب بعضهم إلى أن المعدوم في حال عدمه شيء، واستدلوا بآيات منها: قوله تعالى (ولا تقولن بشيء إني فاعل ذلك غداً) إذ سماه شيئاً في حال عدمه، وقوله تعالى: (إن زلزلة الساعة بشيء عظيم) عبر عنها بكلمة شيء وهي معدومة وقبل أن تكون. وأنكر بعضهم أن يكون المعدوم شيئاً واستدلوا بآيات منها:

قوله تعالى: (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً)

وقوله تعالى: (ألم ير الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) وقوله أيضاً: (لم يكن شيئاً مذكوراً) فقد نفى عن الذي لم يكن وكان معدوماً أن يكون شيئاً وحملوا تلك الآيات التي استدل بها مثبتوا الشيئية للمعدوم كما فعل المؤلف على المجاز.

(٢) لعله قد سقطت كلمة (يدل) ووضعناها ليستقيم الكلام.

ومثل ذلك قول الله عز وجل:
(ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض أتينا طوعاً أو كرهاً، قالتا (أتينا طائعين) سورة فصلت: ٥٠.

وليس المراد أن السماء والأرض وهما جماد، [نطقتا]، وإنما المعنى تيسر فعلهما، وما أراده فيهما.

فكأنهما لو كانتا في حكم الأحياء القادرين الذين يصح منهم النطق والإتيان، لقالتا إذا أُمرتا بالإتيان (أتينا طائعين).

ونظير هذا في الكلام كثير.

والناس يجعلون من تيسر منه الفعل، كأن فعله قد أطاعه، ويقولون للشاعر الحاضر الخاطر: إن القوافي لتسمع [له] وتطيع، وإنك لتراها رأي العين، وإنها لمحصورة بين يديك.

ومراد هم أنها لا تتعذر عليه متى رامها، ولا يتوقف شيء منها إذا قصدها.

فكأنها لو كانت في حيزّها ترى، لرآها، أو في حكم من يطيع لأطاعت أمره إذا أمرها.

فأما الإخبار عن السماء والأرض بأنهما (قالتا أتينا طائعين) بلفظ التذكير.
فيحتمل أن يكون المعنى أتينا بمن فينا، ومن يصح فيه التذكير.

ومن ذلك قول الله عز وجل:
﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت، وتقول هل من مزيد﴾ سورة ق: ٣٠.

وجهنم في الحقيقة لا يصح أن تخاطب، ولا يقع منها القول.

فالمعنى أنها لو كانت في حكم من يخاطب ويصح منها القول، لقالت (هل من مزيد).

وقيل في الآية بوجهٍ آخر.

وهو أن الذكر لها، والخطاب في الحقيقة متوجه لخزنتها، وهم القائلون (هل من مزيد).

وإنما أضيف ذلك إليها، كما يقال:

قالت البلدة الفلانية، أي قال أهلها.

وقال الله تعالى:

(واسئل القرية التي كنا فيها) يوسف: ٨٢ والمراد أهلها.

ومن ذلك قول الله عز وجل:

(يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون). النور: ٢٤

وقوله جل اسمه:

(وقالوا لجلودهم لِمَ شهدتم علينا، قالوا أَنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، وهو خلقكم أول مرة، وإليه ترجعون) فصلت: ٢١

فالقول عندنا في ذلك كله أنه على الإستعارة ومجاز اللغة، دون الحقيقة.

والمعنى فيه أن الجوارح لو كانت مما تنطق لنطقت على أصحابها بالشهادة، وقالت انطقنا الله.

وقد يجوز في أبعاض الإنسان ما تقام الشهادة بفعله، وإن لم يكن نطق.

والعرب تقول:

(رب عين أَنطق من لسان) ويقولون:

(عيناك تشهد بسحرك، ونظرك يدل على خبرك).

والشواهد على هذا كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية.

مسألة من عويص النسب:

ألا قـــل لابن أم حماة أُمي — أنـا ابن أخ ابن أختك غيروهم

فلو زوجت أختك من أخٍ لي — فأولدهـا غلامـاً كـان عمي

وكـان أخي لـذاك العم عماً — وصـار العم مثـل دمي ولحمي

فمن أنا منك أو من أنت مني — أجـب إن كنـت ذا لـبٍ وفهم

الجواب:

القائل ابن ابن المقول له، هو خال أبي القائل، وأُخت المقول له هي أُم أَبي القائل.

فإذا تزوجها أخوا القائل لأمه، وهو جائز، لأنه لا قرابة بينها، فأولدها غلاماً. فالغلام عم القائل، لأنه يصير أخاً لأبيه، ويكون القائل أيضاً عماً للغلام من الأم، وكانت إخوة القائل من أبيه وأمه أعماماً للغلام.

فصل في ذكر الدنيا:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:
« من أحب دنياه أضرّ بآخرته ».
وقال أمير المؤمنين عليه السلام:
الدنيا دول، فاطلب حظك منها بإجمال الطلب.
وقال عليه السلام:
من أمن الزمان خانه، ومن غالبه هانه.
وقال:
الدهر يومان: يوم لك، ويوم عليك، فإن كان لك فلا تبطر، وإن كان عليك فاصبر، فكلاهما عنك يمضي.
قال بعض الشعراء:

وإن امرءاً دنياه أكثر همه ... لمستمسك منها بحبل غرور

وقال بعضهم:
إياك الإغترار بالدنيا، والركون إليها، فإن أمانتها كاذبة، وآمالها خائبة، وعيشها نكد، وصفوها كدر، وأنت منها على خطر، إما نعمةٍ زائلة، وإما بلية نازلة، وإما مصيبة موجعة، وإما منية مفجعة.
وقال آخر:
صاحب الدنيا في حرب، يكابد الأهواء لتقدح، والجهالة لتقمح، والأرواع لتندفع، والآمال لتنال، والمكروه ليزال، وبعض ذلك عن بعضٍ

شاغل، والمشغل عنه ضائع، فلما رأى الحكماء أنه لا سبيل إلى إحكام ذلك تركوا ما يفني ليحرزوا ما يبقي.

فصل في ذكر الأَمَلَ.

روى أن الله تعالى قال:

يا ابن آدم يأتي رزقك وأنت تحزن، وينقص من عمرك وأنت لا تحزن، تطلب ما يطغيك، وعندك ما يكفيك.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

من كان يأمل أن يعيش غداً، فإنه يأمل أن يعيش أبداً.

وقال بعضهم:

الآمال لا تنتهي، والحي لا يكتفي.

وقيل: ما أطاع عبد أملَه، إلا قصُر عملُه.

وقال آخر:

لا يلهك الأَمل الطويل عن الأَجل القصير.

وقال آخر:

من جرى في عِنان أَمَلِه[1] عثر بأجلِه.

وقال آخر:

إنك إذا أدركت أَمَلَكَ قَرَّبك من أَجلِك، وإذا أَدركك أَجلُك لم تبلغ أَملَكَ.

لابن الرومي[2]

(١) في الأصل (عمله) وهذه الكلمة للإمام علي (ع) انظر: نهج البلاغة ص٥٦٧ رقم ١٨.

(٢) ابن الرومي هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج وقيل جرجيس ولد سنة (٢٢١هـ) وتوفي سنة (٢٨٣ أو ٢٨٤هـ) وقيل بل في سنة (٢٧٦هـ). وهو من الشعراء الموهوبين المبدعين وكان يتشيع وقصيدته الجمية في رثاء يحيى العلوي شاهد على ذلك.

والأبيات التي ذكرها المؤلف هي من قصيدته التي جرى فيها مجرى لزوم ما لا يلزم التي = يقول فيها:

خمسون عامـــاً كنـــت آملهـــا كانـــت أمامي ثم خلفتهـــا
كنز حيـــاة لِيَ أنفقتـــه عـــلى تصاريـــف تطرّفتهـــا
لو كـــان عمري مايـــةً هـــدني تذكُّـــري أنـــي تسوفتهـــا

فصل في ذكر الموت.

رُوي أنه كان في التوراة مكتوباً:
يا بن آدم. لا تشتهي حتى تموت حتى تتوب، وأنت لا تتوب حتى تموت.
وقال أمير المؤمنين عليه السلام:
من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير.
وقال بعضهم:
لو رأيتم الأجل ومسيره، ولأبغضتم الأمل وغروره.
وأنشد:
نُراع لذكر الموت ساعـــــة ذكره
فتعـــترض الدنيـــا فنلهو ونلعـــب

وقيل:
إن امرءاً آخره الموت لحقيق أن يخاف ما بعده.
وروي أن أمير المؤمنين عليه السلام، ، سمع إنساناً يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال:
قولنا (أنا لله) إقرار منا له بالملك، وقولنا (وإنا إليه راجعون) إقرار على أنفسنا بالهلك[1].

= لهفـــي عـــلى الدنيـــا وهـــل لهفـــة تنصـــف منهـــا إن تلهفتهـــا
كم آهـــةٍ لي قـــد تأوهتهـــا فيهـــا ومن أفٍ فأففتهـــا
أغـــدو ولا حـــال تسنمتهـــا فيهـــا ولا حـــال تردفتهـــا

(١) هذه الكلمة من كلمات الإمام علي (ع) المروية في نهج البلاغة من باب المختار من حكمه رقم (٩٩) ص ٥٨٢ وأنظر: تحف العقول ص١٤٥.

وقيل:

إن من عجائب الدنيا، أنك تبكي على من تدفنه، وتطرح التراب على وجه من تكرمه.

[قال] أبو نؤاس:[1]

غَرَّ جهولاً أمَلُـــــه يموت من جـــا أجَلُـــه
ومن دنـــا من يومـــه لم تغن عنـــه حيلـــه
وكيـــف يبقي آخر قـــد مـــات عنـــه أولـــه
لا يصحـــب الإنسان من دنيـــاه إلا عملـــه

[قال] أبو ذؤيب:[2]

وإذا المنيـــة أنشبـــت أظفارهـــا
ألفيـــت كـــل تميمـــةٍ لا تنفـــع

غيره:

ننافس في الدنيـــا ونحن نعيبهـــا
وقـــد حذّرتناهـــا لعمري خطوبهـــا
ومـــا نحسب الساعـــات نقطـــع مـــدةً
عـــلى أنهـــا فينـــا سريـــع دبيبهـــا
كـــأني برهطي يحملون جنـــازتي إلى حفرةٍ يُحثـــى عـــلي كثيبهـــا
وباكيـــةٍ حرى تنوح وأنـــني عـلى غفلـةٍ من صوتها لا أُجيبها

---

(١) هو أبو علي الحسن بن هاني بن عبد الأول بن الصباح الحكمي، كان جده مولى الجراح بن عبدالله الحكمي والي خراسان، ونسبه إلى مولاه المذكور، ولد أبو نؤاس سنة ١٤١هـ وتوفي سنة ١٩٥ أو ١٩٧ أو ١٩٨هـ، وهو من مشاهير الشعراء المجيدين وخاصة في الخمريات والغزل. وهو معدود في شعراء الشيعة وله مدائح في أهل البيت عليهم السلام.

(٢) أبو ذؤيب هو خويلد بن خالد بن محرّث بن مخزوم ينتهي نسبه إلى نزار، وقد أدرك الجاهلية والإسلام، وعاش إلى أيام عثمان بن عفان وخرج غازياً لأفريقية مع عبدالله بن أبي سرح ومات في مصر والبيت هو من قصيدة قالها في رثاء أولاده الخمسة الذين هلكوا في عام واحد، وهي قصيدة جيدة طويلة أولها:

أمن المنون وريبهـــا تتوجـــع والدهر ليس بمعتـــب من يجزع

أيا هـادم اللـذات مـا منـك مهرب
يحـاذِر نفسي منـك مـا سيصيبهـا
رأيـت المنايـا قسمـت بـين أنفس
ونفسي سيـأتي بعـد ذاك نصيبهـا

لأبي إسحاق الصابي[1] من قطعةٍ كتبها إلى الشريف الرضي أبي الحسن الموسوي، وهو هذا:

وإني عـلى عيـب الردى في جوانـبي
ومـا كـفّ من خطوي وبطش بنـاني
وإن لم يـدع إلا فؤاداً مروّعـاً
بـه غـير بـاقٍ من الخفقـان
تلوّم تحت الحجـب تنقـب حكمـةً
إلى أُذن تصغي لنطـق لساني
لأعـلم أني ميـت عـاق دفنـه
دمـاء قليـل في غـدٍ هو فـان
وإن فماً لـلأرض غرثـان حائماً
يراصـد من أكـلي حضور أوان
بـه فـترة عم الورى لفجائـع
تَركْنَ فلانـاً ثاكـلاً لفـلان
غـداً فاغراً يشكو الطوى فهو راتـع
ومـا تلتقي يومـاً لـه شفتـان
وكيـف وحَـدُّ القوت منـه فناؤنـا
ومـا دون ذاك الحدِّ ردُّ عيـان

---

(١) هو ابراهيم بن هلال بن هارون الحراني الصابئي، من ألمع الأدباء المشاهير في العصر العباسي، ومن الكتاب المهرة البلغاء وقد أطراه كل من عرض لترجمته ونعته بصفات عالية. وتوفي عام (٣٨٤هـ) وكان صديقاً حميماً للشريف الرضي، حتى أن الشريف رثاه بعد موته بقصيدة دالية معروفة أولها:

أعلمـت من حملوا عـلى الأعواد   أرأيـت كيـف خبـا ضيـاء النـادي

إذا عاصيـــاً بالنسك ممن يعولــه
فــلا أولاً منــه بمهلــك ثــان؟
إلى ذات يومٍ لا ترى الأرض وارثــاً
سوى الله من إنسٍ تراه وجــان

لغيره:

فــكم من صحيـحٍ بـات للموت آمنـاً
أتتــه المنايـا رقــدة بعدمـا هجــع
فـلم يستطـع إذ جـاءه الموت بغتـةً
فراراً ولا منــه بحيلـــةٍ انتفــع
فأصبـــح تبكيــه النساء مكفنـاً
ولا يسمـع الداعي إذا صوتـه رفـع
وقرِّب من لحـــدٍ فصـــار مقيلـه
وفـارق ما قـد كـان بالأمس قـد جمع

(فصل في ذكر الموت والقتل وما بينهما)

أعلم أَن الموت غير القتل، والذي يدل على أنهما غيران، قول الله عز وجل

(فإن مات أو قتل) آل عمران: (١٤٤)

وقوله تعالى:

(ولئن متم أو قُتِلتم) آل عمران: (١٥٨)

وقوله سبحانه:

(ما ماتوا وما قتلوا) آل عمران: (١٥٦)

وليس يجوز أن يكون التأكيد والتكرير في اللفظين يرجعان إلى معنى واحد.

ويدل على ذلك أيضاً، العلمُ بأن الله سبحانه ليس بقاتل لمن مات حتف أنفه.

ولو قال قائل في ميت أن الله قتله لأعاب العقلاء عليه.

والموت والقتل عرضان، وليسا بجسمين.

وقد قال شيخنا المفيد رضي الله عنه[1]:

إن القتل متولد عن الأسباب، ومحله محل حياة الأجسام، والموت معنىً يضاد حياة الفاعل المخلوق، ولا يصح حلوله في الأجسام.

قال:

وهذا مذهب يختص بي.

والقتل عند جميع أهل العدل من مقدورات العباد، والموت لا يقدر عليه أحد إلا الله.

(تأويل آية)

إن سأل سائل عن قول الله سبحانه:

(وإذا المؤودة سئلت، بأي ذنب قتلت)[2] التكوير: ٨- ٩ .

فقال: كيف يصح أن يُسأل من لا عقل له؟ وأي فائدة في سؤالها عن ذلك ولا ذنب لها؟ وما المؤودة؟ ومن أي اشتقاقٍ هذه اللفظة؟

جوابٌ

قلنا في قوله تعالى (سُئِلت) وجهان:

---

(١) هو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان الحارثي العكبري البغدادي، ولد عام (٣٣٦ أو ٣٣٨هـ وتوفي ٤١٣هـ). وهو من أعمدة الشيعة في العلم والكلام والفقه والآثار، وأكبر شخصية شيعية علمية في القرن الرابع الهجري في الكلام والمناظرة.

وشيعه يوم وفاته ثمانون ألفاً. وقال عنه ابن حجر العسقلاني: «برع في العلوم حتى كان يقال: له على كل إمام منة».

ومؤلفاته قد تجاوزت المائتي كتاب في مختلف المواضيع العلمية، ولا يزال بعضها حياً إلى اليوم، وقد طبع شيء منها.

وقد كتبنا عنه دراسة مسهبة في كتابنا «فلاسفة الشيعة» ص (٤٥٤- ٤٦٩) فراجع

(٢) أنظر الكلام على هذه الآية في أمالي المرتضى م٢ ص٢٧٩- ٢٨٢.

أحدهما: أن يكون المراد أن قاتلها طولب بالحجة في قتلها، وسئل عن سبب قتله لها، وبأي ذنب قتلها، وذلك على سبيل التوبيخ والتعنيف، وإقامة الحجة.

فالقَتَلة ههنا هم المسؤولون على الحقيقة، لا المقتولة مسؤول عنها.

ومثله قوله تعالى:

وأوفوا بالعهد، إن العهد كان مسؤولاً) الأسراء ٣٤

أي مطالباً به ومسؤولاً عنه.

والوجه الآخر: أن يكون السؤال توجه إلى المؤودة على الحقيقة، توبيخاً لقاتلها، وتقريعاً له، على أنه لا حجة له في قتلها.

ويجري هذا مجرى قوله تعالى لعيسى عليه السلام:

(أأنت قلت للناس اتخذوني وأُميَ آلهين من دون الله) المائدة ١١٩ على طريق التوبيخ لقومه، وإقامة الحجة عليهم.

فإن قيل: على هذا الوجه كيف يخاطب ويُسأل من لا عقل له ولا فهم؟

فالجواب: إن في الناس من زعم أن الغرض بهذا القول إذا كان تبكيت القائل وتهجينه وإدخال الغم عليه في ذلك الموقف على طريق العقاب، لم يمتنع أن يقع، وإن لم يكن من المؤودة فهم. لأن الخطاب وإن توجه إليها، فالغرض في الحقيقة به غيرها.

وهذا يجري مجرى رجلٍ ضرب ضارب طفلاً له من ولده، فأقبل الرجل على ولده يقول له: لِمَ ضُربت؟ وما ذنبك؟ وبأي شيءٍ استحل هذا منك؟ وغرضه تبكيت الظالم لاخطاب الطفل.

وفي الناس من قال:

إن توجّه السؤال إلى المؤودة وإن كان الغرض فيه تبكيت القاتل، فإنه لا يكون إلا والمؤودة قد أكملت لها العقل وجُعِلت على أفضل الهيئآت، لأنها في القيامة تعوض عما نالها بالنعيم الدائم، فلابد من إكمال عقولها، لتعرف عدل الله

تعالى، ويحسن التذاذها بما وصل إليها. فليس يتوجه السؤال إليها إلا وهذه حالها.

وقد روي عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعن ابن عباس رضي الله عنه، عنهما وعن غيرهما، أنهم قرأوا:

(إذا المؤودة سألت) بفتح السين والهمزة وإسكان التاء(بأي ذنب قُتِلتُ) باسكان اللام وضم التاء الثانية، فكانت المؤودة والقائلة.

وإما المؤودة فهي المقتولة صغيرة.

وكانت العرب في الجاهلية تدفن البنات أحياءً، وهو قوله:

(أيمسكه على هونٍ، أم يدُسُّه في التراب) النحل: ٥٩

وهو قوله عز وجل:

(قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم) الأنعام: ١٤٠

ويقال: أنهم كانوا يفعلون ذلك لأمرين:

أحدهما: أنهم كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات بالله، فهو أحق بالبنات.

والأمر الآخر:

أنهم كانوا يقتلونهم خشية الإملاق، قال الله عز وجل:

(لا تقتلوا أولادكم خشية إملاق، نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطأً كبيراً) الإسراء: ٣١

(فصل في معرفة الإسم والصفة)

اعلم أن الإسم غير المُسمَّى، والصفة غير الموصوف.

والإسم والصفة جميعاً لا يكونان إلا قولاً[1] من المسمى والوصف، أو كتابة يدل على ما يدل عليه القول.

---

(١) يعني أن الإسم والصفة هما لفظان مأخوذان اشتقاقاً من المسمى والوصف.

والإسم في الحقيقة ما دل على المسمى، والصفة ما دل على معنى في المسمى.

وفي هذا اللفظ تجوز، لأنها تعطي الظرفية والحلول. وربما كان الموصوف غير ظرف ولا محل.[1]

وأقرب من هذا أن يقال:

إن الصفة ما أفادت أمراً يكون في الموصوف عليه.

وإنما افتقر المتكلم إلى استعمال هذه الألفاظ لضيق العبارات عن استيفاء المعاني، فإذا فُهِمَ من اللفظ الغرض جاز استعماله.

فالإسم قولنا: زيد وعمرو ونحو ذلك، مما وسمت به الأشخاص، وحصل لها ألقاباً تتخصص بها عند الإشارات، وليست دالة على معنى في الموصوف، ولا مفيدةً أمراً هو عليه.

والصفة قولنا: قادر وعالم ونحو ذلك، مما يدل على أمور يكون الموصوف عليها.

فقولنا: قادر يفيد جواز وقوع الفعل منه، وقولنا عالم يفيد صحة وقوع الفعل المحكم منه.

فإن انكشف لنا الإعتبار عن خروج الموصوف عن هاتين الصفتين إلى ضدهما، حتى يتعذر وقوع الفعل منه، ويستحيل حصول الفعل المحكم المتقن منه، فما ذاك إلا لأن فيه معنيين حالّين، وهما القدرة، والعلم، وبوجودهما صح منه فعل المحكم المتقن، وهما عرضان متغايران، وضداهما العجز والجهل، ولا يكون هذا إلا والموصوف محدث، وليس القدرة والعلم صفتين للقادر والعالم، وإنما الصفة قول الواصف: هذا قادر وهذا عالم، أو كتابته الدالة على ذلك.

وكذلك ليس السواد بصفةٍ للأسود، وإنما صفته قولنا: هذا أسود، ومن خالف في هذا فقد غلط.

---

(١) كما إذا كانت الصفة صادرة عن الموصوف لا قائمة فيه كالقتل والضرب وسائر الأفعال الصادرة عنه، ولم يكن محلاً لها.

إلا أن يقال: إن العلم للعالم، والسواد للأسود على وجه التوسع في الكلام، فذلك جائز.

وإن كشف لنا الإعتبار عن استحالة خروج الموصوف عما وُصِفَ به، وبطلان وصفه بضده فما ذاك إلا لأنها صفات نفسية. ولهذا قلنا: إن الله قادر وعالم لنفسه، وأنه لا علم ولا قدرة في الحقيقة له، لإستحالة خروجه من جواز وقوع الفعل المحكم المتقن منه.

فالمعاني التي دلت الصفات عليها هي ما استفدناه من حال الموصوف.

وقد ظنت المجبرة أن الصفة غير الوصف، وقالوا: إن الصفة معنى قائم بالموصوف، والوصف هو قول الواصف. وهذا فاسد، والصفة هي الوصف، وهما مصدران لفعل واحد.

تقول: وَصَفَ يَصِفُ صفة ووصفاً، وهذا كالوهب والواهب والهبة، والوعد والعِدَة. تقول: وهب يهب هبةً ووهباً، ووَعَدَ يَعِدُ عِدَةً ووَعْداً.

أسماء الله وحقيقتها

فصل في معرفة أسماء الله تعالى وحقيقتها.

فأما أسماء الله تعالى كلها فعائدة إلى الصفات، لأنها دالة على معانٍ، ومتضمنة لفوائد، وليس فيها إسم يخلو من ذلك. ويجري مجرى اللقب، إنما وضع على شخص تقع الإشارة إليه، ليفرق بينه وبين ما شاركه في جنسه من الأشخاص المتماثلة.

ولما كان الله تعالى يجلُّ عن المجانسة ويرتفع عن المماثلة، استحال أن يكون في أسمائه لقب، ووجب أن يكون جميعها مفيداً للمعاني، كما تفيد الصفات.

فأما التسمية له تعالى (بالله) فإنه يفيد من المعنى وَلَه العباد إليه، وتعلق نفوسهم به، ورغبتهم عند الشدائد في إزالة المكروه إليه.

وقد رويَ عن الصادق عليه السلام في هذا المعنى مثل ما ذكرناه في الحقيقة، وإن خالفه في بعض اللفظ.

فرويَ عنه أنه قال:

الإِلَه يقتضي والهاً، والواله لابد له من مألوه. والإسم غير المسمى.[1]

والأصل في قولنا: الله. إلاه، ثم دخلت الألف واللام للتعريف، فصار الإله، فاسقطت الهمزة الثانية تخفيفاً، وجعلت اللامان لاماً واحدةً مشددةً، فقيل: الله.

فأما التسمية له بالرحمن الرحيم فهو أن الرحمن مشتق من فعل الرحمة على سبيل المبالغة في الوصف، لوقوعها في الفعل على حدٍ لا يصح وقوعها عليه من أحدٍ من الخلق.

وقد روي عن الباقر[2] عليه السلام صحة ذلك، فقال:

الرحمن لسائر الخلق، الرحيم بالمؤمنين.

فكأن أحد الإسمين مشتق من عموم الرحمة، وهو الرحمن. والآخر من خصوصها وهو الرحيم.

فأما تسميته باللطيف فيفيد اجتماع الحكمة والرحمة، ونفوذ مراده إذا شاء وقوعه على الحتم بلطائفه التي يلطف بها لخلقه، على العلم بمصالحهم.

وهذا معروف في اللسان. تقول العرب! فلانٌ لطيف في أمره، وفلانٌ لطيف في صنعته، إذا أرادوا وصفه بالحكمة في تدبيره.

وأما الخبير فيفيد علمه بالأشياء على حقائقها، وتَبَيُّنه لها على أوصافها.

وأما الكريم فهو مشتق من فعل الكرم، وهو التفضل بالنعم، والصفح عن الذنوب، والتطول بالمنن.

---

(١) الحديث المروي عن الصادق عليه السلام هكذا بعد أن سأله هشام بن الحكم عن أسماء الله واشتقاقاتها قال:

الله مشتق من إله، وإله يقتضي مألوهاً، والإسم غير المسمى، فمن عبد الإسم والمعنى فقد اشرك وعبد الإثنين، ومن عبد المعنى دون الإسم فذاك التوحيد. أنظر توحيد الصدوق ص٢١٩.

(٢) هو الإمام محمد بن علي الباقر خامس الأئمة من أهل البيت عليهم السلام ولد عام (٥٧هـ) وتوفي عام (١١٤هـ)

وأما الجواد فهو مشتق من الجود، وهو التفضل كما ذكرناه في معنى الكرم، غير أن لفظه أبلغ في الوصف في معنى الكرم من لفظ كريم.

وأما الغني فيفيد القدرة على ما يريد من غير معين عليه، وليس تستحق هذه السمة مع الله عز وجل على الحقيقة غيره، ومن وُصِف بها من المخلوقين فعلى سبيل الاتساع.

وأما السخي فمعناه عند من حقّق إطلاقه على الله سبحانه، بذل النّعم والتفضل بها.

وقد أبت جماعة من أهل التوحيد إطلاق السخاء على الله تعالى، لأنه لم ينقطع عذري[1] بكتابٍ منزل، ولا سنة متواترة، ولا إجماع، ولا أثر مستفيض جاء عن الصادقين عليهم السلام في تسمية الله تعالى بالسخاء، وليس له معنى تدل عليه العقول.

وقد ذكر بعض أهل التوحيد العارفين باللغة: أنه مأخوذ من السخاوة، وهي الأرض الرخوة.

وقد ثبت أن الأسماء لا تؤخذ إلا سماعاً، فلهذا وقفت ولم أقدم.

وأما قولنا: رب مأخوذ من التربية، ثم نقل إلى الملك.

وقولنا مالك مشتق من الملك

وجميع ما سوى هذا، مما سمي الله تعالى به نفسه فصفات مفيدة لمعانٍ، يفهم ذلك من تأمله.

(فصل في تمييز صفات الله تعالى)

اعلم أن جميع ما يوصف به على حقيقة، والمراد به معنى الوصف.

وقسم يوصف به مجازاً واتساعاً، والمراد به غير حقيقة ذلك الوصف.

وصفات الحقائق تنقسم أيضاً قسمين:

---

(١) هكذا وردت في الأصل، ولعل الأصوب (عذرهم)

فقسم صفات ذاتية ، وهي التي لم يزل عليها ، ولا يزول عن استحقاقها .

وقسم صفات أفعال ، وهي التي تجددت عند فعله الأفعال ، ولا يصح أن يقال أنه عليها فيما لم يزل.

بيان صفات الذات، والدليل عليها:

وهي قولنا :

حي ، باق ، وقادر ، وعالم ، وكذلك موجود ، وقديم .

فهذه الصفات استحقها لنفسه لا لمعنى آخر .

والدليل على ذلك: أنه لو كان حياً بحياة ، وباقياً ببقاء ، وقادراً بقدرة ، وعالماً بعلم ، كان حياته ، وبقاؤه ، وقدرته ، وعلمه ، لا يخلو عن حالين:

إما أن تكون معاني قديمةً معه ، وإما ان تكون حادثة .

فلو كانت قديمة لشاركته في أخص صفاته ، وماثلته ، فيبطل التوحيد .

وقد تقدمت الأدلة على صحته .

وأيضاً فلو ماثلت الصفة الموصوف لم تكن صفة له بأولى من أن يكون هو صفةً لها .

وإن كانت هذه المعاني الموصوف بها ، أعني الحياة والبقاء والقدرة ، والعلم ، حادثةً ، وجب أن يكون قبل حدوثها غير مستحق للوصف بها .

وقد ثبت الأدلة[1] على انه سبحانه لم يزل حياً ، باقياً ، قادراً ، عالماً .

ولو كانت أيضاً حادثةً ، لم يكن لها غناء عن محدث أحدثها .

ولا يصح أن يكون محدثاً غيره تعالى ، لأنه الفاعل الأول ، والقديم الذي لم يزل ، فكيف يفعل الحياة لنفسه من ليس بحي؟ أو يحدث القدرة من ليس بقادر .

والعاقل يعلم أن هذا مستحيل باطل .

---

(١) الأولى ثبت بالأدلة بزيادة الباء

فعلم أنه حي وباقٍ وقادر وعالم لنفسه لا لمعانٍ غيره.

وربما أُطلق اللفظ إتساعاً بأن له قدرة وعلماً، قال[1] الله سبحانه كذا، والمعنى أنزله وهو عالم به، ويقول المتكلمون: قدرة الله عظيمة، والمعنى التعظيم لمقدوره، وأنه لا يعجزه شيء أراده.

فأما عند التحقيق فهو قادر عالم لنفسه.

وقد رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في كلام له:

وجد الله تعالى وليس بينه وبين معلومه علمٌ غيرُه، به كان عالماً بمعلومه.

وهذا القول عنه عليه السلام[2] أنه تعالى عالم لنفسه وذاته، وأنه لا علم في الحقيقة له، تعالى الله الذي ليس كمثله شيء.

وقد ذهب المجبرة إلى أن الله تعالى موصوف بصفاتٍ قديمةٍ معه، وأنها ليست غيره، ولا بعضها غير بعض.

وهذا خروج عما يعقل ويفهم، لأن العقول شاهدة بأن الأشياء التي يقع عليها العدد، ويشملها الوجود، ويختص كل منها بدليل، لا تكون إلا غياراً،[3] بعضها سوى بعض.

وقد قال لهم أهل العدل!

إذا كانت لله تعالى صفات قديمة، وليست غيره، بقولها: إنها، أو هي هو، فأن العقل يقضي بأنه لا بد لكم في إثباتكم من أحد هذه الثلاثة الأقسام.

قالت المجبرة:

كل واحدٍ من هذه الثلاثة الأقسام قد ثبت الدليل على بطلانه، فلا سبيل إلى قوله.

ولكنا نقول: ليست الصفات عين الموصوف، ولا غيره، ولا بعضه.

---

(١) ربما سقطت من الناسخ كلمة وقيل: فيصح الكلام هكذا وقيل قال الله...

(٢) في الأصل تكرير أنه ويحتمل سقوط كلمة (يعني) أو ما يماثلها.

(٣) يعني بها المغايرة.

فقال لهم أهل العدل:

وقد هربتم من أن تقولوا بأحد هذه الأقسام لبطلانه، وصرتم إلى إدعاء ما لا تتصور العقول صحته، بل يشهد بفساده وبطلانه، فأخبرونا ما الفرق بينكم في قولكم إن صفاته لا هي هو، ولا غيره، ولا بعضه.

قالت الجبرة: هذا القول مناقضة.

قالت العدلية:

وقولكم في التناقض مثله، وأي شيء أردتموه في إبطال ما عارضناكم به، فقولكم يبطل بمثله.

وقد قالت الجبرة أيضاً في نصرة مذهبها:

إنا لم نرَ عالماً إلا وله علم، ولا قادراً إلاّ وله قدرة، فلما كان الله عالماً قادراً، وجب أن يكون له علم وقدرة.

قال لها أهل العدل:

إنكم إنما عولتم في ذلك على الشاهد، فقولوا إن علم الله تعالى غيره، وكذلك قدرته غيره. لأنكم لم تروا في الشاهد عالماً وقادراً إلا وهذا حكمه، وقولوا أيضاً إن علم الله تعالى محدث، وكذلك قدرته وجميع صفاته، لأنكم لم تروا ذات صفاتٍ إلا وصفاته محدثة، فاحتالوا في الخلاص مما لزمكم على سنن قياسكم.

بيان صفات الأفعال

اعلم ان صفة الفعل هي كل صفةٍ داخلة في باب المضاف، ومعنى ذلك أن يكون يقتضي وجود غير الموصوف، كقولنا آله، ورب، ومالك، وفاعل، وجواد، ورزاق، وراحم، ومتكلم، وصادق، ولحو ذلك.

لأنـا قد بينا أن الإِلَه والهٌ، والواله لا يكون إلا موجوداً، والرب يقتضي مربوباً، وكذلك مالك يقتضي وجود المملوك، لانه لا يقال قد ملك المعدوم، وفاعل صفة، لا شبهة في أنها لا تصح إلا إذا وجد المفعول. نعوذ بالله من القول

بان القديم لم يزل فاعلاً ، لأن ذلك يقتضي انه لم يتقدم أفعاله ، فيصير الفاعل قديماً ، وجميع صفات الأفعال جارية هذا المجرى لمن تأملها .

ألا ترى: لو قلنا إنه جواد فيما لم يزل ، اقتضى ذلك فعله للجود فيما لم يزل ، ووجود من يجود عليه أيضاً فيما لم يزل.

وكذلك قولنا : متكلم يقتضي وجود كلام إذا تكلم ، فكلام الله تعالى أحد أفعاله ، كما أن رزقه أحد أفعاله ، وهو موجود قبل كلامه .

فأما صادق فلا يصح إلا بعد صحة التكلم ، والجميع صفات أفعالٍ على ما تبين .

(فصل في فروق صفة الذات وصفة الفعل)

الفروق بينهما كثيرة:

فمنها ان تنظر الصفة التي تصف الله تعالى بها ، فإن كانت داخلةً في باب المضاف ، فهي نفسية ، كقولنا موجود ، وقديم ، وباقٍ وحي.

وكذلك إن كانت تقتضي إضافته إلى أمر غير موجود ، كقولنا : قادر ، فالقادر لا يكون إلا على مقدور ، ولكن المقدور غير موجود .

ويجري مجرى ذلك قولك: عالم ، لأنه لا يكون عالماً إلا بمعلوم ، وقد يصح أن يكون المعلوم معدوماً غير موجود .

فأما ما سوى ذلك من الصفات الداخلة في باب المضاف المقتضية إثبات غير الموصوف مما يكون موجوداً غير معدوم ، فكلها صفات أفعال .

فرق آخر:

ومنها أن كل صفة تصف الله تعالى بها ، ولا يجوز أن يدخلها التخصيص ، فتثبتها له في حال ، وتنفيها منه في أخرى فهي صفة نفسية ، كقولك: موجود ، وحي ، وقادر ، وعالم ، فإنه لا يجوز أن ينتفي عنه ولا يتخصص شيء من ذلك .

وكل صفة تصفه بها ، ويجوز التخصيص فيها ، فتثبتها في حال ، وتنفيها عنه

في غيرها فهي صفة فعلٍ. كقولك: فاعل، وراحم، ورازق، ومتكلم، فإنك تقول: إنه سبحانه يفعل الخير ولا يفعل الشر، ويرحم المؤمن ولا يُرحم الكافر، ويرزق زيداً ولا يرزق عمراً، وكلم الله موسى، ولم يكلم فرعون. فيكون فيها صفات أفعال، صح فيها التخصيص، وهذا واضح.

فرق آخر:

وهو أن كل ما استحال أن يوصف بالقدرة عليه وعلى ضده فهو من صفات ذاته.

ألا ترى أنه يستحيل قولك: يقدر أن يحيَ ويقدر على الإحياء، ويقدر على ان لا يقدر.

ويقدر على أن يعلم، ويقدر على أن لا يعلم، فهذه صفات ذاته.

فأما إن كان ما يوصف به يصح أن يوصف بالقدرة عليه وعلى ضده فهو من صفات الأفعال.

ألا ترى أنك تقول: يقدر أن يفعل، ويقدر أن لا يفعل، ويقدر أن يرحم ويرزق، ويقدر أن لا يرحم ولا يرزق، ويقدر أن يتكلم، ويقدر أن لا يتكلم، فهذه كلها صفات أفعال، فافهم ذلك.

بيان صفات المجاز:

فأما الذي يوصف لله تعالى به ومرادنا به غير حقيقة الوصف في نفسه، فهو كثير، فمنه مريد وكاره وغضبان وراضٍ ومحب ومبغض وسميع وبصير وراءٍ ومدرك، فهذه صفات لا تدل على وجوب صفة يتصف بها، وإنما نحن متبعون للسمع الوارد بها، ولم يرد السمع إلا على مجاز اللغة واتساعاتها، والمراد بكل صفةٍ منها غير حقيقتها.

القول في المريد

أعلم أن المريد في الحقيقة والمعقولة هو القاصد إلى أحد الضدين اللذين خطرا بباله الموجب له بقصده وايثاره دون غيره.

وهذا من صفات المخلوقين التي تستحيل أن يوصف في الحقيقة بها رب العالمين. إذ كان سبحانه لا يعترضه الخواطر، ولا يفتقر إلى أدنى روية وفكر، إذ كان هذا على ما بيناه، فإنما معنى قولنا: إن الله تعالى مريد لأفعاله، أنها وقفت وهو عالم بها غير شاغلة، ولا هو موجوداً لمسببٍ وجب من غيره مريداً له. فصح إذا أردنا أن نخبر بأن الله تعالى يفعل لا من سهوٍ ولا غفلةٍ ولا بايجابٍ من غيره، أن تقول هو مريد لفعله، ويكون هذا الوصف استعارة، لأن حقيقته كما ذكرناه لا يكون إلا في المحدث.

دليل

والذي يدل على صحة قولنا في وصف الله تعالى بالأرادة، أنه سبحانه لو كان مريداً في الحقيقة لم تخل الأمر من حالين:

إما أن يكون مريداً لنفسه، لوجب أن يكون مريداً للحسن والقبح، كما أنه لو كان عالماً لنفسه كان عالماً بالحسن والقبح. وإرادة القبح لا تجوز على الله سبحانه.

والكلام في هذا يأتي محرراً على المجبرة في خلق الأفعال.

فإذا ثبت أن الله عز وجل لا يجوز أن يريد المقبحات عُلِم أنه غير مريد لنفسه.

وإن كان مريداً بإرادة، لم تخلُ الإرادة من حالين:

إما أن تكون قديمة، أو حادثة.

ويستحيل أن تكون قديمة، بما بيناه من أنه لا قديم سواه عز وجل.

والكلام على المجبرة في هذا داخل في باب نفي الصفات التي أدعت المجبرة أنها قديمة مع الله تعالى.

وأيضاً فلو كان الله سبحانه مريداً فيما لم يزل، إما لنفسه وإما بإرادة قديمةٍ معه، لوجب أن يكون مراده فيما لم يزل، لأنه لا مانع له مما أراده، ولا حائل بينه وبينه، ولكان ما يوجده من الأفعال لا تختلف أوقاته، [ولا] يتأخر بعضه عن بعض، لأن الإرادة حاصله موجدة في كل وقت، وهذا كله موضح أنه عز وجل ليس بمريد فيما لم يزل، لا لنفسه ولا لإرادةٍ قديمةٍ معه.

وإذا بطل هذا لم يبق إلا أن يكون مريداً بعد أن لم يكن مريداً بإرادة محدثة، وهذا أيضاً يستحيل، لأن الإرادة لا تكون إلا عرضاً، والعرض يفتقر إلى محل، والله تعالى غير محل للأعراض، ولا يجوز أن تكون إرادته حالة في غيره، كما لا يجوز أن يكون عالماً بعلم يحل في غيره، وقادراً بقدرةٍ تحل في غيره.

ولا يجوز أيضاً أن تكون لا فيه ولا في غيره،[1] لأنه عرض، والعرض يفتقر إلى محل يحملها، ويصح بوجوده وجودها.

ولو جاز أن توجد إرادة لا في مريدٍ بها، ولا في غيره، لجاز أن توجد حركة لا في متحرك بها ولا [في] غيره.

فإن قيل أن الحركة هيئة للجسم، وليس يجوزان تكون هيئة غير حالةٍ فيه.

قلنا: ولِمَ لا يجوز ذلك؟

فإن قيل: لأن تغيير هيئة الجسم مدرك بالحاسة، فوجب أن يكون المعنى الذي يتغير به حالاً فيه.

قلنا: وكذلك المريد للشيء بعد أن لم يكن مريداً له، قد يتغير عليه حِسُّ نفسه، فوجب أن تكون إرادته تحله.

فإن قيل: أي شيءٍ من الحواس تحس الإرادة؟

قلنا: وبأي شيء يحس الصداع؟

فإن قيل: إن الإنسان يدرك ألم الصداع في موضعه ضرورةً.

قلنا: فلم نركم أشرتم إلى حاسةٍ بعينها أدركه بها؟

ولنا أن نقول: وكذلك المريد في الحقيقة، يعلم بتغير حسه، ويدرك ذلك من نفسه ضرورةً.

---

(١) وقد ذهب هشام بن الحكم إلى أن صفات الله ليست هي هو ولا غيره تبعاً للجهم بن صفوان، واستدل لهذا الرأي بأن حدوث الصفة في ذاته يلزم منه التغير في ذاته وإن يكون محلاً للحوادث، وإن حدثت الصفة في محل فيكون الموصوف بالعلم مثلا هو ذلك المحل لا الباري تعالى وقد شرحنا ذلك في كتابنا «هشام بن الحكم» فراجع

(فصل) من كلام شيخنا المفيد رضي الله تعالى عنه في الإرادة.

قال: الإرادة من الله جل إسمه نفس الفعل، ومن الخلق الضمير وأشباهه، مما لا يجوز إلا على ذوي الحاجة والنقص.

وذاك أن العقول شاهدة بأن القصد لا يكون إلا بقلب، كما لا تكون الشهوة والمحبة إلا لذي قلب، ولا تصح النية والضمير والعزم إلا على ذي خاطر، يصَوّر معها في الفعل الذي تغلب عليه الإرادة له، والنية فيه والعزم.

ولما كان الله تعالى يجلُّ عن الحاجات، ويستحيل عليه الوصف بالجوارح والآلات، ولا يجوز عليه الدواعي والخطرات، بطل أن يكون محتاجاً في الأفعال إلى التصور والعزمات، وثبت أن وصفه بالإرادة مخالف في معناه لوصف العباد، وأنها[1] نفس فعله الأشياء، وإطلاق الوصف بها عليه مأخوذ من جهة الإتباع[2] دون القياس، وبذلك جاء الخبر عن أئمة الهدى عليهم السلام.

قال شيخنا المفيد رحمه الله:

أخبرني أبو القاسم جعفر بن محمد بن قولويه[3] عن محمد بن يعقوب الكليني عن أحمد بن ادريس عن محمد بن عبد الجبار عن صفوان بن يحيى قال:

قلت لأبي الحسن عليه السلام[4]:

«أخبرني عن الإرادة من الله تعالى ومن الخلق.

فقال: الإرادة من الخلق الضمير وما يبدو لهم من الفعل، والإرادة من الله تعالى إحداثه الفعل لا غير ذلك، لأنه جل اسمه لا يهم ولا يتفكر».[5]

---

(١) في الأصل وإن بها نفس فعله، وصوبناه لما ذكرناه اعتماداً على ما سيأتي.

(٢) يعني به السماع.

(٣) من علماء الأمامية المحدثين الثقات وهو استاذ الشيخ المفيد، له مؤلفات منها (كامل الزيارات) توفي عام ٣٦٨ أو ٣٦٧هـ.

(٤) هو الإمام موسى بن جعفر عليه السلام المتوفي سنة ١٨٣هـ وقيل بل ١٨٦هـ.

(٥) روى الصدوق المتوفي عام ٣٨١هـ هذا الحديث في كتابه «التوحيد» مع تغيير في بعض ألفاظه لا تؤثر في روح الحديث.

قال شيخنا المفيد رحمه الله:

وهذا نص من مولانا عليه السلام على اختياري في وصف الله تعالى بالإرادة، وفيه نص على مذهب لي آخر منها، وهو: أن إرادة العبد تكون قبل فعله، وإلى هذا ذهب البلخي [1].

والقول في تقدم الإرادة للمراد كالقول في تقدم القدرة للفعل، وقول الإمام عليه السلام في الخبر المقدم أن الإرادة من الخلق الضمير وما يبدو لهم من الفعل صريح في وجوب تقدمها للفعل، إذ كان الفعل يبدو من العبد بعدها، ولو كان الأمر فيها على مذهب الجبائي لكان الفعل بادياً في حالها، ولم يتأخر بدوه إلى الحال التي هي بعدها لها.

فصل: اعلم أنا نذهب إلى أن الإرادة تتقدم المراد كتقدم القدرة للمقدور، غير أن الإرادة موجبة للمراد، والقدرة غير موجبة للمقدور، والإرادة مما لا يصح أن يفعل الشيء فضُده بدلاً منه، والجميع[2] أعراضٌ لا يصح بقاؤها.

« فصل من القول في أن الإرادة موجبة »:

هو أن الحي متى فعل الإرادة لشيءٍ، وجب وجود ذلك الشيء، إلا أن يمنعه منه غيره، فأما أن يمتنع هو[3] من مراده فلا يصح ذلك.

ومن الدليل على صحة ما ذكرناه أنه قد ثبت تقدم الإرادة على المراد، لاستحالة أن يريد الإنسان ما هو فاعل له في حال فعله، فيكون مريداً للموجود، كما يستحيل أن يقدر على الموجود. وإذا ثبت أن الإرادة متقدمة للمراد لم يخل أمر المريد لحركة يده من أن يكون واجباً وجودها عقيب الإرادة بلا فصل، أو كان يجوز عدم الحركة، فلو جاز ذلك لم يعدم إلا بوجود السكون منه بدلاً منها.

ولو فعل السكون في الثاني من حال إرادته للحركة لم يخلُ من أن يكون

---

(١) هو أبو القاسم البلخي وتقدمت ترجمته.

(٢) في النسخة والجمع.

(٣) في النسخة كلمة (لا) بعد (هو) وهو غير واضح ولعلها زائدة

فعله بإرادته له أو سهو عنه، ومحال أن يفعله بإرادة، لأن ذلك موجب لإجتماع إرادتي الحركة والسكون لشيء واحدٍ في حالةٍ واحدة، ومحال وجود السكون في حال إرادته الحركة، فيبطل جواز امتناع الإنسان مما قد فعل الإرادة له على ما شرحناه.

مسألة إن قال قائل: إذا كنتم تقولون أن إرادة الله تعالى لفعله هي نفس ذلك الفعل، ولا تثبتون له إرادة غير المراد، فما معنى قولكم أراد الله بهذا الخبر كذا، ولم يرد كذا، وأراد العموم ولم يرد الخصوص، وأراد الخصوص ولم يرد العموم؟

جواب قيل له معنى ذلك أن في المقدور أخباراً كثيرة عن أشياء مختلفة، فقولنا أراد كذا ولم يرد كذا، فهو أنه فعل الخير الذي هو عن كذا، ولم يفعل الخير الذي هو عن كذا، وفعل القول الذي يفهم منه كذا، ولم يفعل[1] القول الذي يفهم منه كذا.

وهذا كقولنا: إنا إذا قلنا: الحمد لله رب العالمين وأردنا القول كان ذلك قرآناً، وإذا أردنا أن يكون منا شكر لله تعالى كان كذلك.

فانا لسنا نريد أن قولاً واحداً ينقلب بإرادتنا قرآناً إن جعلناه قرآناً، ويكون كلامنا إن جعلناه لنا كلاماً، وإنما معناه أن في مقدورنا كلامين نفعل هذا مرة وهذا مرة.

فإن قال: فكان من قولكم أن (الحمد لله رب العالمين) إذا أردتم به القرآن يكون مقدوراً لكم.

قلنا: هذا كلام في الحكاية والمحكي، وله باب يختص به، وسنورد إن شاء الله تعالى طرفاً منه.

فصل: فأما إرادة الله تعالى لأفعال خلقه فهي أمره لهم بالأفعال، ووصفنا له بأنه يريد منهم كذا إنما هو استعارة ومجاز، وكذلك كل من وصف بأنه مريد

---

(١) في النسخة (ولم يفهم) وهي خطأ من الناسخ والصواب ما ذكرناه.

لما ليس من فعله تعالى بطريق الإستعارة والمجاز. وقول القائل: يريد مني فلان المصير إليه إنما معناه أنه يأمرني بذلك ويأخذني به، وأرادني فلان على كذا أي أمرني به، فقولنا: إن الله يريد من عباده الطاعة إنما معناه أنه يأمرهم بها.

وقد تعبر بالإرادة عن التمني والشهوة مجازاً وإتساعاً، فيقول الإنسان أنا أُريد أن يكون كذا أي أتمناه، وهذا الذي كنت أُريد أن يكون كذا أي أتمناه، وهذا الذي كنت أُريده أي اشتهيه وتميل نفسي إليه.

والإستعارات في الإرادات كثيرة، فأما كراهة الله تعالى للشيء فهو نهيه عنه، وذلك مجاز كالإرادة فاعلمه.

القول في الغضب والرضا

وهاتان صفتان لا تصح حقيقتهما إلا في المخلوق، لأن الغضب هو نفور الطباع، والرضا ميلها وسكون النفس، ووصف الله تعالى بالغضب والرضا إنما هو مجاز، والمراد بذلك ثوابه وعقابه،[1] فرضاه وجود ثوابه، وغضبه وجود عقابه، فإذا قلنا رضي الله عنه فإنما نعني أثابه الله تعالى، وإذا قلنا غضب الله عليه فإنما نريد عاقبه الله، فإذا علّق الغضب والرضا بأفعال العبد فالمراد بهما الأمر والنهي، نقول إن الله يرضى الطاعة بمعنى يأمر بها، ويغضب من المعصية بمعنى ينهي عنها.

القول في الحب والبغض

وهاتان الصفتان انما يوصف الله تعالى بها مجازاً، لأن المحبة في الحقيقة ارتياح النفس إلى المحبوب، والبغض ضد ذلك من الأوزاع والتنفر الذي لا يجوز على القديم، فإذا قلنا إن الله عز وجل يحب المؤمن ويبغض الكافر فإنما نريد بذلك أنه ينعّم على المؤمن ويعذب الكافر، وإذا قلنا إنه يحب من عباده

---

(١) وبهذا المعنى وردت عدة أحاديث منها ما في حديث هشام بن الحكم عن الصادق (ع): قال (ع) من حديثه: فرضاه ثوابه، وسخطه عقابه من غير شيء يتداخله فيهيجه وينقله من حال إلى حال، التوحيد للصدوق ص١٦٠).

الطاعة، ويبغض منهم المعصية جرى ذلك مجرى الأمر والنهي أيضاً على المعنى الذي قدمنا في الغضب والرضا.

القول في سميع وبصير

أعلم أن السميع في الحقيقة هو مدرك الأصوات بحاسة سمعه، والبصير هو مدرك المبصرات بحاسة بصره، وهاتان صفتان لا يقال حقيقتها في الله تعالى، لأنه يدرك جميع المدركات بغير حواس ولا آلات، فقولنا: إنه سميع إنما معناه لا تخفي عليه المسموعات، وقولنا: بصير معناه أنه لا يغيب عنه شيء من المبصرات، وأنه يعلم الأشياء على حقائقها بنفسه لا بسمعٍ وبصر، ولا بمعانٍ زائدة على معنى العلم:

وقد جاءت الآثار عن الأئمة عليهم السلام بما يؤكد ما ذكرناه.

قال المفيد رضوان الله عليه:

أخبرني أبو القاسم جعفر بن محمد بن قولويه عن محمد بن يعقوب الكليني عن علي بن ابراهيم بن هاشم عن محمد بن عيسى عن حماد بن حريز عن محمد بن مسلم الثقفي قال: قالت لأبي جعفر الباقر عليه السلام: إن قوماً من أهل العراق يزعمون أن الله تعالى سميع بصير كما يعقلونه، قال: فقال: الله تعالى إنما يعقل ذلك فيما كان بصفة المخلوق، وليس الله تعالى كذلك.

وبإسناده عن محمد بن يعقوب عن علي بن محمد مرسلاً عن الرضا عليه السلام: أنه قال في كلام له في التوحيد، وصفة الله تعالى كذلك: بأنه سميع إخبار بأنه تعالى لا يخفي عليه شيء من الأصوات، وليس على معنى تسميتنا بذلك، وكذلك قولنا بصير، فقد جمعنا الإسم، واختلف فينا المعنى، وقولنا أيضاً مدرك وراءٍ لا يتعدى به معنى عالم، فقولنا راءٍ معناه عالم بجميع المرئيات، وقولنا مدرك معناه عالم بجميع المدركات، فهذه صفات المجازات والحمد لله.

القول في الخالق

اعلم أن حقيقة الخالق في لغة العرب هو المقدر للشيء قبل فعل المُروِّى

المفكّر فيه، قال زهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان.[1]

ولأنــت تفري مــا خلقـت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

وقال الحجاج بن يوسف[2]:

«إني لا أعِدُ إلا وفيت، ولا أخلق إلاّ فريت».

والشواهد في هذا كثيرة.

وإذا كان هذا حقيقة الخالق، أعلم إن وصف الله تعالى به اتساع وتجوّز، والمراد به فاعل، لأن الله تعالى لا يصح أن يقدر برويّ وتفكر.

(فصل في صفة أهل الإيمان)

في كتاب المحاسن للبرقي[3] قال مَرَّ أمير المؤمنين (ع) بمجلسٍ من مجالس قرش، فإذا هو بقوم بيضٍ ثيابهم، صافيةٍ ألوانهم، كثيرٍ ضحكهم، يشيرون بأصابعهم إلى من مر بهم. ثم مرّ بمجلس للأوس والخزرج، فإذا هو بقوم بليت منهم الأبدان، ورقّت منهم الرقاب، واصفرت منهم الألوان، قد تواضعوا بالكلام، فتعجب أمير المؤمنين عليه السلام من ذلك، ودخل على رسول الله

---

(١) زهير بن أبي سلمى من الشعراء الجاهليين المتقدمين ومن أصحاب المعلقات المعروفة، وهو صاحب المعلقة التي أولها:

أمن أم أوفـى دمنـة لم تكـلم بحومانـة الـدراج فالمتثـلم

وهو ممن كان يتأله في شعره من الجاهلين، ويكاد يكون مدحه وقفاً على هرم بن سنان المري، والبيت الذي استشهد به المؤلف هو من قصيدة أولها:

لمن الديـار بقنَّـة الحجر أقوين من حجـجٍ ومن شهر

وتوفي عام ١٤ قبل الهجرة وعام ٦٠٨م

(٢) هو من أعاظم رجال الأمويين وقوادهم، ومن جبابرة القواد وطغاتهم ولولاه لانهار ملك بني مروان، ولما قامت لهم قائمة، توفي بواسط المدينة التي بناها سنة ٨٣هـ وكانت وفاته سنة (٩٥هـ) و٧١٣م.

(٣) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي القمي توفي سنة (٢٧٤هـ) أو (٢٨٠هـ) من أعلام الإمامية في الآثار والأحاديث، وكتابه المحاسن يحتوي على ثمانين كتاباً وله سواه كتب عديدة.

صلى الله عليه وآله فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله مررت بمجلس لآل فلان ثم وصفهم، ثم قال: وجميعٌ مؤمنون، فأخبرني يا رسول الله بصفة المؤمن فنكس. رسول الله (ص) رأسه، ثم رفعه، فقال:

«عشرون خصلة في المؤمن، من لم تكن فيه لم يكمل إيمانه، إن من أخلاق المؤمن يا علي، الحاضرون الصلاة، والسارعون إلى الزكاة، والمطعمون المساكين، والماسحون رأس اليتيم، والمطهرون أظفارهم، والمتزرون على أوساطهم، الذين إن حدثوا لم يكذبوا، وإن وعدوا لم يخلفوا، وإن تمنّوا لم يخونوا، وإن تكلموا صدقوا، رهبان بالليل، أُسد بالنهار، صائمون النهار، قائمون الليل، لا يؤذون جاراً، ولا يتأذى بهم جار، الذين مشيهم على الأرض هوناً، وخطاهم إلى المساجد وإلى بيوت الأرامل وعلى أثر المقابر، جعلنا الله وإياكم المتقين».

أخبرني أبو الرجا محمد بن علي بن طالب البلدي، قال أخبرني أبو المفضل محمد بن عبدالله بن محمد بن المطلب الشيباني الكوفي[1] قال حدثنا عبدالله بن جعفر بن حجاب الأزدي بالكوفة، قال حدثني خالد بن يزيد بن محمد الثقفي، قال حدثني أبي خالد، قال حدثني حنان بن سدير عن أبيه عن محمد بن علي عن أبيه عن جده قال قال علي عليه السلام لمولاه نوف الشامي، وهو معه في السطع[2]:

---

(١) ينتهي نسبه إلى ذهل بن شيباني أصله من الكوفة، قضى عمره في طلب الحديث توفي سنة ٣٨٧هـ قال النجاشي عنه: كان في أول أمره ثبتاً ثم خلط ورأيت جل أصحابنا يغمزونه ويضعفونه، ويكثر محمد بن علي الخزاز في كتابه كفاية الأثر في النصوص على الأئمة الإثني عشر، الرواية عنه، وكذا الصدوق وخاصة في كتابه كمال الدين وتمام النعمة. وللشيباني مؤلفات منها مزار أمير المؤمنين (ع) وكتاب مزار الحسين (ع) وكتاب من روى حديث غدير خم.

(٢) لعله السطح لكن في النهج قال: وقد خرج ذات ليلة وهو ينظر إلى النجوم وهذا الحديث مروي في النهج وفي أمالي المفيد ص ٧٨ وفي تاريخ بغداد للخطيب م٧ ص١٦٢ وفي مروج =

«يا نوف أرامق أم نبهان؟ قال: نبهان أرمقك يا أمير المؤمنين، قال هل تدري مَن شيعتي؟ قال: لا والله، قال: شيعتي الذبل الشفاء، الخمص البطون، الذين تعرف الرهبانية والربّانيّة في وجوههم، رهبان بالليل، أُسد بالنهار، الذين إذا جنهم الليل اتزروا على أوساطهم، وارتدوا على أطرافهم، وصفوا أقدامهم، وافترشوا جباههم، تجري دموعهم على خدودهم، يجأرون إلى الله في فكاك رقابهم، وأما النهار فحلماء علماء كرام نجباء أبرار أتقياء، يا نوف، شيعتي الذين اتخذوا الأرض بساطاً، والماء طيباً، والقرآن شعاراً، إن شهدوا لم يعرفوا، وإن غابوا لم يفتقدوا، شيعتي من لم يهر هرير الكلب، ولا يطمع طمع الغراب، ولم يسأل الناس ولو مات جوعاً، إن رأى مؤمناً أكرمه، وإن رأى فاسقاً هجره. هؤلاء والله يا نوف شيعتي، شرورهم مأمونة، وقلوبهم محزونة، وحوائجهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، اختلفت بهم الأبدان ولم تختلف قلوبهم.

قال: قلت يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك، أين أطلب هؤلاء، فقال لي في أطراف الأرض. يا نوف، يجيئ النبي (ص) يوم القيامة آخذاً بحجزة ربه جلت أسماؤه، يعني يحمل الدين وحجزة الدين، وأنا آخذ بحجزته، وأهل بيتي آخذون بحجزتي، وشيعتنا آخذون بحجزتنا، فإلى أين؟ إلى الجنة ورب الكعبة، قالها ثلاثاً».

وأخبرني أيضاً أبو الرجا محمد بن علي بن طالب الرازي، قال أخبرني أبو المفضل محمد بن عبد الله بن محمد بن المطلب الشيباني، قال حدثني أبو عبد الله جعفر بن محمد بن جعفر العلوي الحسني، قال حدثنا أحمد بن محمد بن عيسى الوابشي، قال حدثني عاصم بن حميد الخياط.

قال أبو المفضل الشيباني: وحدثنا محمد بن علي بن أحمد بن عامر البندار

= الذهب ج٤ ص ١٩٣ وفي حلية الأدلياء ج١ ص ٧٩، وفي الخصال للصدوق القمي ج١ ص ٢٩٩. ونوف هو نوف البكالي والراوي عنه هو أبو عبد الله الشامي كما في معجم رجال الحديث ج ١٩ ص ٢٢٧.

بالكوفة من أصل كتابه، وهذا الحديث بلفظه وهو أتم سياقة، قال حدثنا الحسن بن علي بن بزيع، قال حدثنا مالك بن إبراهيم بن عاصم بن حميد عن أبي حمزة الثمالي عن رجل من قومه، يعني يحيى بن أم الطويل، أنه أخبره عن نوف البكالي قال: عرضت لي إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حاجة، فاستبعثت إليه جندب بن زهير والربيع بن خيثم وابن أخيه همام بن عبادة بن خيثم، وكان من أصحاب البرانس، فأقبلنا معتمدين لقاء أمير المؤمنين (ع)، فألفيناه حين خرج يؤم المسجد، فأفضى ونحن معه إلى نفرٍ متدينين قد أفاضوا في الأحدوثات تفكها، وبعضهم يلهي بعضاً، فلما أشرف لهم أمير المؤمنين (ع) أسرعوا إليه قياماً، فسلموا ورد التحية. ثم قال: من القوم؟ فقالوا: أُناس من شيعتك يا أمير المؤمنين، فقال لهم: خُيراً.

ثم قال: يا هؤلاء ما لي لا أرى فيكم شيمة شيعتنا وحلية أحبتنا أهل البيت؟

فأمسك القوم حياءً. قال نوف: فأقبل عليه جندب والربيع فقالا: ما سمة شيعتكم وصفتهم يا أمير المؤمنين؟ فتثاقل عن جوابهما، فقال: اتقيا الله أيها الرجلان وأحسنا، «إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون» النحل: ١١٨

فقال همام بن عبادة وكان عابداً مجتهداً:

أسألك بالذي أكرمكم أهل البيت وخصكم وحباكم وفضلكم تفضيلاً، إلا أنبأتنا بصفة شيعتكم، فقال: لا تقسم، فسأنبئكم جميعاً.

وأخذ بيد همام فدخل المسجد فسبح ركعتين وأوجزهما وأكملهما، ثم جلس وأقبل علينا، وحف القوم به، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله، ثم قال:

«أما بعد فإن الله جل شأنه وتقدست أسماؤه خلق خلقه، فألزمهم عبادته، وكلفهم طاعته، وقسم بينهم معائشهم، ووضعهم في الدنيا بحيث وضعهم، ووصفهم في الدين بحيث وصفهم. وهو في ذلك غني عنهم، لا تنفعه طاعة من أطاعه، ولا تضره معصية من عصاه منهم، لكنه تعالى علم قصورهم عما يصلح

عليه شؤونهم، ويستقيم به أودهم وهم في عاجلهم، وآجلهم، فأدبهم بإذنه في أمره ونهيه، فأمرهم تخييراً وكلفهم يسيراً، وأماز سبحانه بعدل حكمه، وحكمته بين الموجف من انامه إلى مرضاته ومحبته، وبين المبطيء عنها، والمستظهر على نعمته منهم، بمعصيته فذلك قول الله عز وجل (أم حسب الذين اجترحوا السيئآت أن نجعلهم، كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم، ومماتهم ساء ما يحكمون).

ثم وضع أمير المؤمنين (صلى الله عليه) يده على منكب همام بن عبادة، فقال: ألا من سأل من شيعة أهل البيت، الذين اذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم في كتابه مع نبيه تطهيراً، فهم العارفون بالله، العاملون بأمر الله، أهل الفضائل والفواضل، منظقهم الصواب، وملبسهم الإقتصاد، ومشيهم التواضع، وبخعوا لله بطاعته، وخضعوا له بعبادته، فمضوا غاضين أبصارهم عما حرّم الله عليهم، واقفين اسماعهم على العلم بدينهم، نزلت أنفسهم منهم في البلاء، كالذين نزلت منهم في الرخاء رضىً عن الله بالقضاء، فلولا الأجال التي كتب الله لهم، لم تستقر أرواحهم في أجسادهم، طرفة عين، شوقاً إلى لقاء الله، والثواب، خوفاً من العقاب، عظم الخالق في أنفسهم، وصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة، كمن رآها، فهم على آرائكها متكئون، وهم والنار، كمن دخلها، فهم فيها يعذبون قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحوائجهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، ومعرفتهم في الإسلام عظيمة، صبروا أياماً قليلة، فأعقبتهم راحة طويلة، وتجارة مربحة، يسرها لهم رب كريم، أناس أكياس، ارادتهم الدنيا، فلم يريدوها، وطلبتهم فأعجزوها.

أما الليل فصافون أقدامهم، تالون لأجزاء القرآن، يرتلونه ترتيلاً، يعظون أنفسهم، بأمثاله، ويستشفون لدائهم بدوائه تارة وتارة، يفترشون جباههم وأكفهم، وركبهم، وأطراف أقدامهم، تجري دموعهم على خدودهم، ويمجدون جباراً عظيماً، ويجأرون إليه، جل جلاله، في فاك رقابهم هذا ليلهم، فأما نهارهم، فحلماء علماء بررة أتقياء، براهم خوف بارئهم فهم أمثال القداح يحسبهم الناظر إليهم مرضى، وما بالقوم من مرض، أو خولطوا وقد خالط القوم من عظمة ربهم

وشدة سلطانه، أمر عظيم، طاشت له قلوبهم، وذهلت منه عقولهم، فإذا استفاقوا من ذلك بادروا إلى الله تعالى، بالأعمال الزاكية لا يرضون بالقليل، ولا يستكثرون له الجزيل فهم منهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون إن ذكر أحدهم خاف مما يقولون، وقال انا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم بي، اللهم لا تؤاخذني، بما يقولون، واجعلني خيراً مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، فإنك علام الغيوب، وساتر العيوب. هذا، ومن علامة أحدهم، أن ترى له قوة في دين وحزماً في لين، وإيماناً في يقين، وحرصاً على علم، وفهماً في فقه، وعلماً في حلم، وكيساً في رفق، وقصداً في غنى، وتحملاً في فاقه، وصبراً في شدة، وخشوعاً في عباده، ورحمة للمجهود، وإعطاء في حق، ورفقاً في كسب، وطلباً في حلال، وتعففاً في طمع، وطمعاً في غير طبع أي دنس، ونشاطاً في هدى، واعتصاماً في شهوة، وبراً في استقامة، لا يغيره ما جهله، ولا يدع أحصاء ما عمله، يستبطيء نفسه في العمل، وهو من صالح عمله على وجل، يصبح، وشغله الذكر، ويمسي وهمه الشكر، يبيت حذراً من سنة الغفلة، ويصبح فرحاً لما أصاب من الفضل والرحمة، أن استعصبت عليه نفسه فيما تكره، لم يعطها سؤلها، فيما إليه تشره، رغبة فيما يبقى، وزهادة فيما يفنى، قد قرن العمل بالعلم، والعلم بالحلم، يظل دائماً نشاطه بعيداً كسله، قريباً أمله، قليلاً زلله، متوقعاً أجله، خاشعاً قلبه، ذاكراً ربه، قانعة نفسه، عازباً جهله، محرزاً دينه، ميتاً داؤه، كاظماً غيظه، صافياً خلقه، آمناً من جاره، سهلاً أمره، معدوماً كبره، ثبتاً صبره، كثيراً ذكره، لا يعمل شيئاً من الخير رياء، وما يتركه حياءً، الخير منه مأمول، والشر منه مأمون، إن كان بين الغافلين، كتب في الذاكرين، وان كان مع الذاكرين لم يكتب من الغافلين، يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه؛ قريب معروفه، صادق قوله، حسن فعله، مقبل خيره، مدبر شره، غائب مكره، في الزلازل وقور، وفي المكارة صبور، وفي الرخاء شكور، لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحب، ولا يدعي ما ليس له، ولا يجحد ما عليه، يعترف بالحق، قبل أن يشهد به عليه، لا يضيعُ ما استحفظه، ولا ينابز بالألقاب، ولا يبغي على أحد، ولا يغلبه الحسد. ولا يضارُّ بالجار، ولا يشمت بالمصاب، مؤدٍ للأمانات، عامل بالطاعات سريع إلى

الخيرات، بطيء عن المنكرات، يأمر بالمعروف، ويفعله، وينهي عن المنكر ويجتنبه، لا يدخل في الأمور. بجهل، ولا يخرج من الحق بعجز، إن صمت لم يعيه الصمت، وإن نطق لم يعبه اللفظ، وإن ضحك لم يعل به صوته، قانع بالذي قدّر له، لا يجمح به الغيظ، ولا يغلبه الهوى، ولا يقهره الشحُّ، يخالط الناس بعلم، ويفارقهم بسلم، يتكلم ليغنم، ويسأل ليفهم، نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة، أراح الناس من نفسه، وأتعبها لإخوته أن بُغي [عليه] صبر ليكون الله تعالى هو المنتصر، يقتدي بمن سلف، من أهل الخير قبله، فهو قدوة لمن خلف من طالب البرّ بعده،أولئك، عمال لله، ومطايا أمره وطاعته، وسرج أرضه وبريته، أولئك شيعتنا وأحبتنا، ومنّا ومعنا آهاً شوقاً إليهم.

فصاح همام بن عبادة صيحة وقع مغشياً عليه، فحرّكوه فإذن هو قد فارق الدنيا، رحمة الله عليه، فاستعبر الربيع باكياً، وقال، لا سرع ما أودت موعظتك يا أمير المؤمنين با ابن أخي ولوددت أني بمكانه فقال أمير المؤمنين عليه السلام: هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها، أما والله لقد كنت أخافها عليه فقال له قائل: فما بالك أنت يا أمير المؤمنين، فقال ويحك أن لكل واحد أجلاً لا يعدوه، وسبباً لن يتجاوزه، فلا تعد بها، فإنما ينفثها على لسانك الشيطان، قال فصلى عليه أمير المؤمنين عليه السلام عشية ذلك اليوم، وشهد جنازته ونحن معه.

قال الراوي عن نوف، فصرت إلى الربيع بن خيثم فذكرت له ما حدثني نوف، فبكى الربيع حتى كادت نفسه أن تقبض، وقال صدق أخي ان موعظة أمير المؤمنين عليه السلام وكلامه ذلك مني بمرىء، ومسمع ما ذكرت ما كان من همام بن عبادة، يومئذٍ وأتاني هنيئة الا كدّرها ولا شدة إلا فرّجها[1].

---

(١) هذه الخطبة رواها ابن شعبة الحراني في تحف العقول ص١٠٧ - ١٠٩ وسليم بن قيس الهلالي في كتابه ص١٦٠ - ١٦٤، وأبو جعفر الكليني في أصول الكافي م٢ ص٢٢٦ - ٢٣٠ وسبط ابن الجوزي في التذكرة ص١٣٨ - ١٣٩ وفي نهج البلاغة، وغيرهم، انظر كتابنا مصادر نهج البلاغة ص٢١٢.

فصل:

من كلام أمير المؤمنين صلوات الله عليه في الأخوان وآداب الإخوة.

في الإيمان الناس إخوان، فمن كانت إخوانه في غير ذات الله فهي عداوة، وذلك قوله عز وجل:

«الاخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين». الزخرف: ٦٧

من قلّب الأخوان عرف جواهر الرجال.

إمحض أخاك بالنصيحة حسنةً كانت أم قبيحة. ساعده على كل حال، وزل معه حيث زال. لا تطلبن منه المجازاة فإنها من شيم الدناة. إبذل لصديقك كل المودة، ولا تبذل له كل الطمأنينة.

واعطه كل المواساة، ولا تفض إليه بكل الأسرار، توفى الحكمة حقها، والصديق واجبه. لا يكون أخوك أقوى منك على مودته.

البشاشة فخ المودة، والمودة قرابة مستفادة. لا يفسدك الظن على صديق، أصلحه لك اليقين. كفى بك أدباً لنفسك ما كرهته لغيرك. لأخيك عليك مثل الذي لك عليه. لا تُضَيِّعنَّ حق أخيك إتكالاً على ما بينك وبينه، فإنه ليس لك بأخ من ضَيَّعت حقه.

ولا يكن أهلك أشقى الناس بك. اقبل عذر أخيك، وإن لم يكن له عذر فالتمس له عذراً.

لا يكلِّف أحدكم أخاه الطلب إذا عرف حاجته. لا ترغبَنَّ فيمن زهد فيك، ولا تزهدنَّ فيمن رغب فيك، إذا كان للمخالطة موضع.

لا تكثرنَّ العتاب فإنه يورث الضغينة، ويجرُّ إلى البغيضة، وكثرته من سؤ الأدب. إرحم أخاك وإن عصاك، وصله وإن جفاك.

احتمل زلة وليك لوقت وثبة عدوك. من وعظ أخاه سراً فقد زانه، ومن وعظه علانية فقد شأنه.

من كرم المرء بكاه على ما مض من زمانه، وحنينه إلى أوطانه، وحفظه قديم إخوانه.

(فصل مما جاء نظماً في الأخوان)

روى أن الصادق جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام كان يتمثل كثيراً بهذين البيتين:

أخوك الذي لو جئت بالسيف عامداً ... لتضربــه لم يستغشك في الود
ولو جئتـه تدعوه للموت لم يكن ... يردك إبقـاء عليـك من الود

وقال مسلم بن وابصة:[1]

أحـب الفتى ينفي الفواحش سمعه ... كـأن بـه من كـل فاحشةٍ وقرا
سليم دواعي الصدر لا باسطاً أذىً ... ولا مانعاً خيراً ولا قائلاً هُجرا
إذا ما أتت من صاحبٍ لك زلةٌ ... فكن أنـت محتـالاً لزلته عـذرا
غنـى النفس ما يكفيك من سد خلة ... فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقرا

لغيره:

إذا جمع الفـتى حسبـاً ودينـاً ... فـلا تعـدل بـه أبـداً قرينـاً
ولا تسمح بحظك منه بـل كن ... بحظـك من مودتـه ظنينـا

لآخر:

وكنـت إذا الصديق أراد غيظي ... وأشرقـني عـلى حنـقٍ بريقي
غفرت ذنوبـه وصفحـت عنـه ... مخافـة أن أعيش بـلا صديـق[2]

ولآخر:

ومن لا يغمـض عينه عن صديقه ... وعن بعض ما فيه، يمت وهو عاتب
ومن يتتبـع جاهـداً كـل عثرةٍ ... يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب[3]

---

(١) هو سالم بن وابصة الأسدي لا مسلم بن وابصة، وهو شاعر إسلامي تابعي، وأبوه وابصة بن سعيد صحابي جليل، ولسالم بن وابصة مقطعات شعرية في حماسة أبي تمام.

(٢) رواهما ابن قتيبة في عيون الأخبار ج٧ ص١٦ باختلاف كبير.

(٣) في النسخة نقصان وتشويش، وقد صححنا البيتين عن الموشى للوشاء، وعن محاضرات الأدباء للأصفهاني وفي عيون الأخبار ج٧ ص١٦ وهما لكثير.

وقال إياس ابن الفائق:[1]

يقيم الرجال الأغنياء بأرضهم ... وترمي النوى بالمقترين المراميا
فأكرم أخاك الدهر ما دمتا معاً ... كفى بالمات فرقة وتنائيا
إذا زرت أرضاً بعد طول اجتنابها ... فقدت صديقي والبلاد كما هيا

وقال حاتم بن عبد الله:[2]

وما أنا بالساعي بفضل زمامها ... لتشرب ما في الحوض قبل الركائب
وما أنا [بالطاوي] حقيقة[3] رحلها ... لأبعثها حقاً وأتركَ صاحبي

لبعضهم:

بدا حين أثرى بإخوانه ... ففتكَّ عنهم شباه العدم
وذكرهم الحزم غِبَّ الأمور ... فبادر قبل انتقال النعم

لغيره:

ألا إن عبد الله لما حوى الغنى ... وصار له من بين إخوانه مال
رأى خلةً منهم يسد بما له ... فساواهم حتى استوت بهم الحال

لموسى بن يقطين:

تتبع إخوانه في البلاد ... فأغنى المقل عن المكثر

ولسليمان بن فلاح:

لي صديق ما مسني عدم ... مذ وقعت عينه على عدم
قام بعذري لما قعدت به ... ونمت عن حاجتي ولم ينم
أغنى وأقنى ولم يسم كرماً ... يقبل كف له ولا قدم

---

(١) هذه الأبيات من شعر حماسة أبي تمام ولم أجد لإياس هذا ترجمة.
(٢) هو حاتم بن عبدالله الطائي من أجواد العرب وقد أصبح بجوده مضرب المثل والبيتان من قصيدة أولها

ومرقبةٍ دون السماء علوتها ... أقلب طرفي في فضاء السباسب

(٣) في ديوان حاتم (حفيبة) وهو الأرجح.

لبشار بن برد، ويكنى أبا معاذ، ويلقب بالمرعث الداعمي.[1]

إذا كنت في كل الأمور معاتباً | صديقك لم تلق الذي لا تعاقبه
فعش واحداً أو صل أخاك فإنه | مفارق ذنب مرةً ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى | ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

لزياد الأعجم:[2]

أخ لك لا تراه الدهرَ إلا | على العلات بَسَّاماً جوادا
أخ لك ليس خلته بمذق | إذا ما ماد فقر أخيه عادا

[وله][3]

إذا كان ذواقاً أخوك من الهوى | موجهة في كل فجٍ مذاهبه
فخل له وجه الطريق ولا تكن | مطية رَحَّال كثيرٍ مذاهبه
تخاف المنايا أن ترحَّل صاحبي | كأن المنايا في المقام تناسبه

ولبشار أيضاً:

خير إخوانك المشارك في المر | وأين الشريك في المر أينا
الذي إن شهدت سرك في النا | س وإن غبت كان أذناً وعينا
مثل سر العقيان إن مسه النا | ر جلاه البلا فازداد زينا

---

(١) هو بشار بن برد مولى بني عقيل وقيل بل لبني سدوس ويكنى أبا معاذ، ويلقب بالمرعث، والمرعث هو الذي جعل في أذنيه الرعاث وهي الأقراط، ولا أعرف سبب نسبته إلى الداعمي، وهو من فحول الشعراء الإسلاميين، ومن أشعر المحدثين طبعاً واسترسالاً وعمقاً، أتهم بالزندقة، وقتل على ذلك سنة ١٦٧/١٦٨هـ ويشك في صحة هذه التهمة الموجهة، والأرجح أنها سياسية لا عقائدية وخاصة بعد قوله.

إن في البعث والحساب لشغلاً | عن وقوفٍ برسم دار محيل

تجد أخباره في كتب الأدب والتاريخ كالأغاني ومعاهد التنصيص وسواهما.

(٢) هو زياد بن جابر بن عمرو مولى عبد القيس، كان ينزل اصطخر فغلبت العجمة على لسانه فقيل الأعجم، أصله ومولد ومنشأه اصبهان، ومات بخراسان، أحد الشعراء المجيدين في عهد بني أمية، وله مدائح جياد في المهلب بن أبي صفرة، أخباره موجودة في الأغاني ج١٤ والشعر والشعراء لابن قتيبة.

(٣) كذا في النسخة وهنا سقوط كلمة (وأيضاً) أو كلمة لغيره).

وأنشدت لابن نعمه الخطيب مما قاله في مجلس ابن خالويه:[1]

أيها العالم الذي ملأ الأرض علمه
قلت لما جرحت قلبي بحال تغمه
لا يفر الحوار إن يتوطاه أمه
ولعمري لضمّه كان أحلى وشمه
لا تهجم[2] على الصديق بشيء يغمه
فإذا احوج[3] الشجاع[4] بدا منه سمه

قال وانشد لغيره:

[لا][5] توردنّ على الصديق من الدعاية ما يغمه
واحذر بوادر طيشه يوماً إذا ما طال حلمه
فالعجل تنطحه على إدسان مس الضرع أمه

---

(١) هو أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن خالدية من شيوخ العربية البارزين، دخل بغداد وأخذ من علمائها كابن الأنباري وابن عمر والزاهد وابن دريد والسيرافي وانتقل إلى حلب ولزم سيف الدولة الحمداني، وهو من علماء الشيعة ومؤلفاته كثيرة منها: (كتاب ليس) وهو مبني على أنه ليس في كلام العرب كذا و(كتاب الآل) وعرض فيه للأئمة الاثني عشر ومواليدهم ووفياتهم، وكتاب في إمامة علي (ع) و(شرح مقصودة ابن دريد)، وأورد السيد ابن طاووس في كتاب الإقبال دعاءً عن ابن خالدية في أعمال شهر شعبان عن علي (ع)
قال: كان أمير المؤمنين والأئمة (ع) يدعون به في شهر شعبان.
وتوفي في حلب سنة (٣٧٠هـ)
وله شعر منه قوله:
إذا لم يكن صدر المجالس سيد فلا خير فيمن صدرته المجالس
وكم قائل مالى رأيتك راجلاً فقلت له من أجل أنك فارس

(٢) هكذا في النسخة والوزن معها غير مستقيم ولعله (لا تهجمن).

(٣) هكذا في النسخة والمعنى معها قلق ولعله في الأصل (أحرج) بدل أحوج.

(٤) الشجاع هو ذكر الحية.

(٥) ليس في الأصل كلمة (لا) وقد وضعناها ليستقيم الوزن والمعنى.

(فصل آخر في ذكر الأخوة والأخوان)

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

« إذا آخى أحدكم رجلاً فليسأله عن اسمه واسم أبيه وقبيلته ومنزله، فإنه من واجب الحق، وصافي الأخاء، وإلا فهو مودة حمقاء ».

وروي ان داود قال لإبنه سليمان عليهما السلام: يا بني لا تستدلنّ بأخ أخاً مستفاداً إما استقام لك، ولا تستقلن أن يكون لك عدو واحد، ولا تستكثرن أن يكون لك ألف صديق.

وأُنشد لأمير المؤمنين عليه السلام:

وليس كثيراً ألف خلٍ وصاحبٍ   وإن عدواً واحداً لكثير

ورُويَ أن سليمان عليه السلام قال:

لا تحكموا على رجل بشيء حتى تنظروا من يصاحب، فإنما يعرف الرجل بأشكاله وأقرانه، وينسب إلى أصحابه وأخوانه.

ورويَ أنه كانت بين الحسن والحسين صلوات الله عليهما وحشة، فقيل للحسين عليه السلام: لِمَ لا تدخل على أخيك وهو أسن منك؟ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: أيما اثنان جرى بينهما كلام، فطلب أحدهما رضاء صاحبه كان سابقاً له إلى الجنة، فأكره أن[1] أسبق أبا محمد إلى الجنة، فبلغ ذلك[2] الحسن عليه السلام فقام يجر رداءه حتى دخل على الحسين صلوات الله عليهما فاسترضاه.

حدثني الشريف أبو عبد الله محمد بن عبيد الله بن الحسين بن طاهر الحسيني رحمه الله وكتب لي بخطه قال حدثنا عبد الواحد بن عبد الله بن يونس الموصلي، قال أخبرنا أحمد بن محمد بن رباح، قال حدثنا محمد بن العباس الحسيني عن الحسن بن علي بن أبي حمزة البطائني عن صفوان الجمال قال: وقع بين أبي عبد

---

(١) في النسخة إذا فصوبناها (أن).

(٢) في النسخة زيادة (إلى) والأصوب حذفها.

الله جعفر بن محمد عليهما السلام وبين عبد الله بن الحسن بن الحسين كلام، حتى ارتفع الضوضاء، واجتمع الناس عليهما، فتفرقا عشيتهما تلك، ثم غدوت في حاجةٍ لي، فإذا أنا بأبي عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام على باب عبد الله بن الحسن، وهو يقول: يا جارية قولي لأبي محمد، هذا جعفر بالباب، قال فخرج عبد الله، فقال يا أبا عبد الله ما بَكَّرَ بك؟ فقال: أبو عبد الله عليه السلام: إني ذكرت آيةً من كتاب الله البارحة، فأقلقتني، قال وما هي؟ فقال: قول الله عز وجل:

«والذي يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب» الرعد: ٢١.

فقال عبد الله: صدقت والله يا أبا عبد الله، كأني لم أقرأ هذه الآية قط.

وروي في الكامل أن عبد الله بن علي بن جعفر بن أبي طالب، افتقد صديقاً له من مجلسه، ثم جاءه فقال اين كانت غيبتك؟ قال: خرجت إلى عرضٍ من أعراض المدينة مع صديق لي، فقال له: إن لم تجد من صحبة الرجال بداً فعليك بصحبة من إن صحبته زانك، وإن خفقت له صانك، وإن احتجت إليه [أعانك][1]، وإن رأى منك خلةً سدها، أو حسنةً عدها، أو وعدك لم يحرضك، وإن كثرّت عليه لم يرفضك، وإن سألته أعطاك، وإن أمسكت عنه ابتداك.

وقال بعضهم:

قارب إخوانك في لقائهم تسلم من بوائقهم.

وفي كتب الهند:

ثق بذي العقل والكرم، واطمئن إليه، وواصل غير ذي الكرم واحترس من سيء أخلاقه، وانتفع بعقله، وواصل الكريم غير العاقل وانتفع بكرمه، وانفعه بعقلك، واهرب من اللئيم الأحمق.

وقال آخر:

---

(١) في النسخة مكان كلمة أعانك (مانك).

دع مصارعة أخيك وإن حثّ التراب في فيك.

وقيل:

إياك وطاعة الأسفال فإنه يهجم بصاحبه على مكروه، وإذا صفا لك أخ فكن به أشد ضناً منك بنفائس أموالك. ثم لا يزهدنك فيه أن ترى منه خلقاً تكرهه، فإن نفسك التي هي أخص الأنفس بك لا تطيعك كالمقادة في كل ما تهوى، فكيف تلتمس ذلك من غيرك، وبحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره، فقد قالت العرب: من لك يوماً بأخيك كله.

ووصف إعرابي رجلاً فقال:

كان والله يتحسّى مرارة الأخوان، ويسقيهم عذبه.

وقيل لخالد بن صفوان[1] أي الأخوان أحب إليك؟ فقال: الذي يغفر زللي، ويقبل عللي، ويسد خللي.

وسئل رجل عن صديقين له فقال:

أما أحدهما فعلق[2] مصيبة لا تباع، وأما الآخر فعلق مصيبة لا تبتاع.

وكان آخر يقول:

اللهم احفظني من الصديق، فقيل له ولِمَ؟ قال لأني من العدو متحرز، ومن الصديق آمن وأنشد:

احـــذر مودة مـــاذق[3]   شاب المرارة بالحـــلاوة

يحصى العيوب عليك ايام الصداقة للعداوة

وقيل لبعضهم: كم لك من صديق؟ فقال: لا أدري، لأن الدنيا علي مقبلة، فكل من يلقاني يظهر لي الصداقة، وإنما احصيهم إذا ولّت عني.

---

(١) هو خالد بن صفوان بن عبدالله بن الأهتم من الخطباء البلغاء وهو معدود في البخلاء توفي في عهد السفاح سنة ١٣٢هـ - ٧٥٠م.

(٢) هو النفيس من كل شيء، وهو القطعة أيضاً.

(٣) هو من كان وده غير خالص.

وقيل ليحيى بن خالد[١] وهو في الحبس وقد احتاج: لو كتبت إلى فلان فإنه صديقك، فقال: دعوه يكون صديقاً.

لبعضهم:

قد أخلق الدهر ثوب المكرمات فلا ... تخلق لوجهك في الحاجات ديباجة

ولا يَغرّنْك إخوان تعدهمُ ... أنت العدوُّ لمن كلفته حاجة

لغيره:

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها ... فحيث ما انقلبت يوماً له انقلبوا

مساعدوه على الدنيا فإن وثبت ... يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

لغيره:

هي توبتي من أن أظن جميلا ... بأخ ودودٍ أو أعدّ خليلا

كشفت لي الأيام كل خبيئةٍ ... فوجدت إخوان الصفاء قليلا

الناس سلمك ما رأوك مسلماً ... ورأوا نوالك ظاهراً مبذولا

فإذا امتحنت بمحنةٍ ألفيتهم ... سيفاً عليك مع الردى مسلولا

للشريف الرضي أبي الحسن محمد بن الحسين الموسوي رحمه الله.

وقد كنت مذلاح المشيب بعارضي ... انقر[٢] عن هذا الورى وأُكشّف

فما إذ عرفت الناس إلا ذممتهم ... جزى الله خيراً كل من لست أعرف

ولإبراهيم بن هلال الصابي:

أيا رب كل الناس أبناء علةٍ[٣] ... أما تغلط الدنيا لنا بصديق

وجوه بها من مضمر الغل شاهد ... ذوات أديم في النفاق صفيق[٤]

إذا اعترضوا عند اللقاء فإنهم ... قذىً لعيون أو شجاً لحلوق

وإن عرضوا[٥] برد الوداد وظله ... أسروا من الشحناء حر صديق

---

(١) هو يحيى بن خالد البرمكي كان رجل الدولة العباسية عقلاً ورأياً وسياسة وكان إلى هذا من الخطباء البلغاء الأجواد، حبسه الرشيد بعد فتكه بالبرامكة ومات في الحبس سنة ١٩٠هـ.

(٢) في النسخة (انفِّر) بدل انقِّر

(٣) أي أبناء ضرة.

(٤) الصفيق السميك.

(٥) في النسخة أعرضوا والأوجه ما ذكرناه.

ألا ليتني حيث انتوت أفرخ القطا ... بأقصى محل في البلاد سحيق
أخو وجدةٍ قد آنستني كأنثى ... بها نازل في معشري وفريقي
فذلك خير للفتى من ثوابه ... بمسغبةٍ من صاحب ورفيق

لغيره:

اسم الصديق على كثير واقع ... وقد اختبرت فما وجدت فتىً يفي
كعجائب البحر التي اسماؤها ... مشهورة[1] وشخوصها لم تعرف

لأحمد بن إسماعيل:

مذ سمعنا باسم الصديق فطالبنا ... بمعناه فما استفدنا صديقاً
أتراه في الأرض يوجد لكن ... نحن لا نهتدي إليه طريقا
أم ترى قولهم صديق مجازاً ... لا نرى تحت لفظه تحقيقا

لعبد الملك بن مروان[2]:

صديقك حين تستغني كثير ... ومالك عند فقرك من صديق
فلا تأسف على أحدٍ إذا ما ... لهى عنك الزيارة وقت ضيق

لبعضهم:

هو خل ولكن ... لعن الله ولكن
لفظة في ضمنها السوء ... تحامي في أماكن

« مسألة فقهية »

رجل صحيح دخل على مريض، فقال له: أوصى فقال: بما أوصى. وإنما يرثني زوجتاك واختاك وعمتاك وخالتاك وجدتاك، وفي ذلك يقول الشاعر:

أتيت الوليد ضحىً عائداً ... وقد خامر القلب منه السقاما
فقلت له أوص فيما تركت ... فقال ألا قد كفيت الكلاما
ففي عمتيك وفي جدتيك ... وفي خالتيك تركت السواما

---

(١) في النسخة معروفة مشهورة.

(٢) هو أحد ملوك بني أمية، وهو الذي وطد حكمهم وقضى على عبدالله بن الزبير وعبد الرحمن بن الأشعث وعلى عمرو بن سعيد الاشدق، كان معروفاً بالحزم والحنكة ولد سنة ٢٦هـ وتوفي سنة ٨٦هـ.

وزوجـــــاك حقهما ثابـــت   واختـــاك منـــه تحوز التمامـــا
هنالـــك يـــا بن أبي خالـــدٍ   ظفرت بعشر حويـــت السهامـــا

الجواب

هذا المريض تزوج جدتي الصحيح أم أمه وأم أبيه، فأولد كل واحدةٍ منها ابنتين، فابتناه من جدته أم أمه خالتا الصحيح[1]، وتزوج الصحيح جدتي المريض أم أبيه وأم أمه، وتزوج أبو المريض أم الصحيح، فاولدها ابنتين، فقد ترك المريض أربع بنات، وهما عمتا الصحيح وخالتاه، وترك جدتيه وهما زوجتا الصحيح، وترك امرأتيه وهما جدتا الصحيح، وترك أختيه لأبيه، وهما اختا الصحيح لأمه. فلبناته الثلثان، ولزوجته الثمن، ولجدتيه السدس، ولاختيه لأبيه ما بقي.

وهذه القسمة على مذهب العامة دون الخاصة[2].

شبهة المجبِّرة

استدل المجبرة على أن الايمان فعل الله تعالى، أن قالت: قد قال الله تعالى: (اهدنا الصراط المستقيم)[3]، ولا شك انه أراد بذلك تعليمنا سؤاله، فلا تخلو هذه الهداية التي تسأل فيها من حالتي: إما أن [تكون] الدلالة على ما يقولون، وإما أن يكون الايمان على نقول.

وزعموا أنها لا تصح أن تكون الدلالة لأن الله عز وجل قد فعلها. قالوا: ولا يجوز أن تسأله في فعل ما قد فعله، وإذا لم يصح أن يكون السؤال في الدلالة، فما هو إلا في أن يفعل لنا الايمان فنكون بفعله مهتدين.

---

(١) هنا كما يبدو قد سقط بيان نسبة البنتين المولودتين من أم أبيه، وهما يكونان عمتي الصحيح.

(٢) لأنه لا يرث في مذهب الإمامية في مثل هذه المسألة إلا بنات الميت وزوجتاه أما جدتاه وأختاه فلا ارث لها هنا.

(٣) سورة الفاتحة آية ٦.

نقض عليهم

أما قولهم ان هذه الهداية المسئول فيها لا تخلو في حالتين إما أن تكون الدلالة وإما ان يكون الإيمان فخطأ، لأنها قد تحتمل غير ذلك، ويجوز أن يكون المراد بها فعل الألطاف التي إذا فعلها الله تعالى ازداد بها الصدر إنشراحاً للإيمان، ولا تكون هذه الألطاف إلا لمن آمن واهتدى، وقد تكون الألطاف هداية، قال الله تعالى:

(والذين اهتدوا زادهم هدى) محمد: ١٧

وأما قولهم إنها لا تجوز أن تكون الدلالة فخطأ، لأن الدلالة وإن كان الله قد فعلها وأزاح علل المكلفين بإقامتها، فإنه قد يصح أن تسأله في الزيادة فبها، وأن يقوي خواطرنا بالتيسير لنا إدراك ادلةٍ أُخرى بعدها.

ولا شِبهةٍ في أن ترادف الأدلة زيادة في الهدى.

وأما قولهم إنه لا يجوز سؤال الله تعالى في فعل ما قد فعله فخطأ أيضاً.

وقد يصح أن نسأل الله سبحانه في فعل ما فعله، وفي أن لا يفعل ما يجوز أن فعله.

وقد علَّمنا ذلك في كتابه وندبنا إلى ما فعله عبادة تعبدّنا بها ومصلحة هدانا إليها فقال سبحانه حاكياً عن ملائكته (اغفر للذين تابوا وتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم) غافر: ٧

ولا شك أنه قد فعل ذلك بهم قبل المسألة منهم.

وكقوله: (رب احكم بالحق)
ونحن نعلم أنه لا يحكم إلا به

وكذلك ما تعبدنا به منى من سؤاله أن تصلي على أنبيائه ورسله مع علمنا أنه قد صلى عليهم ورفع أقدارهم.

وحكى لنا سؤال إبراهيم خليله (عليه السلام) في قوله: (ولا تخزني في يوم يبعثون) الشعراء: ٨٧، وهو يعلم أنه لا يخزيه.

وعلمنا سبحانه كيف تقول: (ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به)، ونحن نعلم أنه لا يكلف عباده ما لا يطيقون.

وقد شهد بذلك قوله عز وجل:

(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) البقرة: ٢٨٦.

وإنما جازت العبادة بذلك ونحوه لما فيه من التذلل والخضوع والاستكانة والخشوع، فيجوز على هذا الوجه أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم، بمعنى يدلنا عليه، وإن كان قد دل وهدى جميع المكلفين، قال الله تعالى:

(وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى). فصلت: ١٧.

مسألة لهم

قالت المجبرة ما معنى قول الله تعالى:

(ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) وكيف يجوز أن يتعبدنا بالدعاء، وعندكم أن النسيان من فعله سبحانه، ولا تكليف على الناس في حال نسيانه.

جواب

يقال للمجبرة لسنا نحيل أن يكون المراد من النسيان المذكور في هذه الآية السهو وفقد العلم، ويكون وجه الدعاء إلى الله تعالى بترك المؤاخذة عليه جارياً مجرى ما تقدم ذكره من الإنقطاع إليه، وإظهار الفقر إلى مسألته) والاستعانة به، وإن كان مأموناً منه في المؤاخذة بمثله، على المعنى الذي أوضحنا قبل هذه المسألة، ويجوز أيضاً أن نحمل النسيان المذكور فيها على أن المراد به الترك كما قال سبحانه: (ولقد عهدنا إلى آدم من قبلُ فنسي) طه: ١١٥.

أي فترك، ولولا ذلك لم يكن فعله معصية كقوله تعالى: (نسوا الله فنسيهم) أي تركوا طاعته فتركهم من ثوابه ورحمته، وقد يقول الرّجل لصاحبه: لا تنسني من عطيتك أي لا تتركني منها.

وأنشد أبو عرفه:

ولم أك عند الجود للجود قالياً ولا كنت يوم الروع للطعن ناسياً

يعني تاركاً:

ويشهد بصحة ذلك قول الله عز وجل:
(أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم). البقرة: ٤٤ بمعنى وتتركون أنفسكم.

فصل:

من الفرق بين مذهبنا ومذهب المجبرة في الأفعال. التي نعتقدها.[١]

أن الله تعالى لا يكلف عباده ما لا يطيقون، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم إلا على ما يفعلون.

وأن الإيمان فعل المؤمن. وأن الكفر فعل الكافر.

وتزعم المجبرة: أن الله تعالى يكلف العبد ما لا يطيقه، ويأمره بما لا يقدر عليه ولا يتأتى منه، ويثيبه ويعاقبه على ما لم يفعله والإيمان والكفر فعلان لله تعالى.

ونعتقد أن القدرة التي أعطاها الله تعالى للعبد هي قدرة على الإ يمان والكفر وأنه يفعل بها أيها شاء باختياره، ولا يصح أن يفعلها معاً في حال واحدة لتضادهما. فحصل من هذا أن الذي أمره الله بالإيمان ونهاه عن الكفر قادر على ما أمره به ونهاه عنه، وصح أنه سبحانه لا يكلف العبد إلا بما يستطيعه.

وتزعم المجبرة أن القدرة التي اعطاها الله عز وجل للعبد لا تصلح إلا لشيء واحد، إما للإيمان وإما للكفر.

وأن قدرة الإيمان تضاد قدرة الكفر، ولا يصح اجتماعها معاً.

فالذي معه قدرة الإيمان قد كلف ترك الكفر وهو غير قادر عليه، والذي معه قدرة الكفر قد كلف فعل الإيمان ولا قدرة معه عليه. فحصل من هذا تكليف ما لا يطاق، وإلزام ما لا يستطاع. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ونعتقد أن القدرة على الفعل توجد قبله، وأن الفعل يوجد بعدها،

---

(١) في الأصل نعتقده.

فالمأمور بالإيمان قادر عليه غير فاعلٍ له، وإنما أمر بمعدوم ليوجده وهو يقع ويحصل ثاني وقت القدرة كما قدمناه.

وكذلك المنهي عن الكفر إنما نهي وهو قادر على أن يفعل كفراً يقع منه في ثاني حال قدرته، فإذا كان كافراً وقت قدرته، فكفره ذلك إنما صح منه بقدرةٍ أُخرى تقدمته.

وتزعم المجبرة أن القدرة على الفعل توجد هي والفعل معاً، ولا يتأخر الفعل عنها.

فالمأمور بالإيمان ومعه قدرة عليه إنما أُمر بموجود، والمنهي عن الكفر ومعه قدرة عليه إنما نهي عن موجود، فكأنه قيل للمؤمن افعل ما قد فعلت، والموجود المفعول لا يفعل، وقيل للكافر: لا تفعل ما قد فعلت، وما قد فعل ووجد لا يصلح الإمتناع منه. وهذا تخبيط محكم.

ونعتقد أن القدرة غير موجبةٍ للمقدور ولا حاملة عليه، وأن القادر مُخَيَّر بين أن يفعل الشيء أو ضده بدلاً منه.

وتزعم المجبرة أن القدرة موجبة للمقدور حاملة عليه، ولا يصح وجودها إلا والمقدور معها.

ونعتقد أن المقدور الكائن بالقدرة هو فعل العبد في الحقيقة، سواء كان طاعة أو معصية أو مباحاً، وأن العبد محدث الفعل وموجده.

وتزعم المجبرة أن جميع المقدورات فعل الله تعالى، وهو المحدث لسائر الأفعال في الحقيقة، ولا محدث سواه، ويقولون أن معنى قولنا إن العبد فعل إنما هو اكتسب، فإذا سئلوا عن حقيقة الكسب لم يتحصل منهم فيه فائدة تعقل.

ونعتقد أن الله تعالى لا يريد من العباد إلا الطاعة، وأنه مريد لما أمر به، كاره لما نهى عنه.

وتزعم المجبرة أن الله تعالى يريد من قوم الطاعة ويريد من آخرين معصيته، وأنه قد أمر الكافر بالإيمان ولا يريده منه، فقد أمره بما لا يريد ونهى عما أراد.

ونعتقد أن الله تعالى إذا أراد شيئاً فهو كان يحبه ويرضاه، وإذا كره شيئاً فإنه لا يحبه ولا يرضاه.

وتزعم المجبرة أن الله عز وجل قد يريد شيئاً ويشاؤه ولا يحبه ولا يرضاه، وأنه قد يكره شيئاً ويحبه ويرضاه.

وهذه مناقضة لا تخفي على عاقل.

وكل ما ذهبنا إليه في الأفعال بما وصفناه وعددناه فالمعتزلة توافقنا عليه، وتخالفنا المجبرة فيه. وكل من قال: الله لا يكلف عباده مالا يطيقون ولا يعذبهم على ما لم يفعلوا فهو من أهل العدل، ومن خالف في ذلك فهو من أهل الجور والجبر.

قبح التكليف بما لا يطاق

فصل: من القول في أن الله تعالى لا يكلف عباده ما لا يطيقون.

الذي يدل على أن الله تعالى لا يفعل ذلك، أنا وجدنا قد قَبَّحَهُ في عقولنا، لا لعلةٍ من نهي أو غيره، بل جعل العقول شاهدة بأنه قبيح لنفسه. وما كان قبيحاً لنفسه لا للنهي عنه، فلن يجوز أن يفعله فاعل إلا وقد خرج من كونه حكيماً، ولو جاز أن يكلفنا سبحانه وتعالى مالا نطيق، لجاز أن يكلف الأعمى النظر، والأخرس النطق، والزمن[1] العَدْوَ، ولجاز أن يكلف السيد منا عبده ذلك، ويعاقبه على مالا يقدر عليه. وهذا واضح البطلان، فَعُلِمَ أنه لا يكلف أحداً من عباده إلا ما يطيقه ويستطيعه.

فإن قالوا: إن تكليف مالا يطاق قبيح، وهو حسنٌ من خالقنا، لأن الخلقَ خلقُه، والأمَر أمرُه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

قيل لهم: فأجيزوا عليه الإخبار بالكذب، وقولَنا إن ذلك قبيح بيننا، حسن من خالقنا، لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

---

(١) الزّمِن هو المقعد الذي لا يستطيع المشي.

فإن اعتقدوا ذلك وجب أن لا يثقوا بشيء مما تضمنه القرآن من الأخبار، وإن امتنعوا طولبوا بعلة الإمتناع.

فمهما قالوه في قبح الإخبار بالكذب من قول، قيل لهم: قد قبح تكليف مالا يطاق مثله.

فأما ما يشهد من القرآن بأن الله تعالى لا يكلف ما لا يطاق، فقوله سبحانه:

(لا يكلف الله نفساً إلا وُسعها) البقرة: ٢٨٦.

وقوله عز وجل:

(لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها) الطلاق: ٧

فصل: من القول في أن القدرة على الايمان هي قدرة على الكفر

مما يدل على ذلك أن الكافر مأمور بالإيمان، فلو كانت قدرة الإيمان ليست معه، كان قد كُلِّفَ مالا يطيقه، وقد تقدم القول في فساد هذا.

وإذا كانت معه فلا يجوز أن تكون غير قدرة الكفر الحاصلة له، لما في ذلك من اجتماع الضدين. فعُلِمَ أنها قدرة واحدة تصلح للضدين على أن يفعل بها ما يتعلق به اختيار المكلف منها.

فإن قالوا: إذا كانت قدرة على الضدين، فيجب أن يفعلها معاً.

قيل لهم: لا يجب ذلك، لأن القدرة غير موجبة للفعل، والقادر بها مُخَيَّر غير مجبر.

فإن قالوا: فجوزوا أن يختارهما فيفعلهما.

قيل لهم: هذا غير صحيح ولا جائز، لأن الإختيار هو أن يختار أحدهما على الآخر فيفعله بدلاً منه، ولا يصح ذلك فيهما معاً.

وبعد فهما ضدان، وكل واحدٍ منهما تَرْكٌ لصاحبه، فلا يصح أن يوجدا في حالٍ واحدٍ معاً. وقد أجمع المسلمون على أن الله تعالى يقدر على أن يبقي العبد

على حاله، ويغنيه ويحييه، ويميته، ولا يجوز أن يفعل ذلك أجمع في وقت واحد.

فإن قيل: فإذا كان الله تعالى قد أعطى العبد قدرة، تصلح للكفر، فقد أراد الكفر منه.

قلنا: ليس الأمر كذلك، لأن الله سبحانه إنما أعطاه القدرة ليطيع بها مختاراً، فلو كانت لا تصلح إلا للطاعة، لكان في فعلها مضطراً. ومثل القدرة كمثل السيف الذي يعطيه السيد لعبده ليقتل به أعدائه، وهو يصلح أن يقتل به أولياءه، وكالدراهم التي تصلح أن تنفق في الطاعة والمعصية، ويدفع إلى من ينفقها في الطاعة، وينفقها في المعصية. والقدرة معنى تحل[1] القادر، يصح به الفعل، وهي القوة، وهي أيضاً الإستطاعة.

فصل من القول في أن القدرة على الفعل توجد قبله

الدليل على أن القدرة متقدمة في الوجود للفعل أنها يحتاج إليها ليحدث بها الفعل، ويخرج بها من العدم إلى الوجود. فمتى وجدت والفعل موجود، فقد وجدت في الإستغناء عنه.[2]

ومما يدل على تقدمها، أنها لو كانت مع الفعل، كان الكافر غير قادرٍ على الإيمان، لأنه لو قدر عليه لكان موجوداً منه على هذا المذهب، فكأن يكون مؤمناً في حال كفره، وهذا فاسد.

ولو لم يكن قادراً على الإيمان لَما حسن أن يؤمر به ويعاقب على تركه، لما قدمناه من قبح تكليف ما لا يطاق وبطلانه.

وقد قال أصحابنا مؤكدين القول بتقدُّم القدرة على الفعل فيمن كان في يده شيء فألقاه، إن استطاعة الإلقاء لا تخلو من حالتين: إما أن تأتيه والشيء في يده، أو تأتيه وهو خارج عن يده، فإن كانت تأتيه والشيء في يده، فقد صح

---

(١) هكذا في النسخة

(٢) هذا بيان لعدم صحة القول بمقارنة القدرة للمقدور.

تقدم القدرة على الإلقاء، وهو الذي قلنا، وإن كانت تأتيه والشيء خارج عن يده، ملقى عنها، فقد أتت في حال الغنى عنها.

وفي ذلك أيضاً أنه قد قدر على أن يلقي ما ليس في يده، وهذا محال. وليس بين كون الشيء في يده، وكونه خارجاً عنها واسطة ومنزلة ثالثة.

وقد قال أهل العلم أيضاً:

لو كانت القدرة والفعل يوجدان معاً، ولا يصح غير هذا، لم تكن القدرة المؤثرة فيه بأولى من أن يكون هو المؤثر فيها.

وقالوا: ولو كان لا يصح وجود القدرة حتى يوجد الفعل، كما لا يصح وجود الفعل حتى توجد القدرة، لكان لا يصح أن يوجدا.[1]

حدثني شيخي رحمه الله[2]:

إن متكلمين أحدهما عدلي، والآخر جبري، كانا كثيراً ما يتكلمان في هذه المسألة، وإن الجبري أتى منزل العدلي، فدَقَّ عليه الباب، فقال العدل من ذا؟ قال: أنا فلان، قال له العدلي: أدخل، قال له الجبري: افتح لي حتى أدخل، قال العدلي: ادخل حتى أفتح، فأنكر هذا عليه وقال له: لا يصح دخولي حتى يتقدم الفتح. فوافقه على قوله في القدرة والفعل، وأعلمه بذلك وجوب تقدمها عليه، فانتقل الجبري عن مذهبه وصار إلى الحق.

فصل: من القول في أن القدرة غير موجبةٍ للفعل

الدليل على أنها غير موجبةٍ ما قدمناه، من أنها قدرة على الضدين، فلو كانت موجبةً لأوجبتها فأدَّى ذلك إلى المحال، وكون المكلف حاضراً ومسافراً في حالٍ، ومتحركاً ساكناً في حال.

---

(١) وذلك لأن كل واحدٍ من الفعل والقدرة يتوقف وجوده على وجود الآخر المتوقف على نفسه وهو من الدور المحال، وما ترتب على المحال محال.

(٢) المراد به هو الشيخ المفيد.

ولو كانت القدرة أيضاً موجبة، لكان القادر بها مضطراً، ويخرج من كونه مختاراً. والمضطر لا معنى لتوجه الأمر والنهي إليه، ولا يحسن ثوابه وعقابه على أمرٍ هو مضطر فيه

[أفعال الإنسان]

فصل: من القول في أن الله تعالى لم يخلق أفعال العباد وأنها فعلٌ لهم على سبيل الإحداث والإيجاد.

الدليل على أنه سبحانه لم يفعلها أن فيها قبايح، من كفرٍ وفسقٍ، وظلم، وكذب، وليس بحكيم من فعل القبائح. ولا يجوز من الحكيم أيضاً سب نفسه وسوء الثناء عليه.

ثم نحن نعلم أن من فعل شيئاً اشتق له إسم من فعله، كما يقال فمن فعل الحركة أنه متحرك، ومن فعل السكون أنه ساكن، ومن فعل الضرب ضارب، ومن فعل القتل قاتل. فلو كان الله تعالى هو الفاعل لأفعالنا والخالق لها دوننا، لوجب أن يسمى بها الله عز وجل عن ذلك وتعالى.

والذي يدل على أنها فعل لنا دون غيرنا، وقوعها بحسب تصورنا وإرادتنا، وانتفاء المنفي منها بحسب كراهتنا، وانتظام ما ينتظم منها بحسب مبلغ علومنا، واختلالها بقدر اختلالاتنا.

فلو كانت فعلاً لغيرنا لم يكن الأمر مقصوداً على ما ذكرنا. ونحن قد نفرق- ضرورةً- بين حركةٍ نحدثها في بعض جوارحنا، وبين الرعشة إذا حدثت في عضوٍ منا، ونرى وقوع إحدى الحركتين عن قصد، ووقوع الأُخر بخلاف ذلك، فلسنا نشك في أن إحداهما حادثة منا، وفعل في الحقيقة لنا، وهي الكائنة عن قصدنا.

وشيء آخر: وهو أن الله تعالى خلق فينا الشيب والهرم، والصحة والسقم، ولم يأمرنا بشيء من ذلك، ولا نهانا عنه، ولا مدح الشاب على شبيبته، ولا ذَمَّ الشيخ لشيخوخته، عدلاً منه سبحانه في حكمه. فلو كانت الطاعات والمعاصي

أيضاً من فعله وخلقه، لجرت مجرى ذلك، وقبح أن يأمرنا بطاعة، أو ينهانا عن معصية، ولم يصح على شيء من ذلك مدح ولا ذم، ولا ثواب ولا عقاب، وهذا واضح لمن عقل.

فصل: من القول أن الله تعالى لا يريد من خلقه إلا الطاعة، وأنه كاره للمعاصي كلها.

وأما الذي يدل على أنه سبحانه لا يريد المعاصي والقبائح، ولا يجوز أن يشاء شيئاً منها، وأنه كاره لها، ساخط لجميعها. فهو أنه تعالى نهى عنها، والنهي إنما يكون نهياً بكراهة الناهي للفعل المنهي عنه.

ألا ترى أن لا يجوز أن ينهي إلا عما يكرهه، فلو كان النهي في كونه نهياً غير مفتقرة[1] إلى الكراهية لم يجب ما ذكرناه. لأنه لا فرق بين قول أحدنا لغيره: لا تفعل كذا وكذا ناهياً له، وبين قوله: أنا كاره له، كما لا فرق بين قوله: افعل، أمراً له، وبين قول: أنا مريد منك أن تفعل.

وإذا كان سبحانه كارهاً لجميع المعاصي والقبائح من حيت كونه ناهياً عنها، استحال أن يكون مريداً لها، لاستحالة أن يكون مريداً، كارهاً لأمرٍ واحد على وجهٍ واحد.

ويدل على ذلك أيضاً أنه لو كان مريداً للقبيح لوجب أن يكون على صفة نقصٍ وذمٍ إن كان مريداً له بلا إرادة، وإن كان مريداً بإرادة وجب أن يكون فاعلاً للقبيح، لأن إرادة القبيح قبيحة، ولا يكون كذلك، كما في الشاهد ،كما لا خلاف في قبح الظلم من أحدنا.

وقد دل السمع من ذلك على مثل ما دل عليه العقل، قال الله عز وجل:

(وما الله يريد ظلماً للعباد) غافر: ٣١

وفي موضع آخر:

---

(١) والأولى مفتقر بدل (مفتقرة).

(وما الله يريد ظلماً للعالمين) آل عمران: ١٠٨
وقال الله تعالى:
(كل ذلك كان سيّئه عند ربك مكروهاً) الإسراء: ٣٨
وقال تعالى:
(يريد الله بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر) البقرة: ١٨٥.
ونعلم أن الكفر أعظم العسر، وقال تعالى:
(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) الذاريات: ٥٦.
فإذا كان خَلَقَهم للعبادة فلا يجوز أن يريد منهم غيرها، وقال:
(ولا يرضى لعباده الكفر، وإن تشكروا يرضه لكم) الزمر: ٧

إيراد على أهل الجبر

فصل:

وقد سأل أهل العدل المجبرة عن مسألة، ألزموهم بها ما لم يجدوا فيه حيلة.

وذلك أنهم قالوا لهم:

أخبرونا عن رجل نكح إحدى المحرمات عليه بأحد المساجد المعظمة، في نهار شهر رمضان، وهو عالم غير جاهل، أتقولون إن الله تعالى أراد منه هذا الفعل على هذه الصفة؟

قالت المجبرة: بل الله أراده.

قال لهم أهل العدل: أخبرونا عن إبليس اللعين، هل أراد ذلك أم كرهه؟

قالت المجبرة: بلى، هذا إنما يريده إبليس ويؤثره.

قال لهم أهل العدل: فأخبرونا: لو حضر النبي (ص)، وعلم بذلك أكان يريده أم يكره؟

قالت المجبرة: بل يكرهه ولا يريده.

قال لهم أهل العدل: فقد لزمكم على هذا أن تثنوا على إبليس اللعين، وتقولوا: إنه محمود لموافقة إرادته لإرادة الله عز وجل. وهذا ما ليس فيه حيلة لكم مع تمسككم بمذهبكم.

[حكاية للمؤلف في مجلس بعض الرؤساء]

وقد كنت أوردت هذه المسألة في مجلس بعض الرؤساء مستظرفاً له بها، وعنده جمع من الناس، فقال رجل ممن كان في المجلس يميل إلى الجبر: إن كان هذه المسألة لا حيلة للمجبرة فيها، فعليكم أنتم أيضاً مسألة لهم أُخرى، لا خلاص لكم مما يلزمكم منها.

فقلت: وما هي؟ قال: يقال لكم إذا كان الله تعالى لا يشاء المعصية، وإبليس يشاؤها، ثم وقعت معصية من المعاصي، فقد لزم من هذا أن تكون مشيئة إبليس غلبت مشيئة رب العالمين.

فقلت: إنما تصح الغلبة عند الضعف وعدم القدرة، ولو كنا نقول إن الله تعالى لا يقدر أن يجبر العبد على الطاعة، ويضطره إليها، ويحيل بينه وبين المعصية بالقسر والإلجاء إلى غيرها، لزمنا ما ذكرت، وإلا بخلاف ذلك. وعندنا أن الله تعالى يقدر أن يجبر عباده، ويضطرهم، ويحيل بينهم وبين ما اختاروه، فليس يلزمنا ما ذكرتم من الغلبة.

وقد أبان الله تعالى فقال:

(ولو شاء ربك لجعل الناس أُمة واحدة) هود: ١١٨

وقال تعالى:

ولو شئنا لآتينا كل نفسٍ هداها) السجدة: ١٣

وإنما لم يفعل ذلك، لما فيه من الخروج عن سنن التكليف، وبطلان استحقاق العباد للمدح والذم. فتأمل ما ذكرت تجده صحيحاً، فلم يأت بحرفٍ بعد هذا.

جناية المجبرة على الإسلام

فصل: اعلم- أيدك الله تعالى- أن جناية المجبرة على الإسلام كثيرة، وبليتها عظيمة، بحملها المعاصي على الله تعالى، وقولها أنه لا يكون إلا ما أراده الله تعالى، وأنه لا قدرة للكافر على الخلاص من كفره، ولا سبيل للفاسق إلى ترك فسقه، وأن الله تعالى قضى بالمعاصي على قوم، وخلقها لهم، وفعلها فيهم، ليعاقبهم عليها. وقضى بالطاعات على قومٍ، وخلقهم لها، وفعلها فيهم، ليثيبهم عليها.

وهذا الإعتقاد القبيح يسقط عن المكلف الحرص على فعل الطاعة، والإجتهاد والإحتناب عن المعصية، لأنه يرى أن اجتهاده لا ينفع، وحرصه لا يغني، بل لا إجتهاد في الحقيقة ولا حرص، لأنه مفعول فيه غير فاعل، وموجد فيه غير موجد، ومخلوق لشيء لا محيد له عنه، ومسبوق لأمر لا انفصال له منه، فأي خوفٍ مع هذا يقع؟ وأي وعيدٍ معه ينفع. نعوذ بالله مما يقولون، ونبرأ إليه مما يعتقدون. وأُنشدت لبعض أهل العدل شعراً:

سألـــت المخنـــث عن فعلـــه
عـــلامَ تَخَنَّـــثُ يـــا مـــاذق
فقـــال ابتـــلاني بـــدائي العضـــال
وأسلمـــني القـــدر السابـــق
ولُمـــت الزنـــاة عـــلى فعلهم
فقالوا: بهـــذا قضى الخالـــق
وقلـــت لآكـــل مـــال اليتـــيم
[ألؤماً][1] وأنـــت امرؤ فاسق
فقـــال ولجلـــج في قولـــه
أكلـــت وأطعمـــني الرازق

(١) اضفنا هذه الكلمة لإستقامة الوزن، وهي في النسخة غير موجودة.

وكــــلٌّ يحيــــل عـــلى ربـــه
وـمـــا فيهم أحـــدٌ صـــادق

التجوز في التعبير بالإستطاعة عن الفعل، وبنفيها عن نفيه

فصل: أعلم أيدك الله تعالى، [أنه] قد يعبر عن نفي الفعل بنفي الإستطاعة توسعاً ومجازاً، فيقال لمن يعلم أنه لا يفعل شيئاً، لثقله على قلبه، ونفور طبعه منه، إنك لا تستطيعه، وإن كان في الحقيقة مستطيعاً له، ويقول أحدنا لمن يعلم أنه يبغضه: إنك لا تستطيع أن تنظر إلي، والمعنى أن ذلك يثقل عليك، ويقال للمريض الذي يجهده الصوم: إنك لا تستطيع الصيام، وهو في الحقيقة يستطيعه، ولكن بمشقةٍ تدخل عليه، وثقل يناله منه.

وعلى هذا المعنى يتأول قول الله جل إسمه فيما حكاه عن العالم الذي تبعه موسى عليه السلام، حيث قال له موسى:

(هل اتبعك على أن تعلمني مما عُلِّمتَ منه رشداً، قال إنك لن تستطيع معي صبراً). الكهف: ٦٦ - ٦٧

المعنى فيه أنك لا تصبر ولا يخف عليك، وأنه يثقل على طبيعتك، فعبَّر عن نفي الصبر بنفي الإستطاعة، وإلا فهو قادر مستطيع، فيدل على ذلك قول موسى عليه السلام في جوابه له:

(ستجدني إن شاء الله صابراً) الكهف: ٦٩.

ولم يقل: إن شاء الله مستطيعاً، ومن حق الجواب أن يطابق السؤال، فدل جوابه على أن الإستطاعة المذكورة في الإبتداء هي عبارة عن الفعل نفسه مجازاً كما ذكرنا.

وقد يستعمل الناس هذا كثيراً، وأُنشده شعراً

أرى شهوات لست أُسطيــع تركهــا
وأحــــذر إن واقعتهـــا ضرر الإثم

فـلا النفس تنهـاني وتبصر رشدهـا
وأكره إتيـــان العقــاب عـلى عـلم

ولسنا نشك في أن الشاعر عنى بقوله لست أستطيع تركها، أن تركها يثقل عليه، ولا يلاءم طبعه، وأنه لم ينف الإستطاعة في الحقيقة عن نفسه، ولو كان أراد نفيها لم يكن معنى لقوله (واحذر أن واقعتها ضرر الإثم)، وقوله (وأكره اتيان العقاب على علم).

وعلى هذا المعنى يتأول قول الله عز وجل (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) هود: ٢٠

وهو أنهم لاستثقالهم استماع آيات الله تعالى، وكراهتهم تأملها وتدبرها، جروا مجرى من لا يستطيع السمع. كما يقال لمن عُهدَ منه العنـاد واستثقال استماع الحجج والبينات، ما يستطيع استماع الحق، وما يطيق أن يذكر له.

قال الأعشى:[1]

ودع هريرة إن الركـــب مرتحل
وهـل تطيـق وداعـاً أيهـا الرجـل

ونحن نعلم أنه قادر على الوداع، وإنما نفى قدرته عليه من حيث الكراهية والإستثقال، ومعنى قوله: (وما كانوا يبصرون) أن أبصارهم لم تكن نافعة لهم، ولا مجدية عليهم نفعاً، لإعراضهم عن تأمل آيات الله عز وجل وتفهمها، فلما انتفت عنهم منفعة الإبصار جاز أن ينفي عنهم الإبصار نفسه، كما يقال عن المعرض عن الحق، العادل عن تأمله[2] مالك لا تسمع ولا تعقل.

وقد تأول الشريف المرتضى رحمه الله هذه الآية على وجهٍ آخر[3]، وهو أن يكون (ما) في قوله (ما كانوا يستطيعون السمع) ليست للنفي، بل تجري مجرى

---

(١) هذا البيت مطلع معلقة الأعشى المشهورة وهو من شعراء الجاهلية المشهورين أدرك الإسلام ولم يسلم توفي سنة (٧) للهجرة و(٦٢٩م) وهو الأعشى ميمون بن قيس ينتهي إلى نزار، ويقال له صناجة العرب لجودة شعره.

(٢) في الأصل تأملها.

(٣) أنظر كلامه على هذه الآية في الآمالي م٢ ص١٦٣ - ١٦٧.

قولهم: لاواصلتك ما لاح نجم، (لا أقيمن على مودتك ما طلعت شمس).

قال الله تعالى:

(يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون). هود: ٢٠.

ويكون المعنى اتصال عذابهم ودوامه ما كانوا أحياءً.

مسألة:

وقد سألت المجبرة عن معنى قول الله تعالى (صم بكم عمي فهم لا يرجعون) البقرة: ١٨ وظنوا أن لهم في هذه الآية حجة يتشبثون بها.

والجواب: إن ظاهر هذه الآية يقتضي أن المنافقين كانوا بهذه الصفات، ومعلوم من حالهم أنهم كانوا بخلافها، ولا شيء أدل على فساد التعلق بظاهرها من أن يعلم أن العيان بخلاقه، فوجب- ضرورة- صرف الآية عن ظاهرها إلى ما يقتضيه الصواب من تأويلها.

والمراد بها أنهم لما لم ينتفعوا بهذه الحواس والآلات فيما خلقت له، وأنعم عليهم بها لأجله، صاروا كأنهم قد سُلبوها وحُرموها. وهذا مستعمل في الشاهد، يقول أحدنا لغيره وقد بَيَّنَ له الشيء وبالغ في إيضاحه، وهو غير متأمل بوروده: إنك أصم وأعمى فلا تستطيع كذا تسمع [قد ختم](١) على قلبك.

وربما تجاوز ذلك فقال له: إنك ميت لا تفهم ولا تعقل، قال الله تعالى:

(إنك لا تسمع الموتى) النمل: ٨٠.

وفي هذا المعنى قال الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حياً
ولكن لا حياة لمن تنادي(٢)

---

(١) قد أضفنا ما بين القوسين تصحيحاً للتعبير.

(٢) هذا البيت على ما أحفظه لأبي تمام الطائي الشاعر المشهور توفي سنة ٢٣١، وبعد البيت قوله:
ونـاراً إن نفخت بهـا أضـاءت ... ولكن أنـت تنفـخ في رمـاد

شبهة للمجبرة

وقد احتجت في تصحيح قولها أن الله تعالى خلق طائفة من خلقه ليعذبهم، بقوله سبحانه:

(ولقد ذرأنا كثيراً من الجن والانس) الإعراف: ١٧٩.

قالت: فبيَّن أنه خلقهم لمجرد العذاب في النار، لا في غيره.

نقض عليهم

يقال لهم: حمل هذه الآية على ظاهرها منافٍ للعدل والحكمة، ومباين لما وصف نفسه به من الرأفة والرحمة، ومناقض لقوله عز وجل:

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) الذاريات: ٥٦.

ولقوله تعالى:

(إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرةً وأصلا). الفتح: ٤٥ - ٤٦.

من ص ٧٧ الى ص ١٨٤

ولقوله سبحانه:

(ليذكّروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً) الفرقان: ٥٠

ولقوله جل إسمه:

(أنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) الحديد: ٢٥

ولقوله تبارك وتعالى:

(وهو الذي أنزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور) الحديد: ٩

فالواجب ردها إلى ما يلائم هذه الآيات المحكمات، ويوافق الحجج العقلية والبينات.

والوجه في ذلك أن يكون المراد بقوله (ولقد ذرأنا لجهنم) العاقبة، فكأنه قال:

ولقد ذرأناهم، والمعلوم عندنا أن مصيرهم ومآل أمرهم، وعاقبة حالهم، دخول جهنم بسوء اختيارهم، قال الله عز وجل:

(فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحَزَناً) القصص: ٨ والمراد أن ذلك يكون أمرهم، لأنهم ما التقطوه إلا ليسروا به، وكقوله سبحانه:

(وكذالك جعلنا في كل قريةٍ أكابر مجرميها ليمكروا فيها) الأنعام: ١٢٣[1]

والمراد أن أمرهم يؤول إلى هذه، وعاقبتهم إليه، لا لأن الله عز وجل جعلهم فيها ليعصوا ويمكروا.

وقوله (إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً) وإنما أخبر بذلك عن قاقبتهم.

وهذا ظاهر في اللغة، مستعمل بين أهلها قال الشاعر:

أُمَّ سماكٍ فلا تجزعي فللموت ما تلد الوالدة.

وقال آخر:

فللموت تغذوا الوالدات سخالها
كما لخراب الدور تبنى المساكن

وهي لا تغذو أولادها للموت، ولا تبنى المساكن لخرابها، وإنما تبنى لعمارتها وسكناها، وتغذى السخال لمنفعتها ونموها، ولكن لما كانت العاقبة تؤول إلى الموت والخراب جاز أن يقال ذلك.

ومثله قول الآخر:

أموالنا لذوي الميراث نجمعها
ودورنا لخراب الدهر نبنيها

والمعنى في هذا كله واحد، والمقصود به العاقبة، وفيما ذكرناه كفاية.

---

(١) وتسمى هذه اللام في مثل هاتين الآيتين في عرف النحاة لام العاقبة.

مسألة لهم أخرى

وقد احتجوا لمذهبهم بقول الله تعالى:

(لا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم، إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون). هود: ٢٤

وقالوا: ظاهر هذه الآية يدل على أن نصح النبي (ص) لا ينفع الكفار الذين أراد الله بهم الكفر والغواية، وهذا خلاف مذهبكم.

نقض عليهم

يقال لهم:

إن الغواية هي الخيبة وحرمان الثواب.

قال الشاعر:

فمن يلـق خـيراً يحمـد النـاس أمره
ومن يغو لا يعـدم عـلى الغي لائمة

فكأنه قال: ولا ينفعكم نصحي إن كنتم مصرين على الكفر الذي يريد الله معه أن يحرمكم الثواب ويخيبكم منه.

وأيضاً: قد سمى الله تعالى العقاب غياً، قال: (فسوف يلقون غياً) مريم: ٥٩

فيكون المعنى على هذا الوجه: إن كان الله يريد أن يعاقبكم بسوء أعمالكم وكفركم، فليس ينفعكم نصحي إلا بأن تفعلوا وتتوبوا.

وما قبل الآية يشهد بصحة هذا، وإن القوم استعجلوا عقاب الله تعالى، فقالوا: يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصاديقين، قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين، ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون. سورة هود: ٣٣- ٣٤

ووجه آخر في الآية

وهو أنه قد كان في قوم نوح طائفة [تقول] بالجبر، فنبههم بهذا القول على فساد مذاهبهم، وقال لهم على طريق الإنكار عليهم، والتعجب من قولهم: إن كان القول كما تقولون من أن الله يفعل فيكم الكفر والفساد فما ينفعكم نصحي، فلا تطلبوا مني نصحاً وأنتم على قولكم لا تنتفعون به.

من هم القدرية؟

(فصل: في معرفة القدرية)

أعلم أنا وجدنا كل فرقةٍ تعرف باسم أو تنعت بنعتٍ فهي ترتضيه ولا تنكره، سواء كان مشتقاً من فعلٍ فعلته، أو قول قالته، أو من اسم مُقدَّم لها تبعته، ولم نجد في أسماء الفرق كلها اسماً ينكره أصحابه، ويتبرأ منه أهله، ولا يعترف أحد به إلا القدرية. فأهل العدل يقولون لأهل الجبر: أنتم القدرية، وأهل الجبر يقولون لأهل العدل: أنتم القدرية.

وإنما تبرأ الجميع من هذا الإسم لأن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن القدرية، وأخبر أنهم مجوس الأمة، والأخبار بذلك مشتهرة.

فمنها: ما حدثني به أبو القاسم هبة الله بن ابراهيم بن عمر الصواف بمصر، قال: حدثنا أبو بكر أحمد بن مروان المالكي، قال: حدثنا عباس بن محمد الدوسي، قال: حدثنا عثمان بن زفر، قال: حدثنا أبو معشر عن سعيد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«لكل أُمةٍ مجوس، ومجوس هذه الأُمة القدرية، فإن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم، وإن لقيتموهم في طريق فالجأوهم إلى ضيقه».

وهذا القول من رسول الله (ص) دلالة لنا على المعرفة بالقدرية، وتمييز لهم من بين الأُمة، لأنهم لم ينعتهم بالمجوسية إلا لموضع المشابهة بينهم وبين المجوس في المقال والإعتقاد. وقد علمنا - بغير شك ولا ارتياب - أن من قول المجوس أن الله تعالى فاعل لجميع ما سر ولَذَّ وأبهج، ومالت إليه الأنفس، واشتهته الطباع،

كائناً ما كان، حتى أنه فاعل الملاهي والأغاني، وكلما دخل في هذا الباب، وهذا مذهب المجبرة بغير خلاف.

ويقول المجوس إن الله تعالى محمود على فعل الخير، وهو لا يقدر على ضده، وإن ابليس مذموم على فعل الشر ولا يقدر على ضده. وهذا بعينه يضاهي قول المجبرة: إن المؤمن محمود على الإيمان وهو لا يقدر على ضده، وإن الكافر مذموم على الكفر ولا يقدر على ضده.

وتذهب المجوس إلى القول بتكليف ما لا يطاق، وهو رأيها الذي تدين به في الإعتقاد. ولهم في السنة يوم، يأخذون فيه بقرة، قد زينوها، فيربطون يديها ورجليها أوثق رباط. ثم يقربونها إلى سفح الجبل ويضربونها لتصعد، فإذا رأوا أن قد تعذر عليها ذلك قتلوها، ويسمون هذا اليوم- عيد الباقور-.

وهذا هو مذهب المجبرة في القول بتكليف ما لا يستطاع، فهم مجوس هذه الأمة وقدريتها بما اقتضاه هذا البيان.

وقد قالت العدلية للمجبرة: إن من أدل دليل على أنكم القدرية قولكم: إن جميع أفعال العباد بقدر من الله عز وجل، وإنه الذي قَدّرَ على المؤمن أن يكون مؤمناً، وعلى الكافر أن يكون كافراً، وإنه لا يكون شيء إلا أن يُقدِّره الله تعالى.

قالت المجبرة: بل أنتم أحق بهذا لأنكم نفيتم القدر وجحدتموه، وأنكرتم أن يكون الله سبحانه قَدَّر لعباده ما اكتسبوه.

قالت العدلية: قد غلطتم فيما ذكرتموه، وجرتم فيما قضيتموه، لأن الشيء يجب أن ينسب إلى من أثبته وأوجبه، لا إلى من نفاه وسلبه، ويضاف إلى من أقر به واعتقده، لا إلى من أنكره وجحده، فتأملوا قولنا تعلموا أنكم القدرية دوننا.

تهمة المعتزلة للشيعة بالإرجاء

فصل: وقد ظنت المعتزلة أن الشيعة هم المرجئة، لقولهم: إنا نرجو من الله تعالى العفو عن المؤمن إذا ارتكب معصية ومات قبل أن تقع منه التوبة.

وهذا غلط منهم في التسمية، لأن المرجئة إسم مشتق من الإرجاء، وهو التأخير، يقال لمن أخر أمراً: أرجأت الأمر يا رجل فأنت مرجئٌ، قال الله: (أرجه وأخاه) الإعراف: ١١١أي أخره، وقال تعالى:

(وآخرون مرجون لأمر الله). التوبة: ١٠٦ يعني مؤخرون إلى مشيئته.

وأما الرجاء فإنما يقال منه: رجوت فأنا راج، فيجب أن تكون الشيعة راجية لا مرجئة.

والمرجئة هم الذين أخروا الأعمال ولم يعتقدوها من فرائض الإيمان، وقد لعنهم النبي عليه السلام فيما وردت به الأخبار.

حدثنا القاضي أبو الحسن محمد بن علي بن محمد بن صخر الأزدي البصري بمصر سنة ست وعشرين وأربعمائة، قراءة منه علينا، قال: أخبرنا أبو القاسم عمر بن محمد بن يوسف، قال: حدثنا علي بن محمد بن مهرويه القزويني ببغداد سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة، قال: حدثنا داود بن سليمان العادي، قال: حدثنا علي بن موسى الرضا، قال:[1] حدثنا أبي الحسين بن علي، قال حدثني أبي علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: قال رسول الله (ص): صنفان من أُمتي ليس لهم في الآخرة نصيب: المرجئة والقدرية.

أغلاط للمعتزلة

فصل: وأعلم أن المعتزلة لها من الأغلاط القبيحة، والزلات الفضيحة ما يكثر تعداده. وقد صنف ابن الراوندي[2] كتاب فضائحهم، فأورد فيه جملاً

---

(١) يبدو أن هنا سقطاً في سلسلة السند، وهي: حدثنا أبي موسى بن جعفر قال حدثنا أبي، جعفر بن محمد، قال حدثني أبي محمد بن علي قال: حدثني أبي الخير إلخ.

(٢) هو أحمد بن الحسين بن اسحاق البغدادي مات سنة ٢٤٥هـ له كتب كثيرة منها: كتاب فضيحة المعتزلة الذي رد عليه ابن الخياط المعتزلي بكتابه الإنتصار وهو يرمي بالزندقة.

من اعتقاداتهم وآراء شيوخهم، مما ينافر العقول، ويضاد شريعة الرسول (ص).

وقد وردت الأخبار بذمهم من أهل البيت، ولعنهم جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، فقال:

(لعن الله المعتزلة، أرادت أن توحّد فألحدت، ورامت أن ترفع التشبيه فأثبتت).

فمن أقبح ما تعتقده المعتزلة، وتضاهي فيه قول الملحدة، قولهم: إن الأشياء كلها كانت قبل حدوثها أشياءً، ثم لم يقنعهم ذلك حتى قالوا: إن الجواهر في حال عدمها جواهر، وإن الأعراض قبل أن توجد كانت أعراضاً، حتى أن السواد عندهم قد كان في عدمه سواداً. وكذلك الحركة قد كانت قبل وجودها حركة. وسائر الأعراض يقولون فيها هذا المقال.

ويزعمون أن جميع ذلك في العدم ذوات، كما هو في الوجود ذوات.

وهذا إنكار لفعل الفاعل، ومضاهاة لمقال الملحدين. وقد أطلقوا هذا القول إطلاقاً، فقالوا: إن الجواهر والأعراض ليست بفاعلها. وفسروا ذلك، فقالوا: أردنا أن الجوهر لم يكن جوهراً بفاعله، ولا كان العرض أيضاً بفاعله، وإنها على ما هما عليه من ذلك لنفوسهما قبل وجودهما، ولا بجاعلٍ جعلها. وهذا تصريح غير تلويح.

وقال لهم شيوخنا وعلماؤنا: فإذا كانت الذوات في عدمها ذواتاً، والجواهر والأعراض قبل وجودها جواهر وأعراضاً، فما الذي صنع الصانع؟

قالت المعتزلة: أوجد هذه الذوات.

قال أهل الحق لهم: ما معنى قولكم: أوجدها؟ وأنتم ترون أنها لم تكن أشياء به، ولا ذواتاً بفعله، ولا جواهر ولا أعراضاً أيضاً بصنعته.

قالت المعتزلة: معنى قولنا أنه أوجدها، أنه فعل لها صفة الوجود.

قال أصحابنا: فإذا ما فعلها، ولا تعلقت قدرته بها، وإنما المفعول المقدور هو الصفة دونها، فأخبرونا الآن ما هذه الصفة لنفهمها؟ وهل هي نفس الجوهر

ونفس العرض، فهما اللذان فُعِلا فكانا جوهراً وعرضاً بفاعلهما؟ وإن قلتم: إنهما شيء آخر غيرها، فهل هي شيء أم ليست بشيء؟

وأعلموا أنكم إن قلتم أنها شيء لزمكم أن تكون في عدمها أيضاً شيئاً، وإن قلتم أنها ليست بشيء، نفيتم أن يكون الله تعالى فعل شيئاً.

قالت المعتزلة: هي أمر معقول ولم تزد على ذلك، وأتت فيه بنظير ما أتى أصحاب الكسب المخلوق[1].

وجميع المعتزلة على هذا القول إلا أبو القاسم عبدالله بن أحمد البلخي، فإنه يرى أن الأشياء قد كانت كلها في عدمها أشياء، ولم تكن جواهر ولا أعراضاً ولا ذواتاً، وإنما جعلت كذلك بفاعلها، ولم تكن أشياء بفاعلها. فقد تبين لك رأي المعتزلة في هذا.

[نظرية الأصلح]

فصل: من الكلام في الأصلح. وقد اشتهر عن المعتزلة أنها من أهل العدل، وذلك لقولها أن الله تعالى لا يكلف العبد إلا ما يستطيع.

ولها مع ذلك قول تنسب الله عز وجل فيه إلى الأمر القبيح، وتضاد به ما أوجبه الدليل من وصفه بالحسن الجميل، وهو ما ذهب إليه الجبائي وابنه عبد السلام ومن وافقها، وهم اليوم أكثر المعتزلة، من أن الله تعالى وإن كان عدلاً كريماً، فإنه لا يفعل بخلقه الأصلح، ولا يتفضل عليهم بالأنفع، وإنه يقتصر بهم من النفع والصلاح على نهايةٍ غيرها أفضل منها وأصلح، مع حاجتهم إلى ما يمنعهم إياه من الصلاح، أو فقرهم إلى المنافع، التي حرمهم إياها، من الإنعام والإحسان، وهو قادر على ما يحتاجون إليه، ومع ذلك هو غني عن منعه، عالم بحسن بذله وفعله. والعباد يتضرعون إليه في التفضل عليهم به، فلا يرحم

(١) هم القائلون بأن للعبد إرادة مقارنة لإرادة الله تعالى التي هي الفاعلة فقط دون إرادة العبد، غاية ما هناك أن إرادة العبد المفترضة هي المصححة للثواب والعقاب وإن لم يكن لها أي أثر في وجود الأفعال وتسمى هذه الارادة أو هذه القدرة بالكاسبة أي التي بها يكتسب العبد التكليف والثواب والعقاب.

تضرعهم، ويسألونـه المنة بفعله فلا يجيبهم، ويرجونه فيخيب رجاءهم، ويتمنونه من فعله فلا يهب لهم مناهم. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

والذي نذهب في ذلك إليه مما وافقنا البلخي[1] فيه:

هو أن الله سبحانه متفضل على جميع خلقه بنهاية مصالحهم، متطول عليهم بغاية منافعهم، لا يسألونه صلاحاً إلا أعطاهم، ولا يلتمسون منه ما يعلم أنه لهم أنفع إلا فعله بهم، ولا يمنعهم إلا مما يضرهم، ولا يصدهم إلا عما يفسدهم، ولا يحول بينهم وبين شيء يصلحهم، وأنه لا يقضي عليهم بشيء، يسرهم أو يسوؤهم إلا وهو خير لهم، وأصلح مما صرفه عنهم.

والذي يدل على ذلك هو ما ثبت من أن الله تعالى عالم بقبح القبيح، وغني عن فعله، لا يُجبر على الحسن، ولا يحتاج إلى منعه، وأنه مستحق للوصف بغاية الجود، ومنفي عنه البخل والتقصير، خلق الخلق لمنافعهم، واخترعهم لمصالحهم.

فلو منعهم صلاحاً لناقض ذلك الغرض في خلقهم، ولم يكن مانعاً نفعاً، هو قادر عليه، عالم بحسنه إلا لحاجةٍ إليه، أو للبخل به، أو الإفتقار في صنعه. وذلك كله منفي عن الله سبحانه.

ومما يدل على صحة ما ذهبنا إليه: أنا وجدنا الحكيم إذا كان آمراً بطاعته، فلن يجوز أن يمنع المأمور ما به يصل إليها إذا كان قادراً على أن يعطيه إياه، وكان بذله له لا يضره، ولا يخرجه من استحقاق الوصف بالحكمة، ومنعه لا ينفعه.

وكذلك إذا كان له عدو، يدعوه إلى موالاته، ويحب رجوعه إلى طاعته، فلن يجوز أن يعامله من الغلظة أو اللين إلا مما يعلم أنه أنجع فيما يريده منه، وأدعى له إلى ترك ما هو فيه من عداوته، والرجوع إلى ولايته. فإن عرض له أمران من الشدة والغلظة، أو الملاطفة والملاينة، يعلم أن أحدهما أدعى لعدوه إلى المراجعة والإنابة، والآخر دون ذلك، ففعل الدون، وترك أن يفعل

---

(١) هو أبو القاسم البلخي تقدمت ترجمته.

الأصلح إلا الأدعى ، وكلاهما في قدرته سواء ، ولا يضره بذلهما ، ولا ينفعه منعهما ، كان عند الحكماء جميعاً مذموماً ، خارجاً عن استحقاق الوصف بالجود والحكمة.

فلما كان هذا فيما بينا على ما وصفنا ، وكان الله تعالى قادراً حكيماً جواداً ، عالماً بمواضع حاجة عباده ، آمراً لهم بطاعته ، وترك عداوته ، والرجوع إلى ولايته ، لا يضره الإعطاء ، ولا يلحق به صفة الذم ، ولا ينفعه المنع ، ولا يزيد في ملكه ، علمنا أنه لا يفعل بعباده إلا ما كان أصلح بحالهم ، وأدعاها إلى طاعته ، صحةً كان أو سقماً ، لذةً كان أو ألماً ، آمنوا أو كفروا ، أطاعوا أم عصوا ، قال الله تعالى لرسوله عليه السلام:

(قولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى) طه: ٤٤

هذا حين علم أن الدعاء على جهة اللين أصلح له ، ثم قال في موضعٍ آخر:

(ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك ، وأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون) الأنعام: ٤٢

حين كانت الشدة والغلظة أصلح في دعائهم إلى التضرع والخشوع لديهم.

وأعلم أن الأصلح إذا فُعِل بالعبد لا يضطره إلى إيجاد الفعل ، وإنما هو تيسّرٌ في إيجاده ، ومعونة عليه ، كما أن القدرة لا تضطر العبد إلى إيجاد الفعل ، وإنما هي تمكين منه وإزاحة للعلة فيه.

فمن نسب الله تعالى إلى أنه تعالى لا يفعل بمن كلفه[1] الأصلح فقد جعله بخيلاً ومقتصداً. ومن نسبه إلى أن لا يعطي من كلفه الطاعة القدرة عليها ، فقد جعله ظالماً جائراً ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

[نقوض على هذه النظرية مع دفعها]

فإن قال قائل: إذا كان قد فعل بجميع خلقه الأصلح ، فقد ساوى بين وليه وعدوه ، ومن ساوى بينهما فغير حكيم في فعله.

(١) في النسخة زيادة كلمة (إلا) فحذفناها لئلا ينقلب المعنى المقصود.

قلنا: إنما التسوية بينهما أن يثيبهما جميعاً، أو يمدحهما، أو يفعل بهما جميعاً ما يشتهيانه ويلذهما، وليس التسوية بينهما أن يفعل لهما ما يكون أدعى إلى طاعته، وأزجر عن معصيته.

ألا ترى أن رجلاً لو كان له عبدان، قد أطاعه أحدهما، وعصاه الآخر، فقصد إلى الذي أطاعه فمدحه، وأعطاه لتزداد بذلك رغبته في طاعته، ويُرغِّب عبيده في فعلها، وقصد إلى الآخر فشتمه وعاقبه على ذنبه الذي ارتكبه، ليزجره عن معصيته، ويصير إلى طاعته، وينزجر غيره أيضاً عن مثل فعله، لكان قد فعل بكل واحدٍ منهما ما هو أصلح له. ولم يجز أن يقال– مع ذلك– أنه قد ساوى بينهما، وقد أمر الله تعالى عبديه المؤمن والكافر بالطاعة، ونهاهما جميعاً عن المعصية، وأقدرهما على ما كلفهما، وأزاح عللهما. ولا يقال مع ذلك أنه قد ساوى بينهما، إلا أن يراد بالمساواة، أنه قد عدل فيهما، ولم يظلم أحدهما، فذلك صحيح.

فإن قال: إذا أوجبتم أن يفعل بعباده كل ما فيه صلاحهم في دينهم، وفي أداء ما كلفهم، فقد أوجبتم أن لما عنده مما فيه صلاحهم غايةً ونهايةً.

قلنا: لسنا نقول ذلك، بل نقول: لا غاية لما عندالله تعالى مما فيه صلاح العباد ولا نهاية له، ولا نفاد، وأن في سلطانه وقدرته أمثالاً لما فعله بهم مما فيه صلاحهم. ولكنه إنما يأتيهم من ذلك في كل وقتٍ بقدر حاجتهم، وما يعلم أنه الأصلح لهم.

فإن قال: فإذا كان الذي فعل بهم مما تقولون أنه الأصلح لهم، أمثال، فقد وجب إذا جُمعت لهم تلك الأمثال أن تكون أصلح لهم من الواحد.

قلنا لهم: ليس يجب ذلك.

ومما يدل على أن القول ما قلنا، أنه يكون صلاح المريض مقداراً من الدواء، ولذلك المقدار من الدواء أمثال، لو جمعت كلها له لصار تضرراً عليه، ولقتلته.

وكذلك الجائع قد يكون مقدار من الطعام فيه صلاحه، ولذلك المقدار

أمثلة، لو ضمت فأكلها لعادت عليه ضرراً ولأمرضته.

وكذلك قد يكون معنى، هو صلاح العبد في دينه، وله أمثال، لو جمعت له لم يكن فيها صلاحه، بل كان فيها ضرره وفساده.

وقد جاءت الأخبار عن آل محمد صلوات الله عليهم: بأن الله لا يفعل بعبده إلا أصلح الأشياء له.

أخبرني شيخنا المفيد أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان رضي الله عنه، قال: أخبرني أبو القاسم جعفر بن محمد عن محمد بن يعقوب، عن عدةٍ من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد عن أبيه عن يحيى بن ابراهيم عن عاصم بن عبيد عن أبي حمزة الثمالي عن علي بن الحسين أنه قال: «الصبر والرضا عن الله رأس طاعة الله، ومن صبر ورضي عن الله بما قضى عليه فيما أحب أو كره هو خير له».

وقد ظن من لا معرفة له أنا لما قلنا إن الله تعالى يفعل بعباده الأصلح لهم، أنه يلزمنا على ذلك، أن يكون ما يفعله بأهل النار من العذاب أصلح لهم.

وقد رأيت من أصحابنا من يلتزم ذلك، ويقول: قد أخبر الله تعالى عن أهل النار، أنهم (لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه).، قال: ولو ردوا وعادوا لاستحقوا من العذاب أكثر مما يُفعل بهم في النار، فالاقتصار بهم على ما هم فيه أصلح لهم.

وهذا غير صحيح، والأصلح إنما هو التيسير إلى فعل الطاعة، وتسهيل الطريق التي هي تناولها. وهذا لا يكون إلا في حال التكليف دون غيرها.

فأما الآية فإنما تضمنت تكذيب أهل النار فيما قالوه، لأن الله تعالى أخبر عنهم فقال: (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) الأنعام: ٢٧.

فقال الله تعالى مكذباً لهم:

(بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل، ولو ردوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون). الأنعام: ٢٨.

[رأي الجبائي ومن تبعه من المعتزلة في الترك، ومناقشة المصنف له]

فصل من الكلام في الترك

وقد اختار عبد السلام الجبائي لنفسه قولاً قبيحاً، ضاهى فيه قول المجبرة، إن الله تعالى يعذب العبد على ما لم يحدثه، وزاد عليهم بأنه قال: إنه يعذب العبد من غير فعل فعله، ولا شيء اكتسبه.

وذلك لأنه يقول إن ترك الطاعة التي افترضها الله تعالى وأوجبها، يجوز أن لا يكون فعلاً، ثم يعذب الله تعالى العبد لأنه ترك، وإن لم يكن ترك شيئاً، لا فعلاً ولا كسباً.

وهذا قول انفرد به، ورأي استحدثه، ثم تبعه معظم المعتزلة عليه من بعده.

والذي يدل على أن الله تعالى لا يعذب العبد إلا على فعل فعله، أنا رأينا العذاب إنما يستحقه من يستحق الذم واللوم، ورأينا في الشاهد أنا لا نستحسن ذم أحد إلا وقد استقبحنا حالاً حصل المذموم عليها، متى ارتفعت من أوهامنا ارتفع استحساننا لذمه، ومتى حصلت حسن ذمه، حتى إنه متى خفي أمره فلم يُعلم على أي حال هو لم يستحسن حمده ولا ذمه، إلا بتعليقه بحال ما حصل عليها، نستحسنها في عقولنا أو نستقبحها، فنقول إن كان على كذا حسن حمده وقبح ذمه، وإن كان على كذا حسن ذمه وقبح حمده.

وكذلك من انتهى إلى آخر أوقات الظهر حتى تيقن أنه لم يبق من وقته إلا مقدار أربع ركعات من أخف ما يجزي، وهو قادر، ممكن، ذاكر للواجب عليه من الصلاة، فلم يصل، فإن العقول لا تمتنع من استقباح حال هذا الإنسان على أي هيئة حصل عليها، من اضطجاع أو قعود أو قيام أو مشي، أو غير ذلك من الهيئآت التي لا تصح معها الصلاة.

وقد علمنا أن الاستقباح يتعلق بمستقبح، فقد وجب أن يكون هناك

قبيح. وإذا كان هذا الإستقباح إنما يوجد عند وجود إحدى تلك الهيئآت، ويعدم بعدمها، لأنها متى عدمت كان مصلياً، وجب أن تكون هي القبيح الذي تعلق به الإستقباح.

ولذلك ثبت حسن ذمه في عقولنا عند حصول هذا الإستقباح ووجود هذه الهيئة، وإلا لم يحسن، وإذا ثبت أن لهذه الهيئة حسن ذمه. ثم استدللنا بدلائل حدوث الهيئآت أن هذه الهيئة حادثة من فعله، صح بذلك أنه لا يحسن ذم الإنسان [إلا] على فعله.

وكذلك سبيل سائر المستحقين للذم، إنهم لا يستحقون إلا وقد جروا مجرى هذا التارك للصلاة.

وإذا كان الذم لا يحسن إلا لما قلنا، وجب أن يكون العقاب لا يحسن إلا له. وذلك بَيِّنٌ لمن تأمله.

فإن اعترضه معترض في هذا وقال: ما تنكرون أن يكون الإنسان(1) يستحق الذم، لأنه لم يفعل ما وجب عليه، إذا كان قد يحسن من العقلاء فيما بيننا إذا لاموا إنساناً، فقيل لهم لِمَ لمتموه؟ أن يقولوا لأنه لم يفعل ما وجب عليه، ويقتصروا على هذا القدر في استحقاقه الذم.

قلنا: إنا لسنا نمنع من أن يكون الإنسان يعبر عن الشيء ويريد غيره، مما يتعلق به مجازاً واستعارة أو لعادةٍ جارية، أو لدلالةٍ قائمة، فيعبر في حالٍ بعبارةِ نفي، والمراد بها إثبات ضد المنفي، ألا ترى أنا نقول للإنسان: أنت قادر على أن لا تمضي مع فلان، وعلى أن لا تقوم معه، وأنا أُريد منك أن لا تصحبه ولا تمشي معه.

والقدرة عندنا وعند مخالفينا إنما هي قدرة على أن يفعل الشيء، ليس على أن لا يفعل.

---

(1) في النسخة زيادة كلمة أن المصدرية.

فقولنا: أنت قادر على أن لا تمشي معه، إنما نريد أنه قادر على أن يفعل ضد الشيء وما لا يقع المشي معه. وكذلك في الإرادة.

وإذا كان هذا كما وصفنا لم يجز لعاقل أن يقتصر في هذا الباب على ما يطلقه الناس من عباراتهم، ويدع التأمل للمعنى الذي تعلق به الذم في العقول.

وأيضاً: فإنا نعلم أنهم كما يقولون لمن لم يصل أسأت إن لم تصل، فكذلك يقولون له أسأت في تركك الصلاة وتشاغلك عنها بما لا يجدي عليك في دينٍ ولا دنيا، وفرَّطت وضيَّعت، وظلمت زيداً إذ منعته حقه الذي له عليك، وفعلت ما لا يحل ولا يحمد. فيعلقون الذم في ظاهر القول بأفعال. وقد علمنا أنهم لم يقصدوا من الذم بأحد القولين إلا إلى ما يقصدونه بالآخر، وفي أحد القولين الإفصاح عن فعلٍ عقلوه، فوجب أن يكون هو المقصود بالقول الآخر، وهو الفعل المعقول الذي هو الترك.

فصل

وأعلم أن الفاعل المحدث لا يخلو من أخذٍ أو تركٍ، وهما فعلان متضادان، فهو لا [يعرو] من الأفعال في تعاقب الأضداد.

ولا يقال أن الله سبحانه لا يخلو من أخذ أو ترك، لأنه يصح أن يخلو من الأفعال، وليس هو بمحلٍ للأعراض ولا لتعاقب الأضداد.

والترك في الحقيقة يختص بالمحدثين، ولا يوصف الله تعالى به إلا على المجاز والإتساع، ولا يصح أن يقال: إنه لم يزل تاركاً في الحقيقة، لأن ذلك يوجب أنه لم يزل خالياً من الأفعال، والقول الصحيح أنه كان قبل خلقه ليس بفاعل ولا تارك، متقدماً لجميع الأفعال فافهم ما ذكرناه.

[مواعظ وكلمات في النهي عن الظلم]

(فصل مما ورد في ذكر الظلم)

روى عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

أوحى الله تعالى إلى نبي من أنبيائه: ابن آدم أذكرني عند غضبك أذكرك عند غضبي، فلا امحقك فيمن أمحق، فإذا ظُلِمْتَ بمظلمة فارض بانتصاري لك، فإن انتصاري خير من انتصارك لنفسك، وأعلم أن الخلق الحسن يذيب السيئة كما تذيب الشمس الجليد، وإن الخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل.

وروي عن رسول الله (ص) قال:

« من ولي شيئاً من أمور أمتي، فحسنت سريرته لهم رزقه الله تعالى الهيبة في قلوبهم، ومن بسط كفه لهم بالمعروف رزق المحبة منهم، ومن كف يده عن أموالهم وقى الله عز وجل ماله، ومن أخذ للمظلوم من الظالم كان معي في الجنة مصاحباً، ومن كثر عفوه مُدَّ في عمره، ومن عَمَّ عدله نصر على عدوه، ومن خرج من ذل المعصية إلى عز الطاعة آنسه الله عز وجل بغير أنيس، وأعانه بغير مال »

وروي أن في التوراة مكتوباً:

« من يظلم يخرب بيته »

ومصداق ذلك في كتاب الله عز وجل:

(فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) النمل: ٥٢

وقيل:

إذا ظلمت من دونك عاقبك من فوقك.

وقال رسول الله (ص):

« إن الله تعالى يمهل الظالم حتى يقول أهملني، ثم إذا أخذه أخذه أخذة رابية ».

وقال رسول الله (ص):

إن الله تعالى حمد نفسه عند هلاك الظالمين، فقال:

(فقطع دابر الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) الأنعام: ٤٥

ومن كلام أمير المؤمنين (ع) في ذلك:

لا يكبرن عليك ظلم من ظلمك، فإنما يسعى في مضرته ونفعك، وليس جزاء من سرك أن تسوء [ه].

ومن سل سيف البغي قتل به.

ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيها.

ومن هتك حجاب أخيه هتكت عورات بيته.

بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد.

أسد حطوم خير من سلطان ظلوم.

وسلطان ظلوم خير من فتنٍ تدوم.

أذكر عند الظلم عدل الله فيك، وعند القدرة قدرة الله عليك.

[قال] المتنبي:

وأظلم خلق الله من بات جاسداً
لمن بات في نعمائه يتقلب

[كلمات لأمير المؤمنين (ع) وغيره في ذم الحسد]

فصل: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه:

ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد، نَفَس دائم، وقلب هائم، وحزن لازم.

وقال (ع)

الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له إليه، بخيل بما لا يملكه.

وقال (ع):

الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

وقال (ع):

الحسد آفة الدين، وحسب الحاسد ما يلقى.

وقال (ع):

لا مروءة لكذوب، ولا راحة لحاسد، ويكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك.

وقال (ع): الحسد لا يجلب إلا مضرة وغيظاً، يوهن قلبك، ويمرض جسمك، وشر ما استشعر قلب المرء الحسد. تغنم[1] ونقِّ قلبك من الغل تسلم.

وقال (ع): الحسود سريع الوثبة، بطيء العطفة، مغموم، واللئيم مذموم.

وقال (ع): لا غنى مع فجور، ولا راحة لحسود، ولا مودة لملول.

وقال لقمان لابنه: إياك والحسد، فإنه يتبين فيك، ولا يتبين فيمن تحسده.

وقال آخر: ليس في خلال الشرخلة هي أعدل من الحسد، لأنه يقتل الحاسد قبل أن يصير إلى المحسود.

وقال آخر: إذا مطر التحاسد نبت التفاسد.

وقال آخر: كل الناس أقدر أن أرضيهم إلا الحاسد، فإنه لا يرضيه إلا زوال نعمتي.

أُنشدت للشريف الرضي أبي الحسن محمد الموسوي:

لو كنت أحسد ما تجاوز خاطري
حسد النجوم على بقاء السرمد
لا تغبطن على ترادف نعمةٍ
شخصاً تبيت له المنون بمرصد
إذ ليس بعد بلوغه آماله
أفضى إلى عدمٍ كأن لم يوجد

فصل:

لا تخضعن لمترفٍ متكبرٍ
إن كان ذا مالٍ وأنت عديما[2]

---

(١) كذا وردت

(٢) كذا وردت ولعل الصحيح: وكنت عديماً.

وأصبر على مضض الزمان وعيبه
حتى يساعد أو تموت كريما
فلأن يموت المرء غير مذمم
خير له من أن يعيش ذميا.

غيره:

في اليأس عز واتباع مطامع الآمال ذل وطلاب ما لم يُقض صعب وهو في المقدور سهل.

غيره وهو صخرة التميمي:

وللموت خير للفتى من علاقة
من العار يرميه بها كل قائل.

وأنشدني أبو الحسن علي بن عبدالله بن حمزة قال أنشدني أبو طاهر الخوارزمي للقاضي الجرجاني[1]:

يقولون لي فيك انقباض وإنما
رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
إذا قيل: هذا مورد قلت قد أرى
ولكن نفس الحر تحتمل الظما
وما كل برق لاح لي يستفزني
ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكنهم قد دنسوه وعَرَّضوا
محياه للأطماع حتى تجهما

---

(١) هو القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني الفقيه الشافعي المتوفى بالري سنة ٣٦٦/٣٤٢هـ)، أطراه الثعالبي في اليتيمة، وذكر كثيراً من شعره، ومنه الأبيات المذكورة بزيادة ونقصان وتجده ترجمته في الكنى والألقاب للقمي، وفي وفيات الأعيان وشذرات الذهب ومعجم الأدباء وطبقات المفسرين.

ولم أبتـذل في خدمـة العلم مهجتي
لأخــدم من لاقيــت إلا لأُخدمـا
أأغرسه عزاً وأجنيــــه ذلـــةً
إذاً فاتبـاع الجهـل قد كان أحزما

وأُنشدت لعبد المحسن الصوري:[1]

كُدَّ كَدَّ العبد إن أحببت أن تحسب حراً
واقطع الآمال من جود بني آدم طرا
لا تقـــــل: ذا مكسب يُزري
ففضـــــل النــــاس . أزري

فصل

« أقوال وكلمات في الصبر »

روى عن رسول الله (ص) أنه قال:

« الصبر ستر من الكروب ، وعون على الخطوب »

وقال صلى الله عليه وآله:

بالصبر يتوقع الفرج ، ومن يدمن قرع الباب يلج .

وقال عليه وآله السلام:

الصبر صبران ، صبر عند البلاء ، وأفضل منه الصبر عند المحارم.

ومن كلام أمير المؤمنين (ع):

الصبر مطية لا تكبو ، والقناعة سيف لا ينبو .

---

(١) هو عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب بن غلبون الصوري العاملي أحد الشعراء المحسنين والأدباء المجيدين أورد الثعالبي في اليتيمة طائفة كبيرة من شعره ، وتجد ترجمته في أمل الآمل للحر العاملي وفي وفيات الأعيان. ومن شعره:

وكم آمرٍ بالصـــبر لم ير لوعـــتي ... وما صنعت نار الرأس بين أحشائي
ومن أين لي صبر وفي كل ساعة ... أرى حسنـاتي في موازين أعـدائي.

وله مرثاة جيدة في الشيخ المفيد شيخ الشيعة الإمامية في عصره المتوفى سنة (٤١٣هـ) وقد توفي الصوري سنة (٤٨٩هـ).

من كنوز الإيمان الصبر على المصائب.
الصبر جنة من الفاقة.
أطرح عنك الهموم بعزائم الصبر، وحسن اليقين.
من صبر ساعة حمد ساعات.
وقال آخر:
أفضل العدة الصبر على الشدة.
وقال آخر:
بالصبر على مرارة العاجل تُرجى حلاوة الآجل.
وقال آخر:
الصبر كإسمه، وثمرته ثمرته.
لبعضٍ:

أصـــبر لدهرٍ نـــال منـــك فهكـــــذا مضـــت الدهور
فـــرح وحـــزن مـــرةً لا الحزن دام ولا السرور

كتب رجل إلى أخيه:
الصبر مجنة المؤمن، وسرور الموقن، وعزيمة المتوكل، وسبب درك الحاجة، وإنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب.
[قال] ديك الجن:[1]

من كـــان يبغي الـــذل في دهره
فليطلـــع النـــاس عـــلى فقره
مـــا للفـــتى إن عضـــه دهره
معول أكرم من صـــــــــبره

(١) هو عبد السلام بن رغبان الحمصي شاعر معروف مجيد، وكان يتشيع وله مراث كثيرة في الحسين (ع) توفي سنة (٢٣٥هـ) وقد نسب إلى الإلحاد لتشيعه، وهي الطريقة التي كانت متبعة في أمثاله من الشيعة كيداً واضطهاداً وتجد أخباره في الأغاني وابن خلكان وحياة الحيوان وسواها.

وكان يقال:

العافية عشرة أجزاء، فتسعة منها في الصبر، والعاشر في التفرد عن الناس.

لبعضهم:

ألم تر[1] أن الصبر أجمل للفتى
إذا ضاق عنه أمر لم يجد عنه مخرجا
فما صفت الدنيا لصاحب نعمةٍ
ولا اشتد أمر قط إلا تفرجا

وقيل:

إن الأدب هو الصبر على الغصة، حتى تدرك الفرصة.

لآخر:

ولما امتطيت صروف الزمان
وأسلمت للدهر طوعاً قيادي
تزودت صبراً لوعثائِه
وزاد أخي الصبر من خير زاد
ولم يضع الصبر قدر أمرئ
وهل يضيع الترب إثر النجاد

[قصة ذريب بن ثملا[2] وصي عيسى بن مريم (ع)]

فصل:

أخبرني أبو الحسن محمد بن علي بن صخر، قال حدثنا أبو شجاع فارس بن موسى العرضي بالبصرة، قال حدثنا أحمد بن محمد، قال حدثنا أحمد بن محمد بن

---

(١) في النسخة (أما ترى) فأبدلناه بـ (ألم تر) فراراً من الزحاف.

(٢) أشار إلى هذه القصة صاحب لسان الميزان ج٣ ص٤٠٢ أشارة موجزة واعتبرها غير صحيحة.

شيبة الكوفي ببغداد، قال حدثنا أبو نعيم محمد بن يحيى الطوسي السراج، قال حدثنا محمد بن خالد الدمشقي، قال حدثنا سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن خارجة الرقي، قال: قال معاوية بن العضلة:

كنت في الوفد الذين وجههم عمر بن الخطاب، وفتحنا مدينة حلوان، وطلبنا المشركين في الشعب، فلم نقدر عليهم، فحضرت الصلاة، فانتهيت إلى ماءٍ، فنزلت عن فرسي وأخذت بعنانه، ثم توضأت، وأذنت فقلت: الله أكبر ألله أكبر، فأجابني شيء من الجبل وهو يقول: كبَّرتَ كبيرا، ففزعت لذلك فزعاً شديداً، ونظرت يميناً وشمالاً فلم أر شيئاً.

فقلت: اشهد أن لا إلّه إلا الله، فأجابني وهو يقول: الآن حين أخلصت.

فقلت: أشهد أن محمداً رسول الله، فقال: نبي بعث.

فقلت: حي على الصلاة، فقال: فريضة افترضت.

فقلت: حي على الفلاح، فقال: قد أفلح من أجابها واستجاب لها.

فقلت: قد قامت الصلاة، فقال: البقاء، لأمة محمد (ص)، وعلى رأسها تقوم الساعة.

فلما فرغت من أذاني ناديت بأعلى صوتي حتى أسمعت ما بين لابتي الجبل، فقلت: أنسي أم جني؟ قال فاطلع رأسه من كهف الجبل، فقال: ما أنا بجنيٍ ولكني أنسي، فقلت له: من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا ذريب بن ثملا من حواري عيسى بن مريم (ع)، أشهد أن صاحبكم نبي، وهو الذي بشر به عيسى بن مريم (ع)، ولقد أردت الوصول إليه، فحالت بيني وبينه فارس وكسرى وأصحابه، ثم أدخل رأسه في كهف الجبل فركبت دابتي ولحقت بالناس، وسعد بن أبي وقاص أميرنا، فأخبرته بالخبر، فكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب، فجاء كتاب عمر يقول: الحق الرجل، فركب سعد وركبت معه حتى انتهينا إلى الجبل، فلم نترك كهفاً ولا شعباً ولا وادياً إلا التمسناه فلم نقدر عليه، وحضرت الصلاة، فلما فرغت من صلاتي ناديت بأعلى صوتي:

يا صاحب الصوت الحسن والوجه الجميل، أنا قد سمعنا منك كلاماً حسناً، فأخبرنا من أنت، يرحمك الله، أقررت بالله تعالى ووحدانيته، قال: فأطلع رأسه من كهف الجبل، فإذا[1] شيخ أبيض الرأس واللحية، له هامة كأنها رحىً، فقال:

السلام عليكم ورحمة الله، قلت: وعليك السلام ورحمة الله، من أنت يرحمك الله؟

قال: أنا ذريب بن ثملا، وصي العبد الصالح عيسى بن مريم (ع)، كان قد سأل ربه ليَ البقاء إلى نزوله من السماء، وقراري في هذا الجبل. وأنا موصيكم، سددوا، وقاربوا، وإياكم وخصالاً تظهر في أمة محمد (ص)، فإن ظهرت فالهرب الهرب، ليقوم أحدكم على نار جهنم حتى تطفأ عنه خير له من البقاء في ذلك الزمان.

قال معاوية بن الفضلة: قلت له: يرحمك الله، أخبرنا بهذه الخصال لنعرف ذهاب دنيانا وإقبال آخرتنا، قال: نعم: إذا استغنى رجالكم برجالكم، واستغنت نساؤكم بنسائكم، وانتسبتم إلى غير مناسبكم، وتوليتم إلى غير مواليكم، ولم يرحم كبيركم صغيركم، ولم يوقر صغيركم كبيركم، وكثر طعامكم، فلم تروه إلا غلاء أسعاركم، وصارت خلافتكم في صبيانكم، وركن علماؤكم إلى ولاتكم، فأحلوا الحرام، وحرموا الحلال، وأفتوهم بما يشتهون، واتخذوا القرآن ألحاناً ومزامير في أصواتهم. ومنعتم حقوق الله من أموالكم، ولعن آخر أُمتكم أولها، وزوقتم المساجد، وطولتم المنابر، وحليتم المصاحف بالذهب والفضة، وركب نساؤكم السروج، وصار مستشار أُموركم نساءكم وخصيانكم، وأطاع الرجل امرأته، وعق والديه، وضرب شاب والدته، وقطع كل ذي رحم رحمه، وبخلتم بما في أيديكم، وصارت أموالكم عند شراركم، وكنزتم الذهب والفضة، وشربتم الخمر، ولعبتم بالميسر، وضربتم بالكبر[2]، ومنعتم الزكاة ورأيتموها مغرماً، والخيانة مغنما

---

(١) في النسخة: فإذن.

(٢) الكبر بفتحتين هو الطبل له وجه واحد وجمعه كبار كجبل وجبال (مجمع البحرين).

وقتل البريء لتتعظ العامة بقتله، واختلست قلوبكم فلم يقدر أحد منكم يأمر بالمعروف ولا ينهي عن المنكر، وقحط المطر فصار قيضاً، والولد غيظاً، وأخذتم العطاء فصار في السقاط، وكثر أولاد الخبيثة يعني الزنا، وطففت المكيال، وكلب عليكم عدوكم، وضربتم بالذلة وصرتم أشقياء، وقلت الصدقة حتى يطوف الرجل من الحول إلى الحول ما يعطى عشرة دراهم، وكثر الفجور، وغارت العيون، فعندها نادوا فلا جواب، يعني دعوا فلم يستجب لهم.

شرح قوله: (ولعن آخر أُمتكم أولها).

فصل: أعلم- أيدك الله تعالى- أن قوله في هذا الخبر: (ولعن آخر أُمتكم أولها) مما يظن الناصبي أن فيه طعناً علينا، وذلك ظن فاسد....[1] وقد لعن الله تعالى الظالمين، فقال: (ألا لعنة الله على الظالمين)

وأخبر النبي (ص) بأن من أصحابه من يغيِّر بعده ويبدل ويغوي ويفتن، ويضل ويظلم، ويستحق العقاب الأليم والخلود في الجحيم.

فمما رووا عنه في ذلك قوله (ع) لأصحابه:

لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا في حجر ضب لاتبعتموهم. فقالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن إذن.[2]

وقوله (ص) وقد ذُكِرت فتنة الدجال:

لا، فإني لفتنة بعضكم أخوف مني لفتنة الدجال [3].

وقوله (ص) لأصحابه:

« إنكم محشورون إلى الله يوم القيامة، حفاةً عراةً، وإنه سيجاء برجالٍ من

---

(١) كذلك كلمات مطموسة.

(٢) تجد هذا الحديث في صحيح البخاري ج٩ ص٨٣ بسنده عن أبي سعيد الخدري ورواه الطبري الإمامي في المسترشد ص ٢٨- ٢٩. باختلاف يسير.

(٣) أنظر: ص٩٦ من صحيح البخاري ج٤ من طبعة مصر سنة ١٣٠٦.

أمتي، فيؤخذ بهم ذات اليمين وذات الشمال، فأقول: يا رب أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم لا يزالون مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم».[1]

وقوله (ص) في حجة الوداع لأصحابه:

«ألا لأخبرنكم ترتدون بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا إني قد شهدت وغبتم».

وقوله (ص) في مرضه الذي توفي فيه:

«أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى».[2]

وقوله (ص):

«تكون لأصحابي بعدي زلة، يعمل بها قوم يكبهم الله عز وجل في النار على مناخرهم».

وحدثني من طريق العامة أبو محمد عبدالله بن عثمان بن حماس بمدينة الرملة، قال: حدثنا أبو الحسن أحمد بن محبوب، قال: حدثنا أبو الحسن محمد بن الحسن ابن قتيبة العسقلاني، قال: حدثنا كثير بن عبيد أبو الحسن الحذاء، قال: حدثنا محمد بن حمير، عن مسلمة بن علي، عن عمر بن ذرة، عن قلابة الحرمي، عن أبي مسلم الخولاني، عن أبي عبيدة الجراح، عن عمر بن الخطاب، قال:

«أخذ رسول الله (ص) بلحيتي، وأنا أعرف الحزن في وجهه، فقال: يا عمر، أنا لله وإنا إليه راجعون، أتاني جبرائيل آنفاً، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فقلت: أجل: إنا لله وإنا إليه راجعون، فمم ذاك يا جبرئيل؟ قال:

---

(١) تجد بعضه مروياً في صحيح البخاري ج٩ ص٣٩ كتابه الفتن ورواه الطبري في المسترشد ص ٢٩ باختلاف في بعض ألفاظه ومختصراً.

(٢) عن طبقات ابن سعد ج١ ص١٩.

إن أُمتك مفتتنة بعدك بقليل من الدهر غير كثير، فقلت: فتنة كفر أو فتنة ضلالة؟ قال: كل سيكون، فقلت: فمن أين ذلك، وأنا تارك فيهم كتاب الله؟ قال: بكتاب الله يضلون، وأول ذلك من قبل أمرائهم وقرائهم، بمنع الأُمراء الحقوق، فيسأل الناس حقوقهم فلا يعطونها، فيفتتنوا ويقتتلوا، يتبع القراء هؤلاء الأُمراء، فيمدونهم في الغي ثم لا يقصرون. فقلت: يا جبرئيل، فيم يسلم من يسلم منهم؟ قال: بالكف والصبر، إن اعطوا الذي لهم أخذوه، وإن منعوهم تركوه».

فهذا بعض ما ورد من الأخبار في أنه قد كان بعد رسول الله (ص) من ضل وأضل، وظلم وغشم، ووجب بغيه والبراءة منه متى فعله.

فأما الوجه في اللعن الذي يجب أن يحمل عليه ما تضمنه الخبر الذي أوردناه من قوله (ص) (ولعن آخر أمتكم أولها)، فهو ما استحله الظالمون المبغضون لأمير المؤمنين (ع) من لعنة والمجاهرة بسبه وذمه، فلسنا نشك في أنه قد تبرأت منه الخوارج، ولعنه معاوية ومن بعده من بني أُمية على المنابر، وتقرب الناس إلى ولاة الجور بذمه، ونشأ أولادهم على سماع البراءة منه وسبه.

حدثني القاضي أبو الحسن أسد بن ابراهيم بن كليب السلمي الحراني رحمة الله عليه بمدينة الرملة من نقل العامة، قال: أخبرني أبو حفص حمر بن علي العتكي الخطيب، قال: حدثني أحمد بن محمد بن سليمان الجوهري، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا محمد بن السبري، قال: حدثنا هشام بن محمد بن السائب، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن السائب، عن أبيه، قال:

جمعنا زياد[1] في الرحبة، فملأ منا الرحبة والقصر، وحملنا على شتم علي بن أبي طالب، والبراءة منه، والناس في أمر عظيم، قال: فَهوَّمْتُ برأسي تهويمة، فإذا شيء أهدب أهدل، ذو مشفر، طويل، مد إليَّ من السماء إلى الأرض، ففرعت، وقلت: من أنت؟ قال: أنا النقاد ذو الرقبة، أرسلني ربي إلى صاحب

(١) هو زياد بن أبيه عامل الأمويين على العراق.

هذا القصر، فانتبهت، فحدثت أصحابي، فقالوا: أنت مجنون، فما برحنا أن خرج الآذن فقال: انصرفوا فإن الأمير قد شغل، وإذا الفالج قد ضربه، قال: فأنشأ عبد الرحمن يقول:

ما كان منتهياً عما أراد بنا
حتى تناوله النقاد ذو الرقبة،
فأسقط الشق منه حربة ثبتت
كما تناول ظلماً صاحب الرحبة[1]

وحدثني السلمي، قال أخبرني العتكي، قال أخبرنا محمد بن الحسين الخزاعي الهمداني فيما قرأت عليه: أن محمود بن مثوبة الواسطي حدثهم: قال حدثنا القاسم بن عيسى، قال حدثنا رحمة بن مصعب بن الباهلي، قال حدثنا قرة بن خالد عن أبي رجاء العطاردي، قال: لا تسبوا هذا الرجل يعني علياً عليه السلام، فإن رجلاً سبه فرماه الله بكوكبين في عينيه».

وحدثني السلمي أيضاً قال أخبرني العتكي، قال أخبرنا أبو جعفر محمد بن صالح الرازي وَرَّاق أبي ذرعة الرازي بمكة سنة ست وثلاثماية، قال: حدثنا أبو ذرعة الرازي، قال حدثني عبد الرحمن بن عبد الملك، قال حدثني ابن أبي فديك، قال حدثني عبد الرحمن بن عبدالله بن أبي نعيم، عن عبدالله بن الفضل الهاشمي، قال:

«كنت مستنداً إلى المقصورة، وخالد بن عبد الملك[2] على المنبر يخطب، وهو يؤذي علياً (ع) في خطبته، فذهب بي النعاس فرأيت القبر قد انفرج، فاطلع مطلع فقال: آذيت رسول الله لعنك الله»

وحدثني أيضاً السلمي، قال أخبرني العتكي، قال أخبرنا أبو بكر محمد بن ابراهيم بن عبدالله بن يعقوب البغدادي ويعرف بابن نساوران بانطاكية، قال

---

(١) رواه البيهقي في المحاسن والمساوي ج (١) ص٨٧ عن عبدالله بن السائب، ورواه المسعودي في مروج الذهب ج٣ ص٣٥ - ٣٦، وصاحب الرحبة هو علي (ع) لأنه قتل في رحبة المسجد.

(٢) هكذا في النسخة ولعله: خالد بن عبدالله أي القسري.

حدثني أبو سعيد الحسن بن عثمان بن زياد الخلال التستري بتستر، قال حدثني أحمد بن حماد الطهري، قال حدثنا عبد الرزاق بن معمر، عن الزبيري عن عكرة عن ابن عباس عن النبي (ص) قال:

«إن الله تبارك وتعالى حبس قطر المطر عن بني اسرائيل بسوء رأيهم في أنبيائهم، وإنه حابس قطر المطر عن هذه الأمة ببغضهم علي بن أبي طالب (ع).

وحدثني السلمي، قال أخبرني العتكي، قال حدثني أبو عبدالله أحمد بن جعفر الجوهري، قال حدثنا أحمد بن علي المروزي، قال حدثنا الحسن بن شعيب، قال حدثنا خلف بن أبي هارون العبدي قال:

«كنت جالساً عند عبدالله بن عمر، فأتى نافع بن الأزرق، فقال والله إني لأبغض علياً، فرفع ابن عمر رأسه فقال: أبغضك الله، أتبغض- ويحك- رجلاً، سابقة من سوابقة خير من الدنيا بما فيها.»

فقد بان بما ذكرناه ورويناه أن آخر هذه الأمة لعن أولها، وأن متأخرها سب سابقها، فاللعن متوجه في الخبر المتقدم إلى مبغضي أمير المؤمنين (ع) والقادحين فيه.

وحدثنا الشيخ الفقيه أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي بن الحسن بن شاذان القمي بمكة في المسجد الحرام محاذى المستجار سنة اثنتي عشرة وأربعماية، قال أخبرني أبو محمد بن أحمد بن الحسين الشامي من كتابه، قال حدثني أحمد بن زياد القطان في دكانه بدار القطن، قال حدثنا يحيى بن أبي طالب، قال حدثنا عمرو بن عبد الغفار، قال حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: كنت عند النبي (ص)، إذ أقبل علي بن أبي طالب، فقال:

«أتدري من هذا؟ قلت: هذا علي بن أبي طالب، فقال النبي (ص): هذا البحر الزاخر، هذا الشمس الطالعة، أسخى من الفرات كفاً، وأوسع من الدنيا قلباً، فمن أبغضه فعليه لعنة الله».

وحدثنا الفقيه ابن شاذان رحمه الله، قال: حدثنا سهل بن أحمد عن محمد بن

عبدالله الديباجي رحمه الله، قال: حدثنا محمد بن محمد بن محمد بن الأشعث بمصر، قال: حدثنا موسى بن اسماعيل، عن أبيه، قال: حدثني موسى بن جعفر عن أبيه عن محمد بن علي عن أبيه عن الحسين بن علي (ع) قال: قال رسول الله (ص):

«دخلت الجنة فرأيت على بابها مكتوباً بالذهب: لا إله إلا الله، محمد حبيب الله، علي بن أبي طالب ولي الله، فاطمة آية الله، الحسن والحسين صفوتا الله، على مبغضيهم لعنة الله».

وحدثنا ابن شاذان أيضاً، قال حدثني أبو حفص عمر بن ابراهيم [ابن] أحمد بن كثير المقري المعروف بالكناني، قال حدثني عبدالله بن محمد بن عبد العزيز البغوي، قال حدثنا عبدالله بن عمر، قال: حدثنا عبد الملك بن عمير، قال: حدثنا سالم البزاز، قال: حدثني أبو هريرة، قال: قال رسول الله (ص):

«خير هذه الأمة من بعدي علي بن أبي طالب، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام، فمن قال غير هذا فعليه لعنة الله».

ومما حدثنا به الشيخ الفقيه أبو الحسن ابن شاذان رحمه الله، قال: حدثني أبي رضي الله عنه، قال: حدثنا ابن الوليد محمد بن الحسن، قال حدثنا الصفار محمد بن الحسين، قال: حدثنا محمد بن زياد عن مفضل بن عمر عن يونس بن يعقوب رضي الله عنه، قال: سمعت الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام يقول:

«ملعون ملعون كل بدنٍ لا يصاب في كل أربعين يوماً».

فقلت: ملعون؟ قال: ملعون، فلما رأى عِظَم ذلك علي قال: يا يونس، إن من البلية الخدشة، واللطمة، والعثرة، والنكبة، والفقر[1]، وانقطاع الشسع وأشباه ذلك.

يا يونس إن المؤمن أكرم على الله تعالى من أن يمر عليه أربعون يوماً لا يمحص فيها من ذنوبه، ولو بغم يصيبه لا يدري ما وجهه، وإن أحدكم ليضع

---

(١) في النسخة (الفقرة).

الدّراهم بين يديه فيراها[1] فيجدها ناقصة فيغتم بذلك، فيجدها سواء فيكون ذلك حطاً لبعض ذنوبه.

يا يونس: ملعون ملعون من آذى جاره، ملعون ملعون رجل يبدأه أخوه بالصلح فلم يصالحه، ملعون ملعون حامل القرآن، مصر على شرب الخمر، ملعون ملعون عالم يؤم سلطاناً جائراً، معيناً له على جوره، ملعون ملعون مبغض علي بن أبي طالب (ع)، فإنه ما أبغضه حتى أبغض رسول الله (ص)، ومن أبغض رسول الله (ص) لعنه الله في الدنيا والآخرة. ملعون ملعون من رمى مؤمناً بكفر، ومن رمى مؤمناً بكفر فهو كقتله.

ملعونة ملعونة امرأة تؤذي زوجها وتغمه، وسعيدة سعيدة امرأة تكرم زوجها ولا تؤذيه وتطيعه في جميع أحواله.

يا يونس: قال جدي رسول الله (ص):

ملعون ملعون من يظلم بعدي فاطمة ابنتي ويغصبها حقها ويقتلها. ثم قال: يا فاطمة: البشرى، فلك عند الله مقام محمود، تشفعين فيه لمحبيك وشيعتك فتُشَفَّعين.

يا فاطمة لو أن كل نبيٍ بعثه الله، وكل ملك قربه، شفعوا في كل مبغض لك، غاصب لك، ما أخرجه الله من النار أبداً.

ملعون ملعون قاطع رحمه، ملعون ملعون مصدق بسحر، ملعون ملعون من قال الإيمان قول بلا عمل، ملعون ملعون من وهب الله له مالاً فلم يتصدق به. أما سمعت أن النبي (ص) قال:

صدقة درهم أفضل من صلاة عشر ليالٍ.

ملعون ملعون من ضرب والده أو والدته. ملعون ملعون من عق والديه، ملعون ملعون من لم يوقر المسجد.

أتدري يا يونس لم عظم الله تعالى حق المساجد، وأنزل هذه الآية: (وأن

---

(١) في النسخة فيريها.

المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً)، كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم أشركوا بالله تعالى، فأمر الله سبحانه نبيه أن يوحد الله فيها ويعبده.

رسالة للمؤلف

رسالة كتبتها إلى أحد الإخوان وسميتها بالقول المبين عن وجوب مسح الرجلين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد رسوله خاتم النبيين وآله الطاهرين.

سألت يا أخي- أيدك الله تعالى- في أن أُورد لك من القول في مسح الرجلين ما يتبين لك به وجوبه وصحة مذهبنا فيه وصوابه. وأنا أُجيبك إلى ما سألت، وأُورد مختصراً نطلب ما طلبت بعون الله وتوفيقه.

أعلم أن فرض الرجلين عندنا في الوضوء هو المسح دون الغَسل، ومن غسل فلم يؤد الفرض. وقد وافقنا على ذلك جماعة من الصحابة والتابعين، كابن عباس[1] رحمه الله، وعكرمة،[2] وأنس، وأبي العالية، والشعبي وغيرهم.

ودليلنا على أن فرضهما المسح قول الله تعالى:

(يا أيها الذين إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين..) النساء: ٦

فتضمنت الآية جملتين، صرح فيهما بحكمين، بدأ في الجملة الأولى بغسل

---

(١) هو عبدالله بن العباس بن عبد المطلب، ابن عم النبي (ص) وحبر الأمة وترجمان القرآن- كما وصفوه- ولد بمكة قبل الهاجرة بثلاث سنين وتوفي بالطائف سنة ٦٨هـ بعد أن كف بصره، وينسب له التفسير المطبوع المعروف بتفسير ابن عباس، ولي لأمير المؤمنين علي (ع) البصرة وقيل أنه احتجن ما في بيت المال وهرب به، وجرت بينه وبين الإمام (ع) مراسلات ومكاتبات في شأن ذلك تجدها في العقد الفريد وبعضها في نهج البلاغة، وهو جد الخلفاء العباسيين.

(٢) هو أبو عبدالله عكرمة البربري مولى عبدالله بن عباس، حدث عن جماعة من الصحابة ومنهم عبدالله بن العباس، كان يرى رأى الخوارج وهو متهم بالكذب مات (١٠٥/١٠٧هـ).

الوجوه، ثم عُطفت الأيدي عليها، فوجب لها من الحكم بحقيقة العطف مثل حكمها.

ثم بدأ في الجملة الثانية بمسح الرؤوس، ثم عطف الأرجل عليها، فوجب أن يكون لها من الحكم بحقيقة العطف مثل حكمها، حسبما اقتضاه العطف في الجملة التي قبلها.[1]

ولو جاز أن يخالف في الجملة الثانية بين حكم الرؤوس والأرجل المعطوفة عليها، لجاز أن يخالف في الجملة الأولى بين حكم الوجوه والأيدي المعطوفة عليها. فلما كان هذا غير جائز كان الآخر مثله، فَعُلِمَ وجوب حمل كل عضوٍ معطوفٍ في جملةٍ على ما قبله، وفيه كفاية لمن تأمله.

فإن قال قائل: إنا نجد أكثر القراء يقرأون الآية بنصب الأرجل، فيكون الأرجل في قراءتهم معطوفة على الأيدي، وذلك موجب للغَسل.

قيل له: أما الذين قرأوه بالنصب من السبعة فليسوا بأكثر من الذين قرأوا بالجر، بل هم مساوون لهم في العدد.

وذلك إن ابن كثير،[2] وأبا بكر،[3] وحمزة عن[4] عاصم،[5] قرأوا أرجلِكم بالجر. وابن عامر،[6] والكسائي،[7] وحفصاً،[8] عن عاصم، قرأوا وأرجلَكم بالنصب.

---

(١) لأن الواو العاطفة تدل على مشاركة ما بعدها في الحكم لما قبلها وهي لمطلق الجمع.

(٢) هو أبو معبد عبدالله أحد القراء السبعة كانت وفاته بمكة المكرمة سنة (١٢٠هـ).

(٣) هو شعبة وقيل سالم بن عياش الأسدي الكوفي أخذ عن عاصم أحد القراء السبعة توفي بالكوفة سنة (١٩٣هـ) وكان من الزهاء العباد اضطهد وشتم وحبس في سبيل نهيه عن المنكر.

(٤) هو حمزة بن حبيب الزيات أحد القراء السبعة وكان فقيهاً توفي سنة ١٥٦ هـ.

(٥) هو عاصم بن بهدلة ويكنى أبا بكر بن أبي النجود قرأ على أبي عبد الرحمن السلمي وزرّ بن حبيش توفي سنة ١٢٨ هـ.

(٦) هو عبدالله بن عامر اليحصبي أحد القراء السبعة من التابعين من أهل دمشق مات سنة ١٢٨ هـ.

(٧) هو أبو الحسن علي بن حمزة بن عبدالله بن عثمان وقيل بهمن بن فيروز، اتصل بالرشيد وأدّب ولديه الأمين والمأمون أخذ عن الرؤاسي وغيره، توفي سنة ١٩٧ هـ، أخذ عن حمزة بن حبيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى.

(٨) هو حفص بن سليمان أبو عمرو البزار أخذ القراءة عن عاصم مرتفعة إلى علي (ع) من رواية أبي عبد الرحمن السلمي مات حفص سنة ١٣١ هـ.

وقد ذكر العلماء بالعربية أن العطف من حقه أن يكون على أقرب مذكورٍ دون أبعده، هذا هو الأصل، وما سواه عندهم تعسف وانصراف عن حقيقة الكلام إلى التجوز، من غير ضرورةٍ تلجىء إلى ذلك.

وفيه إيقاع للبس، وربما صرف المعنى عن مراد القائل. ألا ترى أن رئيساً لو أقبل على صاحب له، فقال له: أكرم زيداً وعمراً، واضرب بكراً وخالداً، كان الواجب على الصاحب أن يميز بين الجملتين من الكلام، ويعلم أنه ابتداء في كل واحدةٍ منهما ابتداء عطف باقي الجملة عليه، دون غير، وأن بكراً في الجملة الثانية معطوف على خالد، كما أن عمراً في الجملة الأولى معطوف على زيد.

ولو ذهب هذا المأمور إلى أن بكراً معطوف على عمروٍ، لكان قد انصرف عن الحقيقة ومفهوم الكلام في ظاهره، وتعَسَّف تَعسُّفاً صرف به الأمر عن مراد الآمر به، فأداه ذلك إلى إكرام من أُمِرَ بضربه.

ووجه آخر، وهو أن القراءة بنصب الأرجل غير موجبةٍ أن تكون معطوفة على الأيدي، بل تكون معطوفةً على الرؤوس في المعنى دون اللفظ، لأن موضع الرؤوس نصب، لوقوع الفعل الذي هو المسح، وإنما انجرت بعارض وهو الباء. والعطف على الموضع دون اللفظ جائز مستعمل في لغة العرب، ألا تراهم تقولون: مررت بزيدٍ وعمراً، ولست بقائمٍ ولا قاعداً. قال الشاعر:

معاوي إننا بشر فاسجح فلسنا بالجبال ولا الحديدا

والنصب في هذه الأمثلة كلها انما هو العطف على الموضع دون اللفظ.

فيكون على هذا من قرأ الآية بنصب الأرجل، كمن قرأها بجرها، وهي في القرآن جميعاً معطوفة على الرؤوس التي هي أقرب إليها في الذكر من الأيدي، ويخرج ذلك عن طريق التعسف، ويجب المسح بهما جميعاً والحمد لله.

وشيء آخر وهو: أن حمل الأرجل في النصب على أن تكون معطوفة على الرؤوس أولى من حملها على أن تكون معطوفة على الأيدي. وذلك أن الآية قد

قرئت بالجر والنصب معاً، والجر موجب للمسح، لأنه عطف على الرؤوس، فمن جعل النصب إنما هو لعطف الأرجل على الأيدي، أوجب الغسل وأبطل القراءة بالجر الموجب للمسح، ومن جعل النصب إنما هو لعطف الأرجل على موضع الرؤوس، أوجب المسح الذي أوجبه الجر، فكان مستعملاً للقراءتين جميعاً غير مبطلٍ لشيء منهما، ومن استعملهما فهو أسعد ممن استعمل أحدهما.

فإن قيل: ما أنكرتم أن يكون استعمال القراءتين إنما هو بغسل الرجلين وهو أحوط في الدين، وذلك أن الغَسل يأتي على المسح ويزيد عليه، فالمسح داخل فيه. فمن غسل فكأنما مسح وغسل، وليس كذلك من مسح، لأن الغسل غير داخل في المسح.

قلنا: هذا غير صحيح، لأن الغَسل والمسح فعلان، كل واحدٍ منهما غير الآخر، وليس بداخلٍ فيه، ولا قائم مقامه في معناه الذي يقتضيه.

ويتبين ذلك أن الماسح كأنه قيل له: اقتصر فيما تتناوله من الماء على ما يندى به العضو الممسوح، والغاسل كأنه قيل له: لا تقتصر على هذا القدر، بل تناول من الماء ما يسيل ويجري على العضو المغسول.

فقد تبين أن لكل واحدٍ من الفعلين كيفية يتميز بها عن الآخر. ولولا ذلك لكان من غسل رأسه فقد أتى على مسحه، ومن اغتسل للجمعة فقد أتى على وضوئه. هذا مع أجماع أهل اللغة والشرع على أن المسح لا يسمى غَسلاً، والغسل لا يسمى مسحاً.

فإن قيل: لِمَ زعمتم ذلك؟ وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى قوله سبحانه:

(فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) ص: ٣٣ إلى أنه أراد غسل سوقها وأعناقها، فسمى الغسل مسحاً.

قلنا: ليس هذا مجمعاً عليه في تفسير الآية. وقد ذهب قوم إلى أنه أراد المسح بعينه.

وقال أبو عبيدة[1] والفراء[2] وغيرهما أنه أراد بالمسح الضرب.

وبعدُ فإن من قال إنه أراد بالمسح الغسل لا يخالف في أن تسمية الغسل مسحاً مجازاً واستعارة، وليس هو على الحقيقة، ولا يجوز لنا أن نصرف كلام الله تعالى عن حقائق ظاهرة إلا بحجةٍ صارفة.

فإن قال: ما تنكرون من أن يكون جر الأرجل في القراءة إنما هو لأجل المجاورة لا للنسق، فإن العرب قد تعرب الإسم بإعراب ما جاوره، كقولهم: (حجر ضبٍ خربٍ)، فجروا خرباً لمجاورته لضب، وإن كان في الحقيقة صفةً للحجر لا للضب، فتكون كذلك الأرجل إنما جرت لمجاورتها في الذكر لمجرورٍ وهو الرؤوس، قال امروء القيس:

كــأن ثبــيراً في عرانــين وبلــه
كبــير أُنــاسٍ في بجــادٍ مزمــل[3]

فجر مزملاً لمجاورته لبجادٍ، وإن كان من صفات الكبير، لا من صفات البجاد، فتكون الأرجل على هذا مغسولة وإن كانت مجرورة.

---

(١) هو معمر بن المثنى التيمي من تيم قريش مولى لهم من علماء اللغة والأدب والأخبار، وكان شعوبياً ومع هذا يرى رأي الخوارج، له مؤلفات عديدة ولد سنة ١١٢ هـ، وتوفي سنة ٢١١ هـ.

(٢) هو أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء من أئمة العربية له مؤلفات كثيرة فيها، مات بطريق مكة سنة ٢٠٧ هـ.

(٣) هو من معلقة امرئ القيس المشهورة التي أولها

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وفي ديوان امرئ القيس باخراج السندوبي روى البيت هكذا

كــأن أبانــا في أفانــين ودقــه   كبــير أنــاس في بجــاد مزمــل

وثبير: جبل. أفانين: ضروب. البجاد: كساء مخطط. مزمل: ملفف.

وامرئ القيس هو ابن الملك حجر بن الحارث الكندي، ويقال له الملك الضليل توفي سنة ٨٠ قبل الهجرة وسنة ٥٦٥م.

وهو من فحول الشعراء الجاهليين حتى قيل أنه بدئ الشعر بملك يعني أمرئ القيس، وختم بملك يعني أبا فراس الحمداني.

قلنا: هذا باطل من وجوه، أولها:

اتفاق أهل العربية على أن الإعراب بالمجاورة شاذ نادر لا يقاس عليه، وإنما ورد مسموعاً في مواضع لا يتعداها إلى غيرها، وما هذا سبيله فلا يجوز حمل القرآن عليه من غير ضرورةٍ يلجىء إليه.

وثانيها: أن المجاورة لا يكون معها حرف عطفٍ، وهذا ما ليس فيه بين العلماء خلاف.

وفي وجود واو العطف في قوله تعالى (وأرجلكم) دلالة على بطلان دخول المجاورة فيه وصحة العطف.

وثالثها: أن الإعراب بالجوار إنما يكون بحيث ترتفع الشبهة عن الكلام، ولا يعترض اللبس في معناه، ألا ترى أن الشبهة زائلة، والعلم حاصل في قولهم (حجر ضبٍ خربٍ) بأن خرباً صفة للحجر دون الضب.

وكذلك ما أنشد في قوله (مزمل) وأنه من صفات الكبير دون البجاد.

وليس هكذا الآية، لأن الأرجل يصح أن فرضها المسح كما يصح أن يكون الغسل، فاللبس مع المجاورة فيها قائم، والعلم بالمراد منها مرتفع. فبان بما ذكرناه أن الجر فيها ليس هو بالمجاورة والحمد لله.

فإن قيل: كيف ادعيتم أن المجاورة لا تجوز مع واو العطف؟ وقد قال الله عز وجل:

(يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب، وأباريق)[1]

ثم قال: (وحورٍ عين)[2]

فخفضهن بالمجاورة، لانهن يطفن ولا يطاف بهن.

قلنا: أول ما في هذا أن القراء لم يجمعوا على جر (حور عين)، بل أكثر السبعة يرى أن الصواب فيها الرفع، وهم نافع، وابن كثير، وعاصم في رواية

---

(١) سورة الواقعة آية:١٧- ١٨.

(٢) الواقعة آية: ٢١.

أبي عمرو، وابن عامر، وإنما قرأها بالجر حمزة والكسائي، وفي رواية المفضل عن عاصم.

وقد حكى عن أبي عبيدة أنه كان ينصب، فيقرأ (وحوراً غيناً).

ثم إن للجر فيها وجهاً صحيحاً غير المجاورة، وهو أنه لما تقدم قوله تعالى: (أولئك المقربون في جنات النعيم) الواقعة:١٢- ١٣ عطف (بحور عين) على (جنات النعيم)، فكأنه قال: هم في جنات النعيم، وفي مقارنة أو معاشرة حورٍ عين، وحذف المضاف[١].

وهذا وجه حسن، وقد ذكره أبو علي الفارسي[٢] في كتاب (الحجة في القرآن) واقتصر عليه دون ما سواه، ولو كان للجرو بالمجاورة فيه وجه لذكره.

فإن قيل: ما أنكرتم من أن تكون القراءة بالجر موجبة للمسح إلا أنه متعلق بالخفين لا بالرجلين، وأن تكون القراءة بالنصب موجبة للغسل المتعلق بالرجلين بأعيانها، فيكون للآية قراءاتان مفيدة لكلا الأمرين؟

قلنا: أنكرنا ذلك لأنه انصراف عن ظاهر القرآن والتلاوة إلى التجوز والاستعارة من غير أن تدعوَ إليه ضرورة، ولا أوجبته دلالة، [و] ذلك خطأ لا محالة.

والظاهر يتضمن ذكر الأرجل بأعيانها، فوجب أن يكون المسح متعلقاً بها دون غيرها، كما أنه يتضمن ذكر الرؤوس، وكان الواجب المسح بها أنفسِها دون أغيارها.

ولا خلاف في أن الخفاف لا يعبر عنها بالأرجل، كما أن العمائم لا يعبر عنها

---

(١) وهو المقارنة أو المعاشرة.

(٢) هو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفسوي النحوي من أئمة العلم والأدب ولد بمدينة (فسا) سنة ٢٨٨ هـ، وقدم بغداد واشتغل بها سنة ٣٠٧ هـ، وأصبح إمام عصره في النحو واتصل بسيف الدولة الحمداني وأقام عنده مدة وذلك سنة ٣٤١ هـ، وجرت بينه وبين المتنبي الشاعر محاورات، توفي في بغداد سنة ٣٧٧هـ.

بالرؤوس، ولا البراقع بالوجوه. فوجب أن يكون الغرض متعلقاً بنفس المذكور دون غيره على جميع الوجوه.

ولو شاع سوى ذلك في الأرجل حتى تكون هي المذكورة والمراد من سواها، لشاع نظيره في الوجوه والرؤوس، ولجاز أيضاً أن يكون قوله سبحانه:

(إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله، ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يُصَلَّبوا أو تُقَطَع أيديهم وأرجلهم من خلاف) المائدة: ٣٣ محمولاً على غير الأبعاض المذكورة.

ولا خلاف في أن هذه الآية دالة بظاهرها على قطع الأيدي والأرجل بأعيانها، وأنه لا يجوز أن ينصرف عن دليل التلاوة وظاهرها، فكذلك آية الطهارة لأنها مثلها.

فإن قيل: إن عطف الأرجل على الأيدي أولى من عطفها على الرؤوس لأجل أن الأرجل محدودة كاليدين، وعطف المحدود على المحدود أشبه بترتيب الكلام.

قلنا: لو كان ذلك صحيحاً لم يجز عطف الأيدي وهي محدودة على الوجوه وهي غير محدودةٍ، في وجود ذلك، وصحة اتفاق الوجوه والأيدي في الحكم مع اختلافها في التحديد دلالة على صحة عطف الأرجل على الرؤوس، واتفاقها في الحكم وإن اختلفا في التحديد.

على أن هذا أشبه بترتيب الكلام مما ذكره الخصم، لأن الله تعالى ذكر عضواً ممسوحاً غير محدود، وهو الرأس، وعطفه عليه من الأرجل بممسوح محدود، فتقابلت الجملتان من حيث عطف فيهما مغسول محدود على مغسُولٍ غير محدودٍ، وممسوح محدود على ممسوحٍ غير محدود.

فأما من ذهب إلى التخيير وقال: أنا مخير في أن أمسح الرجلين وأغسلها، لأن القراءتين تدل على الأمرين كليهما، مثل الحسن البصري، والجبائي، ومحمد ابن جرير الطبري ومن وافقهم،[1] فيسقط قولهم بما قدمناه من أن القراءتين

(١) هذا الرأي تضمنه التساؤل السابق على الأخير.

لا يصح أن تدلا إلا على المسح، وأنه لا حجة لمن ذهب إلى الغسل، وإذا وجب المسح بطل التخيير.

وقد احتج الخصوم لمذهبهم من طريق القياس، فقالوا: إن الأرجل عضو يجب فيه الدية، أُمرنا بإيصال الماء إليه، فوجب أن يكون مغسولاً كاليدين.

وهذا احتجاج باطل، وقياس فاسد، لأن الرأس عضو يجب فيه الدية، وقد أمرنا بإيصال الماء إليه، وهو مع ذلك ممسوح.

ولو تُركنا والقياس، لكان لنا منه حجة، هي أولى من حجتهم، وهي أن الأرجل عضو من أعضاء الطهارة الصغرى، يسقط حكمه في التيمم، فوجب أن يكون فرضه المسح دليله [القياس على] الرأس.

فإن قالوا: هذا ينتقض عليكم بالجنب، لأن غسل جميع بدنه وأعضائه يسقط في التيمم [و] فرضه مع ذلك الغَسل.

[قلنا] وقد احترزنا من هذا بقولنا إن الأرجل عضو من أعضاء الطهارة الصغرى، فلا يلزمنا بالجنب نقض على هذا.

فإن قال قائل: فما تصنعون في الخبر المروي عن النبي (ص):

(أنه توضأ، فغسل وجهه وذراعيه، ثم مسح رأسه وغسل رجليه، وقال: هذا وضوء الأنبياء من قبلي، هذا الذي لا تقبل الصلاة إلا به)؟

قيل: هذا الخبر الذي مختلط من وجهين رواهما أصحابك.

أحدهما: أن النبي (ص) توضأ مرةً مرة، وقال: (هذا الذي لا يقبل الله صلاة إلا به) ولم يأت في الخبر كيفية الوضوء.

والآخر: أن النبي (ص) غسل وجهه ثلاثاً، ويديه ثلاثاً، ومسح رأسه، وغسل رجليه إلى الكعبين، وقال: (هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي) ولم يقل: لم يقبل الله صلاة إلا به، فخلطت في روايتك أحد الخبرين بالآخر، لبعدك من معرفة الأثر.

وبعدُ فلو كانت الرواية على ما أوردته لم يكن لك فيها حجة، لأن الخبر

إذا خالف ما دل عليه القرآن وجب اطراحه والمصير إلى القرآن دونه.

ولو سلمنا لك باللفظ الذي تذكره بعينه، كان لنا أن نقول: إن النبي (ص) مسح رجليه في وضوئه ثم غسلها بعد المسح لتنظيفٍ أو تبريد أو نحو ذلك مما ليس هو داخلاً في الوضوء، فذكر الراوي الغسل ولم يذكر المسح الذي كان قبله، إما لأنه لم يشعر به بعدم تأمله، أو لنسيانٍ اعترضه، أو لظنه أن المسح لا حكم له، وأن الحكم للغسل الذي بعده، أو لغير ذلك من الأسباب. وليس هذا بمحالٍ.

فإن قال: فقد رويَ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

(ويل للأعقاب من النار)

فلو كان ترك غسل العقب في الوضوء جائزاً لما توعد على ترك غسله.

قلنا: ليس في هذا الخبر ذكر مسحٍ ولا غسلٍ فيتعلق به، ولا فيه أيضاً ذكر وضوء فنورده لنحتج[1] به، وليس فيه أكثر من قوله: ويل للأعقاب من النار.

فإن قال: قد روى أنه رآها تلوح، فقال: (ويل للأعقاب من النار).

قيل له: وليس لك في هذا أيضاً حجة، ولا فيه ذكر لوضوء في طهارة.

وبعدُ فيجوز أن يكون رأى قوماً غسلوا أرجلهم في الوضوء عوضاً عن مسحها، ورأى أعقابهم يلوح عليها الماء، فقال: ويل للأعقاب من النار.

ويجوز أيضاً أن يكون رأى قوماً اغتسلوا من جنابةٍ ولم يغمس الماء جميع أرجلهم، ولا حت أعقابهم بغير ماءٍ، فقال: ويل للأعقاب من النار.

ويمكن أيضاً أن يكون ذلك في الوضوء لقومٍ من طغام العرب مخصوصين، كانوا يمشون حفاة، فتشقق أعقابهم، فيداوونها بالبول على قديم عادتهم، ثم يتوضأون ولا يغسلون أرجلهم قبل الوضوء من آثار النجس، فتوعدهم النبي (ص) بما قال: وكل هذا في حَيِّزِ الإمكان.

---

(١) في النسخة نحتج فأضفنا إليها اللام لتصحيح التعبير.

ثم يقال: له: وقد قابل ما رويت أخبارٌ، هي أصح وأثبت في النظر، والمصير إليها أولى لموافقة ظاهرها لكتاب الله تعالى.

فمنها: إن النبي (ص) قام بحيث يراه أصحابه، ثم توضأ، فغسل وجهه وذراعيه، ومسح برأسه ورجليه.

ومنها: أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) قال للناس في الرحبة:

ألا أدلكم على وضوء رسول الله (ص)

قالوا: بلى، فدعا بعقب فيه ماء، فغسل وجهه وذراعيه، ومسح على رأسه ورجليه، وقال: هذا وضوء من لم يحدث حدثاً.

فإن قال الخصم: ما مراده بقوله:

وضوء من لم يحدث حدثاً؟ وهل هذا إلا دليل على أنه قد كان على وضوء قبله؟

قيل له: مراده بذلك أنه الوضوء الصحيح الذي كان يتوضأ رسول الله (ص)، وليس هو وضوء من غَيَّر وأحدث في الشريعة ما ليس منها.

ويدل على صحة هذا التأويل وفساد ما توهمه الخصم أنه قصد أن يريَهم فرضاً يعولون عليه، وتقيدون به فيه. ولو كان على وضوء قيل ذلك، لكان لم يعلمهم الفرض الذي هم أحوج إليه.

ومن ذلك ما رُوي عن أمير المؤمين (ع) من قوله:

(ما نزل القرآن إلا بالمسح).

ولا يجوز أن يكون أراد بذلك إلا مسح الرجلين، لأن مسح الرؤوس لا خلاف فيه.

ومنه قول ابن عباس رحمه الله

(نزل القرآن بغسلين ومسحين)

ومن ذلك اجماع آل محمد عليهم السلام على مسح الرجلين دون غسلها، وهم

الأئمة والقدوة في الدين، لا يفارقون كتاب الله عز وجل، إلى يوم القيامة[1] وفيما أوردناه كفاية والحمد لله

(سؤال)

فإن قال قائل: فلِمَ ذهبتم في مسح الرأس والرجلين إلى التبعيض؟

(جواب)

قيل له: لما دل عليه من ذلك كتاب الله سبحانه وسنة نبيه (ص).

أما دليل مسح بعض الرأس فقول الله تعالى: (وامسحو برؤوسكم) فأدخل الباء التي هي علامة التبعيض، وهي التي تدخل على الكلام مع استغنائه في إفادة المعنى عنها، فتكون زائدة، لأنه لو قال: (وامسحوا رؤوسكم) لكان الكلام صحيحاً، ووجب منسح جميع الرأس، فلما دخلت الباء التي لم يفتقر الفعل في تعديته إليها أفادت التبعيض.

وأما دليل مسح بعض الأرجل، فعطفها على الرؤوس، والمعطوف يجب أن يشارك المعطوف عليه في حكمه.

وأما شاهد ذلك من السنة فما رُوي أن رسول الله (ص) توضأ ومسح بِناصيته ولم يمسح الكل.

ومن الحجة على وجوب التبعيض في مسح الرؤوس والأرجل إجماع أهل البيت عليهم السلام على ذلك وروايتهم إياه عن رسول الله جدهم (ص)، وهم أخبر بمذهبه.

(سؤال)

فإن قال قائل: ما الكعبان عندكم اللذان تمسحون عليهما؟

---

(١) هو إشارة إلى الحديث المشهور المستفيض: «إني مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض..». رواه مسلم والبيهقي والحاكم في المستدرك والنسائي في الخصائص وأحمد في المسند، وابن سعد في الطبقات والهندي في كنز العمال، وغيرها. أنظر: (فضائل الخمسة ج ٢. ص ٤٣- ٥٢).

(جواب)

قيل له: العظمان النابتان في ظهر القدمين عند عقد الشراك، وقد وافقنا على ذلك محمد بن الحسن[1] دون من سواه.

دليلنا ما رواه أبان بن عثمان عن ميسر عن أبي جعفر (ع) أنه قال:

ألا أحكي لك وضوء رسول الله (ص)، ثم انتهى إلى أن قال: فمسح رأسه وقدميه، ثم وضع يده على ظهر القدم[2]

* * *

ثم قال:[3] وذكرت فأوجزت، وقد علمت أنا لا نقبل إلا ما أدركناه بأبصارنا، أو سمعناه بآذاننا، أو ذقناه بأفواهنا، أو شممناه بأنوفنا، أو لمسناه ببشرتنا.

فقال الصادق عليه السلام:

ذكرت الحواس الخمس، وهي لا تنفع في الإستنباط إلا بدليل، كما لا يقطع الظلمة إلا بمصباح.[4].

قال شيخنا المفيد أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان الحارثي رضي الله عنه:

---

(١) هو محمد بن الحسن بن واقد الشيباني مولى بني شيبان وصاحب أبي حنيفة ولد بواسط سنة ١٣٢هـ ومات بالري سنة ١٨٩هـ أخذ عن أبي حنيفة والثوري ومسعر بن كدام والأوزاعي ومالك.

(٢) اختصر المؤلف هذا الحديث، ويبدو أنه قد سقط من النسخة طائفة كبيرة من بحث كيفية الوضوء.

(٣) قد سقط من النسخة أوائل الحديث الثاني المتعلق بحدوث العالم واثبات الصانع.

(٤) أول الحديث هو أنه سأل أبو شاكر الديصاني الإمام الصادق فقال له: ما الدليل على حدوث العالم، فقال (ع): نستدل عليه بأقرب الأشياء، قال: وما هو؟ قال فدعا (ع) ببيضة فوضعها على راحته، فقال: هذا حصن ملموم داخله غرقى رقيق لطيف، به فضة سائلة وذهبة مائعة، ثم تنفلق عن مثل الطاووس، أدخلها بشيء؟ فقال: لا، قال: فهذا الدليل على حدوث العالم. قال: أخبرت فأوجزت وقلت فأحسنت، وقد علمت.. » أنظر: توحيد الصدوق ص٣٠٣.

إن الصادق عليه السلام أراد أن الحواس بغير عقل لا توصل إلى معرفة الغائبات. وإن الذي أراه من حدوث الصورة معقول بنا [لوقوع] العلم به على محسوس.(١)

وأعلم- أيّدك الله تعالى- أن الأجسام إذا لم تخل من الصور التي قد ثبت حدوثها فهي محدثة مثلها.(٢)

فصل: (في ذكر مولد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله ووصف شيء من فضله).

روى نقلة الأخبار وحملة الآثار من الخاص والعام أن رسول الله (ص) قال:

(أنا سيد ولد آدم، وأنا سيد البشر)

وقال أمير المؤمنين (ع):

(ما برء الله نسمةً خيراً من محمد صلى الله عليه وآله)

وجاء في الحديث النبي (ص) أنه قال:

(نقلت من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الطاهرة نكاحاً لا سفاحاً).

ورُوي عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام أنه قال:

(نزل جبرئيل (ع) على رسول الله (ص) فقال:

يا محمد، إن ربك يقرئك السلام، ويقول:

(إني قد حَرَّمت النار على صلب أنزلك، وبطنٍ حملك، وثدي أرضعك).

ورُوي: أن نوره (ص) كان يلوح في جبهة آدم (ع)، وان الله سبحانه أعلَمَ بحاله، وبَيَّنَ أمره، وعهد إليه أن لا يقرب حواء إلا وهما طاهران، لأجل انتقال ذلك النور إلى ولده، وأن عهداً باقياً في عقبه، يأخذه كل أبٍ منهم على

---

(١) في العبارة قلق يحول دون وضوح المعنى ولعل هنا سقوط جملةٍ أو جمل من قلم الناسخ.

(٢) ذلك لأن الجسم أو الهيولى حيث وجدت تكون في صورةٍ ما، ولا يوجد بدون صورة، والصورة متغيرة إذن الجسم متغير فهو محدث، ولذلك قال الفلاسفة: إن شيئية الشيء بصورته لا بمادته.

ابنه، ممن يظهر نور رسول الله (ص) في وجهه، بأنه لا يتزوج إلا بأطهر نساء أهل وقته، حراسةً لهذا النور ألا ينتقل إلا [في] درجات الشرف، ومنازل الطهارة، من الدنس، فلم يزل نوره منتقلاً فيهم، ظاهراً بين أعينهم، يدركه الناس بالمشاهدة، ويرون خلو الوالد منه، إذا انتقل إلى ولده. وهو يزداد بالانتقال بياناً، ويتضاعف بالموارثة برهاناً، إلى انتهى إلى عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم، بن عبد مناف رضوان الله عليهم، فعُظم في وجهه، وأضاء في غرته، وعلمت حاله الأحبار، وأخبرت بأمره الكهان، وذاع خبره في البلاد.

حتى رُوي(1) أن أحبار يهود الشام كانت عندهم جبة مغموسة في دم يحيى ابن زكريا (ع)، وكانوا قد وجدوا في كتبهم أن إذا رأيتم الجبة بيضاء والدم يقطر، فاعلموا أن أبا النبي محمد المصطفى قد ولد، فلما رأوا ذلك من حالها، تحققوا ولادة عبدالله بن المطلب، عمدوا بأجمعهم إلى الحرم ليغتالوه، ويغتنموا الظفر به فيقتلوه، فصرف الله سبحانه عنه كيدهم، وردهم خائبين إلى بلادهم، وكانوا إذا سألوا عنه قيل لهم: تركناه نوراً يتلألأ في قريش تلألؤ القمر، فيقول الأحبار: ليس ذلك النور لعبدالله، إنما هو لولده محمد (ص)، ثم ترجع في كفرها وعنادها، فإذا تأملت الحال، وأفاقت للاستدلال قالت: هو هو ورب موسى.

وقيل: إن الكهنة احتمعت فقالت: نحن نتخوف لتزايد نور عبدالله أن يغلب كهانتنا.

وروى: أن نساء قريش افتتن به، وكُنَّ يتعرضن به في طريقه، حتى لقي منهن ما لقيَ يوسف (ع) من امرأة العزيز، وهو لا يلوي عليهن، ويقول لهن: ليس في سبيل إلى كلامكن.(2)

حتى ورد في الحديث: أن الجوار الأبكار كنَّ يقفن في طريقه، وإذا رمن

---

(1) تجد شطراً من هذه الرواية في مناقب آل أبي طالب ج1 ص27.

(2) تجد شطراً من هذا الخبر في كتاب اثبات الوصية للمسعودي ص88- 89.

كلامه، تصورت الملائكة لهن في صورة مفزعة، يصدونهن عنه، فيرجعن مذعورات فزعات.

ثم إن وهب بن عبد مناف لما رأى عِظَم أمره، وجلالة قدره، اجتهد في تزويجه آمنة ابنته، وراسل في ذلك عبد المطلب رضوان الله عليه، فزوجه بها، ونقل الله تعالى نور نبيّه إليها، فحملت به في ليلة الجمعة لتسعٍ خلون من ذي الحجة ليلة عرفة، وقيل بل في أيام التشريق،[1] وذلك بمنى عند الجمرة الوسطى، وكانت منزل عبدالله بن عبد المطلب.

فروي عنها من الآيات التي شاهدتها ليلة حملها به وعند ولادتها ما يطول ذكره.

فكان مما قالت: أنه أتاني المخاض، وأنا وحدي، فلما وضعته (ص) رأيته ساجداً، قد رفع أصبعه إلى السماء كالمبتهل المتضرع، ثم غَشِيَني سحابة غيبته عن عيني، وسمعت منها كلاماً، ثم أُعيد إلي، وهو مدرج في ثوب صوف أشد بياضاً من الثلج، وتحته حريرة خضراء، وولد (ص) طاهراً مطهراً.

فكان من دلائل ولادته خمود نيران المجوس، وتزعزع أَسرّة الملوك، وكلام كثيرٍ من الدواب، وسقوط الأوثان عن البيت الحرام.

وروى عن عبد المطلب أنه قال:

كنت في تلك الليلة في البيت الحرام أَرُمُّ منه شيئاً، فلما انتصف الليل رأيته قد أهوى من جميع جوانبه مائلاً كالساجد إلى ناحية المقام، ثم استوى قائماً، وسمعت منه تكبيراً عجباً، يقول: الله أكبر رب محمد المصطفى، الآن قد طهرني ربي من أنجاس المشركين وأرجاس الجاهلية. فحرت من ذلك حتى ظننت أني نائم.

ثم إن عبد المطلب أتى آمنة رضوان الله عليها، فسألها عن حالها فاخبرته بولادتها، والآيات التي رأتها، فقال لها أريني الولد، فقالت: لا سبيل لأحدٍ إلى

---

(١) هي ثلاثة أيام يبتدئ أولها ثاني يوم النحر وآخرها اليوم الثالث عشر من ذي الحجة إلى العصر.

رؤيته حتى تمضي ثلاثة أيام، فعند ذلك جرد سيفه ليقتل نفسه، فقالت: هو في ذلك البيت، ادخل إن أحببت أن تراه، فلما دخل عبد المطلب تراءى له رجل، وقال إليك يا عبد المطلب، لا سبيل لك إلى رؤيته حتى تنقطع عنه زيارة الملائكة.

وكانت ولادته (ص) يوم الجمعة عند طلوع الفجر في اليوم السابع عشر[1] من ربيع الأول عام الفيل[2] بمكة في شعب أبي طالب رضوان الله عليه.

وهذا اليوم الذي ولد فيه سيدنا رسول الله (ص) يوم عظيم الشرف، جليل القدر، لم يزل آل محمد (ع) يعظمونه، ويرعون حرمته، ويتطوعون بصيامه والصدقة فيه.

وروي أن من صامه كتب الله له صيام سنة.

ولما صار له (ص) شهران توفي أبوه عبدالله بن عبد المطلب رضوان الله عليه، عند أخواله بالمدينة.

وكذلك ماتت أمه رحمة الله عليها وهو طفل.

ورُوي أن الله تعالى أيتم نبيه (ص) لئلا تجري عليه رئاسة لأحد من الناس.

وشَرَّفَ الله تعالى حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية برضاعه، وخصها بتربيته، وكانت ذات عقلٍ وفضل. فروت من آياته ما يبهر عقول السامعين، وأغناها الله ببركته في الدنيا والدين.

وكان لا يرضع إلا من ثديها اليمين.

قال ابن عباس رضي الله عنه: أُلهِمَ العدل حتى في رضاعه، لأنه علم أن له شريكاً، فناصفه عدلاً منه (ص).

---

(١) وهو المشهور بين الشيعة الإمامية، وقيل في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول وهو المعروف بين الجمهور وبه قال أبو جعفر الكليني من الإمامية، وقيل لثمان خلون من شهر ربيع الأول، وقيل لعشر خلون منه.

(٢) وذلك بعد قدوم أصحاب الفيل مكة بخمسة وستين يوماً، وقيل أقل من ذلك وكان قدومهم مكة يوم الأحد لخمس ليالٍ خلون من المحرم.

قالت حليمة: فكان ثديي اليمين لرسول الله، واليسار لولدي ضميرة، وكأن ولدي لا يشرب حتى يراه قد شرب.

قالت: ولم أرقط ما يُرى للأطفال طهارة ونظافة، وإنما كان له وقت واحد، ثم يعود إلى وقته من الغد.

وما كان شيء أبغض إليه من أن يرى جسده مكشوفاً، فكنت إذا كشفته يصيح حتى أستر عليه.

ورُويَ عنها أنها قالت: سمعته لما تمت له سنة، يتكلم بكلامٍ، لم أسمع أحسن منه. سمعته يقول: قدوس، قدوس، نامت العيون، والرحمن لا تأخذه سِنَة ولا نوم.

ولقد ناولتني امرأة كف تمرٍ من صدقه، فناولته منه، وهو ابن ثلاث سنين، فرده عَلَيَّ، وقال: يا أُمه، لا تأكلي الصدقة، فقد عظمت نعمتك، وكثر خيركِ، فإني لا آكل الصدقة.

قالت: فوالله ما قبلتها بعد ذلك من أحدٍ من العالمين.

وكان بنو سعد يرون البركات بمقامه معهم، وسكناه بينهم، حتى إنهم كانوا إذا عرض لدوابهم بؤس أتوا بها إليه، ليمسها بيده، فيزول ما بها، وتعود إلى أحسن حالها.

ولم يزل كذلك إلى أن ردته حليمة إلى أهله، فاشتمل عليه جده عبد المطلب، يحبوه التحف، ويمنحه الطُرَف، ويعد قريشاً به، ويخبرهم بما يكون من حاله، إلى أن ذنت وفاته فوضعه في حجر أبي طالب، وأوصاه به، وأمره بحياطته ورعايته، وعَرّفه ما يكون من أمره.

ثم توفي عبد المطلب رضوان الله عليه في شهر ربيع الأول، وللنبي (ص) ثماني سنين من عمره، فكفله أبو طالب أحسن كفالة، ولم يكن له يومئذٍ ولد، وكانت امرأته فاطمة بنت أسد بن هاشم المعروفة بسودة الفاضلة، فتولت معه تربيته، وأحسنا جميعاً حياطته ورعايته، واتخذاه لأنفسهما ولداً، ولم يؤثرا عليه في المحبة ولدا، وقد شغفا بواضح دلالته، وذهلا من ظاهر حجته.

والكهان مع ذلك يخبرونه بشأنه، ويتعجبون من جلي برهانه، ويبشرون أبا طالب بأمره، وبأنه سيكفل ولداً له من ظهره.

ثم نشأ (ص) نشوءاً يحير أهل عصره، يحضر مشاهد قريش كلها، غير السجود للأصنام [والعبادة][1] لها، وشرب الخمر، ونظم الشعر، وافتعال الكذب، والاشتغال باللعب، إلى أن أظهر الله أمره، وأعلى قدره، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا.

فصل: في ذكر شيء من معجزات رسول الله (ص) وباهر آياته.

فمن ذلك: أنه دعا شجرةً فجاءت تخدّ الأرض، ثم أشار إليها فرجعت.

ومن ذلك: أنه مسح شطري ضرع العناق[2] وهما ملتصقان، لا لبن فيهما، فدر، وحُلب منه لبن كثير. هذا في هجرته إلى المدينة. وذلك مشتهر قد أتت به الأخبار، وقيل فيه الأشعار.

ومن ذلك: رمى الحصى في وجوه الأعداء يوم بدر، فنالهم في عيونهم ما نالهم، وكانت في الحال عزيمتهم، وأنزل الله سبحانه:

(وما رميت إذ رميت، ولكن الله رمى) الانفال: ١٧.

وفعل مثل ذلك يوم حنين وقال:

(شاهت الوجوه)، فانهزم المشركون بأسرهم.

ومن ذلك: إخباره عن العير التي جاءت من الشام، وحال القوم وأفعالهم، وما معهم من متاعهم، وكثير من كلامهم.

ومن ذلك: كلام الذئب والضب أيضاً معروف.

ومن ذلك: الميضاة[3] التي وضع فيها يده، وفيها شيء يسير من الماء، فشرب منه خلق كثير، وتوضأوا منه.

---

(١) في النسخة كلمة غير واضحة

(٢) هي الأنثى من أولاد المعزى قبل استكمالها الحول.

(٣) هي المطهرة الكبيرة التي يتوضأ منها.

ومن ذلك: أن ناقةً ضلت من صاحبها في بعض أسفاره، فقال المنافقون: لو كان نبياً لعَلِمَ أين الناقة، فبلغه ذلك فقال: الغيب لا يعلمه إلا الله، انطلق يا فلان، لصاحب الناقة، فإن ناقتك بمكان كذا، قد تعلق زمامها بالشجرة، فوجدها كما قال (ص).

ومن ذلك: أنه أقام بتبوك (ع)، فنفدت أزوادهم، فأمرهم عليه السلام، فجمعوا ما بقي منها، ثم أمر بأنطاع فبسطت، وقال: من كان عنده فضل زادٍ فليأتنا به، فكان الرجل يأتي بالمد الدقيق، والسويق، والقليل من الخبز، فيوضع كل صفٍ على حدة، فكان جميع ذلك قليلاً، ثم توضأ وصلى ودعا بالبركة فيه، فكثر ذلك، حتى فاض من الأنطاع، ثم نادى الناس: أن هلموا، فأقبل الناس، فحملوا من كل شيء، حتى ملأوا كل جراب ومزودٍ

ومن ذلك: أنه نزل بالحديبية فإذا ببئرها لا ماء فيها، فشكا الناس ذلك إليه (ص)، فأخرج سهماً من كنانته، فدفعه إلى البراء بن عازب، فنزل في البئر، فأقبل الماء من عيون البئر، حتى ملأوا كل ما معهم، وسقوا ركائبهم.[1]

ومن ذلك: أنه كان في سفر، فاستيقظ من نومه، فقال: مع من وضوء؟ فقال: أبو قتادة: معي في ميضاة، فأتاه به، فتوضأ، وفضلت في الميضاة فضلة، فقال (ع): احتفظ بها يا أبا قتادة، فسيكون لها شأن، فلما حمي النهار واشتد العطش بالناس، فابتدروا إلى النبي (ص) يقولون: الماء الماء، فدعا النبي (ص) بقدحه، ثم قال: هلم الميضاة يا أبا قتادة، فأخذها، ودعا فيها، وقال: اسكب، فسكب في القدح، وابتدر الناس الماء فقال رسول الله (ص): كلكم يشرب إن شاء الله تعالى، فكان أبو قتادة يسكب، ورسول الله (ص) يسقي، حتى شرب الناس أجمعون. ثم قال النبي (ص) لأبي قتادة: اشرب، فقال: لا، بل اشرب أنت يا رسول الله، فقال: اشرب فإن ساقي القوم آخرهم يشرب، فشرب أبو قتادة، ثم شرب رسول الله، وانتهى القوم رواءً.

---

(١) تجد هذه المعجزة مفصلةً في كتاب اعلام النبوة ص٦٨.

ومن ذلك: أنه أُتي بشاةٍ، فأخذ بأذنها بين أصبعيه ثم خلاها، فصار لها وسم[١] وكانت تولد والأثر في أولادها.

ومن ذلك: ما رواه جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنه، قال: أصاب الناس يوم الخندق كدية[٢] ضربوا فيها بمعاولهم حتى انكسرت، فأخبروا رسول الله (ص) فدعا بماء فصبه عليها، فصارت كثيباً.[٣]

ومن ذلك: أن اعرابياً باع شيئاً من أبي جهل فمطله، فأتى قريشاً فقال: اعدوني على أبي الحكم، فقد لوى بحقي، فأشاروا إلى النبي (ص) وقالوا: أنت هذا الرجل فاستعد عليه، وهم يهزأون بالإعرابي، ويريدون أن يغروا أبا جهل برسول الله (ص) فأتى الإعرابي رسول الله (ص)، فقال: يا عبدالله، أعدني على عمرو بن هشام، فقد مطلني حقي، قال: نعم، فمضى معه النبي (ص) فضرب على أبي جهل بابه، فخرج متغيراً، فقال: ما حاجتك؟ فقال: اعط هذا الرجل حقه، قال: نعم، الساعة، فأعطاه فجاء الرجل إلى قريش فقال: جزاكم الله خيراً، انطلق معي الرجل الذي دللتموني عليه، فأخذ لي حقي، وجاء أبو جهل، فقالوا: أعطيت الإعرابي حقه؟ قال: نعم قالوا: إنما اردنا أن نغريك بمحمد (ص) قال: ما هو إلا أن دق بابي، وسمعت كلامه، فما تمالكت أن خرجت إليه، وخلفه مثل الفالج[٤] فاتح فاه، فكأنما يريدني، فقال: اعطه حقه، فلو قلت: لا، لا لابتلع رأسي.[٥]

---

(١) أي علامة

(٢) الكدية هي الضخرة الصلدة.

(٣) تجد هذه المعجزة مفصلة في اعلام النبوة للماوردي ص٦٦- ٦٧ نقلها عن البخاري عن عبدالواحد بن أيمن عن أبيه عن جابر.

(٤) الفالج: الجمل الضخم ذو السنامين، وفي رواية ابن هشام: وإن فوق رأسه لفحلاً.

(٥) رواه ابن هشام في السيرة ج١ ص٤١٦- ٤١٧ مع اختلاف يسير.

ومن ذلك: أن أبا جهلٍ جاء إلى النبي (ص) ومعه حجر، يريد أن يرميه به، إذا سجد، فلما سجد رسول الله (ص) رفع أبو جهل يده، فيبست على الحجر، فقالوا له: أجبنت؟ قال: لا، ولكن رأيت بيني وبينه كهيئة الفحل، يخطر بذنبه.

وهذا الحديث مشهور، وفيه يقول أبو طالب رضوان الله عليه:

افيقوا بـــني غالـــبِ وانتهوا
عن الغي في بعـــض ذا المنطـــق
وإلا فــــإني إذاً خائــــف
بواثـــــــق في داركم تلتقي
تكون لعابركم عـــــــبرة
ورب المغـــارب والمشـــرق
كما ذاق من كـــان من قبلـــكم
ثمود وعــــــاد، فمن ذا بقي
غــــداه أتتهم بهـــا صرصر
وناقــــة ذي العرش إذ تستقي
فحــــلّ عليهم بهـــا سخطـــةٌ
من الله في ضربــــــة الأزرق
غــــداه [يعـــض](١) بعرقوبهـــا
حسام من الهنــــد ذو رونـــق
وأعجــــب من ذاك في أمركم
عجائـــب في الحجر الملصـــق
يكـــف الـــذي قـــام من جبنـــه
إلى الصابر الصـــــادق المتقي
فأيبسه الله في كفـــــــــه
عـــلى رغم ذي الخائن الأحمـــق

(١) في النسخة كلمة غير واضحة.

وهذا مما يستدل به على صحيح إيمان أبي طالب بالله تعالى ورسوله (ص)، لما تضمنه قوله من إقراره بالله سبحانه، واعترافه بآياته، وبالمعجز الذي بان لنبيه، وإخباره عنه بأنه صابر صادق متقي.

ومن ذلك: أن امرأة سلام بن مسكين أتت بشاةٍ قد سمتها إلى النبي (ص)، فقال: ما هذا؟ فقالت: أُلطفك بها، وكان مع النبي (ص) بشر بن البراء بن المعرور، فتناول النبي (ص) من الذراع، وتناول بشر، فأما النبي (ص) فإنه لاكها ثم لفظها، وقال: إن هذه الذراع تكلمني وتزعم أنها مسمومة، وأما بشر فلاك البضعة ليبلعها فمات منها، فأرسل النبي (ص) إلى المرأة فأقرت، فقال: ما دعاك إلى هذا؟ قالت: قتلت زوجي وأشراف قومي، فقلت إن كان ملكاً قتلته، وإن كان نبياً فسيطلعه الله على ذلك.[1]

ومن ذلك: أن صفوان بن أمية، وعمرو بن وهب الجمحي قالا: من لنا بمحمد؟ فقال عمرو بن وهب: لولا دين علي لخرجت إلى محمد حتى أقتله، فقال: صفوان: عليَّ دينك، ونفقة عيالك إن قتلته. فخرج حتى قدم المدينة، فدخل على رسول الله (ص) فقال: أنعم صباحاً، أبيت اللعن، فقال النبي (ص): قد أبدلنا الله بها خيراً منها، قال: إن عهدك بها حديث، قال: أجل، ثم أكرمنا الله بالنبوة، ثم قال: يا عمرو، ما جاء بك؟ قال: ابني أسير عندكم، قال: لا ولكنك جلست مع صفوان، ثم قص عليه الذي قال، فقال عمرو: والله ما حضرنا أحد، وما أتاك بهذا إلا الذي يأتيك بأخبار السماء، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله.[2]

ومن ذلك: أن المدينة أجديت فشكوا ذلك إلى رسول الله (ص)، فرفع يديه إلى السماء وقال:

اللهم إني سألتك فأعطيتني، ودعوتك فأجبتني، اللهم اسقنا غيثاً مرياً،

---

(١) أشير إلى هذا في مناقب آل أبي طالب ج١ ص٨١.

(٢) تجد هذا مختصراً في مناقب آل أبي طالب ج١ ص١١٣.

مريعاً، عاجلاً، غير رايث، نافعاً غير بايث، نافعاً غير ضار، فمطر الناس للوقت، وسالت الأودية، وامتلأ كل شيء، فدامت جمعة.

فأتى رجل فقال: غرقنا، وتقطعت السبل في أسواقنا، فقال رسول الله (ص): حوالينا ولا علينا.

فانجاب السحاب عن المدينة، وكان فيا حولها حتى حصلت السماء فوقها، والسحاب ذلك[1].

فقال كل واحد منهم في نفسه: آمنت إذا مضيت أن يأتي أحد غيري فيشعر بي، فاجتمعوا بأسرهم لاتفاق ما في نفوسهم، ولِمَا أزعجهم من التعجب لاستماع ما حيرهم وأذهلهم، فوقفوا إلى الصباح، فلما انصرفوا اجتمعوا أيضاً، وافتضح بعضهم عند بعضٍ، وجددوا العهد بينهم، ثم عادوا حتى فعلوا ذلك عدة دفعات، تطلعاً إلى سماع القرآن مع ما هم عليه من الإصرار على العناد.

وأما تعجب الجن فقولها:

(إنا سمعنا قرآناً عجباً، يهدي إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحداً). سورة الجن: ١

فصل: من البيان عن إعجاز القرآن

فمن ذلك عجز بلغاء العرب عن الإتيان بمثله في فصاحته ونظمه مع علمهم بأن النبي (ص) قد جعله عَلَماً على صدقه، وسماعهم للتحدي فيه على أن يأتوا بسورةٍ من مثله. هذا مع اجتهادهم في دفع ما أتى به (ص)، وتَوَفّر دواعيهم إلى إبطال أمره، وفَلِّ جمعه، واستفراغ مقدورهم في أذيته، وتعذيب أصحابه، وطرد المؤمنين به.

ثم ما فعلوه بعد ذلك من بذل النفوس والأموال في حربه، والحرص على إهلاكه، مع علمهم بأن ذلك لا يشهد بكذبه، ولا فيه إبطال الحجة، ولا يقوم مقام معارضته فيا جعله دلالة على صدقه، وتحداهم على الإتيان بمثله.

---

(١) تجد هذا في مجالس المفيد ص ١٣٩ رواها باسناده عن مسلم الغلابي مع زيادات.

وقد كانوا قوماً فصحاء، حكماء، عقلاء، خصماء، لا يصبرون على التقريع، ولا يتغاضون عن التعجيز، وعاداتهم معروفة في التسرع[1] إلى الافتخار، وتحدّي بعضهم لبعض بالخطب والأشعار، وفي انصرافهم عن المعارضة دلالة على أنها كانت متعذرة عليهم، وفي التجائهم إلى الحروب الشاقة دونها بيان أنها الأيسر عندهم.

وأي عاقل يطلب أمراً،[2] فيه هلاك حاله، والتغرير بنفسه، وهو يقدر على كلامٍ يقوله، يغنيه بذلك، وينال به أمله ومراده، فلا يفعله.

هذا ما لا يتصور في العقل، ولا يثبت في الوهم، وفي عجزهم الذي ذكرناه حجة في بيان معجز القرآن، وفي صحة نبوة نبينا (ص).

ومن ذلك: ما يتضمنه من أخبار الدهور الماضية، وأحوال القرون الخالية، وأبناء الأمم الغابرة، ووصف الديار الدائرة، وقصص الأنبياء المتقدمين، وشرح أحكام أهل الكتابين، مما لا يقدر عليه إلا من اختص بهم، وانقطع إلى الإطلاع بكتبهم، وسافر في لقاء علمائهم، وصحب رؤساءهم.

ولما كان نبينا (ص) معلوم المولد[3] والدار، والمنشأ والقرار، لا تخفى أحواله، ولا تستتر أفعاله، لم يلف قبل بعثته مدارساً لكتاب، ولا رُئي مخالطاً لأهل الكتاب، ولم يزل معروفاً بالإنفراد عنهم، غير مختصٍ بأحدٍ منهم، ولا سافر لاتباع عالم سراً ولا جهراً، ولا احتال في نيل ذلك أولاً ولا آخراً، عُلِمَ أنه لم يأخذ ذلك إلا عن رب العالمين، دون الخلائق أجمعين، وثبت صدقه وحجته، وإعجاز الوارد على يده. وكان قول الله عز وجل:

(وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين). سورة القصص: ٤٤

وقوله عز وجل:

---

(١) في النسخة الشرع

(٢) في النسخة (فيه بما)

(٣) في النسخة (المولود)

(وما كنت بجانب الطور إذ نادينا، ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون). سورة القصص: ٤٦.

يعضد ما ذكرناه، ويشهد بصحة ما وصفناه.

ومن ذلك أيضاً: ما ثبت فيه من الإخبار بالكائنات قبل كونها، وإعلام ما في القلوب وضمائرها، كقوله سبحانه في اليهود من أهل خيبر:

ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم، منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون، لن يضروكم إلا أذى، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار، ثم لا ينصرون). سورة آل عمران: ١١١

وكان الأمر في هزيمتهم وخذلانهم كما قال سبحانه.

وقال في قصة بدر تشجيعاً للمسلمين، وإخباراً لهم عن عاقبة أمرهم وأمر المشركين:

(سيهزم الجمع ويولون الدبر). سورة القمر: ٤٥

وكان ذلك يقيناً كما قال سبحانه.

وقال فيهم:

(الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرةً ثم يغلبون) سورة الانفال: ٣٦.

فكان الظفر قريباً كما قال سبحانه.

وقال عز اسمه:

(ألم غلبت الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيُغلبون، في بضع سنين، لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) سورة الروم: ٢ و٣.

فأخبر الله تعالى عن ظفرهم بغلبهم وغلبتهم له، وحدد زمان ذلك، وحصره، فكان الأمر فيه حسب ما قال سبحانه.

وقال عز وجل:

(يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياءُ لله من دون الناس فتمنوا الموتَ إن كنتم صادقين، ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) سورة الجمعة: ٦ و٧

فقطع على بغيهم، وأعلم أنهم لا يتمنون الموت، فلم يقدر أحد منهم على دفعه، ولا أظهر تمنيه، كان الأمر في ذلك موافقاً لما قال سبحانه.

[وقال تعالى]:

(ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول) سورة المجادلة: ٨.

فأخبر عن ضمائرهم بما في سرائرهم قبل أن يبدو على ألسنتهم، وكان الأمر كما قال سبحانه.

وقال في أبي لهب وهو حي متوقع منه الايمان والبصيرة والإسلام:

تبت يدا أبي لهب) سورة المسد: ١

فمات على كفره ولم يصر إلى الإسلام.

وقال تعالى لنبيه (ص):

(إنا كفيناك المستهزئين) سورة الحجر: ٩٥.

وكلهم يومئذٍ حي عزيز في قومه، فأهلكهم الله أجمعين، وكفاه أمرهم على ما أخبر به.

وأمثال ذلك كثيرة يطول بها الكتاب، وقد ذكرها أهل العلم[١]، وهذا طرف منها، يدل على معجزة القرآن، وصدق من أتى به (ع).

دليل على حدوث العالم:

الذي يدلنا على ذلك أنا نرى أجساماً لا تخلو من الأحداث المتعاقبة عليها،

---

(١) نجد ذلك في أكثر المؤلفات الموضوعة فى حياته ومعجزاته وكراماته واعجاز القرآن من الشيعة والسنة على السواء.

ولا يتصور في العقل أنها كانت خالية منها، وهذا يوضح أنها محدثة مثلها، لشهادة العقل بأن ما لم يوجد عارياً من المحدث فإنه يجب أن يكون مثله محدثاً.

وهذه الحوادث هي: الإجتماع، والإفتراق، والحركة، والسكون، والألوان، والروائح، والطعوم ونحو ذلك من صفات الأجسام التي تدل على أنها أشياء غير الجسم [ما نراه] من تعاقبها عليه، وهو مع كل واحدٍ منها. وهذا يقين أيضاً على حدوثها، لأن الضدين المتعاقبين لا يجوز أن يكونا مجتمعين في الجسم، ولا يتصور اجتماعها في العقل، وإنما وجد أحدهما وعدم الآخر، فالذي طرأ ووجد هو المحدث، لأنه كائن بعد أن لم يكن، والذي انعدم أيضاً محدث، لأنه لو كان غير محدث لم يجز أن ينعدم، ولأنه مثله أيضاً قد تجدد وحدث.

والذي يشهد بأن الأجسام لم تخل من هذه الحوادث بداية[1] العقول وأوائل العلوم، إذ كان لا يتصور فيها وجود الجسم مع هذه الأمور.

ولو جاز أن يخلو الجسم منها فيما مضى لجاز أن يخلو منها الآن وفيما يستقبل من الزمان.

والذي يدل على أن حكم الجسم كحكمها في الحدوث، أن المحدث هو الذي لوجوده أول، والقديم هو المتقدم على كل محدثٍ، وليس لوجوده أول. فلو كان الجسم قديماً لكان قبل الحوادث كلها، خالياً منها.

وفيما قدمناه من استحالة خلوه منها دلالة على أنه محدث مثلها والحمد لله.

---

(١) المراد به البداهة العقلية.

فصل

في الأشعار المأثورة عن أبي طالب بن عبد المطلب (ره) التي يستدل بها على صحة ايمانه

من ذلك قوله في قصيدته اللامية:

لعمري لقد كلفت وجداً بأحمدٍ.

وأحببته حب الحبيب المواصل

وجُدت بنفسي دونه وحميته

ودارأت عنه بالذرا والكلاكل

فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها

وشيئاً لمن عاداه زين المحافل

حليماً رشيداً خازماً غير طائشٍ

يوالي آله الخلق ليس بماحل

فأيَّدَه رب العباد بنصره

وأظهر ديناً حقه غير باطل

لقد علموا ان ابننا لا مكذب

لدينا ولا يُعنى بقيل الأباطل[1]

ومن قطعةٍ ميميةٍ:

ترجون أن نسخى بقتل محمدٍ

ولم تختضب سحر العوالي من الدم

كذبتم وبيت الله حتى تُعَرّفوا

جماجم تلقى بالحطيم وزمزم

---

(١) هذه الأبيات من قصيدة طويلة أوردها ابن هشام في السيرة ج١ ص٢٨٦ - ٢٩٨ مع اختلاف يسير.

وتقطــــع أرحـــام وتنسى حليلـــة

حليـــلاً ويغشى محرمـــاً بعـــد محرم

وينهـــض قوم في الحديـــد إليـــكم.

يـــــذودون عن أحسابهم كـــل مجرم

عـــلى مـــا أتـــى من بغيـــكم وضلالـكم

وغشيانـــكم في أمرنـــا كـــل مـــأتم

بظـــلم نـــبي جـــاء يدعو إلى الهـــدى

وأمرٍ أتـــى من عنـد ذي العرش مبرم

فـــلا تحسبونـــا مسلميـــه ومثلـــه

إذا كـــــــان في قومٍ فليس بمسلم

وقوله أيضاً:

أخلتم بأنـــــا مسلمون محمـــــــداً

ولـــــا نقـــاذف دونــــه بالمراجم

أصبنـــا حبيبـــاً في البـــلاد مسومـــاً

بخـــــــــاتم رب قاهرٍ للجرائم

يرى النـــــاس برهانـــــاً وهيبـــــةً

ومـــا جاهـــل في فعلـــه مثـــل عـــالم

نـــبي أتـــاه الوحي من عنـــد ربـــه

فمن قـــال لا يقرع بهـــا سن نـــادم

تطيـــف بـــه جرثومـــة هاشميـــة

يذبـــون عنــــه كـــل بـــاغٍ وظـــالم

وقوله أيضاً:

ألا أبلغـــا عـــني عـــلى ذات بينهـــا

لؤيـــاً وخُصّا من لؤي بـــني كعـــب

ألم تعلموا أنـــا وجدنـــا محمـــداً
نبيـاً كموسى خـط في أول الكتـب[1]
وإن عليـــه في العبـــاد محبـــة
ولا سن فيمن خصـــه الله بالحـــب

وقوله أيضاً يحض أخاه حمزة بن عبد المطلب (ره) على اتباع رسول الله (ص) ونصرته:

فصـــبراً أبـــا يعـــلى عـــلى دين أحمدٍ
وكن مظهراً للـــدين وفقـــت صابرا
وحـــط من أتـى بالـدين من عنـد ربه
بصـــدقٍ وحـــقٍ ولا تكن حمز كافرا
فقـــد سرني إذ قلـــت أنـــك مؤمن
فكن لرسول الله في الله ناصرا
وبـــاد[2] قريشاً بالـــذي قـــد أتيتـــه
جهـاراً وقـــل مـا كـان أحمد ساحرا

وقوله لابنه جعفر وقد أمره بالصلاة مع النبي (ص) وقال: يا بني صل جناح ابن عمك فلما أجابه قال:

إن عليـــــاً وجعفراً ثقـــــتى
عنـــد مـــلمّ الزمـــان والكرب
والله لا أخـــذل النـــبي ولا
يخذلـــه من بـــنيَّ ذو حسب
لا تخـــذلا وانصرا ابن عمكما
أخي لأمي من بينهم وأبي

وقوله أيضاً:

---

(١) في الفصول المختارة هكذا:
ألم تعلموا أنـــا وجدنـــا محمـــداً   رسول أمينٍ خط في سالف الكتب

زعمـــــــت قريش أن أحمد ساحر
كذبوا ورب الراقصـــــات إلى الحرم
مـــا زلـــت أعرفـــه بصـــدق حديثـــه
وهو الأمـــين عـــلى الخرائـــب والحرم
بهتوه، لاسعـــــدوا بقطرٍ بعدهـــــا
ومضـــــــت مقالتهم تسير إلى الأمم

وقال في الإقرار بالتوحيد:

مليـــك النـــاس ليس لـــه شريـــك
هو الوهـــــاب والمبـــدي المعيـــد
ومن فوق السماء لـــــه بحـــقٍ
ومن تحت السماء لـــــه عبيـــد

وقال أيضاً:

يـــا شاهـــد الله عَلَيَّ فاشهـــدِ آمنـــت بالواحـــد رب أحمد
من ضل في الدين فإني مهتدي

وهذا كله دليل واضح على إيمانه رضوان الله عليه بالله تعالى وبرسوله (ص).

ومن الحديث الوارد بصحة إيمانه، ما أخبرني به شيخي أبو عبدالله الحسين بن عبدالله بن علي المعروف بابن الواسطي رضي الله عنه.

قال: أخبرني أبو محمد هارون بن موسى التلعكبري، قال: أخبرني أبو علي بن همام، قال: حدثنا أبو الحسن علي بن محمد القمي الأشعري، قال: حدثني منجح الخادم مولى بعض الطاهرية بطوس، قال: حدثني أُبان بن محمد، قال: كتبت إلى الإمام الرضا علي بن موسى عليه السلام:

جعلت فداك، قد شككت في إيمان أبي طالب.

قال: فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم.

أما بعد فمن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى. إنك إن لم تقر بإيمان أبي طالب كان مصيرك إلى النار.

وباسناده إلى أبان بن محمد بن يونس بن نباته عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال:

يا يونس، ما يقول الناس في إيمان أبي طالب؟

قلت: جُعلت فداك، يقولون: هو في ضحضاحٍ من نار يغلي منها أُم رأسه، فقال: كذب أعداء الله، إن أبا طالب من رفقاء النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

ومن ذلك ما حدثنا به الشيخ الفقيه أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي بن الحسن بن شاذان القمي رضي الله عنه، قال: حدثني القاضي أبو الحسين محمد بن عثمان بن عبدالله النصيبي في داره، قال: حدثنا جعفر بن محمد العلوي، قال: حدثنا عبيدالله بن أحمد، قال: حدثنا محمد بن زياد، قال: حدثنا مفضل بن عمر، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي بن الحسين، عن أبيه، عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه كان جالساً في الرحبة، والناس حوله، فقام إليه رجل، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنك بالمكان الذي أنزلك الله، وأبوك معذب في النار، فقال له:

مه، فض الله فاك، والذي بعث محمداً بالحق نبياً، لو شفع أبي في كل مذنبٍ على وجه الأرض لشفعه الله، أأبي معذب في النار؟ وابنه قسيم الجنة والنار، والذي بعث محمداً بالحق، إن نور أبي طالب يوم القيامة ليطفىء أنوار الخلائق إلا خمسة أنوار، نور محمد، ونور فاطمة، ونور الحسن والحسين، ونور ولده من الأئمة، ألا إن نوره من نورنا، خلقه الله من قبل خلق آدم بألفي عام.

ومن ذلك: ما حدثني به الحسن بن محمد بن علي الصيرفي البغدادي قراءة عَلَيَّ من طريق نقل العامة، قال: حدثني أبو القاسم منصور بن جعفر بن ملاعب قراءةً عَلَيَّ، قال: حدثنا أبو عيسى محمد بن داود بن جندل الحلبي،

قال: أخبرنا علي بن حرب، قال: حدثنا زيد بن الجناب، قال: أخبرنا حماد بن سلمة، عن ثابت :بن اسحاق، عن عبدالله العباس أنه سأل رسول الله (ص) فقال: ما ترجو لأبي طالب، فقال: كل خيرٍ أرجو من ربي عز وجل.

وحدثني أبو الحسن طاهر بن موسى بن جعفر الحسيني، قال: حدثنا أبو القاسم ميمون بن حمزة الحسيني، قال: حدثنا مزاحم بن عبد الوارث البصري، قال: حدثنا أبو بكر أحمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أيوب الجوهري، قال: حدثنا العباس بن علي، قال: حدثنا علي بن عبدالله الجرشي، قال: حدثنا جعفر بن عبد الواحد بن جعفر، قال: قال لنا العباس بن الفضل، عن اسحاق بن عيسى بن علي بن عبدالله بن العباس، قال: سمعت أبي يقول: سمعت المهاجر مولى نوفل اليماني يقول: سمعت أبا رافع يقول: سمعت أبا طالب يقول: حدثني محمد (ص): إن ربه بعثه بصلة الرحم، وأن يعبدالله وحده، ولا يعبد معه غيره، ومحمد عندي الصادق الأمين.

فصل: من أخبار عبد المطلب رضي الله عنه.

وأخبرني شيخي أبو عبدالله الحسين بن عبدالله بن علي الواسطي رضي الله عنه قال: أخبرني أبو محمد هارون بن موسى التلعكبري، قال: أخبرني محمد بن همام، وأحمد بن هوذه جميعاً، عن أبي محمد الحسن بن محمد بن جمهور القمي، قال: حدثنا أبي، عن الحسن بن محبوب الزراد، عن عبد الرحمن بن الحجاج، عن هارون بن خارجة، عن أبي عبدالله جعفر بن محمد، عن أبيه، عن آبائه قال:

لما ظهرت الحبشة باليمن، وَجّه يكسوم ملك الحبشة بقائدين من قواده، يقال لأحدهما إبرهه، والآخر رباط، في عشرة من الفيلة، كل فيل في عشرة آلاف، لهدم بيت الله الحرام، فلما صاروا ببعض الطريق وقع بأسهم بينهم، واختلفوا، فقتل إبرهه أرباط، واستولى على الحبش.

فلما قارب مكة طرد أصحابه عيراً لعبد المطلب بن هاشم. فصار عبد المطلب إلى إبرهه، وكان ترجمان إبرهة والمستولي عليه ابن داية لعبد المطلب، فقال الترجمان لإبرهة:

هذا سيد العرب وديَّانها، فأجله وأعظمه. ثم قال لكاتبه: سله ما حاجته؟ فسأله. فقال: إن أصحاب الملك طردوا لي نعماً، فأمر بردها، ثم أقبل على الترجمان، فقال: قل له: عجباً لقوم سودوك، ورأسوك عليهم حيث تسألني في عيرٍ لك، وقد جئت لأهدم شرفك ومجدك، ولو سألتني الرجوع عنه لفعلت.

فقال: أيها الملك، إن هذه العير لي، وأنا ربها، فسألتك إطلاقها، وإن لهذه البنية رباً يدفع عنها.

قال: فإني غادٍ لهدمها، حتى أنظر ما ذا يفعل.

فلما انصرف عبد المطلب رحل إبرهة بجيشه، فإذا هاتف يهتف في السحر الأكبر: يا أهل مكة، أتاكم أهل عكة، بجحفلٍ جرارٍ، يملأ الأندار ملء الجفار[1]، فعليهم لعنة الجبار، فأنشأ عبد المطلب يقول:

أيهـــا الداعي لقـــد أسمعتـــني
كلما قلـــت ومـــا بي من صمم

إن للبيـــت لربـــاً مانعـــاً
من يرده بآثـــامٍ يصطـــلم

رامـــه تبـــع[2] في أجنـــاده
حمير والحي من آل إرم[3]

هلكـــت بالبغي فيهم جرهم
بعـــد طسم وجديس وجـــثم[4]

وكـــذاك الأمر فيمن جـــاده
ليس أمر الله بالأمر الأَمم[5]

---

(١) جفار جمع جفرة وهي سعة في الأرض مستديرة.

(٢) هو من ملوك اليمن

(٣) أي من آل عاد وعليه قوله تعالى: ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد.

(٤) جرهم وطسم وجديس وجثم هي قبائل عربية بائدة.

(٥) الآمم بالتحريك اليسير.

نحن آل الله فيما قد خلا
لم يزل ذاك على عهد ابْرَهَمْ[١]
نعرف الله وفينا شيمة
صلة الرحم ونوفي بالذمم
لم يزل لله فينا حجة
يدفع الله بها عنها النقم[٢]
ولنا في كل دورٍ كرة
نعرف الدين وطوراً في العجم
فإذا ما بلغ الدور إلى
منتهى الوقت أتى الطين[٣] قدم
بكتابٍ فصلت آياته
فيه تبيان أحاديث الأُمم[٤]

فلما أصبح عبد المطلب جمع بينه، وأرسل الحرث ابنه الأكبر إلى أعلى جبل أبي قبيس فقال: انظر ما ذا يأتيك من قبل البحر، فرجع فلم ير شيئاً، فأرسل واحداً بعد آخر من ولده، فلم يأته أحد منهم عن البحر بخبر، فدعا ولده عبدالله، وإنه لغلام حين أيفع وعليه ذؤابة تضرب إلى عجزه، فقال له: اذهب- فداك أبي وأمي- فاعل أبا قبيس، وانظر ماذا ترى يجيىء من البحر، فنزل مسرعاً، فقال: يا سيد النادي، رأيت سحاباً من قبل البحر مقبلاً، يسفل تارة، ويرتفع أخرى، إن قلت غيماً قلته، وإن قلت جهاماً[٥] خلته، يرتفع تارة وينحدر أُخرى.

فنادى عبد المطلب: يا معشر قريش، ادخلوا منازلكم، فقد أتاكم الله بالنصر من عنده.

---

(١) أي ابراهيم عليه السلام
(٢) روى هذه الأبيات المسعودي في المروج ج٢ ص١٢٩ باختلاف في بعضها.
(٣) الأحمر المشبع حمرة.
(٤) هذه الأبيات الثلاثة لم يذكرها المسعودي.
(٥) هو السحاب الذي لا ماء فيه.

فأقبلت الطير الأبابيل في منقار كل طيرٍ حجر، وفي رجليه حجران، فكان الطائر الواحد يقتل ثلاثة من أصحاب إبرهة، كان يلقي الحجر في قمة رأس الرجل فيخرج من دبره.[1]

وقد قص الله تبارك وتعالى بتأهم، فقال سبحانه:

(ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارةٍ من سجيل، فجعلهم كعصفٍ مأكول).[2] السجيل: الصلب من الحجارة. والعصف: ورق الزرع. ومأكول: يعني كأنه أُخذ ما فيه من الحب، فأكل وبقي لا حب فيه.

وقيل إن الحجارة كانت إذا وقعت على رؤسهم، وخرجت من أدبارهم، بقيت أجوافهم فارغة خالية، حتى يكون الجسم كقشر الحنطة.

وباسناده عن ابن جمهور رحمه الله، قال حدثني أبي، قال: حدثني علي بن حرب بن محمد بن علي بن حيان بن مازن الطائي، قال: حدثني عمر بن بكر، عن أحمد بن القاسم، عن محمد بن السائب، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال:

لما ظفر سيف بن ذي يزن، واسمه النعمان بن قيس بالحبشة، وذلك بعد مولد رسول الله (ص) بسنتين، أتته وفود العرب، وأشرافها، وشعراؤها، تهنيه، وتمدحه، وتذكر ما كان من حسن بلائه، وطلبه بثأر قومه، فأتاه فيمن أتاه وفد قريش، وفيهم عبد المطلب بن هاشم، وأمية بن عبد شمس، وعبدالله بن جدعان، وخويلد بن أسد بن عبد العزى، في أُناسٍ من وجوه قريش، فقدموا عليه صنعاء[3] فإذا هو في رأس غمدان،[4] وهو الذي ذكره أمية بن

---

(١) تجد هذه القصة مروية في مجالس الشيخ المفيد باسناده إلى عبدالله بن سنان عن الصادق (ع) مع اختلاف في أسلوبها ص ١٨٤- ٦٨٦.

(٢) سورة الفيل

(٣) هي احدى عواصم اليمن القديمة نزلها الأحباش بعد استيلائهم على اليمن، ولا تزال إلى اليوم عاصمة اليمن الكبيرة.

(٤) غمدان أحد القصور الشهيرة في اليمن، وهو في صنعاء وقد بناه اليشرح بخضب ٣٥- ١٥ق.م. على رواية الهمداني وياقوت وظل باقياً إلى أيام عثمان بن عفان، وكان مؤلفاً من عشرين طبقة، ومما قيل في وصفه. =

الصلت[1] في قصيدته حيث يقول:

اشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً
في رأس غمدان داراً منك محلالا[2]

فدخل الآذن، فأخبره بمكانهم، فأذن لهم، فدنا عبد المطلب، فاستأذنه في الكلام، فقال: إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك، فقد أَذِنّا لك، فقال عبد المطلب:

إن الله قد أحلك- أيها الملك- محلاً رفيعاً، صعباً، منيعاً، شامخاً باذخاً،

= يسمو إلى كبد السماء مصعداً عشرين سقفاً سمكها لا يقصر
ومن السحاب معصب بعمامة ومن الغمام منطق ومؤزر
متلاحكاً بالفطر منه صخرة والجزع بين صروحه والمرمر

تاريخ العرب قبل الإسلام

(١) هو أبو الصلت عبدالله بن ربيعة بن عوف بن أمية، والبيت هو له لا لابنه أمية على رواية ابن سلام الجمحي في طبقات الشعراء ورواية ابن قتيبة في الشعر والشعراء، ولكن الأصبهاني في الأغاني نسبة إلى ابنه أمية ابن الصلت.

(٢) هو من أبيات أولها:

لا يطلب الوتر إلا كابن ذي يزنٍ
في البحر لجج للأعداء أحوالا
أتى هرقلاً وقد شالت نعامته
فلم يجد عنده القول الذي قالا
ثم انتحى نحو كسرى بعد تاسعةٍ
من السنين لقد أبعدت إيغالاً
حتى أتى ببني الأحرار يقدمهم
تخالهم فوق متن الأرض أجبالا

ومنها

من مثل كسرى وسابور الجنود له
أو مثل وهرز يوم الجيش إذ صالا
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً
في رأس غمدان داراً منك محلالاً

أنبتك منبتاً طابت أُرومته، وعزت جرثومته، وثبت أصله، وسبق[1] فرعه، أكرم موطن، وأطيب معدن.

وأنت- أبيت اللعن- ملك العرب وربيعها الذي به نخصب، ورأس العرب الذي إليه تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي يلجأ إليه العباد.

سلفك خير سلف، وأنت لنا منهم خير خلف، فلم يخمل من هم سلفه، ولن يهلك من أنت خلفه.

نحن- أيها الملك- أهل حرم الله، وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي ابهجنا لكشف الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة، لا وفد المرزئة.[2]

فقال سيف: وأيهم أنت أيها المتكلم؟

قال: أنا عبد المطلب بن هاشم، قال: ابن اختنا؟ قال: نعم، قال: ادن، فدنا.

ثم أقبل عليه وعلى القوم، فقال: مرحباً وأهلاً، وناقة ورحلا، ومستناخاً سهلاً، وملكاً نحلا، يعني يعطي عطاءً جزيلاً، قد سمع الملك مقالتكم، وعرف قرابتكم، وقَبِلَ وسيلتكم، فإنتم أهل الليل والنهار، ولكم الكرامة ما أقمتم، والحباء إذا ظعنتم.

ثم نهضوا إلى دار الضيافة والوفود، وأقاموا بها شهراً، لا يصلون إليه، ولا يؤذن لهم في الإنصراف.

ثم انتبه لهم انتباهة، فأرسل إلى عبد المطلب: أني مفـضٍ إليك من سر علمي ما لو يكون غيرك لم أبح به، ولكني رأيتك معدنه، فأطلعتك طلعة،[3] فليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه، فإن الله بالغ أمره.

---

(١) هكذا في النسخة ولعل الأصل سمق بمعنى ارتفع أو امتد أو الأصل بسق.

(٢) في النسخة (الترزية). والتصحيح عن الأغاني.

(٣) عن نهاية ابن الأثير: أَطلعتك طلعة أي أعلمتك.

إني أجد في الكتاب المكنون، والعلم المخزون، الذي اخترناه لأنفسنا، واحتجبناه دون غيرنا، خبراً عظيماً، وخطراً جسيماً، فيه شرف الحياة، وفضيلة الوفاة، وللناس عامة، ولرهطك كافة، ولك خاصة.

فقال عبد المطلب: مثلك - أيها الملك - سَرَّ وبَرَّ، فما هو؟ فداك أهل الوبر زمراً بعد زمر.

قال: إذا ولد بتهامة، غلام بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة، ولكم به الدعامة، إلى يوم القيامة.

قال عبد المطلب: أبيت اللعن، لقد أُبت بخير ما آب به وافد، لولا هيبة الملك وإجلاله لسألته [من بشارته][1] إياي ما أزداد به سروراً.

قال ابن ذي يزن: هذا حينه الذي يولد فيه، أو قد ولد، اسمه محمد، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه. قد ولدناه مراراً، والله باعثه جهاراً، وجاعل له منا أنصارا، يعزبهم أولياؤه، ويذل بهم أعداؤه، يضرب بهم الناس عن عرض، ويستبيح به كرائم الأرض، يكسر الأوثان، ويخمد النيران، ويعبد الرحمان، ويدحر الشيطان، قوله فصل، وحكمه عدل، يأمر المعروف ويفعله، وينهي عن المنكر ويبطله.

قال عبد المطلب: أيها الملك، عز جدك، وعلا كعبك، ودام ملكك، وطال عمرك، فهل الملك سارّي بافصاح، فقد أوضح بعض الإيضاح؟

فقال ابن ذي يزن: والبيت ذي الحجب، والعلامات على النصب، إنك يا عبد المطلب لجده غير الكذب.

فخر عبد المطلب ساجداً، فقال: ارفع رأسك، وثلج صدرك وعلا أمرك، فهل أحسست شيئاً مما ذكرت لك؟

فقال: أيها الملك، كان لي ولد، وكنت به معجباً، وعليه شفيقاً، فزوجته

---

(١) في النسخة من سارة، وصححناه عن اعلام النبوة للماوردي، وفي رواية الأغاني: أن يزيدني من البشارة.

كريمة من كرائم قومي، آمنة بنت وهب بن عبد مناف، فجاءت بغلام، وسميته محمداً، مات أبوه وأمه، فكفلته أنا وعمه، بين كتفيه شامة، وكل ما ذكرت من علامة.

قال ابن ذي يزن، إن الذي قلت لك لكما قلت، فاحتفظ بابنك، واحذر عليه اليهود، فانهم أعداء له، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً، واطوِ ما قلت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإني لست آمن أن تدخلهم النفاسة من أن تكون لك الرئاسة، فيطلبوا لك الغوائل، وينصبوا لك الحبائل، وهم فاعلون لو أُنبئهم، ولولا إني أعلم أن الموت مجتاحي قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أُصير يثرب دار ملكي، فإني أجد في الكتاب الناطق والعلم الباسق، أن يثرب استحكام أمره، وأهل نصره، وموضع قبره، ولولا أني أقيه الآفات، وأحذر عليه العاهات، لأعلنت على حداثة سنه أمره، ولأوطأت أسنان العرب عقبه، لكني صارف ذلك إليك، عن غير تقصيرٍ لمن معك، فعليه مني التحية والسلام.

ثم أمر لكل واحدٍ منهم بعشرة أعبد وعشر إماء، وبمائة من الإبل، وخمسٍ من البرود، وخمسة أرطال من الذهب، وعشرة أرطال فضة، وكرشٍ مملوءٍ عنبراً.

وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال: إذا حال الحول فاتني

فمات ابن ذي يزن قبل أن يحول الحول، فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول: يا معشر قريش، لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك، وإن كثر، فإنه إلى نفاد، ولكن ليغبطني بما يبقى لي ولعقبي من بعدي ذكره، وفخره، وشرفه.

فإذا قيل له: وما ذلك؟ قال: سيُعلم ما أقول ولو بعد حينٍ.[1]

---

(١) وهكذا ذكر الماوردي في إعلام النبوة قصة وفود عبد المطلب على سيف رواها باسناده عن أبي صالح عن ابن عباس وتجدها في الأغاني ج١٦ ص١٤٦ - ١٤٨. ورواها الطبرسي في إعلام الورى ص ٢٤ - ٢٦ وقال روى هذا الحديث أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي في دلائل النبوة من طريقين.

وفي ذلك يقول أُمية بن عبد شمس:

جلبنا النصح تحمله المطايا
على أكوار أجمالٍ ونوق
مغلغلة مراقعها تعالى
إلى صنعاء من فجٍ عميق
تؤم[1] بنا ابن ذي يزن ومعرىً
ذوات بطونها أم الطريق
وترعى عن مخايله بروقاً
مواصلة الوميض إلى بروق
فلما وافقت صنعاء حلت
بدار الملك والحسب العريق[2]

وروي أنه قيل لأكثم بن صيفي، وكان حكيم العرب: إنك لأعلم أهل زمانك، وأحكمهم، وأعقلهم، وأحلمهم، فقال:

وكيف لا أكون كذلك، وقد جالست أبا طالب[3] بن عبد المطلب دهره، وهاشماً دهره، وعبد مناف دهره، وقصياً دهره، وكل هؤلاء سادات أبناء سادات، فتخلقت بأخلاقهم، وتعلمت من حلمهم، واقتفيت سؤددهم، واتبعت آثارهم. وكان أكثم بن صيفي من المعمرين.[4]

---

(١) في النسخة (ترم) والتصحيح عن الأغاني

(٢) هذه الأبيات موجودة في الأغاني ج١٦ ص١٤٨ وتجد قصة دخول عبد المطلب على سيف ابن ذي يزن في أمالي الصدوق ص١٧٤ - ١٧٨ وأنظر: إعلام الورى ص٢٦ - ٢٧.

(٣) قد يكون هنا سقط وهو قد جالست أبا طالب دهره وعبد المطلب دهره.

(٤) كما يأتي ذلك في بعض فصول هذا الكتاب.

خبر رؤيا ربيعة بن نصر اللخمي[1] ملك اليمن التي تأولها سطيح وشق

ذكر الرواة من أهل العلم أن ربيعة بن نصر رأى رؤياً هالته، وفظع بها، فلما رآها بعث في أهل مملكته، فلم يدع كاهناً، ولا ساحراً، ولاقائضاً، ولا منجماً إلا أحضره إليه، فلما جمعهم قال لهم: إني قد رأيت رؤياً هالتني، وفظعت بها، فأخبروني بتأويلها، قالوا: اقصصها علينا لنخبرك بتأويلها، قال: إنه لا يعرف تأويلها إلا من يعرفها قبل أن أخبره بها.

فلما قال لهم ذلك قال رجل من القوم: إن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سطيح وشق، فإنه ليس أحد أعلم منهما، فهما يخبرانك بما سألت.

فلما قيل له ذلك بعث إليهما، فقدم عليه سطيح قبل شق، ولم يكن مثلهما من الكهان، فلما قدم عليه دعاه، فقال له: يا سطيح، إني قد رأيت رؤياً، هالتني، وفظعت بها، فأخبرني بها، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها، قال أفعل:

رأيت جمجمة خرجت من ظلمة، فوقعت بأرض تهمة، فأكلت منها كل ذات جمجمة.

قال له الملك: ما أخطأت منها شيئاً ياسطيح، فما عندك في تأويلها؟

فقال: أحلف بما بين الحرمين من خش ليهبطن أرضكم الحبش، فلتملكن ما بين أبين إلى جرش.

قال له الملك: وأبيك يا سطيح، إن هذا لنا لغائظ موجع، فمتى هو كائن يا سطيح، أفي زماني أم بعده؟

قال: لا، بل بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين، يمضين من السنين، ثم يقبلون[2] بها أجمعون، ويخرجون منها هاربين.

---

(١) هو جد النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر.

(٢) في سيرة ابن هشام: ثم يقتلون.

قال الملك: من ذا الذي يلي ذلك من قِبَلهم وإخراجهم؟

قال: يليه إرم ابن ذي يزن، يخرج عليهم من عدن، فلا يترك منهم أحداً باليمن.

قال: أفيدوم ذلك من سلطانه أو ينقطع؟

قال: بل ينقطع.

قال: ومن يقطعه؟ قال نبي زكي، يأتيه الوحي من قِبَل العلي.

قال: وممن هذا النبي؟ قال: من ولد غالب بن فهر بن مالك ابن النضر، يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر.

قال: وهل للدهر يا سطيح من آخر؟

قال: نعم، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، ويسعد فيه المحسنون، ويشقى فيه المسيئون.

قال: أحق ما تخبرنا يا سطيح؟ قال نعم والشفق، والليل إذا اتسق، إن ما انبأتك به لحق.

فلما فرغ قدم عليه شق، فقال له يا شق إني رأيت رؤياً هالتني، وفظعت بها، فأخبرني عنها، فانك إن أصبتها أصبت تأويلها، كما قال السطيح، وقد كتمه ما قال السطيح، لينظر أيتفقان أم يختلفان.

قال: نعم، رأيت جمجمة خرجت من ظلمة، فوقعت بين روضة وأكمة، فأكلت منها كل ذات نسمة.

قال له الملك: ما أخطأت منها، فما عندك في تأويلها؟

قال: أحلف بما بين الحرمين من إنسان، لينزلن أرضكم الحبشان، فليغلبن على كل طفلة البنان، وليملكن ما بين أبْيَن إلى نجران.

فقال له الملك: وأبيك إن هذا لنا لغائظ موجع، فمتى [هو] كائن؟ أفي زماني أم بعده؟

قال: بعده بزمان، ثم يستنقذكم منهم عظيم الشأن، ويذيقهم أشد الهوان.

قال: ومن هذا العظيم الشأن؟

قال: غلام، ليس بدني ولا مُدَّنٍ، يخرج من بيت ذي يزن.

قال: فهل يدوم سلطانه أو ينقطع؟

قال: بل ينقطع برسول مرسل، يأتي بالحق والعدل، بين أهل الدين والفضل، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل.

قال: وما يوم الفصل؟

قال: يسمع منها الأحياء والأموات، ويجمع فيه الناس للميقات، يكون لمن اتقى الفوز والخيرات.

قال: أحق ما تقول يا شق؟

قال: إي ورب السماء والأرض، وما بينهما من رفع وخفض، إن ما أبنأتك لحق ما فيه أمض.[1].

دليل في تثبيت الصانع

حكي عن ابراهيم النظام قال:

الدليل على ذلك، أنا رأينا أشياء متضادة، من شأنها التنافي والتباين والتفاسد مجموعة، وهي الحرارة والبرودة، والرطوبة، واليبوسة، المجتمعة في كل حيوان، وفي أكثر سائر الأجسام، فعلمنا أن جامعها أقسرها على الإجتماع.

ولولا ذلك لتباينت وتفاسدت.

قال: ولو جاز أن تجتمع المتضادات المتنافرات، وتتقاوم من غير جامعٍ جمعها، لجاز أن يجتمع الماء والنار، ويتقاوما من ذاتها بغير جامع مدبرٍ مقيم يقيمها، وهذا محال لا يتوهم.

---

(١) قال ابن هشام: أمض يعني شكاً، وقال أبو عمرو أمض أي باطل وتجد قصة هذه الرؤيا في سيرة ابن هشام ج١ ص١١- ١٣.

قال: وفي اجتماعها دليل على حدوثها، لأنها لا يجوز عليها الإنفراد، فإذا كانت لا توجد إلا مجتمعة، وبطل أن توجد كذلك إلا بجامع جمعها، صح أنه قبلها، وأنها لم توجد إلا حين ابتدعها مجتمعة، ولو وجدت قبل ذلك لم توجد إلا على أحد وجهين، أما أن يكون كل واحدٍ منها منفرداً، وهذا محال، أو تكون مجتمعة لا جامع لها، وهذا أيضاً محال.

فقد صح أنها ابتدعت، وأن الذي جمعها كان موجوداً قبلها لم يزل.

مسألة على نفاة الحقائق [1]

[و] هم الذين يقولون المذاهب باطلة كلها، وأنه لاحق بشيء منها.

فيقال لهم: أخبرونا عن مذهبكم هذا، أحق هو أم باطل؟

---

(١) هم من فرق الفلسفة السوفسطائية «الحكمة المموهة» ويقولون إنه لا حقائق واقعاً، لأن الطريق إلى إدراكها هي الحواس الظاهرة الخمسة، وقد تخطىء، ومع احتمال خطئها فلا يمكن الجزم بشيء مما تؤديه، فالجهاز البصري قد نرى به ما ليس بواقع واقعاً، والحاسة الذوقية قد تخدعنا أحياناً، فالمريض بالحمى يجد الحلو مراً، والحاسة السمعية قد تخدعنا أيضاً فتسمعنا أصواتاً غير واقعية، وحاسة الشم قد تخطىء أيضاً عند اختلالها، وتعطينا رائحة غير واقعية، وأنه يكفي للشك فيما تؤديه هذه الحواس ولو مرة واحدة.

وتقول هذه الفلسفة إنه لا حقائق للأشياء، وإنما هي أوهام عارضة، لأن ما نشاهده يجوز أن يكون على ما نشاهده أو تسمعه أو نبصره أو نشمه، كما يجوز أن لا يكون كذلك.

ومن مذاهب هذه الفلسفة، المذهب اللاأدري، القائم على نفي العلم بالحقائق، وهم يثبتون الحقائق في نفس الواقع ولكنهم ينفون العلم بها، ويقولون لا ندري.

ومذهب آخر منها يسمى المذهب العندي، ويقوم على نفي حقائق للأشياء في واقعها، وإنما واقعها عند معتقديها فقط، فليس لها حقيقة واحدة في نفس الأمر، بل حقيقتها عند كل قوم على حسب اعتقادهم.

ويبدو أن هذا المذهب هو الأساس للفلسفة المثالية التي نادى بها (بركلي) القائلة بأنه لا واقع خارج الذهن والوعي، وأن الحقائق ليست إلا انعكاسات لوعي الإنسان، وليست أشياء مستقلة خارجة عن هذا الوعي.

فإن قالوا هو حق، قيل لهم: فقد ناقضتم وأوجبتم أن في المذاهب حقاً من حيث نفيتم ذلك.

وإن قالوا: ليس مذهبنا حقاً، وهو باطل، قيل لهم: فإذاً بطل قولكم أنه لا حق في شيءٍ من المذاهب، فقد صح أن فيها حقاً.

مسألة على مبطلي النظر وحجج العقل

يقال لهم: أبنظرٍ أفسدتم النظر أم بالحواس، أم بالخبر؟ وبعقل أفسدتم حجة العقل أم بغير عقل؟

فإن قلتم: أفسدنا النظر بنظر، فقد ناقضتم ورجعتم إلى ما أعيتم، وصححتم النظر من حيث رمتم إفساده.

وإن قلتم بالحواس، قلنا: حواسنا كحواسنا، وعلوم الحواس لا تختلف فيها، فما بالنا لا نعلم من ذلك ما علمتم؟

وإن قلتم بخبرٍ، فبأي شيء فصلتم بين هذا الخبر وبين ضده من الإخبار، إلا بالعقل والنظر.

فإن قلبتم السؤال، فقالوا: أبنظر صححتم النظر أم بحس أم بخبر؟ وبعقلٍ أوجبتم حجة العقل أم بغير عقل، أو قلتم بالحواس عَلِمنا ذلك؟

قلنا لكم: حواسنا كحواسكم، وعلوم الحواس ليس فيها اختلاف، فما بالنا لا نعلم من صحة أمر النظر والعقل ما علمتم؟

وإن قلتم بالخبر [فقد] جعلتم الخبر عياراً[1] على العقل، وليس هذا قولكم.

وإن قلتم: عرفنا صحة النظر والعقل [بالنظر والعقل]، جاز لنا أن نزعم أنا عرفنا صحة الخبر بالخبر.

فالجواب: أن يقال لهم: أنا عرفنا صحة النظر والعقل بالنظر والعقل، وليس يصح لكم مثل ذلك في الخبر، لأنكم إن كنتم عرفتم صحة الخبر. [بـ]

---

(١) أي معبار يقاس به.

نفسه، فيجب أن يكون كل من طرقه الخبر علم صحته، حتى لا يوجد الخلف فيه، ولسنا نجد ذلك[1] وإن قلتم: علمنا صحة الخبر بخبرٍ آخر، فهذا يؤديكم إلى ما لا يتناهى[2]

فإن قالوا: فأنتم إذا عرفتم صحة النظر والعقل بنظرٍ وعقل، فقد وجب أن يؤديكم هذا أيضاً إلى ما لا يتناهى.

قيل لهم: إنا لا نزعم أنا عرفنا صحة النظر والعقل بنظرٍ وعقل غيرهما، بل نعرف صحتهما بها.

وذلك: أنا نعرف بهما أن كل نظرٍ لزم صاحبه السنن والترتيب، ولم يمل به هواه، ولا إلفه وعصبيته، فهو صحيح، وكل علم بني على ما في بداية العقول فغير فاسد، فيكون هذا النظر نفسه داخلاً فيما شهد بصحته إن كان حكمه ذلك.

(فصل: ما جاء في الحديث في العقل)

أخبرني شيخي أبو عبدالله الحسين بن عبدالله بن علي المعروف بابن الواسطي رضي الله عنه، قال: أخبرني أبو محمد هارون بن موسى التلعكبري، قال: أخبرني أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني، عن علي بن ابراهيم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن الإمام الصادق أبي عبدالله جعفر بن محمد عليهم السلام قال: قال رسول الله (ص).

---

(١) وخلاصة ذلك أن العلم بصحة الخبر من لوازم ذات الخبر نفسه فينبغي أن لا يختلف اثنان في صحته، وهو خلاف الواقع على أن هذا من الدور الباطل لتوقف الشيء على نفسه.

(٢) الأولى في الجواب أن يقال أن العلم أو النظر لابد لإثبات صحته من سبب صحيح معلوم، ولا يمكن أن يكون بديهياً دائماً وإلا لما جهل ولما وقع الخلاف فيه، ولا يكون كسبياً نظرياً دائماً لأنه هو نفسه محتاج إلى سبب صحيح مثبت له أيضاً فإن استند إلى كسبي مثله وذهب إلى ما لا نهاية لزم التسلسل وإن رجع لزم الدور، بل لا بد أن يستند إلى ما هو بديهي بنفسه ومن هنا قيل إن ما بالعرض لابد أن ينتهي إلى ما بالذات.

إذا بلغكم عن رجلٍ حسن حال، فانظروا إلى حسن عقله، فإنما يجازي بعقله.

وباسناده عن الكليني، عن أحمد بن محمد، عن بعض من رفعه إلى أبي عبدالله (ع) أنه قال: قال رسول الله (ص):

إذا رأيتم الرجل كثير الصلاة، كثير الصيام، فلا تباهوا به حتى تنظروا عقله.

وباسناده عن الكليني عن علي بن محمد، عن سهل بن زياد عن اسماعيل بن مهران عن بعض رجاله عن أبي عبدالله (ع) أنه قال:

العقل دليل المؤمن.

(فصل: من كلام أمير المؤمنين (ص) في العقل)

لا عدة أنفع من العقل، ولا عدو أضر من الجهل.

زينة الرجل عقله.

من صحب جاهلاً نقص من عقله.

التثبت رأس العقل، والحدة رأس الحمق.

غضب الجاهل في قوله، وغضب العاقل في فعله.

الأَدب صورة العقل، فَحسِّن عقلك كيف شئت.

العقول مواهب، والآداب مكاسب.

فساد الأَخلاق معاشرة السفهاء، وصلاح الأَخلاق معاشرة العقلاء.

قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل، والعاقل من وعظته التجارب.

رسولك ترجمان عقلك.

لا تأوي من لا عقل له، فيكثر ضررك.

ظن الرجل قطعةٌ من عقله.

من ترك الإستماع من ذوي العقول مات عقله.

من جانب هواه صح عقله.

من أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل، ومن تكبر على الناس ذل.
إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله.
من لم يكن أكثر ما فيه عقله، كان بأكثر ما فيه قتله.
لا جمال أزين من العقل.
عجباً للعاقل كيف ينظر إلى شهوة، يعقبه النظر إليها حسرة.
همة [العاقل][1] ترك الذنوب، واصلاح العيوب.
الجمال في اللسان، والكمال في العقل.

لا يزال العقل والحمق يتغالبان على الرجل إلى ثماني عشرة سنة، فإذا بلغها غلب عليه أكثرهما فيه.

ليس على العاقل اعتراض المقادير، إنما عليه وضع الشيء في حقه.

العقول أئمة الأفكار، والأفكار أئمة القلوب، والقلوب أئمة الحواس، والحواس أئمة الأعضاء.

(فصل: من الاستدلال على صحة نبوة رسول الله (ص).)

إعلم- أيدك الله- أن المتمحلين من الكفار في إبطال نبوة بيننا عليه وعلى آله السلام قد أداهم الحرص في الإنكار إلى وجوب الإذعان والإقرار، وساقهم الخير والقضاء إلى لزوم التسليم والرضا، فلا خلاص لهم من ثبوت الحجة عليهم وهم راغمون، ولا محيص لهم من وجوب تصديقه وهم صاغرون.

وذلك أنهم لم يجدوا طريقاً يسلكونها في إنكار حقه من النبوة، والدفع لما أتى به من الرسالة، إلا بأن أقروا له ببلوغه من كل درجةٍ في الفضل منيفة، ومرتبةٍ في الكمال والعقل شريفة، ما قد قصر عنه جميع خلق الله. وبدون ذلك تجب له الرياسة والتقدم على الكافة، ولا يجوز أن يتوجه إليه ساقط الظنة من قبل التهمة، لمنافاتها لما أقروا به في موجب العقل والحكم.

(١) في النسخة (العقل)

وبيان ذلك أنهم إذا سمعوا القرآن الوارد على يده الذي قد جعله عَلَماً على صدقه، ورأوا قصور العرب عن معارضته، وعجزهم عن الإتيان بمثله، قالوا: أنه كان قد فاق بجميع البلغاء في البلاغة، وزاد على سائر الفصحاء في الفصاحة، قصر عن مساواته في ذلك الناس كافة، ففضلوه بهذا على الخلق أجمعين، وقدموه على العالمين.

فإذا تأملوا ما في القرآن من أخبار الماضين والذاكرين، وأعاجيب السالفين، وذكر شرائع الأنبياء المتقدمين، قالوا: قد كان أعرف عباد الله بأخبار الناس، وأعلمهم بجميع ما حدث، وكان في سالف الأزمان قد أحاط بنبأ الغابرين وحفظ جميع علوم الماضين، ففضلوه بهذه الرتبة على الخلق أجمعين، وأوجبوا له التقدم على العالمين.

فإذا رأوا ما تضمنه القرآن من عجيب الفقه والدين وبدائع عبادات المكلفين، وترتيب الفرائض وانتظامها، وحدود الشريعة وأحكامها، قالوا قد كان أحكم أهل زمانه وأفضلهم، وأبصرهم بأنواع الحكم، وأعلمهم، ولم يكن خلق في ذلك يساويه، ولا بشر يدانيه، ففضلوه بذلك أيضاً على الخلق أجمعين، وأوجبوا له التقدم على العالمين.

فإذا علموا ما في القرآن من الإخبار بالغائبات، وتقديم الإعلام بمستقبل الكائنات، وسمعوا ما تواترت به الأخبار من إنبائه لكثيرٍ من الناس بما في نفوسهم، وإظهاره في الأوقات لمغيب مستورهم، قالوا: قد كان أعرف الناس بأحكام النجوم، وأبصرهم بما تدل عليه في مستأنف الأمور، وإن لم يظهر معرفته بها لأمته، ونهاهم عن الاطلاع فيها لينتظم له حال نبوته، وأنه كان معولاً عليها، مستنداً في أموره إليها، قوله لا يخرم، وإخباره بالشيء لا يختلف، يعلم الحوادث والضمائر، ويطلع على الخبايا والسرائر، ولا يخفي عليه أوقات المساعد...[1]، ولم يكن أحد يعثره[2] في ذلك، ففضلوه بهذا أيضاً على الخلق أجمعين، وأوجبوا له التقدم على العالمين.

---

(١) هنا كلمة غير واضحة.

(٢) هكذا في النسخة وهي غير واضحة المعنى.

فإذا قيل لهم: فما تقولون في المأثور من معجزاته، والمنقول من جرائحه[1] وآياته الخارقة للعادة، التي أقام بها الحجة، قال المُسلِّمون منهم لذلك، المتعاطون لإخراج معناه: كان أعرف الناس بخواص الموجودات، وأسرار طبائع الحيوان والحوادث، فيظهر من ذلك للناس ما يتحيَّر له من رآه، لقصوره عن إدراك سببه ومعناه، ففضلوه بهذا أيضاً على الخلق أجمعين، وأوجبوا له التقدم على العالمين.

وقد سمعنا في بعض الأحاديث أن أحد السحرة قال لموسى عليه السلام: إن هذه العصا من طبيعتها أن تسعى إذا أُلقيت، وتتشكل حيواناً إذا رميت، [و] خاصيةً لها بسببٍ فيها.

فقال له موسى على نبينا وعليه السلام: فخذها أنت وارمها، قالوا: فأخذها الساحر، ورماها، فما تغيرت عن حالها، فأخذها موسى ورماها، فصارت حيةً تسعى.

فقال الساحر: ليس السر في العصا، وإنما السر فيما ألقاها. آمنت بآله موسى.

أفترى لو أخذ أحد المشركين الحصا الذي سبح في كف رسول الله (ص)، فتركه في يده، أكان يسبح أيضاً فيها؟ أم ترى أحدهم لو أشار بيده إلى الشجرة التي أشار إليها رسول الله (ص) فأتت، لكانت تأتيه أيضاً إذا أومأ إليها؟ وأن هذه الأشياء تفعل بالطبع كما يفعل حجر المغناطيس في الحديد الجذب؟ كلا: والحمد لله ما يتصور هذا عاقل، فإذ نظر وأحسن تمام النظر أمر رسول الله (ص)، وانتظام مراده الذي قصده، وأنه نشأ بين قوم يتجاذبون العز والمنعة، ويتنافسون في التقدمة والرفعة، ويأنفون من العار والشنعة، ولا يعطون لأحدٍ إمرةً ولا طاعة، فلم يزل بهم حتى قادهم إلى أمره، وساقهم إلى طاعته، واستعبدهم[2] بما لم يكونوا عرفوه، وأمرهم بهجران ما ألفوه، إلى أن

---

(١) كذا في النسخة.

(٢) أي تَعَبَّدهم.

صاروا يبذلون أنفسهم دون نفسه، ويسلمون لقوله، ويأتمون لأمره، من غير أن كان له ملك خافوه، ولا مال أملوه، تفتح له البلاد، وأذعن له ملوك العباد، ونفذ أمره في الأنفس والأموال، والحلائل والأولاد.

قالوا: إنما تم له ذلك، لأنه فاق العالمين بكمال عقله، وحسن تدبيره ورأيه، ولم يكن ذلك في أحدٍ غيره، ففضلوه بهذا أيضاً على الخلق أجمعين، وأوجبوا له التقدم على العالمين.

فإذا سمعوا المشتهر من عدله ونصفته، وحسن سيرته في أمته ورعيته، وأنه كان لا يكلف أحداً شيئاً في ماله، وإذا حصلت المغانم فرقها في أُمته، وقنع في عيشه بدون كفايته. هذا مع سخاوته وكرمه، وإيثاره على نفسه، ووفائه بوعده، وصدق لهجته، واشتهاره منذ كان بأمانته، وشريف طريقته، وحسن عفوه ومسامحته، وجميل صبره وحلمه، قالوا: كان أزهد الناس وأعلاهم قدراً في العدل والإنصاف، ولا طريق إلى إنكار إحاطته بالفضائل الكرام، والمناقب [العظام]، ففضلوه في جميع هذه الأُمور على الخلق أجمعين، وأوجبوا له التقدم على العالمين.

فإذا قيل لهم: فهذه العلوم العظيمة متى أدركها؟ وفي أي زمانٍ جمعها وتلقطها؟ وأي قلبٍ يعيها ويحفظها؟ وهل رأى بشرقط [من] يحيط بجميع الفضائل، ويتقدم العالمين كافة في جميع المناقب، ويكون أوحد الخلق في كمال العقل والتمييز، وثاقب الرأي والتدبير؟ مع نزاهة النفس و[صفائها][1]، وجلالها وشرفها، وزهدها وفضلها، وجودها وبذلها.

قالوا: كانت له سعادات فلكية، وعطايا نجومية، فاق بها على جميع البرية.

قيل لهم: فمن يكون بهذا الوصف العظيم، والمحل الجليل، كيف يستجيز عاقل مخالفته، أو يسوغ له مباينته؟؟ وبمن يقتدى أفضل منه؟ ومتى يكون مصيباً في الإنصراف عنه؟

---

(١) في النسخة وصلفها.

بل كيف لا يرضى بعقل أعقل [الناس]، ويؤخذ العلم من أعلم الناس، ويقتبس الحكمة من أحكم الناس؟

وما الفرق بينكم في قولكم إن هذه العطايا التي حصلت له إنما كانت فلكية ونجومية، وبيننا إذا قلنا آلهية ربانية؟

وبعدُ فكيف يستجيز من يكون بهذا العقل الكامل، والفضل الشامل، والورع الظاهر، والزهد الباهر، والشرف العريق، واللسان الصدوق، أن يكذب على خالق السموات والأرضين، فيقول للناس: أنا رسول رب العالمين، ويدعي هذا المقام الجليل، ويكون بخلاف ما يقول؟

وكيف تلائم صفاته التي سلمتموها لهذه الحال التي أدعتموها؟

فدعوا المناقضة والمكابرة، وأثبتوا على ما أقررتم به في المناظرة، فكلامكم لازم لكم، وقولكم حجة لكم عليكم، قد أقررتم بالحق وأنتم راغمون، والتجأتم إلى ما هربتم منه وأنتم صاغرون.

وأعلموا أن من باين المسعود كان منحوساً، ومن خالف العاقل العالم كان جاهلاً غبياً، ومن كذب الصادق كان هو في الحقيقة كاذباً. والحمد لله مقيم الحجة على من أنكرها، وموضح الحجة لمن آثرها.

فصل: مما في التوراة يتضمن البشارة نبينا (ص) وبأمته المؤمنين.

في التوراة مكتوب «إذا جاءت الأُمة الأخيرة، تتبع راكب البعير، يسبحون الرب تسبيحاً جديداً، في الكنائس الجدد، فليفرح بنو إسرائيل، ويسيروا إلى صهيون، ولتطمئن قلوبهم، لأن الله اصطفى منهم في الأيام الأخيرة أُمماً جديدة، يسبحون الله بأصوات عالية، بأيديهم ذات شفرتين، فينتقمون لله من الأمم الكافرة في جميع أقطار الأرض.

فمن ترى راكب البعير غير رسول الله (ص)؟ ومن الأُمم الأخيرة المسبحة تسبيحاً جديداً غير أمته؟

ومن الذين أتوا وفي أيديهم السيوف غير ناصريه والمتبعين لدعوته؟

وفي التوراة أيضاً مكتوب في السفر الخامس:

«الرب ظهر فتجلى على سنين، وأشرف على جبل ساعير، وأشرف من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس، من يمينه نار، شريعة لهم.»[1]

وجبال فاران جبال مكة، وظهور الرب إنما هو ظهور أمره.

فصل في الإنجيل

وفي الإنجيل اليوم مكتوب:

«ابن البشر ذاهب، والفار قليط أتى من بعده، وهو الذي يجلّي لكم الأسرار، ويعيش لكم كل شيء، وهو يشهد لي كما شهدت له، فإني أنا جئتكم بالأمثال، وهو يأتيكم بالتأويل.»

ومن قول شعيا النبي (ع):

«قال لي آله إسرائيل: أقم على المنظرة فانظر ماذا ترى؟ فإذا رأيت راكبين يسيران، أضاءت لهما الأرض، أحدهما على حمار، والآخر على جمل، فقال: ويل لبابل، كل صنم بها يكسر ويضرب به الأرض.».

ومن قول يوشع النبي (ع):

«رأيت راكبين يسيران، أضاءت لهما الأرض، أحدهما على حمار، والآخر على جمل».

فراكب الحمار عيسى (ع) وراكب الجمل محمد (ص).

ومن قول دانيال النبي (ع):

«جاء الله بالبيان من جبل فاران، وامتلأت السموات والأرض من تسبيح محمد وأُمته»

---

(١) سفر التثنية ٣٣:١- ٣ باختلاف في بعض ألفاظه حسب الترجمة أنظر: إظهار الحق للهندي هامش المعلق ص٥١٧.

وقال أيضاً:

«يأتينا كتاب جديد بعد خراب بيت المقدس» فما الكتاب الجديد إلا القرآن.

ومن قول داود (ع):

«اللهم ابعث إلينا مقيم السنة بعد الفترة»

فمن أقامها غير رسول الله (ص)؟

ومن ذلك تأويل دانيال لرؤيا بخت نصر ملك بابل حيث قال:

رأيت في المنام صنماً، رأسه من ذهب، وصدره وذراعاه من فضة، بطنه وفخذاه من نحاس، وركبتاه وساقاه من حديد وفيه خلط قليل من فخار.

ثم رأيت بعد ذلك حجراً انقطع من جبلٍ عظيم بغير يد إنسان، فضرب ذلك الصنم الذي فيه الصور الكثيرة، فكسره، ثم جعله مثل الرماد في يوم ريح، ثم عظم الحجر بعد ذلك، حتى رأيت الأرض قد امتلأت منه.

فقال له دانيال:

أما الصنم الذي فيه الصور الكثيرة فهم الملوك الذين مضوا في سائر الأحقاب، والذين يكونون على مر الأيام.

وأما الحجر الذي يجيء في آخر الزمان خاتم الأنبياء وأما امتلاء الأرض منه فهم الذين يتبعونه ويؤمنون به.[1]

فصل: من أخبار الواقدين على رسول الله (ص) للإسلام وما رأوه قبل قدومهم من الإعلام وما شاهدوه من أحوال الأصنام.

فمن ذلك خبر أهبان بن أنس الأسلمي.

روى أن ذئباً شَدَّ على غنم لإهبان بن أنس، فأخذ منها شاةً، فصاح به

(١) انظر: إظهار الحق ص٥٣٠ البشارة الحادية عشرة في الأصحاح الثاني من سفر دانيال مع اختلاف حسب الترجمة.

فخلاّها، ثم نطق الذئب فقال اهبان: سبحان الله، ذئب يتكلم؟ فقال الذئب: أعجب من كلامي، أن محمداً يدعو الناس إلى التوحيد بيثرب، ولا يجاب.

فساق إهبان غنمه وأتى المدينة فأخبر رسول الله (ص) بما رآه، فقال خذ هذه غنمي طعمة لأصحابك.

فقال: أمسك عليك غنمك، فقال: لا والله، لا أسرحها أبداً بعد يومي هذا.

فقال: اللهم بارك عليه، وبارك له في طعمته، فأخذها أهل المدينة، فلم يبق في المدينة بيت إلا أناله منها.[1]

وخبر ذباب:

ذكروا أنه كان لسعد العشيرة صنم، يقال له فراص، وكانوا يعظمونه، وكان سادنه رجل من بني أنس الله بن سعد العشيرة يقال له ابن وقشة، فحدث رجل من بني أنس الله يقال له ذباب بن الحرث بن عمرو، قال: كان لابن وقشة ربييٌ من الجن، يخبر بما يكون، فأتاه ذات يوم، فأخبره، قال فنظر إلي وقال: يا ذباب، اسمع العجب العجاب، بعث أحمد بالكتاب، يدعو بمكة لا يجاب.

قال فقلت: ما هذا الذي تقول؟

قال: ما أدري، هكذا قيل لي.

قال: فلم يكن إلا قليل حتى سمعنا بخروج النبي (ص)، فقام ذباب إلى الصنم فحطمه، ثم أتى النبي (ص) فأسلم على يده، وقال بعد إسلامه:

تبعـــت رسول الله إذ جاء بالهـــدى
وخلفـــت فراصـــاً بـــأرض هوان

---

(١) ذكر قصة إهبان أبو الحسن الماوردي في أعلام النبوة ص٩٤، مختلفة في اسلوبها ببعض الإختلاف وفيها بدل المدينة مكة وليس فيها قوله سبحان الله وذكر قصة أخرى مماثلة وقعت مع عمير الطائي رواها عن أبي سعيد الخدري.

شددت عليـــــه شدة فتركتـــــه
كـأن لم يكن، والدهر ذو حدثـان
ولمــا رأيـــت الله أظهر دينـــه
أجبـــت رسول الله حـــين دعــاني
فمن مبلـــغٌ سعـــد العشيرة انـــني
شريــت الــذي يبقــى بآخر فــان

وخبر زمل بن عمرو العدوي:

روى أنه كان لنبي عذرة صنم يقال له حمام، وكانوا يعظمونه، وكان في بني هند بن حزام، وكان سادنه رجل منهم يقال له طارق، وكان يعقرون عنده العقائر.

قال زمل بن عمرو العدوي، فلما ظهر النبي (ص) سمعنا منه صوتاً، وهو يقول: يا بني هند بن حزام، ظهر الحق وأودى حمام، ودفع الشرك بالإسلام.

قال: ففزعنا لذلك، وهالنا، فمكثنا أياماً ثم سمعنا صوتاً آخر وهو يقول:

يا طارق، بعث النبي الصادق، يوحي ناطق، صدع صادع، بأرض تهامة، لناصريه السلامة، ولخاذليه الندامة، هذا الوداع إلى يوم القيامة ثم وقع الصنم لوجهه.[١]

قال زمل: فخرجت حتى أتيت النبي (ص)، ومعي نفر من قومي، فأخبرناه بما سمعناه، فقال: ذلك كلام مؤمنٍ من الجن.

ثم قال: يا معشر العرب، إني رسول الله إلى الأنام كافة، أدعوكم إلى عبادة الله وحده، وأني رسوله وعبده، وأن تحجوا البيت، وتصوموا شهراً من اثني عشر شهراً، وهو شهر رمضان، فمن أجابني فله الجنة نزلاً وثواباً، ومن عصاني كانت له النار منقلباً وعقاباً.

---

(١) ورد هذا الخبر مختصراً في مناقب آل أبي طالب ج١ ص٧٧.

قال: فأسلمنا، وعقد لي لواءً، وكتب لي كتاباً، فقال زمل عند ذلك:

إليك رسول الله أعلمت نصها
أكلّفها حزناً وفوزاً من الرمل

لأنصر خير الناس نصراً مؤزراً
وأعقد حبلاً من حبالك في حبلي

وأشهد أن الله لا شيء غيره
أدين له ما أثقلت قدمي نعلي.

خبر عمرو بن مرة الجهني:

ذكروا أن عمرو بن مرة كان يحدث فيقول:

خرجت حاجاً في الجاهلية في جماعة من قومي، فرأيت في منامي وأنا في الطريق، كأن نوراً قد سطع من الكعبة، حتى أضاء إلى نخل يثرب، وجبلي جهينة الأشعر والأجرد، وسمعت في النوم قائلاً يقول:

تقشعت الظلماء، وسطع الضياء، وبعث خاتم الأنبياء.

ثم أضاء إضاءةً أخرى، حتى نظرت إلى قصور الحيرة وأبيض المدائن، وسمعته يقول:

أقبل حق فسطع، ودفع باطل فانقمع.

فانتبهت فزعاً، وقلت لأصحابي: والله، ليحدثن بمكة في هذا الحي من قريش حدث.

وكان لنا صنم فكنت أنا الذي أسدنه، فشددت عليه فكسرته، وخرجت حتى قدمت عليه مكة، فأخبرته، فقال:

يا عمرو بن مرة، أنا النبي المرسل إلى العباد كافة، أدعوهم إلى الإسلام، وآمرهم بحفظ الدماء، وصلة الأرحام، وعبادة الرحمان ورفض الأوثان، وحج البيت، وصوم شهر رمضان، فمن أصاب فله الجنة، ومن عصى فله النار، فآمن بالله يا عمرو بن مرة، تأمن يوم القيامة من النار.

فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، آمنت بما جئت به من حلال وحرام، وإن أرغم ذلك كثيراً من الأقوام، وأنشأت أقول:

شهـــدت بـــأن الله حـــق وإنـــني
لآلهـــة الأحجـــار أول تـــارك
وشَمَّرت عن ساقي الإزارَ مهاجراً
إليـك أجوب الوعـث بعـد الدكـادك
لأصحـب خـير النـاس نفساً ووالـداً
رسول مليـك النـاس فوق الحبائـك

ثم قلت: يا رسول الله ابعثني إلى قومي، لعل الله تبارك وتعالى يَمَنَّ عليهم كما مَنَّ علي بك، فبعثني، فقال: عليك بالرفق، والقول السديد، ولاتك فظاً، ولا غليظاً، ولا مستكبراً، ولا حسوداً.

فأتيت قومي، فقلت: يا بني رفاعة، بل يا جهينة، إن [رسول] رسول الله (ص) إليكم، أدعوكم إلى الجنة، وأحذركم النار، يا معشر جهينة، إن الله وله الحمد، قد جعلكم خيار من أنتم منه، وبَغَّض إليكم في جاهليتكم ما حُبِّبَت إلى غيركم من العرب، الذين كانوا يجمعون بين الأختين، ويخلف الرجل منهم على امرأة أبيه، وأغارت في الشهر الحرام، فأجيبوا هذا الذي من لؤي، أتانا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة، وسارعوا في أمره، يكن بذلك لكم عنده فضيلة.

قال: فأجابوني إلا رجل منهم، فإنه قام فقال: يا عمرو بن مرة، أمرَّ الله عيشك، أتأمرنا برفض آلهتنا، وتفريق جماعتنا، ومخالفة دين آبائنا، ومن مضى من أوائلنا إلى ما يدعوك إليه هذا المضري من أهل تهامة، لا ولا حباً ولا كرامة ثم أنشأ يقول:

إن ابن مرة قـــد أتـــى بمقالـــةٍ
ليست مقالـــة من يريـــد صلاحـــاً
إني لأحسب قولـــــه وفعالـــــه
يومـــاً وإن طـــال الزمـــان ذباحا[1]

---

(1) يريد به الهلاك.

أتسفّــه الأشيــاخ ممن قــد مضى
من رام ذلــك لا أصــاب فلاحــا

فقال له عمرو: الكذاب مني [أو] منك، أمَرَّ الله عيشه، وأبكم لسانه، وأكمه إنسانه، قال عمرو: فوالله، لقد عمي ومامات حتى سقط فوه، وكان لا يقدر على الكلام، ولا يبصر شيئاً، وافتقر واحتاج.

وخبر ركانة وما فيه من الآية

كان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف أشد قريش وأقواهم، فخلا يوماً برسول الله (ص) في شعاب مكة، فقال له رسول الله (ص):

يا ركانة، ألا تتقي الله، وتقبل ما أدعوك إليه، فقال له ركانة: إني لو أعلم الذي تقول حقاً لأتبعتك. قال فقال رسول الله (ص): أفرأيت أن صرعتك، أتعلم أن ما أقول حق؟ قال: نعم، قال فقم حتى أصارعك، فقام ركانة إليه، فلما بطش به رسول الله (ص) أضجعه لا يملك من نفسه شيئاً، فقال ركانة وقد عجب من ذلك: عد يا محمد، فعاد فصرعه رسول الله (ص) دفعة أخرى فاستعظم ذلك وقال: يا محمد، ذا العجب، فقال رسول الله (ص): وأعجب من ذلك إن شئت أريكه إن اتقيت الله، واتبعت أمري، قال: ما هو؟ قال: أدعو لك هذه الشجرة التي ترى فتأتيني، قال: فادعها، فدعاها، فأقبلت حتى ووقفت بين يدي رسول الله (ص)، ثم قال لها: إرجعي إلى مكانك، فرجعت حتى وقفت.

فذهب ركانة إلى قومه، فقال: يا بني عبد مناف، ساحروا بصاحبكم أهل الأرض، فوالله، ما رأيت أسحر منه قط.

ثم أخبرهم بالذي رأى والذي صنع.[1]

وخبر أبي تميمة الهجيمي.

---

(١) قصته موجودة في سيرة ابن هشام ج١ ص٤١٨.

قال [أبو] تميمة:

وفدت على رسول الله (ص)، فوجدته قاعداً في حلقةٍ، فقلت: أيكم رسول الله فلا أدري، أشار إلي رسول الله (ص) فقال: أنا رسول الله أو أشار إلي بعض القوم، فقالوا: هذا رسول الله، وإذا عليه بردة حمراء، تتناثر هدبها على قدميه، فقلت: إلى ما تدعو يا رسول الله؟ قال: أدعوك إلى الذي إذا كنت بأرض فلاةٍ فأضللت راحلتك فدعوته أجابك، وأدعوك إلى الذي إذا استنت[1] أرضك أو أجدبت فدعوته أجابك.

قال: فقلت: وأبيك لنعم الرب هذا، فأسلمت، وقلت: يا رسول الله، علمني مما علمك الله تبارك وتعالى، فقال النبي (ص):

اتق الله، لا تحقرن شيئاً من المعروف ولو أن تلقى أخاك ووجهك مبسوط إليه[2]، وإياك وإسبال الإزار من المخايلة، قال الله تبارك وتعالى:

(إن الله لا يحب كل مختالٍ فخور) سورة لقمان: ١٨

ولا تسبنَّ أحداً، وإن سبك بأمرٍ لا يُعلم فيك، فلا تسبه بأمرٍ تعلمه فيه، فيكون لك الأجر، وعليه الوزر.

وخبر أهيب بن سماع:

وروي أن النبي (ص) كان يوماً جالساً في نفر من أصحابه، وقد صلى الغداة، فإذ أقبل إعرابي على ناقةٍ له، حتى وقف بباب المسجد فأناخها ثم عقلها، ودخل المسجد يتخطى الناس، والناس يوسعون له، وإذا هو رجل مديد القامة، عظيم الهامة، معتجر بعمامة، فلما مثل بين يدي رسول الله (ص) أسفر عن لثامه، ثم هَمَّ أن يتكلم فارتج حتى اعترضه ذلك ثلاث مرات.

فلما رآه النبي (ص)، وقد ركبه الزمع[3] لها عنه بالحديث، ليذهب عنه

---

(١) أي قحطت.

(٢) في النسخة: ووجهك مبسوطة إليك

(٣) أي أخذه الدهش.

بعض الذي أصابه، وقد كسا الله نبيه جلالةً وهيبةً، فلما أنس وفرخ روعه[1] قال له النبي (ص): قل لله [أنت] ما أنت قائل.

فأنشأ يقول:

رب يومٍ يعي الألــد المـداري
شره حاضر يروع الرجـــالا
قمتــه فانجــلى ولو قــام فيــه
مسجـل الجن مــا أطــاق المقــالا
جئــت بالاقتــدار في ذات نفسي
انـــني أقهر الرفــا[2] والكــلالا
فانثت حدقي وفلت شباتي
والهــدى يقهر العمــى والضــلالا
لم أضــق بالكــلام ذرعــاً ولكن
شدة البغي يستجـــير الحبـــالا[3]

قال فاستوى رسول الله (ص) جالساً، وكان متكئاً، فقال: أنت أهيب بن سماع؟ ولم يره قد قبل وقته ذاك، فقال: أنا أهيب بن سماع الأبي الدفاع، القوي المناع.

قال: أنت الذي ذهب جل قومك بالغارات، ولم ينفضوا رؤوسهم من الهفوات إلا منذ أشهر وسنوات؟

قال: أنا ذاك، قال: أفتذكر الأزمة التي أصابت قومك، أحرنجم لها الذبـح، وأخلـف نوء المرنـج، وامشعـت السماء وانقطعـت الأنواء، واحترقت الغمة، وخفت البرية، حتى إن الضيف لينزل بقومك، وما في الغنم عرق ولا غرر، فترصدون الضب المكنون فتصيدونه.

---

(١) أي ذهب فزعه.

(٢) هكذا في النسخة ولعل كلمة الرفا تصحيف العنا أو الفلا.

(٣) هكذا في السخة.

وكأنك في طريقك إلي لتسألني عن جل ذلك، وعن حرجه. ألا ولا حرج على مضطر، ومن كرم الأخلاق بر الضيف.

قال: فقال: لا والله، لا أطلب أثراً بعد عين، لكأنك كنت معي في طريقي، أو شريكي في أمري، أشهد أن لا إلّه إلا الله، وأنك محمد رسول الله.

ثم قال: يا رسول الله زدني شرحاً وبياناً، أزدد بك إيماناً.

فقال له النبي (ص): أتذكر إذ أتيت صنمك في الظهيرة فعـرَّت له العشيرة؟

قال: نعم- بأبي أنت وأُمي يا رسول الله- إن الحرث بن أبي ضرار المصطلقي جمع لك جموعاً، ليدهمك بالمدينة، واستعان بي على حربك، وكان لي صنم يقال له راقب، فرقبت خلوته، وقممت ساحته[1]، ثم نفضت التراب عن رأسه، ثم عترت له عتيرة[2]، فإني لأستخيره في أمري، وأستشيره في حربك، إذ سمعت منه صوتاً هائلاً، فوليت عنه هارباً، وهو يقول كلاماً في معنى كلامه الأول قال: فلما كان من غدٍ ركبت ناقتي، ولبست لامتي، وتكبدت الطريق حتى أتيتك، فأنر لي سراجك، وأوضح لي منهاجك.

قال: قال له النبي (ص): قل: لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، وأني محمد عبده ورسوله، فقالها غير مستنكفٍ وأسلم وحسن إسلامه، ووقر حب الإسلام في قلبه.

فقال النبي (ص) لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع): خذ بيده، فعلمه القرآن، فأقام عند النبي (ص)، فلما حذق شيئاً من القرآن، قال: يا نبي الله، إن الحرث بن أبي ضرار المصطلقي قد جمع لك جموعاً ليدهمك بالمدينة، فلو وجهت معي قوماً بسرية، نشن عليهم الغارة، فوجه النبي (ص) معه أمير المؤمنين (ع) وجماعة من المسلمين، فظفروا بهم، واستاقوا إبلهم وماشيتهم.

وأهيب الذي يقول في إسلامه:

---

(١) أي كنس قمامة ساحته وهي الكناسة، فيقال قم البيت قماً أي كنسه.

(٢) هي الذبيحة التي تقدم للأصنام ويصب دمها على رأسها.

جبت الفلاة على حرفٍ[1] مبادرةٍ

خطارةٍ تصل الإرقال بالخبب[2]

لا تشتكي [للذي] جابت جوانبه

و[ما] تأتي لأين[3] السير والتعب

خطر فنها والثريا النجم واقفة

كأنها قطف ملاحٍ من العنب

أو كالجمان زهاني صدر جاريةٍ

[ممطورة][4] بنظام الدر والذهب

سارت ثلاثاً، فوافت بعد ثالثةٍ

ذات المناهل أرض النخل والكرب[5]

فيها النبي الذي لاحت حقائقه

في معشر بسقوا في ذروة الحسب

حلو الشمائل ميمون نقيبته

محض الضرائب حياد عن الكذب

لا ينثني وسعير الحرب مضرمة

تحش[6] بالنبل والأرماح والقضب

والحرب حامية والهام راسية

والموت يختطف الأرواح من كثب

---

(١) هي الناقة الضامرة.

(٢) الإرقال والخبب نوعان من السير.

(٣) الآين: الإعياء.

(٤) في النسخة ممطرة ومعها لا يستقيم الوزن.

(٥) هي أصول سعف النخل.

(٦) أي توقد.

هناك تخبو إذا ما راس[1] أخمصه
سماحها[2] لعظيم الهول والرهب
داخت[3] رقاب الورى من هول رؤيته
إذا بدا لهم في الموكب اللجب

فصل: من كلام سيدنا رسول الله (ص)

«أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير الملل ملة إبراهيم، وخير السنن سنة محمد، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأمور عوامها، وشر الأمور محدثاتها، وأهدى الهدى هدى الأنبياء، وأشرف الموت قتل الشهداء، وأعمى العمى ضلالة بعد الهدى، وخير العمل ما نفع، وخير الهدى ما اتبع، واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى، وشر المعذرة عند حضرة الموت، وشر الندامة ندامة يوم القيامة.

ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا نزراً، ولا يذكر الله إلا هجراً.

ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأى الحكمة مخافة الله، وخير ما أُلقي في القلب اليقين.

والارتياب من الكفر، والنياحة من عمل الجاهلية، والغلول[4] من جمر جهنم، والسكر من النار، والشعر من إبليس، والخمر جماعة الإثم، والنساء حبائل الشيطان، والشباب شعبة من الجنون، وشر الكسب كسب الربا، وشر المال أكل مال اليتيم، والسعيد من وعظ بغيره، والشقي شقي في بطن أمه.

---

(١) و(٢) هكذا في النسخة.
(٣) أي ذلت.
(٤) هو السرقة والخيانة في شيء.

وإنما بصير أحدكم إلى موضع ذراع، والأمر إلى آخره، وملاك الأمر خواتمه، وشر الروايات روايات الكذب، وكل ما هو آتٍ قريب، وسباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه من معصية الله، وحرمة ماله كحرمة دمه، ومن يتألى على الله يكذبه، ومن يستغفر الله يغفر له، ومن يتبع المستمع يستمع الله به، ومن يعف يعف الله عنه، ومن يكظم الغيظ يؤجره الله، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله، ومن يصم يضاعف الله أجره، ومن يعص الله يعذبه.

ومن كلامه (ص) قوله:

«إنكم في زمانٍ، من ترك عُشر ما أُمر به هلك، وسيأتي على الناس زمان من عمل بعشر ما أُمر به نجا».

ومن كلامه عليه وآله السلام قوله: «استحيوا من الله حق الحياء».

قيل له: يا رسول الله، إنا لنستحيي، فقال: ليس كذلك. من استحيى من الله حق الحياء، فليحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحيا.

وقال عليه السلام:

حب الدنيا رأس كل خطيئة.

وقال:

إنكم لا تنالون ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون، ولا تبلغون ما تأملون إلا بترك ما تشتهون.

فصل من البيان والسؤال

إن سأل سائل عنْ أول ما فرض الله عليك.

فقل: النظر المؤدي إلى معرفته

فإن قال: لم زعمت ذلك؟

فقل: لأنه سبحانه قد أوجب معرفته، ولا سبيل إلى معرفته إلا بالنظر في الأدلة المؤدية إليها.

فإن قال: فإذا كانت المعرفة بالله عز وجل لا تدرك إلا بالنظر، فقد [أصبح] المقلِد غير عارف بالله.

فقل: هو ذاك

فإن قال: فيجب أن يكون جميع المقلدين في النار.

فقل: إن العاقل المستطيع إذا أهمل النظر والإعتبار، واقتصر على تقليد الناس، فقد خالف الله تعالى، وانصرف عن أمره ومراده، ولم يكفه تقليده في أداء فرضه، واستحق العقاب على مخالفته وتفريطه. غير أنا نرجو العفو عمن قلد الحق، والتفضل[1] عليه، ولا نرجوه لمن قلد المبطل ولا نعتقده فيه.

وكل مكلفٍ يلزمه من النظر بحسب طاقته ونهاية إدراكه وفطنته.

فأما المقصر الضعيف الذي ليس له استنباط صحيح، فإنه يجزيه التمسك في الجملة بظاهر ما عليه المسلمون.

فإن قال: كيف يكون التقليد قبيحاً من العقلاء المميزين؟ وقد قَلَّد الناس رسول الله (ص) فيما أخبر به عن رب العالمين، ورضي بذلك عنهم، ولم يكلفهم ما تَدَّعون.

فقل: معاذ الله أن نقول ذلك أو نذهب إليه، ورسول الله (ص) لم يرض من الناس التقليد دون الأعتبار، وما دعاهم إلا إلى الإستدلال، ونبههم عليه بآيات القرآن من قوله سبحانه وتعالى:

(أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شيء..) الاعراف: ١٨٥

وقوله:

---

(١) في النسخة (والتفضيل).

(إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأُولي الألباب). آل عمران: ١٩٠.

وقوله:

(وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون). الذاريات: ٢٠ - ٢١

وقوله:

(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت). الغاشية: ١٩ - ٢٢

ونحن نعلم أنه ما أراد بذلك إلا نظر الإعتبار، فلو كان (ع) إنما دعا الناس إلى التقليد، ولم يرد منهم الإستدلال لم يكن معنى لنزول هذه الآيات.

ولو أراد أن يصدقوه ويقبلوا قوله تقليداً بغير تأمل واعتبار لم يحتج إلى أن يكون على ما ظهر من الآيات والمعجزات.

فأما قبول قوله (ص) بعد قيام الدلالة على صدقة، فهو تسليم وليس بتقليد.

وكذلك قبولنا لما أتت به أئمتنا (ع)، ورجوعنا إلى فتاويهم في شريعة الإسلام.

فإن قال: فأَبن لنا ما التقليد في الحقيقة؟ وما التسليم؟ ليقع الفرق والبيان.

فقل: التقليد هو قبول قول من لم يثبت صدقه، وهذا معنى التقليد لا يكون إلا عن بينةٍ وحجة.[1]

فصل: من كلام جعفر بن محمد الصادق (ع) مما حفظ عنه في وجوب المعرفة بالله عز وجل وبدينه.

قوله:

وجدت علم الناس في أربع:

(١) ومن جوابه هذا يظهر معنى التسليم وهو الأخذ بقول من ثبت صدقه وأصبح حجةً بذاته.

أحدها: أن تعرف ربك.
والثاني: أن تعرف ما صنع بك.
والثالث: أن تعرف مأ أراد منك.
والرابع: أن تعرف ما يخرجك عن دينك[1].

قال شيخنا المفيد رحمه الله:

هذه أقسام تحيط بالمفروض من المعارف، لأنه أول ما يجب على العبد معرفة ربه جل جلاله، فإذا علم أن له إلّها وجب أن يعرف صنعه، وإذا عرف صنعه عرف به نعمته، فإذا عرف نعمته، وجب عليه شكره، فإذا أراد تأدية شكره، وجب عليه معرفة مراده، ليطيعه بفعله، وإذا وجب عليه طاعته، وجب عليه معرفة ما يخرجه عن دينه، ليتجنبه، فتخلص له به طاعة ربه، وشكر إنعامه.

أنشدني بعض أهل هذا العصر لنفسه:

والزم من الدين ما قام الدليل به
فإن أكثر دين الناس تقليد
فكلما وافق التقليد مختلق
زور وإن كثرت فيه الأسانيد
وكل ما نقل الآحاد من خبرٍ
مخالف لكتاب الله مردود.

فصل آخر من السؤال والبيان

إن سأل سائل فقال:
ما نعمة الله تعالى عليك؟
فقل: خلقه إياي حياً لينفعني.
فإن قال: ولِمَ زعمت أن خلقه إياك حياً أول النعم؟

---

(١) تجد هذا الحديث مروياً في إرشاد المفيد ص٢٥٩.

فقل: لأنه خلقني لنفعي، ولا طريق لنيل النفع إلا بالحياة التي يصح معها الإدراك.

فإن قال: ما النعمة؟

فقل: هي المنفعة إذا كان فاعلها قاصداً لها.

فإن قال: ما المنفعة؟

فقل: هي اللذة الحسنة أو ما يؤدي إليها.

فإن قال: لمَ شرطت أن تكون اللذة حسنة؟

فقل: لأن من اللذات ما لا يكون حسناً.

فإن قال: لِمَ قلت: أو ما يؤدي إليها؟

فقل: لأن كثيراً من المنافع لا يتوصل إليها إلا بالمشاق، كشرب الدواء الكريه والفصد ونحو ذلك من الأمور المؤدية إلى السلامة واللذات، فتكون هذه المشاق منافع لما يؤدي إليه في عاقبة الحال.

ولذلك قلنا: إن التكليف نعمة حسنة، [لأنه] به ينال مستحق النعيم الدائم واللذات.

فإن قال: فما كمال نعم الله تعالى؟

فقل: إن نعمه تتجدد علينا في كل حال، ولا يستطاع لها الإحصاء.

فإن قال: فما تقولون في شكر المنعم؟

فقل: هو واجب.

فإن قال: فمن أين عرفت وجوبه؟

فقل: من العقل وشهادته، وواضح حجته ودلالته.

ووجوب شكر المنعم على نعمته مما تتفق العقول عليه، ولا تختلف فيه.

فإن قال: فهل أحد من الخلق يكافئ نعم الله تعالى بشكرٍ، أو يوفي حقها بعملٍ؟

فقل: لا يستطيع أحد من العباد، من قِبَلِ أن الشيء إنما يكون كفواً لغيره

إذا سد مسده، وناب منابه، وقابله في قدره، وماثله في وزنه.

وقد علمنا أنه ليس شيء من أفعال الخلق تسد مسد نعم الله عليهم، لإستحالة الوصف لله تعالى بالإنتفاع، أو تعلق الحوائج به إلى المجازاة، وفساد مقال من زعم أن الخلق يحيطون علماً بغاية الإنعام من الله تعالى عليه، والإفضال، فيتمكنون من مقابلتها بالشكر على الإستيفاء للواجب، والإتمام.

فيعلم بهذا تقصير العباد من مكافأة نعم الله تعالى عليهم، ولو بذلوا في الشكر والطاعات غاية المستطاع، وحصل ثوابهم في الآخرة تفضلاً من الله تعالى عليهم، وإحساناً إليهم.

وإنما سميناه استحقاقاً في بعض الكلام، لأنه وعد به على الطاعات، وهو الموجب له على نفسه بصادق وعده، وإن لم يتناول شرط الإستحقاق على الأعمال.

وهذا خلاف ما ذهب إليه المعتزلة إلا أبا القاسم البلخي[١]، فإنه يوافق في هذا المقال، وقد تناصرت به مع قيام الأدلة العقلية عليه الأخبار.[٢]

أخبرني شيخنا المفيد أبو عبدالله محمد بن محمد النعمان الحارثي رضوان الله عليه إجازةً، قال: أخبرني أبو القاسم جعفر بن محمد بن قولويه، عن محمد بن يعقوب الكليني، عن عدة من أصحابه، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن ابن محبوب، عن داود بن كثير، عن أبي عبيدة الحذاء، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله (ص):

---

(١) في النسخة إلا أبو والصحيح أبا لأنه استثناء من موجب.

(٢) اتفق أهل العدل على أن المؤمن الذي عمل عملاً صالحاً يدخل الجنة خالداً فيها، واختلفوا في أن هذا الثواب هل هو على جهة الإستحقاق والمعاوضة بينه وبين العمل أم تفضل من المولى تعالى قال أكثر المعتزلة بالأول اعتماداً على قبح الثواب مع عدم الإستحقاق ولأن التكليف حينئذٍ لغو، وذهب البلخي والمعتزلة والمفيد وجماعة من الإمامة إلى الثاني عملاً بطبيعة المولى والعبد إذ لا يجب على المولى بازاء العبد بشيء إذا أطاعه، ولأنه يكفى في صحة التكليف وحسنه عقلاً سبق المنعم على المكلف المستتبعة لوجوب شكر المنعم بالطاعة، وللإخبار المؤيدة لحكم العقل، التي ذكر المؤلف بعضاً منها.

قال الله تعالى: لا يتكل[1] العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثوابي، فإنهم لو أجمعوا وأتعبوا أنفسهم وأعمارهم في عبادتي، كانوا مقصرين، غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي، فيما يطلبون من كرامتي، والنعيم في [جناني]، ورفيع الدرجات العلى في جواري، ولكن برحمتي فليثقوا، وفضلي فليرجوا، وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا، فإن رحمتي عند ذلك تدركهم، وبمَنّي أُبلغهم رضواني ومغفرتي، وأُلبسهم عفوي، فإني الله الرحمن الرحيم، بذلك تسميت.

أخبرني شيخنا المفيد رحمه الله قال: أخبرني أبو الحسن أحمد بن الحسن بن الوليد، عن أبيه، عن محمد بن الحسن الصفار، عن علي بن محمد القاشاني، عن القاسم بن محمد الأصبهاني، عن سليمان بن خالد المنقري، عن سفيان بن عينيه عن حميد بن زياد، عن عطاء بن يسار، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) قال:

يوقف العبد بين يدي الله تعالى فيقول: قيسوا بين نعمي وبين عمله، فتغرق النعم العمل، فيقول: هبوا له النعم، وقيسوا بين الخير والشر منه، فإن استوى العملان، أذهب الله الشر بالخير، وأدخل الجنة، وإن كان له فضل أعطاه الله بفضله، وإن كان عليه فضل وهو من أهل التقوى لم يشرك بالله تعالى، [واتقى] الشرك به فهو من أهل المغفرة، يغفر الله له برحمته، ويتفضل عليه بعفوه.

وأخبرني أيضاً شيخنا المفيد رحمه الله قال: أخبرني أبو القاسم جعفر بن محمد، عن محمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسن بن محبوب، عن سعد بن خلف، عن أبي الحسن (ع) أنه قال:

«عليك بالجد، ولا تخرجن نفسك من حد التقصير في عبادة الله وطاعته، فإن الله تعالى لا يعبد حق عبادته.

---

(١) في النسخة (لا يتكلوا).

شبهة للبراهمة في النبوة[1]

اعتلت البراهمة في إبطال الرسالة بأن قالت:

ليس يخلو أمر الرسول من حالين:

إما أن يأتي ما يدل عليه العقل أو بخلافه. فإن أتى بما في العقل كان من كمل عقله غنياً عنه، لأن الذي يأتيه مستقر عنده، موجود في عقله.

وإن أتى بخلاف ما في العقل فالواجب رد ما يأتيه به، لأن الله تعالى إنما خلق العقول للعباد ليستحسنوا بها ما استحسنت، ويقروا بما أقرت، وينكروا ما أنكرت.

نقض: يقال لهم: إن الرسول لا يأتي أبداً بما يخالف العقل، غير أن الأمور في العقول على ثلاثة أقسام: واجب، وممتنع، وجائز.

فالواجب في العقل يأتي السمع بإيجابه تأكيداً له عند من علمه، وتنبيهاً عليه لمن لم يعلمه.

والجائز هو الذي يمكن في العقل حسنه تارة وقبحه تارة، كانتفاع الإنسان بما يتملكه غيره، فإنه يجوز أن يكون حسناً إذا أذن له فيه مالكه، وقبيحاً إذا لم يأذن له. وكل واحدٍ من القسمين جائز في العقل، لا طريق إلى القطع على أحدهما إلا بالسمع.

ومن الأمور التي لا يصل العقل إليها أيضاً فيها إلى القطع على العلم بأدوية الأعلال ومواضعها، وطبائعها، وخواصها، ومقاديرها، [التي] يحتاج إليه منها، وأوزانها.

فهذا مما لا سبيل للعقل فيه إلى حقيقة العلم، وليس يمكن امتحان كل ما في البر والبحر، ولا تحسن التجربة والسير، لما فيها من الخطر المستقبح.

فعلم أن هذا مما لا غناء فيه عن طارق السمع.

---

(١) هم أكثر الهندوس في الهند ينتسبون إلى برهام وهم أهل نحل عديدة ولهم شبهات على إرسال الرسل وإبطال النبوات وتجد شرح مذاهبهم في الملل والنحل.

وبعد فإن شكر المنعم عندنا وعند البراهمة مما هو واجب في العقل، وليس في وجوبه ووجوب تعظيم مبدأ النعمة خلاف، وشكر الله تعالى، وتعظيمه أوجب ما يلزمنا، لعظيم أياديه لدينا، وإحسانه إلينا.

ولسنا نعلم بمبلغ عقولنا أي نوع يريده من تعظيمنا له وشكرنا. هذا مع الممكن من لطفٍ يكون[1] في نوعٍ من ذلك لنا لا يعلمه إلا خالقنا.

ثم يقال للبرهمة أيضاً:

لو لم يكن في العقل القسم الجائز الذي ذكرناه، وكانت الأشياء لا تخلو من واجبٍ، وممتنع، دون ما بيناه، لم يستغن مع هذا التسليم عن المرسلين، لأنهم ينبهون على طريق الإستدلال المسترشدين، ويحركون الخواطر بالتذكار إلى سنن التأمل والإعتبار.

وهذا أمر يدل عليه ما نشاهده من أحوال العقلاء، وافتقارهم إلى من يفتح لهم باب الإستدلال أولاً.

وفي بعض ما أوردناه بيان عن غلط البراهمة فيما اعتدت، ونقض لشبهتها التي ذكرت والحمد لله.

(مختصر من الكلام على اليهود في إنكارهم جواز النسخ في الشرع).

إعلم أن اليهود طائفتان، أحداهما تدّعي أن نسخ الشرع لا يجوز في العقل.

والأُخرى تجيز ذلك عقلاً، وتزعم أن المنع منه ورد به السمع.

فأما المدعون على العقل الشهادة بقبح النسخ، فإنهم زعموا أن النسخ هو البداء.

---

(١) في العبارة قلق تركيبي وإن كان المراد واضحاً.

قالوا: والبداء لا يجوز على الله تعالى.

فيقال لهم: لِمَ زعمتم أن النسخ هو البداء؟

فإن قالوا: للمتعارف بين العقلاء، أن الآمر بالشيء إذا نهى عنه بعد أمره، [فقد] بدا له فيه.

وكذا إذا نهى عن الشيء ثم أمر به من بعد نهيه.

قيل لهم: ما تنكرون من أن يكون عى هذا قسمين:

أحدهما: أن يأمر الآمر بالشيء في وقت، وإذا فُعِل وجاز وقت فعله، نهى عنه من بعد، فيكون في الحقيقة، إنما نهى عن مثله. وهذا هو النسخ بعينه. وكذلك القول في الأمر بالشيء بعد النهي عنه.

والقسم الآخر: أن يأمر بفعل الشيء في وقتٍ، فإذا أتى ذلك الوقت نهى عنه فيه بعينه، قبل أن يفعل، ويكون هذا البداء دون القسم الأول، محصل الفرق بين البداء والنسخ، ويتضح أن دعواكم فيهما أنهما واحد لم تصح.

فإن قالوا: إن العبادة إذا تعلقت على المكلف بأمر أو نهي، فالحكمة اقتضتها. فمتى تغيرت العبادة، دلت على تغيير الحكمة، والحكمة لا يجوز تغييرها.

قيل لهم: فألاَّ قلتم: إن العبادة إذا ألزمت المكلف، فالحكمة اقتضتها لمصلحةٍ من مصالح المكلف أوجبتها، فإذا تغيرت العبادة، دلت على أن الحكمة اقتضت ذلك لتغير المصلحة، والمصلحة يجوز تغييرها.

فإن قالوا: إنا لا نعلم في العقل تغيير المصالح.

قيل لهم: وكذلك لا تعرفون بالعقل المصالح.

ثم يقال لهم: ما السبب في نقل الله تعالى، الإنسان من كونه شاباً إلى أن صيّره شيخاً، وأفقره ثم أغناه، وأماته بعد أن أحياه؟ وكيف أصحه ثم أسقمه، وأوجده ثم أعدمه؟ فكيف تغيرت الحكمة في جميع ما عددنا؟ وما أنكرتم أن يكون هذا كله بداءً؟ أيُّ اختلافٍ في المصالح يكون أوضح من هذا؟

وأما المدعون من اليهود، أن إبطال النسخ عُلِمَ بالسمع دون العقل، فإنهم ادعوا في ذلك على موسى (ع) أنه قال:

إن شريعته دائمة لا تنسخ.

والذي يدل على بطلان دعواهم هذه ظهور المعجزات على من أتى بالنسخ. ولو كان خبرهم حقاً لم يصح إتيان ذي معجز بنسخ.

وهذه المعجزات يعلم أنها قد كانت بمثل ما تعلم له اليهود معجزات موسى (ع) من غير فرق.

فصل في ذكر البداء

أعلم - أيدك الله تعالى - أن أصحابنا دون المتكلمين يقولون بالبداء، ولهم في نصرة القول به كلام، ومعهم فيه آثار.

وقد استشنع ذلك منهم مخالفوهم، وشَنَّعَ عليهم به مناظروهم.

وإنما استشنعوه لظنهم أنه يؤدي إلى القول بأن الله تعالى، علم في البداء ما لم يكن يعلم. فإذا قدر الناصر للبداء على الإحتراز من هذا الموضع فقد أحسن، ولم يبق عليه أكثر من إطلاق اللفظ، وقد قلنا إن ذلك قد ورد به السمع.

وقد اتفق لي فيه كلام مع أحد المعتزلة بمصر، أنا أحكيه، لتقف عليه.

حكاية مجلسٍ في البداء

كنت سألت معتزلياً، حضرت معه مجلساً، فيه قوم من أهل العلم، فقلت له:

لِمَ أنكرت القول بالبداء؟ وزعمت أنه لا يجوز على الله تعالى.

فقال: لأنه يقتضي ظهور أمرٍ لله سبحانه كان عنه مستوراً، وفي هذا أنه قد تجدد له العلم بما لم يكن به عالماً.

فقلت له: أبن لنا من أين علمت أنه يوجب ذلك، وتقتضيه، ليسع الكلام معك فيه؟

فقال: هذا هو معنى البداء، والتعارف يقضي بيننا. ولسنا نشك أن البداء هو الظهور، ولا يبدو للآمر إلا لظهور شيءٍ تجدد من علم أو ظن لم يكن معه من قبل.

وبيان ذلك: أن طبيباً لو وصف لعليلٍ أن يشرب في وقته شراب الورد، حتى إذا أخذ العليل القدح بيده ليشرب ما أمره به، قال له الطبيب في الحال صبه ولا تشربه، وعليك بشرب النيلوفر بدله، فلسنا نشك في أن الطبيب قد استدرك الأمر وظهر له من حال العليل ما لم يكن عالماً به من قبل، فغير عليه الأمر لما تجدد له من العلم. ولولا ذلك لم يكن معنى لهذا الخلاف.

فقلت له: هذا مما في الشاهد وهو من البداء، فيجوز عندك أن يكون في البداء قسم غير هذا؟

فقال: لا أعلم في الشاهد غير هذا القسم، ولا أرى أنه يجوز في البداء قسم غيره ولا يعلم.

فقلت له: ما تقول في رجلٍ له عبد، أراد أن يختبر حاله وطاعته من معصيته، ونشاطه من كسله، فقال له في يومٍ شديد البرد: سر لوقتك هذا إلى مدينة كذا، لتقبض مالاً لي بها، فأحسن العبد لسيده الطاعة، وقدم المبادرة، ولم يحتج بحجة، فلما رأى سيده مسارعته، وعرف شهامته ونهضته، شكره على ذلك، وقال له: أقم على حالك، فقد عرفت أنك موضع للصنيعة، وأهل للتعويل عليك في الأمور العظيمة، أيجوز عندك هذا؟ وإن جاز فهل هذا داخل في البداء أم لا؟

فقال: هذا مستعمل ورأينا في الشاهد، وقد بدا فيه للسيد، وليس هو قسماً ثانياً، بل هو بعينه الأول، هو الذي لا يجوز على الله عز وجل.

فقلت له لِمَ جعلت الجمع بينهما من حيث ذكرت أولى من التفرقة بينهما، من حيث كان أحدهما مريداً لإتمام قبل أن يبدو له فيه فينهى عنه، وهو

الطبيب، والآخر غير مريدٍ لإتمامه على كل وجهٍ، وهو سيد العبد، بل كيف لم تفرق بينهما من حيث أن الطبيب لم يجز قط أن يقع منه اختلاف الأمر إلا لتجدد علمٍ له لم يكن، وسيد العبد يجوز أن يقع منه النهي بعد الأمر من غير أن يتجدد له علم، ويكون عالماً بنهضته في الحالين، ومسارعته إلى ما أحب، وإنما أمره بذلك ليعلم الحاضرون حُسن طاعته، ومبادرته إلى أمره، وأنه ممن يجب اصطفاؤه، والإحسان إليه، والتعويل في الأمور عليه.

قال: فإذا سلمت لك الفرق بينهما، فما تنكر أن يكون دالاً على أن مثالك الذي أتيت به غير داخلٍ في البداء؟

قلت: أنكرت ذلك من قِبَلِ أن البداء عندنا جميعاً نهي الآمر عما أمر به قبل وقوعه في وقته، وإذا كان هذا هو الحد المراعى فهو موجود في مثالنا، وقد أجمع العقلاء أيضاً على أن السيد فيه قد بدا له فيما أمر به عبده.

قال: فإذا دخل القسمان في البداء، فما الذي تجيز على الله تعالى منهما؟

فقلت: أقربهما إلى قصة ابراهيم الخليل (ع) وأشبههما لما أمر الله تعالى في المنام بذبح ولده اسماعيل (ع)، فلما سارع إلى المأمور راضياً بالمقدور، وأسلما جميعاً صابرين، وتلّه للجبين، نهاه الله عن الذبح بعد متقدم الأمر، وأحسن الثناء عليهما، وضاعف لهما الأجر.

وهذا نظير ما مثلت من أمر السيد وعبده، وهو النهي عن المأمور به قبل وقوع فعله.

قال: فمن سَلَّم لك أن إبراهيم (ع) مأمور بذلك من قبل الله سبحانه؟

قلت: سلمه لي من يقر بأن منامات الأنبياء عليهم السلام صادقة، ويعترف بأنها وحي الله في الحقيقة، وسلّمه لي من يؤمن بالقرآن، ويصدق ما فيه من الأخبار.

وقد تضمن الخبر عن اسماعيل أنه قال لأبيه: يا أبت أفعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين، وقوله الله تعالى لإبراهيم: (قد صدقت

الرؤيا)[1] وثناؤه عليه، حيث قال: (كذلك نجزي المحسنين). وليس بمحسنٍ من امتثل غير أمر الله تعالى في ذبح ولده، وهذا واضح لمن أنصف من نفسه.

قال: فإني لا أُسمي هذا بداءً.

فقلت له: ما المانع لك من ذلك، أتوجه الحجة عليك به، أم مخالفته للمثال المتقدم ذكره؟

فقال: يمنعني من أن أُسميه البداء، أن البداء لا يكشف إلا عن متجدد علمٍ لمن بدا له، وظهوره له بعد ستره، وليس في قصة إبراهيم واسماعيل (ع) ما يكشف عن تجدد علم الله سبحانه، ولا يجوز ذلك عليه، فلهذا قلت أنه ليس ببداء.

فقلت له: هذا خلاف ما سلمته لنا من قبل، وأقررت به، من أن سيد العبد يجوز أن يأمره بما ذكرناه، ثم يمنعه مما أمره به وينهاه، مع علمه بأنه يطيعه في الحالين لغرضه في كشف أمره للحاضرين.

ثم يقال لك: ما تنكر من إطلاق اللفظ بالبداء في قصة ابراهيم وإسماعيل (ع)، لأنها كشفت لهما عن علم متجدد، ظهر لهما، كان ظنهما سواه، وهو إزالة هذا التكليف بعد تعلقه، والنهي عن الذبح بعد الأمر به.

قال: أفتقول إن الله تعالى أراد الذبح لما أمر به أم لم يرده؟

وأعلم أنك إن قلت: إنه لم يرده دخلت في مذاهب المجبرة، لقولك إن الله تعالى أمر بما لا يريده.

وكذلك: إن قلت إنه أراده دخلت في مذهبهم أيضاً، من حيث أنه نهى عما أراده، فما خلاصك من هذا؟

فقلت له: هذه شبهة يقرب أمرها، والجواب عنها لازم لنا جميعاً، لتصديقنا بالقصة، وإقرارنا بها.

وجوابي فيها أن الذبح في الحقيقة هو تفرقة الأجزاء، ثم قد تسمى الأفعال

---

(١) الصافات: ١٠٥.

التي في مقدمات الذبح، مثل القصد، والاضجاع، وأخذ الشفرة، ووضعها على الحلق، ونحو ذلك، ذبحاً مجازاً واتساعاً.

ونظير ذلك أن الحاج في الحقيقة هو زائر بيت الله تعالى، على منهاج ما قررته الشريعة، من الأحرام، والطواف، والسعي.

وقد يقال لمن شرع في حوائجه لسفره في حجة من قبل أن يتوجه إليه، أنه حاج اتساعاً ومجازاً.

فأقول: إن مراد الله تعالى فيما أمر به لخليله إبراهيم (ع) من ذبح ولده، إنما كان مقدمات الذبح، من الإعتقاد أولاً والقصد، ثم الإضتجاع للذبح، ترك الشفرة على الحلق، وهذه الأفعال الشاقة التي ليس بعدها غير الإتمام بتفرقة أجزاء الحلق.

وعَبَّرَ عن ذلك بلفظ الذبح، ليصح من إبراهيم (ع) الإعتقاد له، والصبر على المضض فيه، الذي يستحق جزيل الثواب عليه.

ولو فُسِّرَ له في الأمر المراد على التعيين لما صح منه الأعتقاد للذبح، ولا كان ما أُمر به شاقاً، يستحق عليه الثناء، والمدح، وعظيم الأجر.

والذي نهى الله تعالى عنه هو الذبح في الحقيقة، وهو الذي لم يبق غيره، ولم تتعلق الإرادة قط به. فقد صح بهذا أن الله تعالى لم يأمر بما لا يريد، ولا نهى عما أراد، والحمد لله.

قال: الخصم: فقد انتهى قولك إلى أن الذي أُمر به غير الذي نهى عنه، وليس هذا هو البداء.

فقلت له: أما في ابتداء الأمر فما ظن إبراهيم (ع) إلا أن المراد هو الحقيقة.

وكذلك كان ظن ولده إسماعيل (ع)، فلما انكشفت بالنهي لهما ما علماه مما كان ظنهما سواه، كان ظاهره بداءً، لمشابهته لحال من يأمر بالشيء، وينهي عنه بعينه في وقته، وليستسلمه على ظاهر الأمر دون باطنه، فلم يرد على ما ذكرت شيئاً.

وهذا الذي اتفق لي من الكلام في البداء.

مسألة:

فإن قال قائل: ما تقولون في الذبيح؟ ومن كان من ولدي إبراهيم (ص) أكان إسماعيل أم إسحاق (ع)؟؟

قلنا: الذبيح عندنا هو إسماعيل، وبهذا يشهد ظاهر القرآن والخبر المأثور عن النبي (ص).

أما القرآن فإن الله تعالى قال حكايةً عن إبراهيم (ص):

(رب هب لي من الصالحين) الصافات: ١٠٠

فأخبر عن سؤاله في الولد، قال الله تعالى:

(فبشرناه بغلام حليم) الصافات: ١٠١

ثم أخبر عن حال هذا الغلام فقال:

(فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك). الصافات: ١٠٢

فوصف قصة الذبح المختصة بهذا الغلام إلى قوله:

(إنا كذلك يجزي المحسنين). الصافات: ١٠٥

ثم قال بعد ذلك:

(وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين). الصافات: ١١٢

فأعلمنا أن إسحاق إنما أتاه بعد الولد الأول الذي أُجيبت فيه دعوته، ورأى في المنام أنه يذبحه.

وهذا يدل على أنه غير إسحاق، وليس غيره ممن ينسب هذا إليه إلا إسماعيل (ع).

وأما الخبر المأثور فقول رسول الله (ص) «أنا ابن الذبيحين»[1]

---

(١) أنظر أعلام النبوة للماوردي ص١٤٣

يعني إسماعيل وعبدالله بن عبد المطلب، ولو كان الذبيح إسحاق لما صح هذا الخبر على ظاهره، لأنه ليس هو ابنه، وهو ابن اسماعيل (ع).

فصل:

جاء في الحديث أن الله تعالى بعث إلى عبد المطلب في منامه ملكاً، فقال له: يا عبد المطلب احفر زمزم، قال: وما زمزم؟ قال: تراث أبيك آدم (ع)، وجدك الأقدم عند الفرث والدم، عند الغراب الأعصم.

وأن عبد المطلب رأى ذلك في منامه ثلاث ليالٍ متواليات، واصبح اليوم الرابع، فقعد عند البيت الحرام، فبينما هو قاعد إذا بقرة قد أُفلتت من بعض الجزارين في أعلا الأبطح من وثاقها، حتى جاءت إلى موضع زمزم، فوقفت هناك، فجزرت مكانها، وسقط غراب أعصم على الفرث والدم.

والأعصم هو الذي إحدى رجليه بيضاء.

فقال عبد المطلب: هذا تأويل رؤياي، فحفرها في موضعها، فصعب عليه الحفر، فقال: اللهم إن لك عليَّ نذراً، أن أتقرب ببعض ولدي، إن أنبطت ليَ الماء.

فلما نبع الماء عزم على أن يقرب بعض ولده، فجاء بنو مخزوم وسائر قريش، فقالوا له: اقرع بين ولدك، فخرجت القرعة على عبدالله، فقال بنو مخزوم له إفدِ ولدك بمالك. فأقرع بينه وبين عشرة من الإبل، فخرجت القرعة على عبدالله، فجعلها عشرين، وقرع بينه وبينها، فخرجت القرعة على عبدالله.

فما زال كذلك حتى صارت الإبل ماية.

وفي حديث آخر أنها بلغت ألفاً، وهي دية الملوك، فعند ذلك وقعت القرعة على الإبل، فقربها فجعلها هدياً.

أخبرني شيخي أبو عبدالله الحسين بن عبيدالله رضي الله عنه، قال: أخبرني أبو محمد هارون بن موسى، قال: أخبرني محمد بن همام، عن أبي محمد الحسن بن

جمهور، قال: حدثني أبي، قال: حدثني الحسن بن محبوب، عن علي بن رباب،[1] عن مالك بن عطية، قال:

لما حفر عبد المطلب بن هاشم زمزم، وأنبط منها الماء، أخرج منها غزالين من ذهب، وسيوفاً وأدراعاً، فجعل الغزالين زينةً للكعبة، وأخذ السيوف والدروع، وقال: هذه وديعة كان أودعها مضاض الجرهمي بن الحرث بن عمرو بن مضاض.

والحارث هو الذي يقول[2]:

كأن لم يكن بين الجحون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكـــة سامر
بـــلى: نحن كنـــا أهلهـــا فأبادنـــا
صروف الليـــالي والجـدود العواثر[3]
ويمنعنـــا من كـــل فـــجٍ نريـــده
أقـــب كسرحـــان الأباءة ضامر[4]
وكـــــل لجوج في الجراء طمرةٍ
كعجزاء فتحـــاء الجناحـــين كاسر

والقصيدة طويلة[5]

فحسدته قريش بذلك، فقالوا: نحن شركاؤك فيها، فقال: هذه فضيلة، نبئت بها دونكم في منامي ثلاث ليال تباعاً.

---

(١) يكنى بأبي الحسن، وهو من رواة الشيعة الكوفيين الثقات روى عن الصادق والكاظم. وله عدة كتب توفي (سنة ٢٢٤هـ).

(٢) في السيرة لابن هشام أن القائل هو عمرو بن الحرث بن عمرو بن مضاض وليس بمضاض الأكبر.

(٣) ذكر البيتين مع أبيات غيرهما لم يذكرها المؤلف، في مروج الذهب ج٢ ص٤٩.

(٤) الأباءة أجمة القصب.

(٥) تجد القسم الكبير من هذه القصيدة في سيرة ابن هشام ج١ ص١٢٦- ١٢٨ وهي متضمنة لبعض الأبيات التي ذكرها المؤلف.

فقالوا: حاكمنا إلى من شئت من حكام العرب، فخرجوا إلى الشام يريدون أحد كهانها وعلمائها، فأصابهم عطش شديد، فأوصى بعضهم إلى بعض، فبيناهم على ذلك، إذ بركت ناقة عبد المطلب، فنبع الماء من بين أخفافها فشربوا، وتزودوا، وقالوا لعبد المطلب: إن الذي سقاك في هذه الأودية القفر هو الذي سقاك بمكة، فرجعوا، وسلّموا له هذه المأثرة.(١)

(بيان عن قول النصارى، ومسألة عليهم لا جواب لهم عنها)

اعلم أنهم يزعمون أن المسيح (ع) مجموع من شيئين: لا هوت، وناسوت، يعنون باللاهوت الله سبحانه وتعالى عما يقولون. وبالناسوت الإنسان، وهو جسم المسيح، إن هذين اتحدا، فصارا مسيحاً.

ومعنى قولهم اتحدا أي صارا شيئاً واحداً في الحقيقة، وهو المسيح.

فيقال لهم: أنتم مجمعون معنا على أن الآله قديم، وأن الجسم محدث، وقد زعمتم أنهما صارا واحداً.

فما حال هذا الواحد؟ أقديم أم محدث؟

فإن قالوا: هو قديم

قيل لهم: فقد صار المحدث قديماً، لأنه من مجموع شيئين: أحدهما محدث.

وإن قالوا: هو محدث

قيل لهم: فقد صار القديم محدثاً، لأنه من مجموع شيئين أحدهما قديم.

وهذا ما لا حيلة لهم فيه، وليس يتسع لهم أن يقولوا: بعضه قديم، وبعضه محدث، لأن هذا ليس بإتحاد في الحقيقة، ولا أن يقولوا هو قديم محدث، لتناقض ذلك واستحا [لته]، ولا أن يقولوا: ليس هو قديم ولا محدث، فظاهرٌ فساد ذلك أيضاً وبطلانه.

---

(١) تجد قصة حفر زمزم ومنازعة قريش لعبد المطلب مروية في سيرة ابن هشام ج (١) ص١٥٤-١٥٨ بروايته عن علي عليه السلام مختلفة في أسلوبها عن رواية الكراجكي ومتفقة معها في المضمون.

وهذا كافٍ في إبطال الإتحاد[1] الذي ادعوه.

وقد سألهم بعض المتكلمين فقال:

إذا كنتم تعبدون المسيح، والمسيح آله وإنسان، فقد عبدتم الإنسان، وعبادة الإنسان كفر بغير اختلاف.

مسألة أُخرى عليهم

قال لهم: إذا كان المسيح عندكم من مجموع شيئين: آله وإنسان، فأخبرونا عن القتل والصلب على ماذا وقع؟ أتقولون أنه وقع بهما أم بأحدهما؟ فإن قالوا: بهما. قيل لهم: ففي هذا أن الآله ضرب وصُلب، وقُتِل، ودُفن [وهي] فضيحة لا ينتهي إليها ذو عقل.

وإن قالوا: بل وقع ذلك على أحدهما، وهو الناسوت، لأن اللاهوت لا يجوز عليه هذا.

قيل لهم: فإذاً قد صح مذهب المسلمين في أنهم ما قتلوا المسيح ولا صلبوه، لأن المسيح عندكم ليس هو الناسوت بانفراده، وإنما هو مجموع شيئين، لم يظفر اليهود إلا بأحدهما الذي [ليس] هو المسيح.

مسألة أُخرى عليهم.

يقال لهم: أيجوز أن يكون جسم متحرك، وشخص آكل شارب، تحله الأعراض الحادثات، وتناله الآلام والآفات قديماً؟

فإن قالوا: يجوز ذلك، لم يأمنوا أن يكون ناسوتاً قديماً.

وإن قالوا: لا يجوز ذلك

قيل لهم: فالمسيح (ع) كانت فيه هذه الصفات معلومات مرئيات.

فإن أنكروا ذلك كابروا وقبح[2] معهم الكلام.

---

(١) في النسخة: الإلحاد

(٢)٠ في النسخة (وأقبح).

وإن أقروا به، وقالوا:[1] قد كان على هذه الصفات.

قيل لهم: فقد صح حدوثه،وبطل قدمه، وحصلتم عابدين لبشر مخلوق مربوب.

فإن قالوا: إنما رأينا ناسوته المحدث، ولم نر لاهوته القديم.

قيل لهم: أو ليس من مذهبكم أنهما اتحدا، وصارا شيئاً واحداً؟

فإذا قالوا: نعم.

قيل لهم: فيجب أن يكون من رأى أحدهما فقد رآهما، وإن لم يكن الأمر كذلك فما اتحدا.

فصل آخر من قولهم وكلام عليهم.

هم يذهبون إلى أن آلههم من ثلاثة أقانيم، والإقنوم عندهم هو الجوهر، يعنون الأصل، فالثلاثة الجواهر عندهم آله واحد، ويسمون هذه الثلاثة: الآب، والإبن، والروح.

فيقال لهم: إذا جاز أن يكون عندكم ثلاثة أقانيم آلهاً واحداً، فلِمَ لا يجوز أن يكون ثلاثة آلهة أُقنوماً واحداً، ويكون ثلاثة فاعلين جوهراً واحداً، فما أَبطلوا به هذا بطل [به] قولهم سواء.

فصل من قولهم

وقد احتجوا فقالوا: وجدنا من له ابن اشرف وأفضل ممن لا ابن له، ومن لا ابن له ناقص.

قالوا: وكذلك وجدنا من لا حياة له ميت، والروح هي الحياة، فوجب أن تصِفَ إلّهنا بالشرف والكمال، ووجود الحياة.

فيقال لهم: فقولوا: إن له بنين عدة، فإن ذلك أكثر لشرفه، وأسنى لمنزلته،

---

(١) في النسخة (وقال)

بل قولوا: إن له نسلاً، وإن له جداً، لأن من له ابن ابن أجل ممن ليس له إلا ابن فقط.

وإذا أوجبتم الروح التي زعمتم أنها الحياة، لئلا يكون ميتاً، فأوجبواله علماً لئلا يكون جاهلاً، وقدرةً لئلا يكون عاجزاً، قولوا أيضاً إن له عينين ليكون ناظراً، أو جميع الحواس ليكون مدركاً.

فإن قالوا: إن [كان] له ما ذكرتم، لما اتحد بالناسوت فصار مسيحاً.

قيل لهم: بل يجب أن يكون له فيما لم يزل، وإلا كان ناقصاً.

فصل من الألفاظ التي يُقرُّون أن المسيح (ع) قالها، وهي دالة على بطلان مذهبهم فيه.

قوله (ع) في الإنجيل:

«لا يكون الرسول أعظم ممن أرسله».

وقوله:

«من آمن بي وآمن بالذي أرسلني».

وقوله:

«يا إلهي قد علموا أنك أنت الله وحدك لا شريك لك، وأنك أنت الله الخالق، وأنك أنت أرسلت المسيح عيسى ليبلغ رسالتك، وأن نعبدك وحدك لا شريك له.»

وقال له الحواريون: أين تذهب وتدعنا فقال:

أذهب إلى إلّهي وإلّهكم، فأسأله أن يبعث إليكم البرقليط[1] فإنه الذي

---

(١) وردت كلمة (فارقليط) و(بارقليطا) في إنجيل يوحنا في ثلاث آيات.

١- يوحنا ١٤:١٦

«وأنا أسأل الآب (الخالق) فيعطيكم فارقليطا آخر، ليقيم معكم إلى الأبد».

٢- يوحنا ١٥:٢٦

ومتى جاء بارقليطا سأرسله أنا إليكم من عند الآب (الخالق) روح الحق الذي من عند الخالق ينبثق، فهو يشهد لي، وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الإبتداء.». =

يذكركم الحق، ولا يتكلم إلا بأمره، وإذا جاءكم فهو يشهد لي، ويبين لكم أمري.

وزعموا أن الشيطان جَرَّبَ المسيح، وأراه ملكوت الأرض، وقال له: هذا كله لي، فاسجد لي سجدةً واحدةً، أعطكه وأُسلطك عليه، فقال له:

«اعزب عني، فإن الله أمرني أن لا أسجد لغيره».

وقال الحواريون: الآن علمنا أن الله بعثك، فرفع عينه إلى السماء فقال:

«رب قد بلغت رسالتك، وإنما جنة الخلد لمن علم أنك وحدك أرسلت المسيح من عندك، وقد أمرتهم يا إلهي بالذي أمرتني به. علموا أنك أرسلتني، فكيف ابتغي لك من الناس، ولا أبتغي للناس منك».

فصل:

فإن قالوا: هذا كله انما قاله المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته.

قيل لهم: وما يدريكم ذلك، وبعد فهل هو صادق فيا قال أم كاذب؟

فإن قالوا: كاذب، فقد أعظموا الفرية.

وقيل لهم: وما يؤمنكم أن يكون جميع ما قاله لكم كذب؟ أو كيف يتحد الآله الصادق بالإنسان الكاذب؟

وإن قالوا: إنه لم يقل إلا حقاً.

قيل لهم: فأي حجة بقيت في أيديكم مع ما أقررتم بأن المسيح قاله وصدق فيه؟

= ٣- يوحنا ١٦: ٧:

«لكني أقول لكم الحق أنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم بارقليطا ولكن إن ذهبت أرسله لكم».

وكلمة فارقليط وبارقليطا، تعنيان من له حمد كثير كمحمد وأحمد. وتجد البحث ضافياً على هذه الكلمة في كتاب إظهار الحق للهندي. أنظر البشارة الثامنة عشر ص ٥٣٨ وما بعدها، وتجد بحثاً عنها في كتاب: رسول الإسلام في الكتب السماوية للدكتور محمد الصادقي من ١٤٦ وما بعدها.

وهل هو إلا دال على ما يقول المسلمون.

وقد احتجوا بأن في الإنجيل:

«أمضي إلى أبي»

فيقال لهم: في هذا أنه شارككم بهذا اللفظ في النبوة، فإن وجب أن يكون ابنه فالجميع أبناؤه.

على أنه لفظه يحتمل التأويل، ويكون معناه: ربي وربكم، وإلهي وإلهكم.

وفي هذا المختصر من الكلام عليهم كفاية والحمد لله.

رسالة كتبتها إلى أحد الإخوان، وسميتها بالبيان عن جمل اعتقاد أهل الإيمان.

بسم الله الرحمن الرحيم.

سألت يا أخي أسعدك الله بألطافه، وأيدك بإحسانه، وإسعافه، أن أثبت لك جملاً من اعتقادات الشيعة المؤمنين، وفصولاً في المذهب يكون عليها بناء المسترشدين، لتذاكر نفسك بها، وتجعلها عدةً لطالبها. وأنا اختصر لك القول وأجمله، وأقرب الذكر وأسهله، وأورده على سنن الفتيا في المقالة، من غير حجةٍ ولا دلالة، وما توفيقي إلا بالله.

أعلم أن الواجب على المكلف

أن يعتقد حدوث العالم بأسره، وأنه لم يكن شيئاً قبل وجوده.

ويعتقد أن الله تعالى هو محدثُ جميعِه، من أجسامه، وأعراضه، إلا أفعال العباد، الواقعة منهم، فإنهم محدثوها دونه سبحانه.

ويعتقد أن الله تعالى قديم وحده، لا قديم سواه، وأنه موجود لم يزل، وباق لا يزال، وأنه شيء لا كالأشياء، لا يشبه الموجودات، ولا يجوز عليه ما يجوز على المحدثات.

وأن له صفاتٍ يستحقها لنفسه، لا لمعان غيره، وهي كونه حياً، عالماً، قديماً، باقياً، لا يجوز خروجه عن هذه الصفات إلى ضدها، يعلم الكائنات قبل كونها، ولا يخفي عليه شيء منها.

وأن له صفات أفعال،[1] لا يصح إضافتها إليه في الحقيقة، إلا بعد فعله، وهي ما وصف به نفسه من أنه خالق، ورازق، ومعطٍ، وراحم، ومالك، ومتكلم، ونحو ذلك.

وأن له صفات مجازات، وهي ما وصف به نفسه، من أنه يريد، ويكره، ويرضى، ويغضب.

فإرادته لفعلٍ هي الفعل المراد بعينه، وإرادته لفعل غيره، هي الأمر بذلك الفعل.

وليس تسميتها بالإراده حقيقةً، وإنما هو على مجاز اللغة.

وغضبه هو وجود عقابه، ورضاه هو وجود ثوابه.

وأنه لا يفتقر إلى مكان، ولا يدرك بشيءٍ من الحواس.

وأنه منزه من القبائح، لا يظلم الناس وإن كان قادراً على الظلم[2] لأنه عالم بقبحه، غني عن فعله. قوله صدق، ووعده حق، لا يكلف خلقه ما لا يستطاع، ولا يحرمهم صلاحاً، لهم فيه الإنتفاع، ولا يأمر بما لا يريد، ولا ينهي عما يريد.

وأنه خلق الخلق لمصلحتهم، وكلفهم لأجل منازل منفعتهم، وأزاح في التكليف عللهم، وفعل أصلح الأشياء بهم.

وأنه أقدرهم قبل التكليف، وأوجد لهم[3] العقل والتمييز.

---

(١) وخلاصة القول في الصفات أن منها ما هو صفات الذات كالحياة والعلم وسواهما وهي ليست بزائدة على الذات، ومنها ما هو صفة له باعتبار الفعل كالرازق والخالق وما إليهما، ومنها ما هو صفة له على نحو المجاز كالعضب والرضا وغيرهما كما أشار إلى ذلك المؤلف، مما يدل على الانفعال الممتنع في حقه تعالى.

(٢) إشارة إلى الرد على النظام أحد زعماء المعتزلة الذي ذهب إلى أن الله لا يفعل الشر لأنه لا يقدر عليه، أما الإمامية فذهبوا إلى أنه لا يفعله مع قدرته عليه، لأنه قبيح.

(٣) في النسخة (وأوجدهم)

وأن القدرة تصلح أن يفعل بها وضده بدلاً منه.

وأن الحق الذي تجب معرفته، تدرك بشيئين، وهما العقل والسمع.

وأن التكليف العقلي لا ينفك عن التكليف السمعي.[1]

وأن الله تعالى قد أوجد [للناس] في كل زمانٍ مُسمِعاً [لهم] من أنبيائه، وحججه بينه وبين الخلق، ينبههم على طريق الإستدلال في العقليات، ويفقههم على ما لا يعلمونه إلا به من السمعيات.

وأن جميع حجج الله تعالى محيطون علماً بجميع ما يفتقر إليهم فيه العباد.

وأنهم معصومون من الخطأ والزلل عصمة اختيار.[2]

وأن الله فضلهم على خلقه، وجعلهم خلفاء القائمين بحقه.

وأنه أظهر على أيديهم المعجزات، تصديقاً لهم فيما ادعوه من الأنباء والأخبار.

وأنهم- مع ذلك- بأجمعهم عباد مخلوقون، وبشر مكلفون، يأكلون، ويشربون، ويتناسلون، ويحيون بإحيائه، ويموتون بإماتته، تجوز عليهم الآلام المعترضات، فمنهم من قتل، ومنهم من مات، لا يقدرون على خلقٍ، ولا رزقٍ، ولا يعلمون الغيب إلا ما أعلمهم آله الخلق.

وأن أقوالهم صدق، وجميع ما أتوا به حق.

وأن أفضل الأنبياء أُولو العزم، وهم خمسة:

نوح، وابراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلى الله عليه وآله وعليهم.

---

(١) إن القول بالملازمة بين حكم العقل وحكم الشرع مبني على القول بمسألة عقلية معروفة وهي مسألة الحسن والقبح العقليين، أما من لم يقل بهذه المسألة فلا تلازم بين حكم العقل والشرع، ومعنى القول بالتلازم هو أن العقل إذا أدرك حسن شيء أو قبحه وقطع به فإنه حتماً يكون حكم الشرع على طبقه.

(٢) على نحو أن تكون هذه العصمة غير ملجئةٍ له إلى فعل الطاعة، بل هو قادر معها على فعل الشر كما هو قادر على فعل الخير لم يرتفع معها شيء من الأختيار والقدرة، وإلا لما استحق شيئاً من الثواب والعقاب ولما صح تكليفه.

وأن محمداً بن عبدالله (ص) أفضل الأنبياء أجمعين، وخير الأولين والآخرين.

وأنه خاتم النبيين، وأن آباءه من آدم (ع) إلى عبدالله بن عبد المطلب رضوان الله عليهم، كانوا جميعاً مؤمنين، موحدين لله تعالى عارفين، وكذلك أبو طالب رضوان الله عليه.

ويعتقد أن الله سبحانه شرف نبينا (ص) بباهر الآيات، وقاهر المعجزات، فسبح في كفه الحصا، ونبع من بين أصابعه الماء، وغير ذلك مما قد تضمنته الأنباء، وأجمع على صحته العلماء، وأتى بالقرآن المبين، الذي بهر به السامعين، وعجز عن الإتيان بمثله سائر الملحدين.

وأن القرآن كلام رب العالمين، وأنه محدث ليس بقديم.[1]

ويجب أن يعتقد أن جميع ما فيه من الآيات، الذي يتضمن ظاهرها تشبيه الله تعالى بخلقه، وأنه يجبرهم على طاعته أو معصيته، أو يضل بعضهم عن طريق هدايته، فإن ذلك كله لا يجوز حمله على ظاهرها، وأن له تأويلاً، يلائم ما تشهد العقول به، مما قدمنا ذكره في صفات الله تعالى، وصفات أنبيائه.

---

(١) هذا إشارة إلى الفتنة التي حدثت بين فرق المسلمين في القرآن هل هو مخلوق أم أزلي، بعد اتفاقهم على أنه تعالى يتصف بالكلام وأنه متكلم كما هو صريح قوله تعالى: (وكلم الله موسى تكليماً) وأن القرآن كلام الله، ولكنهم اختلفوا في معنى كلامه فعند المعتزلة والشيعة أنه حادث وأنه تعالى أوجده بعد أن لم يكن موجوداً في أجسام دالة على المراد، كما أوجد الكلام في شجرة الطور لموسى (ع). وعند الأشاعرة أن الكلام صفة من الصفات اللاحقة له تعالى كغيره من الصفات الأخرى، من العلم والقدرة والحياة وغيرها وإن معنى كونه تعالى متكلماً أن هناك صفة قائمة بذاته كالعلم والإرادة، وهذه الصفة القائمة تُعَبِّر عنها وتحكيها الكلمات والألفاظ. وهذا المعنى القائم بذاته أمر واحد عندهم ليس بنهي ولا أمر ولا خبر ولا إنشاء ولا غيرها من أساليب الكلام، ويعبرون عنه بالكلام النفسي، وما يحكيه من الألفاظ والعبارات بالكلام اللفظي.

وقد نشبت هذه الفتنة في عصر المأمون العباسي الذي تبنى القول بخلق القرآن، واشتد على من يقول بقدمه. وقد كتبنا حول هذه المسألة في كتابنا: هشام بن الحكم ص١٤٤-١٤٦.

فإن عرف المكلف تأويل هذه الآيات فحسن، وإلا أجزأه أن يعتقد في الجملة أنها متشابهات، وأن لها تأويلاً ملائماً، تشهد بما تشهد به العقول والآيات المحكمات، وفي القرآن المحكم، والمتشابه، والحقيقة، والمجاز، والناسخ، والمنسوخ، والخاص، والعام.

ويجب عليه أن يقر بملائكة الله أجمعين، وأن منهم جبرئيل وميكائيل، وأنهما من الملائكة الكرام، كالأنبياء بين الأنام، وأن جبرئيل هو الروح الأمين، الذي نزل بالقرآن على قلب محمدٍ خاتم النبيين، وهو الذي كان يأتيه بالوحي من رب العالمين.

ويجب الإقرار بأن شريعة الإسلام التي أتى بها محمد (ع) ناسخة لما خالفها من شرائع الأنبياء المتقدمين.

وأنه يجب التمسك بها والعمل بما تضمنته من فرائضها، وأن ذلك دين الله الثابت الباقي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لا حلال إلا ما أحلت، ولا حرام إلا ما حرمت، ولا فرض إلا ما فرضت، ولا عبادة إلا ما أوجبت.

وأن من انصرف عن الإسلام، وتمسك بغيره، كافر ضال، مخلد في النار، ولو بذل من الإجتهاد في العبادة غاية المستطاع.

وأن من أظهر الإقرار بالشهادتين كان مسلماً، ومن صدق بقلبه، ولم يشك في فرضٍ أتى به محمد (ص) كان مؤمناً.

ومن الشرائط الواجبة للإيمان، العمل بالفرائض اللازمة، فكل مؤمنٍ مسلم، وليس كل مسلمٍ مؤمن.

وقوله تعالى:

(إن الدين عند الله الإسلام)[1]

إنما أراد به الإسلام الصحيح التام، الذي يكون المسلم فيه عارفاً، مؤمناً، عالماً بالواجبات طائعاً.

---

(١) آل عمران: ١٩

ويجب أن يعتقد أن حجج الله تعالى بعد رسوله الذين هم خلفاؤه، وحفظة شرعه، وأئمة أُمته، اثنا عشر أهل بيته، أوّلهم أخوه وابن عمه، وصهره بعل فاطمة الزهراء ابنته، ووصيه على أُمته، علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، ثم الحسن بن علي الزكي، ثم الحسين بن علي الشهيد، ثم علي بن الحسين زين العابدين، ثم محمد بن علي باقر العلوم، ثم جعفر بن محمد الصادق، ثم موسى بن جعفر الكاظم، ثم علي بن موسى الرضا، ثم محمد بن علي التقي، ثم علي بن محمد المنتجب، ثم الحسن بن علي الهادي، ثم الخلف الصالح بن الحسن المهدي صلوات الله عليهم أجمعين.

لا إمامة بعد رسول الله (ص) إلا لهم (ع)، ولا يجوز الاقتداء في الدين إلا بهم، ولا أخذ معالم الدين إلا عنهم.

وأنهم في كمال العلم والعصمة من الآثام نظير الأنبياء عليهم السلام.

وأنهم أفضل الخلق بعد رسول الله عليه السلام.

وأن إمامتهم منصوص عليهم من قبل الله على اليقين والبيان.

وأنه سبحانه أظهر على أيديهم الآيات، وأعلمهم كثيراً من الغائبات، والأُمور المستقبلات، ولم يعطهم من ذلك إلا ما قارن وجهاً يعمله من اللطف والصلاح.

وليسوا عارفين بجميع الضمائر والغائبات على الدوام، ولا يحيطون بالعلم بكل ما علمه الله تعالى.

والآيات التي تظهر على أيديهم هي فعل الله دونهم، أكرمهم بها، ولا صنع لهم فيها.

وأنهم بشر محدثون، وعباد مصنوعون، لا يخلقون، ولا يرزقون، ويأكلون ويشربون، وتكون لهم الأزواج، وتنالهم الآلام والأعلال، ويستضامون، ويخافون فيتقون، وأن منهم من قتل، ومنهم من قبض.

وأن إمام هذا الزمان هو المهدي ابن الحسن الهادي، وأنه الحجة على العالمين، وخاتم الأئمة الطاهرين، لا إمامة لأحدٍ بعد إمامته، ولا دولة تبعد

دولته، وأنه غائب عن رعيته، غيبة اضطرارٍ وخوفٍ من أهل الضلال، وللمعلوم عند الله تعالى في ذلك الصلاح.

ويجوز أن يعرف نفسه في زمن الغيبة لبعض الناس، وأن الله عز وجل سيظهره وقت مشيئته، ويجعل له الأعوان والأصحاب، فيمهد الدين به، [و] يطهر الأرض على يديه، ويهلك أهل الضلال، ويقيم عمود الإسلام، ويصير الدين كله لله.

وأن الله عز وجل يظهر على يديه عند ظهوره الإعلام، وتأتيه المعجزات بخرق العادات، ويحيي له بعض الأموات، فإذا [أ] قام في الناس المدة المعلومة عند الله سبحانه قبضه إليه، ثم لا يمتد بعده الزمان، ولا تتصل الأيام حتى تكون شرائط الساعة، وإماتة من بقي من الناس، ثم يكون المعاد بعد ذلك.

ويعتقد أن أفضل الأئمة عليهم السلام، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأنه لا يجوز أن يسمى بأمير المؤمنين أحد سواه.

وأن بقية الأئمة صلوات الله عليهم، يقال لهم الأئمة، والخلفاء، والأوصياء، والحجج، وإن[1] كانوا في الحقيقة أمراء المؤمنين، فإنهم لم يمنعوا من هذا الإسم لأجل معناه، لأنه حاصل لهم على الإستحقاق، وإنما منعوا من لفظه، حشمةً لأمير المؤمنين (ع).

وأن أفضل الأئمة بعد أمير المؤمنين، ولده الحسن، ثم الحسين، وأفضل الباقين بعد الحسين، إمام الزمان المهدي (ص)، ثم بقية الأئمة بعده على ما جاء به الأثر، وثبت في النظر.

وأن المهدي (ع) هو الذي قال فيه رسول الله (ص):

«لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد، لطول الله تعالى ذلك اليوم، حتى

---

(١) في النسخة (وإنهم).

يظهر فيه رجل من ولدي، يواطئ اسمه إسمي، يملأها عدلاً وقسطاً، كما ملئت ظلماً وجوراً »[1].

فاسمه يواطئ إسم رسول الله (ص)، وكنيته تواطئ كنيته، غير أن النهي قد ورد عن اللفظ، فلا يجوز أن يتجاوز في القول أنه المهدي، والمنتظر، والقائم بالحق، والخلف الصالح، وإمام الزمان، وحجة الله على الخلق.

---

(١) روى هذا الحديث وأمثاله ابن خلدون في المقدمة في الفصل الثاني والخمسين عن الترمذي وأبي داود باختلاف في بعض ألفاظه، وروى حوالى اثنين وثلاثين حديثاً، وقال في ص ٣١١ من المقدمة:

« إن جماعة من الأئمة خرّجوا أحاديث المهدي، منهم: الترمذي، وأبو داود، والبزاز، وابن ماجه، والحاكم، والطبراني، وأبو يعلى الموصلي، وأسندوها إلى جماعة من الصحابة مثل علي، وابن عباس، وابن عمر، وطلحة، وابن مسعود، وأبي هريرة، وأنس، وأبي سعيد الخدري، وأم حبيبة، وأم سلمة، وثوبان، وقرة بن إياس، وعلي الهلالي، وعبد الله بن الحارث بن جزء ».

وقد ناقش في سندها تارة، وفي متنها تارة أخرى على طريقته الخاصة. وهي إسقاط كل رواية تأتي عن طريق الشيعة، أو عن طريق من يميل إلى أهل البيت. أو عن طريق من يتهم بالتشيع وإن لم يكن شيعياً، أو عن طريق من يروي شيئاً من فضائل أهل البيت. أو شيئاً من معاتب أعدائهم الأمويين.

ولكن برغم مناقشات ابن خلدون وغيره، فإن هناك حقيقة ثابتة. وهي أن الأحاديث في هذا الموضوع قد بلغت من الكثرة حد التواتر المعنوي، لا يمكن التشكيك في مضمونها، أو دعوى أنها موضوعة، إذ لم يحظ موضوع من المواضيع الاسلامية كموضوع قضية المهدي المنتظر، وليس له شبيه من حيث عدد الأرقام الهائلة س الأحاديث في هذا الموضوع، فقد أحصيت الأحاديث الواردة فيها من طريق أهل السنة وفي مسانيدها ومؤلفاتها ما يربو على أربعماية حديث عن النبي (ص)، وأحصي مجموع الأخبار الواردة من طرق الشيعة والسنة، فبلغت أكثر من ستة آلاف حديث، وهو رقم هائل لم يتوافر في أي قضية إسلامية أخرى، حتى في تلك القضايا الاسلامية الضرورية، وهو يتحدى كل شك وإنكار.

وقد وضعت عدة مؤلفات في هذا الموضوع، ومن أحسنها، كتاب منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر للشيخ لطف الله محمد جواد الصافي.

ويجب أن يعتقد أن الله فرض معرفة الأئمة (ع) بأجمعهم، وطاعتهم، وموالاتهم، والأقتداء بهم، والبراءة من أعدائهم وظالميهم... وأنه لا يتم الإيمان إلا بموالاة أوليـاء الله، ومعاداة أعدائه، وأن أعداء الأئمة عليهم السلام كفار ملحدون في النار، وإن أظهروا الإسلام، فمن عرف الله ورسوله والأئمة الاثني عشر وتولاهم، وتبرأ من أعدائهم فهو مؤمن، ومن أنكرهم.. أو تولى أعدائهم فهو ضال هالك لا ينفعه عمل ولا اجتهاد، ولا تقبل له طاعة ولا يصح له حسنات »:[1]

ويعتقد أن الله يزيد وينقص إذا أشاء في الأرزاق والآجال.

وأنه لم يرزق العبد إلا ما كان حلالاً طيباً.

ويعتقد أن باب التوبة مفتوح لمن طلبها، وهي الندم على ما مضى من المعصية، والعزم على ترك المعاودة إلى مثلها.

وأن التوبة ماحية لما قبلها من المعصية التي تاب العبد منها.

وتجوز التوبة من زلة، إذا كان التائب منها مقيماً على زلةٍ غيرها لا تشبهها، ويكون له الأجر على التوبة، وعليه وزر ما هو مقيم عليه من الزلة.

وأن الله يقبل التوبة بفضله وكرمه، وليس ذلك لوجوب قبولها في العقل قبل الوعد، وإنما عُلِمَ بالسمع دون غيره.

ويجب أن يعتقد أن الله سبحانه، يميت العباد ويحييهم بعد المهات ليوم المعاد.

وأن المحاسبة حق والقصاص، وكذلك الجنة والنار والعقاب.

وأن مرتكبي المعاصي من العارفين بالله ورسوله، والأئمة الطاهرين،

---

(١) مكان النقاط كلمات غير واضحة.

المعتقدين لتحريمها مع ارتكابها، المسوفين التوبة منها، عصاة فساق، وأن ذلك لا يسلبهم اسم الإيمان كما لم يسلبهم إسم الإسلام.[1].

وأنهم يستحقون العقاب على معاصيهم، والثواب على معرفتهم بالله تعالى، ورسوله، والأئمة من بعده (ص).

وما بعد ذلك من طاعتهم، وأمرهم مردود إلى خالقهم، وإن عفا عنهم فبفضله ورحمته، وإن عاقبهم فبعدله وحكمته، قال الله سبحانه:

(وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم). التوبة: ١٠٦

وأن عقوبة هؤلاء العصاة إذا شاءها الله تعالى، لا تكون مؤبدة، ولها آخر، يكون بعده دخولهم الجنة، وليسوا من جملة من توجه إليهم الوعيد بالتخليد. والعفو من الله تعالى يرجى للعصاة المؤمنين.

وقد غلطت المعتزلة فسمت من يرجو العفو مرجئاً، وإنما يجب أن يسمى راجياً.

ولا طريق إلى القطع على العفو، وإنما هو الرجاء والتجوير فقط.

ويعتقد أن لرسول الله (ص) والأئمة من بعده (ع) شفاعة مقبولة يوم القيامة، ترجى للمؤمنين من مرتكبي الآثام.

ولا يجوز أن يقطع الإنسان على أنه مشفوع فيه على كل حال، ولا سبيل له إلى العلم بحقيقة هذه الحال، وإنما يجب أن يكون المؤمن واقفاً بين الخوف والرجاء.

ويعتقد أن المؤمنين الذين مضوا من الدنيا وهم غير عاصين، يؤمر بهم يوم القيامة إلى الجنة بغير حساب.

---

(١) صرح بهذا المفيد أستاذ المؤلف في كتابه أوائل المقالات ص ٤٨ ونسبه إلى اتفاق الإمامية أما الخوارج فتسمي مرتكب الكبيرة مشركاً وكافراً، والحسن البصري أستاذ واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، فيسمهم منافقين، وأما واصل بن عطاء فوضعهم في منزلةٍ بين منزلتين، وقال أنهم فساق ليسوا بمؤمنين، ولا كفار، ولا منافقين. أنظر هشام بن الحكم للمعلق ص ٢٧.

وأن جميع الكفار والمشركين، ومن لم تصح له الأُصول من المؤمنين يؤمر بهم يوم القيامة إلى الجحيم بغير حساب، وإنما يحاسب من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وهم العارفون العصاة.

وأن أنبياء الله تعالى وحججه (ع) هم في القيامة المسؤلون للحساب بإذن الله تعالى، وأن حجة أهل كل زمانٍ يتولى أمر رعيته الذين كانوا في وقته.

وأن سيدنا رسول الله (ص) والأئمة الإثنا عشر من بعده (ع)، هم أصحاب الأعراف الذين لا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار من أنكرهم وأنكروه.

وأن رسول الله (ص) يحاسب أهل وقته وعصره، وكذلك كل إمامٍ بعده.

وأن المهدي (ع) هو المواقف لأهل زمانه، والمسائل للذين في وقته.

وأن الموازين [التي] توضع في القيامة، هي إقامة العدل في الحساب، والأنصاف في الحكم والمجازاة، وليست في الحقيقة موازين بكفات وخيوط كما يظن العوام.

وأن الصراط المستقيم في الدنيا دين محمد وآل محمد عليه وعليهم السلام، وهو في الآخرة طريق الجنان.

وأن الأطفال والمجانين والبله من الناس، يتفضل عليهم في القيامة، بأن تكمل عقولهم، ويدخلون الجنان.[1]

---

(١) وهو المعروف من رأي الإمامية، وأول من صرح به منهم هشام بن الحكم على ما يظهر، وتدل عليه بالإضافة إلى حكم العقل بعض النصوص عن أهل البيت (ع) وخالف الأشاعرة عدا أبا الحسن الأشعري الذين قالوا بأن الله تعالى يأمرهم بدخول نار يؤججها يوم القيامة فمن أطاع أدخل الجنة ومن عصى أدخل النار، وجوز أبو الحسن الأشعري تعذيب الأطفال في القيامة لغيظ آبائهم، وذهب الخوارج إلى أن حكمهم حكم آبائهم في الدنيا والآخرة من الحكم بكفرهم أو إيمانهم، ومن نعيمهم أو عذابهم. أنظر هشام بن الحكم للمعلق ص ١٨٧ - ١٩٠.

وأن نعيم أهل الجنة متصل أبداً بغير نفادٍ، وأن عذاب المشركين والكفار متصل في النار بغير نفاد.

ويجب أن تؤخذ معالم الدين في الغيبة من أدلة العقل، وكتاب الله عز وجل، والأخبار المتواترة عن رسول الله (ص) وعن الأئمة (ع)،[1] وما أجمعت عليه الطائفة الإمامية، وإجماعها حجة.

فأما عند ظهور الإمام (ع) فإنه المفزع عند المشكلات، وهو المنبه على العقليات، والمُعرِّف بالسمعيات، كما كان النبي (ص).

ولا يجوز استخراج الأحكام في السمعيات بقياسٍ ولا إجتهاد.[2]

فأما العقليات فيدخلها القياس والاجتهاد، ويجب على العاقل مع هذا كله ألا يقنع بالتقليد في الإعتقاد، وأن يسلك طريق التأمل والاعتبار، ولا يكون نظره لنفسه في دينه أقل من نظره لنفسه في دنياه، فإنه في أمور الدنيا يحتاط ويحترز، ويفكر ويتأمل، ويعتبر بذهنه، ويستدل بعقله، فيجب أن يكون في أمر دينه على أضعاف هذه الحال، فالغرر في أمر الدين أعظم من الغرر في أمر الدنيا.

فيجب أن لا يعتقد في العقليات إلا ما صح عنده حقه، ولا يُسلِّم في السمعيات إلا لمن ثبت له صدقه.

---

(١) ما ذكره المؤلف هو رأي جماعةٍ من علماء الإمامية، كالشريف المرتضى، وابن زهرة، وابن البراج، والطبرسي، وابن إدريس وغيرهم، فقد ذهب هؤلاء إلى عدم اعتبار الخبر الواحد إذا لم يكن مقطوع الصدور عن المعصوم، وخصوا اعتباره بما إذا كان قطعي الصدور، سواء أكان محتفاً بقرينة عقلية أو نقلية أخرى، فالمهم لدى هؤلاء في اعتبار الخبر أن يفضي إلى العلم، ولو كان ذلك لإجماع أو شاهدٍ عقلي، بل صرح المفيد في أوائل المقالات بأنه لا يجب العمل بخبر الواحد.

أما المشهور بين الإمامية بل المجمع عليه بين المتأخرين منهم فاعتبار الخبر الواحد لقيام الدليل على حجيته، ولكل من الفريقين أدلة على دعواه مذكورة في كتب الأصول.

(٢) المراد بالإجتهاد هنا ليس هو استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، وإنما المراد به الإعتماد على الرأي والإستحسان والقياس، من دون الرجوع إلى القواعد والأصول التي ثبتت حجيتها شرعاً

نسأل الله حسن التوفيق برحمته، وألا يحرمنا ثواب المجتهدين في طاعته.

قد أثبت لك يا أخي - أيدك الله - ما سألت، واقتصرت وما أطلت.

والذي ذكرت أصل لما تركت، والحمد لله وصلواته على سيدنا محمد وآله وسلم.

فصل: في ذكر مولد أمير المؤمنين (ص)

روى المحدثون، وسطر المصنفون أن أبا طالب بن عبد المطلب بن هاشم، وأمرأته فاطمة بنت أسد بن هاشم رضوان الله عليهما، لما كفلا رسول الله (ص) استبشرا بغرته، واستبعدا بطلعته، واتخذاه ولداً، لأنهما لم يكونا رزقا من الولد أحدا.

ثم نشأ (ع) أشرف نشوء وأحسنه، وأفضله وأيمنه، فرأى فاطمة ورغبتها في طلب الولد، وقربانها وقتاً بعد وقت، فقال لها: يا أمه اجعلي قربانك لوجه الله تعالى خالصاً، ولا تشركي معه أحدا، فإنه يرضاه منك ويتقبله ويعطيك طلبتك، ويعجله.

فامتثلت فاطمة أمره، وقبلت قوله، وقربت قرباناً مضاعفاً، وجعلته لله تعالى خالصاً، وسألته أن يرزقها ولداً صالحاً ذكراً.

فأجاب الله عز وجل دعاها، وبلغها مناها، ورزقها من الأولاد خمسة: عقيلاً، ثم طالباً، ثم جعفراً، ثم علياً، ثم اختتمهم فاختة المعروفة بأم هاني.

فمما جاء في حديثها[1] قبل أن ترزق أولادها، أنها كانت جلست يوماً تتحدث مع عجائز العرب والفواطم من قريش، منهن فاطمة ابنة عمرو بن عائد بن عمران بن مخزوم جدة رسول الله (ص) لأبيه، وفاطمة ابنة زائدة بن الأصم، وهي أم خديجة بنت خويلد، وفاطمة ابنة عبد الله رزام، وفاطمة

---

(١) تجد هذا الحديث في كتاب إثبات الوصية للمسعودي ص ١١٤، وفي بحار الأنوار ج ٣٥ ص ٤٠ نقله عن الكراجكي في الكنز.

ابنة الحارث بن عكرمة، وتمام الفواطم التي انتمى إليهن رسول الله (ص)، فاطمة أم قصي، وهي ابنة نضر.

فإنهن لجلوس إذ أقبل رسول الله بنوره الباهر، وسعده الظاهر، وقد تبعه بعض الكهان، ينظر إليه، ويطيل فراسته فيه، إلى أن أتى إليهن، فسألهن عنه، فقلن: هذا محمد ذو الشرف الباذخ، والفضل الشامخ، فأخبرهن الكاهن بما يعلمه من رفيع قدره، وبشرهن بما سيكون من مستقبل أمره، وأنه سيبعث نبياً، وينال منالاً علياً، وقال: إن التي تكفله منكن في صغره، سيكفل لها ولداً، يكون عنصره من عنصره، يختصه بسره وبصحبته، ويحبوه بمصادقته وإخوّته.

فقالت له فاطمة ابنة أسد رضوان الله عليها:

أنا التي كفلته، وأنا زوج عمه الذي يرجوه ويؤمله.

فقال: إن كنتِ صادقةً، فستلدين غلاماً عَلّاماً، مطواعاً لربه هماماً، اسمه على ثلاثة أحرفٍ، يلي هذا النبي في جميع أموره، وينصره في قليله وكثيره، حتى يكون سيفه على أعدائه، وبابه لأوليائه، يفرج عن وجهه الكربات، ويجلو عنه حندس الظلمات، تهاب صولته أطفال المهاد، وترتعد من خيفته من[1] الجلال، له فضائل شريفة، ومناقب معروفة، وصلة منيعة، ومنزلة رفيعة يهاجر إلى النبي في طاعته، ويجاهد بنفسه في نصرته، وهو وصيه الدافن له في حجرته.

قالت له أم علي (ع): جعلت أفكر في قول الكاهن، فلما كان الليل رأيت في منامي كأن جبال الشام قد أقبلت تدب، وعليها جلابيب الحديد، وهي تصيح من صدورها بصوتٍ مهول، فأسرعت نحوها جبال مكة، وأجابتها بمثل صياحها وأهول، وهي كالشرد[2] المحمر، وأبو قبيس ينتفض كالفرس،

(١) في النسخة (عن)، وفي اثبات الوصية ص١١٦: وترعد من خيفته الفرائض ويوم الجلاد.

(٢) هي الناقة التي تعسرت ولادتها فلا يخرج حتى تموت، كذا في هامش النسخة، وفي اثبات الوصية ص ١١٧: وهي كالشرر الجمر. والشرد جمع شارد وهو البعير النافر والمحمر على وزن مكرم الناقة يلتوي في بطنها ولدها.

ونصال تسقط عن يمينه وشماله، والناس يلتقطون ذلك، فلقطت معهم أربعة أسياف وبيضة حديد مذهبة. فأول ما دخلت مكة سقط[1] منها سيف في ماءٍ فغمر، وطار الثاني في الجو واستمر[2]، وسقط الثالث إلى الأرض فانكسر، وبقي الرابع في يدي مسلولاً، فبينا أنابه أصول إذ صار السيف شبلاً، فتبينته فصار ليثاً مهولاً،[3] فخرج عن يدي، ومر نحو الجبال يجوب بلاطحها،[4] ويخرق صلادحها[5] والناس منه مشفقون، ومن خوفه حذرون، إذ أتى محمد (ص) فقبض على رقبته، فانقاد له كالطبية الألوف، فانتبهت وقد راعني الزمع،[6] والفزع، فالتمست المفسرين، فطلبت القائفين (ع) والمخبرين، فوجد كاهناً زجر لي بحالي، وأخبرني منامي، وقال لي: أنت تلدين أربعة أولاد وبنتاً بعدهم، وإن أحد البنين يغرق، والآخر يقتل في الحرب، والآخر يموت، ويبقى له عقب، والرابع يكون إماماً للخلق، صاحب سيفٍ وحقٍ، ذا فضلٍ وبراعة، يطيع النبي المبعوث أحسن طاعة.

فقالت فاطمة: فلم أزل مفكرة في ذلك، ورزقت بنيَّ الثلاثة: عقيلاً، وطالباً، وجعفراً.

ثم حملت بعليٍ (ع) في عشر ذي الحجة، فلما كان الشهر الذي ولدت فيه، وكان شهر رمضان، رأيت في منامي، كأن عمود حديدٍ قد انتزع من أُم رأسي، ثم سطع في الهواء حتى بلغ السماء، ثم رُدَّ إليّ، فقلت: ما هذا » فقيل لي: هذا قاتل أهل الكفر، وصاحب ميثاق النصر، بأسه شديد، يفزع من خيفته، وهو معونة الله لنبيه، وتأييده على عدوه.

قالت: فولدت علياً(ع).

وجاء في الحديث:

---

(١) في البحار: سقطت منها سيف في ماء فغيِّر.

(٢) في إثبات الوصية: فانثمر، ولعله تصحيف (فانتثر).

(٣) في إثبات الوصية: مستأسداً.

(٤) جمع بلطح وهو المكان الواسع.

(٥) في البحار: صلاطحها وهو بمعنى بلاطم.

(٦) الزمع بالتحريك شبه الرعدة تأخذ الانسان.

أنها دخلت الكعبة على ما جرت به عادتها، فصادف دخولها وقت ولادتها، فولدت أمير المؤمين (ص)، داخلها، وكان ذلك في النصف من شهر رمضان[1]، ولرسول الله (ص) ثلاثون سنة على الكمال، فتضاعف ابتهاجه به، وتمام مسرته، وأمرها أن تجعل مهده جانب فراشه.

وكان يلي أكثر تربيته، ويراعيه في نومه ويقظته، ويحمله على صدره وكتفه، ويحبوه بألطافه وتحفه، ويقول: هذا أخي وسيفي وناصري ووصيي.[2]

فلما تزوج النبي (ص) خديجة (ع) أخبرها بوجده بعلي ومحبته، فكانت تستزيره، فتزينه، وتحليه، وتلبسه، وترسله مع ولائدها، ويحمله خدمها، فيقول الناس: هذا أخو محمد، وأحب الخلق إليه، وقرة عين خديجة، ومن اشتملت السعادة عليه.

وكانت ألطاف[3] خديجة تطرق منزل أبي طالب ليلاً ونهاراً، وصباحاً ومساءً.

ثم إن قريشاً أصابتها أزمة مهلكة، وسنة مجدية منهكة، وكان أبو طالب رضي الله عنه ذا مالٍ يسير، وعيالٍ كثير، فأصابه ما أصاب قريشاً من العُدم والإضاقة، والجهد والفاقة.

فعند ذلك دعا رسول الله (ص) عمه العباس، فقال له: يا أبا الفضل إن أخاك أبا طالب كثير العيال، مختل الحال، ضعيف النهضة والغرمة، وقد ناله ما نزل بالناس من هذه الأزمة، وذوو الأرحام أحق بالرفد، وأولى من حمل الكل[4]، في ساعة الجهد، فانطلق بنا إليه، لنعينه على ما هو عليه، فلنجمل عنه بعض أثقاله، ونخفف عنه من عياله، يأخذ كل واحدٍ منا واحداً من بنيه، يسهل عليه بذلك بعض ما هو فيه.

---

(١) أنظر إثبات الوصية للمسعودي ص١١٤.

(٢) المصدر ص١١٧

(٣) أي هدايا تبره بها.

(٤) الكل: الثقل.

فقال له العباس: نعم ما رأيت، والصواب فيما أتيت، هذا والله الفضل الكريم، والوصل الرحيم.

فلقيا أبا طالب، فصبراه، ولفضل آبائه ذكراه، وقالا له: إنا نريد أن نحمل عنك بعض العيال، فادفع إلينا من أولادك من يخف عنك به الأثقال.

قال أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلاً وطالباً فافعلا ما شئتما.

فأخذ العباس جعفراً، وأخذ رسول الله (ص) علياً (ع)[1] فانتجبه لنفسه، واصطفاه لمهم أمره، وعول عليه في سره وجهره، وهو مسارع لمرضاته، موفق السداد في جميع حالاته.[2]

وكان رسول الله (ص) في ابتداء طروق الوحي إليه، كلما هتف به هاتف، أو سمع من حوله رجفة راجف، أو رأى رؤيا، أو سمع كلاماً، يخبر بذلك خديجة وعلياً (ع) ويستسرهما هذه الحال.

فكانت خديجة تثبّته وتصبره، وكان علي يهنيه ويبشره، ويقول له: والله يا ابن عم، ما كذب عبد المطلب فيك، ولقد صدقت الكهان فيما نسبته إليك، ولم يزل كذلك إلى أن أُمر (ص) بالتبليغ. فكان أول من آمن به من النساء خديجة، ومن الذكور أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وعمره يومئذٍ عشر سنين.[3]

---

(١) في مقاتل الطالبين ص١٧ أن رسول الله (ص) أخذ علياً، وحمزة أخذ جعفراً، والعباس أخذ طالباً.

(٢) تجد قصة ولادة أمير المؤمنين (ع) في اثبات الوصية ص١١٥- ١٢٠ مع اختلاف وزيادة.

(٣) وقال الأصبهاني: وكانت سنه يوم أسلم إحدى عشرة على أصح ما ورد من الأخبار في إسلامه (مقاتل الطالبيين ص١٧) وتنوزع في سنه يوم أسلم، فقال فرقة كانت سنه يومئذٍ خمس عشرة سنة، وقال آخرون ثلاث عشرة، وقيل إحدى عشر، وقيل تسع، وقيل ثمان، وقيل سبع، وقيل ست وقيل: خمس (التنبيه والإشراف ص١٩٨).

وبما عملته لبعض الإخوان كتاب الإعلام بحقيقة إسلام أمير المؤمنين عليه السلام وبه نستعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي الجود والإكرام، الهادي إلى شريعة الإسلام، وصلاته على خيرته من جميع الأنام، سيدنا محمد رسوله وأهل بيته المطهرة من الأثام، وسلام الله على أول السابقين إسلاماً وإيماناً، وأخلص المصدقين إقراراً وإذعاناً، وأنصح الناصرين سراً وإعلاناً، وأوضح العالمين حجة وبرهاناً، الذي كان سبقه إلى الدخول في الإسلام، وكونه بعد الرسول الحجة على الأنام، مشابهاً لخلق آدم (ص) في وجود الخليفة قبل المستخلف عليه، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، ذي الفضائل والمناقب، ولعنة الله على باغضيه ومنكري فضله وحاسديه.

هذا مختصر جمعت لإخواني فيه من الكلام في إسلام أمير المؤمنين (ص) ما يجب الإنتهاء إليه، والإعتماد في المسألة عليه.

فصل: يجب أن يقدم القول بأن أمير المؤمين (ص) أسلم

اعلموا- أيدكم الله- أن المخالفين لشدة عداوتهم لأمير المؤمنين ألقوا شبهةً مَوَّهُوا بها على المستضعفين، وجعلوا لها طريقاً، يسلكها من يروم نفي الإسلام عن أمير المؤمنين (ص).

وذلك أنهم قالوا: إنما يصح الإسلام ممن كان كافراً، فأما من لم يك قط ذا كفر ولا ضلال، فلا يجوز أن يقال أنه أسلم، وإذا كان علي بن أبي طالب (ع) لم يكفر قط، فلا يصح القول بأنه أسلم.

وهذا ملعنة من النصاب لا تخفي على أولي الألباب، يتشبثون بها إلى القدح في أمير المؤمنين (ع)، والراحة من أن يسمعوا القول بأنه أسلم قبل سائر الناس.

وقد تعدتهم هذه الشبهة، فصارت في مستضعفي الشيعة، ومن لا خبرة له

بالنظر والأدلة، حتى إني رأيت جماعةً منهم يقولون هذه المقال، ويستعظمون القول بأن أمير المؤمنين (ع) أسلم أتم استعظام.

وقد نبهتهم على أن هذه الشبهة مدسوسة عليهم، وأن أعداءهم ألقوها بينهم، فمنهم من قبل ما أقول، ومنهم من أصر على ما يقول.

وقد كنت اجتمعت بأحد الناصرين لهذه الشبهة من الشيعة، فقلت له: أتقول إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) مسلم؟

فقال: لا يسعني غير ذلك.

فقلت له: أفتقول أنه يكون مسلماً من لم يسلم؟ فقال: إن قلت بأنه أسلم، لزمني الإقرار بأنه قبل إسلامه لم يكن مسلماً.

ولكني أقول: إنه ولد مسلماً مؤمناً، فقلت: هذا كقولك إنه ولد حياً قادراً، وهو يؤديك إلى أن الله تعالى خلق فيه الإسلام والإيمان، كما خلق فيه القدرة والحياة، ويدخل بك في مذهب أهل الجبر، ويبطل عليك القول بفضيلة أمير المؤمنين (ع) في الإسلام، وما يستحق عليه من الأجر.

فأختر لنفسك: أما القول بأن إسلامه وإيمانه فعل الله سبحانه، وأنه ولد مسلماً ومؤمناً، وإن ساقك إلى ما ذكرناه.[1]

وإما القول بأن الله تعالى أوجده حياً قادراً ثم آتاه عقلاً، وكلفه بعد هذا، فأطاع، وفعل ما أمر به مما يستحق جزيل الأجر على فعله، فإسلامه وإيمانه من أفعاله الواقعة بحسب قصده وإيثاره، وإن أدّاك في وجوده قبل فعله إلى ما وصفناه.

فحيّره هذا الكلام، ولم يجد فيه حيلةً من جواب.

ومما يجب أن يكلم به في هذه المسألة أهل الخلاف، أن يقال لهم:

لمَا زعمتم أنه لم يسلم إلا من كان كافراً؟

---

(١) وهو عدم استحقاقه (ع) الأجر على إسلامه لأنه مجبور عليه من فعل الله.

فإن قالوا: لأن من صح منه وقوع الإسلام فهو قبله عارٍ منه، وإذا عري منه كان على ضده، وضده الكفر.[1]

قيل لهم: لمَ زعمتم أنه إذا عري منه كان على ضده؟ وما أنكرتم من أن يخلو منهما، فلا يكون على أحدهما؟

فإن قالوا: إن ترك الدخول في الإسلام هو ضده، لأنه لا يصح اجتماع الترك والدخول، فمتى كان تاركاً كان كافراً، لأن معه الضد.

قيل لهم: إنما يلزم ما ذكرتم، متى وجدت شريعة الإسلام، ولزم العمل بها، وعلم العبد وجوبها عليه بعد وجودها.

فأما إذا لم يكن نزل به الوحي، ولا لزم المكلف منها أمر ولا نهي، فالزامكم الكفر جهل وغي.

فإن قالوا: قد سمعناكم تقولون: إن الوحي لما نزل على النبي (ص) بتبليغ الإسلام دعا إليه أمير المؤمنين (ع) فلم يجبه عند الدعاء، وقال له: أجلني الليلة، وتعتدون هذا له فضيلة، وفيه أنه قد ترك الدخول في الإسلام بعد وجوده.

قلنا: هو كذلك، لكنه قبل علمه بوجوبه، وهذه المدة التي سأل فيها الإنظار هي زمان مهلة النظر، التي أباحها الله تعالى للمستدل، ولو مات قبل اعتقاد الحق لم يكن على غلط، وهكذا رأيناكم تفسرون قول إبراهيم (ع) لما (رأى كوكباً قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أُحب الآفلين) الإنعام: ٧٦ إلى تمام قصته (ع).

---

(١) هذه الدعوى مبنية على القول بأن التقابل بين الإيمان والكفر تقابل نقيضين أو السلب والإيجاب، أو تقابل ضدين لا ثالث لهما.

أما إذا كان التقابل بينهما تقابل عدم وملكة، أو تقابل ضدين لهما ثالث فلا تصح هذه الدعوى. ويبدو أن طبيعة الجواب مبنية على أن التقابل بينهما تقابل ضدين لهما ثالث، الذي لا يلزم من نفي أحدهما إثبات الآخر.

وقوله: (إنني بريءٌ مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين). الأنعام: ٧٨- ٧٩ .

وتقولون: إن هذا منه كان استدلالاً، وهي في زمان مهلة النظر التي وقع عقيبها العلم بالحق.

فإن قالوا: فما تقولون في أمير المؤمنين (ع) قبل الإسلام؟، وهل كان على شيء من الاعتقادات؟

قيل لهم: الذي نقول فيه أنه كان في صغره عاقلاً مميزاً، وكان في الاعتقاد على مثل ما كان عليه رسول الله (ص) قبل الإسلام، من استعماله عقله، والمعرفة بالله تعالى وحده، وإن ذلك حصل من تنبيه الرسول (ص)، وتحريك خاطره إليه، وحصل للرسول من ألطاف الله تعالى، التي حركت خواطره إلى الإسلام والاعتبار، ولم يكن منهما من سجد لوثنٍ، ولا دان بشرع متقدم.

فأما الأمور الشرعية فلم تكن حاصلةً لهما، فلما بُعث رسول الله (ص) لزم أمير المؤمنين (ع) الإقرار به، والتصديق له، وأخذ الشرع منه.

وإنما قال له: أجلني الليلة ليعتبر فيقع له العلم واليقين مع اعتقاد التصديق لرسول رب العالمين، فلما ثبت له ذلك أَقَرَّ بالشهادتين، مجدداً للإقرار بالله سبحانه، وشاهداً ببعثة رسول الله (ص).

فإن قالوا: فأنتم إذاً تقولون إن رسول الله (ص) أسلم؟ وهذا أعظم من الأولى.

قيل لهم: إن العظيم في العقول هو الإنصراف من هذا القول، فإن لم تفهموا فيه حجة العقل فما تصنعون في دليل السمع، وقد قال الله عز وجل لنبيه (ع):

(قل إنني أمرت أن أكون أول من أسلم، ولا تكونن من المشركين) الأنعام: ١٤ .

وقوله سبحانه:

(قل إن هدى هو الهدى، وأُمرنا لنسلم لرب العالمين). الانعام: ٧١

وقوله: (فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعني، وقل للذين أُوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) آل عمران: ٢٠

ونظير ذلك كثير في القرآن، فكيف يصح هذا الإسلام من الرسول ولم يكن قط كافراً، وهل بعد هذا البيان شك يعترض عاقلاً؟؟

ثم يقال لهم: إذا كان لا يسلم إلا من كان كافراً، فما تقولون في إسلام إبراهيم الخليل (ص)، ولم يكن قط كافراً، ولا عبد وثناً، حيث قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب، يا بنيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون. البقرة: ١٣٠ - ١٣١

فقد تبين لكم - أيها الإخوان ثبتكم الله على الإيمان - ما تضمنه هذا الفصل من البيان عن صحة إسلام أمير المؤمنين (ع).

وأنا أتكلم بعد هذا على الذين قالوا إنه (ص) قد أسلم، ولكن لم يكن السابق الأول، وزعمهم أن المتقدم على جميع الناس أبو بكر.

فصل: من البيان عن أن أمير المؤمنين (ع) أول بشرٍ سبق إلى الإسلام بعد خديجة عليها السلام.

أعلموا أن أهل النصب والخلاف قد حملتهم العصبية والعناد على أن ادعوا تقدم إسلام أبي بكر على سائر الناس، وإذا هم عرجوا عن طريق المكابرة، واطلعوا في السير الطاهرة، والأخبار المتواترة، والآثار المتظافرة، والأشعار السائرة وأقوال أمير المؤمنين (ع) الظاهرة، وجدوا جميع ذلك ناطقاً بخلاف ما يزعمون، شاهداً بكذبهم فيما يدعون، قاضياً بأن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) أول ذكرٍ آمن برسول الله (ص)، وسبق إلى الإسلام، وأنه لم يتقدمه بشر من الأمة بأسرها غير خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

وقد روي: أن رسول الله (ص) بُعث يوم الاثنين، وفيه أسلمت خديجة، وإن أمير المؤمنين (ع) أسلم يوم الثلاثاء.

وروى أصحاب الحديث عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: كان علي (ع) يألف النبي (ص)، فأتاه، فوجده وخديجة يصليان، قال ابن عباس: وعلي يومئذٍ ابن عشر حجج، فقال لرسول الله (ص): ما هذا؟ قال: يا علي، هذا دين الله الذي ارتضاه لنفسه، وبعث به رسله، أدعو إلى الله وحده لا شريك له، فقال علي (ع): هذا شيء لم أسمع به. قال: صدقت يا علي.

فمكث علي تلك الليلة مفكراً، فلما أصبح أتى النبي (ص)، فقال له: لم أزل البارحة أفكر فيما قلت لي، فعرفت الحق والصدق في قولك، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنك رسول الله.

وأخبرني شيخنا المفيد أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان رضي الله عنه إجازةً، قال: أخبرني أبو الجيش المظفر بن محمد البلخي[1]، قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي الثلج[2]، قال: حدثني أبو الحسن أحمد بن بن القاسم البرقي، قال: حدثني أسد بن عبيدة، عن يحيى بن عفيف، عن أبيه قال:

كنت جالساً مع العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه بمكة قبل ظهور أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فجاء شاب، فنظر في السماء حين تحلقت الشمس، ثم استقبل الكعبة، فقام يصلي، ثم جاء غلام فقام عن يمينه، ثم جاءت أمرأة فقامت خلفهما، فركع الشاب فركع الغلام والمرأة، ثم رفع الشاب فرفعا، ثم سجد الشاب فسجدا، فقلت: يا عباس، أمر عظيم، فقال العباس: أمر عظيم، أتدري من هذا الشاب؟ هذا محمد بن عبدالله بن بن عبد المطلب، ابن أخي، أتدري من هذا الغلام؟ هذا علي بن أبي طالب ابن أخي، أتدري من هذه المرأة؟ هذه خديجة ابنة خويلد. إن ابن أخي هذا حدثني ان ربه رب

---

(١) من تلاميذ أبي سهل اسماعيل بن علي النوبختي كان عارفاً بالاخبار متكلماً توفي سنة ٣٦٧هـ وهو استاذ الشيخ المفيد، وله كتاب فعلت فلا تلم. وكتاب نقض العثمانية على الجاحظ وكتاب في الإمامة ووصفه ابن النديم بأنه كان شاعراً مجوداً في أهل البيت (ع) متكلماً بارعاً.

(٢) في الأصل البلخ.

السموات والأرض أمره بهذا الدين الذي هو عليه، ولا والله ما على ظهر الأرض على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.[1].

وحدثني الشيخ الفقيه أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي بن شاذان (رضي) بمكة في المسجد الحرام، قال: حدثني أحمد بن محمد بن عمران، قال: حدثنا الحسن بن محمد العلوي، قال: حدثنا ابراهيم بن عبدالله، قال: حدثنا عبد الرزاق، قال: حدثنا: معمر بن يحيى بن أبي كثير، عن أبيه، قال: أخبرني أبو هريرة العبدي، قال: حدثني جابر بن عبدالله، قال: قال رسول الله (ص):

«علي بن أبي طالب أقدم أمتي سلماً، وأكثرهم علماً، وأصحهم ديناً، وأكثرهم يقيناً، وأكملهم حلماً، وأسمحهم كفا، وأشجعهم قلباً، وهو الإمام والخليفة بعدي».[1]

وجاء في الحديث عن أبي ذر رحمه الله أنه قال: سمعت رسول الله (ص) يقول:

علي أول من آمن بي وصدقني.[2].

وعن أنس بن مالك أنه قال: قال النبي (ص).

إن أول هذه الأمة وروداً عَلَيَّ أولها إسلاماً، وإن علي بن أبي طالب أولها إسلاماً، فقال له سلمان (رض): قبل أبي بكر وعمره؟ فقال: قبل أبي بكر وعمر.

وعن أنس بن مالك أيضاً أنه قال: بعث النبي (ص) يوم الإثنين، وأسلمت خديجة في آخر ذلك اليوم، وأسلم علي (ع) يوم الثلثاء.[3]

---

(١) رواه أبو جعفر الأسكافي المعتزلي في نقضه على كتاب العثمانية للجاحظ أنظر: رسائل الجاحظ ص١٨- ١٩ جمع ونشر حسن السندوبي.

(٢) رواه في الرياض النضرة ج ٢ ص ١٥٧، أنظر: فضائل الخمسة ج (١) ص ١٨٨، وأنظر: نقض العثمانية للاسكافي ص ١٧.

(٣) رواه الإسكافي عن جابر وأنس وأبي رافع أنظر رسائل الجاحظ ص٢٠.

وعن أبي ذر وسلمان جميعاً قالا:

أخذ رسول الله (ص) بيد علي (ع) فقال:

ألا إن هذا أول من آمن بي، وهذا أول من يصافحني يوم القيامة، وهذا الصديق الأكبر، وهذا فاروق هذه الأمة، يفرق بين الحق والباطل، وهذا يعسوب الدين، والمال يعسوب الظالمين.[1]

وعن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله (ص) لفاطمة (ع):

أما ترضين يا فاطمة أني زوجتك أقدمهم سلماً، وأكثرهم علماً، وأفضلهم حلماً.[2]

وفي رواية أخرى:

زوجتك أقدم المسلمين سلماً، وأكثرهم علماً، وأفضلهم حلماً.[3]

وعن عكرمة عن ابن عباس قال:

كان لعلي بن أبي طالب أربع مناقب، لم يسبقه إليها عربي.

كان أول من صلى مع رسول الله (ص).

وكان صاحب رأيته في كل زحف، وانهزم الناس يوم المهراس وثبت.

وغسله وأدخله قبره.[4] والأخبار في هذا المعنى كثيرة.

فأما المحفوظ من كلام أمير المؤمنين (ع) في ذلك واحتجاجه به في جملة ما له من المناقب.

فمنه، ما حدثني به القاضي أبو الحسن أسد بن إبراهيم السلمي الحراني رحمه الله قال: حدثني الخطيب العتكي أبو حفص عمر بن علي، قال: أخبرنا

---

(١) روي في الإصابة ج٧ قسم١ ص١٤٧، وفي فيض القدير ج٤ ص٣٥٨ أنظر: فضائل الخمسة ج١ ص١٨٩.

(٢) رواه الإسكافي في نقض العثمانية ص١٩ من رسائل الجاحظ.

(٣) المصدر نفسه

(٤) أنظر: الإرشاد ص١٧.

أبو بكر محمد بن إبراهيم البغدادي، ويعرف ذوران، قال: حدثنا الحضرمي ويعرف بمطنّي، قال: حدثنا سعد بن وحب بن شيبان وعبد الرحمن بن جبلة، قالا: حدثنا نوح بن قيس الطلاحي، عن سليمان بن غالب، عن معادة بنت عبد الرحمن العدوية، قالت: سمعت علياً (ع) على منبر البصرة وهو يقول:

أنا الصديق الأكبر، وأنا الفاروق بين الحق والباطل، أسلمت قبل أن يسلم أبو بكر، وآمنت قبل أن يؤمن.[1]

وجاء عنه (ع) أنه قال:

«اللهم، لا أعرف أحداً من هذه الأُمة عبدك قبلي غير نبيها»

وجرى بينه وبين عثمان كلام، فقال له عثمان: وعمر خير منك، فقال له: كذبت، بل أنا خير منك ومنهما، عبدت الله قبلهما وبعدهما.

وقد تضمن ذكر تقدم إيمانه كثير من أشعاره الواردة في أخباره.

حدثني القاضي السلمي، قال أخبرني الخطيب العتكي، قال حدثني أبو العباس أحمد بن يحيى الفتات، قال: حدثنا أبو بكر محمد بن يعقوب الدينوري، قال: حدثنا محمد بن عبد البلوي الأنصاري، قال: حدثنا عمارة بن زيد، قال: حدثنا بكير بن حارثة عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب، عن مالك، عن جابر بن عبدالله، قال: سمعت علياً (ع) ينشد ورسول الله (ص) يسمع:

أنـــا أخو المصطفـــى لا شك في نسبي
مَعْـــهُ ربيـــت وسبطـــاه هما ولـــدي

جـــدي وجـــد رسول الله منفرد
وفاطم زوجـــتي لا قول ذي فنـــد

صدقتـــه وجميـــع النـــاس في بهم
من الضلالـــة والإشراك ذي النكـــد

فالحمـــد لله حمداً لا شريـــك لـــه
الـــبَر بالعبـــد والباقي بـــلا أمـــد

(١) المصدر ص ٢٠ باختلاف بالزيادة والنقصان.

قال: وتبسم رسول الله (ص) وقال: صدقت يا علي.

ومنه احتجاجه (ع) على معاوية في جواب كتابه من الشام إليه، وقد رام معاوية إلاقتخار فيه، فقال أمير المؤمنين (ع): يفتخر ابن آكلة الأكباد:

ثم قال عبيد الله بن أبي رافع[1]: أكتب:

محمد النبي أخي وصهري	وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يضحي ويمسي	يطير مع الملائك ابن أمي
وبنت محمدٍ سلني وعرسي	مناطٌ لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمدٍ ابناي منها	فأيكُمُ لــه سهم كسهمي
سبقتكم إلى الإسلام طراً	غلاماً ما بلغت أوان حلمي
وأوجب لي الولاء معاً عليكم	خليلي يوم دوح غدير خم[2]

فكان (ص) يحتج بتقدم إسلامه على الكافة، ويفتخر به في جملة مناقبه على الأمة، ويذكره بحضرة رسول الله (ص)، دفعةً بعد دفعة، وبعد رسول الله (ص) بين الصحابة، فما أنكر ذلك قط عليه الرسول (ص)، وكيف ينكره عليه وهو الشاهد له بذلك، ولا قال له أحد من الناس لا تحتج بهذا الكلام، فإن أبا بكر هو الذي أسلم قبل جميع الأنام، بل يذعن لقوله (ع) الناس، ويعلمون صدقه من غير اختلاف، ويقولون فيه كما قد قال (ع).

فمن ذلك قول سفيان بن الحرث بن عبد المطلب:

---

(١) هو من خواص علي (ع) وكاتبه، له كتاب قضايا أمير المؤمنين (ع) وكتاب تسمية من شهد معه (ع) الجمل وصفين والنهروان من الصحابة، وأورده ابن حجر في التقريب وقال: كاتب علي (ع) وهو ثقة من الثالثة أي أنه مات بعد المائة.

(٢) روى هذه الأبيات المفيد في الفصول المختارة ج٢ ص٧٠ وزاد بيتاً في آخرها وهو:

فويــل ثم ويــل ثم ويــل لمن يلقــى الآلــه غــداً بظلمي

مـا كنـت أحسب أن الأمر منتقـل
عن هاشم ثم منهـــا عن أبي حسن
أليس أول من صَـــــلَّى لقبلتهم
وأعرف النـــاس بالآثـــار والسنن
من فيــه مـا فيهمُ من كـل صالحةٍ
وليس في القوم ما فيه من الحسن[1]

وجرير بن عبدالله البجلي يقول فيه مثل ذلك أيضاً، وقيس بن سعد بن عبادة له فيه أقوال كثيرة، وغيرهم ممن شهد رسول الله (ص) وسمع منه الأخبار بتقديم إسلامه، والحال أشهر عند أهل العلم من أن يستتر، وأظهر بين أهل النقل من أن يكتم.

غير أن الناصبة قد غلبها الهوى على التقوى، فآثرت الضلال على الهدى.

وقد احتج النصاب في تقديم إسلام أبي بكر بقول حسان:

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقـــةٍ
فأذكر أخـاك أبـا بكر بـا فعـلا
خـــير البريـــة اتقاهـــا وأعدلهـا
بعـــد النـــبي وأوفاهـــا بـا حملا
الصاحـــب التـــالي المحمود مشهـده
وأول النـــاس منهم صـدق الرسلا[1]

(١) تجد هذه الأبيات في كتاب سليم بن قيس ص١٦ منسوبة للعباس وتجدها في كتاب الجمل للمفيد ص٤٣ منسوبة لعبدالله بن أبي سفيان بن الحرث بن عبد المطلب مع زيادة بيتين، وفي تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٠٣ ط النجف منسوبة لعتبة بن أبي لهب.

(٢) تجد البيت الأول والثالث في كتاب العثمانية ص ٢ من رسائل الجاحظ.

واحتجاجهم بقول حسان يدل على عمى القلوب وصدأ الألباب[1]، أو على تعمد التلبيس على ضعفاء الناس، وإلا فلو اعتمدوا الأنصاف علموا أن حسان بن ثابت هو الذي تضمن شعره الإقرار لأمير المؤمنين (ع) بالأمامة والرئاسة على الأنام لما مدحه بذلك يوم الغدير بحضرة رسول الله (ص) على رؤوس الأشهاد بعد أن استأذن الرسول (ص) فأذن له فقال:

يناديهم يوم الغدير نبيهم
بخم واسمع بالرسول مناديا

يقول فمن مولاكم ونبيكم[2]
فقالوا ولم يبدو هناك التعاميا

آلهك مولانا وأنت نبينا
ولن تجدن منا لك اليوم عاصيا

فقال له: قم يا علي فإنني
رضيتك من بعدي إماماً وهادياً

فمن كنت مولاه فهذا وليه
فكونوا له أنصار صدق مواليا

هناك دعا اللهم وال وليه
وكن للذي عادى علياً معادياً[3]

فصوبه النبي (ص) في هذا المقال، وقال له: لا تزال يا حسان مؤيداً ما نصرتنا بلسانك)

فكيف سمعت الناصبة تلك الأبيات التي رويت لها من قول حسان؟ ولم تسمع عنه هذه الأبيات التي قد سارت بها الركبان بل كيف تثبت لها بما ذكرته

(١) في النسخة صدى.
(٢) في المسترشد للطبري ص٩٦ (ووليكم) بدل نبيكم.
(٣) ذكر الأبيات الأربعة الأولى منها الطبري في المسترشد ص ٩٦. وانظر: أعلام الورى ص ١٤٠ فقد ذكر الأبيات كلها.

من شعره أن أبا بكر سبق الناس إلى الإسلام؟ ولم تثبت بما ذكرناه من شعره أيضاً أن أمير المؤمنين (ع) لجميع الناس إمام؟ وكيف احتججت ببعض قوله؟ وصدقه فيه؟ ولم ترَ الاحتجاج بالبعض الآخر وكذبته فيه؟

أوليس إذا قالت أنه كذب فيما قاله في علي (ع) في هذه الأبيات؟ أمكن أن يقال: لها بل كذب فيما حكيتموه عنه من تلك الأبيات.

وإن قالت إن حساناً شاعر النبي (ص) ولسنا نكذبه، لكن نقول إنه كذب عليه في الشعر الذي رويتموه.

قيل لها: فإن قال لكم قائل مثل هذا الكلام، وأنه كذب عليه في الشعر الذي ذكرتموه ما يكون الإنفصال؟

وأعلم أنا لم نقل ذلك إلا لنعلمهم، لأنه لا حجة في أيديهم، وانه لا فرق بين قولهم وقول من قلبه عليهم.

ولسنا ننفي عن حسان الكذب، ولا رأينا فيه بحسن، وذلك أنه فارق الإيمان، وانحاز إلى جملة أعداء أمير المؤمنين (ع) وحصل من عصبة عثمان، فهو عندنا من أهل الضلال.

فإن قال قائل: كيف تجيزون ذلك عليه بعدما مدحه به الرسول (ص) في يوم غدير خمٍ وأثنى عليه؟

قلنا: إن مدحه وثناءه عليه كان مشروطاً ولم يكن مطلقاً.

وذلك أنه قال: ما تزال مؤيداً ما نصرتنا بلسانك، وهذا يدل على أنه متى انصرف عن النصر، زال عنه التأييد واستحقاق المدحة. وقد انصرف عنها بطعونه على أمير المؤمنين (ع)، وانصبابه في شعب عدوه، وقعوده في جملة من قعد عن نصرته في حرب البصرة.

ويشبه ما قال فيه النبي (ع) قول الله تعالى في ذكر أزواج نبيه ونسائه:

(يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن) الأحزاب: ٣٢

فعلق ذلك بشرط وجود التقوى، فإذا عدمت كنّ كمن سواهن، بل كنَّ أسوأ حالاً من غيرهن.

وأعلم- أيدك الله تعالى- أنه قد روى المخالفون عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: لما أسلم أبي جاء إلى منزله، فما قام حتى أسلمنا وأسلمت عائشة وهي صغيرة.

وروايتهم هذه دليل على تأخر إسلامه، وذلك أن مولد عائشة معروف، وزمانها معلوم، ولدت بعد البعثة بخمس سنين، وكان لها وقت الهجرة ثماني سنين، وتزوجها رسول الله (ص) بعد الهجرة بسنةٍ، ولها يومئيذٍ تسع سنين، وأقامت معه تسعاً، وكان لها يوم قبض (ع) ثماني عشرة سنة.

فإذا كانت يوم إسلام أبيها صغيرة، فأقل ما يكون عمرها في ذلك الوقت سنتان وهذا يدل على أنّ أباها أسلم بعد البعثة بسبع سنين، فهو مقدار الزمان الذي أتت الأخبار بأن أمير المؤمنين (ع) كان يصلي فيه مع رسول الله (ص)، والناس في بهم الضلال.

وسنذكر طرفاً مما ورد في ذلك من الأخبار، فإذا كان الناس سوى أمير المؤمنين إنما أجابوا إلى الإسلام بعد سبع سنين من مبعث النبي، فليس يستحيل أن يكون أبو بكر أحد المستجيبين في هذه السنة، وليس ذلك بموجب أن يكون أولهم، لأنه قد تناصرت الأخبار بتقديم إسلام جعفر بن أبي طالب عليه، بل على غيره من الناس سوى أمير المؤمنين (ع).

حدثني القاضي أبو الحسن محمد بن علي بن محمد بن صخر الأزدي قال حدثنا عمر بن محمد بن سيف بالبصرة سنة سبع وخمسين وثلاثماية، قال حدثنا محمد بن أحمد بن سليمان، قال حدثنا محمد بن صفر بن صلصال بن الدلهمس بن جهل بن جندل، قال حدثني أبو ضو بن صلصال بن الدلهمي قال: كنت أنصر النبي (ص) مع أبي طالب قبل إسلامي، فإني يوماً لجالس بالقرب من منزل أبي طالب في شدة القيـــظ، إذ خرج أبو طالب إلي شبيهاً بالملهوف، فقال لي: يا أبا الغنصقر، هل رأيت هذين الغلامين يعني النبي (ص) وعلياً (ع)، فقلت ما

رأيتها مذ جلست، فقال: قم بنا في الطلب، فلست آمن قريشاً أن تكون اغتالتها.

قال فمضينا حتى خرجنا من أبيات مكة، ثم صرنا إلى جبلٍ من جبالها، فاسترخينا إلى قلة، فإذا النبي (ص) وعلي (ع) عن يمينه، وهما قائمان بأزا، عين الشمس يركعان ويسجدان، قال: فقال أبو طالب لجعفر ابنه: صل جناح ابن عمك، فقال إلى جنب علي، فأحس بها النبي (ص)، فتقدمها وأقبلوا على أمرهم حتى فرغوا مما كانوا فيه، ثم أقبلوا نحونا، فرأيت السرور يتردد في وجه أبي طالب ثم انبعث يقول:

إن علياً وجعفراً ثقتي   عند مهم الأمور والكرب
لا تخذلا وانصرا ابن عمكما   أخي لأمي من بينهم وأبي
والله لا يخذل النبي ولا   يخذله من بنيّ ذو حسب[1]

وقد أتت الأخبار بأن زيد بن حارثة تقدم أبا بكر في الإسلام.

بل روي أن أبا بكر لم يسلم حتى أسلم قبله جماعة من الناس.

وروى سالم بن أبي الجعد عن محمد بن سعد بن أبي وقاص: انه قال لأبيه: كان أبو بكر أولكم إسلاماً؟ قال: لا قد أسلم قبله أكثر من خمسين رجلاً.

وأما الأخبار الواردة بأن أمير المؤمنين (ع) صلى مع رسول الله (ص) سبع سنين، والناس كلهم كانوا ضالين.

فمنها ما أخبرني به شيخنا المفيد أبو عبدالله (رض) قال: أخبرني أبو حفص عمر بن محمد الصيرفي قال: حدثنا محمد بن أبي التلج، عن أحمد بن القاسم البرقي، عن أبي صالح سهل بن صالح- وكان قد جاوزماية سنة- قال سمعت أبا المعمر عباد بن عبد الصمد، قال سمعت أنس بن مالك يقول: قال رسول الله (ص): صلت الملائكة عليّ وعلى علي (ع) سبع سنين، وذلك أنه لم يرفع إلى السماء شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله (ص) الا مني ومن علي (ع).

---

(١) أنظر: العذير ج٧ ص٣٥٦ نقله عن ديوان أبي طالب ص٣٦ وعن كتاب الأوائل للعسكري.

ومنه ما روي عن أبي أيوب أنه قال: إن رسول الله (ص) قال: لقد صلت الملائكة عليّ وعلي عليٍ سبع سنين، لأنا كنا نصلي ليس معنا أحد غيرنا.

وما رواه أبو هريرة قال قال رسول الله (ص): ان الملائكة صلت عليّ وعلى عليٍ سبع سنين قبل أن يسلم بشر.

وما رواه عباد بن يزيد قال سمعت علياً (ع) يقول:

لقد صليت مع رسول الله (ص) سبع حجج ما يصلي معه غيري إلا خديجة بنت خويلد، ولقد رأيتني أدخل معه الوادي، فلا نمر بحجر ولا شجر إلا قال السلام عليك يا رسول الله، وأنا أسمعه.

وما روى (ع) من قوله:

أنا عبد الله، وأنا أخو رسول الله (ص) وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي الا كذاب مفترٍ صليت قبلهم سبع سنين.

وما رواه أبو رافع قال قال (ص) بعثت أول يوم الأثنين، وصلت خديجة آخر يوم الاثنين، وصلى علي يوم الثلاثاء من الغداة مستخفياً قبل أن يصلي مع النبي (ص) أحد سبع سنين.

(فصل في أن إسلامه (ع) كان عن بصيرةٍ وإستدلال)

اعلم أنه لما توجهت الحجة على المخالفين بتقدم إسلام أمير المؤمنين (ع) على سائر المكلفين، قالوا: وما الفضيلة في إسلام طفلٍ لم يلحق بدرجة العقلاء البالغين؟ وأي تكليفٍ يتعين عليه يستحق بفعله الأجر من رب العالمين؟ وهل كان إلقاء الإسلام إليه إلا على سبيل التوقيف والتلقين الذي يفعله أحدنا مع ولده لينشأ عليه، ويصير له من الآلفين؟

وخطأ هؤلاء القوم لا يخفى للمتأملين، وضلالهم عن الحق واضح للمنصفين.

وذلك أن الحال التي كان عليها رسول الله (ص) في إبتداء أمره من كتمان ما هو عليه وستره، وصلاته مختفياً في شعاب مكة، للمخافة التي كان فيه

والتقية، منتظراً لأذن الله تعالى في الاعلان والاظهار، فيبدي حينئذٍ أمره على تدريج، يأمن معه المضار، يقضي إلى أن يلقي ذلك إلى الأطفال والصبيان الذين لا عقول لهم، يصح معها الكتمان، والذين من عادتهم الاخبار بما علموه والاعلان.

فإذا علمنا وهذه صورة الحال، أن النبي (ص) قد خص في ابتدائها بالوقوف على سر أحد الأطفال، تحققنا أن ذلك الطفل مميز، بصحة الفعل والكمال.

وليس يستحيل حصول العقل والتمييز لابن عشر سنين، ولا تجويزه ذلك في الأمور المستبعدة عند العارفين.

والمنكر لذلك إنما يعول على الغالب في المشاهدات. والعقل لا يمنع من وجود ما ذكرناه في نادر الأوقات، بل لا يمنع من أن يجعل الله تعالى ذلك آية يخرق بها العادات.

وقد أخبر الله سبحانه عن نبييّن من أنبيائه (ع) بما هو أعجب من هذا، وهما عيسى ويحيى.

فقال حاكياً كلام عيسى (ع) للناس في المهد:

(إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبياً)

وقال في يحيى:

(يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً)

فإن قال الخصوم: (إن هذين نبيان يصح أن يكون لهما الآيات المعجزات).

قلنا: فما المانع من يكمل الله تعالى عقل طفلٍ في زمن نبينا (ع) ويمنحه صحة التمييز والاستدلال، ويخصه بالتكليف دون جميع الأطفال، ويكون ذلك آيةً لنبيه (ص)، وكرامة له في أخص الناس به.

ولوجهٍ آخر من الصلاح يختص بعلمه، وليكون مع هذا كله إبانةً لوليه الذي هو حجته ووصي نبيه (ص). فما المحيل لما ذكرناه، والمانع من كونه كذلك؟

أوليس قد روي أن الشاهد الذي شهد من أهلها في قميص يوسف (ع) كان طفلاً في المهد، له سنتان، وليس بنبي،

وبعد فقد أوجدكم[1] الله تعالى عيانا من أحد أئمتنا (ع) ما هو أكثر مما أنكرتموه من هذه الحال.

وهو أبو جعفر محمد بن علي بن موسى (ع)[2] وشهادة المأمون لما عزم على تقريبه ومصاهرته، وهو ابن تسع سنين، بالعقل والعلم والكمال[3]، واتفاقهم معه على أن يعقدوا له مجلساً للامتحان، وسؤالهم يحيى بن أكثم القاضي في أن يتولى لهم ذلك، وبذلهم له الأموال، وما جرى له من عجيب الكمال في السؤال والجواب، حتى عجز يحيى، ووقف في[4] يديه، وأذعن بالإستفادة منه، والرجوع إليه فيما لا يعلمه.

وهذا أمر قد شاركتمونا في نقله، واتفق أصحاب الحديث[5] على حمله.

ولسنا نشك في أن هذا العلم والفضل لم يحصل لأبي جعفر (ع) إلا من أحد وجهين[6].

إما الإلهام، فهو إذاً معجز بان[7] به من الأنام.

---

(١) المرجح ان ضمير الجماعة المخاطبة وهو (كم) زائد.
(٢) هو الإمام التاسع أبو جعفر محمد بن علي الملقب بالجواد ولد سنة١٩٥هـ وتوفي سنة ٢٢٠هـ
(٣) في النسخة أيضاً الكلام.
(٤) هكذا ورد في النسخة ولعل الصواب (بين).
(٥) في النسخة الحديثين.
(٦) في النسخة (لاحد) أيضاً.
(٧) بان أي انفصل وغاير.

وإما عن تلقين وتعليم، وكـان عمره وقت تلقينه ذلك، وهو في وقت للناظرة ابن تسع سنين، وقيل ثماني سنين.

أو ليس هذا أعجوبة قد نقلتموها وأقررتم بها، وسألتموها؟.

فأخبرونا كيف أقررتم لولد أمير المؤمنين (ع) في زمن المأمون بكمال العقل والعلم وحسن المعرفة والفهم، وهو ابن تسع سنين؟ وأنكرتم أن يصح لأمير المؤمنين صلوات الله عليه في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله كمال العقل والتكليف وله عشر سنين؟

فإن قالوا: نحن لا نعترف لأبي جعفر (ع) بهذا، كانت السير قاضية بيننا وبينهم، شاهدة للمحق[1] منا.

ثم يقال لهم: إن لم يكن الأمر كما ذكرناه من كمال عقل أمير المؤمنين (ع) وقت دعاء النبي (ص) له إلى الإسلام، وهو في حال سر وكتمان وخوف من الشرك والضلال، أليس يكون قد غرر بنفسه فيما ألقاه إليه، وفعل ما يشهد العقل بقبحه، وخطأ المقدم عليه حاشا الرسول (ص) مما ينسبونه إليه.

والذي ذكرناه في أمير المؤمنين (ع) أوضح من أن يشتبه الأمر فيه.

أليس هو القائل لرسول الله (ص): انني لم أزل البارحة مفكراً فيما قلت لي، فعرفت الحق والصدق في قولك، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنك رسول الله.

فوقع منه الإقرار بالشهادة بعد فكر ليلة كاملة.

فكيف تصح من طفلِ- كما زعمتم- غير عاقل أن يفكر في صحة النبوة ليلةً كاملة، حتى حصل له العلم بصدق المخبر بها بعد طول الروية؟

وهل بعد هذا لبسٌ يعترض عاقلاً هجر العصبية.

وقد روي أعجب منه عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال إن النبي (ص)

---

(١) في النسخة للحق أيضاً.

عرض علي علي (ع) الإسلام، فقال له علي (ع): أنظرني الليلة، فقال له النبي (ص): هي أمانة في عنقك، لا تخبر بها أحداً.

فلينظر الغافلون إلى هذا الكلام الواقع منهما عليهما السلام، وسؤال أمير المؤمنين (ع) له في التأجيل والإنظار.

هذا وهو الذي كفله ورباه، ولم يزل طائعاً له في جميع ما يأمره ويراه. فلما أتاه الأمر رأى أن الإقدام على الإقرار به من غير علم ويقين قبيح، سأله التأجيل.

ثم قول النبي (ص) له. إنها أمانة في عنقك لا تخبر بها أحداً، مما تشهد العقول بأسرها أنه لا يقال إلا لمميزٍ يكون عقله كاملاً.

ويزيد هذه الحال أيضاً بياناً، أنه لما أسلم (ع) كان يخرج مع رسول الله (ص) إلى شعاب مكة، فمرة يصلي معه، ومرة أخرى يرصد له.

حتى روي أن كل واحدٍ منهما كان إذا صلى صاحبه، حرسه ووقف يرصد له.

فهل يصح أن يختص بهذا الأمر من لا عقل له؟ لا: ولكن قد يخفى صحته عمن لا عقل له.

والعجب أن مخالفينا يدفعون أن يكون إسلام أمير المؤمنين (ع) وهو ابن عشر سنين، له فضيلة. ورسول الله (ص) لم يدفع ذلك، بل كان يعده له من أول الفضائل، ويخبر به إذا مدحه وأثنى عليه في المحافل.

والعجب أنهم ينكرون علينا الإحتجاج بتقدم إسلامه، وهو (ص) كان يحتج بذلك بين الصحابة، ولا ينكره أحد عليه، ولا يقول له: وما في ذلك من الفضل؟ وإنما أسلمت وأنت طفل لا عقل لك.

فصل في البلوغ

وأما ما ظن الخصوم من أن البلوغ إلى درجة التكليف، هو الإحتلام، وقولهم: إن أمير المؤمنين (ع) لم يكن بلغ وقت إسلامه مبلغ المحتلمين، فلا يكون من المكلفين.

فظن غير صحيح. ولو كان الأمر كما زعموه لكان كل من بلغ الحلم مكلفاً، ونحن نعلم فساد ذلك، لوجود بالغين من البله والمجانين غير مكلفين.

والواجب الذي ليس عنه محيد أن يقال إن وجود العقل في الإنسان وصحة التمييز منه والإدراك، شرط في وجوب تكليف العقليات، من النظر والإستدلال ومعرفة ما لا يسع جهله من الأمد والواجبات واعتقاد الحق بأسره وإدراك الصواب.

وشرط أيضاً في صحة تعلق [تكليف][1] العبادات السمعيات، وإن كان أكثرها يسقط عمن لم يبلغ الإحتلام، ولا[2] يعلم سقوطه إلا من جهة السمع الوارد دون ما سواه.

ولم يكن المشروع[3] كله حاصلاً في ابتداء البعثة، ولا أتى الوحي وقت إسلام أمير المؤمنين (ع) لجميع العبادات السمعية، فيعلم ما هو لازم لمن لم يبلغ مما هو غير لازم.

فأما التكليف الواجب في العقول فلا يجوز أن يسقط عمن له عقل وتحصيل..[4] اذ هو بلوغ حد التكليف.

وقد بينا أن أمير المؤمنين (ع) كان كامل العقل وهو ابن عشر سنين

---

(١) النسخة خالية من كلمة تكليف واضفناها تصحيحاً للمعنى.

(٢) في النسخة: وإن يعلم ووضعنا مكانها كلمة (ولا يعلم) تصحيحاً للمعنى.

(٣) في النسخة للمشروع.

(٤) هنا كلمتان غير واضحين المراد.

فلزمته[1] المعرفة بالله تعالى والرسول وبجميع ما يوجب معرفة العقول[2]، ولزمه من التعبد المسموع ما قارن وجهاً من المصلحة له[3] وهذا كاف لذوي التحصيل.

وقد أوردت في هذا الكتاب من القول في إسلام أمير المؤمنين (ع) ما فيه منفعة للمؤمنين، وحجة على المخالفين، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين [وآله][4] الطيبين الطاهرين.

فصل: من كلام أمير المؤمنين (ع) وحكمه.

قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه:

لا شرف أعلا من الإسلام، ولا كرم أعز من التقوى، ولا معقل أحرز من الورع، ولا شفيع أنجح من التوبة.

من ضاق صدره لم يصبر على أداء حق. من كسل لم يؤد حق الله.

من عظم أوامر الله أجاب سؤاله.

من تنزه عن حرمات الله سارع إليه عفو الله.

من تواضع قلبه لله لم يسأم بدنه طاعة الله.

الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر.

ليس مع قطيعة الرحم نماء. ولا مع الفجور غنى.

عند تصحيح الضمائر تغفر الكبائر.

تصفية العمل خير من العمل.

عند الخوف يحسن العمل.

---

(١) في النسخة فلزمه أيضاً.

(٢) في النسخة معرفة المعقول أيضاً.

(٣) هنا كلمتان غير واضحتين

(٤) النسخة خالية من كلمة وآله.

رأس الدين صحة اليقين.
أفضل ما لقيت الله به نصيحة من قلب، وتوبة من ذنب.
إياكم والجدل فإنه يورث الشك في دين الله.
بضاعة الآخرة كاسدة فاستكثر منها في أوان كسادها.
اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل.
ودخول الجنة رخيص، ودخول النار غالٍ
التقى سائق إلى كل خير.
من غرس أشجار التقى جنى ثمار الهدى.
الكريم من أكرم عن ذل النار وجهه.
ضاحك معترف بذنبه أفضل من باكٍ مدلٍ على ربه.
من عرف عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره.
من نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره.
ومن نظر في عيوب الناس ورضاها لنفسه فذلك الأحمق بعينه.
كفاك أدبك لنفسك ما كرهته لغيرك.
اتعظ بغيرك ولا تكن متعظاً بك.
لا خير في لذةٍ تعقب ندامة.
تمام الإخلاص تجنب المعاصي.
من أحب المكارم اجتنب المحارم.
جهل المرء بعيوبه من أعظم ذنوبه.
من أحبك نهاك، ومن أبغضك أغراك.
ومن أساء استوحش.
من عاب عِيب.
ومن شتم أُجيب.
أدوا الأمانة ولو إلى قاتل الأنبياء.
الرغبة مفتاح العطب.
والتعب مطية النصب.

الشر داع إلى التقحُّم في الذنوب.

من تورط في الأمور غير ناظر في العواقب، فقد تعرض لمدرجات النوائب.

من أتى ذمياً وتواضع له ليصيب من دنياه شيئاً ذهب ثلثاً دينه.

من لزم الإستقامة لزمته السلامة.

حدثنا الشيخ المفيد أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي بن الحسن بن شاذان القمي رضي الله عنه بمكة في المسجد الحرام، قال: حدثني أبو الفرج المعافى بن زكريا قال حدثنا محمد بن أحمد بن أبي الثلج قال: حدثنا الحسن بن محمد بن بهرام قال: حدثنا يوسف بن موسى الطالقاني، قال: حدثنا جرير عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص):

لو أن الغياض أقلام، والبحر مداد، والجن حُسَّاب، والأنس كتاب، ما أحصوا فضائل علي بن أبي طالب.

وأُنشدت[1] لابن وكيع الشاعر[2] في أمير المؤمنين صلوات الله عليه هذه الأبيات:

قالوا: علي لماذا لست تمدحه ... فقلت أصبحت في ذا الفعل معذورا

صرفت مدحي إلى من نور مدحته ... يعده الناس إسرافاً وتبذيراً

ولم أطق مدح من فاتت فضائله ... قدر المدائح منظوماً ومنثوراً

ومن جواد قريضي أن بعثت به ... في مدحه من علاه عاد محسوراً

---

(١) في النسخة وأنشدت بيتين، وهو زيادة من الناسخ.

(٢) هو أبو محمد الحسن بن علي بن أحمد بن محمد خلف البغدادي أحد الشعراء البارعين توفي بمدينة تنيس من ديار مصر بالقرب من دمياط سنة ٣٩٣هـ. له ديوان شعر ومن شعره:

لقد قنعت همتي بالخمول ... وحدت عن الرتب العالية

وما جهلت طعم طيب العلا ... ولكنها تؤثر العافية

ووكيع لقب جده أبي محمد بن خلف وكان فاضلاً عالماً بالقرآن والفقه والنحو والسير وله مصنفات توفي سنة ٣٠٦هـ.

أأزعم الغيث يحيي الأرض وإبله ... أم أأزعم البدر قد عم الورى نوراً
ما زلت ذاك وذا بالوصف منهية ... ولا أتيت بفضل كان مستوراً
متى صرفت إليه الشعر أمدحه ... شهرت من وصفه ما كان مشهوراً
وظلت أتعب فيمن ليس يرفعه ... مدحي وأنشر فضلاً كان منشوراً
سارت مآثره بالفضل ظاهرةً ... فما ترى لمديح فيه تأثيراً
وأصبح الوصف منه لاستفاضته ... كاللفظ كرر في الأسماع تكريراً
يعد جهديَ تقصيراً بمدحته ... ولست أرضى بجهدٍ عُدَّ تقصيراً

وأظنه بنى على قول المتنبي:

وتركت مدحي للوصي تعمداً ... إذ كان نوراً مستقلاً كاملاً[1]
وإذا استقل[2] الشيء قام بنفسه ... وأرى صفات الشمس تذهب باطلاً

وفي هذا المعنى لأبي نؤاس في الرضا عليه السلام:

قيل لي لمْ تركت مدح ابن موسى ... والخصال التي تجمعن فيه
قلت لا اهتدي لمدح إمامٍ ... كان جبريل خادماً لأبيه

ولبعضهم:

لا يبلغن مدح النبي وآله ... قوم إذا ما بالمدائح فاهوا
رجل يقول إذا تكلم قال لي ... جبريل أخبرني بذاك الله

ومن مليح ما وجدته لابن الرومي:

لي أحمدان لدنياي وآخرتي ... ولي عليان فانظر من أعدتُ وَلي
من خاتم الملك في الدنيا بخنصره ... ومن على كتفيه خاتم الرسل
تعلقت راحتي منهم بأربعةٍ ... إن عشت أو مت للتأميل والأمل
منهم باثنين ما استسمحت يسمح لي ... كما باثنين ما استشفعت يشفع لي
فللشفاعة حسبي أحمد وعلي ... وللمعيشة حسبي أحمد وعلي

---

(١) في ديوان المتنبي والمحفوظ هكذا: إذ كان نوراً مستطيلاً شاملاً).
(٢) في الديوان والمحفوظ: وإذا استطال الشيء قام بنفسه وصفات ضوء الشمس تذهب باطلاً.

فصل في فضل اقتناء الكتب

قال بعض الحكماء الكتب أصداف الحكم، تنشق [عنها] جواهر الشيم.

وقيل لآخر: ما بلغ من شهوتك للكتب ورغبتك في قراءتها؟ فقال: إذا نشطت فهي لذتي، وإذا اغتممت فهي سلوتي.

وقال آخر: ما ورَّثت الأسلاف للإخلاف كنوزاً أفضل من الكتب، ولا حلَّت الآباء الأبناء حُليّاً أجمل من الأدب.

وليم آخر على إنفاذ المال في الكتب وترك الولد بغير عقل، فقال: إني اعتقد لهم كتب علوم تخلِّص أرواحهم، لأعق أموال تنعِّم أشباحهم.

وقيل لآخر: فلان مات وما خلف لولده إلا كتباً. فقال: لقد خلف لهم مآثر لا تعفوها الأيام، وترك لهم موارث لا تنفدها الأعوام.

وقال بعض المصنفين في فضل الكتب واقتنائها:

أعلم أن الكتاب قيَّدَ على الناس علم الدين، وأخبار الأولين، مع خفة محمله، وصغر جثته، صامت ما أسكته، بليغ ما استنطقته، ومن بسامر لا يبتديك في حال شغلك، ولا يدعك في أوقات نشاطك، ولا يحوجك إلى التجمل له، والتذمم منه.

ومن لك بزائر إن شئت جعل زيارته غباً، ووروده حباً[1] وإن شئت لزمك لزوم ظلك، فكان منك مكان بعضك.

والكتاب هو الذي إذا نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجوّد بيانك، وفخم ألفاظك، وعمر صدرك، ومنحك صداقة الملوك، وتعظيم العوام، وعرفت به في شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر.

---

(١) في النسخة: جسما.

قال: والكتاب هو الذي يطيعك بالليل كطاعته بالنهار، ويطيعك في السفر كطاعته في الحضر، لا يقصرعنك بنوم، ولا يعتريه ملال، وهو المعلم الذي إن افتقرت إليه لم يحقرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة، وإن عدلت عنه لم يدع طاعتك، وإن هب ريح أعدائك لم ينقلب عليك، ومتى كنت منه متعلقاً بسببٍ ومعتصماً بحبلٍ لم [تضطرك] معه وحشة الإنفراد إلى الجليس السوء.

ولو لم يكن من فضله عليك وإحسانه إليك إلا منعه لك من الجلوس على بابك، والنظر إلى المارة بك، مع ما في ذلك من التعرض للحقوق في فضول النظر، وملابسة صغار الناس وحضور ألفاظهم الساقطة، وأخلاقهم الردية، لكان في ذلك السلامة يوم القيامة، ونعم الجليس.

وقال في هذا المعنى:

والكتاب نعم الذخر والقعدة، ونعم الجليس والعقدة، ونعم السيرة والنزهة، ونعم الشغل والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والزميل. والكتاب وعاء مليء علماً، وظرف حشي ظَرَفاً، وإناء شحن مزاحاً وجداً. إن شئت كان أبين من سحبان وائل(١)، وإن شئت كان أعي من باقل(٢)، وإن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائب فوائده، وإن شئت ألهتك نوادره، وإن شئت أشجتك مواعظه.

وبعد فمتى رأيت بستاناً يحمل في ردن، وروضة تنقلب في حجر، ينطق عن الموتى، ويترجم كلام الأحياء.

ومَن لك بمؤنس لا ينطق إلا بما تهوى، آمَنَ من في الأرض، وأكتم للسر من صاحب السر.

---

(١) هو من ألسنة الجاهليين وخطباء الإسلام ويضرب فيه المثل في الفصاحة والبيان توفي سنة (٥٤هـ)- (٦٧٣م) وفي النسخة (من تيجان وائل).

(٢) هو باقل بن عمرو بن ثعلبة الأبادي يضرب فيه المثل في العي والفهاهة.

وقال: لا أعلم جاراً أبر، ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية، وأقل جناية، ولا أقل ملالاً، وإبراماً وخلافاً وجزافاً، ولا أقل غيبة، ولا أبعد من مرأى، ولا أترك لشغب، ولا أزهد في جدل، ولا أكف عن قتال من كتاب.

ولا أعلم قريناً، ولا أحسن موافاة، ولا أعجل مكافاة، ولا أحضر معرفة، ولا أخف مؤنة، ولا شجراً أطول عمراً، ولا أطيب ثمراً، ولا أقرب مجتنى، ولا أسرع إدراكاً، ولا أوجد في كل أوان من كتاب[1]

وأنشد بعضهم:

وإذا الهموم تضيقتـــك ولم تجـــد
أحـــداً ومـــلّ فؤادك الأصحابـا

فاعمد إلى الكتب التي قد ضمنت
أوراقهـــا الأشعـــارا والآدابـا

فهي الـــتي تنفي الهموم ولم تجـــد
أحـــداً لـــه أدب يمـــلُّ كتابـاً

فصل:

حكى شيخنا المفيد رضي الله عنه في بعض كتبه[2]:

قال: قد ألزم الفضل بن شاذان رحمه الله، فقهاء العامة[3]. قولهم في الميراث، أن يكون نصيب بني العم أكثر من نصيب الولد، واضطرهم إلى الإعتراف بذلك، فقال:

---

(١) أحسب أن هذا الفصل في وصف الكتاب هو من إنشاء المؤلف، لأنه بأسلوبه أشبه.

(٢) وهو كتاب الفصول المختارة ج١ ص١٢٣- ١٢٤.

(٣) في النسخة: الناحبة والتصحيح مطابق لما ف الفصول المختارة. والفضل بن شاذان النيسابوري الأزدي المتوفي عام (٢٦٠هـ) وهو من شيوخ الفقه والكلام والآثار الشيعة، وله مؤلفات كثيرة أنهاها مترجموه إلى ماية وثمانين كتاباً.

خبروني عن رجلٍ توفي وخلف ثلاثين ألف درهم، وخلف ثماني وعشرين بنتاً وابناً واحداً، كيف تقتسمون الميراث؟

فقالوا: نعطي الولد الذكر ألفي درهم، ونعطي كل بنت ألف درهم، فيكون للبنات ثمانية وعشرون ألف درهم على عددهم، ويحصل الذكر ألفا درهم، فيكون له ما قسمه الله عز وجل وأوجبه في كتابه من قوله: وللذكر مثل حظ الأنثيين.

قال لهم: فما تقولون؟ لو كان موضع الإبن ابن عم، كيف تقسم الفريضة؟

فقالوا: نعطي ابن العم عشرة ألاف درهم، ونعطي البنات كلهن عشرين ألف درهم.

فقال لهم الفضل بن شاذان رحمه الله: فقد صار ابن العم أوفر حظاً من الإبن للصلب، والإبن مسمى في التزيل، متقرباً بنفسه، وبنو العم لا تسمية لهم، وإنما يتقربون بأبيهم، وأبوهم يتقرب بجده، والجد يتقرب بأبيه، وهذا نقض للشريعة.

قال شيخنا المفيد رضي الله عنه:

وإنما لزمت هذه الشناعة فقهاء العامة خاصة، لقولهم بأن من عدا الزوج والزوجة والأبوين، يرثون مع الولد، على خلاف مسطور الكتاب والسنة، وإنما أعطوا ابن العم عشرة آلاف درهم في هذه الفريضة، من حيث تعلقوا بقوله تعالى: (فإن كن نساءً فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك). فلما بقي الثلث اعطوه لابن العم، فلحقتهم هذه الشناعة المخرجة لهم من الدين، ونجت الشيعة من ذلك والحمد لله.[1]

ووجدت في أمالي[2] شيخنا المفيد رضي الله عنه:

---

(١) أنظر: الفصول المختارة ج١ ص١٢٢.

(٢) هذا موجود في الفصول المختارة ج١ ص٤٤.

أن أبا الحسن علي بن ميثم[1] رضي الله عنه، دخل على الحسن بن سهل، وإلى جانبه ملحد قد عظمه[2]، والناس حوله، فقال له:

قد رأيت عجباً. قال: وما هو؟ قال: رأيت سفينة تعبَّر الناس من جانب إلى جانب بغير ملاَّح ولا ماصر.

قال فقال الملحد: إن هذا أصلحك الله لمجنون.

قال: وكيف؟

قال: لأنه يذكر عن خشب جماد لا حيلة له ولا قوة، ولا حياة فيه ولا عقل، أنه يعبَّر الناس، ويفعل فعل الإنسان، كيف يصح هذا؟

فقال له أبو الحسن: فأيما أعجب هذا أو هذا الماء الذي يجري على وجه الأرض يمنةً ويسرة بلا روح ولا حيلة ولا قوى، وهذا النبات الذي يخرج من الأرض، والمطر الذي ينزل من السماء، كيف يصح ما تزعمه من أن لا مدبر له كله؟ وأنت تنكر أن تكون سفينة تتحرك بلا مدبر وتعبَّر الناس بلاح.

قال: فبهت الملحد.

فصل أجبت به بعض الإخوان عن ثلاث آيات من القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الموفق للسداد، وصلواته على حججه في العباد، مولانا محمد خاتم النبيين وآله الطاهرين.

هذه ثلاث آيات من القرآن، سأل عنها بعض أهل الإيمان، أوضحت معانيها وما يتعلق به المخالفون منها، وأجبت عن ذلك بما اقتضاه الصواب على سبيل الإختصار دون الإطناب.

---

(١) هو علي بن إسماعيل بن شعيب بن ميثم التمار الكوفي صاحب أمير المؤمنين علي (ع) وتوفي سنة (١٧٩هـ)، وهو من متكلمي الشيعة البارزين في عصر الرشيد. وله عدة مؤلفات.

(٢) في النسخة: قد أعظم الناس حوله وصوبناه اعتماداً على النص الوارد في الفصول المختارة.

الآية الأولى قول الله عز وجل:

« واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت لأهلكتهم من قبل وإياي ، أفتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء ، فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ». الأعراف: ١٥٥

المواضع المسؤول عنها من هذه الآية التي يتعلق بها المخالفون منها ثلاث مواضع:

أحدها: قول موسى عليه السلام: أفتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، فيقولون: كيف خفي على نبي الله أنه لا يجوز في العدل والحكمة أخذ العبد بجرم غيره.

الثاني: قوله: (إن هي إلا فتنتك) فزعمت المجبرة أن في هذا دلالة على أن الله تعالى يفتن العباد الفتنة التي هي الإضلال.

الثالث قوله: تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء ، قالوا: وهذا بيان أنه سبحانه يفعل في طائفة من عبادة الضلال ، ويحرمهم الإيمان ، ويخص الأُخرى بالهدى ويجنبها الضلال.

الجواب:

أما قول موسى (ع) (أفتهلكنا بما فعل السفهاء منا) ففيه وجهان:

أحدهما: أن الهلاك هنا هو الموت ، قال الله تعالى: (إن أمرؤ هلك ليس له ولد)[1] يعني مات ، فكأن موسى عليه السلام قال على سبيل السؤال: أتميتنا مع هؤلاء السفهاء ، وليس الموت الذي سأل عنه عقوبة ، بل على ما جوزه من اتفاق حضور الميتة ، كما اتفق هلاك العالمين في طوفان نوح عليه السلام إلا من حملت السفينة ، فكان هلاك الكفار منهم عقوبةً لهم ، وهلاك الأطفال والبهائم ومن لا تكليف عليه معهم ، لحضور آجالهم.

---

(١) سورة النساء ١٧٦

وقامت الباء في قوله تعالى: (بما فعل السفهاء) مقام (مع)، لأنهما جميعاً من حروف الخفض.

والوجه الثاني: أن يكون قوله: أفتهلكنا بما فعل السفهاء منا، خرج منه على وجه الإستبعاد لذلك والنفي والإنكار، كما يقول أحدنا للحاكم: أتراك تظلمني في فعلك، أو تجور عليّ في حكمك، وهو لا يريد سؤاله بل يقصد نفي الظلم والجور عنه، واستبعاد وقوعهما منه. قال جرير:

أعبداً حل في شعبي غريباً ألؤماً لا أباً لك واغترابا

يريد أن لا يجتمع هذان.

وأما قوله: إن هي إلا فتنتك [فإن][1] الفتنة على ضروب في الكلام، وهي في هذا المكان بمعنى المحنة والإختبار، قال الله تعالى:

(وفتناك فتوناً)[2] يعني اختبرناك اختباراً، وكأنه قال: إن هي إلا فتنتك التي امتحنت بها خلقك و[اختبرتهم][3] في التكليف، لتثبت من اهتدى بها، وتعاقب من ضل [عنها][4].

وأما قوله: (تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء) فإنه ذكر في هذه الآية وفي نظائرها، أنه يضل قوماً ويهدي آخرين مجملاً للقول في ذلك من غير تفسير.

وكشف في آيات أُخر عمن يشاء أن يضلهم، ومن يريد أن يهديهم، وميزهم وصف بعضهم من بعض وبينهم، فقال في الضلال:

(ويضل الله الظالمين)

وقال: (وما يضل به القوم الفاسقين).

فأخبر أنه لا يشاء أن يضل إلا من سبقت منه الجناية، واقترف الإساءة.

---

(١) في النسخة (تكن).
(٢) طه: ٤٠
(٣) في النسخة: وأخبرتهم.
(٤) في النسخة: عندها.

وقال في الهدى:

(وقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) المائدة: ١٦

وقال: (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) التغابن: ١١

فأوضح بهذه الآيات المفسرة عما ذكره في تلك الآيات المجملة.

فأما هذا الضلال منه والهدى فهو يحتمل وجوهاً: منها أن يكون الا ضلال العقاب، والهدى الثواب. وجاز ذلك في الكلام، لأن الجزاء عندهم على الشيء يسمى بإسم ذلك الشيء على طريق الإتساع، وله نظائر في القرآن.

ومنها أن يضل العُصاة عن الألطاف في الدنيا التي وعد بها أهل الإيمان.

ومنها للتسمية، فقد يقال: أكذبني فلان، إذا سماني كاذباً، وأضلني، إذا سماني ضالاً. قال الشاعر[١]:

وطائفة قد أكفروني بحبكم   وطائفة قالوا مسيء ومجرم[٢]

الآية الثانية

قوله سبحانه:

(وأكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، إنا هدنا إليك، قال عذابي أُصيب به من أشاء، ورحمتي وسعت كل شيء، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة، والذين هم بآياتنا يؤمنون). الأعراف: ١٥٦

(المواضع المسؤول عنها من هذه الآية).

الذي يسأل عنه من معانيها:

---

(١) هو الكميت بن زيد الأسدي من ألمع شعراء الدولة الأموية وكان عالماً بلغات العرب وأيامهم خصّ أكثر شعره في مديح أهل البيت (ع) وأفضله الهاشميات المشهورة توفي سنة ١٢٦هـ

(٢) هو مذنب لا مجرم، وهو من قصيدته البائية التي أولها:

طربت وما شوقاً إلى البيت أطرب   ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب

قوله: (إنا هدنا إليك) وما في معناه في اللغة.

وقوله: (عذابي أُصيب به من أشاء) فهو مما ينتسب به المجبرة.

وقوله: (ورحمتي وسعت كل شيء) فقد قال بعض الملحدة: إذا كانت رحمته وسعت كل شيء، فكيف لم تسع الكافر الذي لم يرحمه؟

الجواب.

أما قوله: (هدنا إليك) فمعناه تبنا إليك.

وأما قوله: (عذابي أُصيب به من أشاء) فالكلام فيه كالكلام في الضلال والهدى، وقد تقدم من الكلام في ذلك ما يستدل به على أنه تعالى لا يشاء أن يعذب إلا من عصى.

وأما قوله: (ورحمتي وسعت كل شيء) ففيه وجهان.

أحدهما: أن نعمة سبحانه في الدنيا قد شملت الخلائق ووسعت العباد، وسيكتبها في الآخرة للذين يتقون ويكونون على ما نعته من الصفات.

والوجه الآخر إنه أراد يقول وسعت كل شيء، أن رحمته تسع الخلائق لو دخلوها، ولا تقصر عنهم لو عملوا لها، غير أنه لا يكتبها إلا لمن اتقى وفعل الحسنى.

الآية الثالثة

قوله الله تعالى:

(الذين يتبعون النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعززوه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون) الأعراف: ١٥٧

المواضع المسؤول عنها من هذه الآية

منها قوله تعالى: (النبي الأُمي) فقد ظن قوم أنه أراد بذلك عدم علمه بالخط.

ومنها قوله تعالى: (ويضع عنهم إصرهم) ما هذا الإصر والإغلال التي كانت عليهم؟

ومنها قوله: (الذين آمنوا به وعزروه ونصروه) فقد تأول قوم ذلك في أبي بكر وعمر وعثمان.

ومنها: النور الذي كان معه (ع) ما هو؟ ليقع العلم به.

الجواب:

أما قوله سبحانه (الأُمي) فإنما نسبه إلى أُم القرى وهي مكة، قال الله تعالى: (لتنذر أم القرى ومن حولها).

وأهلها هم الأُميون، قال الله تعالى:

(هو الذي بعث في الأُميين رسولاً منهم) الجمعة: ٢

وهذا كافٍ في إبطال ما ظنوه.

وأما الإصر ههنا [فـ] هو الثقل، والإثقال التي كانت عليهم، والأَغلال يحتمل أن تكون الذنوب التي اقترفوها في حال الكفر والضلال، فأَخبر الله سبحانه أنه يضعها عنهم إذا آمنوا به وبرسوله عليه وعلى آله السلام.

وأما قوله: (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أُنزل معه أُولئك هم المفلحون).

فهو مدح لمن كان على هذه الصفات، وليس فيه تسمية لأَحد يزول معها الأشكال، ولا على ما ادعاه المخالفون في ذلك دليل إجماع.

ومن سبر الأَخبار واطلع في صحيح السير والآثار، علم أن أبا بكر وعمر وعثمان مُعَرَّون من هذه الصفات.

وهذا باب يتسع فيه الكلام، والواجب مطالبة من إدعى أن هذه الآية فيهم، بدليل على دعواه يصح بمثله الإحتجاج. فأما الآية نفسها فلا تدل على ذلك.

وأولى الأَشياء أن يكون المدح فيها للذين حصل الاتفاق على استحقاقهم ما

تضمنته من الصفات، ممن لا ريب في صحيح إيمانهم، وعالي نصرتهم وجهادهم. من أهل البيت عليهم السلام، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحرث بن عبد المطلب، وجعفر بن أبي طالب، ومن الصحابة الأخيار والنجباء الأطهار، زيد بن حارثة، وخباب، وعمار بن ياسر، وسعد بن معاذ، والمقداد، وسلمان، وأبو ذر، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو الهيثم ابن التهيان، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وإبنا سهل وعثمان، ومن في طبقتهم من أهل الإيمان، رحمة الله عليهم أجمعين.

وأما النور الذي أُنزل معه فهو القرآن، ولم يسم بذلك لأن فيه أجساماً من الضياء، لكن لما يتضمنه من الحجج والبيان الذي يستنار به في شريعة الإسلام.

وقد سماه الله تعالى نوراً في موضع آخر فقال:

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » المائدة: ١٥

وقال أيضاً:

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور » المائدة: ٤٦

ولم يرد أن فيها أجساماً من الضياء، وإنما أراد ما ذكرنا.

فهذا مختصر من الكلام في معاني هذه الآيات، والحمد لله الموفق للصواب وصلى الله على خيرته من خلقه محمد رسوله وآله.

ووجدت في بعض الأناجيل مكتوباً:

« إن المسيح (ع) قال: وحقاً أقول، لست الشارب مما لفظته الكروم حتى أشرب ذلك غداً في الملكوت ».

وفي هذا على النصارى حجتان:

إحدهما إن المسيح (ع) كان لا يشرب الخمر، وهو خلاف ما رووه عنه من قوله في لحم الخنزير والخمر:

« هذا لحمي فكلوه، وهذا دمي فاشربوه ».

والحجة الأُخرى أن في الجنة شرباً، وإذا كان فيها شرب كان فيها أكل، وليست تذهب النصارى إلى هذا.

فأما روايتهم عنه (ع) [أنه] قال:

« هذا لحمي فكلوه، وهذا دمي فاشربوه » فإنه يحتمل وجهاً من التأويل، ويكون معناه التهديد، وإن كان بلفظ الأمر، كما يقول أحدنا لمن يتهدده: أعمل ما شئت، وهو لا يريد أمره

ويقوي هذا التأويل ما تضمنه الخبر عن قوله:

هذا لحمي وهذا دمي. ونحن نعلم أن لحمه ودمه محرمان، فيصح بما ذكرناه من أن المراد بالخبر التهديد.[1]

وأعلم أنا لم نتأول هذا الخبر توقفاً عن رده، وإنا لنعلم أنهم متهمون فيما يروون. وإنما تأولناه تصرفاً في النظر وإقامة الحجة على الخصم. فأما ما في القرآن من التهديد الذي هو بلفظ الأمر فواضح. أحدها قول الله سبحانه لابليس:

« إجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأَموال والأَولاد، وعِدهم وما يعدهمُ الشيطان إلا غروراً » الإسراء: ٦٤

وقوله تعالى:

« أعملوا ما شئتم أنه بما تعملون بصير، فصلت: ٤٠

مسألة:

إن سأل سائل عن قول الله تعالى في موضع من ذكر موسى (ع):

« وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولي مدبراً ولم يعقب » النمل: ١٠.

وعن قوله في موضع آخر:

---

(١) وبعبارة أوضح أن المراد به هو الزجر عنها، على معنى إن ساغ لكم أكل لحمي فكلوا لحم الخنزير، وإن ساغ لكم شرب دمي فاشربوا الخمر.

« فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين » الشعراء: ٣٢

وقال: ما معنى هذا الإختلاف في وصف العصا، وقد أخبر في إحدى الآيتين، أنها كانت كالجان والجان الحية الصغيرة، وذكر في الآية الأخرى أنها ثعبان مبين، والثعبان الحية العظيمة. فكيف تكون في خبر واحد بهاتين الصفتين المتباينتين؟

جواب: قلنا قد أجيب عن هذا السؤال بأن موسى (ع) لما ألقى العصا جعلها الله تعالى على صفة الجان في سرعة حركتها وقوتها وكثرة نشاطها، وعلى صفة الثعبان في عظم خلقها وهول منظرها وكبر جسمها، فاجتمع فيه الوصفان لها، فليس تشبيهها لها بالجان في إحدى الآيتين بموجب أن يكون لشبهه في جميع صفاته، ولا تشبيهه لها بالثعبان في الآية الأخرى بدليل على أنها تماثله في سائر حالاته. وعلى هذا الجواب لا تباين في الآيتين بحمد الله ومنّه.

ووجه آخر

وقد أُجيب عن ذلك بجواب آخر، وهو أن الآيتين ليستا خبراً عن حالة واحدة، بل لكلٍ واحدة منها حال منفردة.

فالحال التي كانت العصا فيها كأنها جان كانت في ابتداء النبوة، وقبل مصير موسى (ع) إلى فرعون مؤدياً للرسالة.

والحال التي صارت العصا فيها ثعباناً كانت عند لقائه وإبلاغه الرسالة. وعلى هذا تدل التلاوة. ولم يبق في المسألة شبهة. والمنة لله.

فصل:

وروي في الحديث أن فضـال بن الحسن بن فضال الكوفي مر بأبي حنيفة وهو في جمعٍ كثير يملي عليهم شيئاً من فقه حديثه، فقال فضال لصاحبه كان معه! والله لا أبرح حتى أُخجل أبا حنيفة.

فقال صاحبه: إن أبا حنيفة من قد علمت حاله وظهرت حجته.

فقال فضال: هل علت حجة على المؤمن؟

ثم دنا منه فسلم عليه وقال: يا أبا حنيفة يرحمك الله إن لي أخاً يقول: إن خير الناس بعد رسول الله (ص) علي بن أبي طالب، وأنا أقول: أبو بكر وبعده عمر، فما تقول أنت يرحمك الله؟

فأطرق أبو حنيفة ملياً ثم رفع رأسه فقال:

كفى بمكانهما من رسول الله (ص) كرماً وفخراً، أما علمت أنهما ضجيعاه، فأي حجة أوضح لك من هذا؟

فقال له فضال: إني قد قلت لأخي هذا فقال: والله لإن كان الموضع لرسول الله (ص) دونهما فقد ظلما بدفنهما في موضعٍ ليس لهما، وإن كان لهما فوهبا لرسول الله (ص) لقد أساءا وما أحسنا في ارتجاعهما هبتهما ونكثهما عهدهما.

فأطرق أبو حنيفة ساعة ثم قال: لم يكن لهما خاصة، ولكنهما نظرا في حق عائشة وحفصة، فاستحقا الدفن في ذلك الموضع بحق ابنتيهما.

فقال فضال: قد قلت له ذلك فقال: أنت تعلم أن النبي (ص) مات عن تسعٍ، فنظرنا فإذا لكل واحدة منهن تسع الثمن، ثم نظرنا في تسع الثمن فإذا هو شبر في شبر، فكيف يستحق الرجلان أكثر من ذلك، وبعد فما بال عائشة وحفصة ترثان رسول الله (ص)، وفاطمة ابنته تمنع الميراث.

فصاح أبو حنيفة: يا قوم نحوه عني فإنه رافضي[1]

فصل:

حدثني الحسين بن محمد بن علي الصيرفي قال حدثني القاضي أبو بكر محمد بن عمر المعروف بالجعابي قال حدثنا أبو عبدالله محمد بن سليمان بن محبوب قال: حدثنا أحمد بن عيسى الحربي قال: حدثنا إسماعيل بن يحيى عن ابن جريح عن

---

(١) هذا مذكور في الفصول المختارة ج١ ص٤٢- ٤٣. وتجده أيضاً في احتجاج الطبرسي ص٢٠٧ أنظر البحار ج ٤٧ ص٤٠٠ هامش.

عطا عن ابن عباس قال كان النبي (ص) ليلة بدر قائماً يصلي ويبكي ويستعبر ويخشع ويخضع كاستطعام المسكين ويقول:

اللهم أنجز لي ما وعدتني ويخر ساجداً ويخشع في سجوده ويكثر التضرع، فأوحى الله تعالى إليه: قد انجزنا وعدك، وأيدناك بابن عمك علي، ومصارعهم على يديه، وكفيناك المستهزئين به. فعلينا فتوكل، وعليه فاعتمد، فأنا خير من توكلت عليه، وهو أفضل من اعتمد عليه.

وحدثني القاضي أبو الحسن أسد بن ابراهيم السلمي الحراني نزيل بغداد قال: أخبرني أبو حفص عمر بن علي العتكي الخطيب، قال: قرأت على الحسن بن أحمد البالسي [حدثكم][1] أبو أمية محمد بن ابراهيم قال: حدثنا أبو عاصم النبيل عن أبي الجراح عن جابر بن صبيح عن أم سرحيل عن أم عطية إن رسول الله (ص)، بعث علياً عليه السلام في سرية [قالت] فرأيته رافعاً يده يقول: اللهم لا تمتني حتى تريني علياً » .

وباسناده عن العتكي قال: حدثني سعيد بن محمد قال: أخبرنا محمد بن عبد الحضري قال: حدثنا عباد بن يعقوب قال: حدثنا علي بن عابس عن الحارث بن حميرة عن القاسم بن جندب قال: سمعت رجلاً من خثعم يقول:

سمعت أسماء بنت عميس قالت: رأيت رسول الله (ص) بثبير وهو يقول:

أشرق ثبير، اللهم إني أسألك بما سألك به أخي موسى أن تشرح لي صدري وأن تيسر لي من أمري، وأن تحلل عقدةً من لساني، يفقهوا قولي، وأن تجعل لي وزيراً من أهلي، علياً أخي، أشدد به أزري وأشركه في أمري، كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيرا.

وبإسناده أيضاً عن العتكي قال أخبرني محمد بن صفوة قال: حدثني الحسن ابن علي العلوي قال: حدثني أحمد بن العلاء قال: حدثنا صباح بن يحيى المري

---

(١) هكذا في النسخة.

قال: حدثني خالد بن يزيد عن أبي جعفر محمد بن علي عن أبيه عن الحسين بن علي عن أبيه عليهم السلام، قال: قال رسول الله (ص) يوم الأحزاب::

« اللهم إنك اخذت مني عبيدة بن الحرث يوم بدر وحمزة بن عبد المطلب يوم أُحد، وهذا أخي علي بن أبي طالب، رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين »(١)

فصل:

روى في الحديث أنه لما أتت الأحزاب وحاصرت المدينة وأقامت عليها بضعاً وعشرين ليلة، طاف المشركون بالخندق فلم يكن منهم من يقدم عليه غير عمرو بن عبدود، فإنه ضرب فرسه فعبر به عرضه وحصل في حيز المدينة فأخذ يزبجر في ممره ومجيئه على رسول الله (ص)، وينادي بالبراز ولا يجيبه أحد، فقال رسول الله (ص) لأصحابه وهم مطيفون به: أيكم برز إلى عمرو أضمن له على الله الجنة، فلم يجبه منهم أحد، هيبة لغمرو واستعظاماً لأمره. فقام علي بن أبي طالب (ع) فقال له إجلس، ونادى أصحابه دفعة أُخرى فلم يقم منهم أحد، والقوم ناكسوا رؤوسهم، فقام علي بن أبي طالب (ع) فأمره بالجلوس، ونادى الثالثة، فلما لم يجبه أحد سواه، استدناه وعممه بيده وأمره بالبروز إلى عدوه، فتقدم إليه، ورسول الله (ص) يقول: « برز الإيمان كله إلى الشرك كله »

وكان عمرو حينئذٍ يرتجز ويقول:

ولقد بححت من النداء ... بجمعكم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن الشجاع ... موقف الخصم المناجز
إني كذلك لم أزل ... متسرعاً نحو الهزاهز
إن الشجاعة في الفتى ... والجود من كرم الغرائز

فتقدم إليه أمير المؤمنين صلى الله عليه وهو يقول:

---

(١) روي بعضه في منتخب الكنز ص٣٥ أنظر حياة أمير المؤمنين ص ٢٤٥

لا تعجلن فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نية وبصيرة والصدق منجى كل فائز
إني لأرجو أن تقوم عليك نائحة الجنائز
من طعنة نجلاء يبقى ذكرها بين الهزاهز[1]

ثم جادله فما كان بأسرع من أن صرعه أمير المؤمنين وجلس على صدره، فلما هَمَّ أن يذبحه، وهو يكبر الله ويحمده قال له عمرو:

يا علي، قد جلست مني مجلساً عظيماً، فإذا قتلتني فلا تسلبني حليتي. فقال له أمير المؤمنين (ص): هي أهون علي من ذلك، وذبحه وأتى برأسه، وهو يتبختر في مشيته، فقال عمر: ألا ترى يا رسول الله إلى علي، كيف يتيه في مشيته، فقال رسول الله (ص): إنها مشية لا يمتقها الله في هذا المقام.

ثم نهض رسول الله (ص) إلى أمير المؤمنين (ع) فتلقاه ومسح الغبار عن عينيه، فرمى الرأس بين يديه، فقال رسول الله (ص) ما منعك من سلبه؟ قال: يا رسول الله خفت أن يلقاني بعورته، فقال النبي (ص): إبشر يا علي، فلو وزن اليوم عملك بعمل جميع أُمة محمد لرجح عملك على عملهم. وذلك أنه لم يبق بيت من المشركين إلا وقد دخله ذل من قتل عمرو، ولم يبق بيت من المسلمين إلا وقد دخله عز بقتل عمرو، فأنشأ أمير المؤمنين يقول:

نصر الحجارة من سفاهة رأيه
ونصرت رب محمد بصواب
فضربته وتركته متجدلاً
كالنسر فوق دكادك وروابي
وعففت عن أثوابه ولو أنني
كنت المقطر بزني أثوابي

---

(١) روي ذلك أبو جعفر الإسكافي في نقضه العثمانية للجاحظ أنظر: رسائل الجاحظ ص ٦٤- ٦٥ وأنظر: فضائل الخمسة ج٢ ص٣٢٠- ٣٢٣ فقد روى شيئاً منه عن مستدرك الصحيحين وغيره.

لا تحسُبنّ الله خـــادال دينـــه
ونبيـــه يـــا معشر الأَحزاب[1]

ولما قتل علي (ص) عمراً سمع منادياً ينادي لا يرى شخصه:

قتل علي عمراً، قصم علي ظهراً، أبرم علي أمراً.

ووقعت الجفلة بالمشركين فأنهزموا أجمعين، وتفرقت الأَحزاب خائفين مرعوبين.

فروي عن جابر رحمه الله أنه قال: ما شبهت قتل علي عمراً إلا بما قصه الله تعالى في أمر داود وجالوت، حيث يقول «فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت.»[2]

فصل من كلام أمير المؤمنين عليه السلام وحكمه

العفاف زينة الفقر، الشكر زينة الغني، الصبر زينة البلاء، التواضع زينة الحسب، الفصاحة زينة الكلام، العدل زينة الأمارة، السكينة زينة العبادة، الحفظ زينة الرواية، خفض الجناح زينة العلم، حسن الأَدب زينة العقل، بسط الوجه زينة الحلم، الايثار زينة الزهد، بذل المجهود زينة المعروف، الخشوع زينة الصلاة، ترك ما لا يعنى زينة الورع.

جاء في الحديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين صلوٰات الله عليهم أجمعين: أَن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

أعبد الناس من أقام الفرائض.

وأزهد الناس من اجتنب المحارم. وأسخى الناس من أدَّى زكاة ما له وأتقى الناس من قال الحق فيما له وعليه.

---

(١) روى هذه الأبيات الطبرسي في إعلام الورى ص١٠٠ - ١٠١ وأنظر: الإرشاد للمفيد ص٤٥ و٤٧.

(٢) أنظر: المصدر ص ١٩٦ والإرشاد ص٤٧.

وأعدل الناس من رضي للناس ما يرضى لنفسه، وكره لهم ما يكره لنفسه.
وأكيس الناس من كان أشد ذكراً للموت.
وأغبط الناس من كان في التراب في أمنٍ من العقاب يرجو الثواب.
وأغفل الناس من لم يتعظ بتغير الدنيا من حال إلى حال.
وأعظم الناس خطراً من لم يجعل للدنيا عنده خطراً.
وأعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه.
وأشجع الناس من غلب هواه.
وأكثر الناس قيمةً أكثرهم علماً.
وأقل الناس قيمةً أقلهم علماً.
وأقل الناس لذة الحسود.
وأقل الناس راحة البخيل.
وأبخل الناس من بخل بما افترض الله عز وجل عليه.
وأولى الناس بالحق أعلمهم به.
وأقل الناس حرمةً الفاسق.
وأقل الناس وفاءً الملوك.
وأفقر الناس الطَمِع.
وأغنى الناس من لم يكن للحرص أسيراً.
وأكرم الناس أتقاهم.
وأعظم الناس قدراً من ترك المراء وإن كان محقاً.
وأقل الناس مروءةً من كان كاذباً.
وأمقت الناس المتكبر.
وأشد الناس اجتهاداً من ترك الذنوب.
وأسعد الناس من خالط كرام الناس.
وأعقل الناس من أشدهم تهمةً للناس.
وأولى الناس بالتهمة من جالس أهل التهمة.
وأبغى الناس من قتل غير قاتله، أو ضرب غير ضاربه.

وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة.
وأحق الناس بالذنب المغتاب.
وأذل الناس من أهان الناس.
وأحزم الناس أكظمهم للغيظ.
وأصلح الناس أصلحهم للناس.
وخير الناس من انتفع به الناس.(١)

وروى أن هذه الأبيات لأمير المؤمنين عليه السلام:

تخذتكم درعاً حصيناً لتدفعوا ... سهام العدى عني فكنتم نصالها
فإن أنتمُ لم تحفظوا لمودتي ... ذماماً فكونوا لا عليها ولا لها
قفوا موقف المعذور عني بجانبٍ ... وخلوا نبالي للعدى ونبالها

وأنشدني الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن أحمد الموسوي:

كنا نعظم بالآمال بعضكمُ ... ثم انقضت فتساوى عندنا الناس
لم تفضلونا بشيء غير واحدةٍ ... هي الرجاء فسوّى بيننا الياس

وأنشد لإبراهيم بن العباس كتبه إلى محمد بن عبد الملك.(٢)

أخي بيني وبين الدهر ... صاحب أينا غلبا
صديقي استقام فإن ... نبا دهر علي نبا
وثبت على الزمان به ... فعاد به وقد وثبا
ولو عاد الزمان لنا ... لطار به أخاً حَدِبا

---

(١) شطر من هذه الكلمات تجده في نهج البلاغة باب الحكم والأمثال وغيرها وقد رواها الصدوق في الأمالي ص ١٨ - ١٩

(٢) هو ابو إسحاق ابراهيم بن العباس بن محمد بن صول توفي سنة (٢٤٢ هـ) شاعر مجيد وأديب كبير من شخصيات الشيعة وله مدائح عدة في الإمام الرضا وأهل البيت واضطر - تقيةً - لأن يحرق كل شعره بهم، وديوان شعره نشره عبد العزيز الميمني ضمن مجموعة الطرائف سنة ١٩٣٧ م وتجد بعض اخباره في عيون أخبار الرضا، ص ١٤٨

وله أيضاً فيه:

كنـــت أخي بإخـــاء الزمـــان فلما
جفـــا بنـــا صرت حربـــا عوانـــا
كنـــت أذم إليـــك الزمـــان فأصـ
ـبحـــــت فيـــــك أذم الزمانــــا
فكنـــــت أعـــــدك للنـــــا نبـــــات
فأصبحـــت أطلـــب منـــك الأمانـــا

وله أيضاً فيه:

قـــدرت فـلم تضرر عـــدواً بقـــدرةٍ
وسِمـــت بـه إخوانـك الـذل والرغما
وكنـــت مليـــاً بالـــتي قـــد يعافهـا
من الناس من يأبى الدنية [والذما][1]

مسألة:

إمرأة جامعها ستة نفر في يوم واحد، فوجب على أحدهم القتل، وعلى الثاني الرجم، وعلى الثالث الجلد، وعلى الرابع نصف الجلد، وعلى الخامس التعزير، ولم يجب على السادس شيء.

الجواب:

كان أحدهم ذمياً، فوجب عليه القتل، وكان الآخر محصناً مسلماً فوجب عليه الرجم، وكان الآخر بكراً فوجب عليه الجلد، وكان الآخر عبداً فعليه نصف الجلد، وكان الآخر صبياً، فعليه التعزير، وكان الآخر زوجاً فليس عليه شيء.

---

(١) فى النسخة والوفا.

مسألة أخرى:

رجل له جارية يملك جميعها ليس لأحد معه نصيب، لا يحل له جماعها حتى يجامعها غيره.

جواب:

هذا رجل كان زوجاً لهذه الجارية ثم ابتاعها من سيدها، وقد كان طلقها تطليقين فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره[1].

مسألة أخرى:

إمرأة ولدت على فراش بعلها ببغداد، فلحق نسبه برجل ببصرة، فلزمه دون صاحب الفراش، من غير أن يكون شاهد المرأة أو عرفها، أو عقد عليها، أو وطأها حلالاً أو حراماً؟.

جواب:

هذه امرأة بكر وقعت عليها ثيب في حالٍ قد قامت فيها من جماع زوجها، فحولت نطفة الرجل إلى فرجها فحملت منه، ومضى على ذلك تسعة أشهر، فتزوجت البكر في آخر التاسع برجلٍ ودخلت عليه في ليلة العقد، فولدت على فراشه ولداً تاماً، فأنكر الزوج ذلك وقررها على ضمها فاعترفت بما ذكرناه، وأقرت الفاعلة أيضاً، فلحق الولد بصاحب النطفة على ما حكم به الحسن بن علي عليهما السلام، في أثرٍ مذكور.[2]

---

(١) هذا وارد على رأي الإمامية القائلين بالتحريم بطلقتين للأمة حتى تنكح زوجاً غيره وأن المدار في التحريم هو حال المطلقة الزوجة فإن كانت حرة فلا تحرم إلا بثلاث طلقات وإن كان الزوج عبداً مملوكاً، وإن كانت أمةً فإنها تحرم على تطليقتين وإن كان زوجها المطلق حراً، ويدل عليه صراحةً صحيحة الحلبي عن الصادق (ع) قال: طلاق الحرة إذا كانت تحت العبد ثلاث تطليقات، وطلاق الأمة إذا كانت تحت الحر تطليقتان وبمضمونها صحيحة محمد بن مسلم عن الباقر (ع) وغيرهما. ويرى بعض السنة أن الاعتبار بحال الزوج إن كان حراً فلا تحرم إلا بالثلاث وإن كانت أمة وتحرم باثنتين إذا كانت حرة وهو عبد.

(٢) تجده ذلك في مناقب أبي طالب ج ٣ ص ١٧٧.

فصل في الوعظ والزهد:

قيل لبعضهم: كيف حالك؟

قال: كيف حال من يغنى ببقائه، ويسقم بسلامته، ويؤتى من مأمنه[1].

وقيل لبعض حكماء العرب:

من أنعم الناس عيشاً؟

فقال: من تحلى بالعفاف، ورضي بالكفاف، وتجاوز ما يخاف إلى ما لا يخاف.

قيل: فمن أعلمهم؟

فقال: من صمت فادّكر، ونظر فاعتبر، ووعظ فازدجر.

وروي: ان الله تعالى يقول:

يا ابن آدم، في كل يوم يؤتى رزقك وأنت تحزن، وينقص عمرك وأنت لا تحزن، تطلب ما يطغيك، وعندك ما يكفيك.

وقيل: أغبط الناس من اقتصد فقنع، ومن قنع فك رقبته من عبودية الدنيا وذل المطامع.

وقيل: الفقير من طمع، والغني من قنع.

وقيل: من كان له من نفسه واعظ، كان عليه من الله حافظ.

وقيل: لا يزال العبد بخير ما دام له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همه.

ووعظ رجل فقال:

عباد الله، الحذر الحذر، فوالله لقد ستر، حتى كأنه قد غفر، ولقد أمهل حتى كأنه قد أهمل[2].

---

(١) هذه الكلمة للإمام علي (ع) وهي مذكورة في النهج في القسم الثالث رقم ١١٥.

(٢) هذه الكلمة لأمير المؤمنين علي عليه السلام وهي مذكورة في النهج في الباب الثالث رقم ٢٩.

وقيل: العجب لمن يغفل وهو يعلم أنه لا يُغفل عنه، وأن يهنئه عيشه وهو لا يعلم إلى ماذا يصير أمره.

وقيل: إن للباقي بالفاني معتبر، أو للآخر بالأول مزدجر، فالسعيد لا يركن إلى الخُدَع، ولا يغتر بالطمع.

قال آخر: كيف اذخر عملي ولست أدري متى يحل أجلي؟ أم كيف تشتد حاجتي إلى الدنيا، وليست بداري؟ أم كيف أجمع وفي غيرها قراري، أم كيف لا أمهد لرجعتي قبل انصراف مُدَّتي؟

وقال عمر بن الخطاب لأبي ذر الغفاري: عظني. قال له: ارض بالقوت، وخف الفوت، وأجعل صومك الدنيا، وفطرك الموت.

وقال آخر: عجباً لمن تكتحل عينه برقاد، والموت ضجيعها على وساد.

وقال آخر: نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذاب الله.

وقال آخر: عجبي لمن يحتمي من الطيبات مخافة الداء، ولا يحتمي من الذنوب مخافة النار.

وقيل: كيف يصفو عيش من هو عما عليه، مأخوذ بما لديه، محاسب على ما وصل إليه.

وقال آخر: عجباً لمن يقصر عن الواضحة، وهو يعمل بالفاضحة.

وقيل: إذا زللت فارجع، وإذا أذنبت فاقلع، وإذا أَسأت فاندم، وإذا ائتمنت فاكتم.

وقال المسيح عليه السلام:

تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بعمل.

وقال عليه السلام: إذا عملت الحسنة فـالْهُ عنها، فإنها عند من لا يضيعها، وإذا عملت السيئة فاجعلها نصب عينيك.

وقيل لحكيم: لِمَ تدمن إمساك العصا، ولست بكبير ولا مريض؟ قال لأَعلم أَني مسافر.

وقيل: من أحسن عبادة الله في [شبيته][1] لَقَّاه الله الحكمة في بلوغه أشده، وذلك قوله سبحانه:

« ولما بلغ أشده أتيناه حكماً وعلماً، وكذلك نجزي المحسنين ». سورة يوسف: ٢٢

ولا بأس أن يعذل المقصر المقصر، قال بعضهم: لا يمنعكم معاشر السامعين سوء ما تعلمون منا، أن تقبلوا أُحسن ما تسمعون منّا.

قال الخليل بن أحمد: اعمل بعلمي، ولا يضرك تقصيري. نعوذ بالله أن يكون ما علمنا حجةً علينا لا لنا.

أنظر يا أخي لنفسك، ولا تكن ممن: جمع علم العلماء، وطرائف الحكماء، وجرى في العمل مجرى السفهاء.

حدثني الحسين بن محمد بن علي الصيرفي، قال حدثني أبو بكر محمد بن علي الجعابي، قال حدثنا أبو محمد القاسم بن محمد بن جعفر العلوي، قال حدثني أبي عن أبيه، عن آبائه عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله (ص):

« للمسلم على أخيه ثلاثون حقاً، لا براءة له إلا الأَداء أو العفو: يغفر زلته، ويرحم عبرته، ويستر عورته، ويقيل عثرته، ويقبل معذرته، ويرد غيبته، ويديم نصيحته، ويحفظ خلته، ويرعى ذمته، ويعود مرضته، ويشهد ميتته، ويجيب دعوته، ويقيل هديته، ويكافىء صلته، ويشكر نعمته، ويحسن نصرته، ويحفظ حليلته، ويقضي حاجته، ويشفع مسألته، ويسمت عطسته، ويرشد ضالته، ويرد سلامه، ويطيب كلامه، ويبر انعامه، ويصدق أقسامه، ويوالي وليه، ويعادي عدوه، وينصره ظالماً ومظلوماً، فأما نصرته ظالماً فيرده عن ظلمه، وأما نصرته مظلوماً فيعينه على أخذ حقه، ولا يسلمه، ولا يخذله، ويحب له من الخير ما يحب لنفسه، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه ».

---

(١) في النسخة مشيته.

ثم قال عليه السلام: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إن أحدكم ليدع من حقوق أخيه شيئاً، يطالبه به يوم القيامة، فيقضي له وعليه...[1].

وحدثني القاضي أبو الحسن محمد بن علي بن محمد بن صخر الأزدي، قال: حدثنا أبو زيد عمرو بن أحمد العسكري بالبصرة، قال: حدثنا أبو أيوب، قال: حدثنا أحمد بن الحجاج، قال: حدثنا ثوبان بن إبراهيم عن مالك بن مسلم عن أبي مريم عن أبي صالح عن أبي هريرة عن رسول الله (ص) قال:

«تُعرض أعمال الناس في كل جمعة مرتين: يوم الاثنين، ويوم الخميس، فيغفر لكل عبدٍ مؤمن إلا من كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: اتركوا هذين حتى يصطلحا...

مسألة فقهية لأبي النجا:

أتعرف من قد باع من مهر أمه
أباه فوفّاها بحقِ صداقها
وكانت قديماً أشهدت كل من رأت
بأن أباه قد أبَتَّ طلاقها

الجواب:

إذا أنت عقدت المسائل ملغزاً
أتتك جوابات تحلُّ وثاقها
تزوج عبد حرةً أنجبت فتىً
وصادفه قول أبان فراقها
فأنكحها مولاه من بعد رغبةٍ
لما قد رأى منها وأسنى صداقها

---

(١) رواه الشهيد الثاني زين الدين العاملي الجبعي في آخر رسالته في الغيبة المطبوعة مع كشف الفوائد وحقائق الإيمان وأسرار الصلاة ص ٢٦٠ - ٢٦١ - بسنده عن الكراجكي المؤلف.

فوكلت إبن العبد في قبض مهرها
وأفلس مولاه وأبـــدى عتاقهـــا
فباع الوكيل العبد بالحكم إذ رأى
هوى أمـــه في بيعهـــا وارتفاقهـــا

تفسير الجواب:

هذه امرأة حرة، فتزوجت عبداً، فولدت منه إبناً، ثم طلقها العبد، فأنكحها مولاه بصداق مسمى، فوكلت ابنها من العبد بقبض مهرها، وفلّس المولى، فقضي لها العبد في واجبها، فوكلت ابنها في بيعه لاستيفاء صداقها.

فصل في ذكر مجلس جرى لي ببليس[1]:

حضرت في سنة ثماني عشرة وأربعماية مجلساً، فيه جماعة ممن يجب استماع الكلام، ومطلع نفسه فيه إلى السؤال، فسألني أحدهم، فقال: كيف يصح لكم القول بالعدل[2] والإعتقاد بأن الله تعالى لا يجوز عليه الظلم؟ مع قولكم أنه سبحانه يعذب الكافر في يوم القيامة بنار الأبد، عذاباً متصلاً غير منقطع، وما وجه الحكمة والعدل في ذلك؟

وقد علمنا أن هذا الكافر وقع منه كفرة في مدةٍ متناهية، وأوقات محصورة، وهي ماية سنة في المثل، وأقل وأكثر، فكيف جاز في العدل عذابه أكثر من زمان كفره؟

وألاَّ زعمتم أن عذابه متناهٍ كعمره، ليستمر القول بالعدل، وتزول مناقضتكم لما تنفون عن الله تعالى من الظلم.

---

(١) بلبيس بكسر البانين وسكون اللام وياء وسين مهملة مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام، كان يسكنها عبس بن بغيض، فتحت سنة ١٩/١٨هـ على يد عمرو بن العاص، وقال:

جزى عربـــاً ببلبيس ربهـــا ... بمسعاتهـــا تقرر بـــذاك عيونهـــا
كراكر من قيس بن عيلان ساهراً ... جفون ظباهـــا للعـــلى وجفونهـــا

كذا ذكره ياقوت في العجم م اس ٤٧٩

(٢) في النسخة بالقول

الجواب:

فقلت له: سألت فافهم الجواب.

اعلم أن الحكمة لما اقتضت الخلق والتكليف، وجب أن يرغب العبد فيما أمره به من الإيمان بغاية الترغيب، ويزجره عما نهى عنه في الكفر بغاية التخويف والترهيب، ليكون ذلك أدعى له إلى فعل المأمور به، وأزجر له عن ارتكاب المنهي عنه.

وليس غاية الترغيب إلا الوعد بالنعيم الدائم المقيم، ولا يكون غاية التخويف والترهيب، إلا التوعيد بالعذاب الخالد الأليم.

وخلف الخبر كذب، والكذب لا يجوز على الحكيم. فبان بهذا الوجه، أن تخليد الكافر في العذاب الدائم، ليس بخارج عن الحكمة، والقول به مناقض للأدلة.

فقال صاحب المجلس:

قد أتيت في جوابك بالصحيح الواضح، غير أنا نظن بقيةً في السؤال، تطلع نفوسنا إلى أن نسمع عنها الجواب، وهي:

أن الحال أفضت إلى ما ينفر[1] منه العقل، وهو أن عذاب أوقات غير محصورة، يكون مستحقاً على ذنوب مدة متناهية محصورة.

فقلت له: أجل، إن الحال قد أفضت إلى أن الهالك على كفره، يعذب بعذاب تقدير زمانه أضعاف زمان عمره، وهذا هو السؤال بعينه. وفي مراعاة ما أجبت به عنه بيان أن العقل لا يشهد به، ولا ينفر منه. على أنني آتي بزيادة في الجواب مقنعة في هذا الباب.

فأقول: إن المعاصي تتعاظم في نفوسنا على قدر نعم المعصي بها. ولذلك عظم عقوق الولد لوالده لعظِم إحسان الوالد عليه، وجلت جنايه العبد على سيده، لجليل إنعام السيد عليه. فلما كانت نعم الله تعالى أعظم قدراً، وأجل أثراً من أن توفى بشكر، أو تحصى بحصر، وهي الغاية في الإنعام، الموافق

---

(١) في النسخة: ينفرد.

لمصالح الأنفس والأجسام، كان المستحق على الكفر به، وحجده إحسانه ونعمه، هو غاية الآلام، وغايتها هو الخلود في النار.

فقال رجل ينتمي إلى الفقه كان حاضراً:

قد أجاب صاحبنا الشافعي عن هذه المسألة بجوابين، هما أجلى وأبين مما ذكرت.

قال له السائل: وما هما؟

قال: أما أحدهما فهو أن الله سبحانه، كما ينعم في القيامة [على] من وقعت منه الطاعة في مدةٍ متناهية بنعيم لا آخر له ولا غاية، وجب قياساً على ذلك أن يعذب من وقعت منه المعصية في زمانٍ محصور متناهٍ، بعذاب دائم غير منقضٍ ولا متناهٍ.

قال: والجواب الآخر، أنه خلد الكفار في النار لعلمه أنهم لو بقوا أبداً لكانوا كفاراً.

فاستحسن السائل هذين الجوابين منه استحساناً مفرطاً، إما لمغايظتي بذلك، أو لمطابقتها ركالة فهمه.

فقال صاحب المجلس: ما تقول في هذين الجوابين؟

فقلت: اعفني من الكلام، فقد مضى في هذه المسألة ما فيه كفاية.

فأقسم علي وناشدني.

فقلت: إن المعهود من الشافعي والمحفوظ منه كلامه في الفقه وقياسه في الشرع.

أما أصول العبادات والكلام في العقليات فلم تكن من صناعته.

ولو كانت له في ذلك بضاعة لاشتهرت، إذ لم يكن خامل الذكر.

فمن نسب إليه الكلام فيما لا يعلمه على طريق القياس والجواب، فقد سبه، من [حيث] أن فساد هذين الجوابين لا يكاد يخفى عمن له أدنى تحصيل.

أما الأول منهما وهو مماثلته بين إدامة الثواب والعقاب، فإنه خطأ في العقل والقياس، وذلك أن مبتدى النعم المتصلة في تقدير زمانٍ أكثر من زمان

الطاعة، إن لم يكن ما يفعله مستحقاً، كان تفضلاً، ولا يقال للمتفضل المحسن: لِمَ تفضلت وأحسنت، ولا للجواد المنعم، لِمَ جُدت وأنعمت.

وليس كذلك المعذِبُّ على المعصية في تقدير زمانٍ زائدٍ على زمانها، لأن ذلك إن لم يكن مستحقاً كان ظلماً، تعالى الله عن الظلم. فالمطالبة بعلة المماثلة بين الموضعين لازمة، والمسألة مع هذا الجواب عما يوجب التخليد قائمة. والعقلاء مجمعون على أن من أعطى زيداً على فعله أكثر من مقدار أجره، فليس له- قياساً على ذلك- أن يعاقب عمراً على ذنبه بأضعاف ما يجب في جرمه.

وأما جوابه الثاني فهو وإن كان ذكره بعض الناس، لاحقٌ بالأول في السقوط، لأنه لو كان تعذيب الله عز وجل للكافر بعذاب الأبد، إنما هو لأنه علم منه أنه لو بقي أبداً كافراً، لكان إنما عذابه على تقدير كفرٍ لم يفعله. وهذا هو الظلم في الحقيقة، الذي يجب تنزيه الله تعالى عنه، لأن العبد [لم][1] يفعل الكفر إلا مدة محصورة.

وقد اقتضى هذا الجواب أن تعذيبه الزائد على مدة كفره هو عذاب على ما لم يفعله.

ولو جاز ذلك لجاز أن يبتدىء خلقاً، ثم يعذبه من غير أن يبقيه ويقدره، ويكلفه، إذا علم منه أنه إذا أبقاه، وأقدره، وكلفه، كان كافراً جاحداً لأنعمه.

وقد أجمع أهل العدل على أن ذلك لا يجوز منه سبحانه، وهو كالأول بعينه في العذاب، للعلم بالكفر قبل وجوده، لا على ما فعله وأحدثه.

وقبحها يشهد العقل به ويدل عليه. تعالى الله عن إضافة القبيح إليه.

فَعُلِمَ أنه لا يعتبر في الجواب عن هذا السؤال بما أورده هذا الحاكي عن الشافعي، وأن المصير إلى ما قدمناه من الجواب عنه أولى، والحمد لله.

---

(١) في النسخة لا يفعل فآثرنا موضعها لم يفعل لأنه الصحيح في المعنى.

فلما سمع المتفقه طعني فيما أورده، وقولي إن الشافعي ليس من أهل العلم بهذه الصناعة، ولا له فيها بضاعة، ظهرت إمارات الغضب في وجهه، وتعذر عليه نصرة ما جاء به، كما تَعَذَّر عليه وعلى غيره ممن حضر، القدح فيما كنت أجبت به، فتعمد لقطع ما كنا فيه بحديثٍ ابتداه، لا يليق بالمجلس ولا يقتضيه.

فبينا نحن كذلك إذ حضر رجل، كانوا يصفونه بالمعرفة، وينسبونه إلى الأصطلاح بالفلسفة، فلما استقر به المجلس، حكوا له السؤال، وبعض ما جرى فيه من الكلام.

فقال الرجل: هذا سؤال يلزم الكلام فيه، ويجب على من أقر بالشريعة، طلب جواب صحيح عنه، يعتمد عليه.

ثم سألوني الرجوع إلى الكلام والاعادة لما سلف لي من الجواب، ليسمع ذلك الرجل الحاضر.

فقلت له: ألا سألتم الفقيه إعادة ما كان أورده لعله أن يرضى هذا الشيخ إذا سمعه، وعنيت بالفقيه، الحاكي عن الشافعي؟

قالوا: قد تبين لنا فساد ما أجاب به، ولا حاجة بنا إلى إشغال الزمان بإعادته.

قلت: فأنا مجيبكم إلى الكلام، وسالك غير الطريقة الأُولى في الجواب، لعل ذلك أن يكون أسرع لزوال اللبس، وأقرب إلى سكون النفس، إن وجدت منكم مع الإستماع حسن إنصاف.

قالوا: نحن مستمعون لك غير جاحدين لحق يظهر في كلامك.

فقلت: كان السؤال عن وجه العدل والحكمة في تعذيب الله عز وجل لمن مات وهو كافر بالعذاب الدائم، الذي تقدير زمانه لا ينحصر، وقد وقع من العبد كفره في مبلغ عمره المتناهي.

والجواب عن ذلك:

أن العذاب المجازى به على المعصية، كائنةً ما كانت، لا كلام بيننا في استحقاقه، وإنا الكلام في اتصاله وانقطاعه.

فلا يخلو المعتبر في ذلك أن يكون هو الزمان الذي وقعت المعصية فيه ومقداره وتناهيه، [أو] المعصية في نفسها وعِظَمِها من صغرها.

فلو كانت مدة هي المعتبرة، وكان يجب تناهي العذاب لأجل تناهيها في نفسها، لوجب أن يكون تقدير زمان العقاب عليها بحسبها وقدرها، حتى لا يتجاوزها ولا يزيد عليها.

وهذا حكم يقضي الشاهد بخلافه، ويجمع العقلاء على فساده. فكم قد رأينا فيا بيننا معصية وقعت في مدةٍ قصيرة، كان المستحق من العقاب عليها يحتاج إلى أضعاف تلك المدة، ورأينا معصيتين، تماثل في القدر زمانها، واختلف زمان العقاب المستحق عليها، كعبد شتم سيده، فاستحق من الأدب على ذلك أضعاف ما يستحقه إذا شتم عبداً مثله، وإن كان زمان الشتمين متماثلاً.

فالمستحق عليها من الأدب والعقاب يقع في زمان غير متماثل، ولو لم يكن في هذا حجة إلا ما نشاهده من هجران الوالد أياماً كثيرة لولده على فعل، وقع في ساعةٍ واحدة منه، مع تصويب كافة العقلاء للوالد في فعله، بل لو لم يكن فيه إلا جواز حبس السيد فيا بيننا لعبده زماناً طويلاً على خطيئته.

وكذلك الأمام العادل لمن يرى من رعيته، لكان فيه كفاية في وضوح الدلالة، وليس يدفع الشاهد إلا مكابر معاند.

فَعُلِمَ مما ذكرناه أنه لايعتبرفيا يستحق على المعصية بقدر زمانها، ولا يجب أن يماثل وقت الجزاء عليها لوقتها.

ووجب أن يكون المرجع إليها نفسها، فبعظمها يعظم المستحق عليها، سواء [أ] طال الزمان أو قصر، اتصل أم انقطع، وجد فكان محققاً، أو عُدِم فكان مقدراً، والحمد لله.

فلما سمع القوم مني هذا الكلام، وتأملوا ما تضمنه من الإفصاح والبيان، وتمثيلي بالمتعارف من الشاهد والعيان، لم يسعهم غير الإقرار للحق والإذعان

والتسليم في جواب السؤال لما أوجبه الدليل والبرهان.

والحمد لله الموفق للصواب، وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبيين وآله الطاهرين.

زيادة في المسألة:

وقد احتج من نصر الجواب الثاني المنسوب إلى الشافعي بقول الله تعالى:

« ولو ردوا لعادوا نهوا عنه » الأنعام: ٢٨.

وجعل ذلك دلالة على أنه عذابهم بعذاب الأبد، لعلمه بذلك من حالهم.

وليس في هذه الآية دلالة على ما ظن، وإنما هي مبنية على باطن أمرهم، ومكذبة لهم فيما يكون في القيامة من قولهم. وما قبل الآية تتضمن وصف ذلك من حالهم، وهو قوله تعالى سبحانه:

« إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا، ونكون من المؤمنين » الأنعام: ٢٧.

فقال الله سبحانه:

« بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون ». الأنعام: ٢٨

هذا: لما تمنوا الرجوع إلى دار التكليف. وليس فيه إخبار بأنه عذبهم لما علمه منهم أن لو أعادهم. حسبنا الله ونعم الوكيل.

فصل:

روي أن إمرأة العزير وقفت على الطريق فمرت بها المواكب حتى مرَّ يوسف (ع)، فقال:

الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته، والحمد لله الذي جعل الملوك عبيداً بمعصيته.

وذكروا أن المتمناة ابنة النعمان بن المنذر دخلت على بعض ملوك الوقت، فقالت: إنا كنا ملوك هذا البلد، يجبي إلينا خراجها، ويطيعنا أهلها، فصاح

بنا صائح الدهر، فشق عصانا وفرق ملأنا، وقد أتيتك في هذا اليوم أسألك ما أستعين به على صعوبة الوقت.

فبكى الملك وأمر لها بجائزة حسنة، فلما أخذتها أقبلت بوجهها عليه فقالت: إني محييتـك بتحية كنا نحيّ بها، فأصغى إليها فقالت:

شكرتك يد افتقرت بعد غنى، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، وقلدك المنن في أعناق الرجال، ولا أزال الله عن عبدٍ نعمةً إلا جعلك السبب لردها، والسلام.

فقال: اكتبوها في ديوان الحكمة .

وروى أن أمير المؤمنين (ع) مرَّ على المدائن فلما رأى آثار كسرى وقرب خرابها، قال رجل ممن معه:

جرت الرياح على رسوم ديارهم   فكأنهم كانوا عـــلى ميعـــاد.

فقال أمير المؤمنين (ع):

أفلا قلت: «كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم، ونعمةٍ كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثناها قوماً آخرين، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين» الدخان: ٢٦ - ٢٩ (١)

فصل من المقدمات في صناعة الكلام:

إعلم أن المعدوم عندنا ليس بشيء، ولا يكون الشيء إلا موجوداً.

فإن قال لك قائل: ما الشيء؟ فقل هو الموجود.

فإن قال: ما الموجود؟ فقل: هو الثابت العين في الوجود.

فإن قال: ما المعدوم؟ فقل: هو ما خرج بانتقائه عن كونه شيئاً.

---

(١) رواه نصر بن مزاحم في كتاب صفين ح١ ص١٤٣، وقال (ع) بعد الآيات: إن هؤلاء لم يشكروا النعمة، فسُلبوا دنياهم بالمعصية، إياكم وكفر المنعم، لا يحل بكم النقم.

فإن قالوا: ما القديم؟ فقل: ما ليس لوجوده أول.

فإن قال: ما المحدث؟ فقل: هو الذي لوجود، أول.

فإن قال ما الجسم؟ فقل: هو ذوا الطول والعرض والعمق

فإن قال ما الجوهر؟ فقل: هو أصغر ما تألفت منه الأجسام.

فإن قال ما العرض؟ فقل: هو العارض في المحل بغير بقاء.

واعلم أن الأعراض عندنا لا تبقى وإنما تتجدد حالاً بعد حال، ولا يوجد العرض عندنا إلا وقتاً واحداً، والموجود وقتاً واحداً ليس بباقٍ، ولا يوجد شيء من الأعراص إلا في محل.

فإن قال: ما الباقي؟ فقل هو المستمر الوجود، فإن أحببت فقل: هو ما وجد وقتين فما زاد.

فإن قال: ما الفاني؟ فقل: هو ما انعدمت عينه بعد وجوده، وقد كان يجوز أن لا ينعدم.

فإن قال: ما الإجتماع؟ فقل: هو محاسن جواهر الأجسام.

فإن قال: ما الإفتراق؟ فقل: هو مبانيتها.

فإن قال: ما الحركة؟ فقل هي ما فرغ بالتحرك مكاناً وشغل مكاناً.

فإن قال: ما السكون؟ فقل: هو لبث الجوهر في مكانٍ وقتين فما زاد.

واعلم أن الجوهر إذا لم يكن في مكان فهو ليس بمتحركٍ ولا ساكن.

فإن قال لك: ما المكان؟ فقل: هو ما أحاط بالمتمكن، فمكان الجوهر ستة أمثاله تحيط به من جميع جهاته، وصفحة العالم العليا هي مكان للعالم، ولا مكان لها. ولا يقال في الحقيقة انها متحركة ولا ساكنة، وكذلك المستفتح[1] الوجود من الجواهر عندنا وعند أكثر أهل النظر أنه ليس بمتحرك ولا ساكن.

---

(١) العبارة غير واضحة وقد يراد به ما كان في ابتداء وجوده

فإن قال لك: ما الحي؟ فقل: من صح كونه قادراً.
فإن قال: ما القادر؟ فقل هو من صح منه الفعل.
فإن قال: ما العالم؟ فقل هو من كان فعله محكماً منتظماً.
فإن قال: ما المريد؟ فقل هو عند التحقيق من قطع على أحد الأمرين المعترضين.

فإن قال: أتقولون إن الله مريد؟ فقل: أما على الحقيقة فلا يجوز ذلك عليه، وأما على المجاز فقد يوصف به اتساعاً في الألفاظ، وقد وصف نفسه سبحانه بأنه مريد كما وصف نفسه بأنه غضبان، وراض، ومحب، وكاره. وهذه كلها صفات مجازات.

فإن قال: فما الفائدة في قولكم إن الله تعالى مريد؟ فقل: هو حصول العلم للسامع بأنه سبحانه في أفعاله وأوامره منزه عن صفة الساهي والعابث.

فإن قال: فما إرادته؟ فقل: الجواب عن هذا السؤال على قسمين: أحدهما: ارادته لما يفعله، وهي الفعل المراد نفسه. والآخر: إرادته لما يفعله غيره، وهي أمره بذلك الفعل.

فإن قال: فما غضبه؟ فقل: وجود عقابه.
فإن قال: فما رضاه؟ فقل: وجود ثوابه.
فإن قال: فما محبته؟ فقل: هي على قسمين: أحدهما أن يحب المؤمن، بمعنى يحسن إليه ويثيبه، والآخر: انه يحب الطاعة، بمعنى يأمر بها.

فإن قال: فما كراهته؟ فقل: هي بالضد من ذلك.
فإن قال: ما المتكلم؟ فقل: هو من فعل كلاماً.
فإن قال: ما الكلام؟ فقل: هو الأصوات المنتظمة إنتظاماً يدل على معانٍ.
فإن قال: ما الخبر؟ فقل: هو ما أمكن فيه الصدق والكذب.
فإن قال: ما الصدق؟ فقل: هو الاخبار عن الشيء بما هو عليه.
فإن قال: ما الكذب؟ فقل: هو الأخبار عن الشيء بخلاف ما هو به.
فإن قال: ما الحق؟ فقل: هو ما عضد[1] معتقده البرهان.

---

(١) في النسخة ما عقد.

فإن قال ما الباطل؟ فقل: هو ما خذل معتقده البيان.
فإن قال: ما الصحيح؟ فقل: هو الحق بعينه.
فإن قال: ما الفاسد؟ فقل: هو الباطل بعينه.
فإن قال: ما العقل؟ فقل: هو عرض يحل الحي، يفرق بين الحسن والقبح، ويصح بوجوده عليه التكليف.
فإن قال: ما الحسن؟ فقل: هو ما كان للعقول ملائماً.
فإن قال: ما القبح؟ فقل: هو ما كان لها منافراً.
فإن قال: ما العلم؟ فقل: هو اعتقاد الشيء على ما هو به مع سكون النفس إلى المعتقد.
فإن قال: ما الجهل؟ فقل: هو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه.
فإن قال: ما المعرفة؟ فقل: هي العلم بعينه.
فإن قال: ما النظر؟ فقل: هو استعمال العقل في الوصول إلى معرفة الغائب باعتبار دلالة الحاضر.
فإن قال: ما الدليل؟ فقل: هو المعتبر في إدراك ما طلبت النفس إدراكه.
فإن قال: ما الحجة؟ فقل: هي الدليل بعينه.
فإن قال: ما الشبهة؟ فقل: هي ما عرض للنفس عند انصرافها عن طريق الحق من باطل تخيلته حقاً.

فصل: من كلام أمير المؤمنين صلى الله عليه في ذكر العلم

قال أمير المؤمنين عليه السلام:
قيمة كل امرىء ما يحسن.
والناس أبناء ما يحسنون.
العلم وراثة مستفادة.
رأس العلم الرفق، وآفته الخرق.
الجاهل صغير وإن كان شيخاً
والعالم كبير وإن كان حدثا

الأدب يغني من الحسب
من عُرِف بالحكمة لحظته العيون بالوقار
العلم في الصغر كالنقش في الحجر.
زلة العالم كانكسار السفينة تغرق وتُغرِق.
الآداب تلقيح الأفهام ونتائج الأذهان.
إذا استوضحت فاعزم.
لو سكت من لا يعلم سقط الإختلاف.
من جالس العلماء وقر، ومن خالط الأنذال حقر.
لا تحقرن عبداً آتاه الله علماً، فإن الله تعالى لم يحقره حين آتاه إياه.
المودة أشبك الأنساب، والعلم أشرف الاحساب..
لا كنز أنفع من العلم، ولا قرين سوء شر من الجهل.
العلم خير من المال، لأن العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم يزكو على الانفاق، والمال تنقصه النفقة، العلم حاكم، والمال محكوم عليه.

عليكم بطلب العلم، فإن طلبه فريضة، وهو صلة بين الإخوان، ودال على المروءة، وتحفة في المجالس، وصاحب في السفر، وأُنس في الغربة. ومن عرف الحِكَمَ لم يصبر على الأزدياد منها.

الشريف من شرفه علمه.

فصل من كلامه عليه السلام في ذكر الحلم وحسن الخلق:

قال (ع):
الحلم سجية فاضلة.
أول عوض الحليم من حلمه أن الناس أنصاره على الجاهل.
من حلم عن عدوه ظفر به.
شدة الغضب تغير المنطق، وتقطع مادة الحجة، وتفرق الفهم.
لا نسب أنفع من الحلم، ولا حسب أنفع من الأدب، ولا نَصَبَ أوجع من الغضب.

حسن الخلق يبلغ درجة الصائم القائم.

حسن الخلق خير رفيق.

رب عزيز أذله خلقه، وذليل أعزه خلقه.

من لانت كلمة وجبت محبته.

التواضع يكسبك السلامة.

زينة الشريف التواضع.

حسن الأدب ينوب عن الحسب.

تأويل آية:

إن سأل سائل عن قوله سبحانه:

«حتى إذا جاء أمرنا ونار التنور، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك، إلا من سبق عليه القول منهم، ومن آمن، وما آمن معه إلا قليل» هود: ٤٠ [١]

الجواب:

أما التنور فقد ذكر في معناه وجوه:

أحدها: أن يكون المراد به أن النور برز والضوء ظهر، وأتت إمارات دخول النهار، وتقضي الليل.

وهذا التأويل يروي عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه.

وثانيها: أن يكون معنى ذلك، واشتد غضب الله عليهم، وحل وقوع نقمته بهم، فذكر التنور مثلاً، لحصول العذاب، كما تقول العرب: قد حمي الوطيس، إذا اشتدت الحرب، وعظم الخطب، وقد قارب[١][٢]القوم، إذا اشتدت حربهم.

وثالثها: أن يكون أراد بالتنور وجه الأرض، وأن الماء نبع وظهر على وجهها، وقد روي هذا عن أبي عباس، قال: والعرب تسمي وجه الأرض تنوراً.

---

(١) أنظر الكلام على هذه الآية في أمالي المرتضى م ٢ ص ١٧٠- ١٧٢.

(٢) هنا كلمة مطموسة غير واضحة.

ورابعها: أن يكون هو التنور المعهود للخبز، وكان في دار نوح عليه السلام، فجعل فوران الماء منه علماً له عليه السلام على نزول العذاب.

فأما قوله: من كلٍ زوجين اثنين، فقد قيل: من كل ذكر وأُنثى اثنين، وكل واحدٍ من الذكر والأُنثى زوج.

وقال آخرون: من كل ضربين اثنين.

وقيل أيضاً: من كل لونين اثنين.

ومعنى من سبق عليه القول، أي من أخبر الله تعالى بعذابه وحلول الهلاك به. والله أعلم بمراده.

فصل:

من التوراة في ذكر الفلك:

قال الله تعالى لنوح (ع): فاصطنع أنت فلكاً من خشب الصنوبر،واصنع الفلك أدواراً، وأطِله من داخل وخارج بقارٍ، واجعل طول الفلك ثلاثماية ذراع، وعرضه خمسين ذراعاً، وارتفاعه ثلاثين ذراعاً، واصطنع في الفلك كوىً، واصطنع بابه من جنبه، واجعل الفلك أثلاثاً: الأسفل والأوسط والأعلى، وسأرسل الطوفان على الأرض، ليفسد كل شيء فيه روح من تحت السماء، وكل ما في الأرض، وأُوثقك بميثاقي، وأدخل الفلك أنت وامرأتك وبنوك، ونساء بنيك معك، ومن كل شيء من اللجم فأدخل اثنين اثنين معك.

رسالة كتبتها إلى بعض الإخوان تتضمن كلاماً في وجوب الإمامة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي الفضل والإحسان، الهادي إلى الحق بواضح البرهان، وصلواته على سيدنا محمد نبيه المبعوث للبيان، وعلى آله الطاهرين أئمة الأزمان.

قد وقفت ايها الأخ الفاضل أدام الله لك التأييد، وأوصلك بالتوفيق والتسديد، من رغبتك في الإستدلال، وحرصك على دفع شبه أهل الضلال، على ما أوجب عليَّ حسن مساعدتك، وإجابتك عما تلتمسه عند مسائلتك، لما بيننا لما من الإيمان، وما يتعين من ذلك على الإخوان.

قال رسول الله (ص):

«المؤمنون إخوة، تتكافؤ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم»[1].

وقد فهمت السؤال الذي أرسلت، وأنا أُجيب عنه بما يحضرني حسبما طلبت إن شاء الله تعالى، وبه أستعين.

- السؤال-: ذكرت- أيدك الله- أن أخذ المخالفين قال: إذا كان الله تعالى قد قال:

«ما فرطنا في الكتاب من شيء» الانعام: ٣٨.

وكانت الأُمة مجتمعة [على] أن النبي (ص) قد بلغ الرسالة إلى الكافة، وأدَّى فيها الأمانة، وبَيَّن لجميع الأُمة، فما الحاجة بعد ذلك إلى إمام.

- الجواب-

فأقول والله الموفق للصواب:

إن الكتاب، وإن كان الله تعالى لم يفرط فيه من شيء، فإن الأمة لم تستغن به عن تفسير رسول الله (ص) لمعانيه، وتنبيهه لمراد الله تعالى فيه، ولا علمت- بسماع تلاوته- جميع أحكام الله تعالى في شرائعه، بل مفتقرة إلى النبي صلى الله عليه وآله في الإيضاح والبيان، معتمدة عليه في السؤال عن معاني القرآن، وهو نبيها مؤيد معصوم، كامل العلوم، يرشد ضالتها، ويعلم جاهلها، ويجيب سائلها، وينبه غافلها، ويزيل الإختلاف من بينها، ويفقهها[2] على معالم

---

(١) أنظر: تحف العقول ص ٣٠ رواه ما عدا فقرة: (ويجير عليهم أقصاهم)

(٢) هكذا وردت في النسخة، والأولى: ويوقفها على معالم دينها.

دينها، بقول متفق وأمر متسق، وقد علم أن الآتين من أمته بعده مكلفون من شرعه نظيرنا، كأنه من كان في وقته.

فوجب في العدل والحكمة إزاحة علل أهل كل زمان لمن يقوم فيه ذلك المقام، يفزع إليه في النازلات، ويُعَوَّل عليه عند المشكلات، تكون النفس ساكنةً إلى طهارته وعصمته، واثقةً بكمال علمه ووفادته.

وليس ما تضمنه السؤال من أن النبي عليه وآله السلام قد بلغ الكافة، وبيَّن للأمة بقادح في هذا الإستدلال، لأنه عليه السلام بَيَّن لهم شرعه على الحد الذي أمر به، فعيَّن لهم على بعضه بالمشافهة، ودلَّهم منه على الجملة الباقية بالإشارة إلى من خصه الله بعلمها، واستحفظه إياها، وجعله الخليفة على الأمة بعده في تبليغها حسبما تقتضيه مصالحها في تكليفها، في أخبارٍ تواترت على ألسنتها، منها قوله:

«أنا مدينة العلم وعلي بابها»

فكان ما خصه به من تفصيل ما أجمل لهم، بحسب ما كلفه من التبليغ دونهم.

على أنه لو ماثلهم في جميع التكليف لم يلزم اشتراكهم في الإبانة على التفصيل، وإنما الواجب عموم المكلفين بالتمليك من الأدلة، التي بها تثبت الحجة، وتدرك المحجة.

والإمام عندنا أحد الدليلين على الحق من الشريعة، فإذا أودعه الذي استخلفه عليهم تفصيل كثيرٍ مما أجمل لهم، ونص على عينه، ومكَّن منه فقد أزاح عللهم، ولم يخرج ذلك عن القول بأنه بلّغهم وبيَّن لهم، ولا دَفَع ما قدمناه من وجوب الحاجة إلى إمام يرجعون إليه فيما كلفهم.

وجه آخر:

لو فرضنا أن النبي (ص) قد شمل جميع الأمة بالإبانة على سبيل التفصيل والجملة، ولم يخص أحداً منهم، ولا أخفى شيئاً عنهم، لم تسقط مع ذلك الإمامة، ولا جاز خلو زمان من حجة– لأن النبي (ص) علَّم أهل عصره، وبيَّن

لمن كان في وقته ودهره، وكانت أحوالهم مختلفة، وأسباب إختلافها معهودة معروفة.

فمنهم الذكي الرشيد، والبطيء البليد، والمحب للعلم مع شغله بدنياه، والمنقطع إلى العمل والزهد دون ما سواه، والمتوفر على العلم المواظب عليه، والمتضجر منه الزاهد فيه، والمجتهد في الحفظ مع كثرة نسيانه، والمعتمد يعتبر ما [يسعه][1] إيمانه.

هذا مع عدم العصمة عنهم، وجواز الغلط منهم. ولذلك حصل الإختلاف بينهم، وتضادت رواياتهم، ووقع في الحيرة العظمى من عَوَّل في دينه عليهم.

ولم يكن الله سبحانه ليلجيء عباده بعد نبيه (ص) إلى غير حفظة لما استودعوه، ولا منفقين فيما رووه ونقلوه.

ولسنا نجد عَلَماً على يد بعضهم، يستدل به على أمانتهم وصدقهم، ولا عصمة لهم يؤمن معها من تحريفهم أو غلطهم.

هذا مع ما نعلم من عدمهم[2] أكثر النصوص في الأحكام، والتجائهم بعدمها إلى الإجتهاد والقياس، والأخذ في الدين بالظن والرأي، الموقع بينهم الإختلاف، والمانع من الإتفاق والإئتلاف.

فعلمنا أن الله سبحانه قد أزاح علل المكلفين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله الطاهرين، بالأئمة الراشدين، الهداة المعصومين، الذين أمر الله تعالى بالرد إليهم، والتعويل عليهم فقال عز من قائل:

«ولو ردوه إلى رسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم» النساء: ٨٣

وقال النبي (ص):

---

(١) في النسخة يسمعه.

(٢) يريد بقوله (من عدمهم) عدم إحاطتهم بأكثر النصوص.

«إني مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي »[1].

ووجه آخر:

ولو قدرنا أن الأمة قد سمعت جميع علوم الشريعة، فوعت وأحاطت بتفاصيل أحكامها، وحفظت واتفقت فيما روت ونقلت، وسقطت مَعَرَّة الإختلاف عنها، واستقر الإتفاق منها. لم يغن ذلك عن الأئمة، ولا جاز عدمهم، على ما يقتضيه العدل والحكمة، لأن الأمة على كل حالٍ يجوز عليها الشك والنسيان، ويمكن منها الجحد والكتمان.

وعلى ذلك حجج يجدها من أنعم الإستدلال، لولا الغرض في ترك الإطالة، لأوردنا طرفاً منها في هذا الجواب.

وللمسؤل أن يبني جوابه على أصله المستقر عنده على قوله، إلى أن ينقل الكلام إليه، فتكون المنازعة فيه.

وإذا جاز على الأمة ما ذكرناه، لم يكن حفظها واتفاقها الذي قدرناه، بمؤمِّنٍ من وقوع ما هو جائز عليها، وحصول ما هو متوهم منها.

وفي جواز ذلك مع عدم الأئمة جواز سقوط الحجة عن الأمة، إذ لا معقل يدرك منه الصواب، [يكون][2] حافظاً للشرع والكتاب.

وفي هذا أوضح البيان عن وجوب الحاجة إلى الإمام في كل زمان.

وجه آخر:

ولو أضفنا إلى ما فرضناه وقدرنــا، وجوده، وتوهمناه من سماع الأُمة لجميع تفاصيل الأحكام، وإيرادها على إتفاقٍ ونظامٍ، نفي[3] جواز الشك

---

(١) هو مروي على اختلاف في بعض ألفاظ في صحيح الترمذي ومسلم ومستدرك الصحيحين ومسند أحمد وغيرهم الكثيرين أنظر: فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج٢ ص ٤٣ – ٥٢.

(٢) في النسخة يكن. ولا موجب لجزمها.

(٣) في العبارة قلق واضطراب.

والنسيان عنها، وإحالة الجحد والكتمان منها، لم يغن ذلك عن إمامٍ في كل زمان، حسبما يشهد به الدليل العقلي والبرهان.

وذلك أنا وجدنا اختلاف طبائع الناس وشهواتهم، وتباين هممهم وإرادتهم، وميل جميعهم في الجملة إلى الرياسة، ومحبتهم لنفوذ الأمر، ووجوب الطاعة، ورغبتهم في حرز الأموال، وتطلعهم إلى نيل الآمال، وارتكاب أكثرهم للمقبحات، وتسرعهم إلى ما يقدرون عليه من الشهوات، مع وكيد تحاسدهم، وشديد تظالمهم الذي لا ينكره إلا من دفع الضرورات، وأنكر المشاهدات. يقضي ذلك في العقول عند ذوي التحصيل، بأن صلاح أحوالهم، وانتظام أمورهم، وحراسة أنفسهم وأموالهم، لا يتم إلا بوجود رئيس لهم، ومتقدم عليهم، يكون مسدَّداً فيما يمضيه من تدبيرهم، موفقاً للصواب فيما يراه لهم وعليهم، يقيم بهيبته عوجهم، ويرد بيده أودهم، ويجمع برأيه متشتتهم، ويقهر بتمكنه معاندهم، ويمنع القوي من الضعيف، ويسوسهم بالسوط والسيف.

وفي عدم الرئيس- وهم على ما ذكرناه- فساد أحوالهم، وانقطاع نظامهم، وحصول الهرج منهم، ووجود الحيرة والفتنة بينهم، التي هي سبب تلافهم، وهلاك أنفسهم.

وهذا أمر يعلم العقلاء صحته ممن أقر بالشرع، وجحده، قال الأفوه الأودي وكان جاهلياً:[1]

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وإذا كان الله تعالى إنما خلق خلقه لنفعهم، وأحياهم لصلاحهم ومراشدهم، فإنه في عدله وحكمته، ورأفته ورحمته، لم يخلهم في كل زمان من رئيسٍ يكون لهم، وإمام في الدين والدنيا عليهم.

---

(١) هو صلاءة بن عمرو بن مالك الأودي من بني أود، والأفوه لقب كان له، وهو من سادات العرب في الجاهلية المعروفين بالرأي والحزم، ومن الشعراء المشاهير، وكان فارساً مغواراً توفي سنة (٥٧٠م) وفي شعره فكر وحياة.

ووجه آخر:

ولو رفعنا الدليل العقلي الذي أوردناه، مع تسليم ما ذكرناه وقدمناه، لم يدفع ذلك وجوب الحاجة إلى الإمام، ولا جاز معه أن تعدمه الأنام.

لأن الأُمة مجمعة على أن في الشريعة أحكاماً تفتقر إلى من ينفذها، وحدوداً على الجناة تحتاج إلى من يتولاها.

وهي مقرة بأن الله تعالى ما جعل ذلك لها، وأنه لا يسع ولا يجوز إهمالها وتركها. فوجب أن يكون للناس إمام في كل زمان، ينفذ الأحكام، ويقيم حدود شريعة الإسلام، حافظاً للبيضة من الكفار، دافعاً عن المسلمين أسباب الأذى والمضار، يسير فيهم بالهدى والصواب، لا يتعدى ما يوجبه العقل والكتاب.

والحمد لله قد أوردت لك أيها الأخ الفاضل أدام الله توفيقك ما حضرني من وجوه الأجوبة عن هذا السؤال، وفي بعضه كفاية وبيان لمن أراد الإستدلال. والحمد لله وصلواته على سيدنا محمد رسوله وآله وسلامه وحسبي الله ونعم الوكيل.

فصل من الحديث:

حدثنا الشيخ أبو الحسن بن أحمد بن علي بن شاذان القمي، قال حدثنا أحمد بن محمد بن عبد الدين عباس، قال: حدثنا محمد بن عمر، قال حدثنا الحسن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن العباس الرازي، قال: حدثني علي بن موسى الرضا عن أبيه موسى عن أبيه جعفر عن أبيه محمد عن أبيه علي عن أبيه الحسين عن أبيه أمير المؤمنين عليهم السلام قال: قال رسول الله (ص):

«من مات وليس له إمام من ولدي مات ميتة جاهلية، يؤخذ بما عمل في الجاهلية والإسلام».[1]

---

(١) روى هذا الحديث الصدوق القمي في كتاب عيون خبار الرضا ج٢ ص ٥٨. وروى البرقي فى كتاب المحاسن ص ١١٦ - ١١٧ عدة أحاديث بهذا المعنى
وصرح الشهيد الثاني في حقائق الايمان ص ١٦١ بأنه من مشاهير الأحاديث بين السنة والشيعة، وأن السنة أوردوه في كتب أصولهم وفروعهم، وصرح الشيخ المفيد في كتاب بالأفصاح ص٣ بأنه هذا الحديث متواتر، وعن الحميدي أنه أخرجه في الجمع بين الصحيحين، وعن الحاكم النيسابوري أنه أخرج عن ابن عمر أنظر: منتخب الأثر ص ١٥ هامش.

وقال حدثني أبو المرجا محمد بن علي بن طالب البلدي، قال: حدثنا أبو القاسم عبد الواحد بن عبد الله بن يونس الموصلي عن أبي علي محمد بن همام بن سهل عن عبد الله بن جعفر الحميري عن الحسن بن علي بن فضال عن محمد بن أبي عمير عن أبي علي الخراساني عن عبد الكريم بن عبد الله عن مسلمة بن عطا عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام، قال خرج الحسين بن علي صوات الله عليه ذات يوم على أصحابه فقال بعد الحمد لله جل وعز والصلاة على محمد رسوله صلى الله عليه وآله:

«يا أيها الناس ان الله- والله- ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته من سواه».

فقال له رجل: بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله، ما معرفة الله.

قال: معرفة أهل كل زمان إمامهم الذي يجب عليهم طاعته»

اعلم انه لما كانت معرفة الله وطاعته لا ينفعان من لا يعرف الإمام، ومعرفة الإمام وطاعته لا ينفعان إلا بعد معرفة الله، صح أن يقال إن معرفة الله هي معرفة الإمام وطاعته.

ولما كانت أيضاً المعارف الدينية العقلية والسمعية تحصل من جهة الإمام، وكان الإمام آمراً بذلك، وداعياً إليه صح القول: إن معرفة الإمام وطاعته هي معرفة الله سبحانه. كما نقول في المعرفة بالرسول صلى الله عليه وآله وطاعته إنها معرفة بالله سبحانه، قال الله عز وجل:

(من يطع الرسول فقد أطاع الله).

وما تضمنه قول الحسين عليه السلام من تقدم المعرفة على العبادة، غاية في البيان والتنبيه.

وجاء في الحديث عن طريق العامة عن عبد الله بن عمر بن الخطاب أن رسول الله (ص) قال:

«من مات وليس في عنقه بيعة الإمام أو ليس في عنقه عهد الإمام مات ميتة جاهلية».

وروى كثير منهم أنه عليه السلام قال:

« من مات وهو لا يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية » .

وهذان الخبران يطابقان المعنى في قول الله تعالى:

« يوم ندعو كل أناس بإمامهم، فمن أُوتي كتابه بيمينه فاؤلئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا ». الإسراء: ٧١

وقال الخصوم: إن الإمام ههنا هو الكتاب

قيل لهم: هذا انصراف عن ظاهر القرآن بغير حجة توجب ذلك ولا برهان، لأن ظاهر التلاوة يفيد أن الإمام في الحقيقة هو المقدم في الفعل، المطاع في الأمر والنهي، وليس يوصف بهذا الكتاب، إلا على سبيل الإتساع والمجاز. والمصير إلى الظاهر من حقيقة الكلام أولى، إلا أن يدعو إلى الإنصراف عنه الاضطرار.

وأيضاً فإن أحد الخبرين يتضمن ذكر البيعة والعهد للإمام. ونحن نعلم أنه لا بيعة للكتاب في أعناق الناس، ولا معنى لأن يكون له عهد في الرقاب، نعلِم أن قولكم في الإمام أنه الكتاب غير صواب.

فإن قالوا: ما تنكرون أن يكون الإمام المذكور في الآية هو الرسول عليه السلام؟

قيل لهم: إن الرسول عليه السلام قد فارق الأمة بالوفاة، وفي أَحد الخبرين أنه إمام الزمان. وهذا يقتضي أنه حي ناطق موجود في الزمان. فأَما من مضى بالوفاة فليس يقال أنه إمام إلا على معنى وصفنا للكتاب بأنه إمام.

ولو أن الأمر كما ذكرنا لكان إبراهيم الخليل عليه السلام إمام زماننا، لأننا عاملون بشرعه، متعبدون بدينه، وهذا فاسد إلا على الإستعارة والمجاز.

وظاهر قول النبي (ص): من مات وهو لا يعرف إمام زمانه، يدل على أن لكل زمان إماماً في الحقيقة، يصح أن يتوجه منه الأمر، ويلزم له الإتباع. وهذا واضح لمن طلب الصواب.

ومن ذلك ما أجمع عليه أهل الإسلام من قول النبي عليه الصلاة والسلام:

« إني مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، وإنها لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض »[1].

فأخبر أنه ترك في الناس من عترته من لا يفارق الكتاب وجوده وحكمه، وأنه لا يزال وجودهم مقروناً بوجوده.

وفي هذا دليل على أن الزمان لا يخلو من إمام.

ومنه ما اشتهر بين الرواة من قوله:

« في كل خلفٍ من أمتي عدل من أهل بيتي، ينفي عن الدين تحريف الغالين وإنتحال المبطلين، وإن ائمتكم وفودكم إلى الله فانظروا من توفدون في دينكم ».

فصل: حديث عن الإمام الرضا:

حدثنا الشيخ الفقيه أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي بن الحسن بن شاذان القمي، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن صالح، قال: حدثنا سعد بن عبد الله[2]، قال: حدثنا أيوب بن نوح، قال: قال الرضا عليه السلام:

« سبعة أشياء بغير سبعة أشياء من الإستهزاء:

من استغفر بلسانه ولم يندم فقد استهزأ بنفسه.

ومن سأل الله التوفيق ولم يجتهد فقد استهزأ بنفسه.

ومن (استحزم)[3] (استجاب) ولم يحذر فقد استهزأ بنفسه.

ومن سأل الله الجنة ولم يصبر على الشدائد فقد استهزأ بنفسه.

ومن تعوذ بالله من النار ولم يترك الشهوات فقد استهزأ بنفسه.

ومن ذكر الله ولم يستبق إلى لقائه فقد استهزأ بنفسه.

---

(١) قد تقدم ذكر بعض مصادره.

(٢) هو أبو القاسم سعد بن عبدالله بن أبي خلف الأشعري القمي من شيوخ الطائفة وفقهائها له مؤلفات كثيرة ذكرها الطوسي في الفهرست ص ١٠١، عده الطوسي في رجاله من أصحاب الإمام الحسن بن علي العسكري توفي سنة ٢٩٩/٣٠١ وعن الخلاصة أنه توفي سنة ٣٠٠هـ.

(٣) هنا كلمة غير واضحة.

مسائل فقهية:

مسألة: إمرأة لها بعل صحيح البعولة، أمكنت نفسها من رجل كامل العقل، رضي الدين، فوطأها من غير حرج في ذلك عليها، والبعل المتقدم ذكره كاره لهذا الأمر كراهة الطباع، راضٍ به من جهة التسليم للشريعة رضا الاختيار.

(جواب): هذه امرأة نعي إليها زوجها، فاعتدت وتزوجت رجلاً مسلماً، فوطأها بالنكاح الشرعي حيث لا حرج عليها في ذلك، لعدم علمها ببقاء زوجها، ثم بلغ زوجها الأول ما فعلته، فكرهه من جهة الطباع، ورضي به من جهة التسليم لشرع الإسلام، فهي حلال للثاني، وإن كانت في عقد الأول إلى أن يحصل لها وللعاقد عليها علم ببقاء زوجها الذي نعي إليها. وهذا الجواب ليس فيه بين الأمة اختلاف.

- مسألة أخرى-

رجلان كانا يمشيان في فسقط على أحدهما جدار فقتله، فحرمت على الآخر في هذه الحال زوجته.

(جواب): هذا رجل زوج عبده ابنته وخرجا يمشيان فسقط على المولى الجدار، فصار العبد بذلك ميراثاً للبنت، فحرمت عليه في الحال، لملكها له، وعلى هذا الإتفاق.

- مسألة أخرى-

رجل غاب عن زوجته ثلاثة أيام فكتبت إليه الزوجة: أن قد تزوجت بعدك، وأنا محتاجة إلى نفقة، فأنفذ إلي ما أُنفقه على نفسي وعلى زوجي، فوجب لها ذلك عليه، ولم يكن له منه مخرج.

(جواب): هذه مسألة في معنى التي قبلها، وهي امرأة زوجها أبوها عبداً له، وأعطاه مالاً وأذن له في السفر والتجارة بالمال، فخرج العبد قبل أن يدخل بالجارية، فلما صار على يومين من بلده مات سيده فصار ميراثاً لابنته التي زوجه بها مولاه، فحرمت بذلك عليه وحلت للأزواج في الحال، إذ كان لا

عدة عليها، فتزوجت رجلاً ورضيت به، وأنفذت إلى عبدها بأن يحمل إليها من تركة أبيها التي في يده ما تصرفه فيما تشاء، فوجب ذلك عليه، وليس في هذا أيضاً اختلاف.

- أحاديث -

حدثني الشريف أبو الحسن طاهر بن موسى بن جعفر الحسين بمصر في شوال سنة سبع وأربعماية، قال: أخبرنا أبو القاسم عبد الوهاب بن أحمد بن حسن الخلال إجازةً، قال: حدثنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد العرابي إجازة، قال: حدثنا الطهراني أبو الحسن وحدثني محمد بن عبيد، قال: حدثتني أبو عبد الله الحسين بن أبي بكر، قال: حدثنا أبو الفضل، قال: حدثنا أبو علي ابن الحسن الثمار، قال: حدثنا أبو سعيد كلاهما عن أبي سعيد، واللفظ لمحمد قال: حدثنا الطهراني، قال: حدثنا عبد الرزاق قال حدثني معمر، قال: حدثني الزهري قال:

«أشخصني هشام بن عبد الملك من أرض الحجاز إلى الشام زائراً له، فسرت فلما أتينا أرض البلقاء، رأيت حبلاً أسود، وعليه مكتوب أحرفاً لم أعلم ما هي، فعجبت من ذلك، ثم دخلت (عمان) قصبة البلقاء، فسألت عن رجل يقرأ ما على القبور والجبال، فأُرشدت إلى شيخ كبير، فعرفته ما رأيت، فقال: أُطلب شيئاً أركبه، فحملته معي على راحلتي وخرجنا إلى الجبل، ومعي محبرة وبياض، فلما قرأه قال لي: ما أعجب ما عليه بالعبرانية، فنقلته إلى العربية فإذا هو:

«باسمك اللهم جاء الحق من ربك بلسانٍ عربي مبين. لا إلّه إلا الله محمد رسول الله وعلي ولي الله صلى الله عليهما، وكتب موسى بن عمران بيده».

وحدثني الحسين بن محمد بن علي الصيرفي البغدادي، وكان مشتهراً بالعناد لآل محمد عليهم السلام، والمخالفة لهم قال: حدثنا القاضي أبو بكر محمد بن عمر ابن محمد التميمي المعروف بالجعابي سنة ثلاثماية وخمسين، قال حدثنا محمد بن محمد ابن سليمان بن الحارث، قال: حدثنا أحمد بن يزيد بن سليمان، قال: حدثنا إسماعيل بن أبان، قال حدثنا أبو مريم عن عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله (ص):

« الله ربي ولا إمارة لي معه ، وأنا رسول ربي ولا إمارة معي ، وعلي ولي من كنت وليه ولا إمارة معه ».

وسمعت من هذا الراوي المخالف عدة فضائل لآل محمد عليهم السلام ، سَخَّره الله لنقلها فرواها راغماً ،حجةً عليه بها ، قد ذكرت في هذا الكتاب طرفاً منها .

وحدثني أبو الحسن على بن أحمد اللغوي المعروف بابن زكار بميافاقين في سنة تسع وتسعين وثلاثمائة قال: دخلت على أبي الحسن علي بن السلماني رحمه الله في مرضته التي توفي فيها ، فسألته عن حاله ، فقال الحقتني غشية أغمى علي فيها ، فرأيت مولاي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه قد أخذ بيدي وأنشأ يقول:

طوفـــان آل محمـــدٍ في الأرض غرّق جهلهـــا
وسفينهم حمل الـــذي طلـــب النجـــاة وأهلهـا
فاقبـــض بكفـــك عروةً لا تخش منهـــا فصلهـــا

وحدثني الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسين بن طاهر الحسيني قال حدثني أبي عن أبي الحسن أحمد بن محبوب ، قال: أبا جعفر الطبري يقول: حدثنا هناد بن السري ، قال رأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلى الله عليه وآله ، في المنام ، فقال لي: يا هناد قلت: لبيك يا أمير المؤمنين ، قال: أنشدني قول الكميت:

ويوم الـــدوح دوح غدير خم أبـــان لنـــا الولابـة لو أطيعـا
ولكن الرجـــال تبايعوهـــا فـــلم أر مثلهـــا أمراً شنيعـا

قال: فأنشدته ، فقال لي: يا هناد خذ إليك ، فقلت: هات يا سيدي ، فقال عليه السلام:

ولم أر مثـــل ذاك اليوم يومـاً ولم أر مثلـــه حقـــاً أُضيعـــا

وكثيراً ما أذكر قول شاعر آل محمد (ع): رحمة الله عليه:

جعلوك رابعهم أبـــا حسنٍ ظلموك حـــق السبـــق والصهر
وإلى الخلافـــة سابقوك ومـــا سبقوك في أُحـــدِ ولا بـــدر

- القرآن يدل على إمامة علي (ع) -

دليل من القرآن على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام.

قال الله عز وجل:

« إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » المائدة: ٥٥

فقوله سبحانه (وليكم) المراد به الأولى بكم والأحق بتدبيركم، والقيم بأموركم، ومن تجب طاعته عليكم.

وهذا هو معنى الإمام بقوله تعالى: (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون).

المراد به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، لأنه كان قد تصدق بخاتمه وهو راكع في الصلاة.

فتقدير الآية: إنما المدبر لكم والمتولي لأموركم والذي تجب طاعته عليكم، الله ورسوله وعلي بن أبي طالب.

وهذا نص من القرآن على إمامة أمير المؤمنين (ص).

فإن قال لنا المخالفون: دلّوا أولاً على أن قوله (وليكم) المراد به ما ذكرتم.

قلنا: أما كون لفظه ولي مفيدة لما ذكرناه فظاهر ليس فيه إشكال. ألا ترون الناس يقولون: هذا ولي المرأة، يريدون أنه المالك لتدبير أمرها في إنكاحها، والعقد عليها.

ويصفون عصبة المقتول بأنهم أولياء الدم، من حيث كانوا مستحقي المطالبة بالدم.

ويقولون: إن السلطان ولي أمر الرعية أجمعين، وفي من رشحه بخلافته عليهم، إنه ولي عهد المسلمين.

ومن حيث كان إلى الولي النظر والتدبير قال الكميت:

ونعم ولي الأمر بعــــد وليـــــه ومنتجـــــع التقوى ونعم المؤدب

وفي الجملة، إن كان من كان والياً الأمر ومتحققاً بتدبيره فهو وليه وأولى به.

هذا هو المعروف في اللغة والشرع معاً، فيثبت به ما ذكرناه.

فإن قال المخالفون: قد سلمنا لكم أن لفظه (وليكم) تحتمل ما ذكرتم، ولكنها قد تحتمل أيضاً سواه، ويجوز أن يكون المراد بها الموالاة في الدين كقوله سبحانه.

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ». التوبة: ٧١

قلنا لهم: إن هذه الآية التي ذكرتموها عامة في سائر المؤمنين. والآية التي احتججنا بها لا يصح أن يكون مراد الله تعالى فيها: (والذين آمنوا) إلا البعض دون الجميع.

وذلك أنه ميز فيها من أراده من المؤمنين بصفة الزكاة في حال الركوع، وجعله ولياً للجميع، وأنتم لا تخالفون في أن هذه الصفة خاصة في بعض المؤمنين، فوجب أن يكون قوله (والذين آمنوا) خاصاً كذلك، لأنها صفة لهم بظاهر التنزيل. ولو أراد بقوله (والذين آمنوا) العموم لجميع المؤمنين لكان الإنسان ولياً لنفسه، وهذا لا معنى له.

وقوله في الآية (إنما) شاهد بصحة التخصيص ونفي المثبت عن من سوى المذكورين. وهي كقول القائل: إنما صديقك من نصحك، فقد نفى (إنما) صحة الصداقة عمن لم ينصح.

وثبوت ما ذكرناه من التخصيص في قوله (والذين آمنوا) يعلم أن المراد بالولي هو المدبر للكافة والإمام القدوة.

ولو كان المراد مجرد الموالاة في الدين لبطل هذا التخصيص.

ووجه آخر: في الجواب عما ذكروه وهو أن الله تعالى ذكر في الآية التي احتججنا بها أمراً، بدأ فيه بنفسه، ثم ثنى برسوله (ص) ثم ثَلَّثَ بمن ذكره من المؤمنين، فوجب أن لا يصرف قوله (وليكم) إلا إلى ما هو مستحق لله ولرسوله (ص) وإذا كان كذلك فالذي آمنوا المذكورون في الآية يستحقون نظير ذلك

بعينه. وفي هذا دليل على أن المراد تولي التدبير ولزوم الطاعة والأمر والنهي في الجماعة.

فإن قال الخصوم: فإذا ثبت لكم أن مراده سبحانه في الآية التي احتججتم بها من قوله: (والذين آمنوا) هو بعض الأمة دون جميعها، وسلم لكم أيضاً أن معنى قوله (وليكم) فيها هو معنى الإمامة على الصفة التي تذكرونها، فما الدليل على أن أمير المؤمنين (ع) هو المراد في الآية والمقصود فيها؟

قلنا: الدليل على ذلك نقل أصحاب الحديث من الفريقين أنها نزلت في أمير المؤمنين (ع)، وأنه الذي تصدق بخاتمه على السائل، وهو راكع.

ولم يخالف في ذلك إلا من نشأ من متكلمي ذي المتكلمين، وليس الإنكار يقوم مقام الإقرار، ولا مجرد النفي بقادحٍ في الإثبات، وإذا اتفق على رواية شيءٍ جميع أهل النقل كان ذلك حجة على من له تمييز وعقل.

فإن قالوا: كيف يصح في ذلك الإتفاق، وقد روي أن الآية نزلت في عبد الله بن سلام؟

قلنا: يصح لنا ذلك من حيث أن هذه رواية واحدٍ، وأخبار الآحاد لا تزيل الإتفاق إلى الحاصل من جملة الأخبار. والقول الشاذ لا يقدح في الإجماع.

على أن الذي روى أنها نزلت في عبد الله بن سلام، قد تصفحت عليه الحال، واشبهت القصة بشهادة نقاد الأخبار.

وذلك أنه لما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه، قالت اليهود: والله لاجالسناك، ولا كلمناك، ولنقطعن ولايتنا منك ومن أصحابك، ولا نصرناك. فشكا ذلك إلى رسول الله (ص)، فأنزل الله تعالى:

«إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون ويؤتون الزكاة وهم راكعون، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون». المائدة: ٥٥- ٥٦.

فخرج النبي (ص) إلى المسجد، فقال: هل سأل سائل فأعطاه أحد شيئاً؟ قالوا: نعم، يا رسول الله، رجل كان في المسجد يسأل فأعطاه علي (ع) خاتمه وهو راكع. فقال النبي (ص): الله أكبر، إن الله تعالى قد أنزل فيه قرآناً، وتلا عليهم الآيتين، ثم دعا عبد الله بن سلام وأصحابه، فقال لهم: قد عوضكم الله من اليهود أولياء، وتلا عليهم الآيتين. فظن بعضهم من أهل الغفلة أنها من أجل ذلك نزلت في عبد الله بن سلام.

ومن رجع إلى كتب التفاسير ونقل أصحاب الحديث، علم أن الأمر على ما وصفناه. والكاف والميم في قوله سبحانه (وليكم) خطاب لجميع الأمة حاضرهم وغائبهم وموجودهم ومن سيوجد منهم، وهو كقوله كتب عليكم الصيام. وإنما حضر رسول الله (ص) عبد الله بن سلام وأصحابه وتلا عليهم الآيتين ليبشرهم بدخولهم في جملة من يكون وليهم الله ورسوله وأمير المؤمنين.

فإن قالوا: إن الآية تضمنت ذكر الجميع بقوله: (والذين آمنوا) فكيف يصح لكم إنها في واحد؟

قلنا لهم: قد يعبر بلفظ الجمع تعظيماً لشأنه، ولا ينكر ذلك في اللغة، بل يستعمله أهلها. وقد قال الله عز وجل: (إنا أرسلنا إلى قومه). وقال تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له الحافظون): الحجر: ٩.

وقد علمنا أن الله أرسل نوحاً وحده، وانه نزل الذكر وحافظه [وحده] ونظير ذلك كثير.

فإن قالوا: ما أنكرتم ان يكون المراد بقوله (والذين آمنوا) الجميع، ويكون المعنّي فيه أنهم المؤمنون الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم في إتيانها خاشعون متواضعون، لا يمنون ولا يتكبرون. ويكون هذا معنى قوله (راكعون) دون ما ذهبتم إليه من أن يؤتي الزكاة في حال ركوعه؟

قلنا: هذا غير صحيح، لأن الركوع لا يفهم في اللغة والشرع معاً إلا أنه التطأطؤ المخصوص دون التواضع والخضوع، وإنما يوصف الخاضع بأنه راكع

على سبيل المجاز والتشبيه، قال الخليل بن أحمد[1] صاحب كتاب العين: كل من ينكب لوجهه فمس ركبته الأرض أولا تمسّها راكع، وأنشد للبيد:

أُخــبرُ أخبــار القرون الـتي مضت
أَدَبُّ كــأني كلما قمــت راكــع

فإن قالوا: فما تنكرون أن يكون قوله: (ويؤتون الزكاة) وصفاً لهم بإتيانهم، وقوله (وهم راكعون) ليس المراد أنهم أعطوها في حال ركعوهم، وإنما معناه أن الركوع من شأنهم وعادتهم، فوصفهم به وإن كانوا يفعلونه في غير وقت إعطاء الزكاة؟

قلنا: أنكرنا ذلك من حيث هو خروج عن ظاهر الكلام المفيد أن الزكاة كان في حال ركوع الصلاة ولا طريق إلى الإنصراف عن الظاهر مع الإختيار.

ومثل ذلك قولهم: فلان (يغشى إخوانه وهو راكب) وظاهر هذا يدل على أنه راكب في حال غشيانه إخوانه، وأن الزمان في الأمرين واحد.

وشيء آخر وهو أنا متى قلنا إن الزكاة لم تكن في حال الركوع، أدّى الكلام إلى التكرار، لأن وصفهم بإقام الصلاة، فإذا وصفهم بعد ذلك بأنهم راكعون، وهو يريد يصلون،تكرر الوصف بالصلاة، لأن الركوع داخل في قوله: (يقيمون الصلاة).

فإن قالوا: فأمير المؤمنين علي (ع) لم يكن يلزمه عندكم زكاة، لأنه لم يكن من ذوي اليسار.

قلنا: لسنا نقطع على أن الزكاة لم تجب عليه قط، وربما ملك أدنى مقادير

---

(١) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي ولد في البصرة سنة ١٠٠ وتوفي سنة ١٧٠هـ من أئمة اللغة والنحو والأدب والعروض وأخبار العرب، وهو الذي اخترع علم العروض ووضع قواعده وأحكم أساسه، وأول من صنف في علم اللغة، ووضع كتابه (العين) ولم يتمه، وله مؤلفات منها: كتاب النغم، وكتاب العروض، وكتاب الشواهد، وكتاب النقط والشكل، وكتاب فائدة العين، وكتاب الإيقاع. وكان من الزهاد المنقطعين إلى العلم. وتجد الكلام على كتابه العين في فهرست ابن النديم ص ٦٤.

النصاب، وأتى وقت الزكاة وهو في يديه، وليس يقال لمن ملك مأتي درهم أنه موسر، لا سيما إذا اتفق له وجوب الزكاة منها وقتاً واحداً.

وقد يجوز أيضاً أن تكون هذه الزكاة نافلة، لم تكن عليه واجبة، ولا مانع أن يُسمّى النفل من الصدقة زكاةً، لأنه متناول للفرض منها، في كونه إعطاءً يستحق عليه النمو في الحسنات والزيادة والمثوبات، فإن كان لفظ الزكاة عندكم مشتركاً في النافلة من الصدقة والفريضة فقد توجه على الظاهر جوابنا. وإن كان عندكم أن المستفاد من ظاهر لفظ الزكاة إنما هو المفترض منها دون ما سواه، كنا ممن صرفنا عن الظاهر وورود الأخبار المجمع عليها بأن الآية نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام. مع أنه لم تلزمه قط فريضة الزكاة، فلا بد من حمل ذلك على زكاة النافلة، وإلا خصصنا الأخبار.

فإن قالوا: فكيف ساغ لأمير المؤمنين (ع) الصدقة في حال الصلاة؟ أوليس ذلك إبطالاً لها وإشتغالاً بغيرها؟

قلنا: أقرب ما في هذا أنا غير عالمين أن جميع الأفعال المنهي عنها اليوم في الصلاة كانت محظورة، كلها في تلك الحال. فيجوز أن يكون هذا قبل ورود حظر هذه الأسباب.

وقد قيل أن الكلام قد كان مباحاً في الصلاة ونهي عنه بعد ذلك. ولو لم يكن الأمر كذلك لم يلزم ما ذكرتموه في السؤال، لأن الذي فعله أمير المؤمنين (ع) لم يكن شاغلاً عن القيام بحدود الصلاة، بل جاز أن يكون أشار إلى السائل إشارة خفية لا يقطع بمثلها الصلاة، فهم منها مراده، وأخذ الخاتم من يده.

فكيف تنكرون هذا، وأنتم ترون اتفاق الفقهاء على أن يسير العمل في الصلاة لا يقطعها على حال.

والذي يدل على أنه (ع) لم يشتغل بالإعطاء عن استيفاء شرائط الصلاة نزول المدح له في القرآن، والإضافة إلى المدح تقديمه ولياً للأنام.

فان قالوا: فإذا ثبت أنه بهذه الآية أمام للخلق، فما تنكرون أن يكون المراد استحقاقه لذلك بعد عثمان؟

قلنا: أنكرنا ذلك من قِبلَ ان كل من ثبت له الإمامة بها يوجبها بعد رسول الله (ص) في كل حال، ولا يخص بذلك حالاً دون حال.

وأنكرنا ذلك من قِبلَ أن الله تعالى ولينا ورسوله (ص) في كل حال، وقد عطف ذكر أمير المؤمنين على اسم رسول الله عليهما السلام، فوجب أن يستحق ذلك أيضاً في كل حال، كما استحقه الرسول عليه السلام من غير إنفصال.

ولولا قيام الدلالة على أنه ليس في وقت رسول الله (ص) قدوة للخلق سواه ولا إمام، لكان أمير المؤمنين صلوات الله عليه، يستحق هذا المقام مذ نزلت الآية وما اتصل من غير فاصلة بولاية ولا اهمال.

والحمد لله الهادي إلى الحق بواضح البرهان.

فصل من مستطرفات مسائل الفقه في الإنسان

مسألة: إثنان تزوج كل واحد منهما أم الآخر فرزقا منهما ولدين، ما قرابة بين الولدين؟

جواب: كل منهما واحد منهما عم الآخر، لأنه أخو أبيه من أمه.

مسألة: إثنان تزوج كل واحد منهما بنت الآخر فرزقا ولدين، ما قرابة الولدين؟

جواب: إن كل واحد منهما خال الآخر، لأنه اخو أمه، وهو أيضاً ابن أخته.

مسألة: إثنان تزوج كل واحد منهما أخت الآخر ورزقا منهما ولدين، ما قرابة بين الولدين؟

جواب: إن كل واحد منها ابن عمة الآخر وابن خاله.

مسألة: رجلان تزوج كل واحد منها جدة الآخر لأبيه، فرزقا منهما ولدين، ما قرابة ما بين الولدين وبين الرجلين وما قرابة ما بين الولدين؟

جواب: إن كل واحد من الولدين عم الرجل المتزوج أم أبيه، لأن الرجل

ابن جدته لأبيه، والولد أخو أبيه وكل واحد من الولدين ابن أخي صاحبه وعم أبيه.

مسألة: رجلان تزوج كل واحد منهما جدة الآخر لأمه فرزقا منهما ولدين، ما قرابة ما بين الولدين والرجلين، وما قرابة ما بين الولدين؟

جواب: إن كل واحد من الولدين خال الرجل المتزوج أم أمه، لأن الرجل ابن جدته لأمه، والولد أخو أمه من أمها، وكل واحد من الولدين ابن أخت صاحبه وخال أبيه.

أنشدنا الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي رحمه الله:

قد آن أن يبلغك الصوت ... أنائم قلبك أم ميت

يا باني البيت على غيره ... أمامك المنزل والبيت

وإنما الدنيا على طولها ... ثنية مطلعها الموت

وله أيضاً:

إذا مضى يوم على هدنةٍ ... وأنت في شك من النائبات

فعاجل الفرصة قبل الردى ... وبادر الليلة قبل البيات

واسبق وفي حبلك أنشوطة ... ضغط الليالي بيد الحادثات

لغيره:

أشح على ملكي وأحميه دائباً ... وسوف برغم الأنف أخرج عن ملكي

فما لي لا أبكي لنفسي وهلكها ... إذا كنت قد وطنت نفسي على الهلك

فإن كنت لا أدري متى أنا ميت ... فلست من الموت المنغص في شك

وموضع قبري أن أكن قد جهلته ... فلي خبرة بالعرض والطول والسمك

كأني أرى نفسي وحولي جماعة ... يكفنني بعض وبعضهم يبكي

وذكروا أن أحد الأئمة صلوات الله عليهم، استدعاه السلطان في ذلك الزمان، وأظن أن الإمام كان محمد بن علي الرضا عليهم السلام[1]، وإن المستدعي كان

(١) كان الإمام الذي وقعت معه هذه القصة هو الإمام علي بن محمد الهادي (ع) كما في تذكرة الخواص ص ٣٦١ وفي مروج الذهب ج ٤ ص ٩٤.

المتوكل، قالوا: فلما دخل إليه وجده في قبةٍ مزينة في وسط بستان، وبيده كأس فيها خمر، فقربه وهم أن يناوله الكأس فامتنع الإمام عليه السلام، فقال: إنا أهل بيت ما خامرت لحومنا ودماءنا ساعة قط، قال: فقال أنشدني شعراً فأنشده الإمام عليه السلام:

باتوا علـى قلـل الأجبـال تحرسهم
غلـب الرجـال فـلم تنفعهم القلـل
واستنزلوا بعـد عزٍ من معاقلهم
فأسكنوا جفراً يـا بئس مـا نزلوا
ناداهم صـارخ من بعـد مـا دفنوا
أين الأسرة والتيجـان والحلـل
أين الوجوه الـتي كانـت محجبـةً
من دونهـا تضرب الأستـار والكلـل
فأفصـح القـبر عنهم حـين ساءلهم
تلـك الوجوه عليهـا الـدود تنتقل
قـد طـال مـا أكلوا دهراً ومـا شربوا
فأصبحوا بعـد طول الأكـل قد أُكلوا

قال: فضرب المتوكل بالكأس من الأرض وتنغص عيشه في ذلك اليوم.[1]

لمحمود بن الحسن الوراق:[2]

مضى أمسك الماضي شهيـداً مُعـدِّلاً
وأعقبـه يوم عليـك شهيـد
فـإن كنـت بالأمس اقترفـت إساءةً
افـتن باحسانٍ وأنـت حميـد

---

(١) أنظر: مروج الذهب ج٤ ص ٩٣ - ٩٤ ووفيات الأعيان لابن خلكان وتذكرة الخواص ص ٣٦١.

(٢) من شعراء الدولة العباسية، أكثر شعره في المواعظ والحكم روى عنه ابن أبي الدنيا، وتوفي الوراق في خلافة المعتصم العباسي في حدود سنة ٢٣٠هـ.

فيومـــك إن أعقبتـه عـــاد نفعـه
عليـــــك وماضي الأمس ليس يعود
ولا تُرج فعـل الخـير يومـاً إلى غـدٍ
لعـل غـداً يـأتي وأنـت فقيـد

وله أيضاً:

أعـــارك مالــه لتقوم فيـــه
بطاعتـــه وتعرف فضـــل حقــه
فـــلم تشكره نعمتــــه ولكن
قويــت عــلى معاصيــه برزقــه
تبــــارزه بهـــا أبـــداً وعوداً
وتستخفي بهـــا عن كـــل خلقــه

وله أيضاً:

يـا ناظراً يرنو بعينـي راقـدٍ ومشاهـدٍ للأمر غـير مشاهـد
منيـت نفسك ضلـة وأبحتهـا طرق الرجـاء وهن غـير قواصد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي درك الجنـان وفوز مـا للعابـد
ونسيـت أن الله أخرج آدمـاً منهـا إلى الدنيـا بذنـب واحـد

ولأبي العتاهية اسماعيل الجرار[1]:

قنّـع النفس بالكفـاف وإلا طلبـت منـك فوق مـا يكفيهـا
ليس فـيما مضى ولا في الـذي لم يـأتِ من لـذة لمستحليهـا
إنما أنت طول عمرك ما عمرت والساعـة الـتي أنـت فيهـا

وله أيضاً في الدنيا:

يـا خاطـب الدنيـا إلى نفسهـا تنـح عن خطبتهـا تسلم
إن الـتي تخطـب غرارة قريبـة العرس من المـأتم

(١) هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني من مشاهير الشعراء في طبقة بشار وأبي نؤاس وأكثر شعره في المواعظ والزهديات ولد سنة ١٣٠هـ بعين الثمر وهي بليدة بالحجاز قرب المدينة المنورة ونشأ بالكوفة وسكن بغداد، وكان يبيع الجرار وتوفي سنة ٢١١هـ في بغداد.

المسيح يخاطب الدنيا

قال الشيخ أبو الفتح محمد بن علي الكراجكي (رض): حدثني القاضي أبو الحسن محمد بن علي بن محمد بن صخر الأزدي البصري عن النجري باسناده رفعه إلى أبي شهاب قال:

بلغني أن عيسى بن مريم عليه السلام قال للدنيا: يا إمرأة كم لك من زوج؟ قالت كثير، قال: فكلهم طلقك؟ فقالت: لا، بل كلهم قتلت، قال: أهؤلاء الباقون لا يعتبرون باخوانهم الماضين، كيف تورد بينهم المهالك واحداً واحداً، فيكونوا منك على حذر؟ قالت: لا.

وأُنشد: لبعضهم في الدنيا:

مزمومـــــة بالهم مخطومـــــة ... سم زعـــــاق در أخلافهـــــا
ولم تزل تقتـــــل ألافهـــــا ... أفٍ لقتالـــــة ألافهـــــا

فصل من كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله في الدنيا

قال عليه السلام:

أنا زعيم بثلاث لمن أكب على الدنيا! بفقر لا غناء له، وبشغل لا فراغ له، وبهم وحزن لا انقطاع له.

وقال عليه السلام:

«كونوا في الدنيا أضيافاً، واتخذوا المساجد بيوتاً، وعوِّدوا [قلوبكم][1] الرقة، وأكثروا التفكر والبكاء، ولا تختلفن بكم الأهواء. تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون».

---

(١) في النسخة بيوتكم.

فصل من كلام أمير المؤمنين صلوات الله عليه في هذا المعنى:

« من أصبح حزيناً على الدنيا، فقد أصبح ساخطاً على ربه تعالى، ومن كانت الدنيا أكبر همه طال شقاؤه وغمه. الدنيا لمن تركها، والآخرة لمن طلبها.

الزاهد في الدنيا كلما ازدادت له تحلياً ازداد عنها تخلياً. إذا طلبت شيئاً من الدنيا فزوي عنك فاذكر ما خصك الله به من دينك، وصرفه عن غيرك، فإن ذلك أحرى أن تستحق نفسك بما فاتك.

ومن بديع كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي حفظ عنه.

إن رجلاً قطع عليه خطبته وقال له: صف لنا الدنيا. فقال:

أولها عناء، وآخرها بلاء، [في] حلالها حساب، و[في] حرامها عقاب. من صح فيها أمن، ومن مرض فيها ندم، ومن استغنى فيها فُتن، ومن افتقر فيها حزن، ومن سعى لها[1] فأتته، ومن قعد عنها واتته، ومن نظر إليها ألهته، ومن تهاون بها نصرته.

ثم عاد إلى مكانه من خطبته صلى الله عليه وآله.

وهذه أعلى الرتب درجة في حضور الخاطب.

فصل:

من الكلام في تثبيت أمامة صاحب الزمان المهدي بن الحسن وامامة آبائه عليه وعليهم السلام.

أعلم - أيدك الله - إن الدليل على صحة امامته (ص) وإثبات غيبته ظاهر لمن نظره، قاطع لعذر من اعتبره، بين لمن تأمله، قريب لمن تناوله.

وهو مبني على أصلين، يشهد العقل بها ويدل عليها. أحدهما وجوب الامام في كل زمان، والآخر كونه معصوماً من السهو والخطأ والنسيان.

---

(١) في النسخة: (ساعاها).

فإذا علم المتأمل صحة هذين الأصلين وثبتا عنده بواضح الدليل ثبت له عقيبهما صحة الإمامة والغيبة لمن ذكرنا (ص)، ولم يحتج إلى تكرار رواية ولا تطويل،وذلك للظاهر المعلوم الذي لا لبس فيه، من حال من يُدَّعى لهم الامامة اليوم، سوى من أشرنا إليه، وتعريهم أجمعين عن استحقاق العصمة، ومماثلتهم في جواز الخطأ عليهم لسائر الأمة.

فعلم بذلك صحة إمامة صاحبنا صلوات الله عليه، وثبت لعدم ظهور غيبته حسبما ذهبنا إليه.

ولولا أنه الامام دون العالمين لبطل ما شهد به العقل من صحة الأصلين، وبطلانهما يستحيل مع قيام الدليل.

وهذه حجة بعيدة عن المعارضات، سالمة من دخول الشبهات، [سهلة][1] المرام، قريبة من الأفهام، وبها يستمر لك الاستدلال على نظام، في تثبيت إمامة. جميع ساداتنا عليهم السلام، لأن وجوب الامامة وثبوت العصمة لرئيس الامة مع ما علمناه من تعري الكافة من هذه الخصلة سائق إلى الإقرار بإمامة الأثني عشر صلوات الله عليهم، ومانع للعاقل من الإنصراف عنهم، والشك فيهم، ولم يبق بعدها أكثر من إيراد الدليل على صحة ما ذكرناه من الأصلين، وقد وجب انحسام مادة الخلاف ممن له عقل وانصاف.

دليل على وجوب الإمامة

أما الدليل أنه لا بد للناس من إمام في كل زمان فمختصره أنا نعلم علماً ليس للشك فيه مجال أن وجود الرئيس في الرعية، المطاع ذي الهيبة مقدماً ومثقفاً ومذكراً وموقفاً،[2] أردع لها من القبيح، وأدعى إلى فعل الجميل،

(١) في النسخة (سهل).

(٢) كذا في النسخة.ولعله: معرّفاً

وأكف لأيدي الظالمين، وأحرس لأنفس [المردوعين][1] ووجود الهرج بينهم ووقع الفتن منهم.

والعلم بما ذكرناه في ذلك مبني على الضرورات، والتنبيه عليه مع ظهوره يغني عن الإطالة والزيادات. وقد أتقن الكلام في هذه المسألة مشايخنا رضي الله عنهم، ولم يَدَّعوا للخصوم شبهة تستغرب منهم.

دليل على وجوب العصمة

وأما الدليل على وجوب عصمة الإمام فهو ان علة الحاجة إليه أن يكون لطفاً للرعية في الصلاح ليصدها عن ارتكاب القبائح والفساد، ويردها إلى فعل الواجب والسداد، حسبما تقدم به الذكر في وجوب الحاجة إليه في كل عصر. وهذا يقتضي أن لا تكون علة الحاجة إليه موجودة فيه، فإنه متى جاز منه القبيح وفعل غير الجميل كان فقيراً محتاجاً إلى إمام متقدم عليه، ويمنعه مما هو جائز منه، ويأخذ على يديه. ويكون الكلام في إمامته كالكلام فيه، حتى يؤدي ذلك إلى المحال من وجود أئمة لا يتناهون، أو إلى الواجب من وجود إمام معصوم. فعلم أن علة الحاجة إليه غير موجودة فيه والحمدلله.

دليل آخر على ثبوت عصمة الإمام

وما يعلم به ثبوت العصمة للأئمة أن الإمام قدوة في الدنيا والدين، واتباعه مفترض من رب العالمين، فوجب أن لا يجوز الخطأ والزلل عليه، وإلا كان الله تعالى قد أمر باتباع من يعصيه، ولولا استحقاقه العصمة لكان إذا ارتكب المعصية [يتضاد مع] التكليف على الأمة، وتصير الطاعة منها معصية، والمعصية طاعة، وذلك أنها مأمورة باتباعه والاقتداء به، فمتى اتبعته في المعصية امتثالاً للمأمور من الاقتداء لكانت من حيث الطاعة عاصية لله سبحانه، ومتى خالفته ولم تقتد به طلباً لطاعة الله تعالى كانت أيضاً عاصية لمخالفتها لمن أُمرت بالإقتداء به واتباعه. وفي استحالة جميع ذلك دلالة على عصمته.

---

(١) في النسخة الرادعين.

وليس لأحدٍ أن يقول إن الاقتداء بالإمام واجب على الرعية فيما علمت صوابه فيه. لأن هذا القول يخرجها من أن تكون مقتديه به، إذ كانت إنما عرفت الصواب بغيره لا بقوله وبفعله. فهي إذا عملت[1] بما عمل لمعرفتها بصوابه فيه إنما وافقته في الحقيقة ولم تقتد به وتتبعه.

ولو جاز أن يكون إماماً لها في شيء عرفت صوابه بغيره لكانت اليهود أئمة للأمة في الإقرار بموسى عليه السلام، لموافقتها لهم في العلم بصحة نبوته.

وهذا يدل العاقل على أن القدوة المتبع هو من عرف الحق به وبقوله وفعله. فقد بان واتضح ثبوت الأصلين من وجوب الإمامة والعصمة، وبثبوتها قد انتظم لنا ما قدمناه من الدليل. وفي ذلك كفاية وغنىً عن التطويل، والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد رسوله وآله الطاهرين.

حدثني القاضي أبو الحسن أسد بن إبراهيم السلمي الحراني قال أخبرني أبو جعفر عمر بن علي العتكي قال أخبرني أحمد بن محمد بن صفوة قال حدثني الحسن بن علي بن محمد العلوي قال حدثني الحسن بن حمزة النوفلي قال أخبرني عمي عن أبيه عن جده قال أخبرني الحسن بن علي قال أخبرتني فاطمة ابنة رسول الله (ص) عنه (ص) قال أخبرني عن كاتبي عليٍ انهما لم يكتبا على عليٍ ذنباً مذ صحباه.

وحدثني السلمي عن العتكي قال حدثني سعيد بن محمد الحضرمي قال حدثنا الحسن بن محمد بن عبد الرحمن الصدفي قال حدثني محمد بن عبد الرحمن قال حدثنا أحمد بن إبراهيم العوفي عن أحمد بن أبي الحكم البراجمي عن شريك بن عبدالله عن أبي الوفا عن محمد بن ياسر بن عمار بن ياسر عن أبيه عمار قال سمعت النبي (ص) يقول: أن حافظي علي يفتخران على سائر الحفظة بكونهما مع علي (ع). ذلك أنهما لم يصعدا إلى الله عز وجل بشيء منه فيسخطه.

---

(١) في النسخة علمت.

فصل من كلام أمير المؤمنين (ع) وحكمه

قال علي (ع):

لم يمت من ترك أفعالاً يقتدي بها من الخير.

من نشر حكمة ذُكر بها.

موت الأبرار راحة لأنفسهم، وموت الفجار راحة للعالم.

من كتم علماً فكأنه جاهل.

الجواد من بذل ما يضن بمثله.

من كرم أصله حسن فعله.

وجاء في الحديث عن الإمام الصادق (ع) أنه تكلم أمير المؤمنين صلوات الله عليه بأربع وعشرين كلمة، قيمة كل كلمة وزن السموات والأرض، قال:

رحم الله امرءاً سمع فوعى ودُعي إلى رشاد فدنا. وأخذ بحجزة هادٍ فنجا، راقب ربه، وخاف ذنبه، قدَّم خالصاً، وعمل صالحاً، اكتسب مذخوراً، واجتنب محظوراً، رمى غرضاً، وأخذ عوضاً، كابر هواه، وكذب مناه، حذر أملاً، ورتب عملاً، جعل الصبر رغبة حياته، والتقى عدة وفاته، يظهر دون ما يكتم، ويكتفي بأقل مما يعلم، لزم الطريقة الغراء، والمحجة البيضاء، اغتنم المهل وبادر الأجل، وتزود من العمل.»

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام:

أزرى بنفسه من استشعر الطمع.

من أهوى إلى متفاوت الأمور خذلته الرغبة.

أشرف الغنى ترك المنى.

من ترك الشهوات كان حراً.

الحرص مفتاح التعب، وداعٍ إلى التقحم في الذنوب، والشره جامع لمساوىء العيوب. الحرص علامة الفقر.

من أطلق طرفه كثر أسفه.

قلما تصدقك الأمنية. رب طمع كاذب، وأملٍ خائب.

من لجأ إلى الرجاء سقطت كرامته.

همة الزاهد مخالفة الهوى، والسُلُوُّ عن الشهوات.

ما هدم الدين مثل البدع، ولا أفسد الرجال مثل الطمع. إياك والأماني فإنها بضائع النوكى.

لن يكمل العبد حقيقة الإيمان حتى يؤثر دينه على شهوته، ولن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه.

من تيقن أن الله سبحانه يراه وهو يعمل بمعاصيه فقد جعله أهون الناظرين.

مواعظ

وجاء في الحديث، أن رسول الله (ص) قال:

« ما آمن بالقرآن من استحل محارمه ».

أخبرني شيخنا المفيد رضي الله عنه ونقلت من خطه قال حدثني أبو حفص بن عمر بن محمد بن علي المعروف بابن الزيات، قال حدثنا علي بن مهرويه القزويني، قال حدثنا داود بن سليمان الغازي، قال حدثنا الرضا علي بن موسى، قال حدثني أبي موسى بن جعفر، قال حدثني أبي جعفر بن محمد الصادق، قال حدثني أبي محمد بن علي الباقر، قال حدثني أبي علي بن الحسين زين العابدين، قال حدثني أبي الحسين بن علي الشهيد، قال حدثني أبي أمير المؤمنين، قال حدثني رسول الله (ص) قال:

« يقول الله عز وجل يا ابن آدم، ما أنصفتني، أتحبب إليك بالنعم، وتبغَّض إلي بالمعاصي، خيري إليك نازل، وشرك إلي صاعد، وفي كل يوم يأتيني عنك ملك كريم بعمل غير صالح.

يا ابن آدم: لو سمعت وصفك من غيرك وأنت لا تدري من الموصوف لسارعت إلى مقته..

وأخبرني شيخنا المفيد رضي الله عنه قال حدثني جعفر بن محمد بن قولويه، قال: حدثنا أبي وأخي علي، قالا حدثنا سعد بن عبدالله عن يعقوب عن يزيد عن محمد بن زياد، عن جعفر بن قرظ، عن أبي عبدالله (ع) قال:

«من وعظه الله بخير، فقبل بالبشرى فله البشرى، ومن له يقبل فالنار له أحرى».

وأخبرني شيخنا أيضاً عن جعفر بن محمد بن قولويه، قال حدثني جعفر بن محمد بن مسعود، عن أبيه، عن الحسين بن خالد، عن النوفلي، عن السكوني، عن أبي عبدالله (ع) قال حدثني أبي عن آبائه عن أميرالمؤمنين عليهم السلام قال:

«من أيقن أنه يفارق الأحباب، ويسكن التراب، ويواجه الحساب، ويستغني عما خلّف، ويفتقر إلى ما قدم كان حرياً بقصر الأمل وطول العمل».

فصل: من كلام رسول الله (ص):

جاء في الحديث عن الرسول عليه وآله السلام أنه قال:

«من أراد أن يكون أعز الناس فليتق الله عز وجل».

وقال:

«من خاف الله سخت نفسه عن الدنيا، ومن رضي من الدنيا بما يكفيه كان أيسر ما فيها يكفيه».

وقال:

«الدنيا خضرة حلوة، والله مستعملكم فيها، فانظروا كيف تعملون».

وقال:

«من ترك معصية الله مخافة من الله أرضاه يوم القيامة، ومن مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم، فقد خرج من الإيمان.».

وقال:

«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإنك لن تجد فقد شيء تركته لله عز وجل».

وقال:

«باب التوبة مفتوح لمن أرادها، فتوبوا إلى الله توبة نصوحا».

وقال:

«بادروا بعمل الخير قبل أن تشتغلوا عنه، واحذروا الذنوب، فإن العبد يذنب الذنب فيحبس عنه الرزق».

حدثني الشيخ أبو المرجا محمد بن علي بن أبي طالب البلدي بالقاهرة، قال حدثنا استاذي أبو عبدالله محمد بن ابراهيم بن جعفر النعماني رحمه الله، عن أبي العباس أحمد بن محمد بن سعيد بن عقدة الكوفي عن شيوخه الأربعين، عن الحسن بن محبوب، عن محمد بن النعمان الأحول، عن سلام بن المستنير، عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام قال: قال جدي رسول الله (ص):

«أيها الناس: حلالي حلال إلى يوم القيامة، وحرامي حرام إلى يوم القيامة. ألا، وقد بينها الله عز وجل في الكتاب، وبينتها لكم في سيرتي وسنتي. وبينهما شبهات من الشيطان وبدع بعدي، من تركها صلح له أمر دينه، وصلحت له مروءته وعرضه.

ومن تلبس بها ووقع فيها واتبعها، كان كمن رعى غنماً قرب الحمى، ومن رعى ماشيته قرب لحمى نازعته إلى أن يرعاها في الحمى.

ألا وان لكل ملك حمىً، ألا وأن حمى الله عز وجل محارمه، فتوقوا حمى الله ومحارمه.

ألا وأن أذى المؤمن من أعظم سبب سلب الإيمان.

ألا ومن أحب في الله جل وعز، وأبغض في الله، وأعطى في الله، ومنع في الله، فهو من أصفياء المؤمنين عند الله تبارك وتعالى.

إلا وأن المؤمنين إذا تحابا في الله جل وعز، وتصافيا في الله، كانا كالجسد الواحد، إذا اشتكى [أحد] هما من جسده موضعاً، وجد الآخر ألم ذلك الموضع».

[قصة وقعت للمؤلف]

ومن عجيب ما رأيت واتفق لي، أنني توجهت يوماً لبعض أشغالي. وذلك بالقاهرة في شهر ربيع الآخر سنة ست وعشرين وأربعمائة، فصحبني في الطريق رجل كنت أعرفه بطلب العلم وكتب الحديث، فمررنا في بعض الأسواق بغلامٍ حدث، فنظر إليه صاحبي نظراً استربت منه، ثم انقطع مني ومال إليه وحادثه، فالتفت انتظاراً له، فرأيته يضاحكه، فلما لحق بي عذلته على ذلك، وقلت له: لا يليق هذا بك، فما كان بأسرع من أن وجدنا بين أرجلنا في الأرض ورقة مرمية، فرفعتها لئلا يكون فيها اسم الله تعالى، فوجدتها قديمة، فيها خط رقيق، قد اندرس بعضه، وكأنها مقطوعة من كتاب، فتأملتها فإذا فيها حديث ذهب أوله وهذا نسخته:

قال أني أخوك في الإسلام، ووزيرك في الإيمان، وقد رأيتك على أمرٍ لم يسعني أن أسكت فيه عنك، ولست أقبل فيه العذر فيك، قال وما هو حتى أرجع عنه وأتوب إلى الله تعالى منه، قال رأيتك تضاحك حدثاً غراً جاهلاً بأمور الله وما يجب من حدود الله، وأنت رجل قد رفع الله قدرك بما تطلب من العلم، وإنما أنت بمنزلة رجل من الصدِّيقين، لأنك تقول: حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله (ص) عن جبرئيل عن الله تعالى، فيسمعه الناس منك فيكتبوه عنك، ويتخذونه ديناً يعولون عليه، وحكماً ينتهون إليه، وإنما أنهاك أن تعود لمثل الذي كنت عليه، فإني أخاف عليك غضب من يأخذ العارفين قبل الجاهلين، ويعذب فساق حملة القرآن قبل الكافرين.

فما رأيت حالاً أعجب من حالنا، ولا عظةً أبلغ مما اتفق لنا. ولما وقف عليه صاحبي اضطرب لها اضطراباً بان فيها أثر لطف الله تعالى لنا. وحدثني بعد ذلك أنه أنزجر عن تفريطات كانت تقع منه في الدين والدنيا، والحمد لله.

سؤال عن آية

«وإن أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها، فحق عليها القول فدمرناها تدمير» الإسراء: ١٦

فقال: أخبروني ما معنى هذا الإهلاك الذي يريده الله تعالى، وكيف قدم اهلاكهم على أمره لهم؟ ومتى يستمر مع القول بالعدل أن يريد إهلاك قوم قبل أن يأمرهم فيعصوا؟ وما معنى قوله (أمرنا مترفيها ففسقوا فيها؟) ففي هذا على من لم يفهم معناه شبهة والله لا يأمر إلا بالعدل.

الجواب:

قيل له في هذه الآية وجوه:

أحدها أن من الإهلاك ما يكون حسناً، وهو أن يكون مستحقاً أو إمتحاناً، وإنما يكون قبيحاً إذا كان ظلماً أو عبثاً.

وقد ثبت لنا بالدليل الواضح عدل الله تعالى وحكمته، وأنه لا يريد الظلم، ولا يقع منه العبث[1] فعلمنا أنه لا يريد إلا الإهلاك الحسن.

وأما قوله (أمرنا مترفيها) فالمأمور به هنا محذوف، وهو الطاعة. وتقدير الكلام: أمرنا مترفيها بالطاعة ففسقوا وخالفوا، ويجري هذا مجرى قول القائل: أمرتك فعصيتني، فحذف ذكر ما أمره به، لفهم السامع له. وهذا معروف من كلام العرب، والأمثلة فيه كثيرة.

وأما مترفوها فهم الذين يعملون في الدنيا في غير طاعة الله تبارك وتعالى.

---

(١) في الأصل البعث وهو غلط من الناسخ.

وأما تقدم إرادة الإهلاك على الأمر، فيتحمل أن يكون ذلك بعد أمرٍ متقدم لم يذكر، استحق المأمورون بمخالفتهم له العذاب، فلما أراد الله تعالى إهلاكهم أعذر إليهم بأمر ثانٍ على وجه التكرير والتأكيد في إقامة الحجة على العاصين، قبل وقوع الإهلاك المستحق المذكور، ويوافق هذا التأويل قوله تعالى:

«وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً» الإسراء: ١٥

الوجه الثاني: أن يكون الإرادة في الآية مجازاً وتنبيهاً، على المعلوم من حال القوم وعاقبتهم، وأنهم متى أُمروا ففسقوا فأهلكوا، ويجري ذلك مجرى قولهم: إذا أراد التاجر أن يفتقر أتته النوائب من كل جانب، وتوجه نحوه الخسران من كل مكان، وإذا أراد العليل أن يموت خلط في أكله.

ومعلوم أن ليس منهما من يريد ذلك. وإنما حسن الكلام لما علم من عاقبة أمرهما.

وهذا من أحد أقسام الفصاحة في كلام العرب، وهو جواب صحيح في الآية.

الوجه الثالث: أن يحمل الكلام في الآية على التقديم والتأخير، ويكون تلخيصه: إذا أمرنا مترفي قرية بالطاعة فعصوا واستحقوا العقاب، أردنا إهلاكهم.

والتقديم والتأخير أيضاً مستعمل في كلام العرب، وهو وجه حسن، ويشهد به من القرآن قول الله تعالى:

«يا أيها الذين إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم». المائدة: ٦

ونحن نعلم أن الطهارة للصلاة إنما تجب قبل القيام إلى الصلاة. فأما من قرء

(أمَّرنا) بالتشديد فإنما لإغناء به عن أجوبتنا.[1]

فصل:

من أمالي شيخنا المفيد رحمه الله:

روي أنه لما سار المأمون إلى خراسان كان معه الإمام الرضا علي بن موسى عليهما السلام، فبينا هما يتسايران، إذ قال له المأمون: يا أبا الحسن، إني فكرت في شيء، فسنح لي الفكر الصواب فيه. إني فكرت في أمرنا وأمركم، ونسبنا ونسبكم، فوجدت القضية فيه واحدة، ورأيت اختلاف شيعتنا في ذلك محمولاً على الهوى والعصبية.

فقال له أبو الحسن الرضا (ع): إن لهذا الكلام جواباً، إن شئت ذكرته لك وإن شئت أمسكت.

فقال له المأمون: لم أقله إلا لأعلم ما عندك فيه.

قال الرضا (ع): أُنشدك الله يا أمير المؤمنين، لو أن الله تعالى بعث محمداً (ص) فخرج علينا من وراء أكمةٍ من هذه الآكام، فخطب إليك ابنتك لكنت مزوّجه إياها؟

فقال: يا سبحان الله، وهل أحد يرغب عن رسول الله (ص)؟

فقال له الرضا (ع): أفتراه كان يحل له أن يخطب ابنتي؟

فسكت المأمون هنيئة ثم قال: أنتم والله أمسُّ برسول الله (ص) رحماً.

وروي أنه لما حج الرشيد ونزل في المدينة، اجتمع إليه بنو هاشم وبقايا المهاجرين والأنصار ووجوه الناس، وكان في الناس، الإمام أبو الحسن موسى

---

(١) ما ذكره المؤلف هنا من الأجوبة هو ملخص مما ذكره الشريف المرتضى في الأمالي انظر ج ٢ ص ١-٥.

ابن جعفر (ع)، فقال لهم الرشيد قوموا بنا إلى زيارة رسول الله (ص)، ثم نهض معتمداً على يد أبي الحسن موسى بن جعفر (ص)، حتى انتهى إلى قبر رسول الله (ص)، فوقف عليه فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا ابن عم افتخاراً بذلك على قبائل العرب الذين حضروا معه، واستطالةً عليهم بالنسب. قال فنزع أبو الحسن موسى (ع) يده من يده، وقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبه. قال فتغير وجه الرشيد، ثم قال: يا أبا الحسن، إن هذا لَهو الفخر.[1]

حدثني القاضي السلمي أسد بن ابراهيم، قال: أخبرني العتكي عمر بن علي، قال: حدثني محمد بن إسحاق البغدادي، قال: حدثنا الكديمي، قال: حدثنا بشر بن مهدان، قال: حدثنا شريك بن شبيب، عن عروة، عن المستطيل ابن حصين، قال:

«خطب عمر بن الخطاب إلى علي بن أبي طالب (ع) ابنته، فاعتل عليه بصغرها، وقال: إني [أعددتها] لابن أخي جعفر، فقال عمر:

إني سمعت رسول الله (ص) يقول:

كل حسب ونسب فمنقطع يوم القيامة ما خلا حسبي ونسبي، وكل بني أنثى، عصبهم لأبيهم ما خلا بني فاطمة، فإني أنا أبوهم، وأنا عصبتهم».[2]

خبر يحيى بن يعمر مع الحجاج

قال الشعبي: كنت بواسط،[3] وكان يوم أضحى، فحضرت صلاة العيد مع

---

(١) ذكر هذا الحديث السبط في التذكرة ص٣٥٠ ناقلاً له عن المدائني مختصراً. ورواه المفيد في الفصول المختارة ج (١) ص ١٥. ورواه أيضاً في الإرشاد ص٢٧٢ مختصراً أيضاً.

(٢) ذكر أصل خطبة عمر بن الخطاب لأم كلثوم بنت علي (ع) السبط في التذكرة ص٣٢١ دون ما سمعه عمر عن النبي (ص) وأنظر: الصواعق المحرقة ص١٥٦ - ١٥٧.

(٣) مدينة بناها الحجاج في العراق عام ٨٤/٨٣هـ وسميت واسطاً لتوسطها بين البصرة والكوفة والأهواز وبغداد، فإن بينها وبين كل واحدة من هذه المدن مقداراً واحداً وهو خمسون فرسخاً (التنبيه والإشراف) ص ٣١١.

الحجاج، فخطب خطبةً بليغة، فلما انصرف جائني رسوله فأتيته، فوجدته جالساً مستوفزاً، قال: يا شعبي هذا يوم أضحى، وقد أردت أن أضحي برجل من أهل العراق، وأحببت أن تسمع قوله، فتعلم أني قد أصبت الرأي فيما أفعل به.

فقلت: أيها الأمير، لو ترى أن تستن بسنة رسول الله (ص)، وتضحي بما أمر أن يضحى به، وتفعل مثل فعله، وتدع ما أردت أن تفعله به في هذا اليوم العظيم إلى غيره.

فقال يا شعبي، إنك إذا سمعت ما يقول صوبت رأيي فيه، لكذبه على الله وعلى رسوله، وإدخاله الشبهة في الإسلام.

قلت: أفيرى الأمير أن يعفني من ذلك؟ قال: لا بد منه.

ثم أمر بنطع فبسط، وبالسياف فأُحضر، وقال: احضروا الشيخ، فأتوه به، فإذا هو يحيى بن يعمر، فاغممت غماً شديداً، فقلت في نفسي: وأي شيء يقوله يحيى مما يوجب قتله؟

فقال له الحجاج: أنت تزعم أنك زعيم أهل العراق؟

قال يحيى: أنا فقيه من فقهاء أهل العراق.

قال: فمن أي فقهك زعمت أن الحسن والحسين (ع) من ذرية رسول الله (ص)؟

قال: ما أنا زاعم ذلك، بل قائل بحق.

قال: وبأي حق قلت؟

قال: بكتاب الله عر وجل.

فنظر إلي الحجاج، وقال: اسمع ما يقول، فإن هذا مما لم أكن سمعته عنه، أتعرف أنت في كتاب الله عز وجل أن الحسن والحسين من ذرية محمد رسول الله (ص)؟ فجعلت أفكر في ذلك، فلم أجد في القرآن شيئاً يدل على ذلك.

وفكر الحجاج ملياً ثم قال ليحيى: لعلك تريد قول الله عز وجل.

«فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا

وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » آل عمران: ٦١.

وأن رسول الله (ص) خرج للمباهلة ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين (ع). قال الشعبي: فكأنما أهدى لقلبي سروراً، وقلت في نفسي: قد خلص يحيى. وكان الحجاج حافظاً للقرآن.

فقال له يحيى: والله، إنها لحجة في ذلك بليغة، ولكن ليس منها أحتج لما قلت، فأصفر وجه الحجاج، وأطرق ملياً ثم رفع رأسه إلى يحيى وقال: إن جئت من كتاب الله بغيرها في ذلك، فلك عشرة آلاف درهم، وإن لم تأت بها فأنا في حلٍ من دمك.

قال: نعم

قال الشعبي: فغمني قوله فقلت: أما كان في الذي نزع به الحجاج ما يحتج به يحيى ويرضيه بأنه قد عرفه وسبقه إليه، ويتخلص منه حتى رد عليه وأفحمه، فإن جاءه بعد هذا بشيء لم آمن أن يدخل عليه فيه من القول ما يبطل حجته لئلا يدعي أنه قد علم ما جهله هو.

فقال يحيى للحجاج: قول الله عز وجل:

« ومن ذريته داود وسليمان » الأنعام: ٨٤.

من عنى بذلك؟

قال الحجاج: ابراهيم

قال: فداود وسليمان من ذريته؟

قال: نعم.

قال يحيى: ومن نص الله عليه بعد هذا أنه من ذريته؟

فقرأ الحجاج: « وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين ».

قال يحيى: ومن؟

قال: « وزكريا ويحيى وعيسى ».

قال يحيى: ومن أين كان عيسى من ذرية ابراهيم، ولا أب له؟

قال: من قِبَل أمه مريم.

قال يحيى: فمن أقرب، مريم من ابراهيم أم فاطمة من محمد (ص)، وعيسى من ابراهيم (ع) أم الحسن والحسين (ع) من رسول الله (ص)؟؟

قال الشعبي: فكأنما ألقمه حجراً.

فقال أطلقوه، قبحه الله، وإدفعوا إليه عشرة آلاف درهم، لا بارك الله له فيها.

ثم أقبل علي فقال: قد كان رأيك صواباً، ولكنا أبيناه، ودعا بجزور فنحروه، وقام فدعا بالطعام فأكل وأكلنا معه، وما تكلم بكلمةٍ حتى انصرفنا، ولم يزل مما احتج به يحيى بن يعمر واجماً.

فصل من القول في القضاء والقدر

(سؤال) إن قال قائل ما قولكم فيهما، وما معناهما عندكم وحقيقتهما، وهل أفعال العباد عندكم بقضاء الله وقدره أم لا، وما معنى الخبر المروي عن رسول الله (ص) إنه قال حاكياً عن ربه جل وعز:

« من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي فليتخذ رباً سوائي »[1].

وما روي عنه عليه السلام من أنه أوجب الإيمان بالقدر خيره وشره، وأخبر أن الإيمان لا يتم إلا به.[2]

وما معنى قول المسلمين: إن الواجب الرضا بما قضاه الله وقدّره؟؟؟ أبينوا لنا عن حقيقة ذلك ليحصل لنا العلم به.

الجواب

قلنا الواجب من هذه المسألة أولاً أن نذكر معاني القضاء والقدر ثم نبين ما

---

(١) رواه الصدوق في التوحيد ص ٣٧٩ على تغيير في بعض ألفاظه.

(٢) هو مضمون الحديث عن رسول الله (ص) لا يؤمن أحدكم حتى يؤمن بالقدر خيره وشره وحلوه ومره رواه في التوحيد ص٣٨٨.

يصح أن يتعلق بأفعال العباد من ذلك وما لا يتعلق، ونجيب عن الخبر المروي عن رسول الله (ص) في ذلك بما يلاءم الحق.

أما القضاء فعلى أقسام:

منها ما يكون بمعنى الإعلام كقول الله تعالى:

« وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » الحجر: ٦٦ أي أعلمناه، وقوله سبحانه:

« وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنَّ في الأرض مرتين » الإسراء: ٤.

أي أَعلمناهم بذلك. ويكون القضاء أيضاً بمعنى الحكم والإلزام كقوله جل اسمه:

« وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » الإسراء: ٢٣.

أي حكم بذلك في التكليف على خلقه وألزمهم به.

فأما القدر فيكون بمعنى الكتاب والإخبار كما قال جل وعلا:

« إلا إمرأته قدرنا إنها لمن الغابرين ». الحجر: ٦٠.

يعني كتبنا وأخبرنا، ويكون القدر أيضاً بمعنى التبيين لمقادير الأشياء وتفاصيلها والإعلام باختلاف أحوالها.

ويكون القدر ترك الأشياء في التدبير على نظام ووضعها في الحكمة مواضعها من غير زيادة ولا نقصان، كما قال تعالى:

« وقَدَّر فيها أَقواتها » فصلت: ١٠

فأَما أفعال العباد فيصح أن نقول فيها، إن الله تعالى قضى بالطاعة منها، على معنى أنه حكم بها وألزمها عباده وأوجبها. وهذا إلزام أمرٍ، وليس بإلجاءٍ ولا جبرٍ.

ونقول أيضاً: إنه سبحانه قدر أفعال العباد، بمعنى بيَّن لهم مقاديرها من حسنها وقبحها، ومباحها وحظرها وفرضها ونفلها.

فأما القول بأنه قضاها على معنى أنه خلقها فغير صحيح، لأنه لو خلق الطاعة والمعصية لسقط اللوم[عن]العاصي ،بموجب العدل ولم يكن معنى لإثابة الطائع في حجة ولا عقل.

ويقول في أفعال الله إنها كلها بقدره يريد أنها لا تفاوت فيها ولا خلل، وأنها بموجب الحكمة ملتئمة وعلى نسق الصواب منتظمة.

فأما الخبر المروي عن النبي (ص) من قوله حكاية عن الله سبحانه:
«من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي فليتخذ رباً سوائي»[1].

فهو واضح المعنى للعاقل. وهذا القضاء من الله تعالى، هو مما يبتلي به العبد، من إعلاله وأسقامه، وعوارضه وآلامه، وفقره بعد الغنى، وما [يمتحنه] من فقد الأعزاء والأقرباء. كل ذلك من قضاء الله الذي يجب الرضا به والصبر عليه، وهو مما يفعله الله سبحانه بعبده للحكمة التي تقتضيه وما يعلمه الله عز وجل من الصلاح الذي لعبده فيه.

وكيف يقضي الله على العبد بالمعصية، وهي من الباطل الذي يعاقب عليه وقد قال الله عز من قائل: «والله يقضي بالحق». غافر: ٢٠

وكذلك أقول في الخبر المروي عن النبي (ص) من إيجابه الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره. فالخير من القضاء والقدر هو ما مالت إليه الطباع [والتذّت به] الحواس. والشر بالضد من ذلك، على ما تقدم به البيان.

وسمي أيضاً شراً، لما على النفس في تحمله من المشاق، وهو مما أجمع المسلمون عليه من الرضا بقضاء الله والتسليم لقدره.

ولو كان الظلم والغضب والكفر بالله عز وجل من قضاء الله وقدره، لوجب الرضا به وترك إنكاره. فلما رأينا العقلاء ينكرونه ولا يرضونه، ويعيبون على من رضي به ويذمونه، علمنا أنه ليس من قضاء الله سبحانه.

---

(١) رواه الصدوق في كتاب التوحيد ص ٣٧٩ على تغيير في بعض ألفاظه.

أخبرني شيخنا المفيد أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان رضي الله عنه إجازةً، قال: حدثنا محمد بن عمر الحافظ إملاءً، قال: حدثنا أبو القاسم إسحاق بن جعفر العلوي، قال: حدثني أبي جعفر بن محمد بن علي عن سليمان بن محمد القرشي، عن إسماعيل بن أبي زياد، عن جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه عن جده عليهم السلام قال:

« دخل رجل من أهل العراق على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، فقال:

أخبرنا عن خروجنا إلى أهل الشام أبقضاء الله وقدره؟

فقال له أمير المؤمنين (ع):

يا شيخ، فوالله ما علوتم تلعةً ولا هبطتم وادياً إلا بقضاء من الله وقدره.

فقال الشيخ: عند الله أحتسب عنائي يا أمير المؤمنين.

فقال: مهلاً يا شيخ، لعلك تظن قضاءً حتماً وقدراً لازماً؟

لو كان ذلك به، لبطل الثواب والعقاب، والأمر والنهي والزجر، وسقط معنى الوعيد، ولم يكن على مسيءٍ لائمة، ولا لمحسنٍ محمدة، ولكان المحسن أولى باللائمة من المذنب، والمذنب أولى بالإحسان من المحسن. تلك مقالة عبدة الأوثان وخصماء الرحمن، وقدرية هذه الأمة ومجوسها.

يا شيخ: إن الله كلّف تخييراً، ونهى تحذيراً، وأعطى بالقليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً، ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً. « ذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار » ص: ٢٧

وجاء في الحديث رواية أخرى، أن الرجل قال له: فما القضاء والقدر الذي ذكرته يا أمير المؤمنين؟

فقال (ع): الأمر بالطاعة والنهي عن المعصية، والتمكين من فعل الحسنة وترك السيئة، والمعونة على القربة إليه، والخذلان لمن عصاه، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب. كل ذلك قضاء الله في أفعالنا وقدره لأعمالنا. فأما غير ذلك فلا تظنه، فإن الظن محبط للأعمال.

فقال الرجل: فَرَّجت عني يا أمير المؤمنين وأنشأ يقول:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته يوم النجاة من الرحمن غفرانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً جزاك ربك عنا فيه إحسانا
فليس معذرة في فعل فاحشةٍ قد كنت راكبها فسقاً وعصيانا
لا لا ولا قائلاً ناهيه أوقعه فيها عبدت إذاً يا قوم شيطانا
ولا أحبَّ ولا شاء الفسوق ولا قتل الولي له ظلماً وعدواناً[1]

الحجاج يسأل عن القضاء والقدر

وذكر أن الحجاج بن يوسف الثقفي كتب إلى الحسن البصري[2]، وإلى واصل بن عطاء[3]، وعمرو بن عبيد[4] وعامر الشعبي[5]، فقال لهم: أخبروني بقولكم في القضاء والقدر، فكتب إليه الحسن البصري:

ما أعرف فيه إلا ما قاله علي بن أبي طالب (ع)، فإنه قال:

«يا ابن آدم، أزعمت أن الذي نهاك دهاك، وإنما دهاك أسفلك وأعلاك، وربك بريءٌ من ذاك».

وكتب إليه واصل بن عطاء:

(١) تجد هذا الحديث مروياً في توحيد الصدوق ص٣٨٨- ٣٨٩ وأنظر: أمالي المرتضى ج١ ص١٥١، والفصول المختارة ج١ ص٤٠- ٤٢ بزيادة أربعة أبيات.

(٢) هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار مولى زيد بن ثابت، وأمه خيرة مولاة أم المؤمنين أم سلمة زوج النبي (ص)، كان معدوداً في الزهاد، ومتهماً بالإنحراف عن علي (ع)، وكان كاتباً لوالي خراسان ربيعة بن زياد في زمن معاوية، وولي القضاء على البصرة في زمن عمر بن عبد العزيز، ثم استقال من تلك الوظائف، مجنداً نفسه لخدمة الأمويين، حتى لقبوه بسيد التابعين، نظراً لسعة معلومات، وتظاهرة بالتقشف والورع، ولكونه من محاسيب السلطة الأموية.

عاش ٨٩ سنة ومات سنة ١١٠هـ، وعلى هذا تكون ولادته سنة ٢١هـ.

(٣) هو أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزال (٨٠- ١٣١هـ) من شيوخ المعتزلة وأعلامها البارزين، بل هو المؤسس لمذهب الإعتزال، وله آراء معروفة مذكورة في كتب الفرق.

(٤) أبو عثمان عمرو بن عبيد (٨٠- ١٤٤هـ) من أئمة الإعتزال ودعاتهم، وافق واصل بن عطاء في كثير من أصول المعتزلة.

(٥) أبو عمرو عامر بن شراحيل الكوفي ينسب إلى شعب، بطن من همدان، من التابعين، كان فقيهاً شاعراً، وكان قاضياً على الكوفة، مات بالكوفة (سنة ١٠٤هـ).

ما أعرف فيه إلا ما قاله علي بن أبي طالب (ع) فإنه قال:
« ما تحمد الله عليه فإنه منه، وما تستغفر الله عنه فهو منك ».
وكتب إليه عمرو بن عبيد:
ما أعرف فيه إلا ما قاله علي بن أبي طالب، فإنه قال:
« إن كان الرزق في الأصل محتوماً، فالوازر في القصاص مظلوم »
وكتب إليه عامر الشعبي:
ما أعرف فيه إلا ما قاله علي بن أبي طالب (ع)
« من وسع عليك الطريق لم يأخذ عليك المضيق »
فلما قرأ الحجاج أجوبتهم قال: قاتلهم الله، لقد أخذوها من غيرٍ صافية.(١)

وجاء في الحديث أن الحسن بن أبي الحسن البصري كتب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب (ع):

« من الحسن البصري إلى الحسن ابن رسول الله (ص).

أما بعد فإنكم معاشر بني هاشم الفلك الجارية في اللجج الغامرة، ومصابيح الدجي وأعلام الهدى، والأئمة القادة، الذين من اتبعهم نجا، والسفينة التي يؤول إليها المؤمنون، وينجو فيها المتمسكون، قد كثر- يا ابن رسول الله- عندنا الكلام في القدر، وإختلافنا في الإستطاعة، فتعلمنا ما نرى عليه رأيك ورأى آبائك، فإنكم ذرية بعضها من بعضٍ، من علم الله علمتم، وهو الشاهد عليكم، وأنتم شهداء على الناس والسلام ».

فأجابه الحسن بن علي صلوات الله عليهما:
« من الحسن بن علي إلى الحسن البصري.
أما بعد فقد انتهى إلى كتابك عند حيرتك وحيرة من زعمت من أُمتنا، وكيف ترجعون إلينا، وأنتم بالقول دون العمل.

---

(١) من البعيد أن يكون الحجاج هو الذي وجه السؤال إلى مثل عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء، اللذين ولدا عام ٨٠هـ، مع العلم أن الحجاج مات سنة ٩٥هـ، حتى لو فرض أن سؤال الحجاج لهما كان في نفس السنة التي مات فيها، حين يكون عمر كل من عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء خمسة عشر عاماً، وبخاصة أنهما لم يبرزا بعد وهما في هذه السن المبكرة في المجال الفكري والعلمي، ومن هنا فالمرجح أن يكون السائل شخصية أخرى غير الحجاج.

وأعلم أنه لولا ما تناهى إلي من حيرتك وحيرة الأمة قِبَلك لأمسكت عن الجواب، ولكني الناصح وابن الناصح الأمين.

والذي أنا عليه أنه من لم يؤمن بالقدر خيره وشره، فقد كفر، ومن حمل المعاصي على الله عز وجل فقد فجر. إن الله لا يطاع بإكراه، ولا يعصى بغلبة، [ولم يهمل العباد سدىً من المملكة]، ولكنه عز وجل المالك لما ملكهم، والقادر على ما عليه أقدرهم، فإن ائتمروا بالطاعة لم يكن الله عز وجل لهم صاداً، ولا عنها مانعاً، وإن ائتمروا بالمعصية فشاء سبحانه أن يَمنَّ عليهم فيحول بينهم وبينها فَعَل، وإن لم يفعل فليس هو [الذي] حملهم عليها إجباراً، ولا ألزمهم بها إكراهاً، بل احتجاجه- جل ذكره- عليهم أن عَرَّفهم، وجعل لهم السبيل إلى فعل ما دعاهم إليه، وترك ما نهاهم عنه، ولله الحجة البالغة والسلام».[1]

أبو حنيفة مع الإمام موسى بن جعفر

وروى محمد بن سنان عن داود بن كثير الرقي، أن أبا حنيفة قال لابن أبي ليلى مُرَّ بنا إلى موسى بن جعفر (ع) لنسأله عن أفاعيل العباد- وذلك في حياة جعفر الصادق (ع) وموسى يومئذٍ غلام- فلما صار إليه سلما عليه، ثم قالا له: أخبرنا عن أفاعيل العباد، ممن هي؟

فقال لهما: إن كانت أفاعيل العباد من الله دون خلقه، فالله أعلا وأعز وأعدل من أن يعذب عبيده على فعل نفسه، وإن كانت من خلقه فالله أعلا وأعز من أن يعذب عبيده على فعلٍ قد شاركهم فيه. وإن كانت أفاعيل العباد من العباد، فإن عذب فبعدله، وإن غفر فهو أهل التقوى وأهل المغفرة، ثم أنشأ يقول:

لم تخل أفعالنا اللاتي نُذَمُّ بها ... إحدى ثلاث معان حين نأتيها
إما تفرد بارينا بصنعتها ... فيسقط الذم عنا حين ننشيها
أو كان يشركنا فيها فيلحقه ... ما سوف يلحقنا من لائمٍ فيها
أو لم يكن لإلهي في جنانيها ... ذنب فما الذنب إلا ذنب جانيها[2]

---

(١) تجد هذه المراسلة في تحف العقول للحراني ص ١٦٢ مع بعض الإختلاف والزيادة.

(٢) روى ذلك الحراني في كتاب تحف العقول ص٣٠٨ مختلفاً عن رواية المؤلف ودون ذكر =

كلام الصادق لزرارة

ومما حفظ عن الصادق (ع) في ذلك قوله لزرادة بن أعين:

« يا زرارة إني أعطيك جملةً في القضاء والقدر، قال له زرارة: نعم، جعلت فداك. قال:

« إذا كان يوم القيامة، وجمع الله الخلائق، سألهم عما عهد إليهم، ولم يسألهم عما قضى عليهم ».[1]

فصل من كلام أمير المؤمنين وآدابه وحكمه (ع)[2]

لا رأي لمن انفرد برأيه، ما عطب من استشار من شاور ذوي الألباب دُلَّ على الصواب.

النصح لمن قَبلَه

رأي الشيخ أحب إلى من حيلة الشاب.

رب واثقٍ خجل

اللجاجة تسلب الرأي.

الطمأنينة قبل الحزم.

التدبير قبل العمل يؤمنك الندم.

من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ

من تحرى القصد خفت عليه المُؤن

من كابد الأمور عطب

لولا التجارب عميت المذاهب

في التجارب علم مستأنف

في التواني والعجز أُنتجت الهلكة

= الأبيات. ورواه الشريف المرتضى في الأمالي م١ ص١٥٢ وذكر أن مضمون الخبر قد نظمه بعضهم.

(١) هذا الحديث رواه الصدوق في التوحيد ص ٣٧٤.

(٢) أكثر هذه الحكم موجودة في نهج البلاغة.

أحذر العاقل إذا أغضبته، والكريم إذا هنته، والنذل إذا أكرمته، والجاهل إذا صاحبته.

من كف عنك شره فاصنع به ما سره

من أمنت من أذيته فأرغب في إخوّته

فصل من الكلام في الغيبة وسببها

إن قال قائل: ما السبب الموجب لغيبة صاحب الزمان عليه وعلى آبائه أفضل السلام.

قيل له: لا يسأل عن هذا السؤال إلا من قد أعطى صحة وجود الإمام، وسَلَّمَ ما ذكره من غيبته من الأنام. لأن النظر في سبب الغيبة فرع عن كونها، فلا يجوز أن يسأل عن سببها من يقول: إنها لم تكن، وكذلك الغيبة نفسها فرع عن صحة الوجود، إذ كان لا يصح غيبة من ليس بموجود. فمن جحد وجود الإمام فلا يصح كلامه فيا بعد ذلك من هذه الأحوال. فقد بان أنه لا بد من تسليم الوجود والإمامة والغيبة، إما تسليم دين واعتقاد، ليكشف السائل عن السبب الموجب للإستتار، وإما تسلم نظر واحتجاج، لينظر السائل عن السبب إن كان كلامنا في الفرع ملائماً للأصل، وأنه مستمر عليه من غير أن يضاده وينافيه.

فإن قال السائل: أنا أسلم لك ما ذكرتموه من الأصل لا [عن] نظر، إن كان ينتظم معه جوابكم عن الفرع، فما السبب الآن في غيبة الإمام (ع)؟

فقيل له: أول ما نقوله في هذا أنه ليس يلزمنا معرفة هذا السبب، ولا يتعين علينا الكشف عنه، ولا يضرنا عدم العلم به.

والواجب علينا اللازم لنا، هو أن نعتقد أن الإمام الوافر المعصوم الكامل العلوم، لا يفعل إلا ما هو موافق للصواب، وإن لم نعلم الأغراض في أفعاله والأسباب. فسواء ظهر أو استتر، قام أو قعد. كل ذلك يلزمه فرضه دوننا، ويتعين عليه فعل الواجب فيه سوانا، وليس يلزمنا علم جميع ما علم، كما لا يلزمنا فعل جميع ما فعل. وتمسكنا بالأصل من تصويبه في كل فعل، يغنينا في

المعتقد عن العلم بـأسبـاب ما فعل. فإن عرفنا أسباب أفعاله كان حسناً، وإن لم نعلمها لم يقدح ذلك في مذهبنا، كما أنه قد ثبت عندنا وعند مخالفينا إصابة رسول الله (ص) في جمع أقواله وأفعاله، والتسليم له والرضا بما يأتي منه، وإن لم نعرف سببه.

ولو قيل لنا لِمَ قاتل المشركين على كثرتهم يوم بدر، وهو في ثلاثماية من أصحابه وثلاثة عشر، أكثرهم رجالة، ومنهم من لا سلاح معه، ورجع عام الحديبية عن إتمام العمرة، وهو في العدة القوية، ومن معه من المسلمين ثلاثة آلاف وستماية، وأعطى سهيل بن عمر وجميع مناه، ودخل تحت حكمه ورضاه، من محو بسم الله الرحمن الرحيم من الكتاب، ومحو إسمه من النبوة، وإجابته إلى أن يدفع عن المشركين ثلث ثمار المدينة، وأن يرد من أتاه ليسلم على يده منهم، مع ما في هذا من المشقة العظيمة والمخالفة في الظاهر للشريعة. لما ألزمنا الجواب عن ذلك أكثر من أنه أعرف بالمصلحة من الأمة، وأنه لا يفعل هذا إلا لضرورةٍ يختص بعلمها ملجئة، أو مصلحة تقتضيه، تكون له معلومة، وهو الوافر الكامل الذي لا يفرط فيما أُمر به.

وليس عدم علمنا بأسباب فعله ضاراً لنا ولا قادحاً فيما نحن عليه من إعتقادنا وأصلنا.

فكذلك قولنا في سبب غيبة إمامنا وصاحب عصرنا وزماننا.

ويشبه هذا أيضاً من أُصول الشريعة عن السبب في إيلام الأطفال وخلق الهوام، والمسمومات من الحشائش والأحجار ونحو ذلك مما لا يحيط أحد بمعرفة معناه، ولا يعلم السبب الذي أقتضاه. فإن الواجب أن نرد ذلك إلى أصله، ونقول إن جميعه فعل من ثبت الدليل على حكمته وعدله وتنزهه عن العيب في شيء من فعله.

وليس عدم علمنا بأسباب هذه الأفعال مع اعتقادنا في الجملة أنها مطابقة للحكمة والصلاح، بضارٍ لنا ولا قادحٍ في صحة أُصولنا، لأنا لم نكلف أكثر من العلم بالأصل، وفي هذا كفاية لمن كان له عقل.

وهكذا أيضاً يجري الأمر في الجواب إن توجه إلينا السؤال عن سبب قعود أمير المؤمنين (ع) عن محاربة أبي بكر وعمر وعثمان، ولم يقعد عن محاربة من بعدهم من الفرق الثلاث[1]. والأصل في هذا كله واحد، وما ذكرناه فيه كافٍ للمسترشد.

فإن قال السائل لنا: جميع ما ذكرته من أفعال الله عز وجل فلا شبهة في أنه أعرف بالمصالح فيها، وأن الخلق لا يعلمون جميع منافعهم، ولا يهتدون إليها.

وأما النبي (ع) وما جرى من أمره عام الحديبية فإنه علم المصلحة في ذلك بالوحي من الله سبحانه.

فمن أين لإمامكم علم المصلحة في ذلك وهو لا يوحي إليه؟

قيل له: إن كان إمامنا (ع) [إماماً] فهو معهود إليه، قد نُصَّ له على جميع ما يجب [تعويله] عليه، وأخذ ذلك وأمثاله عن آبائه عن رسول الله (ص).

ولنا مذهب في الإمام، وعندنا أن الإمام (ع) يصح أن يلهم من المصالح والأحكام ما يكون هو المخصوص به دون الأنام.

ثم نتبرع بعدما ذكرناه بذكر السبب الذي تقدم فيه السؤال، وإن كان غير لازمٍ لنا في الجواب.

فنقول: إن السبب في غيبة الإمام (ع) إخافة الظالمين له، وطلبهم بسفك دمه، وإعلام الله أنه متى أبدى شخصه لهم قتلوه، ومتى قدروا عليه أهلكوه، فحصل ممنوعاً من التصرف فيما جعل إليه من شرع الإسلام، وهذه الأمور التي هي مردودة إليه ومعول في تدبيرها عليه، فإنما يلزمه القيام بها بشرط [وجود] التمكن والقدرة وعدم المنع والحيلولة وإزالة المخافة على النفس والمهجة، فمتى لم يكن ذلك فالتقية واجبة، والغيبة عند الأسباب الملجئة إليها لازمة، لأن التحرز من المضار واجب عقلاً وسمعاً. وقد استتر النبي (ص) في غار حراء، ولم يكن لذلك سبب غير المخافة من الأعداء.

---

(١) وهم الناكثون من أهل البصرة والقاسطون معاوية وأصحابه، والمارقون هم أصحاب النهروان أي الخوارج.

فإن قال السائل: إن استتار النبي (ع) كان مقداراً يسيراً لم يمتد به الزمان، وغيبة صاحبكم قد تطاولت بها الأعوام.

قيل له: ليس القصر والطول في الزمان يفرق في هذا المكان، لأن الغيبيين جميعاً سببهما واحد، وهي المخافة من الأعداء، فهما في الحكم سواء، وإنما قصر زمان إحداها القصر مدة المخافة فيها، وطول زمان الأخرى لطول زمان المخافة. ولو ضادت إحداهما الحكمة وأبطلت الإحتجاج لكانت كذلك الأخرى.

فإن قال: فالأظهر إبداء شخصه، وإقام الحجة على مخالفيه وإن أدّى إلى قتله.

قيل لهم: إن الحجة في تثبيت إمامته قائمة في الأمة، والدلالة على إمامته موجودة ممكنة، والنصوص من رسول الله (ص) ومن الأئمة على غيبة مأثورة متصلة، فلم يبق بعد ذلك أكثر من مطالبة الخصم لنا بظهوره ليقتل. فهذا غير جائز، وقد قال الله سبحانه: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» البقرة: ١٦٥

وقال موسى عليه السلام: «ففررت منكم لما خفتكم» الشعراء: ٢١

فإن قال السائل: إن في ظهوره تأكيداً لإقامة الحجة، وكشفاً لما يعترض أكثر الناس في أمره من الشبهة، فالأوجب ظهوره، وإن قتل لهذه العلة.

قيل له: قد قلنا في النهي عن التغرير بالنفس ما فيه كفاية، ونحن نأتي بعد ذلك بزيادة، فنقول: إنه ليس كلما نرى فيه تأكيداً لإقامة الحجة فإن فعله واجب، ما لم يكن فيه لطف ومصلحة. ألا ترى إن قائلاً قال: لِمَ [لم] يعاجل الله تعالى العصاة بالعقاب والنقمة، ويظهر آياته للناس في كل يوم وليلة، حتى يكون ذلك آكد في إقامته عليهم الحجة، أليس كان جوابنا له مثل ما أجبنا في ظهور صاحب الغيبة، من أن ذلك لا يلزم ما لم [يفارق] وجهاً معلوماً من المصلحة.

وعندنا أن الله سبحانه لم يمنعه من الظهور وإن قتل إلا وقد علم أن مصلحة المكلفين مقصورة على كونه إماماً لهم بعينه، وأن لا يقوم غيره فيها

مقامه، فكذلك أمره بالإستتار [في] المدة التي علم أنه متى ظهر فيها قتله الفجار.

فإن قال الخصم: هلا أظهره الله تعالى، وأرسل معه ملائكة تبيد كل من أراده بسوء، وتهلك من قصده بمكروه؟

قيل له: قد سألت الملحدة عن مثل هذا السؤال في إرسال الأنبياء (ع)، فقالوا لِمَ لم يبعث الله تعالى معهم من الأملاك من يصد عنهم كل سوء يقصدهم به العباد؟ فكان الجواب لهم أن المصالح ليست واقعة بحسب تقدير الخلائق...[1] »، وإنما هي بحسب المعلوم عند الله عز وجل. وبعد فإن اصطلام[2] الله تعالى للعاصين ومعاجلته بإهلاك سائر الظالمين، قاطع لنظام التكليف، وربما اقتضى ذلك عموم الجماعة بالهلاك. كما كان في الأمم السابقة في الزمان.

وهو أيضاً مانع للقادرين من النظر في زمان الغيبة المؤدي إلى المعرفة والإجابة، فقد يصح أن يكون فيهم ومنهم في هذه المدة من ينظر فيعرف الحق ويعتقده، أو يكون فيهم معاندون مُقِّرون، قد علم الله سبحانه أنهم إن بقوا كان من نسلهم ذرية صالحة، فلا يجوز أن يحرمها الوجود بإعدامهم في مقتضى الحكمة، وليس العاصون في كل زمانٍ، هذا حكمهم، وربما علم ضد ذلك منهم، فاقتضت الحكمة إهلاكهم، كما كان في زمن نوح (ع)، حيث قال: « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » نوح: ٢٦ - ٢٧

فإن قال السائل: إن آباءه (ع) قد كانوا أيضاً في زمان مخافة وأوقات صعبة، فلِمَ لم يستتروا؟ وما الفرق بينهم وبينه في هذا الأمر؟

قيل له: إن خوف إمامنا (ع) أعظم من خوف آبائه وأكثر. والسبب في ذلك، أنه لم يرو عن أحد من آبائه (ع) أنه يقوم بالسيف ويكسر تيجان

(١) هناك عدة كلمات غير واضحة المعنى.
(٢) الإصطلام الإهلاك.

الملوك، ولا يبقى لأحدٍ دولة سواه، ويجعل الدين كله لله. فكان الخوف المتوجه إليه بحسب ما يعتقد من ذلك فيه، وتطلعت نفوس الأعداء إليه، وتتبعت الملوك أخباره الدالة عليه، ولم ينسب إلى أحدٍ من آبائه شيء من هذه الأحوال. فهذا فرق واضح بين المخافتين.

ثم نقول بعد ذلك: إن من اطلع في الأخبار وسبر السير والآثار، علم أن مخافة صاحبنا (ع) كانت منذ وقت مخافة أبيه (ص)، بل كان الخوف عليه قبل ذلك في حال حمله وولادته. ومن ذا الذي خفي عليه من أهل العلم ما فعله سلطان ذلك الزمان مع أبيه وتتبعه لأخباره، وطرحه العيون عليه، انتظاراً لما يكون من أمره، وخوفاً مما روت الشيعة أنه يكون من نسله، إلى أن أخفى الله تعالى الحمل بالإمام (ع)، وستر أبوه (ص) ولادته إلا عمن اختصه من الناس، ثم كان بعد موت أبيه، وخروجه للصلاة ومضي عمه جعفر[1] ساعياً إلى المعتمد[2] ما كان، حتى هجم على داره، وأخذ ما كان بها من أثاثه ورحله، واعتقل جميع نسائه وأهله، وسأل أمه عنه فلم تعترف به، وأودعها عند قاضي الوقت المعروف بابن أبي الشوارب،[3] ولم يزل الميراث معزولاً سنتين، ثم ما كان بعد ذلك من الأمور المشهورة التي يعرفها من إطلع في الأخبار المأثورة.

وهذه كلها من أسباب المخاوف التي نشأت [بنشوء] [الرجل] الخائف، ثم بترادف الزمان لعظم ذكره على لسان المؤالف والمخالف.

ومع ذلك فإن النصوص قد نطقت بذكر مخافته، كما تضمنت نعت استتاره وغيبته، منها ما هو مجمل، ومنها ما هو مفصل.

فروي عن أمير المؤمنين (ع) إنه ذكر المهدي (ص) فقال:

---

(١) هو جعفر بن الإمام علي الهادي المعروف عند الشيعة بجعفر الكذاب ادّعى الإمامة ثم بطل أمره.

(٢) هو الخليفة المعتمد على الله من ملوك بني العباس.

(٣) هو أحمد بن محمد بن عبدالله الأموي قاضي بغداد من عهد المتوكل إلى زمن المقتدر توفي سنة ٣٠٧هـ.

«صاحب الأمر هو الشريد الطريد الفريد الوحيد»[1]

وقال (ص):

اللهم إنك لا تخلي الأرض من حجةٍ لك على خلقك، ظاهراً موجوداً، أو خائفاً مغموراً، كي لا تبطل حججك وبيناتك.[2]

ومن ذلك قول الإمام الصادق (ع) وقد ذكر عنده المهدي (ص) فقال:

«إن للغلام غيبة قبل أن يقوم، فقال له زرارة: ولِمَ؟ قال: يخاف على نفسه»[3]

وقول أبيه الباقر (ع):

في صاحب هذا الأمر أربع سننٍ من أربعة أنبياء، سنة من موسى (ع)، وسنة من عيسى، وسنة من يوسف، وسنة من محمد صلى الله عليه وآله وعلى جميع الأنبياء. فأما موسى فخائف، وأما عيسى فيقال مات ويقال لم يمت، وأما يوسف فالغيبة عن أهله بحيث لا يعرفهم ولا يعرفونه، وأما محمد (ص) فالسيف»[4] وفيما أوردناه مقنع والحمد لله.

فصل من مسائل الفقه المستطرفة

مسألة: إمرأة طلقها زوجها، ومضت في عدتها حتى قاربت النصف، فلما انتهت إلى ذلك وجب عليها استئناف العدة من أولها من غير أن تكون أخلّت فيما مضى بشيء من حدودها.

---

(١) رواه الصدوق في إكمال الدين ص ٢٩٨ بسنده عن حنان بن السدير عن علي بن الحرد وعن الأصبغ عن علي ص٢٤١.

(٢) تجد هذا الحديث مروياً في إكمال الدين للصدوق من اكثر من عشرة طرق أنظر ص ٢٨٤-٢٨٨.

(٣) رواه الصدوق في إكمال الدين ص٣٣٢ بسنده عن عبد الدين بكر عن رزادة، وذكر القائم بدل الغلام.

(٤) رواه الصدوق في الكتاب المذكور ص ٣١٧. بسنده عن أبي بصير وكذلك في ص ٣٢٠ بسنده عن أبي بصير أيضاً باختلاف في بعض ألفاظه.

الجواب: هذه جارية لم تبلغ المحيض ومثلها في السن من تحيض، طلقها زوجها، فوجبت العدة بالشهور عليها، فلما مضت في عدتها قريب الشهر ونصفٌ حاضت، فوجب عليها الغاء ما مضى واستئناف العدة بالحيض.

وفي هذه من العامة خلاف ووفاق.

مسألة: إمرأة طلقها زوجها فوجبت عليها العدة أياماً معلومة، فعمد إنسان إلى طاعة الله تعالى ففعلها، فوجب على المرأة عند فعل الطاعة من العدة في الأيام مثل ما كان لزمها.

الجواب: هذه إمرأة طلقها زوج كان لها، فحاضت حيضين في شهر واحد، فلما كان قبل تقضّي الشهر بيوم أو يومين قبل أن تطهر من الحيضة الثانية، أعتقها مولاها، فوجب عليها عدة الحرة ثلاثة قروء، فلم تستوف ذلك حتى كملت ثلاثة أشهر.

وفي هذا الجواب خلاف من بعض العامة أيضاً.

مسألة أُخرى: رجل تزوج إمرأةٍ على مهرٍ غير موزون ولا مكيل، ولا ممسوح، ولا هو جسم، ولا جوهر ولا شيء من الأموال والعروض، فتم نكاحه بذلك وكان مصيباً.

جواب: هذا العاقد على سورة أو آيةٍ من كتاب الله تعالى.

والشيعة مجمعة على هذا، وبعض العامة يوافق عليه.

مسألة: إمرأة أجنبية من رجل، قالت قولاً حل له به فرجها من غير مهرٍ ولا أجر ولا عقد أكثر مما تقدم منها من القول.

جواب: هذه المرأة التي وهبت نفسها للنبي (ص)، فنزل القرآن بقصتها وتحليلها له، وتحريم ذلك على غيره، وجعلها الله سبحانه خالصة له من دون المؤمنين.[1]

---

(١) مصدره من الآية ٥٠ من سورة الأحزاب، وهو قوله سبحانه: «وامرأةً مؤمنةً إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين..»

وليس في هذا الجواب خلاف بين المسلمين.

مسألة: إمرأة، عدتها ساعة من الزمان.

جواب: هذه امرأة حامل، فولدت بعد ساعة من الطلاق. والقول في ذلك أيضاً إجماع.

مسألة: تزوج رجل إمرأة على ألف درهم، ثم طلقها فوجب له علبها ألف وخمساية درهم.

جواب: هذه المرأة قبضت من زوجها جميع مهرها وهو ألف درهم، ثم أشهدت على نفسها بعد قبضها له أنه صدقة عليه، فلما عرف الرجل ذلك طلقها قبل أن يدخل بها، فوجب عليها الألف درهم بالصدقة، وخمساية درهم نصف ما فرضه لها من الصداق، وهذا أيضاً جواب عليه الإتفاق.

فصل من كلام أمير المؤمنين (ص) في ذكر النساء

إياك ومشاورة النساء إلا من جربت بكمال عقلها، فإن رأيهن يجر إلى الأفن[1] وعزمهن إلى وهن. وقصر عليهن أجنحتهن فهو خير لهن. وليس خروجهن بأشد عليك من دخول من لا يوثق به عليهن. وإن استطعت أن لا يعرفن غيرك وأفعل.

لا تملك المرأة أمرها ما يجاوز نفسها فإن ذلك أنعم لبالها وبالك. وإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، ولا تطعها أن تشفع لغيرها، ولا تطيلنّ الخلوة مع النساء فيملنك وتملهن، واستبق من نفسك بقية.

وإياك والتغاير في غير موضع غيرة، فإن ذلك يدعو الصحيحة إلى السقم، وإن رأيت منهن ريبة فعجل النكير وأقل الغضب عليهن إلا في عيب أو ذنب.

وقال:

---

(١) الأفن ضعف العقل.

لا تطيعوا النساء على حال، ولا تأمنوهن على مال، ولا تثقوا بهن في الفعال ،فإنهن لا عهد لهن عند عامدهن ولا ورع عند حاجتهن، ولا دين لهن عند شهوتهن، يحفظن الشر وينسين الخير. فالطفوا لهن على كل حال لعلهن يُحسنّ الفعال.[1]

فصل مما روى عن المتقدمين في ذكر النساء

قيل لسقراط ما تقول في النساء؟

فقال: ما استرعين شيئاً قط إلا ضاع، ولا قدرن على شيء وكففن عنه

وقيل له: كيف يجوز أن تذم النساء، ولولاهن لم تكن أنت ولا أمثالك من الحكماء؟

فقال: إنما مثل المرأة كمثل النخلة ذات السلا ،[2] إن دخل يد الإنسان فيه عقره، وحملها الرطب الجني.

وقيل له: كيف تصبر عن النساء وطيبهن؟

فقال: هن كالعسل أُديف فيه سم قاتل، فمن أكله استلذ به ساعة أكله، وفيه هلاكه إلا الأبد.

ونظر بعض الحكماء إلى امرأة معلقة في شجرة، فوقف تحتها يبكي، فقال له بعض تلامذته: أيها الحكيم، تبكي لهذه البائسة؟

فقال: والله ما بكائي رحمةً مني لها

قيل له: فمم بكاؤك؟

قال: أَسفاً مني، كيف لا أرى كل الشجر يحمل من هذا الثمر.

وقال ديوجانس لبعض تلامذته، وقد نظر إلى امرأةٍ حسناء متبرجة في طريقه: تنحوا عن هذا الفخ الذي قد نصب نفسه لهلاك الخلق.

---

(١) هذا من وصايا الإمام (ع) لولده الحسن (ع) وهو مذكور في نهج البلاغة.

(٢) هو شوك النخل.

وقيل لسقراط: لِمَ لا تتزوج؟

فقال: إن كان ولابد فعلى الصفة التي أصفها لكم.

قالوا: صِف، فلم يترك شيئاً من السماجة والقباحة إلا وصفه.

فقيل له: أيها الحكيم: لقد ناقضت أولي الألباب في صفتك.

فقال: ألستم تعلمون أنه شر، فشر صغير خير من شر كبير.

ونظر آخر إلى امرأةٍ تحمل ناراً، فقال: الحامل شر من المحمول.

ونظر إلى امرأة تعلم الكتابة، فقال: أفعى يزداد سماً.

وبنى رجل داراً وكتب على بابها: لا يدخل شيء من الشر، فقيل له: فامرأتك من أين تدخل.

ونظر بعض الحكماء إلى تلميذٍ له ينظر إلى امرأةٍ حسناء، فقال له:

احذر أن تقيدك بشركها فتهلك.

فقال التلميذ: إنما أنظر إلى آثار حكمة الصانع فيها.

فقال له: أنظر إلى آثار حكم الصانع فيما لا تشتهيه نفسك، أسلم لك.

فصل من ذكر المرضى والعبادة

قال رسول الله (ص):

الحمى تذهب خطايا بني آدم، كما يذهب الكير خبث الحديد.

وقال الصادق (ع):

ساعات الآلام يذهبن بساعات الخطايا.

وقال (ع):

إن العبد إذا مرض أوحى الله تعالى إلى كاتب الشمال:

«لا تكتب على عبدي خطيئةً ما دام في حبسي ووثاقي إلى أن أُطلقه، وأوحى إلى كاتب اليمين: أن اجعل أنين عبدي حسنات».

وروي أن نبياً من الأنبياء مر برجلٍ قد جهده البلاء، فقال:
يار ب، أما ترحم هذا مما به، فأوحى الله إليه:
«كيف أرحمه مما به أرحمه».

وروي أنه لما نزلت هذه الآية:
«ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به» سورة النساء: ١٢٣

فقال رجل لرسول الله (ص): يا رسول الله، جاءت قاصمة الظهر.
فقال (ع): كلا، أما تحزن، أما تمرض، أما تصيبك اللأواء[١] والهموم؟؟

قال: بلى، قال: فذلك مما يجزي به.

وروى جابر بن عبد الله الأنصاري: أن رسول الله (ص) قال:
«عايد المريض يخوص في البركة، فإذا جلس انغمس فيها»
وقال عليه السلام:

«إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل، فإن ذلك لا يرد شيئاً، وهو يطيب النفس»

أُنشد لبعضهم

حق العبادة يوم بين يومين — وجلسة لك مثل الطرف بالعين
لا تبرمنَّ مريضاً في مسائلةٍ — يكفيك [تسأله من ذا] بحرفين[٢]

فصل من خطبةٍ لرسول الله (ص) في ذكر الموت والوعظ

«يا أيها الناس: كأن الموت على غيركم كتب، وكأن الحق على غيركم وجب، وكأن الذي نشيع من الأموات سَفَرٌ عما قليل إلينا راجعون، نبوِّهم أجداثهم، ونأكل تراثهم، كأنا مخلدون بعدهم، قد نسينا كل واعظة، وأمنّا كل جائحة. طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب غيره، وأنفق ما اكتسب في غير معصية،

---

(١) الشدة وضيق المعيشة، ويطلق ويراد به القحط.

(٢) في النسخة: هكذا يكفيك من ذاك تسأله بحرفين، وهو لا يستقيم وزناً وهو خطأ من الناسخ.

ورحم أهل الضعف والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة، طوبى لمن أذل نفسه، وحسنت خليقته وصلحت سريرته، وعزل عن غيره شره، وانفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السنة، ولم يدعها إلى البدعة »[1].

فصل مما روي في القبور والدفائن

وجد على قبرٍ مكتوباً:

قهرنا الأعداء، وبنينا الحصون والدفائن، واقتصرنا على ما ترون.

ووجد على آخر مكتوباً:

الدنيا فانية، والآخرة باقية، والناظر إلينا لاحق بنا.

ذكروا أنهم رأوا على قبر أبي نؤاس هذه الأبيات، وهن لأبي العتاهية:

وعظتك أجداث صُمُت ... ونعتك أزمنة خُفُت

وتكلمت عن أعين تبلى ... وعن صُوَرٍ سُبُت

وأرتك قبرك في القبو ... ر وأنت حي لم تمت

وروى أنس بن مالك، قال: إن رسول الله (ص) قال: «كان تحت الجدار الذي ذكره الله تعالى في كتابه:

«وكان تحته كنز لهما» الكهف: ٨٢.

لوح من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجباً لمن أيقن بالموت كيف يفرح، وعجباً لمن أيقن بالقدر كيف يحزن، وعجباً لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن قلبه إليها، لا إله إلا الله »[2]

وروى عن ابن عباس رحمه الله في حديث، ذكر فيه إتيان رجل جهني إلى رسول الله (ص)، وإسلامه على يده، وأنهم تحدثوا يوماً في ذكر القبور، والجهني حاضر، فحدثهم أن جهينة بن القوصان أخبره عن أشياخه، أن سنة[3]

---

(١) تجده هذه الخطبة في تحف العقول، وفي أعلام النبوة للماوردي مختصراً.

(٢) رواه الطبرسي في مشكاة الأنوار ص٢٧٣ عن الإمام الرضا (ع).

(٣) أي سنة مجدبة

نزلت بهم، أكلوا فيها ذخائرهم، فخرجوا من شدة الأزل[1]. وهم جماعة في طلب النبات، فجنهم الليل، فأووا إلى مغار، وكانت البلاد مسبعة، وهم لا يعلمون، قال رجل منهم يقال له مالك، قال: رأينا في الغار أشبالاً، فخرجنا هاربين، حتى دخلنا وهدة من وهاد الأرض، بعدما تباعدنا من ذلك الموضع، فأصبنا على باب الوهدة حجراً مطبقاً، فتعاونا عليه حتى قلبناه، فإذا رجل قاعد، عليه جبة صوف، وفي يده خاتم عليه مكتوب:

«أنا حنظلة بن صفوان رسول الله».

وعند رأسه كتاب في صحيفة نحاس، فيه: بعثني الله إلى حمير وهمدان والعزيز من أهل اليمن بشيراً ونذيراً، فكذبوني وقتلوني، فأعادوا الصخرة إلى ما كانت عليه في موضعها.

وروى الأصبغ بن نباتة في حديث رجل من حضرموت، أتى أمير المؤمنين (ع) أيام أبي بكر فأسلم على يده، قال: فسأله أمير المؤمنين (ع) يوماً ونحن مجتمعون للحديث، فقال له:

أعالم أنت بحضرموت؟

فقال: الرجل: إن جهلتها لم أعلم شيئاً.

قال: أفتعرف موضع الأحقاف؟

قال: كأنك تسأل عن قبر هود النبي (ع)؟

قال: لله درك، ما أخطأت.

قال: نعم. خرجت في عنفوان شيبني في غلمةٍ من الحي، ونحن نريد قبره، لبعدصوته فينا، وكثرة من يذكره، فسرنا في بلاد الأحقاف أياماً، وفينا رجلٍ قد عرف الموضع، حتى انتهى بنا ذلك الرجل إلى كهفٍ، فدخلنا وأمعنا فيه طويلاً، فانتهينا إلى حجرين قد أُطبق أحدهما فوق الآخر، وبينهما خلل، يدخل الرجل النحيف، فتحارفت فدخلت، فرأيت رجلاً على سرير، شديد الأدمة، طويل الوجه، كث اللحية، قد يبس، فإذا مسست شيئاً من جسده

---

(١) الأزل: الشدة

أصبته صلباً لم يتغير، ورأيت عند رأسه كتاباً بالعبرانية فيه مكتوب:

« أنا هود النبي آمنت بالله، وأشفقت على عاد بكفرها، وما كان لأمر الله من مرد ».

فقال لنا أمير المؤمنين (ع): وكذلك سمعت من أبي القاسم (ص).

وروى عبد الرحمن بن زياد الإفريقي قال:

خرجت بأفريقة مع عمٍ لي إلى مزروع لنا، قال: فحفرنا موضعاً فأصبنا تراباً هشاً، فطمعنا فيه، فحفرنا عامة يومنا حتى انتهينا إلى بيت كهيئة الأزج، فإذا فيه شيخ مسجىً، وإذا عند رأسه كتابه، فقرأتها، فإذا هي:

أنا حسان بن سنان الأوزاعي رسول شعيب النبي (ص) إلى أهل هذه البلاد، دعوتهم إلى الإيمان بالله، فكذبوني وحبسوني في هذا الحفير، إلى أن يبعثني الله فأخاصمهم إليه يوم القيامة.

سالم الأعرج مولى بني زريق قال:

حفرنا بئراً في دور بني زريق، فرأينا أثر حفرٍ قديم، فعلمنا إنه حفر قديم مستأثر، فحفرنا فأفضينا إلى صخرةٍ عظيمة، فقلبناها، فإذا تحتها رجل قاعد كأنه يتكلم، فإذا هو لا يشبه الأموات، فأصبنا فوق رأسه كتابةً، فيها:

أنا قادم بن اسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن، هربت بدين الحق من (أيتملك) الكافر، وأنا أشهد أن الله حق ووعده حق، لا أشرك به شيئاً، ولا أتخذ من دونه ولياً.

وعبدالله بن موهب قال:

أصاب بعض عمال معاوية محفراً بمصر، احتفره بعض أهلها لحاجتهم، فأفضى بهم ذلك إلى مخضب عظيم مطبق، فظنوه مالاً، فبعث العامل إليه أمناءه ليحضروا ما فيه، فلما فتحوا أصابوا شاباً، عليه جبة صوف، وكساء صوف، وخف إلى نصف ساقه، وأصابوا عند رأسه كتاباً بالعبرانية، فيه:

أنا حبيب بن نوبا جر صاحب رسول الله موسى بن عمران (ع). من أحب أن يأخذ بالناموس الأكبر، فليخالف بني إسرائيل، فإنهم قد تواكلوا الحكم، وعملوا بالهوى، وباعوا الرضا وتركوا المنهاج الذي أخذ عليه ميثاقهم.

عبدالله بن موهب عن بعض أشياخه:

إن مسجد الرملة لما حفر أساسه في دار معاوية بن أبي سفيان، انتهى بهم الحفر إلى صخرة، فقلعوها فإذا تحتها شاب دهين الرأس موفر الشعر قائم مستقبل القبلة، فكلموه فلم يكلمهم، فكتب بذلك إلى معاوية، قال فخرجنا بالكتاب في خمسة، فأتينا معاوية، فأخبرناه بذلك ودفعنا إليه الكتاب، فأمر أن ترد الصخرة إلى حالها، وأن يعيدوه على حاله كما كان.

وحدثهم غير واحد:

أنه لما أجرى معاوية بن أبي سفيان القناة التي في (أُحُد)، أمر بقبور الشهداء فنبشت، فضرب رجل بمعوله فأصاب إبهام حمزة رضي الله عنه، فانحبس الدم في إبهامه، فأخرج رطباً يتثنى، وأخرج عبدالله بن عمرو بن الجموح، وكانا قتلا يوم (أُحُد) وهما [رطبان..] بعد أربعين سنة، فدفنا في قبر واحد. وكان عمرو بن الجموح أعرج، فقال أبو سعيد الخدري[1]: إنه لشيء لا آمر بعده بمعروف ولا أنهى عن منكر.

وذكروا أن الوليد بن عبد الملك احتاج إلى رصاص أيام بنى مسجد دمشق، فقيل له إن في الأُردن منارة فيها رصاص فابعث إليها، فبعث إليها، فلما أخذوا في حفرها ضرب رجل بمعوله فأصاب رجلاً في سفط[1]، وناوله المعول، فسال دمه، فسأل عنه فقيل: هذا طالوت الملك، فتركه ولم يخرجه.

وذكروا: إن سليمان بن عبد الملك، مر بوادي القرى، فأمر بحفرٍ يحفر فيه ففعلوا فانتهى فيه إلى حجرة فاستخرجت، فإذا تحتها رجل عليه قميصان

---

(١) كذا في النسخة.

واضح يده على رأسه، فجذبت يده فمج مكانها دم، ثم تركت فرجعت إلى مكانها فرقا الدم، وإذا معه كتاب فيه:

أنا الحرث بن شعيب الغساني رسول شعيب إلى أهل مدين فكذبوني وقتلوني.

مسألة من عويص الفقه لأبي النجا محمد بن المظفر

ذكروا أن أبا النجا سئل عن معن هذين البيتين:

أتعرف خالاً أحرز المال كله ... ففاز به من دون عمٍ وما غصب
وما الخال عم الميت حين نعتُّه ... ولكنه أدنى وأولى إذا نسب

فأجاب:

تفهم جواباً تستفد بافتهامه ... غرائب علمٍ طارفٍ حين يكتسب
هو ابن أخيه من أبيه وخاله ... لأم فخذ قولاً يفهِّم ذا الأدب
وذلك لما زوِّجت أم أمه ... أخاه يقيناً من أبيه إذا انتسب
فجاءته بابن فهو لا شك خاله ... لأم وسنخ القوم وابن أخ لأب
فأحرز إرث العم من دون عمه ... كذلك يقضي ذو التفقه والأدب

تفسير الجواب

هذا رجل تزوج أخوه لأبيه، جدته أم أمه، فجاءت بابن، فهو خاله لأمه، وهو ابن أخيه لأبيه، فلما مات عن عمه- وهذا الخال- كان أولى بالميراث من العم، لأنه ابن أخ.

وفيه وجه آخر فيقال: رجل تزوج امرأة، وزوج ابنه من أُمها، فجاءت كل واحدة منهما بابن، فابن الكبرى هو خال ابن الصغرى، وهوابن أخيه لأبيه.

وقد روي أن مثل هذا اتفق في أيام عبد الملك بن مروان، وأنه دخل إليه رجل من أهل الشام، فقال له: يا أمير المؤمنين، إني تزوجت أمرأة، وزوجت ابني أمها، ولا غنى بنا عن رفدك، فقال له عبد الملك: إن أخبرتني ما قرابة ما بين أولادكما إذا ولدتما فعلت؟

قال: يا أمير المؤمنين، هذا حميد بن بجدل، قد قلدته سيفك، ووليته ما وراء بابك فاسأله عنها، فإن أصاب لزمني الحرمان، وإن أخطأ اتسع لي العذر. فدعا بـالبجدلي، فسأله عنها، فقال: يا أمير المؤمنين، إنك ما قدمتني على العلم بالأنساب، ولكن على الطعن بالرماح، ثم قيل له الجواب، وهو أن أحدهما عم الآخر والآخر خاله.

مسألة: تزوج زيد امرأة، وزوج ابنه عمراً ابنتها، فرزقا منهما ولدين، ما قرابة ما بين الولدين؟

الجواب: إن ولد زيد من المرأة هو عم ولد عمرو من بنتها، وخاله أيضاً، لأنه أخو أبيه من أبيه، وأخو أمه من أمه، والآخر ابن أخيه وابن أخته.

مسألة أخرى: تزوج زيد امرأة وزوج ابنه عمراً أختها، فرزقا منهما ولدين. فما قرابة ما بين الولدين.

جواب: إن ابن زيد عم ابن عمرو وابن خالته، وابن عمرو ابن أخيه[1] وابن خالته.

فصل

حدثني أبو سعيد أحمد بن محمد بن أحمد الماليني الهروي بالرملة في شوال سنة ست عشرة وأربعماية، قال: أخبرنا أبو عمرو إسماعيل بن نجيد إملاءً، قال: حدثنا علي بن الحسن بن الجنيد الرازي، قال: حدثنا المعافا بن سليمان، قال: حدثنا زهير بن معاوية، قال: حدثنا محمود بن حجارة، إن أبان حدثه قال: حدثني أنس بن مالك، قال: كان رسول الله (ص) يدعو في أثر الصلاة فيقول:

« اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ونفسٍ لا تشبع، ودعاء لا يسمع. اللهم إني أعوذ من هؤلاء الأربع ».

---

(١) في النسخة ابن خالة وهو خطأ من الناسخ.

وأخبرني شيخي أبو عبدالله الحسين بن عبيد الله بن علي الواسطي[1] رضي الله عنه، قال: أخبرني أبو محمد هارون بن موسى التلعكبري[2]، قال: أخبرني أبو علي محمد بن همام[3] بن سهل، قال: حدثنا جعفر بن مالك، قال: حدثنا محمد بن الحسن الزيات، قال حدثنا حسن بن محبوب، عن علي بن أبي حمزة، عن أبي بصير، قال: قال أبو جعفر (ع)، كان من دعاء أمير المؤمنين صلوات الله عليه:

«آلهي كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً، إلّهي أنت لي كما أحب، وفقني لما تحب»[4].

تم الجزء الاول من كتاب كنز الفوائد

---

(١) هو العالم المعروف بابن الواسطي كما حكاه فخار بن معد في كتابه (حجة الذاهب) عن تلميذه الكراجكي، وهو صاحب كتاب (من أظهر الخلاف لأهل البيت) الذي ينقل عنه ابن طاووس في رسالته (غياث سلطان الورى) في المواسعة (طبقات ج٢ ص٦٤).

(٢) الشيباني من وجوه الأصحاب وثقاتهم مات سنة ٣٨٥هـ وهو من تل عكبرى بلدة من نواحي دجيل بينها وبين بغداد عشرة فراسخ.

(٣) هو أبو علي محمد بن أبي بكر همام بن سهيل الكاتب الأسكافي من شيوخ الشيعة ومتقدميهم له منزلة عظيمة، كثير الحديث ولد يوم الإثنين لستٍ خلون من ذي الحجة سنة ٢٥٠هـ وتوفي يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة ٣٣٦هـ عن رجال النجاشي.

(٤) رواه الشيخ المفيد من كتاب الخصال ج (١) ص: ١٨٦.

صدر للمعلق

(١) سياسة الخلفاء الراشدين في الموازين النفسية.
(٢) الأدب في ظل التشيع، طبعة ثانية.
(٣) هشام بن الحكم، طبعة ثانية.
(٤) فلاسفة الشيعة.
(٥) مصادر نهج البلاغة.
(٦) عقيدتنا، طبعة ثانية.
(٧) دليل القضاء الجعفري.

وسيصدر قريباً إن شاء الله تعالى:

(٨) روح التشيع.
(٩) الأدلة الجلية في شرح الفصول النصيرية.
(١٠) ملحق أمل الآمل في تراجم علماء جبل عامل.
(١١) الغيب وأنباء المستقبل في الإسلام.

مراجع الكتاب

طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي
الأغاني للأصبهاني
بحار الأنوار للمجلسي
مناقب ابن شهراشوب
كشف الغمة
شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد
سيرة ابن هشام
حماسة أبي تمام
إعلام الورى للطبرسي
شرح التجريد للعلامة الحلي
أمالي الشريف المرتضى
الفصول المختارة
الكنى والألقاب للقمي
مروج الذهب } للمسعودي
التنبيه والإشراف } للمسعودي
اثبات الوصية } للمسعودي
طبقات الشعراء لابن قتيبة
المحاسن والمساوئ للبيهقي
الخرايج والجرايح للراوندي
الإفصاح } للمفيد
الأمالي } للمفيد
الإرشاد } للمفيد
الإختصاص } للمفيد
فهرست ابن النديم
التوحيد

اكمال الدين } للصدوق القمي
الآمالي } للصدوق القمي
البيان والتبيين } للجاحظ
رسائل الجاحظ } للجاحظ
الغيبة للطوسي
لسان الميزان
ديوان ابن الرومي
ديوان الشريف الرضي
الأربعين للمجلسي
الأربعين للبهائي
كشف الفوائد للعلامة الحلي
عيون الأخبار لابن قتيبة
مجمع البحرين
صحيح البخاري
فضائل الخمسة من الصحاح الستة
معاهد التنصيص
معجم رجال الحديث للسيد الخوئي
وقعة صفين لابن مزاحم المنقري
النجوم لابن طاووس
فلاسفة الشيعة } للمعلق
مصادر نهج البلاغة } للمعلق
تثبيت دلائل النبوة للهمذاني
مقتضب الأثر لابن عياش
مناقب المغازلي

فهرس الجزء الأول من الكتاب

منشورات دار الأضواء بيروت - لبنان

اسم الكتاب	المؤلف
جوامع الجامع في تفسير القرآن	الطبرسي
مصادر وأسانيد نهج البلاغة	عبد الزهراء الخطيب
شرائع الاسلام ١-٤	العلامة الحلي
جامع الرواة	الأردبيلي
معالم التوحيد	العلامة الشيخ جعفر سيحاني
معالم الحكومة الاسلامية	جعفر سبحاني
معالم النبوة	جعفر سبحاني
مفاتيح الجنان	عباس القمي
الباقيات الصالحات	عباس القمي
الأنوار البهية	عباس القمي
فرق الشيعة	النوبختي
حق اليقين	العلامة عبد الله شبر
تذكرة الخواص	سبط بن الجوزي
ثواب الأعمال وعقابها	علي دخيل
مناقب الإمام علي	ابن المغازلي الشافعي
أدعية وأعمال شهر رمضان	إعداد الدار
١٠٠ شاهد وشاهد	عبد الزهراء الخطيب
الاستنصار	الكراجكي
الوصية الخالدة	عباس الموسوي
تلخيص المحصل	نصير الدين الطوسي
معالم العلماء	ابن شهرآشوب

اسم الكتاب	المؤلف
ضياء الصالحين	الجوهري
عمار بن ياسر	صدر الدين شرف الدين
الإسلام وأسس التشريع	عبد الحسن فضل الله
مقتل الحسين	عبد الرزاق المقرم
حجر بن عدي	عبد الله السبيتي
سلمان الفارسي	عبد الله السبيتي
عمار بن ياسر	عبد الله السبيتي
مذهب أهل البيت	محمد الحيدري
كيف تكسب الأصدقاء	محمد الحيدري
النكت الاعتقادية	جعفر النقدي
علي الأكبر	محمد علي عابدين
من ذا وذاك	محمد جواد مغنية
شبهات الملحدين	محمد جواد مغنية
مصدر الوجود	جعفر سيحاني
فلسفات إسلامية	بسام مرتضى
طب الإمام الصادق	محمد الخليلي
الأخلاق عند الإمام الصادق	محمد أمين زين الدين
الحياة الجنسية في الإسلام	صباح السعدي
كشف الغمة في معرفة الأئمة	الأربلي
سعد السعود	ابن طاووس
مناقب آل أبي طالب	ابن شهرآشوب
الفصول المختارة	الشيخ المفيد
الانتصار	الشريف المرتضى
مبادىء الوصول إلى علم الأصول	العلامة الحلي

كنز الفوائد

للامام أبي الفتح الشيخ محمد بن علي بن عثمان
الكراجكي الطرابلسي المتوفى ٤٤٩هـ

حققه وعلق عليه
العلامة الشيخ عبدالله نعمه

دار الأضواء
بيروت



كنز الفوائد

للإمام أبي الفتح الشيخ محمد بن علي بن عثمان
الكراجكي الطرابلسي المتوفى ٤٤٩هـ

كنز الفوائد

للإمام أبي الفتح الشيخ محمد بن علي بن عثمان
الكراجكي الطرابلسي المتوفى ٤٤٩هـ

حققه وعلق عليه
العلامة الشيخ عبد الله نعمه

الجزء الثاني

دار الأضواء
بيروت • لبنان

جميع الحقوق محفوظة

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

دار الأضواء

بيروت - الغبيري - شارع عبد الله الحاج - بناية الروضة
ص.ب: ٢٥/٤٠ - برقياً: الغبيري - حسنكو

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وآله الطاهرين.

[الأدلة على أن الصانع واحد]

وبعد فمن الأدلة على أن صانع العالم واحد أما الذي يعتمده أكثر المتكلمين فدليل التمانع.

وهو أنه لو كان لصانع العالم ثانٍ لوجب أن يكون قديماً، وإذا كان كذلك ماثله، وإذا ماثله صح أن يريد أحدهما ضد ما يريده الآخر، فيقع التمانع، كإرادة أن يحرك جسماً في وقت وأراد الآخر أن يسكنه فيه.

وإذا صح ذلك لم يخل الأمر من ثلاث خصال:

إما أن يصح وقوع مراديهما من غير تضادٍ ولا تمانع بينهما، فيكون الجسم في وقتٍ واحد ساكناً ومتحركاً. وهذا محال.

وإما أن لا يصح وقوعهما ولا شيء منهما، فهذا هو التمانع المبطل لوقوع مراديهما، وهو دليل على ضعفهما.

وإما أن يقع مراد أحدهما دون الآخر، فهو دليل على أن من لم يقع مراده

ممنوع ضعيف، خارج من أن يكون قديماً، لأن من صفات القديم أن يكون قادراً لنفسه، لا يتعذر[1] عليه فعل أراده.

فإن قيل: لم قلتم أنه إن كان معه ثانٍ يصح أن يريد ضد مراده؟

قلنا: لأن من حق القادر أن يصح منه الشيء وضده، لا سيما إذا كان قادراً لنفسه، فإذا كانا قادرين لأنفسهما صح ما ذكر بينهما.

فإن قيل: إن التمانع لا يقع منهما، لأنهما عالمان، فكل واحدٍ منهما يعلم أن مراد صاحبه حكمة، فلا يريد ضده.

قلنا: إن الكلام مبني على صحة ذلك دون كونه، فإن لم يكن واحد منهما يريد أن يمنع صاحبه، فكونه قادراً يعطي أنه ممكن منه، وإن لم يفعل، وتصح إرادته ولا تستحيل منه، ويحصل من ذلك تقدير التمانع بينهما وجوازه.

فإن قيل: لم ذكرتم أنهما إذا لم يقع مرادهما جميعاً، أن ذلك لضعفهما؟

قلنا: لتساوي مقدورهما، وعند تساويه لا يكون فعل أحدهما أحق بالوجود من فعل الآخر. وفي ذلك إبطال أفعالهما، وهو معنى قول الله عز وجل.

«لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» الأنبياء: ٢٢

فإن قيل: فَلِمَ قلتم إن وجود مراد أحدهما دليل على ضعف الآخر؟

قلنا: لما في ذلك من رجحانه في قدرته على صاحبه. فلولا أنه أقدر منه لما وقع مراده دونه. وهذا يوضح عن ضعف من لم يقع مراده.

دليل آخر

وقد احتج أصحابنا بدليل التمانع على وجهٍ آخر فقالوا: إنهما لو كانا اثنين كان لا يخلوا أحدهما من أن يكون يقدر على أن يكتم صاحبه شيئاً، أو لا يقدر على ذلك.

---

(١) في النسخة: لا يعتذر

فإن كان يقدر فصاحبه يجوز عليه الجهل، ومن جاز عليه الجهل فليس بآلهٍ قديم.

وإن كان لا يقدر فهو نفسه عاجز والعاجز ليس بآلهٍ قديم[١].

دليل آخر:

ومما يدل على أن صانع العالم واحد، أنه لو كان معه ثانٍ كان لا يخلو أمرهما في فعلهما للعالم من أحد وجهين:

إما أن أمرهما في فعلهما للعالم من أحد وجهين:

إما أن كل واحد منهما فعل جميعه، حتى يكون الذي فعله أحدهما هو الذي فعله صاحبه.

أو يكون كل واحدٍ منها انفرد ببعض منه.

وفي الوجه الأول إيجاب فعل واحد من فاعلين. وهذا يبطل في فصل[٢].

وفي الوجه الثاني إيجاب تميز فعل كل واحدٍ منها عن فعل الآخر، لأن القادر الحكيم إذا فعل فعلاً حسناً لم يجز إلا ليجعله دالاً عليه وموسوماً به، ومميزاً عن فعل غيره، لا سيما إذا كان داعياً إلى شكر نعمته، وموجباً لمعرفته، ولا طريق لأحدٍ إلى معرفته إلا بفعله.

فَلَمَّا لم يكن فعل ما شاهدناه من السماء والأرض وغيرهما مما يدل على أن بعضه لواحد، وبعضه لآخر، وإنما يدل على أن له فاعلاً فقط، علمنا أن الفاعل له واحد، وهو الله تعالى ذكره.

فإن قيل: فإنا نجد العالم على قسمين: جواهر وأعراض، وكل واحدٍ من الجنسين مميز عن الآخر فألاَّ دل هذا على الصانعين؟

قلنا: لو كان صانع الجواهر غير صانع الأعراض، لكانا محتاجين بل

---

(١) عرض الصدوق في كتاب التوحيد لهذا الدليل ص ٢٧٧ باختلاف يسير.

(٢) هكذا في النسخة والعبارة غير تامة والأرجح أن هناك جملة ساقطة قد تكون هكذا: وهذا يبطل كونه فعله.

عاجزين، لأن أحدهما لا يقدر أن يفعله بانفراده، وهو يفتقر إلى صاحبه، لإستحالة وجود الجوهر بغير عرض، والعرض بغير جوهر، إلا ما انفرد به قوم من إرادة القديم وفناء العالم.

دليل آخر:

وهو أن العالم لو كان صانعه اثنين لكانا غيرين، وحقيقة الغَيرين هما اللذان يجوز وجود أحدهما وعدم الآخر، إما من الزمان أو المكان، أو على وجهٍ من الوجوه، أو كان يجوز ذلك[1].

ولسنا نجد أحداً من ذوي العقول الصحيحة السليمة التي لم تعترضها الشبهة الحادثة، تعرف غيرين إلا وهو يعرف أنها هكذا، ولا يعلم شيئين هكذا إلا وهو يعلم أنهما غيران.

وهذا يمنع من أن يكون صانع العالم اثنين، لما في ذلك من جواز عدم أحدهما، ومن جاز عدمه فليس بقديم. وفي بطلان قدم أحدهما دليل على أنه داخل في جملة المحدثين، وأن صانع العالم هو الواحد القديم ومن خالفنا في حد الغيرين فليوجد [لنا][2] شيئين متفقين على وجودهما، ليس هذا حكمهما.

دليل آخر

وقد اعتمد البلخي[3] دليلاً مفرداً على أن صانع العالم واحد، لم يحتج أن يذكر فيه تقدير وجود الاثنين، فقال:

---

(١) في العبارة غموض ولعلها هكذا: (ولا يجوز غير ذلك)

(٢) في النسخة (نا).

(٣) هو مأخوذ من قول الإمام الرضا (ع) قولك أنه اثنان دليل على أنه واحد لأنك لم تدع الثاني إلا بعد إثباتك الواحد فالواحد يجمع عليه وأكثر من واحد مختلف فيه أنظر التوحيد ص ٢٧٨.

الذي يدل على ذلك، أنا وجدنا العالم محدثاً، ولا بد له من محدث، ووجدنا من تجاوز هذا القول بأن المحدث له واحد، فزعم أنه اثنان[1]، لا نجد فرقاً بينه وبين من زعم أنه ثلاثة، وكذلك لا نجد فرقاً بينه وبين من زعم أنه أربعة. وكل عدة تجاوزت الواحد لا يقدر القائل بها على فرق بينه وبين من زاد فيها، ولا نجد حجة توجب قوله دون قول خصمه فيها.

فلما فسد قول كل من ادعى الزيادة على الواحد، وليس مع أحدهم رجحان بحجته، وتكافأت أقوالهم في دعوى الزيادة، دل على أن الصانع واحد لا أكثر من ذلك، ولأن الدليل ثبت على وجود الصانع، ولم يثبت على ما يزيد على واحد.[2]

ثم عارض نفسه فقال:

إذا قال قائل: إنكم قد تجدون داراً مبنية، يدل بناؤها على أن لها بانياً، ثم لا يجدون فرقاً بين من زاد على واحد، فقال إن بانيها اثنان وبين من قال ثلاثة. وكذلك كل عدة حتى لا يتميز بعض الأقوال على بعض حجةً، أفتقطعون على أن صانع الدار واحد؟

وانفصل عن هذه المعارضة بأن قال: إن المثبت للدار صانعاً واحداً أو صانعين فقد نجد فرقاً بينه وبين من زاد عليه، ودليلاً على قوله دون قول من خالفه، وذلك أن صناع الدار يجوز أن يشاهدهم من شاهدها، ويجوز أن يرد الخبر إليه بعددهم ممن شاهدهم يبنونها.

وليس كذلك صانع العالم. وهذا فرق واضح بين الموضعين. ولوضوحه يعلم بطلان مذهب الثنوية على اختلافهم، والنصارى في التثليث ومن جرى مجراهم، والحمد لله.

---

(١) في النسخة اثنين.

(٢) وخلاصته: أنه بعد العلم بوجود صانع للعالم فالواحد متيقن والزائد مشكوك ولا دليل عليه لكن هذا يرد عليه إن عدم العلم بالزائد لا يدل على عدم وجود الزائد والقضية متعلقة بالعقائد اليقينية لا بحكم ظاهري.

فصل:

من كلام رسول الله (ص) في الخصال من واحد إلى عشرة.

وروي عن رسول الله (ص) أنه قال:

خصلة من لزمها أطاعته الدانيا والآخرة، وربح الفوز بالجنة.

قيل: ما هي يا رسول الله؟

قال: التقوى، من أراد أن يكون أعز الناس فليتق الله عز وجل، ثم تلا:

«ومن يتق الله يجعل له من أمره مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب» الطلاق: ٢.

وقال:

المؤمن بين مخافتين، بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين آجل قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه.[1]

وقال (ص):

«ومن وُقِيَ شر ثلاثٍ فقد وقي الشر كله، لقلقه، وقبقبه، وذبذبه».

فلقلقهُ لسانه، وقبقبه بطنه، وذبذبه فرجه.

وقال (ص):

أربع خصال من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، والإصرار على الذنب، والحرص على الدنيا».

وقال (ص):

«خمس لا يجتمعن إلا في مؤمنٍ حقاً، يوجب الله له بهن الجنة: النور في القلب، والفقه في الإسلام، والورع في الدين، والمودة في الناس، وحسن السمت في الوجه».

---

(١) انظر: تحف العقول ص ٢٠.

وقال (ص):

« اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة، أصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، وأحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم »

وقال (ص):

« أوصاني ربي بسبعٍ، أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية، وأن أعفو عمن ظلمني، وأعطيَ من حرمني، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكراً، ونظري عِبَراً »[1]

وحفظ عنه (ص) ثمانٍ قال:

« ألا أُخبركم بأشبهكم بي خلقاً، »؟

قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أحسنكم خلقاً، وأعظمكم حلماً، وأبرَّكم بقرابته، وأشدكم حباً لإخوانه في دينه، وأصبركم على الحق، وأكظمكم للغيظ، وأحسنكم عفواً، وأشدكم من نفسه إنصافاً »[2].

وقال (ص):

« الكبائر تسع، أعظمهن الإشراك بالله عز وجل، وقتل النفس المؤمنة، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين، واستحلال البيت الحرام، والسحر. فمن لقي الله عز وجل، وهو بريء منهن كان معي في جنةٍ مصاريعها من ذهب ».

وقال:

« الإيمان في عشرة: المعرفة، والطاعة، والعلم، والعمل، والورع، والإجتهاد، والصبر، واليقين، والرضا، والتسليم، فأيها فقد صاحبه بطل نظامه »

---

(١) انظر: تحف العقول للحراني ص ٢٥.

(٢) مشكاة الأنوار في غرر الأخبار ص ٢١٤.

فصل:

من فضائل أمير المؤمنين (ع) والنصوص عليه من رسول الله (ص)

من جملة ما رواه [لنا][1] الشيخ الفقيه أبو الحسن محمد بن أحمد بن شاذان القمي رحمه الله بمكة في المسجد الحرام، قال حدثني نوح بن أحمد بن أيمن رحمه الله، قال: حدثنا إبراهيم بن أحمد بن أبي حصين، قال: حدثني جدي، قال: حدثني يحيى بن عبدالحميد، قال: حدثني قيس بن الربيع، قال: حدثني سليمان الأعمش عن جعفر بن محمد، قال حدثني أبي قال حدثني علي بن الحسين عن أبيه قال: أبي أمير المؤمنين علي عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«يا علي أنت أمير المؤمنين، وإمام المتقين يا علي أنت سيد الوصيين، ووارث علم النبيين، وخير الصديقين، وأفضل السابقين. يا علي أنت زوج سيدة نساء العالمين، وخليفة خير المرسلين. يا علي أنت مولى المؤمنين، والحجة بعدي على الناس أجمعين، استوجب الجنة من تولاك، واستوجب دخول النار من عاداك.

يا علي، والذي بعثني بالنبوة، واصطفاني على جميع البرية، لو أن عبداً عبدالله تعالى ألف عام، ما قبل الله ذلك منه إلا بولايتك وولاية الأئمة من ولدك، وان ولايتك لا تقبل إلا بالبراءة من أعدائك وأعداء الأئمة من ولدك. بذلك أخبرني جبرئيل عليه السلام، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر.[1]

وحدثنا الشيخ أبو الحسن بن شاذان، قال: حدثني أبو الحسن علي بن أحمد بن متويه المقري، قال: حدثنا أحمد بن محمد، قال: حدثنا محمد بن علي، قال: حدثنا علي بن عثمان، قال: حدثنا محمد بن فرات عن محمد بن علي، عن أبيه، عن الحسين بن علي، عن أبيه، قال: قال رسول الله (ص):

---

(١) هو مذكور في البحار ج ٣٨ ص ١٣٤ نقله عن كشف اليمين ص ٥٦ - ٥٧.

علي بن أبي طالب خليفة الله وخليفتي، حجة الله وحجتي، وباب الله وبابي، وصفي الله وصفي، وحبيب الله وحبيبي، وخليل الله وخليلي، وسيف الله وسيفي، وهو أخي وصاحبي، ووزيري، ووصيي، حجته حجتي، ومبغضه مبغضي، ووليه وليي، وعدوه عدوي، وزوجته ابنتي، وولده ولدي، وحربه حربي، وقوله قولي، وأمره أمري، وهو سيد الوصيين وخير أمتي »[١]

وحدثنا الشيخ أبو الحسن بن شاذان قال: حدثني خال أُمي أبو القاسم جعفر بن محمد بن قولويه رحمه الله، قال: حدثنا علي بن الحسين، قال: حدثنا علي بن إبراهيم، عن أبيه[٢]، قال حدثني أحمد ين محمد، قال: حدثني محمد بن الفضيل، عن ثابت ابن أبي صفيه، عن أبي حمزة[٣]، قال: حدثني علي بن الحسين، عن أبيه، قال حدثني أبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهم السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

« إن الله فرض عليكم طاعتي ونهاكم عن معصيتي، وأوجب عليكم اتباع أمري، وفرض عليكم من طاعته طاعة علي بن أبي طالب بعدي كما فرض عليكم من طاعتي، ونهاكم عن معصيته كما نهاكم عن معصيتي، وجعله أخي ووزيري، ووصيي ووارثي، وهو مني وأنا منه، حبه إيمان، وبغضه كفر. محبه محبي، ومبغضه مبغضي، وهو مولى من أنا مولاه، وأنا مولى كل مسلم ومسلمةٍ، وأنا وهو أبوا هذه الأمة »[٤]

---

(١) انظر: البحار ج ٣٨ ص ١٤٧ نقله عن بشارة المصطفى ص ٢٨، هامش.

(٢) هو ابراهيم بن هاشم. أبو إسحاق القمي أصله من الكوفه، وانتقل إلى قم وهو أول من نشر حديث الكوفيين بقم، ودكروا أنه لقي الإمام الرضا (ع) فهرست الطوسي ص ٢٧.

(٣) هو أبو حمزة الثمالي ثابت بن دينار. من أصحاب الإمام الصادق (ع) الثقات خدم أربعة من الأئمة: زين العابدين والباقر والصادق وبرهة من عصر الكاظم توفي سنة ١٥٠هـ.

(٤) انظر: أمالي الصدوق ص ١٣ وتجده أيضاً في البحار ج ٣٨ ص ٩١- ٩٢ نقلا عن الأمالي.

فصل:

من كلام أمير المؤمنين (ع) وآدابه في فضل الصمت وكف اللسان.

من علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه.

من كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قلّ حياؤه، ومن قل حياؤه قلّ ورعه، ومن قلّ ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار.

إذا فاتك الأدب فالزم الصمت.

العافية في عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت إلا عن ذكر الله عز وجل.

كم نظرة جلبت حسرة، وكم من كلمة سلبت نعمة.

من غلب لسانه أمَّره قومه.

المرء يعثر برجله فيبرأ، ويعثر بلسانه، فيقطع رأسه ولسانه. احفظ لسانك، فإن الكلمة أسيرة في وثاق الرجل، فإن أطلقها صار أسيراً في وثاقها.

عاقبة الكذب شر عاقبة.

خير القول الصدق، وفي الصدق السلامة، والسلامة مع الاستقامة.

لا حافظ أحفظ من الصمت.

إياكم والنمائم فإنها تورث الضغائن.

هانت عليه نفسه من أمر عليه لسانه.

الصمت نور.

إن الله عز وجل جعل صورة المرأة في وجهها، وصورة الرجل في منطقه.

مختصر التذكرة بأصول الفقه

استخرجته من كتاب شيخنا المفيد أبي عبدالله محمد بن محمد بن النعمان رضي الله عنه وقدس سره.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهل الحمد ومستحقه، وصلاته على خيرته المصطفين من خلقه، سيدنا محمد رسوله، الدال بآياته على صدقه، وعلى أهل بيته، الأئمة القائمين من بعده بحقه.

سألت أدام الله عزك، أن أثبت لك جملاً من القول في أُصول الفقه مختصرة، لنكون لك تذكرة بالمعتقد في ذلك ميسرة، وأنا أسير إلى محبوبك، وانتهي إلى مرادك ومطلوبك، بعون الله وحسن توفيقه.

إعلم أن أُصول أحكام[1] الشريعة ثلاثة أشياء: كتاب الله سبحانه، وسنة نبيه صلى الله عليه وآله، وأقوال الأئمة الطاهرين من بعده صلوات الله عليهم وسلامه.

والطرق الموصلة إلى علم المشروع في هذه الأصول ثلاثة:

أحدها العقل، وهو سبيل إلى معرفة حجية القرآن ودلائل الأخبار.

والثاني اللسان، وهو السبيل إلى المعرفة بمعاني الكلام.

وثالثها الأخبار، وهي السبيل إلى إثبات أعيان الأصول من الكتاب والسنة وأقوال الأئمة عليهم السلام.

والأخبار الموصلة إلى العلم بما ذكرناه ثلاثة أخبار: خبر متواتر، وخبر واحد معه قرينة، تشهد بصدقه، وخبر مرسل في الإسناد، يعمل به أهل الحق على الاتفاق.

---

(١) في الأصل الأحكام.

ومعاني القرآن على ضربين: ظاهر وباطن.

والظاهر هو المطابق لخاص العبارة عنه تحقيقاً على عادات أهل اللسان، كقوله سبحانه:

«إن الله لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون».

فالعقلاء العارفون باللسان يفهمون من ظاهر هذا اللفظ المراد.

والباطن هو ما خرج عن خاص العبارة وحقيقتها إلى وجوه الإتساع، فيحتاج العاقل في معرفة المراد من ذلك إلى الأدلة الزائدة على ظاهر الألفاظ، كقوله سبحانه:

«أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة».

فالصلاة في ظاهر اللفظ هي الدعاء حسب المعهود بين أهل الفقه، وهي في الحقيقة لا يصح منها القيام، والزكاة هي النمو عندهم بلا خلاف، ولا يصح أيضاً فيها الاتيان، وليس المراد في الآية ظاهرها، وإنما هو أمر مشروع.

فالصلاة المأمور بها فيها هي أفعال مخصوصة مشتملة على قيام وركوع وسجود وجلوس.

والزكاة المأمور بها فيها، هي إخراج مقدار من المال على وجه أيضاً مخصوص، وليس يفهم هذا من ظاهر القول، فهو الباطن المقصود.

وأنواع أصول معاني القرآن أربعة:

أحدها، الأمر وما استعير له لفظه

وثانيها، النهي وما استعمل فيه لفظه.

وثالثها، الخبر مع ما يستوعبه لفظه.

ورابعها، التقرير وما وقع عليه لفظه

وللأمر صورة محققة في اللسان، يتميز بها عن غيره في الكلام، وهي قولك: (افعل) إذا ورد مرسلاً على الإطلاق، وإن كانت هذه اللفظة تستعمل في غير الأمر على سبيل الإتساع والمجاز، كالسؤال، والإباحة، والخلق والمسخ، والتهديد.

والأمر المطلق يقتضي الوجوب، ولا يعلم الندب إلا بدليل.

وإذا علق الأمر بوقت وجب الفعل في أول الوقت، وكذلك إطلاقه يقتضي المبادرة بالفعل والتعجيل، ولا يجب ذلك أكثر من مرة ما لم يشهد بوجوب التكرار الدليل.

فإن تكرر الأمر وجب تكرار الفعل ما لم تثبت حجةٌ بأن المراد بتكراره التأكيد.

فأما الأمران إذا عطف أحدهما على الآخر فالواجب أن يراعى فيهما الإتفاق في الصورة والإختلاف، فإن اتفقا دل ذلك على التأكيد، وإن اختلفا كان لهما حكمان.

والقول في الخبرين إذا تساويا في الصورة كالقول في الأمرين.

وإمتثال الأمر مجزٍ لصاحبه، ومسقط عنه فرض ما كان وجب من الفعل عليه.

وإذا ورد لفظ الأمر معاقباً لذكر الحظر أفاد الإباحة دون الإيجاب كقول الله تعالى:

« فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض » الجمعة: ١٠.

بعد قوله: « إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله » الجمعة: ٩.

وإذا ورد الأمر بفعل أشياء على طريق التخيير، كوروده في كفارة اليمين، فكل واحدٍ من تلك الأشياء واجب، بشرط اختيار المأمور، وليست واجبة على الإجتماع، ولا بالإطلاق.

وما لا يتم الفعل إلا به واجب، كوجوب الفعل المأمور به، وكذلك الأمر بالمسبب دليل على وجوب فعل السبب.

والأمر بالمراد دليل على فعل الإرادة.

وليس الأمر بالشيء هو بنفسه نهي عن ضده، ولكنه يدل على النهي عنه، بحسب دلالته على حظره.

وباستحالة اجتماع الفعل وتركه يقتضي صحة النهي العقلي عن ضد ما أُمر به.

وإذا ورد الأمر بلفظ المذكر، مثل قوله:

يا أيها الذين آمنوا، ويا أيها المؤمنون والمسلمون وشبهه، فهو متوجه بظاهرة إلى الرجال دون النساء، ولا يدخل تحته بشيء من الإناث إلا بدليل سواه.

فأما تغليب المذكر على المؤنث فإنما يكون بعد جمعها بلفظها على التصريح ثم يعبّر عنها من بعده بلفظ المذكر.

ومتى لم يجر للمؤنث بما يخصه من اللفظ فليس يقع العلم عند ورود لفظ المذكر بأن فيه تغليباً، إلا أن يثبت أن المتكلم قصد الإناث والذكور معاً بدليل.

فأما الناس فكلمة تعم الذكور والإناث.

وأما القوم فكلمة تعم الذكور دون الإناث.

وإذا ورد الأمر مقيداً بصفة يخص بها بعض المكلفين، فهو مقصور على ذي الصفة غير متعدية إلى غيره إلا بدليل كقوله تعالى:

«يا أيها المدثر قم فانذر» المدثر: ٢

وإذا ورد بصفة تتعدى المذكور إلى غيره من المكلفين، كان متوجهاً إلى سائرهم على العموم، إلا ما خصه الدليل كقوله عز وجل:

«يا أيها النبي إذا طلقتم النساء، فطلقوهن لعدتهن» الطلاق: ١

والأمر بالشيء لا يكون إلا قبله، لإستحالة تعلق الأمر بالموجود.

والأمر متوجه إلى الطفل بشرط البلوغ.

وكذلك الأمر للمعدوم بشرط وجوده وعقله الخطاب.

ويصح أيضاً توجه إلى من يعلم من حاله أنه يعجز في المستقبل عما أُمر به، أو يحال بينه وبينه، أو يخترم دونه كما[1] يجوز في ذلك من مصلحة المأمور في

---

(١) في النسخة (لما).

اعتقاده فعل ما أمر به، واللطف له في استحقاقه الثواب على نيته، وإمكان استصلاح غيره من المكلفين بأمره.

فأما خطاب المعدوم والجمادات والأموات فمحال والأمر أمر بعينه ونفسه.

فأما النهي فله صورة في اللسان محققة يتميز بها عن غيره، وهي قولك [لا تفعل] إذا ورد مطلقاً.

والنهي في الحقيقة لا يكون منك إلا لمن دونك كالأمر.

والنهي موجب للترك المستدام ما لم يكن شرط يخصه بحالٍ أو زمانٍ.

فأما الخبر فهو ما أمكن فيه الصدق والكذب، وله صيغة مبنية يتفصل بها مما يخالفه في معناه. وقد يستعار صيغته فيما ليس بخبر، كما يستعار غيرها من صيغ الحقائق فيما سواه على وجه الإتساع والمجاز، قال الله عز وجل:

«ومن دخله كان آمناً» هو من الآية ٩٧ من آل عمران.

فهو لفظ بصيغة الخبر، والمراد به الأمر بأن يؤمن من دخله.

والعام في معنى الكلام ما أفاد لفظه اثنين فما زاد.

والخاص ما أفاد واحداً دون سواه، لأن أصل الخصوص التوحيد، وأصل العموم الإجتماع، وقد يعبّر عن كل منها بلفظ الآخر تشبهاً وتجوزاً، قال الله تعالى:

«أنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» الحجر: ٩.

فعبر عن نفسه سبحانه وهو واحد بلفظ الجمع.

وقال سبحانه:

«الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل» آل عمران: ١٧٣.

وكان سبب نزول هذه الآية أن رجلاً قال لأمير المؤمنين (ع) قبل وقعة أُحد إن أبا سفيان قد جمع لكم الجموع، فقال أمير المؤمنين (ع): حسبنا الله ونعم الوكيل.

فأما اللفظ المعبر به عن العام فهو كقوله عز وجل:
« والملك على أرجائها » الحاقة: ١٧
وإنما أراد به الملائكة.
وقوله:
« يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم » الانفطار: ٩
يريد يا أيها الناس.
وكل لفظٍ أفاد من الجمع ما دون استيعاب الجنس فهو عام في الحقيقة، خاص بالإضافة، كقوله عز وجل.
« فتحنا عليهم أبواب كل شيء » الانعام: ٤٤
ولم يفتح لهم أبواب الجنات ولا أبواب النار
وقوله:
« ثم اجعل على كل جبلٍ منهن جزءاً » البقرة: ٢٦
وإنما أراد بعض الجبال.
وكقول القائل: جاءنا فلان بكل عجيبة. والأمثال في ذلك كثيرة، وهو كله عام في اللفظ، خاص مقصور عن الاستيعاب.
فأما العموم المستوعب للجنس فهو ما أفاد من القول نهاية ما دخل تحته وصح للعبارة عنه في اللسان، قال الله عز وجل:
« والله بكل شيء عليم »
« كل من عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ». الرحمن: ٢٦ - ٢٧

فأما الألفاظ المنسوبة إلى الإشتراك، فهي على أنحاء:
فمنها ما هو مبني لمعنى سائغ في أنواع مختلفات، كاسم شيء على التنكير، فهو وإن كان في اللغة موضوعاً للموجود دون المعدوم، فهو يعم الجواهر والأجسام والأعراض، غير أن لكل ما شمله مما عددناه أسماء على التفصيل مبينات، يخص كل إسم نوعه دون ما سواه. ومنها رجل وإنسان وبهيمة ونحو

ذلك. فإنه يقع على كل اسم من هذه الأسماء على أنواع في الصور والهيئات، وهو موضوع في الأصل لمعنى يعم جميع ما في معناه.

ومن الألفاظ المشتركة ضرب آخر، وهو قولهم. (عين)، ووقوع هذه اللفظة على جارحة البصر، وعلى الماء، والذهب، وجيِّد الأشياء، وصاحب الخير، وميل الميزان وغير ذلك. فهذه اللفظة. بمجردها غير مبنية لشيء مما عددناه، وإنما هي بعض المسمى، وتمامه وجود الإضافة أو ما يقوم مقامها من الصفة المخصوصة.

وإذا ورد اللفظ وكان مخصوصاً بدليل فهو على العموم فيما بقي تحته مما عدا المخصوص. ويقال إنه عام على المجاز، لأنه منقول عما بني له من الإستيعاب إلى ما دونه من المخصوص.

وحقيقة المجاز هي وضع اللفظ على غير ما بني له في اللسان، فلذلك قلنا إنه مجاز.

وإذا ورد لفظان عامان، كل منهما يرفع حكم صاحبه، ولم يعرف المتقدم منهما من المتأخر، فيقال إن أحدهما منسوخ والآخر ناسخ، وجب فيهما الوقف، ولم يجز القضاء بأحدهما على الآخر إلا أن يحضر دليل.

وذلك كقوله سبحانه:

« والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراجٍ » البقرة: ٢٤٠.

وهذا عموم في جميع الأزواج المختلفات بعد الوفاة.

وقوله: « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربض بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا »[٢] البقرة: ٢٣٤.

وهذا أيضاً عام، وحكمهما متنافيان، فلولا أن العلم قد أحاط بتقديم إحداهما فوجب القضاء بالمتأخرة الثانية منهما، لكان الصواب هو الوقف دون الحكم بشيء منهما.

وكذلك إذا ورد حكمان في قضيةٍ واحدة، أحدهما خاص والآخر عام، ولم

يعرف المتقدم من المتأخر منهما، ولم يمكن الجمع بينهما، وجب التوقف فيهما، مثل ما روي عن النبي (ص) أنه قال:

«لا نكاح إلا بولي»

والرواية عنه من قوله:

«ليس للولي مع البنت أمر»

وهذا يخص الأول، وفي الإمكان أن يقضى عليه في الأول في كل واحدٍ منهما يجوز أن يكون الناسخ للآخر، فيعدلنا عنهما جميعاً، لعدم الدلالة على القاضي منهما، وصرنا إلى ظاهر قوله عز وجل:

«فانكحوا ما طاب لكم من النساء» النساء: ٣

وقوله: وأنكحوا الايامى منكم» في إباحة النكاح بغير اشتراط ولي على الإطلاق.

[الخاص والعام]

وإذا ورد لفظ في حكم وكان معه لفظ خاص في ذلك الحكم بعينه، وجب القضاء بالخاص، وهذا مثل الأول، ومثاله قول الله عز وجل:

«والذين هم الفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين» المؤمنون: ٥و ٦.

وهذا عام في ارتفاع اللوم على وطء الأزواج على كل حال، والخصوص قوله سبحانه:

«ويسألونك عن المحيض قل هو أذىً فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن» البقرة: ٢٢٢.

فلو قضينا بعموم الآية ارتفع حكم آية المحيض بأسره. وإذا قضينا بما في الثانية من الخصوص لم يرتفع حكم الأولى العام من كل الوجوه، فوجب القضاء بآية التخصيص منهما ليصح العمل على ما بيناه بهما.

وإذا سبق التخصيص اللفظ العام أو ورد مقارناً له، فلا يجوز القول بأنه ناسخ لحكمه، لأن العموم لم يثبت فيستقر له حكم، وإنما خرج إلى الوجود مخصوصاً فأوجبه في حكم الخصوص.

والنسخ إنما هو رفع موجودٍ لو تُرك لأوجب حكماً في المستقبل.

والذي يخص اللفظ العام لا يُخرج منه شيئاً دخل تحته، وإنما يدل الدليل على أن التجوز لم يرد من [معنى] ما بني له الاسم، وإنما أراد غيره، وقصد إلى وضعه على ما بني له في الأصل.

وليس يخص العموم إلا دليل العقل والقرآن والسنة الثابتة.

فأما القياس والرأي فإنهما عندنا في الشريعة ساقطان لا يثمران علماً، ولا يخصان عاماً، ولا يعمان خاصاً، ولا يدلان على حقيقة.

ولا يجوز تخصيص العام بخبر الواحد، لأنه لا يوجب علماً ولا عملاً، وإنما يخصه من الأخبار ما [قطع] العذر لصحته عن النبي (ص) وعن أحد الأئمة (ع).

وليس يصح في النظر دعوى العموم بذكر الفعل، وإنما يصح ذلك في الكلام المبني والصور منه المخصوصة. فمن تعلق بعموم الفعل فقد خالف العقول، وذلك أنه إذا روي أن النبي (ص) أحرم لم يجب الحكم بذلك على أنه أحرم بكل نوع من أنواع الحج من إفراد وقران وتمتع، وإنما يصح الإحرام بنوعٍ منها واحد.

وإذا ثبت عنه عليه السلام أنه قال: لا ينكح المحرم، وجب عموم حظر النكاح على جميع المحرمين مع إختلافهم فيما أحرموا به من إفراد وقران وتمتع، أو عمرة منقولة.

وفحوى الخطاب هو ما فهم منه المعنى وإن لم يكن نصاً صريحاً فيه بمعقول عادة أهل اللسان في ذلك، كقوله عز وجل:

«ولا تقل لهما أُفٍ ولا تنهرهما» الإسراء: ٢٣

فقد فهم من هذه الجملة ما تضمنته نصاً صريحاً، وما دل عليه بعرف أهل

اللسان من الزجر عن الاستخفاف بالوالدين الزائد على قول القائل لهما (أُفٍ)، وما تعاظم عن انتهارهما من القول وما أشبه ذلك من الفعل، وإن لم يكن النص تضمن ذلك على التفصيل والتصريح.

وكقولهم لأمرٍ يخص لا تبخس فلاناً من حقه حبةً واحدة، وما يدل ذلك عليه بحسب العرف بينهم والعادة من النهي عن جميع البخس الزائد على الحبة، والأمثلة في ذلك كثيرة.

فأما دليل الخطاب فهو أن الحكم إذا عُلِّقَ ببعض صفات المسمى في الذكر، دل ذلك على أن ما خالفه في الصفة مما هو داخل تحت الإسم بخلاف ذلك الحكم إلا أن يقوم دليل على وفاقه فيه، كقول: النبي (ص):

«في سائمة الأبل زكاة»

فتخصيصه السائمة بالزكاة دليل على أن العاملة ليس فيها زكاة.

ويجوز تأخير بيان المراد من القول إذا كان في ذلك لطف للعباد. وليس ذلك من المحال.

وقد أمر الله قوم موسى أن يذبحوا بقرة، وكان مراده أن تكون على صفةٍ مخصوصة، ولم يقع البيان مع قوله: «إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة»، بل تأخر عن ذلك، وإنكشف لهم عند السؤال بحسب ما اقتضاه لهم الصلاح. وليس ينافي تأخير البيان، القول بأن الأمر على الفور والبدار. وذلك إن تأخير البيان عن الأمر الموقت، أو قرينةٍ من برهان هو غير الأمر المطلق العريّ من القرائن، الذي ظن أنه يقتضي الفور والبدار. ولا يجوز تأخير بيان العموم، لأن العموم موجب بمجرده الاستيعاب، فمتى أطلقه الحكيم، ومراده التخصيص ولم يبين ذلك فقد أتى بألغاز، وليس هذا كتأخير بيان المجمل من الكلام، وبينها فرق.

أسماء النكرة

والأسماءِ النكرة موضوعة في أصل اللغة للجنس دون التعيين، فإذا ورد

الأمر بفعل يتعلق بنكرةٍ وجب إيقاعه على ما يستحق بمعناه سمة الجنس سوى ما زاد عليه.

فمن ذلك ما يفيد أقل ما يدخل تحت الجنس، كقول القائل لغيره: تصدقّ بدرهم، فامتثال هذا الأمر أن يتصدق بدرهم كائناً ما كان من الدراهم.

وليس النهي بالنكرة كالأمر بها، لأن الأمر ههنا يقتضي التخصيص، والنهي يقتضي العموم.

ولو قال النبي (ص) لأحد أصحابه: لا تدخرنَّ درهماً ولا ديناراً، لاقتضى ذلك أن لا يدخر منهما عيناً.

ولو قال له: تصدق بدرهم ودينار، لأفاد ذلك أن يتصدق بهما، ولا يلزمه أن يتجاوزهما.

وليس القول بأن الأمر بالنكرة يقتضي أن يفعل أي واحدٍ كان من الجنسين بمفسدٍ ما تقدم من القول في تأخير البيان عن قوم موسى (ع) لما أُمروا بذبح بقرةٍ بلفظ التنكير، لأن حالهم يقتضي أن مع الأمر لهم بذبحها، قد كانت لهم قرينة اقتضت التوقف والسؤال في سؤآلهم ذلك على ذلك.

ولو تعرَّى الأمر من القرينة لكان مجرد وروده بالتنكير يقتضي الإمتثال في أي واحدٍ من الجنسين.

ومن هذا الباب أن يرد الأمر بلفظ التثنية والتنكير كقوله: اعط فلاناً درهمين، فالواجب الإمتثال في أي درهمن كانا على معنى ما تقدم من القول.

ومنه أن يرد الأمر بلفظ الجمع المنكر، كقوله: تصدق بدراهم، فليس يفيد ذلك أكثر من أقل العموم، وهو ثلاث، ما لم يقع التبيين.

في العموم وصيغه

واعلم أن العموم على ثلاثة أضرب، فضرب هو أصل الجمع المفيد لاثنين فما زاد، وذلك لا يكون إلا فيما اختصت عبارة الاثنين به في العدد، فهو عموم من حيث الجمع.

والضرب الثاني ما عبر عنه بلفظ الجمع المنكر، كقولك: دراهم ودنانير. فذلك لا يصح في أقل من ثلاثة.

والضرب الثالث ما حصل فيه علامة الإستيعاب، من التعريف (بالألف واللام) و (بمن) الموضوعة للشرط والجزاء. فمتى قال لعبده: (عظِّم العلماء) فقد وجب عليه تعظيم جميعهم. وإذا قال: (من دخل داري أكرمته)، وجب عليه إكرام جميع الداخلين داره.

والأسماء الظاهرة ما استغنت في حقائقها عن مقدمةٍ لها.

والكنية ما لم يصح الإبتداء بها. وحكم الكناية العموم والخصوص حكم ما تقدمها.

والعطف والإستثناء إذا أعقب جملاً فهو راجع إلى جميعها، إلا أن يكون هناك دليل يقصرها على شيء منها.

وما ورد عن الله سبحانه، وعن رسول الله (ص) وعن الأئمة الراشدين (ع) من بعده، على سبب أو كان جواباً عن سؤال، فإنه يكون محكوماً له بصورة لفظه، دون القصر له على السبب المخرج له عن حكم ظاهره.[1]

وليس وروده على الأسباب بمنافٍ لحمله على حقيقته في الخطاب في عقلٍ أو عرف ولا لسان.

وإنما يجب صرفه عن ظاهره لقيام دلالة تمنع من ذلك من التضاد.

في الحقيقة والمجاز

والحقائق والمجازات إنما هي في الألفاظ والعبارات، دون المعاني المطلوبات.

والحقيقة من الكلام ما يطابق المعنى الموضوع له في أصل اللسان.

---

(١) هذا ما يعبر عنه في المصطلح الأصولي اليوم بقاعدة (المورد لا يخصص الوارد).

والمجاز منه ما عبر به من غير معناه في الأصل، تشبيهاً واستعارةً لغرض من الأغراض، وعلى وجه الإيجاز والإختصار.

ووصف الكلام بالظاهر وتعلق الحكم به، إنما يقصد به إلى الحقيقة منه.

والحكم بالإستعارة فيه إنما يراد به المجاز.

وكذلك القول في التأويل والباطن، إنما يقصد به إلى العبارة عن مجاز القول واستعارته حسبما ذكرناه.

والحكم على الكلام بأنه حقيقة أو مجاز لا يجوز إلا بدليل يوجب اليقين، ولا يسلك فيه طريق الظنون.

والعلم بذلك من وجهين: أحدهما الإجماع من أهل اللسان، والآخر الدليل المثمر للبيان.

فأما إطلاق بعض أهل اللغة أو بعض أهل الإسلام ممن ليس بحجة في المقال والفعال فإنه لا يعتمد في إثبات حقيقة الكلام.

فمتى التبس اللفظ فلم يقم دليل على حقيقة فيه أو مجاز، وجب الوقف لعدم البرهان.

وليس بمصيبٍ من ادَّعى أن جميع القرآن على المجاز. وظاهر اللغة يكذبه، ودلائل العقول والعادات تشهد بأن جمهوره على حقيقة كلام أهل اللسان.

ولا بمصيبٍ أيضاً من زعم أنه لا يدخله المجاز. وقد خصمه في ذلك قوله سبحانه:

« فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض... » الكهف: ٧٧.

وغيره من الآيات. والواجب أن يقال إن منه حقيقة، ومنه مجاز.

الحظر والإباحة:

فأما القول في الحظر والإباحة فهو أن العقول لا مجال لها في العلم بإباحة ما

يجوز وروود السمع فيها بإباحته، ولا بحظر ما يجوز وروده فيها بحظره، ولكن العقل لم ينفك قط من السمع بإباحته وحظره.

ولو [ألزم][1] الله تعالى العقلاء حالاً واحدةً من سمع لكان قد اضطرهم إلى موافقة ما يقبح في عقولهم من استباحة ما لا سبيل لهم الى العلم بإباحته من حظره، وإلجائهم إلى الحيرة التي لا تليق بحكمته.

القياس والرأي:

وليس عندنا للقياس والرأي مجال في استخراج الأحكام الشرعية، ولا يعرف من جهتها شيء من الصواب، ومن اعتمدهما في المشروعات فهو على الضلال.

النسخ:

والعقول تجوز نسخ الكتاب بالكتاب، والسنة بالسنة، والكتاب بالسنة، والسنة بالكتاب. غير أن السمع ورد بأن الله تعالى لا ينسخ كلامه بغير كلامه، بقوله:

«ما ننسخ من آيةٍ أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها» البقرة: ١٠٦.

فعلمنا أنه لا ينسخ الكتاب بالسنة، وأجزنا ما سوى ذلك.

الخبر

والحجة في الأخبار ما أوجبه العلم من جهة النظر فيها بصحة مخبرها ونفي الشك فيه والارتياب.

---

(١) في النسخة: (ولو احكى) فوضعنا مكانها (ألزم) لأنها أكثر انسجاماً مع المراد.

وكل خبرٍ لا يوصل بالاعتبار إلى صحة مخبره فليس بحجة في الدين، ولا يلزم به عمل على حال.

والأخبار التي يجب العلم بالنظر فيها على ضربين:

أحدهما التواتر المستحيل وروده بالكذب من غير تواطؤ على ذلك، أو ما يقوم مقامه في الاتفاق.

والثاني خبر واحد يقترن إليه ما يقوم مقام المتواتر في البرهان على صحة مخبره وارتفاع الباطل منه والفساد.

والتواتر الذي وصفناه هو ما جاءت به الجماعات البالغة في الكثرة والانتشار إلى حدٍ قد منعت العادة من اجتماعهم على الكذب بالاتفاق، كما يتفق الاثنان أن يتواردا بالارجاف. وهذا حد يعرفه كل من عرف العادات.

وقد يجوز أن ترد جماعة دون من ذكرناه في العدد بخبرٍ يعرف من شاهدهم برواياتهم ومخارج كلامهم، وما يبدو في ظاهر وجوههم، ويبين من تصورهم أنهم لم يتواطئوا، ليتعذر التعارف بينهم والتشاور، فيكون العلم بما ذكرناه من حالهم دليلاً على صدقهم ورافعاً للاشكال في خبرهم، وإنَ لم يكونوا في الكثرة على ما قدمناه.

فأما خبر الواحد القاطع للعذر فهو الذي يقترن إليه دليل يفضي بالناظر فيه إلى العلم بصحة مخبره، وربما كان الدليل حجةً من عقل، وربما كان شاهداً من عرف، وربما كان إجماعاً بغير خلف. فمتى خلا خبر واحد من دلالة يقطع بها على صحة خبره فإنه كما قدمناه ليس بحجة، ولا موجب علماً، ولا عملاً على كل وجه.

الإجماع:

وليس في إجماع الأمة حجة من حيث كان إجماعاً، ولكن من حيث كان

فيها الإمام المعصوم. فإذا ثبت أنها كلها على قول فلا شبهة في أن ذلك القول قول المعصوم، إذ لو لم يكن كذلك كان الخبر عنها بأنها مجمعة باطلاً، فلا تصح الحجة بإجماعها لهذا الوجه.

الاستصحاب:

والحكم باستصحاب الحال واجب، لأن حكم الحال ثبت باليقين، وما ثبت فلن يجوز الانتقال عنه إلا بواضح الدليل.

اختلاف الأَخبار:

والأَخبار إذا اختلفت في الألفاظ فلن يصح حمل جميعها على الحقيقة من الكلام إذا أريد الجمع بينها على الوفاق. وإنما يصح حمل بعضها على الحقيقة، وبعضها على المجاز، حتى لا يقدح ذلك في إسقاط بعضها على الحقيقة، وبعضها على المجاز. فلا بد من صحة أحد البعضين وفساد الآخر، أو فساد الجميع.

اللهم إلا أن يكون الاختلاف فيها يدل على النسخ الذي لا يكون إلا في أخبار النبي (ص) دون أخبار الأئمة (ع)؛ فإنهم ليس لهم تبديل شيء من العبارات، ولا نسخ.

وقد أثبتُّ لك- أيدك الله- جمل ما سألت في إثباته، وأوردته مجرداً من حججه ودلالته، ليكون تذكرة لك بالمعتقد كما ذكرت، ولم أتعدَّ فيه مضمون كتاب شيخنا المفيد رحمه الله حسبما طلبت، والحمد لله على أهل الجود والأفضال، وصلاته على سيدنا محمد رسوله المنقذ بهدايته من الضلال، وعلى آله الطاهرين أُولي الرفعة والجلال.

فصل من عيون الحكم ونكتٍ من جواهر الكلام

من كلام رسول الله (ص):

استرشدوا العقل ترشدوا، ولا تعصوه فتندموا.

قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له.

سيد الأعمال في الدارين العقل.

لكل شيء دعامة، ودعامة المؤمن عقله. فبقدر عقله تكون عبادته لربه.

اغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محدثاً، ولا تكن الخامس فتهلك.

نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فأداه كما سمع، فرب مبلغٍ أوعى من سامع.

العلم أكثر من أن يحصى، فخذ من كل شيء أحسنه.

إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن كان خيراً فأسرع إليه، وإن كان شراً فانته عنه.

صل من قطعك، وأحسن إلى من أساء إليك، وقل الحق ولو على نفسك.

اعتبروا فقد خلت المثلات فيمن كان قبلكم.

كن لليتيم كالأب الرحيم.

واعلم أنك تزرع كل [ما] تحصد.

اذكر الله عند همك إذا هممت، وعند لسانك إذا حكمت، وعند يدك إذا قسمت.

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام:

عليكم بالدرايات لا بالروايات. همة السفهاء الرواية، وهمة العلماء الدراية.

تزاوروا وتذاكروا الحديث، إلا تفعلوا يدرس.

أشد الناس بلاءً، وأعظمهم عناءً، من بلي بلسانٍ مطلق، وقلب مطبق، فهو لا يحمد إن سكت، ولا يحسن إن نطق.

إياكم وسقطات الاسترسال، فإنها لا تستقال.

تعزَّ عن الشيء إذا منعته لقلته، ما صحبك إذا أعطيته.

من لم يعرف لوم ظفر الأيام، لم يحترس من سطوات الدهر، ولم يتحفظ من فلتات الزلل، ولم يتعاظمه ذنب وإن عظم.

وسئل عن الحرص ما هو فقال:

هو طلب القليل بإضاعة الكثير.

وقال: العاقل يستريح في وحدته إلى عقله، والجاهل يتوحش من نفسه، لأن صديق كل إنسان عقله، وعدوه جهله.

العقول ذخائر، والأعمال كنوز، النفوس أشكال، فما تشاكل منها اتفق، والناس إلى أشكالهم أميل.

ومن كلام الحسين عليه السلام:

قوله يوماً لابن عباس:

يا ابن عباس لا تكلمن فيما لا يعنيك فإنني أخاف عليك فيه الوزر، ولا تكلمن فيما يعنيك حتى ترى للكلام موضعاً، فرب متكلم قد تكلم بالحق فعِيبَ. ولا تمارينَّ حليماً ولا سفيهاً، فإن الحليم يقليك، والسفيه يرديك. ولا تقولنَّ في أخيك المؤمن إذا توارى عنك إلا [مثل] ما تحب أن يقول فيك إذا تواريت عنه.

واعمل عمل رجل يعلم أنه مأخوذ بالاجرام، مجزي بالاحسان، والسلام.

وبلغه عليه السلام كلام نافع بن جبير في معاوية قوله: إنه كان يسكته الحلم، وينطقه العلم، فقال عليه السلام:

بل كان ينطقه البَطَر، ويسكته الحَصَر.

كلام الإمام الصادق عليه السلام:

وعن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام قوله:

الملوك حكام الناس، والعلماء حكام على الملوك.

وقوله:

أحسنوا النظر فيما لا يسعكم جهله، وانصحوا لأنفسكم، وجاهدوا في طلب ما لا عذر لكم في جهله، فإن لدين الله أركاناً لا ينفع من جهلها شدة اجتهاده في طلب ظاهر عبادته، ولا يضر من عرفها فدان به حسن اقتصار، ولا سبيل لأحد الى ذلك إلا بعونٍ من الله عز وجل[1].

وقوله:

ما كل من نوى شيئاً قدر عليه، ولا كل من قدر على شيءٍ وُفِّق له، ولا كل من وفِّق له أصابه، فإذا اجتمعت النية والقدرة والتوفيق والإصابة فهنالك تمت السعادة[2].

وقوله في الحث على التوبة:

تأخير التوبة اغترار، وطول التسويف حيرة، والاعتلال على الله هلكة، والإصرار على الذنب أمن به لمكر الله، «ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون»[3] الأعراف: ٩٩.

من كلام غير الأئمة عليهم السلام:

ومما ورد عن غير الأئمة عليهم السلام قول بعض علماء العرب:

العقل أمير، والعلم نصير، والحلم وزير.

---

(١) رواه المفيد في الإرشاد ص ١٦٠.

(٢) رواه في المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

وقول بعض حكماء الهند:

العقل حاكم أمين، والعلم له قرين، والحلم له خدين.

وقول بعض حكماء الفرس:

العقل ملك الجوارح، والعلم له أخ صالح، والحلم له أليف ناصح.

وقول بعض حكماء الروم:

العقل مدبر آمر، والعلم له معاضد ناصر، والحلم منجد مؤازر.

في كتاب كليلة ودمنة:

من غلب عقله هواه نال مناه، وأعطي رضاه.

وفي كتاب بلوهر الهندي:

من اشتد في الدنيا زهده، استراح وطلع سعده.

وفي كتاب السير وسيف البدى (كذا):

من عرف نفسه لم يحقر جنسه.

في كتاب الرحمة لهرمس:

القناعة أمنع عز، والاستعانة بالله أحصن حرز.

وفي كتاب الأساس لبطليموس:

العقل الأصل، وقوام الأشياء بالفضل والعدل.

في كتاب الجواهر:

التواضع شرف، وقد استوجبَ الصفح من تاب واعترف.

في كتاب التجنيس لأرسطاطاليس:

الطبع أغلب، والعادة أدرب.

في كتاب اللطف لأفلاطون:

نقل الطبع عسير الانتزاع.

في كتاب الأقسام لصبرة الفلكي:

العمر قصير، وفي الدهر لأهله تبصير.

كتاب الاختيار لأبقراط:

التجارب إيضاح، وفيها إفادة وصلاح.

كتاب الابانة لعمرو بن بحر:

من خشع ارتفع، وعرف بما دنا منا سمع.

كتاب المعارف للكندي:

إدراك السداد بالجد والاجتهاد.

وروى الصولي عن بعضهم أنه قال:

لولا العقول المضيئة وخلائقها الرضية، لما كان التفاضل بين الحيوان، ولما فرق بين البهيمة والانسان.

وقال إقلمون: من عدم التدبير يكون التدمير.

وقال آخر: من لم يقدم الامتحان قبل الثقة، والثقة قبل الانس، أثمرت مودته ندماً.

قال بزرجمهر: إذا أنجز رجل وعده من معروفه، أحرز مع فضيلة الجود شرف الصدق.

وقال بطليموس: من قبل عطيتك فقد أعانك على البر والكرم.

قال أبقراط: إذا أمكنك الرجل من أن تضع معروفك عنده، فيده عندك مثل يدك عنده. وإذا [أصابه] من هم نزل به أو خوف تدفعه عنه فلم تبذل دمك دونه، فقد قصَّرت بحسبك عنده. ولو أن أهل البخل لم يدخل عليهم إلا سوء ظنهم بالله لكان ذلك عظيماً.

قال كسرى أنوشروان:

الملك بالدين يبقى، والدين بالملك يقوى. شدة الغضب تغيّر المنطق، وتقطع مادة الحجة.

وقال أرسطاطاليس:

من اتخذ الصمت جنة وقي من شر ما تأتي به الألسن.

وقال: الكلام مملوك ما لم ينطق به صاحبه، فإذا نطق به صاحبه خرج عن ملكه.

وقال أفليمون: غنيمة السكوت أكبر من غنيمة الكلام، وندامة الكلام أكبر من ندامة السكوت.

وقال دوفس: الصمت أنفع من الكلام في أكثر المواضع، والكلام أنفع من الصمت في أقل المواضع.

وقال أفلاطون: ضبط اللسان ملك، وإطلاقه في غير موضعه هلك.

وقال: من علم أن كلامه يتصفح عليه فليتصفحه على نفسه قبل أن يتصفحه عليه غيره.

وقال آخر: البطنة تذهب بالفطنة، وكثرة الصمت مفسدة المنطق.

وقال آخر: إذا علمت فلا تفكر في كثرة من دونك من الجهال، ولكن اذكر من فوقك من العلماء.

أبو حنيفة مع الإمام الصادق:

فصل: ذكروا أن أبا حنيفة أكل طعاماً مع الإمام الصادق جعفر بن محمد (ع)، فلما رفع الصادق (ع) يده من أكله قال: الحمد لله رب العالمين، اللهم هذا منك ومن رسولك (ص).

فقال أبو حنيفة: يا أبا عبد الله، أجعلت مع الله شريكاً؟

فقال له: ويلك، فإن الله تعالى يقول في كتابه:

«وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله» التوبة: ٥٩.

ويقول في موضع آخر:

« ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله، وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله » النساء: ٥٩.

فقال أبو حنيفة: والله، لكأني ما قرأتها قط من كتاب الله ولا سمعتها إلا في هذا الوقت.

فقال أبو عبد الله (ع): بلى، قد قرأتها وسمعتها، ولكن الله تعالى أنزل فيك وفي أشباهك:

« أم على قلوب أقفالها » محمد: ٢٤.

وقال:

« كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » المطففين: ١٤.

حديث الإمام الصادق:

أخبرني الشيخ الفقيه أبو الحسن محمد بن أحمد بن الحسين بن شاذان القمي رضي الله عنه، قال: أخبرني أبو القاسم جعفر بن محمد بن قولويه، عن محمد بن يعقوب الكليني، عن علي بن ابراهيم بن هاشم، عن أبيه عن ابن أبي عمير، عن جعفر بن البحتري، قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول:

« بلية الناس عظيمة، إن دعوناهم لم يجيبونا، وإن تركناهم لم يهتدوا بغيرنا ».

فصل: من الاستدلال على أن الله تعالى ليس بجسم

اعلم أن الخلاف في هذه المسألة بيننا وبين المجسمة على قسمين: أحدهما في المعنى، والآخر في اللفظ.

فأما الكلام في المعنى فهو يختص بالذين يزعمون أنه جسم على صفات الأجسام، ويشابهها في بعض الصفات.

وأما الكلام في اللفظ فهو يختص بالذين يقولون أنه جسم لا كالأجسام، ولا يشابهها بصفةٍ من الصفات.

فأما الذي يدل على بطلان مقال الذين يزعمون أنه جسم لا كالأجسام، فهو أن الأجسام قد ثبت حدوثها، فلو كان صانعها تعالى جسماً، أو مثلها لوجب أن يكون محدثاً. ويبين ذلك أن حقيقة الجسم هي أن يكون طويلا عريضاً عميقاً، فلو كان صانع الأجسام جسماً لكانت هذه حقيقته، لأن الحقيقة لا تختلف. وسُوِّيَ فيها الشاهد والغائب، وحقيقة الجسم موجبة الأبعاد، ومعطية فيها المساحة والنهايات، وأنه مجتمع من أبعاض، مختص ببعض الجهات. وذلك شاهد فيه بحلول الأعراض، لأن المجتمع لا غناء به عن الاجتماع، والكائن من جهةٍ دون غيرها لا يعرى من الأكوان. فهذه كلها دلائل الحدوث.

فلو كان صانع الأجسام على هذه الصفات أو على بعضها لكان محدثاً، ولو جاز كونه عليها وهو قديم، لكانت الأجسام كلها قديمة. وفي ثبوت الأدلة على حدوث الأجسام وقدم محدثها دلالة واضحة على أنه ليس- بجسم سبحانه وتعالى-.

دليل ثانٍ:

وشيء آخر وهو أن صانع الأجسام واحد في الحقيقة حسبما شهدت به الأدلة، فلو كان جسماً لخرج عن كونه واحداً، لأن الجسم مجتمع من أبعاض وأجزاء.

دليل ثالث:

وشيء آخر وهو أنه لو كان جسماً لوجب كونه قادراً بقدرة، لبطلان كون الجسم قادراً لنفسه، ولو كان كذلك لاستحال حدوث الأجسام منه، إذ لا يصح من القادر بقدرة أن يفعل الجسم في محل قدرته، متداولاً في غيره، مسبباً أو متولداً.

دليل رابع:

وهو أنه لو كان جسماً في الحقيقة صح منه فعل الأجسام، لصح من كل جسم حي قادراً أن يفعل الأجسام، فلمَّا علمنا يقيناً استحالة فعل الأجسام للأجسام، علمنا أن فاعل الأجسام ليس بجسم على كل حال، فقد بان لك بطلان مقال الذين يزعمون أن الله تعالى جسم على صفة الأجسام وحقيقتها.

وكما علمت أنه لا يجوز أن يشبهها في جميع الصفات، فكذلك تعلم أنه لا يجوز مشابهته لها في بعضها، لأن كل صفةٍ من صفات الأجسام المختصة بها دالة على حدوثها، فلو أشبهها في شيء منها دل ذلك الشيء على أنه محدَث مثلها.

وبمثل هذا يعلم أيضاً أنه ليس بجوهر، لأن الجوهر متحيز في جهةٍ، غير عارٍ من الأعراض الدالة على [حَدوثه].[1]

فأما قولهم: إنا لم نر فاعلاً للأجسام [غير جسم]، فلما كان الله تعالى فاعلاً، وجب أن يكون جسماً، فقول فاسد، لأن الفاعل لم يكن فاعلاً لكونه جسماً، ولا كل صفةٍ رأينا الفاعل في الشاهد عليها، يجب أن يكون الفاعل في الغائب على نظيرها.

ألا ترى أَنا لم نر في الشاهد فاعلاً إلا مؤلفاً لحماً ودماً، ناقصاً محتاجاً، ولا يصح أن يكون الفاعل في الغائب هكذا.

والإستدلال بالشاهد على الغائب إنما هو بالحقائق دون ما سواها.

وليس حقيقة الفاعل أن يكون جسماً. ولو كان كذلك لكان كل جسم فاعلاً، وكل فاعل جسماً.

كما أن الحركة لما كان حقيقتها أن تكون زوالاً، كان كل زوال حركة، وكل حركة زوال. فهذا هو الأصل الثابت، الذي يجب أن يتماثل فيه الشاهد والغائب. فيجب أن يتأمله ويعتمد عليه، فالفائدة فيه كثيرة.

---

(١) في النسخة (متحيز به)، ولا يظهر ما يعود الضمير عليه، وفي النسخة: أيضاً (غير عارض الأعراض) وفيها أيضاً: (حدثه).

وأما الذي يدل على بطلان مقال الذين يدَّعون أن الله تعالى جسم لا كالأجسام فهو أن حقيقة الجسم قد ذكرناها ، فمتى قال القائل إنه جسم أوجب الحقيقة بعينها ، فإن قال: لا كالأجسام نفى ما أوجب ، فكان ناقض.

فإن قالوا: هذا لازم لكم في قولكم: إنه شيء لا كالأشياء؟

قيل لهم: ليس الأمر كما ذكرتم ، لأن قولنا شيء ، يستفاد منه الإثبات. والمثبتات مختلفات من أجسام وجواهر وأعراض، فإذا قلنا: شيء لا كالأشياء أثبتنا معلوماً مخبراً عنه، ونفينا المماثلة بينه وبين سائر المثبتات، ولم ننف حقيقة الشيء التي هي الإثبات. وقول الله تعالى: (ليس كمثله شيء، يدل على ما ذكرنا.

وقولنا: (جسم لا كالأجسام) أثبتنا جسماً، ثم نفيناه، وهذا هو التناقض الذي ذكرناه.

وأعلم، أن التسمية إنما يحسن إجراؤها على المسمى متى ثبت له معناها، فإن لم يثبت ذلك لم يصح إجراؤها إلا على جهة التغليب، وبطل أن يصح فيه معنى الجسم على التحقيق، وفسد قول من زعم أنه جسم، ولم يصح أن يسميه بهذا الإسم.

وليس لأحد أن يسمي الله عز وجل بما لم يسم به نفسه، ولم يثبت ذلك على جواز تسميته به.[1]

فأما من زعم أنه جسم، لأنه قائم بنفسه، وأن هذا حَدُّ الجسم عنده وحقيقته، فغير مصيب في قوله، واللغة تشهد بخطئه، وذلك، أنا وجدنا أهل اللسان يقولون (هذا أجسم من هذا) إذا زاد عليه في طوله وعرضه وعمقه، فلولا أن حقيقة الجسم عندهم هي أن يكون طويلاً عريضاً عميقاً لم يكن الأمر كما ذكرناه.

فإن قال القائل: أليس قد اشتهر عن أحد متكلميكم، وهو هشام من

---

(١) إذ يظهر الإتفاق على أن أسماء الله تعالى توقيفية، فلا يصح إطلاق إسم عليه إذا لم يرد فيه نص.

الحكم[٢] أنه كان يقول: أن معبوده جسم على صفة الأجسام، فكيف خالفتموه في ذلك، بل كيف لم تتبرأوا منه وهو على هذا المقال؟؟

قلنا: أما هشام بن الحكم[٢] رحمة الله عليه فقد اشتهر عنه الخبر بأنه كان ينصر التجسيم ويقول: أن الله تعالى جسم لا كالأجسام، ولم يصح عنه ما قرفوه به من القول بأنه مماثل لها.

ويدل على ذلك أنا رأينا خصومه يلزمونه على قوله، بأن فاعل الأجسام جسم، أن يكون طويلاً عريضاً عميقاً، فلو كان يرى أنه مماثل للأجسام لم يكن معنى لهذا الإلزام.

فأما مخالفتنا لهذا المقام فهو اتباع لما ثبت من الحق بواضح البرهان، وانصراف عنه.

وأما موالاتنا هشاماً رحمه الله فهي لما شاع عنه واستفاض منه من تركه للقول بالجسم الذي كان ينصره ورجوعه عنه، وإقراره بخطئه، وتوبته منه. وذلك حين قصد الإمام أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليهم السلام، إلى المدينة، فحجبه وقيل له: إنه آلى أن لا يوصلك إليه ما دمت قائلاً بالجسم، فقال والله ما قلت به إلا لأني ظننت أنه وفاق لقول إمامي، فأما إذا أنكره عليَّ فإنني نائب إلى الله منه، فأوصله الإمام (ع) إليه، ودعا له بخير.

وحفظ عن الصادق (ع) أنه قال لهشام: إن الله تعالى لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء، وكلما وقع في الوهم فهو بخلافه.[٢].

وروي عنه أيضاً أنه قال:

سبحان من لا يعلم أحد كيف هو إلا هو، ليس كمثله بشيء، وهو السميع البصير لا يحد، ولا يجس، ولا تدركه الأبصار، ولا يحبط به شيء، ولا هو جسم ولا صورة ولا بذي تخطيط ولا تحديد.[٣]

---

(١) وضعنا كتاباً خاصاً بإسم (هشام بن الحكم) أتينا فيه على حياة هشام وأرائه وأفكاره، كما عرضنا له بالدراسة في كتابنا (فلاسفة الشيعة).

(٢) رواه المفيد في الإرشاد ص ٢٥٩.

(٣) رواه الصدوق في كتاب التوحيد ص ٨٥ باختلاف يسير.

أخبرني شيخي أبو عبدالله الحسين بن عبدالله الواسطي رحمه الله، قال: أخبرني أبو محمد التلعكبري عن أبي جعفر الكليني عن محمد بن الحسن عن سهل ابن زياد عن حمزة بن محمد قال له: كتبت إلى أبي الحسن (ع) أسأله عن القول بالجسم والصورة؟

فكتب: سبحان من ليس كمثله شيء، لا جسم ولا صورة[1].

أنشدني عمار بن محمد الطبراني رحمه الله لزينبا الرأس عيني:[2]

إن كـان جسماً فما ينفـك من عَرَضٍ
أو جوهرٍ فبـذي الأَقطـار موجود
أو كـان متصـلاً بالشيء فهو بـه
أو كـان منفصـلاً فالكـل محـدود
لا تَطلـبنَّ إلى التكييـف من سبـبٍ
إن السبيـل إلى التكييـف مسدود
واستمسك الحبل حبل العقل تحظ به
فالعقـل حبـل إلى باريـك ممـدود

نسخة كتاب معاوية بن أبي سفيان إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع).

أما بعد فإن الهوى يضل من اتبعه، والحرص يتعب الطالب المحروم، وأحمد العاقبتين ما هدى إلى سبيل الرشاد. ومن العجب العجيب ذام ومادح، وزاهد وراغب، ومتوكل وحريص. كلاماً ضربته لك مثلاً، لتدبر حكمته بجميع الفهم، ومباينة الهوى، ومناصحة النفس. فلعمري يا ابن أبي طالب، لولا

---

(١) المصدر السابق ص٩١.

(٢) هو زينيبا بن إسحاق الرسعني (الرأس عيني) الموصلي النصراني نقل له في الغدير ج٣ من ٨ أربعة أبيات يُعَبِّرُ فيها عن حبه لأهل البيت (ع) ونقلها له عن جماعة منهم البيهقي في المحاسن ج١ ١ ص١٠٦ والزمخشري في ربيع الإبرار. ومناقب آل أبي طالب ج٣ ص٢٧٥ وأولها:

عـدي وتـيم لا أحـاول ذكرهم بسوءٍ ولكـني محـب لهاشم

الرحم التي عطفتيني عليك، والسابقة التي سلفت لك، لقد كان اختطفتك بعض عقبان أهل الشام، فيصعد بك في الهواء، ثم قذفك على دكادك شوامخ الأبصار، فالفيت كسحيق الفهر على صن الصلابة، لا يجد الذر فيك مرتعاً. ولقد عزمت عزمة من لا يعطفه رقة الأنذار، إن لم تباين ما قرّبت به أملك، وطال له طليك، ولأوردنك مورداً تستمر الندامة، إن فسخ لك في الحياة. بل أظنك قبل ذلك من الهالكين، وبئس الرأي رأي يورد أهله إلى المهالك، ويمنيهم العطب إلى حين لات مناص، وقد قذف بالحق على الباطل، وظهر أمر الله وهم كارهون، ولله الحجة البالغة والمنة الظاهرة، والسلام »

جواب أمير المؤمنين صلوات الله عليه وسلامه

من عبد الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى معاوية بن أبي سفيان:

أما بعد فقد أتانا كتابك بتنويق المقال، وضرب الأمثال، وانتحال الأعمال. تصف الحكمة ولست من أهلها، وتذكر التقوى وأنت على ضدها، قد اتبعت هواك فحاد بك عن طريق الحجة، وألخج بك عن سواء السبيل، فأنت تسحب أذيال لذات الفتن، وتحيط في زهرة الدنيا كأنك لست توقن بأوبة البعث، ولا برجعة المنقلب، قد عقدت التاج، ولبست الخز وافترشت الديباج، سنة هرقلية، وملكاً فارسياً.

ثم لم يقنعك ذلك حتى يبلغني أنك تعقد الأمر من بعدك لغيرك، فيهلك دونك فتحاسب دونه، ولعمري لئن فعلت ذلك فما ورثت الضلالة عن كلالة، وإنك لابن من كان يبغي على أهل الدين ويحسد المسلمين.

وذكرت رحماً عطفتك عليَّ، فأُقسم بالله الأعز الأجل أن لو نازعك هذا الأمر في حياتك من أنت تمهد له بعد وفاتك، لقطعت حبله وأبنت أسبابه.

وأما تهديدك لي بالمشارب العربية، والموارد المهلكة، فأنا عبدالله علي بن أبي طالب، أبرز إليَّ صفحتك. كلا ورب البيت، ما أنت بأبي عذر عند القتال، ولا عند مناطحة الأبطال. وكأني بك لو شهدت الحرب وقد قامت على ساق، وكشرت عن منظر كريه، والأرواح تختطف اختطاف البازي زغب القطا، لصرت كالمولهة الحيرانة، تضربها العبرة بالصدمة، لا تعرف أعلى الوادي من أسفله. فدع عنك ما لست أهله. فإن وقع الحسام غير تشقيق الكلام. فكم عسكرٍ قد شهدته، وقرنٍ نازلته... اصطكاك قريش بين يدي رسول الله (ص)، إذ أنت وأبوكْ وهو...[1] تبع.

وأنت اليوم تهددني، فأقسم بالله أن لو تبدي الأيام عن صفحتك لنشب فيك مخلب ليثٍ هصور، لا يفوته فريسة بالمراوغة، كيف وأنّي لك بذلك، وأنت قعيدة بنت البكر المخدرة، يفزعها صوت الرعد، وأنا علي بن أبي طالب الذي لا أهدد بالقتال، ولا أخوف بالنزال، فإن شئت يا معاوية فابرز والسلام.

فلما وصل هذا الجواب إلى معاوية بن أبي سفيان جمع جماعة من أصحابه، ومنهم عمرو بن العاص، فقرأه عليهم، فقال له عمرو قد أنصفك الرجل، كم رجل أحسن في الله قد قتل بينكما، أبرز إليه.

فقال له: أبا عبدالله: أخطأت استك الحفرة، أنا أبرز إليه مع علمي أنه ما برز إليه أحد قط إلا وقتله، لا والله ولكني سأبرزك إليه.

نسخة كتاب آخر

من معاوية بن أبي سفيان إلى أمير المؤمنين (ع).

أما بعد فإنا لو علمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض، وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منها ما نرم به ما مضى، ونصلح ما بقي.

---

(١) هنا كلمتان غير واضحتين.

وقد كنت سألتك الشام على أن لا تلزمني لك طاعة، فأبيت ذلك عليَّ، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، فإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو، ولا تخاف من الفناء إلا ما أخاف.

وقد والله رقت الأجناد، وذهبت الرجال، ونحن جميعاً بنو عبد مناف، ليس لبعضنا فضل على بعض، يستذل به عز، ولا يسترق به حر، والسلام.[1]

جواب أمير المؤمنين (ع)

«من عبدالله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى معاوية ابن أبي سفيان.

أما بعد فقد أتاني كتابك تذكر أنك لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض، وإنا وإياكَ نلتمس غاية لم نبلغها بعد.

وأما طلبك إلى الشام فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس.

وأما استواؤنا في الخوف والرجاء، فلست بأمضى على الشك مني على اليقين، ولا أهل الشام على الدنيا بأحرص من أهل العراق على الآخرة.

وأما قولك: أنا بنو عبد مناف، فكذلك نحن، لكن ليس أُمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا الطليق كالمهاجر، ولا المبطل كالمحق، وفي أيدينا فضل النبوة التي قتلنا بها العزيز، وبعنابها الحر، والسلام.[2]

مسألة فقهية

وقائلـــــةٍ أوصِ الغــــداة فإنـــــني
أرى الموت قــد حطــت لديك ركائبه

---

(١) تجد هذا الكتاب في المحاسن والمساوئ ج(١) ص٨١ - ٨٢. ووقعة صفين ص٤٧٠ - ٤٧١.

(٢) تجد هذا الكتاب مروياً في الاخبار الطوال للدينوري، والمحاسن والمساوئ للبيهقي، والمروج الذهب للمسعودي. والإمامة والسياسة لابن قتيبة، وكتاب صفين لابن مزاحم وغيرها أنظر: كتابنا: (مصادر نهج البلاغة ص٢٣٣).

فقلـــت وقـــد راع الفؤاد مقالهـــا
وضاقـــت بـــه خوف الحمام مذاهبـــه
لـك الثمن إن حلـت وفـاتي فريضـةً
وسائر مـــا يبقـــى فصنوك صاحبـــه

جوابها

تفهم فـــإن الفهم أكرم ملبسٍ لمن شَرفــت أخلاقــه ومذاهبــه
حليلـة هـذا، أُمها زوجـة ابنـه كـذا لـكُمُ الألغـاز جم عجائبه
فـابن ابنــه صنو لزوجتــه ومن عُزِي بغريـب العـلم تعلو مراتبـه
فميراثهـــا ثمن وللصنو مـــا بقي كذلـك يقضي من توالـت مناقبه

تفسير:

هذا رجل تزوج وزوَّج ابنه من أُمها فولدت أم امرأته من ابنه ابناً، ثم مات ابن الرجل، وليس له ممن يرثه إذا مات غير زوجته وأخيها من أمها الذي هوا ابن أبيه الميت. وقد تقدم ذكر هذه المسألة على غير هذا الباب في الجزء الأول.

مسألة أخرى منظومة:

قد تقدم ذكرها نثراً

بـــابنٍ دعيــت صنو أخيِ فعمي يقول إذا رآني جــــــاء عمي
ولا فينـــا بحمـــد الله أُنثـــى ولا ذكر تــــــدرع ثوب إثم
ولا فينـــــــا مجوسي جهول يحلــــــل لابن أُمٍ وطء أُم
فبـــين عن مسائلنـــا امتنانـــاً فأنــت إمامنـــا في كــل علـم

الجواب

ألا يـــا سائـــلاً أضحـــى يعمّي
عـــلى المفراض خُذْ عـــني بفهم

أخوك لأُمــــك الصنو المــــداني
لأُم أَبيـــــك زوج غـــــير وهم
فابــن أخيــك منهـا غـير شك
أخ لأَبيـــــــــــــك تدعوه لأُم
فــــــــذاك إذا رآك يقول عمي
وأنــــت إذا أتـــــاك تقول عمي

تفسير

هذان رجلان قال أحدهما للآخر يا عمي أنا عمك. والسبب في ذلك هو الوجه الذي عملت عليه هذه الأبيات، أن أخاه لأُمه تزوج جدته أُم أبيه، فجاءت بابن، فهو عم الابن لأُمه، والابن عمه لأمه.

وجواب ثانٍ فيها

وهو إن رجلين تزوج كل واحدٍ منهما أُم الآخر فجاءت كل واحدة منهما بابن، فكل واحد من الابنين عم الآخر.

حديث

حدثني الفقيه أبو الحسن محمد بن أحمد بن شاذان القمي، قال: حدثنا الفقيه محمد بن علي بن بابويه، رحمه الله، قال: أخبرني أبي، قال: حدثني سعد بن عبدالله، قال حدثني أيوب بن نوح، قال: حدثني الرضا عن أبيه عن آبائه عليهم السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«خمسة لا تطفى نيرانهم، ولا تموت أبدانهم: رجل أشرك، ورجل عق والديه، ورجل سعى بأخيه إلى السلطان فقتله، ورجل قتل نفساً بغير نفس، ورجل أذنب وحمل ذنبه على الله عز وجل.»[١]

---

(١) هذا الحديث صحيح ورجال سنده كلهم موثوقون.

منام[1]:

ذكر أن شيخنا المفيد رحمه الله أبا عبدالله محمد بن محمد بن النعمان رضي الله عنه رآه وأملاه على أصحابه بلغنا أن شيخنا المفيد رحمه الله قال: رأيت في النوم كأني قد اجتزت في بعض الطرق، فرأيت حلقةً دائرة، فيها ناس كثير، فقلت: ما هذا؟ قيل لي: هذه حلقة، فيها رجل يقص، فقلت: من هو؟ فقالوا: عمر بن الخطاب. فتقدمت ففرقت الناس ودخلت الحلقة، فإذا برجل يتكلم على الناس بشيء لم أحصله، فقطعت عليه، فقلت: أيها الشيخ أخبرني ما وجه الدلالة على ما يدَّعى من فضل صاحبك عتيق ابن أبي قحافة، من قول الله تعالى: ثاني اثنين إذهما في الغار؟

فقال: وجه الدلالة على فضل أبي بكر من هذه الآية في ستة مواضع.

أولها: أن الله تعالى ذكر نبيه (ص) وذكر أبا بكر معه، فجعله ثانيه، فقال: (ثاني اثنين).

الثاني: أنه وصفهما بالإجتماع في مكانٍ واحد، تأليفاً بينهما، فقال: (إذ هما في الغار).

الثالث: أنه أضافه إليه بذكر الصحبة، ليجمع بينهما فيما يقتضي الرتبة، فقال: (إذ يقول لصاحبه).

الرابع: أنه أخبر عن شفقة النبي عليه ورفقه به، لموضعه عنده فقال: (لا تحزن).

الخامس: إعلامه، إنه أَخبره أن الله تعالى معهما على حدٍ سواءٍ، ناصراً لهما، ودافعاً عنهما، فقال: (إن الله معنا).

السادس: إنه أخبر عن نزول السكينة على أبي بكر، لأن الرسول (ص) لم تفارقه السكينة قط، فقال: (فأنزل سكينته عليه).

---

(١) عرض المفيد لشطرٍ منه في كتاب الإفصاح ص ١١٤- ١١٨ وهذا الحجاج مأخوذ من هشام بن الحكم، وأيضاً في الفصول المختارة ج١ ص١٩- ٢٤

فهذه ستة مواضع تدل على فضل أبي بكر من آية الغار لا يمكنك ولا غيرك الظفر فيها.

قال: المفيد رحمه الله فقلت له: قد حررت كلامك واستقصيت البيان فيه، وأتيت بما لا يقدر أحد من الخلق أن يزيد في الإحتجاج لصاحبك عليه، غير أني بعون الله وتوفيقه سأجعل ما أتيت به كرمادٍ اشتدت به الريح في يومٍ عاصف.

أما قولك إن الله تعالى ذكر النبي (ص) وجعل أبا بكر ثانيه، فليس في ذلك فضيلة، لأنه إخبار عن عدد، ولعمري إنهما كانا اثنين، ونحن نعلم ضرورة أن مؤمناً وكافراً اثنان، كما نعلم أن مؤمناً ومؤمناً اثنان، فليس لك في ذكر العدد طائل تعتمده.

وأما قولك أنه، وصفهما بالإجتماع في المكان فإنه كالأول، لأن المكان يجتمع فيه المؤمنون والكفار، كما يجتمع العدد للمؤمنين والكفار. وأيضاً فإن مسجد النبي (ص) أشرف من الغار وقد جمع المؤمنين والمنافقين والكفار، وفي ذلك قوله تعالى (فما للذين كفروا قِبَلك مهطعين، عن اليمين وعن الشمال عزين). المعارج: ١٩ - ٢٠.

وأيضاً فإن سفينة نوح (ع) قد جمعت النبي والشيطان والبهيمة، فبان لك أن الإجتماع في المكان لا يدل على ما ادعيت من الفضل، فبطل فضلان.

وأما قولك إنه أضافه إليه بذكر الصحبة فإنه أضعف من الفضلين الأولين، لأن الصحبة أيضاً تجمع المؤمن والكافر، والدليل على ذلك قول الله عز وجل:

« قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفةٍ ثم سواك رجلاً ». الكهف: ٣٧.

وأيضاً فإن اسم الصحبة تكون من العاقل والبهيمة، والدليل على ذلك من كلام العرب إنهم جعلوا الحمار صاحباً فقالوا:

إن الحمار مـــــع الحمار مطيـــــة
فـــإذا خلوت بــــه فبئس الصاحـــب[1]

وقد سموا الجماد مع الحي أيضاً صاحباً قال الشاعر:

زرت هنـــداً وذاك بعـــد اجتنـــاب
ومعي صاحـــــــــب كتوم اللسان

يعني السيف. فإذا كان اسم الصحبة يقع بين المؤمن والكافر، وبين العاقل والبهيمة، وبين الحيوان والجماد فلا حجة لصاحبك فيها.

وأما قولك إنه قال له: (لا تحزن) فإن ذلك وبال عليه، ومنقصة له، ودليل على خطئه، لأن قوله (لا تحزن) نهي، وصورة النهي قول القائل: لا تفعل، فلا يخلو الحزن الواقع من أبي بكر من أن يكون طاعة أو معصية، فإن كان طاعة فالنبي لا ينهي عن الطاعات، بل يأمر بها ويدعو إليها. وإن كان معصية فقد صح وقوعها فيه، وتوجه النهي إليه عنها، وشهدت الآيات به، ولم يرد دليل على امتثاله للنهي وانزجاره.[2]

وأما قولك إنه قال: (إن الله معنا) فإن النبي (ص) أعلمه أن الله معه خاصة، وعَبَّر عن نفسه بلفظ الجمع، فقال: «إنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون».

وقد قيل: إن أبا بكر قال: يا رسول الله، إن حزني على أخيك علي بن أبي طالب ما كان منه، فقال له النبي (ص) (إن الله معنا) أي معي ومع أخي علي بن أبي طالب.

وأما قولك إن السكينة نزلت على أبي بكر، فإنه كفر، لأن الذي نزلت

---

(١) قائل هذا البيت هو أمية بن أبي الصلت.

(٢) أقول: ليس بالضرورة أن يكون حزنه طاعةً أو معصية، بل يجوز أن يكون مباحاً ككثير من الانفعالات الشخصية، كما أنه لا ينحصر أن يكون في قوله لا تحزن للتحريم، إذ يجوز هنا أن يكون للإرشاد أو للاشفاق الذي لا يستتبع معصية كما هو واضح.

السكينة عليه هو الذي أيده الله تعالى بجنوده. كذا يشهد ظاهر القرآن في قوله: (فأنزل الله سكينة عليه وأيده بجنودٍ لم تروها) التوبة: ٤٠.

فلو كان أبو بكر هو صاحب السكينة لكان هو صاحب الجنود. وفي هذا إخراج النبي (ص) من النبوة.

على أن هذا الموضع لو كتمته على صاحبك لكان خيراً له. لأن الله تعالى أنزل السكينة على النبي في موضعين، وكان معه قوم مؤمنون، فشركوه فيها. فقال في أحدهما: (فأنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها) التوبة: ٢٦.

وقال في الموضع الآخر: (فأنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى) الفتح: ٢٦.

ولما كان في الغار خصه وحده بالسكينة، وقال: (فأنزل الله سكينته عليه)،.

قال: الشيخ المفيد رحمه الله فلم يحر عمر بن الخطاب جواباً، وتفرق الناس واستيقظت.

فصل من السؤال يتعلق بهذا المقام

فإن قيل: إذا كان ما تضمنه هذا المقام صحيحاً عندكم في الإحتجاج، وحزن أبي بكر معصية بدليل توجه النهي له عند حسبما شهد به القرآن، فقد نهى الله تعالى نبيه عليه آله السلام عن مثل ذلك، فقال: (لا تحزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون) النحل: ١٢٧

ونهى أُم موسى (ع) عن الحزن أيضاً، فقال: (لا تخافي ولا تحزني) القصص: ٧

فهل كان ذلك لأن نبيه (ص) عصى في حزنه فنهاه، وكذلك أُم موسى (ع)؟ أَم تقولون: إن بين ما ذكرناه وبين حزن أبي بكر في الغار فرقاً، فأذكروه ليحصل به البيان.

الجواب

قيل له: قد أجاب شيخنا المفيد رضي الله عنه عن هذه المسألة بما أوضح به

الفرق وأزاح العلة، ونحن نورد مختصراً من القول فيها، يكون فيه بيان وكفاية، فنقول:

إن المعارضة بحزن النبي (ص) ساقطة، لأنه عندنا معصوم من الزلات، مأمون من جميع المعاصي والخطئيات، فوجب أن يحمل قول الله تعالى: (ولا تحزن عليهم) على أجمل الوجوه والأقسام، وأحسن المعاني في الكلام، من تخفيف الهم عنه وتسهيل صعوبة الأمر عليه، رفقاً به وإكراماً وإجلالاً وإعظاماً له.

ولم يكن أبو بكر عندنا وعند خصومنا معصوماً، فيؤمن منه وقوع الخطأ، وذلك أنه مع رسول الله (ص) وفي حوزته، بحيث اختار الله تعالى سَتْر نبيه، وحفظ مهجته.

هذا وقد كان (ع) يخبر من أسلم على يده بأن الله سينصره على عدوه ومعانده، وأنه وعده إعلاء كلمته، وإظهار شريعته. وهذا يوجب الثقة بالسلامة وعدم الحزن والمخافة.

ثم ما ظهر له من الآيات الموجبة لسكون النفس وإزالة المخافة من نسج العنكبوت على باب الغار، وتبيض الطائر هناك في الحال. وقول النبي (ص) لما رأى (...) حزنه، وكثرة هلعه وجزعه، إن دخلوا من ههنا وأشار إلى جانب الغار، فانخرق وظهر له البحر وببعض هذا يأنس المستوحش، وبنظره يطمئن الخائف، فلم يسكن أبو بكر إلى شيء من ذلك، وظهر منه الحزن والقلق، (...) ولا شبهة بعد هذا البيان تعترض في قبح حزنه.

وأما حزن أم موسى (ع) فمفارق أيضاً لحزنه، لأن أحداً لا يشك في أن خوفها وحزنها إنما كان شفقةً منها على ولدها لما أُمرت بإلقائه في اليم. ويجوز أن يكون لم تعلم في الحال بأنه سيسلم ويعود إليها على أفضل ما تؤمل، فلحقها ما يلحق الوالدة على ولدها من الخوف والحزن لمفارقته، فلما قال لها: (لا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين)، إطمأنت عند ذلك وسكنت تصديقاً للقول، وثقةً بالوعد.

وأبو بكر قد سمع مثل ما سمعت، ورأى أكثر مما رأت، ولم يثق قلبه، ولا سكنت نفسه. فوضح الفرق بين حزنها وحزنه.

على أن ظاهر الآية تشهد بأن الله تعالى أمر أم موسى (ع) أن تلقي ولدها في اليم وسكن قلبها عقيب الأمر في قوله سبحانه:

«وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين» القصص: ٧

فالخوف والحزن اللذان ورد ظاهر النهي عنهما يصح أن لا يكون وقعا منها، لأن تسكين النفس بالسلامة إشارة بحسن العاقبة، عقيب الأمر بالإلقاء يؤمن من وقوع الهم والحزن جميعاً.

وأما حزن أبي بكر فقد وقع وأجمعت الأُمة على أنه حزن، وليس من فَعَل كمن لم يفعل، فلا نقض بهما من كل وجه.

مبيت علي (ع) في فراش رسول الله (ص) ليلة الهجرة

اعلم أن الذي فدى رسول الله (ص) بنفسه، وجاد دونه بمهجته، وفعل ما لا يسمح أحد بفعله، مما تعجبت منه ملائكة الله في سمائه، هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع).

وذلك أن رسول الله (ص) لما تعاقد المشركون على مبايتته، وأجمعوا على قتله، أمره الله سبحانه بالخروج من ليلته، لم ير أحد أسرع إلى طاعته، وأصبر على الشدائد في مرضاته من أمير المؤمنين (ع)، فدعاه إليه وأعلمه الخبر الذي وقف بالوحي عليه، وأن القوم قد اجمعوا أمرهم على أن يهجموا عليه في حجرته، ويقتلوه على فراشه، وأن الله سبحانه أمره بالخروج إلى يثرب، وقال له: يا علي، إذا صليت العشاء الآخرة، فاضطجع على فراشي، وتلفّ ببردتي، ليظن المشركون إذا رأوك أني لم أخرج، فلا يَجدون في طلبي، فأقامه مقاماً مهولاً، وكلفه تكليفاً عظيماً، لم يصبر على مثله إلا إسماعيل (ع) لما قال له أبوه الخليل (ص):

«يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى».

وقول إسماعيل له: «يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين» الصافات: ١٠٢)

بل حال أميرِ المؤمنين (ع) أعظم، وتكليفه أشق وأصعب، لأن اسماعيل أسلم لهلاكٍ يناله بيد أبيه، وأمير المؤمنين (ع) أسلم لهلاكٍ يناله بيد أعدائه، فأجابه صلى الله عليهما إلى مراده، وسارع إلى إيثاره، بنفسٍ طيبة ونيةٍ صادقة، واضطجع على فراشه، ولا يشك إلا أنه مقتول في ليلته، قد فداه بنفسه، وجاد دونه بمهجته، وفي مبيته على الفراش أنزل الله تعالى على نبيه:(١)

«ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد» (البقرة: ٢٠٧).

فأين هذا من حزن أبي بكر وفرقه وخوفه وقلقه، وتوجّه النهي إليه، وتعرّيه من السكينة التي خص الله سبحانه بها رسول الله (ص).

أترى لو قيل له، وهو على ما يدَّعي له من صحة العقيدة في الإسلام: أتحب لو كنت البائت على فراش رسول الله (ص)، والواقي له بنفسه، والذي أُنزل فيه: (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله) ولم تكن حزنت في الغار، ووتوجه إليك النهي من النبي (ص) حتى نزلت السكينة عليه دونك، لم يشرك فيها بينك (وبينه)، أكان يقول: لا حاجة بي إلى فضيلة الفراش، أم يقول: بودي ذلك.

ولسنا نشك إنه لو قيل لأمير المؤمنين (ع): أتحب لو كنت بدلاً من نومك على فراش رسول الله (ص) وحصول فضيلته لك ونزول القرآن بمدحك، بمكان

---

(١) وهو المروي عن السدي عن ابن عباس أنظر: مجمع البيان م١ ص٣٠١.
وفي الجزء الثاني من دلائل الصدق للشيخ المظفر: إن الذين نقلوا نزول هذه الآية بعلي، هم الرازي والثعلبي وصاحب ينابيع المودة وأبو السعادات في فضائل العترة الطاهرة، والغزالي في الإحياء، والحاكم في المستدرك، وأحمد بن حنبل في المسند أنظر: التفسير الكاشف م١ ص٣١١.

أبي بكر في الغار، وقد وقع الحزن منك، وتوجه النهي إليك ونزلت السكينة على رسول الله (ص) دونك، وفاز بفضيلة المواساة بالنوم على الفراش غيرك، لقال: أعوذ بالله من ذلك، والفرق بين الحالين مرئي للعميان.[1] »

أحاديث

وقد روى الثقات عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام، أنه قال: لما بات علي (ع) على الفراش أوحى الله تعالى إلى ملكين من ملائكته لم يكن في الملائكة أشد ائتلافاً ومؤاخاةً منهما، فقال: إني مميت أحدكما فاختارا. قال: فتدافعا الموت بينهما، وآثر كل واحد منهما البقاء، فأوحى الله تعالى إليهما: أين انتما عن عبدي، هذا الراضي بالموت، البائت على فراش ابن عمه، يقيه الردى بنفسه، أما إني قد علمت من سريرته أن تلف نفسه أحب إليه من أن تؤخذ شعرة من شعر ابن عمه، إنزلا إليه فاحفظاه واكلآه إلى الصبح، فلم تزل عين المشركين تلحظه، والملائكة الكرام تحفظه إلى أن كان وقت الصبح، وهجم المشركون عليه للقتل. فألقى الله تعالى في قلوبهم، لما أراده من حياته، أن يوقظوه من نومه، فقالوا: ننبهه ليرى أنا ظفرنا به قبل قتله، فلما فعلوا ذلك، وثب إليهم أمير المؤمنين (ع) وفي يده سيفه، فتولوا عنه هاربين، فقال لهم أمير المؤمنين (ع) دخلتم وأنا نائم، فادخلوا وأنا منتبه، فقالوا: لا حاجة لنا فيك يا ابن أبي طالب.[2]

فصل: من روايات ابن شاذان رحمه الله

حدثنا الشيخ الفقيه أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي بن الحسن بن شاذان رضي الله عنه بمكة في المسجد الحرام.

---

(١) هذه الذي ذكره المؤلف رحمه الله هنا أخذه من الطبري الإمامي في كتابه المسترشد ص٥٢-٥٣.

(٢) هذا مروي باختصار في أسد الغابة ج٤ ص٢٥ أنظر: فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج٢ ص٣١٠.

قال: حدثني محمد بن سعيد المعروف بالدهقان، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد، قال: حدثنا محمد بن منصور، قال: حدثنا أحمد بن عيسى العلوي، قال: حدثنا حسين بن علوان عن أبي خلد، عن زيد بن علي، عن أبيه، عن جده الحسين بن علي، عن أمير المؤمنين علي عليهم السلام.

«قال: دخلت على النبي (ص)، وهو في بعض حجراته، فاستأذنت عليه فإذن لي، فلما دخلت قال لي.

«يا علي، أما علمت أن بيتي بيتك؟ فما لك تستأذن عليَّ؟ فقلت: يا رسول الله أحببت أن أفعل ذلك، قال يا علي، أحببت ما أحب الله، وأخذت بآداب الله، فقال: يا علي أما علمت أنك أخي، أما أنه أبى خالقي ورازقي في أن يكون لي سر دونك. يا علي أنت وصيي من بعدي، وأنت المظلوم المضطهد بعدي، يا علي، الثابت عليك كالمقيم معي، ومفارقك مفارقي، يا علي، كذب من زعم أنه يحبني ويبغضك، لأن الله تعالى خلقني وإياك من نور واحد.»

وحدثنا الشيخ أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي بن الحسن بن شاذان، قال: حدثني أحمد بن محمد بن محمد رضي الله عنه، قال: حدثنا محمد بن جعفر، قال حدثنا محمد بن الحسين، قال: حدثنا محمد بن سنان، قال: حدثنا زياد بن المنذر، قال: حدثني سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: قال رسول الله (ص):

«ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء بعدي أفضل من علي بن أبي طالب، وإنه إمام أُمتي وأميرها، وإنه لوصيي وخليفتي عليها، من أقتدى به بعدي اهتدى، ومن اهتدى بغيره ضل وغوى، إني أنا النبي المصطفى، ما أنطق بفضل علي بن أبي طالب عن الهوى، إن هو إلا وحي بوحي، نزل به الروح المجتبى عن الذي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى».

وحدثنا الشيخ أبو الحسن بن شاذان قال: حدثنا محمد بن محمد بن مرة رحمه الله، قال حدثنا الحسن بن علي العاصمي، قال حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، قال: حدثنا جعفر بن سليمان الضبعي، قال: حدثنا سور بن طريف

عن الأصبغ، قال: سئل سلمان الفارسي رحمه الله عن علي بن أبي طالب، قال: «سمعت رسول الله (ص) يقول «عليكم بعلي بن أبي طالب، فإنه مولاكم، فأحبوه، وكبيركم فاتبعوه، وعالمكم فأكرموه، وقائدكم إلى الجنة فعزروه، وإذا دعاكم فأجيبوه، وإذا أمركم فأطيعوه، وأحبوه لحبي، وأكرموه لكرامتي، ما قلت لكم في علي إلا ما أمرني به ربي».

مسألة:

سألني رجل من أهل الخلاف فقال: إنا نراكم معشر الشيعة تكثرون القول بأن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان، وتناظرون على ذلك، وترددون هذا الكلام، وإطلاق هذا اللفظ منكم يضاد مذهبكم، ويناقض معتقدكم، ولستم تعلمون أن التفضيل بين الشيئين لا يكون إلا وقد شمل الفضل لهما، ثم زاد في الفضل أحدهما على صاحبه، وأن ذلك لا يجوز مع تعرّي أحدهما من خلال الفضل على كل حال، لِمَ جهلتم ذلك من معنى الكلام؟ فإن زعمتم أن لأبي بكر وعمر وعثمان قسطاً من الفضل يشملهم به، يصح به القول أن أمير المؤمنين (ع) أفضلهم، تركتم مذهبكم وخالفتم سلفكم، وإن مضيتم على أصلكم ونفيتم عنهم جميع خلال الفضل على ما عهد من قولكم لم يصح القول بأن أمير المؤمنين (ع) أفضل منهم.

الجواب:

فقلت له: ليس في إطلاق أن القول بأن أمير المؤمنين (ع) أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان ما يوجب على قائله ما ذكرتم في السؤال.

والشيعة أعرف من خصومهم بمواقع الألفاظ ومعاني الكلام. وذلك: أن التفضيل، وإن كان كما وصفت يكون بين الشيئين إذا اشتركا في الفضل وزاد أحدهما على الآخر فيه. فقد يصح أيضاً فيهما إذا اختص بالفضل أحدهما، وعرا الآخر منه، ويكون معنى قول القائل: هذا أفضل من هذا، أنه الفاضل دونه، وأن الآخر لا فضل له. وليس في هذا خروج عن لسان العرب، ولا

مخالفة لكلامها، وكتاب الله تعالى يشهد به، وأن أشعار المتقدمين يتضمنه، قال الله جل اسمه:

«أصحاب الجنة يومئذٍ خير مستقراً وأحسنُ مقيلاً» الفرقان: ٢٤.

يعني أنهم خير من أصحاب النار، وقد علم أن أصحاب النار أصحاب شر، ولا خير فيهم.

ووصف النار في آية أخرى فقال:

«بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً، إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً». إلى قوله «وادعوا ثبوراً» الفرقان: ١١ – ١٥، ثم قال:

قل: أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون، كانت لهم جزاءً ومصيراً». الفرقان: ١٥.

فذكر سبحانه أن الجنة وما أعد فيها خير من النار.

ونحن نعلم أنه لا خير في النار.

وقال تعالى في آيةٍ أُخرى:

«قل أفأنبئكم بشرٍ من ذلكم، النار وعدها الله الذين كفروا، وبئس المصير» الحج: ٧٢. وقال: «وهو أهون عليه» الروم: ٢٧.

والمعنى في ذلك هين، لأن شيئاً لا يكون أهون على الله من شيء، فكذلك قولنا: هذا أفضل، يكون المراد به هذا الفاضل.

وليس بعد إيراد هذه الآيات لبس في السؤال يعترض العاقل، وقد قال حسان بن ثابت في رجل هجا سيدنا رسول الله (ص) من المشركين:

هجوت محمداً براً تقياً ... وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفؤ ... فشركما لخيركما فداء

وقد علمنا أنه لا شر في النبي (ع)، ولا خير فيمن هجاه.

وقال غيره من الجاهلية:

خـــالي بنو أَنَسٍ وخـــال سراتهم
أوس، فأيها أدق وألأم

يريد فأيها الدقيق واللئيم، وليس المعنى فيه أن الدقة واللؤم قد اشتملا عليها ثم زاد أحدهما على صاحبه فيهما.

وعلى هذا المعنى فسر عثمان بن الجني[1] قول المتنبي:

أعق خليليه الصفيين لائمه.

وأنهما لم يشتركا في العقوق ثم زاد أحدهما على الآخر صاحبه فيه، مع كونهما خليلين صفيين.

وإنما المراد إن الذي يستحيل منهما عن الصفا، فيصير عاقاً لائمه.[2]

والشواهد في ذلك كثيرة. وفيما أوردته منها كفاية في إبطال ما ألزمت، ودلالة على أن الشيعة في قولها إن أمير المؤمنين (ع) أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان، لم تناقض لها مذهباً، ولا خالفت معتقداً، وإن المراد بذلك أنه الفاضل دونهم، والمختص بهذا الوصف عنهم، فتأمل ذلك تجده صحيحاً، والحمد لله.

على أن من الشيعة من امتنع من إطلاق هذا المقال عند تحقيق الكلام، ويقول في الجملة: أنه (ع) بعد رسول الله (ص) أفضل الناس. فسؤالك ساقط عنه، إذ كان لا يلفظ بما ذكرته إلا على المجاز.

فلما سمع السائل الجواب اعترف بأنه الصواب، ولم يزد حرفاً في هذا الباب. والحمد لله على خيرته من خلقه سيدنا محمد رسوله وآله الطيبين الطاهرين وسلامه وبركاته.

---

(١) أبو الفتح عثمان بن جني ولد ونشأ في الموصل وسكن وتوفي ببغداد عام (٣٩٢هـ) من أكابر علماء النحو والصرف والأدب وهو من أساتذة الشريفين الرضى والمرتضى وله مؤلفات عديدة ومنها شرح ديوان المتنبي.

(٢) في العبارة قلق.

فصل في الرؤيا في المنام[1]

وجدت لشيخنا المفيد رضي الله عنه في بعض كتبه، أن الكلام في باب رؤيا المنامات عزيز، وتهاون أهل النظر به شديد، والبلية بذلك عظيمة، وصدق القول فيه أصل جليل.

والرؤيا في المنام تكون من أربع جهات:

أحدها حديث النفس بالشيء والفكر فيه، حتى يحصل كالمنطبع في النفس، فيخيل إلى النائم ذلك بعينه وأشكاله ونتائجه. وهذا معروف بالاعتبار.

(الجهة الثانية) من الطبائع وما يكون من قهر بعضها لبعض، فيضطرب المزاج، ويتخيل لصاحبه ما يلائم ذلك الطبع الغالب، من مأكول ومشروب، ومرئي وملبوس، ومبهج ومزعج.

وقد نرى تأثير الطبع الغالب في اليقظة والشاهد، حتى أن من غلب عليه الصفراء يصعب عليه الصعود إلى المكان العالي (بما) يتخيل له من وقوعه، ويناله من الهلع والزمع[2] ما لا ينال غيره.

ومن غلبت عليه السوداء يتخيل أنه قد صعد في الهواء وناجته الملائكة، ويظن صحة ذلك، حتى أنه ربما اعتقد في نفسه النبوة، وأن الوحي يأتيه من السماء، وما أشبه ذلك.

(الجهة الثالثة) ألطاف من الله عز وجل لبعض خلقه، من تنبيه وتيسير وإعذار وإنذار، فيلقى في روعه ما ينتج له تخيلات أمور، تدعوه إلى الطاعة والشكر على النعمة، وتزجره عن المعصية، وتخوفه الآخرة، ويحصل له بها مصلحة وزيادة فائدة، وفكر يحدث له معرفة.

---

(١) تجد الكلام على المنامات مسهباً في الجزء الثاني ص ٣٩٢ - ٣٩٥ من كتاب الأمالي للشريف المرتضى.

(٢) هي حالة الدهش والخوف والإرتباك.

(والجهة الرابعة) أسباب من الشيطان ووسوسة يفعلها للإنسان، ويذكره بها، أموراً تحزنه وأسباباً تغمه وتطمعه فيما لا يناله أو يدعوه إلى ارتكاب محظور يكون فيه عطبه، أو تخيل شبهةٍ في دينه، يكون فيها هلاكه. وذلك مختص بمن عدم التوفيق، لعصيانه وكثرة تفريطه في طاعات الله سبحانه.

ولن ينجو من باطل المنامات وأحلامها إلا الأنبياء والأئمة عليهم السلام، ومن رسخ في العلم من الصالحين.

وقد كان شيخي رضي الله عنه[1] قال لي: إن كل من كثر علمه واتسع فهمه قلّت مناماته، فإن رأى مع ذلك مناماً وكان جسمه من العوارض سليماً، فلا يكون منامه إلا حقاً. يريد بسلامة الجسم عدم الأمراض المهيجة وغلبة بعضها على ما تقدم به البيان.

والسكران أيضاً لا يصح له منام، وكذلك الممتلىء من الطعام، لأنه كالسكران، ولذلك قيل: إن المنامات قلما تصح في ليالي شهر رمضان.

فأما منامات الأنبياء صلوات الله عليهم فلا تكون إلا صادقة، وهي وحي في الحقيقة.

ومنامات الأئمة (ع) جارية مجرى الوحي، وإن لم تسمَّ وحياً، ولا تكون قط إلا حقاً وصدقاً. وإذاً صح منام المؤمن لأنه من قِبَل الله تعالى كما ذكرناه.

وقد جاء في الحديث عن رسول الله (ص) أنه قال:

«رؤيا المؤمن جزء من سبعة وسبعين جزءاً من النبوة».

وروي عن علي (ع) قال:

«رؤيا المؤمن تجري مجرى كلام تكلم به الرب عنده».

فأما وسوسة شياطين الجن فقد ورد السمع بذكرها قال الله تعالى:

«من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، من الجنة والناس» الناس: ٤ - ٦

---

(١) يريد به على الظاهر الشيخ المفيد رحمه الله.

وقال:

« وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم » **الأنعام: ١٢١.**

وقال:

« شياطين الأنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ».
الأنعام: ١١٢.

فأما كيفية وسوسة الجني للإنسي فهو أن الجن أجسام رقاق لطاف، فيصح أن يتوصل أحدهم برقة جسمه ولطافته إلى سمع الإنسان ونهايته، فيوقر فيه كلاماً، يلبّس عليه إذا سمعه، ويشبّه عليه بخواطره، لأنه لا يرد عليه ورود المحسوسات من ظاهر جوارحه. ويصح أن يفعل هذا بالنائم واليقظان جميعاً، وليس هو في العقل مستحيلاً.

وروى جابر بن عبدالله أنه قال:

« بينا رسول الله (ص) يخطب، إذ قام إليه رجل، فقال: يا رسول الله، إني رأيت كأن رأسي قد قطع، وهو يتدحرج، وأنا أتبعه، فقال رسول الله (ص).

لا تحدّث بلعب الشيطان بك.

ثم قال: إذا لعب الشيطان بأحدكم في منامه فلا يحدثن به أحداً ».

وأما رؤية الإنسان للنبي (ص) أو لأحد الأئمة (ع) في المنام، فإن ذلك عندي على ثلاثة أقسام: قسم أقطع على صحته، وقسم أقطع على بطلانه، وقسم أجوِّز فيه الصحة والبطلان، فلا أقطع فيه على حال.

فأما الذي أقطع على صحته فهو كل منام رأى فيه النبي (ص) أو أحد الأئمة (ع)، وهو فاعل لطاعة أو آمر بها، وناهٍ عن معصيةٍ أو مبيّن لقبحها وقائل بالحق أو داعٍ إليه، أو زاجر عن باطل، أو ذامٍ لما هو عليه.

وأما الذي أقطع على بطلانه فهو كل ما كان على ضد ذلك، لعلمنا أن النبي والإمام عليهما السلام صاحبا حق، وصاحب الحق بعيد عن الباطل.

وأما الذي أجوّز فيه الصحة والبطلان فهو المنام الذي يرى فيه النبي أو

الإمام عليهما السلام، وليس هو آمراً ولا ناهياً، ولا على حالٍ يختص بالديانات، مثل أن يراه راكباً أو ماشياً أو جالساً ونحو ذلك.

فأما الخبر الذي يُروى عن النبي (ص) من قوله:

« من رآني فقد رآني فإن الشيطان لا يتشبه بي »[١].

فإنه إذا كان المراد به المنام يحمل على التخصيص دون أن يكون في حال، ويكون المراد به القسم الأول من الثلاثة الأقسام، لأن الشيطان لا يتشبه بالنبي (ص) في شيء من الحق والطاعات.

وأما ما روي عنه (ص) من قوله:

« من رآني نائماً فكأنما رآني يقظاناً »

فإنه يحتمل أحد وجهين:

أحدهما أن يكون المراد به رؤية المنام ويكون خاصاً كالخبر الأول على القسم الذي قدمناه.

والثاني أن يكون أراد به رؤية اليقظة دون المنام، ويكون قوله (نائماً) حالاً للنبي (ص) وليست حالاً لمن رآه، فكأنه قال: من رآني وأنا نائم، فكأنما رآني وأنا منتبه.

والفائدة في هذا المقام أن يعلمهم بأنه يدرك في الحالتين إدراكاً واحداً، فيمنعهم ذلك إذا حضروا عنده وهو نائم أن يفيضوا فيما لا يحسن ذكره بحضرته وهو منتبه.

وقد روي عنه (ص) أنه غفا ثم قام يصلي من غير تجديد الوضوء، فسئل عن ذلك؟ فقال: إني لست كأحدكم، تنام عيني ولا ينام قلبي.

---

(١) ورد هذا الحديث في البخاري « من رآني في المنام فقد رآني »، فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي، وفي كتاب التعبير: فإن الشيطان لا يتخيل بي » وفي صحيح مسلم في كتاب الرؤيا: من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، أو لكأنما رآني في اليقظة، لا يتمثل الشيطان بي » أنظر: (فضائل الخمسة ج١ ص٥٢.

وجميع هذه الروايات أخبار آحاد، فإن سُلِّمت فعلى هذا المنهاج.

وقد كان شيخي رحمه الله يقول: إذا جاز من بشرٍ أن يدعيَ في اليقظة أنه إلّه كفرعون ومن جرى مجراه، مع قلة حيلة البشر وزوال اللبس في اليقظة، فما المانع من أن يَدَّعيَ إبليس عند النائم بوسوسته له أنه نبي، مع تمكن إبليس بما لا يتمكن منه البشر وكثرة اللبس المعترض في المنام.

ومما يوضح لك أن من المنامات التي يتخيل للإنسان أنه قد رأى فيها رسول الله والأئمة صلوات الله عليهم، منها ما هو حق، ومنها ما هو باطل.

إنك ترى الشيعي يقول: رأيت في المنام رسول الله (ص) ومعه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) يأمرني بالإقتداء به دون غيره، ويعلمني أنه خليفته من بعده.

ثم ترى الناصبي يقول: رأيت رسول الله (ص) في النوم، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، وهو يأمرني بمحبتهم، وينهاني عن بغضهم، ويعلمني أنهم أصحابه في الدنيا والآخرة، وأنهم معه في الجنة، ونحو ذلك.

فتعلم- لا محالة- أن أحد المنامين حق والآخر باطل، فأولى الأشياء أن يكون الحق منهما ما ثبت بالدليل في اليقظة على صحة ما تضمنه.

والباطل ما أوضحت الحجة عن فساده وبطلانه.

وليس يمكن للشيعي أن يقول للناصبي: إنك كذبت في قولك: رأيت رسول الله (ص)، لأنه يقدر أن يقول له مثل هذا بعينه.

وقد شاهدنا ناصبياً تشيّع، وأخبرنا في حال تشيعه بأنه يرى منامات بالضد مما كان يراه في حال نصبه.

فبان بذلك أن أحد المنامين باطل، وأنه من نتيجة حديث النفس، أو من وسوسة إبليس، ونحو ذلك. وأن المنام الصحيح هو لطف من الله تعالى بعبده على المعنى المتقدم وصفه.

وقولنا في المنام الصحيح أن الإنسان إذا رأى في نومه النبي (ص) إنما معناه

أنه كان قد رآه، وليس المراد به التحقيق في اتصال شعاع بصره بجسد النبي. وأي بصرٍ يدرك به حال نومه؟

وإنما هي معـان تصورت في نفسه، تخيل له فيها أمر لَطَفَ الله تعالى له به، قام مقام العلم.

وليس هذا بمنافٍ للخبر الذي روي من قوله (من رآني فقد رآني)، لأن معناه فكأنما رآني.

وليس بغلطٍ في هذا المكان إلا عند من ليس له من عقله اعتبار.

تأويل آية [١]

إن سأل سائل عن قول الله عز وجل:

«وجعلنا نومكم سباتاً» النبأ: ٩

فقال: إذا كان السبات هو النوم، فكأنه قال: وجعلنا نومكم نوماً. فما الفائدة في هذا؟.

الجواب

قلنا في هذه الآية وجوه:

منها، (أن) السبات أحد أقسام النوم، وهو النوم الممتد الطويل. ولهذا يقال فيمن كثر نومه، أنه مسبوت، وبه سبات. ولا يقال في كل نائم.

والوجه في الإمتنان علينا بأن جعل نومنا ممتداً طويلاً ظاهر.

وهو لما لنا في ذلك من المنفعة بالراحة، لأن التهويم والنوم الغرار لا يكسبنا شيئاً من الراحة، بل يصحبها في الأكثر الإنزعاج والقلق والهموم التي هي تقلّل النوم. ورخاء البال وفراغ القلب يكون معها كثرته وإمتداده.

ومنها أن يكون المراد بذلك، أنا جعلنا نومكم سباتاً ليس موتاً، لأن النائم قد يفقد من علومه وقصوده وأحواله، فيسمى بالسبت للفراغ الذي كان فيه، ولأن الله تعالى أمر نبي إسرائيل بالإستراحة من الأعمال.

---

(١) انظر الكلام على هذه الآية في أمالي الشريف المرتضى ج ١ ص ٣٣٧- ٣٤٣.

وقد قيل: إن أصل السبات، التمدد. ويقال: سبتت المرأة شعرها، إذا حلته من العقص.

ومنها أن يكون المراد بالسبت، القطع، فيكون نومنا قطعاً لأعمالنا ومتصرفاتنا، وهو راجع إلى معنى الراحة.

فصل:

مما رويَ عن لقمان من حكمته ووصيته لابنه.

يا بني أقم الصلاة فإنما مثلها في دين الله كمثل عمد فسطاطٍ، فإن العمود إذا استقام، نفعت الأطناب والأوتاد والظلال، وإن لم يستقم، لم ينفع وتد ولا طنب ولا ظلال.

أي، بنى، صاحب العلماء وجالسهم، وزرهم في بيوتهم، لعلك أن تشبههم فتكون منهم.

إعلم يا بني، أني ذقت الصبر وأنواع المر، فلم أر أمرّ من الفقر، فإن افتقرت يوماً فاجعل فقرك بينك وبين الله، ولا تحدِّث الناس بفقرك، فتهون عليهم، ثم سل في الناس، هل من أحد دعا الله فلم يجبه، أو سأله فلم يعطه.

يا بني، ثق بالله عز وجل، ثم سل في الناس، هل من أحد وثق بالله فلم ينجه.

يا بني، توكل على الله، ثم سل في الناس، من ذا الذي توكل على الله فلم يكفه.

يا بني، أحسن الظن بالله، ثم سل في الناس، من ذا الذي أحسن الظن بالله، فلم يكن عند حُسن ظنه به.

يا بني، من يرد رضوان الله يسخط نفسه كثيراً، ومن لا يسخط نفسه لا يرض ربه، ومن لا يكتم غيظه يشمت عدوه.

يا بني، تعلم الحكمة تشرف. فإن الحكمة تدل على الدين، وتشرّف العبد على الحر، وترفع المسكين على الغني، وتقدم الصغير على الكبير، وتجلس المسكين مجالس الملوك، وتزيد الشريف شرفاً، والسيد سؤدداً، والغني مجداً.

وكيف يتهيأ له أمر دينه ومعيشته بغير حكمة، ولن يهيئ الله عز وجل أمر الدنيا والآخرة إلا بالحكمة، ومثل الحكمة بغير طاعة مثل الجسد بلا نفس، أو مثل الصعيد بلا ماء، ولا صلاح للجسد بلا نفس، ولا للصعيد بغير ماء، ولا للحكمة بغير طاعة.

أحاديث عن أبي ذر الغفاري

أخبرني الشريف أبو منصور أحمد بن حمزة الحسيني العريضي بالرملة، وأبو العباس أحمد بني اسماعيل بن عنان بحلب، وأبو المرجا محمد بن علي بن طالب البلدي بالقاهرة رحمهم الله، قالوا جميعاً: أخبرنا أبو المفضل محمد بن عبدالله بن المطلب الشيباني الكوفي، قال: حدثنا أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمار الثقفي، قال: حدثنا محمد بن علي بن خلف العطار، قال: حدثنا موسى بن جعفر بن ابراهيم بن محمد بن علي بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، قال: حدثنا عبد المهيمن بن عباس الأنصاري الساعدي، عن أبيه العباس بن سهل، عن أبيه سهل بن سعيد، قال: بينا أبو ذر قاعد مع جماعةٍ من أصحاب رسول الله (ص)، وكنت يومئِذ فيهم، إذ طلع علينا علي بن أبي طالب (ع)، فرماه أبو ذر بنظره ثم أقبل على القوم بوجهه فقال: من لكم برجل، محبته تساقط الذنوب عن محبيه كما يساقط الريح العاصف الهشيم من الورق عن الشجر، سمعت نبيكم (ص) يقول ذلك له.

قالوا: من هو يا أبا ذر؟ قال: هو الرجل المقبل إليكم، ابن عم نبيكم (ص)، يحتاج أصحاب محمد (ص) إليه، ولا يحتاج إليهم.

سمعت رسول الله (ص) يقول:

علي باب علمي، ومبيِّن لأُمتي ما أرسلت به من بعدي، حبه إيمان، وبغضه نفاق، والنظر إليه برأفةٍ ومودةٍ عبادة.

وسمعت رسول الله (ص) نبيكم يقول:

مثل أهل بيتي في أمتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن رغب عنها هلك:

ومثل باب حطه في بني إسرائيل، من دخله كان آمناً مؤمناً، ومن تركه كفر.

ثم إن علياً (ع) جاء فوقف فَسلَّم ثم قال: يا أبا ذر: من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه وآخرته، ومن أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله الذي بينه وبين عباده، ومن أحسن سريرته أحسن الله علانيته.

إن لقمان الحكيم قال لابنه وهو يغطه، يا بني: من الذي ابتغى الله عز وجل فلم يجده، ومن ذا الذي لجأ إلى الله فلم يدافع عنه، أمَّن ذا الذي توكل على الله فلم يكفه.

ثم مضى- يعني علياً عليه السلام- فقال أبو ذر رحمه الله: والذي نفس أبي ذر بيده، ما من أُمةٍ إئتمت أو قال اتبعت، رجلاً، وفيهم من هو أعلم بالله ودينه منه، إلا ذهب أمرهم سفالاً.

مسائل في المواريث

مسألة اخوان لأب وأم، ورث أحدهما المال كله ولم يرث الآخر شيئاً، وليس بينهما خلاف في ملة:

الجواب

كان الميت ابن أحدهما، فورثه الأب خاصة دون أخيه الذي هو عم الميت.

مسألة أخرى

إخوان لأب وأُم ورثا ميراثاً، كان لأحدهما ثلاثة أرباع المال، وللآخر الربع؟

جواب: الموروث امرأة تركت ابني عمها، أحدهما زوجها، فورث منها النصف بحق زوجته، وورث مع أخيه نصف الباقي، وهو الربع من جميع المال.

مسألة أخرى.

رجل وابنه ورثا مالاً فكان بينهما نصفان بالسوية؟

جواب: هذا تزوج بابنة عمه فماتت وخلفته وأباه الذي هو عمها، فكان له بحق الزوجية النصف، ولعمها الذي هو أبو زوجها النصف الباقي.

قضية مستطرفة لأمير المؤمنين (ع) لم يسبقه إليها أحد من الناس.

روي أن رجلين جلسا للغداء، فأخرج أحدهما خمسة ارغفة، وأخرج الآخر ثلاثة أرغفة، فعبر بهما في الحال رجل ثالث، فعزما عليه فنزل فأكل معهما، حتى (استوفوا) جميع ذلك، فلما أراد الإنصراف دفع إليهما فضة وقال: هذه لكما عوض ما أكلت من طعامكما، فوزناها فصادفاها ثمانية دراهم، فقال صاحب الخمسة الأرغفة لي منها خمسة، ولك ثلاثة، بحساب ما كان لنا. وقال الآخر: بل هي مقسومة نصفين بيننا، وتشاحا، فارتفعا إلى شرح القاضي[1] في أيام أمير المؤمنين (ع)، فَعَرَّفاه أمرهما، فحار في قضيتهما، ولم يدر ما يحكم به بينهما، فحملهما إلى أمير المؤمنين (ع)، فقصا عليه قصتهما، فاستطرف أمرهما وقال: إن هذا أمر فيه دناءة، والخصومة فيه غير جميلة فعليكما بالصلح فهو أجمل بكما، فقال صاحب الثلاثة أرغفة: لست أرضى بالا بمرّ الحق وواجب الحكم.

فقال أمير المؤمنين (ع): فإذا أبيت الصلح ولم ترد إلا القضاء، فلك درهم واحد، ولرفيقك سبعة دراهم.

فقال- وقد عجب هو وجميع من حضر- يا أمير المؤمنين: بيِّن لي وجه ذلك، لأكون على بصيرة من أمري.

فقال: أنا أُعلمك، ألم يكن جميع مالكما ثمانية أرغفة، أكل كل واحدٍ منكما بحساب الثلث رغيفين وثلثين؟

قال: بلى، قال: فقد حصل لكل واحدٍ منكم ثمانية أثلاث، فصاحب الخمسة

الأرغفة، له خمسة عشر ثلثاً، أكل منها منها ثمانية، بقي له سبعة، وأنت لك ثلاثة أرغفة، وهي تسعة أثلاث، أكلت منها ثمانية، بقي لك ثلث واحد، فلصاحبك سبعة دراهم، ولك درهم واحد، فانصرفا على بينةٍ من أمرهما.[1]

شبهات للملاحدة

مسألة للملحدة

قال الملحدون:

إذا كان الله جواداً رحيماً، ولم يخلق خلقه إلا لنفعهم، وليس له حاجة إلى عذابهم، فهلا خلقهم كلهم في الجنة، وابتداهم بالنعمة، وخلدهم في دائم اللذة، وأراحهم من الدنيا ومشاقها، وصعوبة التكليف فيها.

جواب.

يقال لهم: إن الجود والرحمة لا يكونان فيما يخرج عن الحكمة، وربنا سبحانه لم يخلق خلقه إلا لنفعهم والمنفعة بنيل النعيم يكون على قسمين: تفضل واستحقاق.

ومنزلة الإستحقاق أعلى وأجل وأشرف من منزلة التفضل.

فلو ابتدأ الله تعالى خلقه في جنات النعيم، لكان قد اقتصر بهم على منزلة التفضل، التي هي أدون المنزلتين، وفي ذلك أنه قد حُرم الاستحقاق من علم من حاله أنه إن كلفه أطاع فاستحق الثواب، وأقطعه الأصلح له، واقتصر به على نعيم غيره أفضل منه. وذلك لا يقع من عالم حكيم جواد غير بخيل، فوجب في الحكمة خلقهم في الدنيا، وعمومهم بالتكليف، الذي فيه التعرض للأمر

---

(١) روي ذلك في الصواعق المحرقة ص١٧٩، وفي مناقب آل أبي طالب ج١ ص٣٢٩ مختصراً وفي الاستيعاب ج٢ ص٤٦٢ في كنز العمال للهندي ج٣ ص١٨٠ وفي الرياض النصرة ج٢ ص١٩٩ (أنظر فضائل الخمسة ج٢ ص٢٦٧- ٢٦٨) ورواه البهائي العاملي في كتاب الأربعين ص١٢٦- ١٢٧ وهو الحديث الثامن والعشرون.

الجليل، ليستحق الطائعون ما سبق لهم في المعلوم، وليس نفع المخالفة بعد التبيين والتعريف وإزاحة العلة في التكليف إلا عن جانٍ على نفسه غير ناظرٍ في عاقبة أمره.

وجواب ثانٍ

ويقال لهم: لو خلق الله تعالى خلقه في الجنة لم يخلُ أمرهم من حالين: إما أن يبيحهم الجهل به، وكفر نعمته، فليس بحكيم من أباح ذلك.

وإما أن يأمرهم بمعرفته وشكر نعمته. والحكمة توجب ذلك، فلا بد عند الأمر بالشيء من النهي عن ضده، ثم لابد من ترغيبٍ فيما يأمر ووعد جميل على فعله، وترهيب فيما نهى عنه ووعيد على فعله.

وإذا وجب الأمر والنهي والترغيب والترهيب والوعد والوعيد، فقد حصلت حالهم كحالهم في الدنيا، ووجب أن يكون للوعيد إنجاز فينتقلوا إلى دار الجزاء، فقد انتهى الأمر إلى ما فعله سبحانه به مما لا يقتضي الحكمة غيره.

فإن قالوا: أليس الطائعون لابد من مصيرهم إلى الجنة فألا كانت حالهم في الإبتداء كحالهم في الثواب والجزاء من حصول المعرفة والشكر؟

قلنا لهم: بين الوقتين فرق. وذلك، إنهم إذا صاروا إلى الجنة بعد كونهم في الدنيا، فقد تقدم لهم الأمر والنهي، وذاقوا البؤس والآلام، وعرفوا قدر النعمة، وشاهدوا وقوع العقاب والثواب بأهلها، فكان ذلك يقوم لهم في الترغيب في المعرفة، والشكر والإنزجار عن تركها مقام الأمر والنهي والوعد والوعيد.

ولو ابتدأهم في الجنة لم يكونوا أمروا ولا نهوا، ولا وُعِدوا ولا تُوعِّدوا، ولا فعل بهم ما يقوم مقام ذلك، فكان بمنزلة من أُبيح له الجهل والكفر، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ولا يجوز أن يخلق فيهم المعرفة به ابتداءً، لأن الغائب لا يُعرف بالضرورة إلا أن يحضر.

كما أن الحاضر لا يُعلم بالإستدلال إلا أن يغيب.

ولو جاز أن يخلقهم فيُعرِّفون الغائب، لجاز أن يُقدرهم على ذلك، وهذا محال.

ولا يجوز أيضاً أن يخلق الشكر فيهم، لأنه لو خلقه لهم لم يكونوا هم الشاكرين، بل يكون هو الشاكر نفسه، لأن الشاكر من فعل الشكر، لا من فُعِلَ فيه، كما أن الظالم من فعل الظلم، لا من فُعِل فيه.

مسألة أُخرى للملاحدة

قال الملحدون.

كيف يجوز من الحكيم الرحيم أن يخلق خلقاً ثم يكلفهم، وهو يعلم أنهم يعصون، فيصيرون إلى العذاب الأليم، ويبقون فيه مخلدين، وهو لو لم يخلقهم لم يكن ذلك، أو خلقهم ولم يكلفهم لم يقع الكفر منهم.

الجواب:

قيل: لو وجب أن يكون الخلق والتبليغ قبيحاً ولا حكمةً لأن ذلك لو لم يكن ما استحق أحد العذاب والخلود في النار، لكان لا شيء أوضع ولا أضر من العقل، لأن الإنسان متى لم يكن عاقلاً لم يلحقه لوم في شيءٍ يكون منه، ولم يلزمه عقاب ولا أدب على زللٍ يصدر عنه، ومتى كان عاقلاً لحقه ذلك أجمع ومستحقه.

والأُمم كلها ملحدها وموحِّدها مجمعة على اعتقاد شرف العقل وفضيلته وعُلوِّ منزلته، وسقوط ضده ونقصه.

فإن قالوا: إن العقل ليس يدعو إلى شيءٍ مما يوجب اللوم، ولا يحمل عليه، ولا يدخل فيه. بل هو ناهٍ عن ذلك، زاجر عنه. ولو شاء المكلف لم يكفر، بل أطاع فاستحق بطاعته الخلود في نعيم الجنان، كما استحق غيره ممن أطاع.

وبعد، ففي التكليف تعريض لأجلِّ منازل النعيم، وهي منزلة الإستحقاق. وفيه فعل ما تقتضيه الحكمة والصلاح.

وشيء آخر، وهو أن التعريض لنيل الثواب الدائم والأمر بمعرفة المنعم وشكره، وترك الجور والظلم والسفه حسَن من العقل، كما أن التعريض للعطب والأمر بالجور والسفه قبيح فاسد في العقل.

فلو كانت معصية المأمور ومصيره لسوء اختياره إلى استحقاق العذاب، وعلم العالم بما يصير إليه من العطب والهلاك، يقلب التعريض للخير والأمر بالحَسَن، فيجعله قبيحاً فاسداً، لكان طاعة المأمور ومصيره بحُسن اختياره إلى استحقاق المدح من العقلاء، وعلم الآمر بما يصير إليه المأمور من السلامة واستحقاق المدح، يقلب التعريض للعطب والأمْر به فيجعله حسناً. وهذا لا يقوله أحد.

ولو كان الأمر بالخير والتمكين منه والدعاء إليه، والتيسير له، والإعذار والإنذار لا يكون تعريضاً للخير، إلا إذا عُلِم أن المأمور يقبل فيسلم، لكان الأمر بالفساد والشر والدعاء إليه، والحث عليه، لا يكون تعريضاً للمكروه والعطب والضرر إلا إذا عُلم أن المأمور يقبل فيعطب.

فلما كان هذا عند جمهور أهل العلم والعقل إساءةً وإضراراً وتعريضاً للمكروه، سواء عُلم أن المأمور يقبل فيعطب، أو يخالف فيسلم، كان الأول تعريضاً للخير وإحساناً إلى العبد، سواء عُلم من حاله أَنه يقبل فيسلم، أَو يخالف فيعطب.

وهذا باب يجب أن يتأيد فيه المتأمل، ويكرر فيه الإطلاع، فإنه يعلم الحق فيه إن لم يكن معه هوىً يضل عنه، والحمد لله.

فصل:

في ذكر سؤالٍ ورد إليّ من الساحل، وجوابي عنه في صحة العبادة بالحج.

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله الهادي إلى الرشاد، العالم بمصالح العباد، ذي الحكمة البالغة، والنعمة السابغة، وصلواته على من أزاح به العلل، وأوضح منار السُبُل، سيد

الأولين والآخرين محمد خاتم النبيين وعلى آله الأئمة الطاهرين.

سألت- أيدك الله- عن الحج ومناسكه، وصحة الأمر به، وأسباب ذلك وعلله، ورغبت في اختصار جوابٍ يكشف لك حقيقة الصواب، تعول عليه في الإعتقاد، وتحسم به موادَّ الفساد، وتعدُّه للخصوم عند السؤال، وتدفع به تعجب أهل الكفر والضلال.

وقد أوردت من ذلك ما اقتضاه الإمكـان لضيق الزمان وترادف الأشغال، وهو مقنع لمن تديره وفهم فحواه إن شاء الله.

إعلم أن اختلاف العبادات مبني على المعلوم عند الله تعالى من مصالح العباد، وليس للمكلفين طريق للعلم بتفاصيل هذه المصالح، ولا فرض الله سبحانه عليهم ذلك. ولو فرضه لنصب لهم دليلاً على العلم، فالذي يجب اعتقاده هو أن المكلِّف الآمر عدل حكيم لا يقع منه الخلل، ولا يكلف العبث، ولا يرسل إلى خلقه من يجوز منه الكذب والأمر باللعب.

فإذا ثبت هذا الأَصل لزم امتثال أوامر الحكيم الواردة على يد الصادق الأمين، والإعتقاد أن إيراده منها إنما هو طاعته في العمل بها، وأنه لم يأمر بها دون غيرها إلا لعلمه بمصالح خلقه فيها، وتعريضه لهم بتكليفها إلى منزلة الإستحقاق ونفاستها، ليثبت من أطاعه فيها بالنعيم الدائم عليها.

وليس جهل العبد بمعرفة هذه المصالح على تفاصيلها مفسداً لما عمله، من حكمة الأمر بها وصدق المؤدي عنه لها.

كما أنه ليس عدم علمنا بعلل تباين الناس في أفعالهم، وأسباب اختلاف ما مع الصناع من آلاتهم موجباً علينا القطع على لعبهم وعبثهم واعتقاد جهلهم ونقصهم.

فهذا أصل الكلام فيما خار الله تعالى، وأمر، وعليه المدار في الحجاج والنظر. ومن أتقنه استعان به في مسائل أُخر.

وقد سأل أحد الملاحدة، مولانا جعفر بن محمد الصادق صلوات الله عليه، عن الطواف بالبيت الحرام، فأجابه بما نقله عنه الخاص والعام.

أخبرني به الشيخ الفقيه أو الحسن محمد بن أحمد بن علي بن الحسن الشاذان القمي رضي الله عنه، عن خال أمه أبي القاسم جعفر بن محمد بن قولوية رحمه الله، عن محمد بن يعقوب الكليني، عن ابراهيم بن هاشم، عن أبيه، عن العباس بن عمران الفقيمي.

إن ابن أبي العوجاء[1]، وابن طالوت الأعمى، وابن المقفع[2]، في نفر من الزنادقة كانوا مجتمعين بالموسم في المسجد الحرام، وأبو عبد الله جعفر بن محمد (ع) فيه إذ ذاك يفتي الناس، ويفسر لهم القرآن، ويجيب عن المسائل بالحجج والبينات.

فقال القوم لابن أبي العوجاء: هل لك في تغليط هذا الجالس، وسؤاله عما يفضحه عند هؤلاء المحيطين به. فقد ترى فتنة الناس به، وهو علامة زمانه؟

فقال ابن أبي العوجاء نعم، ثم تقدم ففرق الناس، ثم قال: يا أبا عبدالله، إن المجالس أمانات، ولابد لكل من به سعال أن يسعل، فتأذن في السؤال؟

فقال أبو عبدالله (ع): سل إن شئت.

فقال ابن أبي العوجاء: إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر وتهرولون هرولة البعير إذا

---

(١) هو عبد الكريم بن أبي العوجاء أحد الزنادقة في أواسط القرن الثاني للهجرة كان من تلامذة الحسن البصري فانحرف عن التوحيد فقيل له تركت مذهب صاحبك ودخلت فيا لا أصل له ولا حقيقة؟ فقال: إن صاحبي كان مخلطاً يقول طوراً بالجبر وطور بالقدر فما أعلمه اعتقد مذهباً دام عليه، قتله أبو جعفر محمد بن سليمان عامل المنصور على الكوفة، وقد جرت بينه وبين الإمام الصادق (ع) احتجاجات كثيرة أنظر: ترجمته في الكنى والألقاب ج١ ص١٩٦-١٩٨.

(٢) هو عبد الله بن داذويه المقفع كان مجوسياً فأسلم على يد عيسى بن علي عم المنصور العباسي، من بلغاء الدنيا المشهورين، تخرج في البلاغة على خطب الإمام علي (ع) لذلك كان يقول: شربت من الخطب رياً ولم أضبطها روياً، ففاضت ثم فاضت، فلا هي نظاماً، وليس غيرها كلاماً. رمي بالزندقة فقتل سنة ١٤٢ هـ. قتله سفيان بن معاوية المهلبي أمير البصرة بأمر المنصور لكتاب كتبه.

نفر؟؟ من فكر في هذا وقدر، علمٍ أنه فعل غير حكيم ولا ذي نظر، فقل؛ فإنك رأس هذا الأمر وسنامه، وأبوك أُسه ونظامه.

فقال له الصادق (ع): إن من أضله الله وأعمى قلبه، استوخم الحق، فلن يستعذبه، وصار الشيطان وليه وحزبه، يورده مناهل الهلكة.

وهذا بيت استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثهم على تعظيمه وزيارته، وجعله قبلةً للمصلين، فهو شعبة من رضوانه، وطريق تؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال ومجمع العظمة والجلال، خلقه قبل دحو الأرض بألفي عام فأحق من أُطيع فيما أمر، وأنتهي عما زجر، الله عز وجل المنشيء للأرواح والصور.

فقال ابن أبي العوجا: ذكرت، أبا عبدالله، فأَحلت على غائب.

فقال الصادق صلوات الله عليه: كيف يكون - يا ويلك - غائباً، من هو مع خلقه شاهد، وإليهم أقرب من حبل الوريد، يسمع كلامهم، ويعلم أسرارهم، لا يخلو منه مكان، ولا يشغل به مكان، ولا يكون من مكان أقرب من مكان، يشهد له بذلك آثاره، ويدل عليه أفعاله، والذي بعثه بالآيات المحكمة، والبراهين الواضحة محمد عليه السلام جاءنا بهذه العبادة، فإن شككت في شيء من أمره فاسأل عنه أُوضحه لك.

قال: فأُبلس ابن أبي العوجاء ولم يدر ما يقول. فانصرف من بين يديه، فقال لأصحابه: سألتكم أن تلتمسوا خمرة فألقيتموني على جمرة. فقالوا له: اسكت، فوالله، لقد فضحتنا بحيرتك وانقطاعك، وما رأينا أحقر منك اليوم في مجلسه.

فقال: إليَّ تقولون هذا. إنه ابن من حلق رؤوس من ترون، وأومى بيده إلى أهل الموسم.[1]

---

(١) تجد هذا الخبر في كتاب التوحيد للصدوق القمي ص ٢٥٧- ٢٥٩ مع بعض الزيادات واختلاف يسير في بعض الألفاظ، وقد رواه القمي عن الدقاق عن أبي القاسم حمزة بن القاسم العلوي عن محمد بن إسماعيل عن أبي سليمان داود بن عبدالله عن عمر بن محمد عن عيسى بن يونس.

وفي هذا الخبر كفاية لمن تديره، وغنىً في هذه المسألة لمن تصوره.

وأعلم أنه لا فرق في العقول بين أن ترد العبادة بصلاة فيها ركوع وسجود وقيام وقعود، وبين أن ترد بطوافٍ وسعي وهرولة أو شيء ونحو ذلك من أسباب الخشوع وأفعال الخضوع.

ولا فرق أيضاً بين ورودها باغتسال وصيام، وبين ورودها بحلق الرأس والإحرام.

بل لا فرق بين المشي إلى مواضع العبادة والسجود على التكرار، وبين السعي بين الصفا والمروة ورمي الحجار.

كل ذلك على حدٍ واحد في التجويز، وطريقٍ مستمر في إمكان ما يرد به التكليف.

ولسنا نجد أهل ملةٍ ولا ذوي نحلة إلا ولهم عبادات من هذا الجنس، وإن اختلفت في الوصف.

وبعد فقد نرى العَدْوَ الشديد في بعض الأحيان يكون من التعظيم والإجلال. وذاك أن ذا المنزلة الكبيرة والرتبة الجليلة إذا رآه من دونه توجه إليه مسرعاً، وعَدَا إليه مهرولاً، لائذاً به، مقبلاً ليده، فيكون فما فعله قد عظمة وفضله.

وسواء سعيت إلى من تريد تعظيمه فتذللت بين يديه وخضعت له، أو سعيت إلى حيث أمرك فتذللت به وخضعت عنده، لا يختلف ذلك في أحكام العقول، ولا يتعجب منه وينكره إلا من فقد التحصيل وأَلِفَ ترك التمييز.

على أن منكر هذه العبادة والمتعجب منها إذا لم يقر بعبادة غيرها يجانسها، لا يقدر على إنكار ما نشاهده من العقلاء في بعض الأحيان، من الأفعال المضاهية لأفعال المجان[1]، وهم فيها مصيبون وللمصلحة قاصدون، مثل رجلٍ حصيف لبيب حكيم لا يحسن منه العَدَّوَ الشديد، رأى طفلاً يكاد

(١) لعله يريد به المجانين أو أصحاب المجون.

يهوي إلى بئرٍ، أملاً في وجهٍ لتخليصه، وهرول غاية قدرته لإنقاذه، فحسن ذلك منه، وإن لم تجر به عادته، وكان شكوراً عليه، لصواب غرضه فيه.

ورجل دخل الماء في أُذنه فاجتهد في إخراجه، بأن وقف على إحدى رجليه وأمال رأسه إلى ناحيتها وقفز عدة دفعات عليها، ليخرج الماء من أُذنه، ويأمن ما يخشاه من ضرره، فلا ينقصه ذلك من فضله ولا يزيله عن رتبته وعقله. بل يكون فيما فعله حكيماً وبدفع المضرة عنه عليماً.

وكالقاضي الذي دخلت ذبابة في ثوبه وحصلت بينه وبين جسمه، وهو بين شهوده وفي مجلس قضائه وحكمه فاضجرته بأذيتها وأقلقته بثقلها، وأخذ يتحرك لها أنواع الحركة، ويتلوى منها إلى كل جهة، ويكثر من توقفه واضطرابه، ويطيل تطلعه في ثيابه، والناس يشاهدون أفعاله ولا يعرفون، فلما دام أمرها وطال لبثها حسن منه النهوض عن مجلسه، والخلو لإزالتها بنفسه. فالجاهل من سارع إلى سوء الظن به، وقدم على استنقاصه في فعله. والعاقل الذي يعلم أن أمراً قد دهمه وشيئاً ألجأه إلى ما ظهر منه واضطره. ونحو هذا من الأفعال العجيبة والأحوال الطريفة الذي يتفق لذوي العقول السليمة والآراء الصحيحة، فيقع منهم أكثر مما ذكرت وفوق ما وصفت، ويكون الواجب تصويبهم فيه، وإن لم يعلم الأسباب الداعية لهم فيه.

قصة وقعت مع المؤلف

ولقد اضطررت يوماً إلى الحضور مع قوم من المتصوفين، فلما ضمنا المجلس أخذوا فيما جرت به عادتهم من الغناء والرقص، فاعتزلتهم إلى إحدى الجهات وانضاف إليّ رجل من أهل الفضل والديانات، فتحادثنا ذم الصوفية على ما يصنعون وفساد أغراضهم فيما يتأولون، وقبح ما يفعلون من الحركة والقيام، وما يدخلون على أنفسهم في الرقص من الآلام. فكان الرجل لقولي مصوباً وللقوم في فعلهم مخطئاً، ولم نزل كذلك إلى أن غنّى مغني القوم هذه الأبيات:

ومـــــا أُم مكحول المدامـــع ترتعي
ترى الأُنس وحشاً وهي تأنس بالوحش

غـــدت فارتعـــت ثم اثنـــت لرضاعـــه
فـــلم تلـــف شيئـــاً من قوائمه الخمش
فطافـــت بـــذاك القـاع ولهى فصادفت
سبـــاع الفـــلا ينهشنـــه أيمـا نهش
بأوجـــع مـــني يوم ظلـــت أنامـــل
تودعـــني بالـــدر من شبـــك النقش

فلما سمع صاحبي نهض مسرعاً مبادراً، ففعل من القفز والرقص والبكا واللطم ما يزيد على ما فعله من قبله ممن كان يخطئه ويستجهله، وأخذ يستعيد من الشعر ما لا يحسن استعادته، ولا جرت عادتهم بالطرب مثله، وهو قوله:

فطافـــت بـــذاك القـاع ولهى فصادفت
سبـــاع الفـــلا ينهشنـــه أيمـا نهش

ويفعل بنفسه ما حكيت، ولا يسأل من غير هذا البيت، حتى بلغ من نفسه المجهود ووقع كالمغشي عليه من الموت.

فحيَّرني ما رأيت من حاله، وأخذت أفكر في أفعاله المضادة لما سمعت من أقواله.

فلما أفاق من غشيته لم أملك صبراً دون سؤاله عن أمره، وسبب ما صنعه بنفسه، مع تجهيله من قبل لفاعله، وعن وجه استعادته من الشعر ما لم تجر عادتهم باستعادة مثله؟

فقال لي: لست أجهل ما ذكرت، ولي عذر واضح فيما صنعت. أُعلمك أن أبي كان كاتباً، وكان بي براً، وعليَّ شفيقاً، فسخط السلطان عليه فقتله، فخرجت إلى الصحراء لشدة ما لحقني من الحزن عليه، فوجدته ملقىً والكلاب ينهشون لحمه. فلما سمعت المغني يقول:

فكانـــت بـــذاك القـاع ولهى فصادفت
سبـــاع الفـــلا ينهشنـــه أيمـا نـهش

ذكرت ما لحق أبي وتصور شخصه بين عينيّ، وتجدد حزنه عليّ، ففعلت الذي رأيت بنفسي.

فندمت على سوء ظني به وتغممت عما لحقه، واتعظت بقصته، وعلمت أن الله تعالى لطف لي بمشاهدة هذه الحال، والوقوف عليهم لتكون لي دلالة على الصواب في هذه المسألة وأشباهها، وأنه محرم على كل عاقل لبيب أن يعجل بتجهيل من ثبت عنده عقله وبان له فضله، إذا ظهر منه فعل لم يعرف فيه سببه، ولا علم مراده منه وغرضه.

وورود مثل هذه الأُمور من العقلاء كثير، وهي حجة على من أظهر التعجب مما ورد به الشرع من التكليف، وجعل عدم علمه بأسباب ذلك دلالة على تعقله الضعيف.

على أن الأخبار قد نقلت عن الأئمة عليهم السلام بذكر أسباب لهذه العبادات، تسمى عللاً على المجاز والإتساع[1]، وجمع في ذلك علي بن حاتم القزويني[2] رحمه الله كتاباً سماه كتاب العلل، وأنا أذكر طرفاً مما رواه في الحج ومناسكه وأسبابه وعلله.

قال: إن الحج هو الوفادة إلى الله عز وجل، وفيه منافع كثيرة للدنيا والآخرة من الرغبة إلى الله تعالى، والرهبة منه، والتوبة إليه من معاصيه، وطلب الثواب على تحمل المشاق فيما يرضيه، ومنفعة أهل الشرق والغرب ومن في البر والبحر، من تاجر وجالب ومشترٍ وبائع ونحو ذلك من الفوائد.

---

(١) العلة الحقيقية مشروطة بأمرين: الأول أن لا يتخلف المعلول عنها، ويدور معها وجوداً وعدماً، التاني أن لا يتوسط بين العلة والمعلول إرادة فاعلٍ مختار، وهذان الشرطان مفقودان في جميع ما ذكر للحج من آثار ومنافع، ومن هنا كانت تسمية ذلك بالعلل أو الأسباب مجازاً، وما ذكر من المنافع والآثار إنما هي باب حكمة التشريع التي لا يدور الحاكم معها وجوداً ولا عدماً، بل قد تتخلف.

(٢) هو علي بن أبي سهل حاتم بن أبي حاتم القزويني قال النجاشي عنه: ثقة في نفسه من أصحابنا يروي عن الضعفاء. وقال الطوسي: له كتب كثيرة جيدة معتمدة نحو من ثلاثين كتاباً. كان حياً في سنة ٣٥٠هـ أنظر (معجم رجال الحديث ج١ ص٢٥١).

قال الله تعالى: «ليشهدوا منافع لهم»

والتلبية هي جواب نداء ابراهيم عليه السلام لما أذّن في الناس بالحج.

وروي أن أمير المؤمنين (ع) سئل عن الوقوف بالحل، يعني الوقوف بعرفات ولِمَ لم يكن في الحرم؟ فقال: لأن الكعبة بيته، والحرم داره، فلما قصدوه وافدين وقفهم بالباب يتضرعون إليه.

قيل له: فالمشعر الحرام، لِمَ صار في الحرم؟

قال: لأنه لما أذن لهم في الدخول وقفهم بالباب الثاني، فلما طال تضرعهم به أذن لهم بتقريب قربانهم، فلما قضوا تفثهم وتطهروا من الذنوب التي كانت حجاباً بينه وبينهم أذن لهم بالزيارة على الطهارة.

قيل له: فلِمَ حرم الله الصيام أيام التشريق؟[1].

قال: لأن القوم زاروا الله تعالى وهم في ضيافته، ولا يجوز لمضيف أن يُصوِّم أضيافه.

قيل: فالتعلق بأستار الكعبة لأي شيء هو:

قال: مثله مثل رجل له عبد جنى جناية وذنباً فهو متعلق بثوبه، ويتضرع إليه ويخضع له أن يتجاوز له عن ذنبه.

وروى أن الإشعار[2] إنما هو لتحريم ظهر البَدَنة، وأن تقليدها[3] إنما هو ليعرفها صاحبها.

وقال في حد الحرم: إن آدم لما أُهبط من الجنة شكا إلى الله تعالى الوحشة، فأنزل الله عليه ياقوتة حمراء فوضعها في موضع البيت، وكان يطوف بها، فكان يبلغ ضوءها موضع الأعلام، يعني أطراف الحرم وحدّه.

وذكر في علة الطواف: إن الله لما قال للملائكة إني جاعل في الأرض

---

(١) هي أيام منى وهي الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر بعد يوم النحر.

(٢) هو ما يجرح به الهدي في أذنه أو رقبته كعلامة عليه.

(٣) هو ما يقلد به الهدي من نعل أو لحاء شجر أو غيرها ليعلم به أنه هدى فلا يتعرض له.

خليفة، وقالت: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، وعلموا أنهم قد أذنبوا، لاذوا بالعرش واستغفروا الله سبعة آلاف عام، قال فبنى الله عز وجل لآدم (ع) بيتاً بحذاء العرش وأمره بالطواف حوله سبعة أشواط، لكل ألف سنة طافتها الملائكة شوط واحد.

وروي في السعي بين الصفا والمروة، أن إبراهيم (ع) لما خلّف إسماعيل وأمه بمكة ومضى عظش الصبي فخرجت أمه حتى قامت على الصفا، وكان بينه وبين المروة شجر، فقالت: هل بالوادي من أنيس؟ فلم يجبها أحد فمضت حتى انتهت إلى المروة فقالت: هل بالوادي من أنيس فلم تجب، ثم رجعت إلى الصفا، ففعلت ذلك سبع مرات، فجعل الله تعالى ذلك سنة من بعده.

وروي عن الصادق (ع) أنه كان يقول: ما من بقعةٍ أحب إلى الله تعالى من المسعى، لأنه يذل فيه كل جبار.

وقال: إن علة رمي الجمرات أن ابراهيم عليه السلام تراءى له إبليس عندها فأمره جبرائيل برميه بسبع حصيات، وأن يكبر مع كل حصاة، ففعل وجرت بذلك السنة.

فهذا بعض ما ذكر في علل الحج قد أوردته مما رواه علي بن حاتم القزويني وجمعه.

وأعلم- أيدك الله- أن هذه العلل المسطورة ليست بعلل موجبة وإنما منها ما هو على طريق التقريب كالتشبيه والتمثيل، ومنها ما وقع في الإبتداء فاقتضت المصلحة عند الله سبحانه أن يكون مستمراً جارياً، فصار المبتدأ سبباً لما بعده وكالعلة له.

ويدل على أنها ليست بعلل موجبة ما نعلمه من أنه قد كان يجوز نسخ هذه العبادة وورود الشرع بغيرها، فلو كانت عن علةٍ أوجبتها لم يكن يجوز نسخها بغيرها، وهذا واضح والحمد لله ولي كل نعمه، وصلواته على سيدنا محمدٍ نبيه وآله وسلم تسليماً.

فصل من كلام أمير المؤمنين (ع):

الفكرة مرآة صافية. والإعتبار منذر ناصح. من تفكر اعتبر. ومن اعتبر اعتزل، ومن اعتزل سلم. العَجَبَ ممن خاف العقاب فلم يكف، ورجا الثواب فلم يعمل. الإعتبار يقود إلى الرشاد.

كل قولٍ ليس لله فيه ذكر فلغو، وكل صمتٍ ليس فيه فكر فسهو، وكل نظرٍ ليس فيه اعتبار فلهو.

فصل:

حدثني القاضي أبو الحسن أسد بن إبراهيم السلمي الحراني، قال: أخبرني أبو حفص عمر بن علي العتكي، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن هارون الحنبلي، قال: حدثنا أحمد بن حازم بن عروة، قال: حدثنا جعفر بن عون عن عمر بن موسى البربري عن أبيه عن عطية العوفي عن سعيد قال: قال رسول الله (ص):

«لا يبغض علياً إلا فاسق أو منافق أو صاحب بدايع».

وأخبرني شيخنا المفيد أبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان رضي الله عنه قال: حدثنا أبو بكر محمد بن عمر الجعابي الحافظ، قال: حدثنا محمد بن سهل بن الحسن، قال: حدثنا أحمد بن عمر الدهقان، قال: حدثنا محمد بن كثير، قال: حدثنا اسماعيل بن مسلم، قال: حدثنا الأعمش عن عدي بن ثابت عن زر بن حبيش، قال: رأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) على المنبر وهو يقول:

«والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إنه لعهد النبي (ص) إلي، أنه لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق».[1]

وأخبرني شيخنا المفيد رضي الله عنه.

قال: أخبرني أبو عبد الله محمد بن عمر المرزباني، قال: حدثنا عبدالله بن محمد بن عبد العزيز البغوي، قال: حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري، قال:

---

(١) رواه النسائي في خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ص ٢٧. والسيوطي في تاريخ الخلفاء ص ١٧٠ رواه عن مسلم عن علي باختلاف يسير، ورواه ابن المغازلي في مناقبه بعدة طرق ص ١٩٠- ١٩٦ وهذا الحديث مروي بطرق عديدة، حتى أن القاضي أبا بكر محمد بن =

حدثنا جعفر بن سليان، قال: حدثنا النضر بن حميد عن أبي الجارود عن الحارث الهمداني، قال: رأيت علياً (ع) جاء حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال:

قضى قضاء الله عز وجل على لسان النبي الأمي (ص)، «ألا لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق، وقد خاب من افترى.»[1]

دليل النص بخبر الغدير على إمامة أمير المؤمنين (ع)

أعلم أنه مما يدل على أنه المنصوص بالإمامة عليه، ما نقله الخاص والعام من أن رسول الله (ص) لما رجع من حجة الوداع، نزل بغدير خم، ولم يكن منزلاً، أمر مناديه فنادى في الناس بالإجتماع، فلما اجتمعوا خطبهم ثم قررهم على ما جعله الله تعالى له عليهم من فرض طاعته، وتصرفهم بين أمره ونهيه بقوله:

«ألست أولى بكم منكم بأنفسكم.»

فلما أجابوه بالإعتراف، وأعلنوا بالإقرار، رفع بيد أمير المؤمنين (ع)، وقال عاطفاً على التقرير الذي تقدم به الكلام:

«فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، وأخذل من خذله»[2]

فجعل لأمير المؤمنين (ع) من الولاء في أعناق الأُمة مثل ما جعله الله له

= عمر الجعابي المتوفى سنة ٣٨٥هـ ألف كتاباً في طرق من روى هذا الحديث عن علي (ع) انظر: سفينة البحار م١ ص ١٥٧.

(١) المصدر نفسه دون قوله قضى قضاء الخ ودون قوله وقد خاب من افترى.

(٢) حديث الغدير من المتواتر معنى وقد رواه أكثر من ماية صحابي، وقد رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد في المسند، والرازي في التفسير وأبو نعيم في الحلية والسيوطي في الدر المنثور والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد والنسائي في الخصائص، وهو مروي أيضاً في كنز العمال ومستدرك الصحيحين والإصابة وأسد الغابة والإمامة والسياسة ومشكل الآثار، وفيض القدير ومجمع الزوائد والصواعق المحرقة: أنظر: (فضائل الخمسة ج١ ص٣٤٩- ٣٨٢) وفي الصواعق أنه حديث صحيح لا مرية فيه. وقد رواه ابن المغازلي في المناقب بعدة طرق انظر: ص ١٦ - ٢٧.

عليهم، مما أخذ به إقرارهم، لأن لفظه مولى يفيد ما تقدم من التقرير من ذكر الأولى، فوجب أن يريد بالكلام الثاني ما قررهم عليه في الأول، وأن يكون المعنى فيهما واحداً، حسبما يقتضيه استعمال أهل اللغة وعرفهم في خطابهم.

وهذا يوجب أن يكون أمير المؤمنين (ع) أولى بهم من أنفسهم، ولا يكون أولى بهم إلا وطاعته فرض عليهم، وأمره ونهيه نافذ فيهم. وهذه رتبة الإمام في الأنام قد وجبت بالنص لأمير المؤمنين (ع).

وأعلم- أيدك الله- أنك تسأل في هذا الدليل عن أربعة مواضع:

أحدها، أن يقال لك: ما حجتك على صحة الخبر في نفسه؟ فإنا ترى من يبطله.

وثانيها، أن يقال لك: ما الحجة على أن لفظة مولى يحتمل أولى، وأنها أحد أقسامها؟

وثالثها، إذا ثبت أنها أحد محتملاتها، فما الحجة على أن المراد بها في الخبر، الأولى دون ما سوى ذلك من أقسامها؟.

ورابعها: ما الحجة على أن الأولى هو الإمام، ومن أين يستفاد ذلك في الكلام؟؟

الجواب عن السؤال الأول.

أما الحجة على صحة خبر الغدير فما يطالب بها إلا متعنت، لظهوره وانتشاره، وحصول العلم لكل من سمع الأخبار به.

ولا فرق بين من قال ما الحجة على صحة خبر الغدير، وهذه حاله، وبين من قال: ما الحجة على أن النبي (ص) حج حجة الوداع، لأن ظهور الجميع وعموم العلم به بمنزلةٍ واحدة.

وبعد، فقد اختص هذا الخبر بما لم يشركه فيه سائر الأخبار، فمن ذلك، أن الشيعة نقلته وتواترت به.

وقد نقله أصحاب السير نقل المتواترين به، يحمله خلف عن سلف، وضمنه

جميعهم الكتب بغير إسناد معين، كما فعلوا في إيراد الوقائع الظاهرة والحوادث الكائنة، التي لا يحتاج في العلم بها إلى سماع الأسانيد المتصلة.

ألا ترى إلى وقعة بدر، حنين، وحرب الجمل وصفين، كيف لا يفتقر في العلم بصحة شيءٍ من ذلك إلى سماع إسناد ولا اعتبار أسماء الرجال، لظهوره المغني، وانتشاره الكافي، ونقل الناس له قرناً بعد قرنٍ بغير إسناد، حتى عمت المعرفة به واشترك الكل في ذكره.

وقد جرى خبر يوم الغدير هذا المجرى، واختلط في الذكر والنقل بما وصفنا، فلا حجة في صحته أوضح من هذا.

ومن ذلك أنه قد ورد أيضاً بالأسانيد المتصلة، ورواه أصحاب الحديثين[1] من الخاصة والعامة من طرق في الروايات كثيرة، فقد اجتمع فيه الحالان، وحصل له البيان.

ومن ذلك أن كافة العلماء قد تلقوه بالقبول، وتناولوه بالتسليم، فمن شيعي يحتج به في صحة النص بالإمامة، ومن ناصبي يتأوله ويجعله دليلاً على فضيلة ومنزلة جليلة.

ولم نر للمخالفين قولاً مجرداً في إبطاله، ولا وجدناهم قبل تأويله قد قدموا كلاماً في دفعه وإنكاره.

فيكون ذلك جارياً مجرى تأويل أخباره المشتبهة، ورواياتها بعد الإبانة عن بطلانها وفسادها، بل ابتدأوا بتأويله ابتداء من لا يجد حيلةً في دفعه، وتوفّره على تخريج الوجوه له لتوفّر من قد لزمه الإقرار به.

وقد كان إنكاره أروح لهم لو قدروا عليه، وجحده أسهل عليهم لو وجدوا سبيلاً إليه.

---

(١) الأولى: أصحاب الحديث.

فأما ما يحكى عن أبي داود السجستاني[1] من إنكاره له، وعن الجاحظ[2] من طعنه في كتاب العثمانية فيه فليس بقادح في الإجماع الحاصل على صحته، لأن القول الشاذ، لو أثَّرَ في الإجماع، وكذلك الرأي المستحدث لو أبطل مقدَّم الإتفاق، لم يصح الإحتجاج بالإجماع، ولا يثبت التعويل على اتفاق.

على أن السجستاني قد تنصل من نفي الخبر.

فأما الجاحظ فطريقته المشتهرة في تصنيفاته المختلفة، وأقواله المتضادة المتناقضة، وتأليفاته القبيحة في اللعب والخلاعة، وأنواع السخف والمجانة، الذي لا يرتضيه لنفسه ذو عقل وديانة، يمنع من الالتفات إلى ما يحكيه، وتوجب التهمة له فيما ينفرد به ويأتيه.

وأما الخوارج الذين هم أعظم الناس عدواةً لأمير المؤمنين (ع) فليس يحكي عنهم صادق دفعاً للخبر.

والظاهر من حالهم حملهم له على وجهٍ من التفضيل، ولم يزل القوم يقرون لأمير المؤمنين (ع) بالفضائل، ويسلمون له المناقب، وقد كانوا أنصاره وبعض أعوانه.

وإنما دخلت الشبهة عليهم بعد الحكمين، فزعموا أنه خرج عن جميع ما كان يستحقه من الفضائل بالتحكيم، وقد قال شاعرهم:

كان علي قبل تحكيمه جلدةً بين العين والحاجب

ولو لم يكن الخبر كالشمس وضوحاً لم يحتج به أمير المؤمنين (ع) يوم الشورى، حيث قال للقوم في ذلك المقام:

«أنشدكم الله، هل فيكم أحد أخذ رسول الله (ص) بيده فقال: «من كنت مولاه فهذا مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه» غيري؟!

---

(١) هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني أحد حفاظ أهل السنة صاحب كتاب السنن المشهور، سكن البصرة وتوفي بها سنة (٢٧٥هـ).

(٢) أبو عثمان عمر وبن بحر بن محبوب الجاحظ الليثي البصري الأديب المعتزلي المعروف مات بالبصرة سنة (٢٥٥هـ)، له مؤلفات كثيرة منها: البيان والتبيين.

فقالوا: اللهم، لا.

فأقر القوم به ولم ينكروه، واعترفوا بصحته ولم يجحدوه.

فإن قال قائل: فما باله لم يذكر في حال احتجاجه به تقرير رسول الله (ص) للناس على أنه أولى بهم منهم بأنفسهم، ولِمَ اقتصر على ما ذكر، وهو لا ينفع في الاستدلال عندكم ما لم يثبت التقرير المتقدم؟؟ وما جوابكم لمن قال إن المقدمة لم تصح وليس لها أصل. وقد سمعنا هذا الخبر ورد في بعض الروايات، وهو عارٍ منها، فما قولكم فيها؟

قيل له: إن خلو (مناشدة)[1] أمير المؤمنين (ع) من ذكر المقدمة لا يدل على نفيها أو الشك في صحتها، لأنه قررهم من بعض الخبر على ما يقتضي الإقرار بجميعه اختصاراً في كلامه، وغنى بمعرفتهم بالحال عن إيراده على كماله.[2]

وهذه عادة الناس فيما يقرون به.

وقد قررهم في ذلك المقام بخبر الطائر[3] فقال: أفيكم رجل قال له رسول الله (ص): «اللهم ابعث إلي بأحب خلقك يأكل معي» غيري.

ولم يذكر هذا الطائر، وكذلك لما قررهم بقول النبي عليه السلام فيه، حيث ندبه لفتح خيبر وذكر لهم بعض الكلام دون جميعه، اتكالاً منه على ظهوره بينهم واشتهاره.

فأما المتواترون بالخبر فلم يوردوه إلا على كماله، ولا سطروه في كتبهم إلا بالتقرير الذي في أوله.

---

(١) في النسخة: (إنشاء)

(٢) خبر مناشدة علي (ع) يوم الشورى رواه الطبري الإمامي في المسترشد ص ٥٧ - ٦٢. وتجده في المناقب لابن المغازلي ص ١١١ - ١١٨

(٣) حديث الطائر المشوي رواه أنس بن مالك، وهو أنه كان عند النبي (ص) طير فقال: اللهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي هذا الطائر فجاء علي (ع) فأكل معه». ورواه الترمذي في الصحيح. وهو مروي في مستدرك الصحيحين وحلية الأولياء، وتاريخ بغداد للخطيب وفي أسد الغابة وكنز العمال ومجمع الزوائد انظر (فضائل الخمسة ج ٢ ص ١٨٩، ١٩٥).
وقد روى حديث الطائر، ابن المغازلي في المناقب بطرق عديدة أنظر: المناقب ص ١٥٦ - ١٧٥.

وكذلك رواه معظم أصحاب الحديث الذاكرين الأسانيد، وإن كان منهم آحاد قد أغفلوا ذكر المقدمة، فيحتمل أن يكون ذلك تعويلاً منهم على العلم بالخبر، فذكروا بعضه، لأنه عندهم مشتهر، فإن الأصحاب كثيراً ما يقولون: فلان يروي عن رسول الله (ص) خبر كذا، ويذكرون بعض لفظ الخبر اختصاراً.

وفي الجملة فإن الآحاد المتفردون بنقل بعضه لا يعارض بهم المتواترين الناقلين لجميعه على كماله.

الجواب عن السؤال الثاني:

وأما الحجة على أن لفظة مولى يحتمل أولى، وأنها أحد أقسامها فليس يطالب بها أيضاً منصف كان له أدنى الإطلاع في اللغة وبعض الاختلاط بأهلها، لأن ذلك مستفيض بينهم، غير مختلف فيه عندهم، وجميعهم يطلقون القول فيمن كان أولى بشيء أنه مولاه.

وأنا أوضح لك أقسام مولى في اللسان لتعلمها على بيان.

أعلم أن لفظة مولى في اللغة تحتمل عشرة أقسام:

أولها، الأولى، وهو الأصل الذي يرجع إليه جميع الأقسام، قال الله تعالى:

« فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا، مأواكم النار، هي مولاكم وبئس المصير »[1]

يريد سبحانه هي أولى بكم على ما جاء في التفسير وذكره أهل اللغة. وقد فسره على هذا الوجه أبو عبيدة معمر بن المثنى[2] في كتابه المعروف بالمجاز في القرآن، ومنزلته في العلم بالعربية معروفة، وقد استشهد على صحة تأويله ببيت لبيد:

---

(١) سورة الحديد: ١٥.

(٢) هو معمر بن المثنى التيمي من تيم قريش مولى لهم ولد سنة ١١٤هـ وتوفي سنة ٢١٠/٢١١/٢٠٨/٢٠٩هـ قال أبو العباسي ثعلب كان أبو عبيدة يرى رأى الخوارج، عالماً بالأخبار والأدب له مؤلفات عديدة ذكرها ابن النديم في الفهرست ص ٧٩- ٨٠.

قعـــدت كـــلا الفرخـــين تحسب أنــه

مولى المخافـــــة خلفهـــــا وأمامهـــــا [1]

يريد أولى بالمخافة، ولم ينكر على أبي عبيدة أحد من أهل اللغة.

وثانيها، مالك الرق قال الله سبحانه:

« ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه »

النحل: ٧٥.

يريد مالكه، وهذا القسم بغنى عن الإطالة فيه

وثالثها المعتِق.

ورابعها المعتَق، وذلك أيضاً مشهور معلوم وخامسها، ابن العم، قال الشاعر:

مهـلاً بـني عمنـا مهلاً موالينـا لا تنشروا بيننـا ما كان مدفوناً

وسادسها الناصر، قال الله عز وجل:

« ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرون لا مولى لهم » سورة محمد: ١١

وسابعها، المتولي لضمان الجريرة ومن يحوز الميراث، قال الله عز وجل:

« ولكلٍ جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون، والذين عقدت ايمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان كل شيء شهيداً ». النساء: ٣٣

وقد أجمع المفسرون على أن المراد بالموالي ههنا من كان أملك بالميراث وأولى بحيازته، قال الأخطل: [2]

---

(١) هذا البيت من معلقة لبيد، التي أولها.

عفـت الديـار محلهـا فمقامهـا بمنـىً تـأبَّدَ غـولها فرجامهـا

(٢) هو أبو مالك غياث بن غوث التغلبي من شعراء الدولة الأموية البارزين كان نصرانياً ومات سنة (٩٢هـ).

فأصبحـــت مولاهـا من النـاس بعـده
وأحرى قريش أن تهـــاب وتحمـــدا[1]

وثامنها، الحليف
وتاسعها، الجار
وهذا القسمان أيضاً معروفان.

وعاشرها، الإمام السيد المطاع، وسيأتي في الجواب عن السؤال الرابع إن شاء الله تعالى.

فقد اتضح لك بهذا البيان ما يحتمله لفظة مولى من الأقسام. وأن أولى أحد محتملات معاني الكلام، بل هي الأصل، وإليها يرجع معنى كل قسم، لأن مالك الرق لما كان أولى بتدبير عبده من كان لذلك مولاه، والمعتق لما كان أولى بعتقه في تحمله لجريرته وألصق به من غيره كان مولاه، وابن العم لما كان أولى بالميراث ممن هو أبعد منه في نسبه وأولى أيضاً من الأجنبي بنصرة ابن عمه كان مولى. والناصر لما اختص بالنصرة وصار بها أولى كان لذلك مولى.

وإذا تأملت بقية الأقسام وجدتها جارية هذا المجرى، وعائدة بمعناها إلى الأَولى.

وهذا يشهد بفساد قول من زعم أنه متى أريد بمولى، أولى كان ذلك مجازاً. وكيف يكون مجازاً، وكل قسم من أقسام مولى عائد إلى معنى الأولى، وقد قال الفراء[2] في كتابه (معاني القرآن) أن الولي والمولى في كلام العرب واحد.

---

(١) وقبل هذا البيت قوله:
فما وجـدت فيهـا قريش لأمرهـا أعـف وأولى من أبيـك وأمجـدا
وأورى زنـاداً ولو كـان غـيره غداة اختلاف الناس أكدى وأصلدا

(٢) هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبدالله بن منظور الأسلمي الديلمي الكوفي؛ تلميذ الكسائي، من أئمة العربية، كانت له حظوة عند المؤمون العباسي، عهد إليه تعليم ولديه، توفي سنة ٢٠٧ هـ تجد ترجمته في الكنى والألقاب ج ٣ ص ١٤- ١٥ وفهرست ابن النديم ص٩٩.

الجواب عن السؤال الثالث

فأما الحجة على أن المراد بلفظة مولى في خبر الغدير، الأَولى فهي أن من عادة أهل اللسان في خطابهم إذا أوردوا جملة مصرحةً وعطفوا عليها بكلام محتمل لما تقدم به التصريح ولغيره فإنهم لا يريدون بالمحتمل إلا ما صرحوا به من الخطاب المتقدم.

مثال ذلك أن رجلاً لو أقبل على جماعة فقال: ألستم تعرفون عبدي فلاناً الحبشي، ثم وصف لهم أحد عبيده وميَّزه عنهم بنعتٍ يخصه صرح به، فإذا قالوا: بلى قال لهم عاطفاً على ما تقدم: فاشهدوا أن عبدي حر لوجه الله عز وجل، فإنه لا يجوز أن يريد بذلك إلا العبد الذي سماه وصرح بوصفه دون ما سواه.

ويجري هذا المجرى قوله: فاشهدوا أن عبدي حر لوجه الله عز وجل، ولو أراد غيره من عبيده لكان ملغزاً غير مبين في كلامه.

وإذا كان الأمر كما وصفناه وكان رسول الله (ص) لم يزل مجتهداً في البيان، غير مقصر فيه من الإمكان، وكان قد أتى في أول كلامه يوم الغدير بأمر صرح به وقَرَّر أُمته عليه، وهو أنه أولى بهم من أنفسهم على المعنى الذي قال الله تعالى في كتابه:

« النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » الأحزاب: ٦.
ثم عطف على ذلك بعدما ظهر من اعترافهم بقوله:
« فمن كنت مولاه فعلى مولاه مولاه ».

وكانت (مولاه) يحتمل ما صرح به في مقدمة كلامه ويحتمل غيره لم يجز أن يريد إلا ما صرح به في كلامه الذي قدم وأخذ اقرار أُمته به، دون سائر أقسام مولى، وكان هذا قائماً مقام قوله: فمن كنت أولى به من نفسه فعلي أولى به من نفسه، وحاشى لله أن لا يكون الرسول (ص) أراد هذا بعينه.

ووجه آخر

وهو أن قول النبي (ص): فمن كنت مولاه فعلي مولاه، لا يخلو من حالين: إما أن يكون أراد (بمولى) ما تقدم به التقرير من (الأَولى) أو يكون أراد قسماً غير ذلك من أحد محتملات (مولى)، فإن أراد الأول فهو ما ذهبنا إليه واعتمدنا عليه.

وإن أراد وجهاً غير ما قدمه من أحد محتملات مولى، فقد خاطب الناس بخطاب يحتمل خلاف مراده، ولم يكشف لهم فيه عن قصده، ولا في العقل دليل عليه يغني عن التصريح بمعنى ما نحال إليه وهذا لا يجيزه على رسول الله صلى الله عليه وآله إلا جاهل لا عقل له.

الجواب عن السؤال الرابع

وأما الحجة على أن لفظة (أولى) يفيد معنى الإمامة والرئاسة على الأُمة، فهو أنا نجد أهل اللغة لا يصفون بهذه اللفظة إلا من كان يملك تدبير ما وصف بأنه أولى به، وتصريفه وينفذ فيه أمره ونهيه.

ألا تراهم يقولون: إن السلطان أولى بإقامة الحدود من الرعية، والمولى أولى بعبده، والزوج أولى بامرأته، وولد الميت أُولى بميراثه من جميع أقاربه. وقصدهم بذلك ما ذكرناه دون غيره.

وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله سبحانه: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) أنه أولى بتدبيرهم والقيام بأمورهم، من حيث وجبت طاعته عليهم.

وليس يشك أحد من العقلاء في أن من كان أولى بتدبير الخلق وأمرهم ونهيهم من كل أحد منهم، فهو إمامهم المفترض طاعته عليهم.

ووجه أحسن

ومما يوضح أن النبي (ص) أراد أن يوجب لأمير المؤمنين (ع) بذلك منزلة الرئاسة والإمامة والتقدم على الكافة فيما يقتضيه فرض الطاعة، أنه قررهم بلفظ (أولى) على أمرٍ يستحقه عليهم من معناها، ويستوجبه من مقتضاها.

وقد ثبت أنه يستحق في كونه أولى بالخلق من أنفسهم أنه الرئيس عليهم،

والنافذ الأمر فيهم، والذي طاعته مفترضة على جميعهم، فوجب أن يستحق أمير المؤمنين (ع) مثل ذلك بعينه، لأنه جعل له مثل ما هو واجب له، فكأنه قال: من كنت أولى به من نفسه في كذا فعلي أولى به من نفسه فيه.

ووجه آخر

وهو أنا إذا أعتبرنا ما يحتمله لفظة مولى من الأقسام لم نر فيها ما يصح أن يكون من أراد النبي (ص) إلا ما اقتضاه الإمامة والرئاسة على الأنام.

وذلك أن أمير المؤمنين (ع) لم يكن مالكاً لرق كل من ملكِ رسول الله (ص) رقه، ولا معتقاً لكل من أعتقه، فيصح أن يكون أحد هذين القسمين المراد، ولا يصح أن يريد المعتق، لإستحالة هذا فيهما على كل حال.

ولا يجوز أن يريد ابن العم، والناصر، فيكون قد جمع الناس في ذلك المقام، ويقول لهم: من كنت ابن عمه فعلي ابن عمه، أو من كنت ناصره فعلي ناصره، لعلمهم ضرورةً لذلك قبل ذلك المقام.

ومن ذا الذي لم يعلم أن المسلمين كلهم أنصار من نصره النبي (ص)؟ فلا معنى لتخصيص أمير المؤمنين (ع) بذلك دون غيره.

ولا يجوز أن يريد ضمان الجرائر واستحقاق الميراث، للاتفاق على أن ذلك لم يكن واجباً في شيءٍ من الأزمان.

وكذلك لا يجوز أن يريد الحليف، لأن علياً (ع) لم يكن حليفاً لجميع حلفاء رسول الله (ص).

ولا يصح أيضاً أن يريد من كنت جاره فعلي جاره، لأن ذلك لا فائدة فيه، وليس هو أيضاً صحيحاً في كل حال.

فإذا بطل أن يكون مراده (ص) شيئاً من هذه الأقسام، لم يبق إلا أن يكون قصده ما كان حاصلاً له من تدبير الأنام وفرض الطاعة على الخاص والعام، وهذه هي رتبة الإمام. وفيما ذكرناه كفاية لذي الأفهام.

فصل وزيادة

فأما الذين ادّعوا أن رسول الله (ص) إنما قصد بما قاله في أمير المؤمنين (ع) يوم الغدير أن يؤكد ولاءه في الدين، ويجب نصرته على المسلمين، وأن ذلك على معنى قوله سبحانه:

«والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض» التوبة: ٧١.

وإن الذي أوردناه من البيان على أن لفظة مولى يجب أن يطابق معنى ما تقدم من التقرير في الكلام، وأنه لا يسوغ حملها على غير ما يقتضي الإمامة من الأقسام، يدل على بطلان ما ادّعوه في هذا الباب. ولم يكن أمير المؤمنين (ع) بخامل الذكر فيحتاج أن يقف في ذلك المقام، ويؤكد ولاءه على الناس، بل كان مشهوراً وفضائله ومناقبه وظهور علو رتبته وجلالته قاطعاً للعذر في العلم بحاله عند الخاص والعام.

على أن من ذهب في تأويل الخبر إلى معنى الولاء في الدين والنصرة، فقوله داخل في قول من حمله على الإمامة والرئاسة، لأن إمام العالمين تجب موالاته في الدين، ويتعين نصرته على كافة المسلمين. وليس من حمله على الموالاة في الدين والنصرة يدخل في قوله ما ذهبنا إليه من وجوب الإمامة، فكان المصير إلى قولنا أولى[1].

وأما الذين غلطوا فقالوا: إن السبب في ما قاله رسول الله (ص) في يوم الغدير، إنما هو كلام جرى بين أمير المؤمنين وزيد بن حارثة، فقال علي لزيد: تقول هذا وأنا مولاك، فقال له زيد: لست مولاي، إنما مولاي رسول الله (ص)، فوقف يوم الغدير فقال: (من كنت مولاه فعلي مولاه) إنكاراً على زيد، وإعلاماً له أن علياً مولاه.

فإنهم فضحهم العلم بأن زيداً قتل مع جعفر بن أبي طالب في أرض

(١) وذلك لأن النسبة بينهما عموم وخصوص من وجه والعموم في جانب من حمل الحديث على الولاء في الدين، والخصوص في جانب من حمله على الإمامة، وحمله على الثاني يشمل الأول لوجوب موالاة الإمام في الدين ونصرته، دون ما إذا حمل على المعنى الأول فلا يشمل الإمامة.

(مؤتـه) من بلاد الشام، قبل يوم غدير خم بمدةٍ طويلةٍ من الزمان، وغدير خم إنما كان قبل وفاة النبي (ص) بنحو ثمانين يوماً. وما حملهم على هذه الدعوى إلا عدم معرفتهم بالسير والأخبار.

ولما رأت الناصبة غلطها في هذه الدعوى رجعت عنها، وزعمت أن الكلام كان بين أمير المؤمنين (ع) وبين أسامة بن زيد. والذي قدمناه من الحجج يبطل ما زعموه، ويكذبهم فيما أدّعوه.

ويبطله أيضاً ما نقله الفريقان من أن عمر بن الخطاب، قام في يوم الغدير فقال: بخٍ بخٍ لك يا أبا الحسن، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمنٍ ومؤمنة.[1] ثم مدح حسان بن ثابت في الحال بالشعر المتضمن رئاسته وإمامته على الأنام، وتصويب النبي (ص) في ذلك:

ثم احتجاج أمير المؤمنين (ع) به يوم الشورى، فلو كان ما أدعاه المنتحلون حقاً لم يكن لإحتجاجه عليهم به معنى، وكان لهم أن يقولوا: أي فضل لك بهذا علينا، وإنما سببه كذا وكذا.

وقد احتج به أمير المؤمنين (ع) دفعات، واعتده في مناقبه الشراف، وكتب يفتخر به في جملة افتخاره إلى معاوية بن أبي سفيان في قوله:

وأوجب لي الولاء معاً عليكم خليلي يوم دوح غدير خم

وهذا الأمر لا لبس فيه.

وأما الذين اعتمدوا على أن خبر الغدير لو كان موجباً للإمامة لأوجبها لأمير المؤمنين (ع) في كل حال، إذ لم يخصصها النبي (ص) بحال دون حال، وقولهم أنه كان يجب أن يكون مستحقاً لذلك في حياة رسول الله (ص)، فإنهم جهلوا معنى الإستخلاف والعادة المعهودة في هذا الباب.

---

(١) بخ بخ: إسم فعل بمعنى هنيئاً، رواه بلفظ بخ بخ الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ج٨ ص٢٩٠، ورواه بلفظ هنيئاً كل من الإمام أحمد في المسند ج٤ ص٢٨١. والرازي في التفسير الكبير في تفسير قوله تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) وفيض القدير ج٢ ص٢١٧ انظر: (فضائل الخمسة ج١ ص٣٨٤- ٣٨٧).

وجوابنا أن نقول لهم: قد أوضحنا الحجة على أن النبي (ص) استخلف علياً(ع) في ذلك المقام، والعادة جارية فيمن يستخلف أن يخصص له الإستحقاق في الحال، والتصرف بعد الحال.

ألا ترون أن الإمام إذا نص على حال له يقوم بالأمر بعده، أن الأمر يجري في استحقاقه وتصرفه على ما ذكرناه.

ولو قلنا إن أمير المؤمنين (ع) يستحق بهذا النص التصرف والأمر والنهي في جميع الأوقات على العموم والاستيعاب، إلا ما استثناه الدليل. وقد استثنت الأدلة في زمان حياة رسول الله (ص) الذي لا يجوز أن يكون فيه متصرف في الأمة [غيره][1] ولا آمر ناهٍ لهم سواه، لكان هذا أيضاً من صحيح الجواب.

فإن قال الخصم: إذا جاز أن تخصصوا بذلك زماناً دون زمانٍ، فما أنكرتم أن يكون إنما يستحقها بعد عثمانٍ؟

قلنا له: إنا أنكرنا ذلك، من قبل ان القائلين بأنه استحقها بعد عثمان مجمعون على أنها لم تحصل له في ذلك بيوم الغدير ولا بغيره من وجوه النص عليه. وإنما حصلت له بالاختيار، وكل من أوجب له الإمامة بالنص أوجبها بعد رسول الله (ص) من غير تراخٍ في الزمان، والحمد لله.

حدثني القاضي أبو الحسن أسد بن إبراهيم السلمي الحراني رحمه الله، قال: أخبرني أبو حفص عمر بن علي العتكي، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن هارون الحنبلي، قال: حدثنا حسين بن الحكم، قال: حدثنا حسن بن حسين، قال: حدثنا أبو داود الطهوي عن عبد الأعلى الثعلبي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: قام علي (ع) خطيباً في الرحبة، وهو يقول:

«أُنشد الله امرءاً شهد رسول الله (ص) آخذاً يديَّ ورفعها إلى السماء، وهو يقول: يا معشر المسلمين ألست أولى بكم من أنفسكم، فلما قالوا: بلى، قال: فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والي من والاه، وعاد من عداه، وأنصر من

(١) في النسخة: أمره.

نصره، وأخذل من خذله ». إلا قام فشهد بها، فقام بضعة عشر بدرياً، فشهدوا بها. وكتم أقوام فدعا عليهم، فمنهم من برص، ومنهم من عمي، ومنهم مَن نزلت به بلية في الدنيا، فعرفوا بذلك حتى فارقوا الدنيا.[١].

ومما حفظ عن قيس بن سعد بن عبادة أنه كان يقول (وهو)[٢] بين يدي أمير المؤمنين صلوات الله عليه بصفين، ومعه الراية في قطعةٍ له، أولها:

قلت لما بغى العدو علينا ... حسبنا ربنا ونعم الوكيل
حسبنا ربنا الذي فتح البصر ... ة بالأمس والحديث يطول
وعلي إمامنا وإمام ... لسوانا أتى به التنزيل
يوم قال النبي من كنت ... مولاه فهذا مولاه خطب جليل
إنما قاله النبي على الأُمة ... حتم ما فيه قال وقيل.[٣]

فصل من الوصايا والإقرارات المبهمة العويصة[٤]

إذا أَوصى رجل باخراج شيء من ماله ولم يسم، كان الواجب إخراج السدس مما خلّفه. قال الله تبارك وتعالى:

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالةٍ من طين، ثم جعلناه نطفةً في قرارٍ مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضفة، فخلقنا المضفة عِظاماً، فكسونا

---

(١) تجده مروياً في مسند أحمد ج١ ص ١١٨ و١١٩ و٨٨ و٨٤ وج٥ ص٣٠٧ و٣٦٦ و٤١٩ وج٤ ص٣٧٠ وفي حلية الأولياء (ج) ٥ ص٢٦ وفي خصائص النسائي ص ٢٣ و٢٦ وفي كنز العمال ج٦ ص٣٩٧ و٤٠٣ وفي الإصابة ج١ قسم ١ ص٣١٩ و٢٩ و١٦٩ و١٨٢ و١٥٦ وفي أسد الغابة ج٥ ص٢٧٦ وج٣ ص٣٠٧ وغيرها، أنظر: (فضائل الخمسة ج١ ما بين ص ٣٤٩ وص٣٨٣) مع اختلاف في بعض ألفاظه.

(٢) في النسخة (فهو).

(٣) أنظر: الفصول المختارة ج٢ ص٧٩.

(٤) في النسخة: العريضة، وهي تصحيف العويصة.

العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين». المؤمنون: ١٢ - ١٤

فخلق الله سبحانه الإنسان من ستة أشياء، فالشيء واحد من ستة، وهو السدس.

وإذا أوصى باخراج جزءٍ من ماله ولم يسم، وجب إخراج سبع ماله، قال الله تعالى:

«لها سبعة أبواب، لكل بابٍ جزء مقسوم» الحجر: ٤٤

فالجزء واحد من سبعة، وهو السبع.

وإذا أوصى بسهمٍ من ماله ولم يسم، فالواجب إخراج الثمن، قال الله تعالى:

«إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل» التوبة: ٩٠

وهم ثمانية أصناف، لكل صنفٍ منهم سهم من الصدقات، فالسهم واحد من ثمانية وهو الثمن.

وإذا أوصى باخراج مالٍ كثير ولم يسم وجب أن تخرج من ماله ثمانون درهماً، قال الله تعالى:

«لقد نصركم الله في مواطن كثيرة» وكانت ثمانين موطناً. وإذا قال: كل عبدٍ لي قديم في ملكي فهو حر لوجه الله تعالى، فالواجب أن يعتق كل عبد في ملكه ستة أشهر فما زاد، قال الله سبحانه:

«والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم» س: ٣٩

وهو الذي مضى عليه ستة أشهر.

فإذا أوصى إلى رجل بدراهم، فقال: اعط زيداً نصفها، وعمراً ثلثها، وبكراً ربعها، فالواجب أن يعطي زيداً وعمراً ما سماه لهما، ويدفع ما بقي لبكر.

وإذا قال: عندي كذا دراهم ولم يبين، فقد أقر بعشرة دراهم، على ما يقتضيه اللسان.(١)

فإن قال: كذا درهماً، فعشرون درهماً.

فإن قال: كذا كذا درهمٍ، فعُشر عُشر درهم.

فإن قال: كذا كذا درهماً، فأحد عشر درهماً.

فإن قال: كذا وكذا درهماً فأحد وعشرون درهماً.

فإن قال: كذا وكذا كذا درهماً فماية وأحد عشر درهماً

فإن كان عارفاً بالعربية وقال: له عنوي ماية درهم غير ثلاثة دراهم بنصب (غير) فله سبعة وسبعون درهماً، لأنه استثنى من الماية ثلاثة.

فإن قال: له عندي ماية غير ثلاثة، برفع (غير)، فهي ماية كاملة، وإنما وصفها بأنها غير ثلاثة.

فإن قال: له ماية غير ثلاثة غير درهم، ونصب (غير) فيهما جميعاً، فقد أقر بثمانية وتسعين درهماً، لأنه استثنى من الماية ثلاثة فبقي سبعة وتسعون فلما استثنى مما استثناه درهماً علم أن المستثنى من الماية درهمان، فكأن الذي اعترف به ثمانية وتسعون درهماً.

فإن قال: له عندي ماية غيرَ ثلاثةٍ غير درهم، فنصب (غير) الأُولة وخفض الثانية، فقد أقر بسبعة وتسعين درهماً، لأنه لما نصب غير الأُولة كان قد

(١) وتفهم الإقرارات التي ذكرت من ملاحظة أمور:

١ - رقم العدد المشار إليه بكذا، فقد يكون مفرداً كقولك له كذا، وقد يكون مضافاً إلى عدد آخر كقولك: له كذا كذا، وقد يكون مركباً تركيباً مزجياً كقولك: له كذا كذا درهماً، وقد يكون معطوفاً كقولك: له كذا وكذا درهماً.

٢ - التمييز قد يكون مفرداً منصوباً كقولك: له كذا كذا درهماً، وقد يكون مجروراً بالإضافة كقولك: له كذا درهم، وقد يكون جمعاً منصوباً كقولك: له كذا وكذا دراهم، وقد يكون مجروراً نحو قولك: له كذا دراهم.

٣- ويؤخذ من هذه الإقرارات بالقدر المتيقن وهو أقل عددٍ محتمل فإذا قيل: له كذا دراهم فالمتيقن منه ثلاثة دراهم: وهكذا.

استثنى من الماية ثلاثة، فلما خفض غير الثانية وكان قد وصف الثلاثة بأنها غير درهم، فالاستثناء على حاله، والمال سبعة وتسعون درهماً.

وكذلك، لو قال: له عندي مائة غير ثلاثة غيرُ درهم، بنصب غير الأولة ورفع غير الثانية، فإن له عنده سبعة وتسعون درهماً، لأنه استثنى من الماية ثلاثة لما نصب غيراً، ثم وصف الماية بأنها غير درهم لما رفع غير الأخرى.

فإن هو أدخل الواو في الكلام عاطفاً بها، كان استثناءً معطوفاً على استثناء، والجميع يسقط من الأصل المذكور، كقوله: له عندي ماية غير خمسة وغير سبعة. فالخمسة والسبعة يسقطان من المائة، فيكون له عنده ثمانية وثمانون درهماً، فافهم ذلك.

مسألة

ذكرها شيخنا المفيد رضي الله عنه في كتاب الأشراف. رجل اجتمع عليه عشرون غُسلاً، فرض وسنة ومستحب، أجزأه عن جميعها غسل واحد.

جواب

هذا رجل احتلم، وأجنب نفسه بإنزال الماء، وجامع في الفرج، وغَسَّل ميتاً، ومسَّ آخر بعد برده بالموت قبل تغسيله، ودخل المدينة لزيارة رسول الله (ص)، وأراد زيارة الأئمة (ع) هناك. وأدرك فجر العيد، وكان يوم جمعة، وأراد قضاء غسل عرفة، وعزم على صلاة الحاجة، وأراد أن يقضي صلاة الكسوف، وكان عليه في يوم بعينه صلاة ركعتين بغسل، وأراد التوبة من كبيرة على ما جاء عن النبي (ص) وأراد صلاة الإستخارة، وحضرت صلاة الإستسقاه، ونظر إلى مصلوب، وقتل وزغة وقصد إلى المباهلة، وأهرق عليه ماءً غالب النجاسة.

فصل في ذكر هيئة العالم.

أعلم أن الأرض على هيئة الكرة، والهواء يحيط بها من كل جهة، والأفلاك تحيط بالجميع إحاطة استدارة، وهي طبقات بعضها يحيط ببعض. فمنها سبعة تختص بالنيرين والكواكب الخمسة التي تسمى المتحيرة والسيارة.

فالنيران هما الشمس والقمر

والخمسة هي: زحل، والمشتري، والمريخ، والزهرة، وعطارد.

ولكل واحدٍ منها فلك يختص به من هذه السبعة.

ففلك زحل أعلاها.

وفلك القمر أقربها من الأرض وأدناها.

وفلك الشمس في وسطها.

وتحت فلك زحل فيما بينه وبين فلك الشمس فلكان: فلك المشتري ثم فلك المريخ.

وفوق القمر فيما بينه وبين الشمس فلكان: فلك عطارد ثم فلك الزهرة.

ويحيط بهذه الأفلاك السبعة فلك الكواكب الثابتة، وهي جميع ما يرى في السماء غير ما ذكرنا.

ثم الفلك المحيط الأعظم المحرك جميع هذه الأفلاك.

ثم السموات السبع يحيط بالأفلاك، وهي مساكن الأملاك، ومن رفعه الله تعالى إلى سمائه من أنبيائه وحججه عليهم السلام وللجميع نهاية. والكل على شكل الكرة، ومركزها الأرض، ومركز الأرض نقطة في وسطها جميع أجزاء الأرض، معتمدة عليها، وهي مركز العالم كلها في الحقيقة.

ومن نهاية الأجسام الذي هو محيط الكرة إلى مركز الأرض متساوٍ من كل جهةٍ.

وقد قيل: إن العامر من الأرض هو ربع الكرة، والناس مستقرون على هذا الربع من كل جهةٍ، وإن كان بعضهم منخفضاً عن بعض بالإضافة. فكل منهم، الأرض تحته والسماء فوقه، وهو يرى أرضه التي هو عليها هي المستقيمة في الإعتدال دون غيرها.

وكل ما فارق السماء من أي جهةٍ كان منها وذهب إلى الأرض، فهو نازل إليها، وكل ما فارق الأرض من أي جهةٍ كان ذهب إلى السماء، فهو صاعد إليها. ولذلك لا تتحرك الأرض إلى إحدى الجهات، لأنها كيف ما تحركت

تكون صاعدة إلى السماء والأرض كالخردلة أو أصغر بالإضافة إلى عظم سعة الفلك.

والأفلاك لها حركات مختلفة، لكن محركها مع ذلك، الفلك المحيط بها حركة واحدة، يدور بها حول المركز في اليوم والليلة دورة واحدة.

والإنسان في أي موضع كان من الأرض يرى نصف الفلك، وقيل أنه يرى أكثر من النصف. وهذا يبيِّن أنه لا تأثير لقدر الأرض.

وإذا طلعت الشمس بضيائها على جهة من الأرض كان ذلك نهاراً لتلك الجهة، وإذا غربت من جهة من الأرض كان الليل في تلك الجهة. وهو ظل الأرض.

وليس النهار عاماً ولا الليل أيضاً عاماً، وهي تطلع على قوم قبل قوم، وتغرب عن قوم قبل قوم.

والجهة التي تطلع الشمس والكواكب منها هي المشرق، وريحها يقال (له) الصبا ،والجهة التي تغرب منها هي المغرب، ويقال لريحها الدبور[١].

وإذا توجه القائم إلى جهة المشرق كانت الجهة التي عن يمينه الجنوب، وريحها تسمى باسمها، والجهة التي عن شماله الشمال تسمى بإسمها.

وكل ريحٍ أتت بين جهتين فهي نكباء،[٢] وتسمى أيضاً النُعامَى[٣].

والمسكون من الأرض هو المائل إلى جهة الشمال، والربع الذي إلى جهة الجنوب غير مسكون، ويقال: إنه ليس به حيوان، ومنه يأتي النيل، ولذلك لا يصل أحد إلى مبتداه.

وبقية الأرض قد غطاها الماء المالح، وهو البحر الأعظم، الذي أطرافه يقال لها بحر المحيط. ومن هذا البحر خليجان داخلان إلى الربع العامر

---

(١) لأنها تهب من مغرب الشمس ومكان إدبارها، وهي تقابل الصبا.

(٢) وجمعها نكب.

(٣) في كفاية المتحفظ أنها الريح اليانية، وهي ريح الجنوب.

يتقاربان، فنهاية أحدهما الفرماءان[1]، ونهاية الآخر القلزم، وبينهما من المسافة قدر.

فصل: من الكلام في أن الله تعالى لا يجوز أن يكون له مكان

أعلم- أيدك الله- أن المكان عندنا هو ما أحاط بالمتمكن، فلما كان الله تعالى لا يجوز عليه ذلك، لأنه يقتضي حصره وتناهيه، عُلِم أنه لا يجوز أن يكون في مكان.

ومن خالفنا في حد المكان قال: إنه ما تمكن عليه وتصرف فيه. وهذا لا يجوز أيضاً على الله تعالى، لأن المتمكن معتمد ومماس أيضاً لمكانه، والإعتماد والمماسة من صفات المحدثين، والله تعالى قديم، فعُلِمَ أنه لا يكون في مكان.

وذو المكان أيضاً قد حصل له حيّزٍ فصار في جهةٍ دون جهةٍ، ولا يكون كذلك إلا جسم أو بعض جسم، وقد ثبت أن الله تعالى ليس بجسم ولا بعض جسم، فعُلِمَ بطلان المكان.

ثم إنه لو كان له مكان لم يخلُ مكانه من حالين: إما أن يكون قديماً أو محدثاً.

ولا يصح أن يكون قديماً، لمشاركته لله تعالى في القدم، وقد ثبت أنه لا قديم إلا هو وحده.

ولو كان المكان محدثاً، لكان الله سبحانه قبل إحداثه لا يخلو من قسمين: إما أن يكن محتاجاً إلى المكان أو مستغنياً عنه.

ولا يجوز أن يكون لم يزل محتاجاً إليه، لما في ذلك من صفة النقص الذي لا يكون للقديم.

وإن كان غنياً عنه قبل وجوده فلا يجوز أن يحتاج إليه بعد ذلك، لأن حاجته تخرجه عن قدمه، وتشابه بينه وبين خلقه، فوجب نفي المكان عنه.

---

(١) هكذا في النسخة.

فإن قيل: أليس من قولكم أن الله تعالى بكل مكان؟

قلنا: بلى، ومعنى ذلك أنه عالم بكل مكان وبما فيه، حافظ له. وهذا معروف في اللغة، يقول القائل لصاحبه: إني معك حيث كنت، وإني لا أغيب عنك، ويريد: لا أجهل ما تعمله، ولا يخفي عليَّ شيء منه. ويقال: إن الرجل في صلاته، وفي بناء داره. وليس المراد انه متمكن أو حالّ فيها، وإنما يريدون أنه يفعلها ويدبرها.

فإن قيل: أو ليس في القرآن، أن له عرشاً وكرسياً؟

قلنا: هو كذلك، والعرش المذكور في القرآن على وجهين: أحدهما قوله سبحانه: الرحمن على العرش استوى)[1].

وقد قال أهل العلم في ذلك: إن العرش هنا هو الملك، واستواؤه عليه هو استيلاؤه عليه بالقدرة والسلطان.

واستشهدوا في ذلك بشواهد، منها قول الشاعر في ذكر العرش وانه الملك:

إذا ما بنو مروان ثلث عروشهم

وأودوا كما أودت أياد وحمير[2]

ومنها قول الآخر في ذكر الاستواء وانه الإستيلاء:

إذا ما علونا واستوينا عليهمُ تركناهمُ مرعى لنسر وكاسر

يريد بذلك الإستيلاء والقدرة عليهم والتمكن لهم بالقهر لهم.

والآخر تفسير قوله سبحانه:

« ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية » الحاقة: ١٧.

فقد قال العلماء في ذلك: إن هذا العرش بنية « خلقها الله تعالى في سمائه، وأمر الملائكة بحملها، لا ليكون عليها تعالى الله عن ذلك، ولكن لما رآه من الصلاح في تعبدهم بحملها وتعظيمها، كما أنه سبحانه تَعَبَّد بني آدم بتعظيم الكعبة في الطواف حولها، وقال إنها بيته، لا ليسكنها تعالى الله عن ذلك.

---

(١) سورة طه: ٥

(٢) أياد وحمير قبيلتان من قبائل اليمن.

فأما الكرسي فالذي نذهب إليه فيه، أنه العلم. روي ذلك عن العالم الإمام الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام، قال:

«وسع كرسيه السموات والأرض»[1] يعني علمه.[2]

وقد روي أيضاً في التفسير من طريق العامة عن ابن عباس ومجاهد، والضحاك وغيرهم.

ومعنى الكلام دال عليه، وأول الآية تقتضيه، لأن الله تعالى أخبر عن علمه فقال: «يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسه السموات والأرض» البقرة: ٢٥٥.

فوصل ذكر الكرسي بذكر العلم على طريق الوصف له، والإبانة عنه. فكان كقوله في موضع آخر: «ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً».[3]

فإن قيل: ما معنى رفعكم أيديكم نحو السماء في الدعاء، وما معنى قوله سبحانه: «إليه يصعد العلم الطيب والعمل الصالح يرفعه» فاطر: ١٠.

قلنا: الجواب عن ذلك، انا إنما رفعنا أيدينا نسترزق من السماء، لقوله تعالى: وفي السماء رزقكم وما توعدون» الذاريات: ٢٢.

وإنما جاز أن يقال: إن الأعمال تصعد إلى الله تعالى، لأن الملائكة الكرام حفظة الأعمال مسكنهم السماء.

وأيضاً لأن السماء أشرف في الخلقة من الأرض، فلذلك تعرض الأعمال فيها على الله سبحانه، وبالتوجه إليها دُعيَ الله تعالى. وكل ذلك اتساع في الكلام، وليس فيه ما يوجب أن يكون الله سبحانه على الحقيقة في السماء.

ونحن نرى المسلمين يقولون للحجاج، هؤلاء زوار الله، وإنما هن زوار بيت الله.

فإن قيل: فكيف هو؟

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٥.

(٢) انظر: توحيد الصدوق ص ٣٤٠.

(٣) فاطر: ٧

فالجواب أن (كيف) استفهام عن حال، والله لا تناله الأحوال. والذي ساق إليه الدليل هو العلم بوجوده سبحانه، وأنه لا شبيه له.

جاء في الحديث أن أمير المؤمنين صلوات الله عليه، كان يقول إذا سبح الله تعالى ومجده:

«سبحانه من إذا تناهت العقول في وصفه كانت حائرة عن درك السبيل إليه، وتبارك من إذا غرقت الفطن في تكييفه لم يكن لها طريق إليه غير الدلالة عليه.

- فصل -

في ذكر العلم وأهله ووصف شرفه وفضله والحث عليه والأدب فيه.

قال الله عز وجل:

«إنما يخشى الله من عباده العلماء» فاطر: ٢٨.

وقال سبحانه:

«هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر اولو الالباب» الزمر: ٩.

وقال رسول الله (ص): طلب العلم فريضة على كل مسلمٍ ومسلمة.

وقال: العلم علمان: علم في القلب، فذلك العلم النافع، وعلم في اللسان فذلك حجة على العباد.

وقال: العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان.

وقال:

أربع تلزم كل ذي حجى من أُمتي.

ثيل: وما هن يا رسول الله؟

فقال: استماع العلم، وحفظه، والعمل به، ونشره.

وقال:

العلم خزائن، ومفتاحها السؤال. فسألوا يرحمكم الله، فإنه يؤجر فيه أربعة: السائل، والمجيب، والمستمع، والمحب لهم.

وقال: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين.

وقال: إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم، إتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسئلوا فافتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا.

وقال: من أراد في العلم رشداً فلم يزدد في الدنيا زهداً، لم يزدد من الله إلا بعدا.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع):

تعلموا العلم، فإن تعليمه حسنة، وطلبه عبادة، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه علم الحلال والحرام، وسبل منازل الجنة، والأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزينة عند الإخلاء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم للخير قادة وأئمة، تقتص آثارهم ويقتدي بفعالهم، وينتهي إلى رأيهم. ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطبٍ ويابس، لأن العلم حياة القلوب، ومصابيح الأبصار من الظُلَم، وقوة الأبدان من الضعف، ويبلغ بالعباد منازل الأخيار والدرجات العلى، وبه توصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابع له، يلهمه الله أنفس السعداء ويحرمه الأشقياء.[1].

وقال:

الكلمة من الحكمة يسمع بها الرجل فيقول أو يعمل بها خير من عبادة سنة.

وقال:

تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم، ولا تكونوا جبابرة العلماء.

وقال:

شكر العالم على علمه أن يبذله لمن يستحقه.

وقال:

لا راحة في العيش إلا لعالمٍ ناطق أو مستمع واعٍ.

---

(١) تجده في البحار ج ١ ص ١٦٦ كما رواه في ص ١٧١ عن أمالي الطوسي بسنده عن علي (ع) عن رسول الله (ص) بزيادة واختلاف يسير. رواه عن أمالي الصدوق بسنده المنتهي إلى ابن نباتة.

وقال:

أغدُ عالماً أو متعلماً، ولا تكن الثالث فتعطب.

وقال:

إن الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم رضىً بما يصنع.

وقال:

لو أن حملة العلم حملوه بحقه لأحبهم الله وملائكته وأهل طاعته من خلقه، ولكنهم حملوه لطلب الدنيا فمقتهم الله وهانوا على الناس.

وقال:

العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنحو للسان والنجوم لمعرفة الأزمان.

وقال الباقر (ع):

عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد.

وقال:

من أفتى الناس بغير علم ولا هدى، لعنته ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، ولحقه وزر من عمل بفتياه.

وقال الصادق (ع):

تفقهوا في دين الله ولا تكونوا أعراباً، فإنه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة، ولم يزكِّ له عملاً.

وقال:

العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق، لا تزيده سرعة السير إلا بعداً.

وقيل لبعض الحكماء: أيحس بالشيخ التعلم؟

فقال: إن كان الجهالة تقبح منه فإن التعلم يحسن منه.

وقيل له: متى يحسن له التعلم؟

فقال: ما حسنت به الحياة.

وقيل لبزرجمهر: العلم أفضل أم المال؟

فقال: العلم. قيل له: فما بالنا نرى العلماء على أبواب الأغنياء ولا نكاد نرى الأغنياء على أبواب العلماء؟

فقال: ذلك لمعرفة العلماء منفعة المال، وجهل الأغنياء بفضل العلم.

لبعضهم:

العلم زين وتشريف لصاحبه ... فاطلب - هديت - فنون العلم والأدبا

لا خير فيمن له أصل بلا أدبٍ ... حتى يكون على ما زانه حربا

كم من حسيبٍ أخي عيٍ وطمطمةٍ ... فدمٍ لدى القوم معروف إذا انتسبا

وخاملٍ مقرف الآباء ذي أدبٍ ... نال المعالي به والمال والنشبا

المقرف الذي تكون أمه كريمة وأبوه غير كريم.

يا طالب العلم نعم الشيء تطلبه ... لا تعدلنّ به ورقا ولا ذهبا

فالعلم ذكر وكنز لا يعادله ... نعم القرين إذا ما عاقلا صحبا

قال الزجاجي[1]:

الهجين الذي يكون أبوه كريماً وأمه غير كريمة

والقلنفس الذي يكون أبوه وأمه غير كريمين.

وقد تقدم ذكر المقرف.

وحدثوا عن ابن جريح[2] انه قال:

خرجت في السحر فإذا ورقة تضربها الرياح، فأخذتها فلما أضاء الصبح نظرت إليها فإذا فيها.

كن معسراً إن شئت أو موسراً ... لا بد في الدنيا من الهم

وكلما زادك من نعمة ... زاد الذي زادك في الغم

إني رأيت الناس في دهرنا ... لا يطلبون العلم للعلم

إلا مباراة لأصحابه ... وعدة للظلم والغشم

(١) هو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الصمري الأصل، البغدادي الإشتغال الشامي المسكن والخاتمة، أخذ عن أبي إسحاق ابراهيم بن السري بن سهل الزجاج النحوي حتى برع في النحو يقال له الزجاجي نسبة إلى استاذه الزجاج له مؤلفات توفي بطبرية سنة ٣٣٩ هـ.

(٢) لم أعثر له على ترجمة.

قال ابن جريح: فوالله لقد منعتني هذه الأبيات من أشياء كثيرة.

- مسألة -

إن سأل سائل فقال: ما وجه التكرار في سورة الكافرون ، وإعادة النفي فيها في جملة بعد جملة، وقد كان يغني ذلك مرة واحدة؟؟

الجواب

قد أجاب الناس عن هذه المسألة بعدة أجوبة:

ونحن نورد منها أحسنها وأكثرها فائدة.

وأحسنها ما تضمن المعاني المختلفة حتى يكون المستفاد من النفي في الجملة الأولى غير المستفاد من النفي في الجملة الثانية.

وبهذا يبطل التكرار، ويبقى للسائل بقية في السؤال.

فأعرب ما يجاب به فيها، أن لفظه (أعبد) تصلح في الكلام لشيئين مختلفين:

أحدهما أن يكون بمعنى أذل وأخضع وأخشع، وهذا من العبادة، وهو مستعمل معهود، لا يفتقر فيه إلى دليل.

وثانيهما أن يكون (أعبد) بمعنى أجحد، وهو من العبود الذي هو الجحود. وأهل اللغة يعرفون ذلك، يقول القائل: عبدني فلان حقي، يريد جحدني حقي، قال الشاعر:

فلو سألـــت قريشاً من يؤممهم   ما ميَّلوا ذاك عن قومي ولا عبدوا

يعني: ولا جحدوا.

وعلى هذا المعنى ما روي عن أحد الأئمة صلوات الله عليهم في تفسير قوله تعالى:

« قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » الزخرف: ٨١

---

(١) نجد الكلام على ذلك في كتاب الأمالي للمرتضى ج (١) ص ١٢٠- ١٢٣.

وأن معناه: فأنا أول الجاحدين، وذلك ان الدليل قد اتضح على أن من كان له ولد لا يكون إلا محدثاً، والمحدث لا يكون إلّهاً.

فقوله الله عز وجل في الجملة الأولى: (لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد)، إنما معناه: لا أذل ولا أخضع لأصنامكم التي تفعلون هذا لها، ولا أنتم فاعلوه أيضاً لالّهي الذي أنا فاعله له.

وقول جل اسمه في الجملة الثانية: «ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد» إنما معناه: ولا أنا جاحد لله تعالى الذي جحدتموه، ولا أنتم جاحدون للأصنام التي أنا جاحدها.

فقد تضمنت الجملتان فائدتين مختلفتين، وبان انتظام الكلام بغير تكرار.

جواب آخر:

وهو أن يكون المراد بلفظه (أعبد) في الجملة الأولى، الزمان الحاضر، فكأنه قال: لا أعبد الآن ما تعبدون، ولا أنتم عابدون الآن ما أعبد.

ويكون المراد بها في الجملة الثانية الزمان المستقبل، فكأنه قال: ولا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبد .

فلفظة أعبد على هذا الجواب، وإن كانت في الجملتين بمعنى واحد، وهو العبادة، فقد اختلفت بما يراد بها من الزمان المختلف، ولا شك في أن لفظة (أفعل) تصلح للزمانين الحاضر والمستقبل. وفي هذين الجوابين غني وكفاية، والحمد لله.

واعلم انه يجب أن يكون السؤال على هذا مختصاً بخطاب من المعلوم من حالة انه لا يؤمن.

وقد ذكر أنها نزلت في أبي جهل والمستهزئين، وهم العاص بن وائل، والوليد بن المغيرة، ولأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، وعدي بن قيس، ولم يؤمن منهم أحد.

فإن قال: فما معنى قوله في السورة: (لكم دينكم ولي ديني). وظاهر هذا الكلام يقتضي اباحتهم المقام على أديانهم؟؟

قلنا: إن ظاهر الكلام وإن كان ظاهر الإباحة، فإن المراد به الوعيد والمبالغة في الزجر والتهديد، كما قال تعالى (اعملوا ما شئتم). وقال «اجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد، وعدهم، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً».

وقد قيل: إن المعنى فيه، لكم جزاء دينكم، ولي جزاء ديني، فحذف الجزاء من اللفظ لدلالة الكلام عليه.

وقيل: إن الجزاء نفسه يسمى ديناً، قال الشاعر:

إذا مـــا لقونـــا لقيناهم ودناهم مثلما يقرضونـــا

أراد جزيْناهم، فيكون المعنى في قوله: (لكم دينكم ولي دين) أي لكم جزاؤكم، ولي جزائي.

- مسألة -

فإن قال السائل: فما وجه التكرار في سورة الرحمن، وإعادته مع كل آية: (فبأي آلاء ربكما تكذبان).

الجواب:

قلنا: إنما حسن هذا التكرار للتقرير بالنعم المختلفة، وتعديدها نعمة بعد نعمةٍ أنعم بها قرر عليهاووبّخ على التكذيب بها، كما يقول الرجل لغيره: ألم أُحسن إليك بأن خولتك المال، ألم أُحسن إليك بأن أمنتك من المكارة، ألم أُحسن إليك بأن فعلت كذا وكذا. فيحسن منه التكرار لإختلاف ما قرر به، وهذا كثير في الكلام، مستعمل بين الناس.

وهذا الجواب عن وجه التكرار في سورة المرسلات في قوله: (ويل يومئذ للمكذبين).

فإن قيل: إذا كان الذي حسن التكرار في سورة الرحمن ما عدده من الآلاء، فقد عدد في جملة ذلك ما ليس بنعمة، وهو قوله «يرسل عليكما شواظ

من نار ونحاس فلا تنتظران». وقوله تعالى «هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميمٍ آن». فكيف يحسن أن يقول بعد هذا، «فبأي آلاء ربكما تكذبان»؟؟

قلنا: الوجه في ذلك أن فعل العقاب وإن لم يكن نعمة، فذكره ووصفه والإنذار به من أكبر النعم، لأن في ذلك زجراً عما يستحق به العقاب، وبعثاً علىٰ ما يستوجب به الثواب.

وإنما أشار تعالى بقوله: «فبأي آلاء ربكما تكذبان» بعد ذكر جهنم والعذاب فيها إلى إنعامه بذكر وصفها والإنذار بها. والتخويف منها، ولا شك في أن هذا في النعم التي يجب الإعتراف بها والشكر عليها..[1].

كتاب البرهان على صحة طول عمر الإمام صاحب الزمان

ومما عملته كتاب البرهان على صحة طول عمر الإمام صاحب الزمان عليه وعلى آبائه أفضل السلام، وبيان جواز تطاول الأعمار.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ما هدى، وصلاته على من اصطفى سيدنا محمد ورسوله المجتبى، وآله أئمة الهدى.

ذكرت يا أخي- أيدك الله- أنك رأيت جماعة من المخالفين، يعتمدون في إنكار وجود صاحب الزمان صلى الله عليه، على ما يقتضيه تاريخ مولده، من تطاول عمره على القدر المعهود، ويقولون: إذا كان مولده عندكم في سنة خمسٍ وخمسين ومائتين، فله إلى سنتنا هذه، وهي سنة سبع وعشرين وأربعماية، مأتان واثنتان وسبعون سنة.

---

(١) نجد الكلام على تكرار الآية المذكورة في الأمالي ج (١) ص ١٢٣- ١٢٧.

ولسنا نرى الأعمار تتناهي إلى أكثر من مائة وعشرين سنة، بل لا نرى أحداً يلحق عمره هذا القدر اليوم.

ويزعمون أن هذه الزيادة على المائة والعشرين دلالة على بطلان ما نذهب إليه.

وسألت في إيراد كلامٍ عليهم يوهي عمدتهم ويبطل شبهتهم، ويكون أصلاً في يدك، يتمسك به المستند إليك.

وأنا مجيبك إلى ما سألت، وأبلغك منها ما طلبت بعون الله وحسن توفيقه.

اعلم، أولاً انه إذا وجبت الإمامة ووضحت الأدلة على اختصاصها بأئمتنا الأثني عشر (ع) دون جميع الأُمة، فلا منصرف عن القول بطول عمر إمامنا وصاحب زماننا (ص)، لأن الزمان لا يخلو من إمام، وقد مضى آباء صاحب الزمان بلا خلاف، ولم يبق من يستحق الإمامة سواه.

فإن لم يكن عمره ممتداً من وقت أبيه إلى أن يظهره الله سبحانه، حصل الزمان خالياً من إمام. وهذا دليل مبني على ما قدمناه.

وبعد ذلك فإنه لا يصلح أن يكلمك في طول عمره من لا يقر بشريعته.

فأما من أقرَّ بها، وأنكر تراخي الأعمار وطولها، فإن القرآن يخصمه بما تضمنه من الخبر عن طول عمر نوح عليه السلام، قال الله تعالى:

«فلبث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً..» العنكبوت: ١٤

ولا طريق إلى الإنصراف عن ظاهر القرآن إلا ببرهان.

وقد أجمع المسلمون على بقاء الخضر (ع) من قبل زمان موسى (ع) إلى الآن، وأن حياته متصلة إلى آخر الزمان، وما أجمع عليه المسلمون فلا سبيل إلى دفعه بحالٍ من الأحوال.

فإن قال الخصم: هذان نبيان، ويجوز أن يكون طول أعمارهما معجزاً لهما وكرامةً يميزان بها عن الأنام، ولا يصح أن يكون هذا العجز والإكرام إلا للأنبياء (ع).

فقل له: يفسد هذا عليك بما استقر عليه الإتفاق، من بقاء إبليس اللعين من عهد آدم (ع) وقبل ذاك إلى الآن، وأنه سيبقى إلى الوقت المعلوم كما نطق به القرآن، وليس ذلك معجزاً له ولا على سببل الإكرام.

وإذا اشترك الولي والعدو في طول العمر، علم أن السبب في ذلك غير ما ذكرت، وأنه لمصلحةٍ لا يعلمها إلا الله تعالى دون العباد.

فإن أنكر الخصم إبليس وبقاءه خرج عن ظاهر الشريعة ودفع إجماع الأئمة. وإن تأول ذلك طولب على صحة تأويله بالحجة.

ولو سلمت له طول العمر معجزاً للمعمر وإكراماً، ولم يذكر له إبليس وطول عمره على مر الأزمان، كان لك أن تقول: إن حكم الإمام عندنا كحكم النبي في الإحتجاج وجواز ظهور العجز والإكرام بما يتميز به عن الأنام، فليس بمنكر أن يطيل الله تعالى عمره على سبيل المعجز والإكرام.

وأعلم- أيدك الله- أن المخالفين لك في جواز امتداد الأعمار ممن يقرُّ بالإسلام لا يكلمونك إلا بكلام مستعاد.

فمنهم من ينطق بلسان الفلاسفة، فيقول: إن طول العمر من المستحيل في العقول الذي (لم) يثبت على جوازه دليل.

ومنهم من ينطق بلسان المنجمين، فيقول: إن الكواكب لا تعطي أحداً من العمر أكثر من مائة وعشرين سنة، ولهم هذيان طويل.

ومنهم من ينطق بلسان الأطباء وأصحاب الطبائع، فيقول: إن العمر الطبيعي هو مائة وعشرون سنة، فإذا انتهى الحي إليها فقد بلغ غاية ما يمكن فيه صحة الطباع وسلامتها، وليس بعد بلوغ غاية السلامة إلا ضدها.

وليس على يد أحدٍ منهم إلا الدعوى، ولا يستند إلا إلى العصبية والهوى، فإذا عضهم الحجاج رجعوا أجمعين إلى الشاهد المعتاد، فقالوا إنا لم نر أحداً تجاوز في العمر إلى هذا القدر، ولا طريق لنا إلى إثبات ما لم نر.

وهذا الذي جرت به العادة، والعادة أصح دلالةً.

وجميعهم خارجون عن حكم الملة، مخالفون لما اتفقت عليه الأُمة، ولما سلف

أيضاً من الشرائع المتقدمة، لأن أهل الملل كلها متفقون على جواز امتداد الأعمار وطولها، وقد تضمنت التوراة من الأخبار بذلك ما ليس بينهم فيه منازع.

وفيها أن آدم (ع) عاش تسعماية وثلاثين سنة.

وعاش شيث تسعماية واثنتي عشرة سنة.

وعاش أنوش تسعماية وخمساً وستين سنة.

وعاش قينان تسعماية سنة وعشر سنين.

وعاش مهلائيل ثمانماية وخمساً وتسعين سنة.

وعاش برد تسعماية واثنين وستين سنة.

وعاش اخنوخ وهو إدريس.تسعماية وخمساً وستين سنة.

وعاش متوشلح تسعماية وتسعاً وستين سنة.

وعاش ملك سبعماية وسبعاً وستين سنة.

وعاش نوح تسعماية وخمسين سنة.

وعاش سام ستماية سنة.

وعاش أرفخشاد أربعماية وثماني وتسعين سنة.

وعاش شالخ أربعماية وثلاثاً وتعسين سنة.

وعاش غابر ثمانماية وسبعين سنة.

وعاش فالخ مأتين وتسعاً وتسعين سنة.

وعاش ارغو مأتين وستين سنة.

وعاش باحور ماية وستاً وأربعين سنة.

وعاش تارخ مأتين وثمانين سنة.

وعاش إبراهيم ماية وخمساً وسبعين سنة.

وعاش إسماعيل ماية وسبعاً وثلاثين سنة.

وعاش اسحاق ماية وثمانين سنة.

فهذا ما تضمنته التوراة مما ليس بين اليهود والنصاري اختلاف.

وقد تضمنت نظيرة شريعة الإسلام، ولم نجد أحداً من علماء المسلمين يخالفه

أو يعتقد فيه البطلان، بل أجمعوا من جواز طول الأعمار على ما ذكرناه.

والمستدل يعلم جواز ذلك في العقل إذا أنعم الإستدلال، والاخبار قد تناصرت في قومٍ عمروا في قريب الزمان، سوف أذكر جماعة منهم، ليتأكد البيان، وليس المنازعة لنا بعد ذلك من ذي بصيرة وعرفان.

فإن قال قائل: إن الأعمار قد كانت يتطاول في سالف الدهر، ثم تناقضت عصراً بعد عصرٍ حتى انتهت إلى ما نراه مما لا يجوز اليوم سواه.

قيل له: إن العاقل يعلم أن الزمان لا تأثير له في الأعمار، وأن زيادتها ونقصانها من فعل قادر مختار يغيّرها في الأوقات بحسب مما يراه من الصلاح.

ولسنا ننكر أن الله سبحانه قد أجرى اليوم بأقدار متقاربة في الأعمار، يخالف ما كان في متقدم الزمان، غير أن هذا لا يحيل طول عمر بعض الناس، إذا كان ذلك ممكناً من القادر المعطي للأعمار.

وقد ذكرنا أن الأخبار قد أتت بذكر المعمرّين، كانوا في قريب الزمان، فلا طريق إلى دفع ما ذكرناه مع هذا الإيضاح.

وأما الذين استعاروا كلام الفلاسفة من المخالفين لنا في هذه المسألة، وقولهم في العمر من المستحيل في العقول، فإنهم لم يُعَوِّلوا في العلم بذلك على ضرورة يشاركهم العقلاء فيها. وإذا عدموا الضرورة فلا بد من حجةٍ عقلية يطالبون بإيرادها، ولا حجة معهم ينطقون بها، ولا عمدة لهم أكثر من الهوىٰ والرجوع إلى ما يشاهد ويرى. والهوى مضلة، والإنكار لما لم يشاهد مزلة. وليس من موحد ولا ملحد إلا وهو يثبت ما لا يرى ويقر بما لم يشاهد.

فالموحِّد يقر بالله والملائكة وطول أعمارها، ولم نر شيئاً منها، (...)[1].

والملحدة قد تقر بوجود جواهر بسيطة لا تجوز عليها الرؤية، وتَدَّعي أيضاً وجود عقل (...)[2] لم ترها، ولا رأت (...)[3] فضلا عنها.

---

(١) و (٢) و(٣) في هذه الفراغات كلمات غير واضحة.

وكل فرقةٍ تَدَّعي وجود أشياء لم تُرَ. فمن زعم أنه لا يثبت إلا ما شاهد ورأى فقد أفسد على نفسه من مذهبه.

وهؤلاء في العمرو لا يدرون ما هو. والعمر هو اتصال كون الحي المحدود حياً. فهذا الإتصال إنما يكون بدوام الحياة، والحياة فعل الله تعالى. فليس يستحيل منه إدامتها، وكل ما جاز أن يفعله الله تعالى من طول العمر، فإنه يجوز أن يفعل مثله في دوام الصحة والقوة وعدم الضعف والهرم.

وأما الذين استعاروا كلام المنجمين من المنازعين لنا في جواز طول العمر، فإنهم يعتمدون الظنون دون اليقين.

والعقلاء يعلمون أن أُصول المنجمين في الأحكام لا يثبت بالنظر والدليل، وبينهم من التحارب فيها والإختلاف ما لا يخفى على المتأمل.

إني وجدت في كتاب أحد علمائهم، وهو الكتاب المعروف بابا لابن هبلى(١) في حكايةٍ ذكرها عن معلمهم المقدم واستاذهم المفضل الذي يعولون (عليه) في الأحكام، ويستندون إلى كلامه وما يدّعيه، وهو المعروف (بما شاء الله)(٢) أنا موردها، ففيها أكبر حجة عليهم في هذه المسألة التي خالفونا فيها.

قال ما شاء الله:

الباب الأعظم من الهيلاج الذي يدل على العمر الكثير فإنه يكون المولود

---

(١) هو على الظاهر تحريف عن ابن هبتني أو هبنته، وهو منجم نصراني عاش في بغداد وألف كتاباً في التنجيم أسماه المغني بعد سنة ٣٣٠هـ- ٩٤١م، وكان الجزء التاني مىه لا يزال محفوظاً في مكتبة مونبخ، وذكره حاجي خليفة في كشف الظنون مع اسم ابن هبنتة محرفاً انظر (دائرة المعارف اللبنانية. ج ٧ ص ١١٧).

(٢) هو منجم يهودي واسمه ميشى بن أبرى، كان فى زمن المنصور وعاش إلى أيام المأمون، وكان أوحد أهل زمانه في الاخبار بأمور الحدثان وله سهم قوي في سهم الغيب ،لقيه سفيان الثوري فقال له: أنت تخاف زحل وأنا أخاف رب زحل، وأنت ترجوا المشتري وأنا أرجو رب المشتري، وأنت تغدو بالإستشارة وأنا أغدو بالإستخارة فكم بيننا، فقال له ما شاء الله: كثير ما بيننا، حالك أرجى وأمرك أنجح وأحجى. له عدة مؤلفات أنظر (اخبار الحكماء ص ٢١٤).

في مثلثةٍ إلى مثلثةٍ وطالعه ثبوت أحد الكوكبين العلويين: زحل والمشتري، وصاحب الطالع الكذخذاه، فإن كان المولود ليلياً، والهيلاج القمر، فإن كان فوق الشمس في برجٍ، انثى، وإن كان نهارياً فيكون الشمس في برجٍ ذكر، فإنه حينئذٍ يدل على بقاء المولود بإذن الله تعالى حتى يتحول القران عن مثلثةٍ إلى أخرى، وذلك مائتان وأربعون سنة.

فأما في الزمن الأول فإن مثل هذه الدلالة كانت تدل على بقائه حتى يعود القران إلى مكانه، وذلك بعد تسعماية وخمسين سنة. والله أعلم».

فما يقولون في كلام عالمهم (ما شاء الله)، وقد أوضح بتخصيصه في الدلالة الزمن الأول بتسعماية وخمسين سنة، أن مراده بالمأتين والأربعين من هذا الزمان، وهو شاهد لنا على هؤلاء المعاندين المنكرين للحق الواضح البرهان.

وأما الذين اعتمدوا بكلام الأطباء وأصحاب الطبائع من قولهم: ان غاية العمر (في) الطبيعة ماية وعشرون سنة، فإنهم لم يعتمدوا على حجة، ولا تشبثوا بشبهةٍ، وليس في أيديهم أكثر من دعواهم، تبين لك بطلان مقالتهم، أن الطبائع أعراض، والأعراض لا يصح منها في الحقيقة أفعال، وإنما يفعل القادر المختار. والطبائع أيضاً فعل الله تعالى، وهو الذي ارتكبها في الإنسان. فكما جاز منه أن يجعلها كلها صحيحة معتدلة مدة من الزمان، فهو قادر على أن يجعلها كذلك أضعاف تلك المدة، فيطول عمر الإنسان، وليس يستحيل ذلك في عقل ذي بصيرة وعرفان.

وأما المعتمدون في ذلك على العادات، فإنه (لا) حجة في أيديهم من قِبَل أن العادات قد تختلف بإختلاف الأوقات وباختلاف الناس أيضاً والاصقاع.

وقد سمعت من جماعة من الناس أن بلاد السند من البلاد (التي) تطول فيها الأعمار.

ورأيت بالرملة في جمادي الاخرة من سنة اثنتي عشرة وأربعماية شريفاً من أهل السند يعرف بأبي القاسم عيسى بن علي العُمري من ولد عمر ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، وسألته عن ذلك؟ فقال لي هو صحيح.

وذكر أن الهرم عندهم قليل، وحدثني أن ببلاد السند عندهم رجلاً شريفاً عمرياً، وهو أمير من أمرائهم، انه عاش (مذ) أن فارقه مايةً وستين سنة.

قال: وهذا الشريف هو العباس بن علي بن عمر بن أحمد بن حمزة بن جعفر ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب (ع).

وليس يشك العاقل في أن العادات بيد الله تعالى، وانه يصح منه تغييرها على التدريج (أو) خرقها. وقد تناثرت الأخبار القاطعة للأعذار بحال المعمرّين الذين كانوا فيما بَعُدَ وقرُبَ من الناس، وروى حديثهم وأشعارهم ومبلغ أعمارهم وأخبارهم أصحاب السير والآثار، حتى جرى ذلك مجرى ما تعلق من الحوادث في الأزمان والوقائع وأخبار البلدان، واشترك في العلم العلماء، وحصل المنكر له كالمنكر لما سواه مما تواترت به الأخبار، وقبح في مثله الانكار، ولو اقتصر المستدل في جواز طول العمر على هذا الوجه لأغناه من الإطالة والإكثار.

- أخبار المعمرين-

فمن المعمرين الخضر (ع) المتصل بقاؤه إلى آخر الزمان، ومما جاء من حديثه أن آدم (ع) لما حضره الموت جمع بينه فقال:

يا بنيَّ إن الله تبارك وتعالى منزل على أهل الأرض عذاباً، فليكن جسدي معكم في المغارة، فإذا هبطتم فابعثوا بي فادفنوني بأرض الشام، فكان جسده معهم، فلما بعث الله نوحاً (ع) ضم ذلك الجسد، وأرسل الله تعالى الطوفان على الأرض فغرقت الأرض زماناً، فجاء نوح حتى نزل ببابل، وأوصى بينه الثلاثة، وهم سام ويافث وحام، أن يذهبوا بجسده إلى المكان الذي أمرهم أن يدفنوه فيه: فقالوا: الأرض موحشة، لا أنيس بها، ولا نهتدي الطريق، ولكن نكف حتى يأمن الناس ويكثروا وتأنس البلاد وتجف، فقال لهم: إن آدم (ع) قد دعا الله تعالى أن يطيل عمر الذي يدفنه إلى يوم القيامة، فظل جسد آدم (ع) حتى كان الخضر هو الذي تولى دفنه، وأنجز الله تعالى ما وعده وإلى ما شاء الله أن يحيي.

وهذا حديث قد رواه مشائخ الدين وثقات المسلمين.

و(لقمان بن عاد) الكبير أطول الناس عمراً بعد الخضر (ع). وذلك أنه عاش ألفاً وخمسماية سنة.

ويقال: انه عاش عمر سبعة أنسر، وأنه كان يأخذ فرخ النسر الذكر فيجعله في الجبل، فيعيش النسر ما عاش، فإذا مات أخذ آخر فرباه، حتى كان آخرها لُبَد، وكان أطولها عمراً، فقيل: طال الأبد على لبذ. ولما رأى هلاكه قال: يا لبد، اهلكتني نفسك،.

وفيه يقول الأعشى[1].

لنفسك أن تختـــار سبعـــة أنسرٍ
إذا مـــا مضى نسر خلوت إلى نسر
فعمّر حـــتى خـــال أن نسوره
خلود، وهل تبقى النفوس على الدهر
وقـــال لأدناهن إذ حـــلَّ ريشهِ
هلكت وأهلكت ابن عاد وما تدري

وهو الذي أراده القائل بقوله:[2]

أخنى عليها الذي أخنى على لبد.[3]

ومنهم ربيع[4] بن ضبع بن وهب بن بغيض بن مالك بن سعد بن عبس بن قزارة، عاش ثلاثماية سنة وأربعين سنة، وأدرك النبي (ص) ولم يسلم، وهو الذي يقول:

---

(١) مرت ترجمته.
(٢) هو النابغة الذبياني.
(٣) أوله:
اضحت خلاءً وأضحى أهلها احتملوا — أخنى عليها الذي أخنى على لبد
(٤) تجد أخباره وشعره في أمالي المرتضى ج ١ ص ٢٥٣ وما بعدها.

ألا أبلغ بنيَّ بني ربيع　　وأشرار البنين لكم فداء
بأني قد كبرت ودق عظمي　　فلا يشغلكم عني النساء
وإن كنائني لنساء صدقٍ　　ولا أليَّ[1] بنيَّ ولا أساؤوا
إذا جاء الشتاء فادفنوني　　فإن الشيخ يهدمه الشتاء
وأما حين يذهب كل قرٍ　　فسر بال خفيف أو رداء
إذا عاش الفتى مأتين عاماً　　فقد ذهب اللذادة والفتاء

وهو القائل:

أصبح مني الشباب قد حسرا
إن ينأ عني فقد ثوى عصرا

الأبيات[3]

ومنهم المستوغر[1] بن ربيعة بن كعب، عاش ثلاثماية سنة وثلاثاً وثلاثين سنة، وهو الذي يقول:

ولقد سئمت من الحياة وطولها　　وعُمرّت من بعد السنين مئينا
مأة أتت من بعدها مأتان لي
وعمرت وأزددت من بعد الشهور سنينا[2]

ومنهم أكثم بن صفي الأسدي التميمي، وكان حكيماً مقدماً، ولم تكن العرب تفضل عليه أحداً، عاش ثلاثماية سنة وثلاثين سنة، وهو الذي يقول:

وإن امرءاً قد عاش تسعين حجةً
إلى مايـة لم يسأم العيش جاهل

---

(١) بتشديد اللام وهي بمعنى قصّر وهي بالتخفيف قصّر أيضاً:
(٢) تجد الابيات في الأمالي ج (١) ص ٢٥٥- ٢٥٦ وهي سبعة أبيات.
(٣) انظر: سيرة ابن هشام ج ١ ص ٩٣ وتجد أخبار المعمرين في إكمال الدين ج ٢ ص ٢٤٦- ٢٦٦ وفي غيبة الطوسي ص ٨٥- ٩٤ وأمالي المرتضى ج ١ ص ٢٣٣ وما بعدها من الصفحات.
(٤) وبعد البيتين كما في الأمالي للمرتضى هذا البيت:
هل ما بقي إلا كما قد فاتنا　　يوم يكر وليلة تحدونا

خلـت ماتـان بعـد عشر وفازهـا[1]
وذلـك من عـد الليـالي قلائـل

وكان ممن أدرك الإسلام وآمن بالنبي (ص)، ومات قبل أن يراه، وله أحاديث كثيرة، وحكم مأثورة.

فما روي من حديثه أنه لما سمع برسول الله (ص)، بعث إليه بابنه، وأوصاه بوصية حسنة. وكتب معه كتاباً يقول فيه:

باسمك اللهم، من العبد إلى العبد، فإنا بلغنا ما بلغك، فقد أتانا عنك خبر ما ندري ما أصله، فإن كنت أُريت فأرنا، وإن كنت عُلِّمت فعلّمنا، وأشركنا في كنزك والسلام.

فكتب إليه رسول الله (ص):

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى أكتم بن صفي أحمد الله إليك، إن الله أمرني أن أقول لا إله إلا الله، أقولها وآمر الناس بها، الخلق خلق الله، والأمر كله لله، خلقهم وأماتهم، وهو ينشرهم، وإليه المصير، آذنتكم بآداب المرسلين، ولتسئلنّ عن النبأ العظيم، ولتعلمنّ نبأه بعد حين.

فلما وصل كتاب رسول الله (ص) إليه، جمع بني تميم، ووعظهم وحثهم على السير معه إليه، وعَرَّفهم وجوب ذلك عليهم، فلم يجيبوه. وعند ذلك سار إلى رسول الله (ص) وحده، ولم يتبعه غير بنيه وبني بنيه، فمات قبل أن يصل إليه.

وهو أكتم بن صيفي بن رياح بن (الحرث) بن مجاشر بن شريف (بن) جروة بن اسد بن عمرو بن تميم بن مرة.

---

(١) كذا في السحة وقد تكون الكلمة: فابها، والخطأ من الناسخ. وفي غيبة الطوسي ص ٨٧ هكذا: خلت مأتان غير ستٍ وأربع ومثله في إكمال الدين ص ٥٣٠.

ومنهم صيفي بن رياح بن أكثم المذكور، عاش مأتي سنة وسبعين سنة، ولا ينكر من عقله شيء.

وزعم بعض الرواة أنه ذو الحلم الذي قال له المتلمس اليشكري:

لذي الحلم قبل [اليوم][1] ما تقرع العصا
وما علم الإنسان الا ليعلما

ومنهم صبيرة بن سعيد بن سهم بن عمرو، عاش مأتي سنة وعشرين سنة، ولم يشب قط، وأدرك ولم يسلم.

روى أبو حاتم والرياشي عن العتبي عن أبيه، قال: مات صبيرة السهمي وله ماتا سنة وعشرون سنة، وكان أسود الشعر، صحيح الأسنان، فرثاه ابن عمه قيس بن عدي فقال:

من يأمن الحدثان بعـ ـد صبيرة السهمي ماتا
سبقت منيته المشيب وكان ميتته افتلاتا
فتزودوا لا تهلكوا من بين أهلكم خفاتا

ومنهم دويد[2] بن زيد بن نهد القضاعي، عاش أربعماية ستة وستاً وخمسين، فلما حضره الموت قال:

ألقى علي الدهر رجلاً ويدا والدهر ما أصلح يوماً أفسدا
يفسد ما أصلحه اليوم غدا

وقال أيضاً:

يا رُب نهب صالح حويته واليوم يكفي لدريد بيته
ورب قرن [بطل][3] أرديته ورب عبل خشن لديته
لو كان للدهر بلىً أبليته أو كان قرني واحداً كفيته

---

(١) التصحيح عن غيبة الطوسي ص ٨٧.

(٢) تجد أخباره في أمالي المرتضى ج (١) ص ٢٣٦- ٢٣٧.

(٣) التصحيح عن أمالي المرتضى ج ١ ص ٢٣٧.

ومنهم دريد بن الصمة الجشمي، عاش دهراً طويلاً وسقط حاجباه على عينيه.

وقيل: إنه لم يتجاوز مأتي سنة، وأدرك الإسلام فلم يسلم، وشهد يوم حنين (مع) هوازن، وقتل بها، وهو القائل لما كبر:

فإن يك رأسي كالنعامة نسله
يطيف (بي) الولدان أحدث(...)
رهينة قعر البيت كل عشية
كأني أرقى أو أصوب في المهد
فمن بعد فضلٍ من شبابٍ وقوة
وشعر أثيت حالك اللون مسود

ومنهم عمرو بن حُممة الدوسي، عاش أربعماية سنة، وهو الذي يقول:

كبرت فطال العمر حتى كأنني سليم أفاع ليله غير مودع
فما الموت أفناني ولكن تتابعت عليَّ سنونٌ من مصيف ومربع
ثلاث مئين قد مررن كواملاً وها أنا هذا ارتجي مر أربع
فأصبحت مثل النسر حل جناحه إذا هم تطياراً يقال له: قع

قال أبو روق: حدثنا الرياشي عن عمرو بن بكير عن الهيثم بن عدي عن مجالد بن الشعبي قال: كنا عند ابن عباس في قبة زمزم، وهو يفتي الناس، فقام إليه رجل فقال له: أفتيت أهل الفتوى، فأفت أهل الشعر، قال: قل، قال: ما معنى قول الشاعر:

لذى الحلم قبل اليوم ما يقرع العصا
وما علم الإنسان إلا ليعلما

فقال: ذاك عمرو بن حممة الدوسي قضى على العرب ثلاثماية سنة، فلما ألزموه، وقد رأى السادس أو السابع من ولد ولده، قال: إن فؤادي بضعة مني، فربما تغير علي اليوم والليلة مراراً، وأمثل ما أكون فيها في صدر النهار،

فإذا رأيتني قد تغيرت فاقرع العصا، فكان إذا رأى منه تغيراً أقرع العصا فيراجعه فهمه، فقال المتلمس[١]:

لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا
وما علم الإنسان إلا ليعلما

ومنهم زهير بن جناب بن عبد الله بن كنانة بن عوف القضاعي،[٢] عاش أربعماية سنة وعشرين سنة[٣]، وكان سيداً مطاعاً شريفاً في قومه، وكان يقال: إنه كانت له عشر خصال لم يجتمعن في غيره عن أهل زمانه، كان سيد قومه، وخطيبهم، وشاعرهم، وحكيمهم، ووافدهم إلى الملوك، وطبيبهم- والطب في ذلك الوقت شرف- وكاهن قومه، وفارسهم، وله البيت فيهم، وله العدد منهم.

ومنهم الحرث بن مضاض الجرهمي... إسماعيل (ع)، من ولد جرهم الأكبر، وجرهم بن قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، وهو القائل:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى، نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالي والجدود العواثر

وهي قصيدة طويلة قد رواها الناس.

ومنهم عامر بن الظرب العدواني،[٤] عاش مأتي سنة، وكان من حكماء العرب، وفيه يقول ذو ذو الأصبع العدواني:

ومنا حَكَمٌ يقضي ... فلا ينقض ما يقضي

---

(١) هو جرير بن عبد المسيح أو (عبد العزى). شاعر جاهلي من شعراء البحرين مات سنة ٥٨٠ م والبيت من قصيدة يهجو بها عمرو بن هند ملك الحيرة أولها:

يعيرني أمي رجال ولا أرى ... أخا كرم إلا بأن يتكرما
ومن كان ذا عرض كريم فلم يصن ... له حسباً كان اللئيم المذمما

(٢) أخباره في الأغاني ج ٢١ ص ١٤٨- ١٦٠ وأمالي الشريف المرتضى ج (١) ص ٢٣٨ وما بعدها.

(٣) في الأمالي: عاش مأتي سنة وعشرين سنة.

(٤) تجد أخباره في سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٣٤.

ومنهم الحرث بن كعب المذحجي، عاش ماية وستين سنة، وله وصية حسنة لقومه، وكان على شريعة المسيح (ع)، وهو القائل:

أكلـــت شبـــابي فامضيتـــه ... وأمضيــت من بعــد دهر دهورا
ثلاثـــــة أهلـــــين جاورتهم ... فبــادوا وأصبحـت شيخاً كبـيرا
قليــل الطعــام عسير القيــام ... قــد ترك الدهر خطوي قصــيرا
أبيـــت وأرعـــى نجوم السماء ... أُقلـــب أمري بطونـــاً ظهورا.

ومنهم الأفوه بن مالك الأودي[1]، عاش مأتين وثلاثين سنة، وله وصية لقومه، وقصيدته المشهورة عنه المعروفة[2]:

فينــــا معاشر لن يبنوا لقومهم ... وإن بنـى قومهم ما أفسدوا عادوا
لا يرشـدون ولـن يرعـوا لمرشدهـم ... فالجهــل منهم معاً والغي ميعـاد
أضحوا كفيـل ابن عتر في عشيرته ... إذ أُهلكـت بالذي باءت به عـاد
وبعـــده كقــدارِ حــينَ تابعـــه ... عــلى الغواية أقوام فقد بـادوا
والبيـت لا يبتنـى إلا لـه عمـد ... ولا عماد إذا لم ترس أو تــاد
وإن تجمَّــع أوتــاد وأعمـــدة ... وساكن بلغوا الأمر الـذي كـادوا
لا يصلـح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا
إذا تولى سراة القوم أمرهمُ ... [نما]عـلى ذاك أمر القوم فازدادوا
يلقـى الأمور بأهل الرأي ما صلحت ... فــإن تولــت فبالأشرار تنقــاد
إمـارة الغي أن نلقى الجميع لدى ... الابــــرام (٣)
كيـف الرشاد إذا ما كنت في نفر ... لهم عن الرشد اغــلال وأقيــاد
أعطوا غواتهم جهــــلاً مقادهمُ ... فكلهم في حبـــال الغي منقــاد
حـان الرحيل إلى قومٍ وإن بعدوا ... فيهم صـــلاح لمرتـــاد وإرشاد
فسوف اجعـل بعد الأرض دونكمُ ... وإن دنــت رحم منــكم وميــلاد

(١) هو صلاءةبن عمرو بن مالك، والافوه لقب، كان من سادات العرب في الجاهلية، وكان شاعراً فحلاً وفارساً مغواراً، وذا رأي وحزم ومات (سنة ٥٧٠م).

(٢) في السخة أغلاط كبيرة ونقص كلمات.

(٣) كلمات غير واضحة.

إن النجاة إذا ما كنت ذا بصرٍ من .... أبعـــاد فأبعـــاد

وروي في قوله: (اضحوا كفيل بن عتر في عشيرته)، إنهم كانوا وقد عادوا، وأنهم خرجوا إلى البيت الحرام ليستسقوا لقومهم، وكانوا قيل، ولقمان ومريد وعارق، فهم نزلوا على رجل من جرهم، فاشتغلوا عنده باللهو والطرب عن الاستسقاء، فما أفاقوا من لهوهم إلا وقد رفع الله تعالى على قومهم سحابة سوداء، فهبت عليهم الريح العقيم فأهلكتهم، وإن قيلاً ضربه الصر فقتله ولحق بهم، وإن الثلاثة الباقين مروا فكان أطولهم عمراً لقمان بن عاد صاحب النسور، وقد تقدم ذكره.

ومن المعمّرين نضر بن دهمان بن سليم بن أشجع.

عاشماية وتسعين سنة، وعاوده شبابه، وسواد شعره، وصحة عقله بعد ما مضى. وفيه يقول العباس بن مرداس السلمي:

لنضر بن ذهمان (الهنيـــدة) عاشهـــا
وتسعـــين حولاً ثم قُوِّم فانصاتـــا[1]

وعـــاد سواد الشعر بعـــد بياضـــه
وراجعـــه شرخ الشبـــاب الـــذي فاتـــا

وراجـــع عقـــلاً بعـــد مـــا فـــات عقلـــه
ولكنـــه من بعـــد ذا كلّه ماتـــا

أتـــت .... الخيـــل من أرض حمير
غرابيـــب دهماً حالكـــات وكمتاتـــا

ومنهم أمية بن الاسكر الليثي.[2]

ذكر أنه عاش دهراً طويلاً حتى صرت، فمر به غلام كان يرعى غنمه، وهو يحثوا التراب على رأسه من الكبر، فوقف ينظر إليه، فلما أفاق أمية بصر بالغلام قائماً ينظر إليه فأنشأ يقول:

---

(١) فانصاتا أي استوت قامته.

(٢) أخباره مروية في الأغاني. أورد البيهقي منها ثلاثة أبيات.

أصبحت لهواً لراعى الضأن أعجبه
ماذا يريبك مني راعيَ الضان
انعق بضانك في نجم تحضره
من الأباطح واحبسها بجدان
انعق بضانك إني قدر رعيتهم
بيض الوجوه بني عمٍ وإخوان
أبني أُمية ألا تحضرا كبري
فإن عيشكما والموت سبان
إذ نركب الفرس الأحرى ثلاثتنا
وإذ حديثكما والعيش مثلان

وروي أن عمر بن الخطاب أُخبر بخبر أمية، فسأل عن ابنيه، فقيل له: إن أحدهما بالبصرة، والآخر بالكوفة، فأمر بأن يكتب فيهما بأن يردا إلى أبيهما.

وقال أمية يذكر ابنه كلاباً(١)، وكان غائباً عنه.

تركت أباك مرعشةً يداه
وأمك ما يسيغ لها شرابا
إذا هتفت حمامة بطن وادٍ
على إبكائها ذكرا كلابا
نمسّح مهده شفقاً عليه
ونجنبه أباعرنا الصعابا(٢)

ومنهم جعثم بن عوف بن خديجة عاش مأتين وخمسين سنة، وقال:

حتى متى جعثم في الأحياء
ليس بذي أيد ولا غناء
هيهات ما للموت من دواء

---

(١) وكلاب هو ابن امية وكان من خيار المسلمين قتل مع علي (ع) بصفين.
(٢) تجد هذه الأبيات في المحاسن والمساوىء ج ٢ ص ٣٦١ فمن أبيات رواها البيهقي.

ومنهم أوس بن ربيعة بن كعب بن أمية الأسلمي. عاش مأتي سنة وأربع عشرة سنة، وهو الذي يقول:

لقـــد عُمِرّت حـــتى مَـــلَّ أهـــلي
ثوائي عندهم وسئمـــــــت عمري

وحـــق لمن أتـــى مأتـــان عامـــاً
عليـــه وأربـــع من بعـــد عشر

يمـــــلُّ من الثواء وصـــح يوم
يغاديـــه وليـــل بعـــد يسر

فأبـــلى جـــدتي وتُركـــت شلواً
وبحـــت بمـــا يجـــنُّ ضمـــير صـــدري

ومنهم كعب بن الردار بن هلال بن كعب.
عاش ثلاثماية سنة، حتى ملَّ من حياته فقال في ذلك:

لقـــد ملـــني الأدنـــى وأَبغـــض رؤيـــتي
وأبنـــائي كـــذا الا يحـــب كلامي

عـــلى الراحتـــين مرةً وعـــلى العصـا
أكون مليـــاً مـــا أُقـــل عظامي

فياليتـــني قـــد سخت في الأرض قامةً
وليـــت طعامي كـــان فيـــه حمامي

ومنهم أنس بن نواس بن مالك ابن حبيش بن ربيعة
عاش دهراً طويلاً، ونبتت أسنانه بعدما سقطت، فقال:

أصبحـــت من بعـــد البزول رباعيـا
وكيـــف الرباعي بعـــد مـا ماشق بازلـه

ويوشك أن يلقـــى بنيناً وإن بعـــد
إلى جَـــذَع يثكـــل أخـــاكم ثواكلـــه

إذا مـــا ثغرنـا مرتـــين تقطعـــت
حبـــال الصبـا وانبـــت منهـا وسائلـــه

ومنهم ثعلبة بن عبد بن كعب بن عبد الاشهل.

عاش مأتي سنة وثلاثاً وثلاثين سنة، وهو جد الضحاك، وهو القائل لما عُمِّر:

لقــــد صاحبـــت أقوامــاً فأمسوا
خفـــاةً لا يجـــاب لهم دعـــــاء
وقومــــــاً بعدهم قــــد نادموني
فأمسى موحشاً منهم فنـــــــــاء
مضوا قصــــد السبيــــل وخلفوني
فطــــال عــــليَّ بعدهمُ التواء
فأصبحـــت الغـــداة رهـــين قــبرٍ
وأخلفـــــني من الموت الرجـــاء

ومنهم بحر بن الحارث بن امريء القيس الكلبي.

علش مايةً وخمسين سنة، وأدرك الإسلام فلم يسلم، وهو القائل:

من عـــاش خمسين عامــاً قبلهـا مايــةً
من السنـــين وأضحـــى بعـــدُ ينتظر
وصــار في البيـت مثـل الحلس مُطَّرحاً
لا يستشار ولا يعطي ولا يـــــــذر
مـــلَّ المعـــاش ومـــلَّ الأقربون لـــه
طول الحيـــاة، وشر العيشة الكـــبر.

ومن المعمريــن ذو جدن الحميري

وكان ملكاً يروى أنه عاش ثلاثماية سنة، وهو القائل:

لكـل جنـبٍ واقـع مضطجـع والموت لا ينفـع منـه الجزع
اليوم تجزون بأعمالــــــكم وكل امرىء يحصد ما قد زرع
لو كـان شيئـاً مفلتـاً حتفـه أخلت منه في الجبال الصدع

لـــه سماء ولـــه أرضـــه يرفع من شاء ومن شاء وضع[1]

أخبار قس بن ساعدة الأيادي

ومن المعمّر بن قس بن ساعدة الأيادي رحمه الله

عاش دهراً طويلاً، فروي أنه عاش ستماية سنة، وروى أقل من ذلك.

وكان من عقلاء العرب وحكمائهم، وهو أول من كتب من فلان بن فلان إلى فلان.

وهو أول من وحَّدَ الله تعالى، وآمن به وأقر بعد له وحكمته، وأنه خلق العباد وينشرهم بعد الممات.

وهو أول من قال: أما بعد، وأول من خطب بعصاً، وفيه يقول الأعشى قيس بن ثعلبة:

وأحـــكم من قسٍ وأجرا من الـــذي
بـذي الفيـل من خفـان أصبـح خـادرا

ويقول الحطيئة:

وأقول من قس وأمضى إذا مضى من الريـح إن مس النفوس نكالها

وقس الذي يقول:

هـل الغيـت معطي الأمن عنـد نزولـه
بحـــــال مسيٍ في الأمور ومحسن

ومـا قـد تولىّ وهو (قـد) فـات ذاهـب
فهـــل ينفعنّي ليتـــني ولو أنـــني

وكذلك يقول لبيد:

وأخلـــف قساً ليتـــني ولو أنـــني
وأعي عـــلى لقمان حـــكم التَدَبُّر

وكان قس أحسن الناس في زمانه عبادة، وأفصحهم خطابةً وأبلغهم عظةً.

---

(١) أنظر: اخباره في الأغاني ج ٤ ص ٦٧- ٧٠، وفي سيرة ابن هشام.

وكان كثيراً ما يذكر رسول الله (ص)، ويبشر الناس به، وآمن به قبل مبعثه.

وكان النبي (ص) يستعلم اخباره، ويستعيد من الناس مواعظه، ويترحم عليه، ويقول: إن قساً أُمة وحده

خبر قس وما قاله بسوق عكاظ

حدثني القاضي أبو الحسن أسد بن إبراهيم السلمي الحراني بمدينة الرملة في سنة عشرة وأربعماية، قال حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن موسى بن إبراهيم البارسيري الحنظلي، قال: حدثنا أبو محمد عبد الله بن محمد من ولد عمر بن الخطاب عن جعفر بن محمد عن محمد بن حسان عن محمد بن الحجاج اللخمي عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس قال:

لما قدم وفد عبد القيس على رسول الله (ص) قال: أيكم يعرف قس بن ساعدة الأيادي؟ قالوا: كلنا نعرفه يا رسول الله.

قال: لست أنساه بعكاظ على جملٍ أحمر يخطب الناس وهو يقول:

أيها الناس اجتمعوا، فإذا اجتمعتم فاسمعوا، فإذا سمعتم فعوا، قال وعيتم فقولوا: فإذا قلتم فاصدقوا:

من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آتٍ. إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا.

مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور، أقسم قس بالله قسماً حقاً، لا كاذباً فيه ولا آثماً، إن كان في الأرض رضا ليكونن سخط، إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه.

ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أَرَضوا بالإقامة فأقاموا أم تركوا فناموا.

ثم قال: أيكم يروي شعره؟ فأنشدوه:

في الذاهبـــين الأولـــين　　من القرون لنـــا بصائر
لمـــا رأيـــت مـوارداً　　للموت ليس لهـــا مصـــادر
ورأيـــت قومي نحوهـــا　　يسعـــى الاصاغر والاكابر
لا يرجـــع الماضي ولا　　يبقـــى من الباقـــين غابر
أيقنـــت أني لا محالـــة　　حيـث صـار القوم صائر[1]

وروى أن رجلاً حدث رسول الله (ص) فقال في حديثه.

خرجت في طلب بعيرٍ لي ضل، فوجدته في ظل شجرة ينهش من ورقها، فدنوت منه، فزمته واستويت على كوره، ثم اقتحمت وادياً، فإذا أنا بعين خرارة، وروضة مدهامة، وشجرة عادية، وإذا أنا بقس قائماً بين قبرين، قد اتخذ له بينهما مسجداً. قال فلما انفتل من صلاته، قلت له: ما هذان القبران؟ فقال: هذان قبرا أخوين كانا يعبدان الله عز وجل معي في هذا المكان، فأنا أعبد الله بينهما إلى أن الحق بهما.

قال: ثم التفت إلى القبرين فجعل يبكي، وهو يقول:

خليـــلي هبـــا طـــال مـــا قـــد رقدتكما
أجدكما أم تقضيـــــان كراكما
أرى خلـــلاً في العظم والجلـــد منكما
كـــأن الـــذي يسقي العقـــار سقاكما
ألم تعلما أني بسمعـــان مفرد
ومـــالي بسمعـــان حبيـــب سواكما
مقـــيم عـــلى قبريكما لست بارحـــاً
طوال الليـــالي أو يجيـــب صداكما
فلو جعلـــت نفس لنفسٍ فداءهـــا
لجُـــدت بنفسي أن أكون فداكما[2]

---

(١) خطبة قس وشعره هذا رواه الجاحظ في البيان والنبيين ج ١ ص ٢٤٧- ٢٤٨ والمفيد في الأمالي (المجالس) ص ٢٠١- ٢٠٢.

(٢) تجد هذا الخبر فى المجالس للمفيد ص ٢٠٢ - ٢٠٣ مختصراً. وفي سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٣.

قال: فقلت له: ِم لا تلحق بقومك، فنكون معهم في خيرهم وشرهم؟ فقال: ثكلتك أمك، أما علمت أن ولد إسماعيل تركوا دين أبيهم، واتبعوا الأضداد، وعظموا الأنداد.

قلت: وما هذه الصلاة التي لا تعرفها العرب؟

فقال: أُصليها لإله السماء.

فقلت: وللمساء إله غير اللات والعزى، فامتعظ وامتقع لونه وقال: إليك عني يا أخا أياد.

إن للسماء إلّهاً هو الذي خلقها، وبالكواكب زينها، وبالقمر المنير أشرقها. أظلم ليلها، وأضحى نهارها، وسوف تعمهم من هذه الرحمة، وأوصى بيده نحو مكة، برجل أبلج من ولد لوىء بن غالب، يقال له محمد، يدعوا إلى كلمة الإخلاص، ما أظن أني ادركه. ولو أدركت أيامه لصفقت بكفي على كفه، وسعيت معه حيث يسعى.

فقال رسول الله (ص): رحم الله أخي قساً، يحشر يوم القيامة أُمة وحده.

خبر آخر عن قس يذكر فيه رسول الله (ص) والأئمة (ع) من بعده.

أخبرنا القاضي أبو الحسن علي بن محمد السباط[١] البغدادي، قال حدثني أبو عبد الله أحمد بن محمد بن أيوب البغدادي الجوهري الحافظ[١]، قال: حدثنا أبو جعفر محمد بن لاحق بن سابق، قال حدثنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي، قال: حدثني أبي عن الشرقي بن القطامي عن تميم بن وهلة المري، قال: حدثني الجارود بن المنذر العبدي[٣] وكان نصرانياً فأسلم عام الحُديبية[٢]، وحسن إسلامه، وكان قارئاً للكتب، عالماً بتأويلها على وجه الدهر وسالف العصر، بصيراً بالفلسفة والطب، ذا رأي أصيل ووجهٍ جميل، أنشأ يحدثنا في أيام عمر بن الخطاب، قال:

---

(١) تجد هذا الخبر في كتاب مقتضب الأثر لابن عباش الجوهري ص ٣٦ - ٣٧ ببعض الإختلاف.

(٢) هي مكان بعيد عن مكة المكرمة على بعد تسعة أميال مما يلي طرف الحرم، وفيه كان الموادعة بين رسول الله (ص) وبين المشركين وذلك في ذي العقدة من السنة السادسة للهجرة.

وفدت على رسول الله (ص) في رجال من عبد القيس، ذوي أحلام وأسنان وفصاحة وبيان وحجة وبرهان، فلما بصروا به (ص) راعهم منظره ومحضره عن بيانهم، واعتراهم الرعداء في أبدانهم.

فقال زعيم القوم لي دونك من أممت بنا أممه، فما نستطيع أن نكلمه.

فاستقدمت دونهم إليه، فوقفت بين يديه، فقلت سلام عليك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ثم أنشأت أقول:

يا نبي الهدى أتتك رجال ... قطعت قردداً وآلاً فآلا
جابت البيد والمهامه حتى ... غالها من طويّ السرى ما غالا
قطعت دونك الصحاصح تهوي ... لا تعدُّ الكلال فيك كلالا
كل دهناء يقصر الطرف عنها ... أرقلتها قلاصنا إرقالا
وطوتها العتاق تجمح فيها ... بكماةٍ مثل النجوم تلالا
ثم لما رأتك أحسن مرأى ... أفحمت عنك هيبةً وجلالا
تتقي شر بأس يوم عصيب ... هائل أوجل القلوب وهالا
ونداءً لمحشر الناس طراً ... وحساباً لمن تمادى ضلالا
نحو نورٍ من الإله وبرهانٍ ... وبر ونعمةٍ لن تنالا
وأمان منه لدى الحشر والنشر ... إذ الخلق لا يطيق سؤالا
فلك الحوض والشفاعة والكو ... ثر والفضل إذ ينصُّ السؤالا
خصك الله يا ابن آمنة الخير ... إذا ما بكت سجال سجالا
أنبأ الأولون باسمك فينا ... وباسماء بعده تتلالا

قال: فأقبل عليَّ رسول الله (ص) بصفحة وجهه المبارك، شمت منه ضياءً لامعاً ساطعاً كوميض البرق، فقال: يا جارود، لقد تأخر بك وبقومك الموعد، وقد كنت وعدته قبل عامي ذلك أن أفد إليه بقومي فلم آته، وأتيته في عام الحديبية، فقلت: ما كان إبطائي عنك إلا أن جلة قومي أبطأوا عن إجابتي، حتى ساقها الله إليك لما أراد لها به من الخير لديك.

وأما من تأخر عنه فحظه فات منك، فتلك أعظم حوبة، وأكبر عقوبة،

ولو كانوا ممن رآك لما تخلفوا عنك، وكان عنده رجل لا أعرفه. قلت: ومن هو؟ قالوا: هو سلمان الفارسي ذو البرهان العظيم والشأن القديم.

فقال سلمان: وكيف عرفته أخا عبد القيس من قبل إتيانه؟

فأقبلت على رسول الله (ص) وهو يتلألأ ويشرق وجهه نوراً وسروراً، فقلت يا رسول الله، إن قساً كان ينتظر زمانك، ويتوكف إبانك، ويهتف باسمك وأبيك وأمك، وباسماء لست أُصيبها معك، ولا أراها فيمن اتبعك.

قال سلمان: فأخبرنا، فأنشأت أُحدثهم، ورسول الله (ص) يسمع، والقوم سامعون واعون.

قلت: يا رسول الله، لقد شهدت قساً وقد خرج من نادٍ من أندية أيادٍ إلى صحصح ذي قتاد وسمر وعتاد، وهو مشتمل بنجاد، فوقف في اضحيان ليلٍ كالشمس رافعاً إلى السماء وجهه واصبعه فدنوت منه فسمعته يقول:

اللهم، رب هذه السبعة الأرقعة، والأرضين الممرعة، وبمحمدٍ والثلاثة المحامدة معه، والعليين الأربعة، وسبطيه التبعة الأرفعة، والسري الألمعة، وسمي الكليم الضُرعة، والحسن ذي الرفعة، أولئك النقباء الشفعة، والطريق المهيعة، درسة الإنجيل وحفظة التنزيل على عدد النقباء، من بني إسرائيل، محاة الأضاليل، نفاة الأباطيل، الصادقو القيل، عليهم تقوم الساعة، وبهم تنال الشفاعة، ولهم من الله فرض الطاعة.

ثم قال: اللهم ليتني مدركهم ولو بعد لأي من عمري ومحياي، ثم أنشأ يقول:

متى أنا قبل الموت للحق مدرك	وإن كان لي من بعد هاتيك مهلك
وإن غالني الدهر الحرون بقولهِ	فقد غال من قبلي ومن بعد يوشك
فلا غرو أني سالك مسلك الأولى	وشيكاً ومن ذا للردى ليس يسلك

ثم آب يكفكف دمعه ويرنُّ رنين البكرة قد بريت ببراة وهو يقول:

أقسم قس قسماً	ليس به مكتتما
لو عاش ألفي عُمُرٍ	لم يلق منها سأما
حتى يلاقي أحمدا	والنقباء الحكما

هم أوصيـــــــــاء أحمد أكرم من تحت السما
يعمـــــى العبـــاد عنهمُ وهم جـــلاء للعمــــى
لست بنـــــاسٍ ذكرهم حـــتى أُحـــلُّ الرجـــا

ثم قلت: يا رسول الله أنبئني أنبأك الله- بخبرٍ عن هذه الأسماء التي لم نشهدها، وأشهدنا قس ذكرها فقال رسول الله (ص):

يا جارود، ليلة أسري بي إلى السماء، أوحى الله عز وجل إليَّ أن سل من أرسلنا قبلك من رسلنا، على ما بعثوا.

فقلت لهم: على ما بعثتم؟

فقالوا: على نبوّتك وولاية علي بن أبي طالب والأئمة منكما.

ثم أوحي إلى، أن التفت عن يمين العرش، فالتفتُّ، فإذا علي والحسن والحسين وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد بن علي، وعلي بن محمد، والحسن بن علي، والمهدي (ع) في ضحضاحٍ من نور يصلون.

فقال لي الرب تعالى: هؤلاء الحجج لأوليائي، وهذا المنتقم من أعدائي.

قال الجارود: فقال سلمان: يا جارود هؤلاء المذكورون في التوراة والإنجيل والزبور، فانصرفت بقومي وأنا أقول:

أتيتـــك يـــا ابن آمنــة الرسولا لكي بـك اهتـدي النهـج السبيلا
فقلــت فكــان قولك قول حقٍ وصــدق مــا بـدا لـك أن تقولا
وبصرّت العمــى من عبـد شمس وكــل كــان من عمــهٍ ضليــلا
وأنبأنــاك عن قس الايــادي مقــالاً فيــك ظلــت بـه جديـلا
وأسماء عمـــت عنـــا فآلـــت إلى علـم و(كنـت) بـه جهولا[1]

(١) تجد هذا الخبر في مقتضب الأثمة ص ٣٧- ٤٣ وانظر البحار ج ١٥ ص ٢٤٧ ببعض الإختلاف. وذكره المؤلف في كتابه الإستبصار ص ٣٧.

فصل من الكلام في هذا الخبر

اعلم- أيدك الله تعالى- أنك تسأل في هذا الخبر عن ثلاثة مواضع:

أحدها أن يقال لك: كان الأنبياء المرسلون (ع) قبل رسول الله (ص) قد ماتوا، فكيف يصح سؤالهم في السماء؟.

وثانيها أن يقال لك: ما معنى قولهم إنهم بعثوا على نبوَّته وولاية عليٍ والأئمة من ولده عليهم السلام؟

وثالثها أن يقال لك: كيف يصح أن يكون الأئمة الاثني عشر (ع) في تلك الحال في السماء، ونحن نعلم - ضرورةً - خلاف هذا، لأن أمير المؤمنين (ع) كان في ذلك الوقت بمكة في الأرض، ولم يدَّع قط، ولا ادَّعى له أحد أنه صعد إلى السماء. فأما الأئمة من ولده فلم يكن وُجد أحد منهم بعد ولا ولد، فما معنى ذلك إن كان الخبر حقاً؟؟ فهذه مسائل صحيحة، ويجب أن يكون معك لها أجوبة متعددة.

أما الجواب عن السؤال الأول فهو أنا لا نشك في موت الأنبياء (ع) غير أن الخبر قد ورد بأن الله تعالى يرفعهم بعد مماتهم إلى سمائه، وأنهم يكونون فيها أحياءً متنعمين إلى يوم القيامة.

(و) ليس ذلك بمستحيل في قدرة الله تعالى. وقد ورد عن النبي (ص) أنه قال:

«أنا أكرم عند الله من أن يدعني في الأرض أكثر من ثلاث»

وهكذا عندنا حكم الأئمة (ع).

قال النبي (ص):

«لو مات نبي بالمشرق، ومات وصيه بالمغرب لجمع الله بينهما».

وليس زيارتنا لمشاهدهم على أنهم بها، ولكن لشرف المواضع، فكانت غيبة الأجساد فيها، ولعبادةٍ أيضاً ندبنا إليها، فيصح على هذا أن يكون النبي (ص) رأى الأنبياء (ع) في السماء، فسألهم كما أمره الله.

وبعد فقد قال الله تعالى:

« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم.. » آل عمران: ١٦٩.

فإذا كان المؤمنون الذين قتلوا في سبيل الله تعالى بهذا الوصف، فكيف ينكر أن الأنبياء بعد موتهم أحياء منعمون في السماء.

وقد اتصلت الأخبار من طريق الخاص والعام بتصحيح هذا، وأجمع الرواة على أن النبي (ص) لما (خوطب) بفرض الصلاة ليلة المعراج، وهو في السماء قال له موسى (ع) إن أُمتك لا تطيق، وأنه راجع[1] الله تعالى دفعةً بعد أُخرى.[2].

وما حصل عليه الإتفاق فلم يبق فيه كذب.

وأما الجواب عن السؤال الثاني فهو أن يكون الأنبياء قد أُعلموا بأنه سيبعث نبياً يكون خاتمهم وناسخاً بشرعه لشرائعهم، وأُعلموا أنه أجلُّهم وأفضلهم، وأنه سيكون (له) أوصياء من بعده، حفظة لشرعه، وحملة لدينه، وحجج على أمته، فوجب على الأنبياء (ع) التصديق بما أُخبرو به والإقرار بجميعه.

أخبرني الشريف يحيى بن أحمد بن إبراهيم بن طباطبا الحسيني، قال: حدثني أبو القاسم عبد الواحد بن عبد الله بن يونس الموصلي عن أبي علي بن همام عن عبد الله بن جعفر الحميري، عن عبد الله بن محمد، عن محمد بن أحمد، عن يونس بن يعقوب، عن عبد الأعلى بن أعين، قال: سمعت ابا عبد الله الصادق (ع) يقول:

« ما تنبأ نبيٌّ قط إلا بمعرفة حقنا وتفضيلنا على من سوانا ».

وإن الأمة مجمعة على أن الأنبياء قد بشروا بيننا، ونبهوا على أمره، ولا

---

(١) في النسخة: راجع إلى الله.

(٢) خبر المعراج وقول موسى (ع) له (ص) إن امتك لا تطيق ومراجعته، تجده في صحيح مسلم في كتاب الإيمان، وصحيح النسائي، انظر: فضائل الخمسة ج (١) ص ١٠٦- ١٠٨.

يصح منهم ذاك إلا وقد أعلمهم الله تعالى به، فصدقوا وآمنوا بالخبر به.

وكذلك قد روت الشيعة بأنهم قد بشروا بالأئمة أوصياء رسول الله (ص).

وأما الجواب عن السؤال الثالث فهو أنه يجوز أن يكون الله تعالى أحدث لرسوله (ص) في الحال صوراً كصور الأئمة (ع) ليراهم أجمعين على كمالهم. فيكون كمن شاهد أشخاصهم برؤيته مثالهم، ويشكر الله تعالى على ما منحه من تفضيلهم وإجلالهم.

وهذا في العقول من الممكن المقدور.

ويجوز أيضاً أن يكون الله تعالى خلق على صورهم ملائكةً في سمائه يسبحونه ويقدسونه لتراهم ملائكته الذين قد أعلمهم بأنه يكون في أرضه حججاً له على خلقه، فتتأكد عندهم منازلهم، وتكون رؤيتهم تذكاراً لهم بهم وبما سيكون من أمرهم.

وقد جاء في الحديث أن رسول الله (ص) رأى في السماء لما خرج به ملكاً على صورة أمير المؤمنين (ص). وهذا خبر قد اتفق أصحاب الحديث على نقله.

حدثني به من طريق العامة الشيخ الفقيه أبو الحسن محمد بن أحمد بن الحسن بن شاذان القمي، ونقلته من كتابه المعروف بايضاح دقائق النواصب، وقرأته عليه بمكة في المسجد الحرام سنة اثنتي عشرة وأربعماية، قال حدثنا أبو القاسم جعفر بن مسرور اللجام، قال حدثنا الحسين بن محمد، قال حدثنا أحمد بن علويه المعروف بابن الأسود الكاتب الأصبهاني[1]، قال حدثني إبراهيم بن محمد، قال حدثني عبد الله بن صالح، قال حدثني جرير بن عبد الحميد عن مجاهد عن ابن عباس، قال: سمعت رسول الله (ص) يقول:

«لما أُسري بي إلى السماء ما مررت بملأ من الملائكة إلا سألوني عن علي بن أبي

---

(١) هو الكرماني المتوفى سنة ٣٢٠ ونيف أو سنة ٣١٢ وتجاوز الماية من عمره كان لغوياً أديباً كاتباً شاعراً شيعياً راوياً للحديث له كتاب الاعتقاد في الأدعية، وذكر ياقوت في معجم الأدباء أن له ثمانية كتب في الأدعية من إنشائه وله شعر في مدح أمير المؤمنين ومنه النونية المسماة بالالفية والمحبرة ذكر ابن شهراشوب في مناقب آل أبي طالب مقاطيع منها.

طالب حتى ظننت أن اسم علي أشهر في السماء من اسمي، فلما بلغت السماء الرابعة نظرت إلى ملك الموت فقال: يا محمد، ما خلق الله خلقاً إلا أقبض روحه بيدي ما خلا أنت وعلي، فإن الله جل جلاله يقبض أرواحكما بقدرته، فلما صرت تحت العرش نظرت فإذا أنا بعلي بن أبي طالب، قال لي: يا محمد ليس هذا علياً، ولكنه ملك من ملائكة الرحمن خلقه الله تعالى على صورة علي ابن أبي طالب. فنحن الملائكة المقربون كلما اشتقنا إلى وجه علي بن أبي طالب زرنا هذا الملك، لكرامة علي بن أبي طالب على الله سبحانه»

فيصح على هذا الوجه أن يكون الذين رآهم رسول الله (ص) ملائكة على صور الأئمة (ع). وجميع ذلك داخل في باب التجويز والإمكان والحمد لله.

نرجع إلى ذكر المعمر بن.

وقد روى أن منهم سلمان الفارسي رحمه الله عليه، وأنه عاش مأتين من السنين.

وروى أن منهم عمرو بن العاص، وأنه عاش في الجاهلية والإسلام مأتي سنة، وأنه قال حين أحس الموت:

مضـــت مأتـــا حولٍ لعمرو وبعدهـــا
رمتـــه المنايـــا بالسهـــام القواصـــد
فمات ومـــا حي وإن طـــال عمره
عـــلى مر أيـــام السنـــين بخالـــد

ومنهم أمد بن لبد،

عاش ثلاثماية وستين سنة. وروي أن معاوية بن أبي سفيان قال: إني أحب أن ألقى رجلاً قد أتت عليه سن، وقد رأى الناس يخبرنا عما رأى، فقيل له: هذا رجل بحضر موت، فأرسل إليه، فأتاه، فقال: ما أسمك؟ فقال أمد، قال: ابن من؟ قال: ابن لبد، قال ما أتى عليك من السنين؟ قال: ستون وثلاثماية سنة. قال: كذبت ثم تشاغل عنه معاوية ثم قال: أخبرنا عما رأيت من الأزمان الماضية إلى زماننا هذا من ذاك.

قال: يا أمير المؤمنين، وكيف تسأل من يكذّب؟

قال: ما كذبتك، ولكن احببت أعلم كيف عقلك.

قال: يوم شبيه يوم، وليلة شبيهة بليلة، يموت ميت، ويولد مولود، ولولا من يموت لم تسعهم الأرض، ولولا من يولد لم يبق أحد على وجه الأرض.

قال: فأخبرني هل رأيت هاشماً؟

قال: نعم، رأيت رجلاً طوالاً حسن الوجه، يقال: بين عينيه بركة أو غرة بركة.

قال: فهل رأيت أُمية؟

قال: نعم، رأيت رجلاً قصيراً أعمى، يقال إن في وجهه أَشراً وشؤماً.

قال: فهل رأيت محمداً؟ قال: من محمد؟ قال: رسول الله.

قال: ويحك، أفلا فخمته كما فخمه الله، فقلت رسول الله (ص).

قال: فأخبرني ما كانت صناعتك؟

قال: كنت تاجراً، قال: فما بلغت في تجارتك؟

قال: كنت لا أستر عيباً ولا أرد ربحاً.

قال معاوية: سلني.

قال: أسألك أن تدخلني الجنة.

قال: ليس ذلك بيدي ولا أقدر عليه.

قال: فأسألك أن ترد عليّ شبابي.

قال: ليس ذلك بيدي ولا أقدر عليه.

قال: فلا أرى عندك شيئاً من أمر الدنيا ولا من أمر الآخرة، فردني من حيث جئت بي

قال: أما هذا فنعم.

ثم أقبل معاوية على جلسائه فقال: لقد أصبح هذا زاهداً فيما أنتم فيه ترغبون.

ومن المعمرين عبيد بن شريد الجرهمي[1].

عاش ثلاثمائة سنة، ولحق أيضاً أيام معاوية بن أبي سفيان.

فروي أنه قدم عليه يوماً إلى الشام، فقال معاوية: أخبرني من أعجب ما رأيت، قال: نعم، انتهيت إلى قومٍ يدفنون ميتاً لهم، فلما فرغوا منه اغرورقت عيناي وتمثلت بهذه الأبيات:

يـــا قلـــب أنـــك في أسماء مغرور
فاذكر وهـــل يَنْفَعَنْـــك اليوم تذكـــير

قـد بحـت بالحـب مـا تخفيـه من أحـد
حـــتى جرت بـــك إطلاقـــاً محاضـــير

مـــا بُتَّ فاصـــبر فما تـــدري أعاجلهـــا
خـــير لنفسك أم مـــا فيـــه تأخـــير

فاستقـــدر الله خـــيراً وارضـــينَّ بـــه
فبيـــــــنا العسر إذ دارت مياسير

وبيـــنا المرء في الأحيـــاء مغتبـــط
إذ صـــار في الرمس تعفوه الأعاصـــير

حـــتى كـــأن لم يكن إلا تذكره
والدهر أيَّـــتما حـــال دهارير

يبكي الغريـــب عليـــه ليس يعرفـــه
وذو قرابتـــــــه في الحي مسرور

وذاك آخر عهـــدٍ من أخيـــك إذا
مـــا الميـــت ضمَّنـــه اللحـــدَ الخناسير

(يعني بالخناسير الحفارين)

---

(1) تجد قصة عبيد الجرهمي فى اكمال الدين ص ٥١١ - ٥١٢ خالية من الأبيات المذكورة وهي قصة طويلة.

فقال لي رجل منهم: هل تدري من قال هذه الأبيات؟ قلت: لا قال: هو الذي دفناه.[1]

ومن المعمرين العوام بن المنذر الطائي.

عاش دهراً طويلاً في الجاهلية، وبقي إلى أن أدرك خلافة عمر بن عبدالعزيز، فأُدخل عليه، وقد اختلفت ترقوتاه وسقط حاجباه، فقيل: ما أدركت؟ فقال:

والله مـــا أدري أأدركـــت أمـــة
على عهـد ذي القرنـين أم كنـت أقدمـا
مـــتى تنزعوا عـــني اللبـــاس تبينوا
اجاجي لم يكسين لحماً ولا دمـــــــا

ومن المعمّرين أيضاً.

تميم بن ثعلبة بن عطاية الربعي، عاش مأتي سنة ومعدي كرب الحميري من آل ذي رعين، عاش مأتين وخمسين سنة.

وجعفر بن قرط الجهني، عاش ثلاثماية سنة، وأدرك الإسلام وأسلم.

وعوف بن كنانة الكلبي، عاش ثلاثماية سنة.

وهبل بن عبد الله بن كنانة الكلبي، عاش ستماية وسبعين سنة.

وحصين بن عتبان الزبيدي، عاش مأتين وخمسين سنة.

وشربة بن عبد الله الجعفي من سعد العشيرة، عاش ثلاثماية سنة.

وربيعة بن كعب بن زيد مناة بن تميم، عاش ثلاثماية سنة وثلاثين سنة، وأدرك الإسلام فأسلم وكان شاعراً.

وسيف بن وهب الطائي، عاش مأتي سنة.

وعدوان بن عمرو بن قيس، عاش مأتين وخمسين سنة. وكف بصره.

وعاش ابن يزيد الجعفي خمس وماية سنة، وأدرك الإسلام.

وعاش مرداس بن ضبيم بن زيد العشيرة مأتين وستاً وثلاثين سنة.

---

(١) رواه البيهقي في المحاسن والمساوىء ج ٢ ص ١٩ مختصراً.

وعاش عمرو بن ربيعة اللخمي ثلاثماية وأربعين سنة.

فهذا ظرف من ذكر المعمّرين ومختصر مما رواه أصحاب الأثر وعلماء المصنفين، قد أوردته لك زيادةً على ما تقدم، وإثباتاً للحجة على من يفهم.

وإذا جاز أن يعمّر الله تعالى جماعةً من خلقه من أنبيائه (ع) وأوليائه والمشركين له، ويمدهم بصحة الأجساد وثبوت العقل والرأي، فما الذي ينكر من طول عمر صاحب الزمان (ع)، وهو حجة الله تعالى على العباد، وخاتم الأوصياء من ذرية رسوله (ص)، والموعود بالبقاء، حتى يكون على يده هلاك جميع الأعداء، ويصير الدين كله لله، لولا أن خصومنا معاندون للحق ومكابرون.

وقد ذاع بين كثيرٍ من الخصوم ما يُروى ويقال اليوم من حال المعمرّ أبي الدنيا المغربي المعروف بالأشبح، وأنه باقٍ من عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طال (ع) إلى الآن، وأنه مقيم من ديار المغرب في أرض طنجة، ورؤية الناس له في هذه الديار، وقد عبر متوجهاً إلى الحج والزيارة، وروايتهم عنه حديثه وقصته، وأحاديث سمعها من أمير المؤمنين صلوات الله عليه وسلامه، وقوله أنه كان ركابياً بين يديه، ورواية الشيعة أنه يبقى إلى أن يظهر صاحب الزمان (ص).

وكذلك حال المعمرّ المشرقي، ووجوده بمدينة من أرض المشرق يقال لها سهردود إلى الآن. ورأينا جماعة رأوه وحدثوا حديثه، وأنه أيضاً كان خادماً لأمير المؤمنين (ص)، والشيعة تقول إنهما يجتمعان عند ظهور الإمام المهدي عليه وعلى آبائه أفضل السلام.

خبر المعمرّ المغربي

وهو علي بن عثمان بن الخطاب البلوي[1]

حدثني الشريف طاهر بن موسى بن جعفر الحسيني بمصر سنة سبع

(١) تجد خبره في كتاب إكمال الدين للصدوق القمي المتوفي سنة ٣٨١ هـ وذلك في ص ٥٠٢- ٥٠٨، وفي لسان الميزان ج ٤ ص ١٣٤- ١٤٠.

وأربعماية، قال: أخبرنا الشريف أبو القاسم ميمون بن حمزة الحسيني، قال: رأيت المعمَّر المغربي، وقد أُتي به إلى الشريف أبي عبد الله محمد بن اسماعيل سنة عشر وثلاثماية، وأُدخل داره ومن معه وهم خمسة رجال، وأُغلقت الدار، وازدحم الناس، وحرصت في الوصول إلى الباب فما قدرت، لكثرة الزحام، فرأيت بعض غلمان الشريف أبي عبد الله محمد بن اسماعيل، وهما قنبر وفرح، فعرَّفتهما أني أشتهي أنظره، فقالا لي: در إلى باب الحمام بحيث لا يدري بك، فصرت إليه، ففتحا لي سراً ودخلت، وأغلق الباب، وحصلت في مسلح الحمام، وإذا قد فُرش له ليدخل الحمام، فجلست يسيراً، فإذا به قد دخل، رجل نحيف الجسم ربع من الرجال، خفيف العارضين، آدم اللون، إلى القصر أقرب ما هو، أسود الشعر، يقدّر الانسان أنه له نحواً من أربعين سنة، وفي صدغه أثر، كأنه ضربة.

فلما تمكن من الجلوس، والنفر معه وأراد خلع ثيابه، قلت: ما هذه الضربة؟ قال: أردت أناول مولاي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) السوط يوم النهروان، فنفض الفرس رأسه فضربني اللجام، وكان مخاً (كذا)، فشجني.

فقلت له: أدخلت هذه البلدة قديماً؟ قال: نعم، وكان موضع جامعكم الفلاني مقبلة، وفيها قبر.

فقلت هؤلاء أصحابك، فقال: ولدي وولد ولدي.

ثم دخل الحمام، فجلست حتى خرج ولبس ثيابه، فرأيت عنفقته قد ابيضت، فقلت له كان بها صباغ؟ قال: لا، ولكن إذا جعت ابيضت، وإذا شبعت اسودت.

فقلت: قم أدخل الدار حتى تأكل فدخل الباب.

وروى الحسن بن محمد بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبدالله بن الحسن[1] ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع)، أنه حج في تلك السنة[2]،

---

(١) في النسخة: الحسين، وصححناه اعتماداً على إكمال الدين ص ٥٠٧ الذي نقل الرواية بطولها.

(٢) وفي إكمال الدين ص ٥٠٧: قال حججت في سنة ثلاث عشرة وثلاثماية.

وفيها حج نصر القشوري صاحب المقتدر، قال: فدخلت مدينة الرسول (ص)، فأصبت بها قافلة البصريين، وفيها أبو بكر محمد بن علي المادراني (ع)، ومعه رجل من أهل المغرب، يذكر أنه رأى أصحاب رسول الله (ص)، فازدحم عليه الناس، وجعلوا يتمسحون به، فكادوا يقتلونه.

قال: فأمر عمي أبو القاسم طاهر بن يحيى فتيانه وغلمانه أن يفرجوا عنه، ففعلوا ودخلوا به إلى دار ابن (أبي) سهل اللطفي، وكان طاهر يسكنها، وأذن للناس، فدخلوا، وكان معه خمسة رجال، ذكر أنهم أولاده وأولاد أولاده، فيهم شيخ، له نيف وثمانون سنة، فسألناه عنه، فقال: هذا ابني.

واثنان لكل واحدٍ منهما ستون أو خمسون سنة، وآخر[1] ست عشرة سنة فقال: هذا ابني، ولم يكن معه أصغر منه.

وكان إذا رأيته قلت ابن ثلاثين أو أربعين سنة، أسود الرأس واللحية، شاب، نحيف الجسم، آدم ربع القامة، خفيف العارضين، هو إلى القصر أقرب، واسمه علي بن عثمان بن الخطاب بن (بن مزيد)[2]

فمما سمعت من حديثه الذي حدث الناس به أنه قال:

خرجت من بلدي أنا وأبي وعمي نريد الوفود على رسول الله (ص)، وكنا مشاةً في قافلة، فانقطعنا عن الناس، واشتد بنا العطش، وعدمنا الماء وزاد بأبي وعمي الضعف فأقعدتهما إلى جانب شجرة ومضيت ألتمس لهما ماءً، فوجدت عيناً حسنة، وفيها ماء صافٍ في غاية البرد والطيبة، فشربت حتى ارتويت، ثم نهضت لآتي بأبي وعمي إلى العين، فوجدت أحدهما قد مات، وتركته بحاله، وأخذت الآخر ومضيت به في طلب العين، فاجتهدت أن أراها فلم أرها، ولا عرفت موضعها، وزاد العطش به فمات، فحرصت في أمره حتى واريته، وعدت إلى الآخر فواريته أيضاً، وسرت وحدي إلي أن انتهيت (إلى) الطريق، ولحقت بالناس، ودخلنا المدينة. وكان دخولي إليها في اليوم الذي

---

(١) في النسخة: وإخوته، والتصحيح عن إكمال الدين ص ٥٠٧.

(٢) الزيادة عن إكمال الدين ص ٥٠٧.

قبض فيه رسول الله (ص)، فرأيت الناس منصرفين من دفنه، فكانت أعظم الحسرات دخلت قلبي.

ورآني أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، فحدثته حديثي، فأخذني فكنت يتيمه، فأقمت معه مدة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، وأيام خلافته حتى قتله عبد الرحمن بن ملجم بالكوفة.

قال: ولما حوصر عثمان بن عفان في داره دعاني ودفع إليَّ كتاباً ونجيباً وأمرني بالخروج إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، وكان علي غائباً بينبع في ضياعه وأمواله، فأخذت الكتاب وركبت النجيب وسرت، حتى إذا كنت بموضع يقال له: جنان بن أبي عيابة سمعت قرآناً، فإذا هو أمير المؤمنين (ع) يقرأ:

«أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون»

قال: فلما نظر إليَّ قال: يا أبا الدنيا، ما وراءك؟

قلت: هذا كتاب عثمان، فقرأه، فإذا فيه:

فإن كنتُ مأكولاً فكن أنت آكلي
وإلا فأدركني ولما أمزق

فلما قرأه قال: سر، سر، فدخلنا المدينة ساعة قتل عثمان، فمال أمير المؤمنين إلى حديقة بني النجار، وعلم الناس مكانه فجاؤا إليه ركضاً، وقد كانوا عازمين على أن يبايعوا طلحة، فلما نظروا إليه ارفضوا (عن) طلحة ارفضاض الغنم يشد عليها السبع، فبايعه طلحة والزبير، ثم تتابع المهاجرون والأنصار يبايعونه، فأقمت معه أخدمه، وحضرت معه صفين أو قال النهروان، فكنت عن يمينه إذ سقط السوط من يده، فانكببت لآخذه وأرفعه إليه، وكان لجام دابته لحاً فشجني هذه الشجة، فدعاني أمير المؤمنين (ع) فتفل فيها وأخذ حفنةً من تراب فتركها عليها، فوالله ما وجدت ألما ولا وجعاً.

ثم أقمت معه صلى الله عليه، وصحبت الحسن (ع) حتى بالساباط وحمل إلى المدائن، ولم أزل معه بالمدينة حتى مات (ع) مسموماً، سمته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي.

ثم خرجت مع الحسين (ع) بكربلاء، وقتل (ع) فهربت بديني، وأنا مقيم بالمغرب أنتظر خروج المهدي وعيسى بن مريم (ص).

قال الشريف أبو محمد الحسن بن محمد الحسيني:

ومما رأيت من هذا الشيخ علي بن عثمان، وهو إذ ذاك في دار عمي طاهر ابن يحيى، وهو يحدث بأحاديثه وبدء خروجه، إذ نظرت إلى عنفقته فرأيتها قد احمرت ثم ابيضت، فجعلت أنظر إلى ذلك لأنه لم يكن في لحيته ولا رأسه ولا عنفقته بياض، فنظر إليَّ أنظر إليه، فقال: ما ترون، إن هذا يصيبني إذا جعت، فإذا شبعت رجعت إلى سوادها.

فدعا عمي بطعام، فأخرج من داره ثلاث موائد، فوضعت بين يديه، وكنت أنا ممن جلس معه عليها، وجلس عمي معه، وكان يأكل ويلقمه، فأكل أكل شاب، وعمي يحلف عليه، وأنا أنظر إلى عنفقته تسودّ حتى عادت إلى سوادها وشبع.

حدثني القاضي أبو الحسن أسد بن ابراهيم السلمي الحراني، وأبو عبدالله الحسين بن محمد الصيرفي البغدادي قالا جميعاً أخبرنا أبو بكر محمد بن محمد المعروف بالمفيد، لقرآئتي عليه بجر جرايا[1]، وقال الصيرفي: سمعت منه إملاءً سنة خمس وستين وثلاثمائة، قال: حدثنا علي بن عثمان بن الخطاب بن عبدالله بن عوام البلدي من مدينة بالمغرب يقال لها مزيدة، يعرف بأبي الدنيا الأشبح المعمر قال: سمعت علي بن أبي طالب (ع) يقول: سمعت رسول الله (ص) يقول: «كلمة الحق ضآلة المؤمن، حيث وجدها فهو أحق بها». وقال حدثنا الأشبح قال سمعت علي بن أبي طالب يقول سمعت رسول الله (ص) يقول:

«أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما».[1]

---

(١) روى ذلك أبو علي القالي في ذيل الأمالي ص ١٧١ وأبو الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوشاء في الموشّى ص ٤ والطوسي في الأمالي ج ١ ص ٣٧٤ وج ٢ ص ٢٣٥ وص ٣١٤. انظر: مصادر نهج البلاغة للمعلق ص ٢٩٧.

وقال: حدثنا الأشبح قال سمعت علي بن أبي طالب (ع) يقول: قال النبي (ص):

« طوبى لمن رآني أو رأى من رأي من رآني ».

وقال: حدثنا الأشبح قال: سمعت علياً (ع) يقول: « إنه عهد إليَّ النبي الأمي (ص) أنه لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق ».

وقال: حدثنا الأشج قال: سمعت علي بن أبي طالب (ع) يقول: قال النبي (ص):

« في الزنا ست خصال: ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة. فأما اللواتي في الدنيا فيذهب بنور الوجه، ويقطع الرزق، ويسرع الفناء.

وأما اللواتي في الآخرة فغضب الرب جل وعز، وسوء الحساب، والدخول في النار ».

وقال: حدثنا الأشج قال: سمعت علي بن أبي طالب (ع) يقول: سمعت النبي (ص) يقول:

« من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ».

وقال: حدثنا الأشج قال: سمعت علي بن أبي طالب (ع) يقول:

«لما نزلت وتعيها أُذن واعية »

قال النبي (ص): سألت الله عز وجل أن يجعلها أذنك يا علي »[1].

وقال: حدثنا الأشج قال: سمعت علي بن أبي طالب (ع) يقول: قال رسول الله (ص):

« لا تتخذوا قبري مسجداً، ولا تتخذوا قبوركم مساجد، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليَّ حيث كنتم، فإن صلواتكم تبلغني، وتسليمكم يبلغني ».

---

(١) تجد قول النبي (ص) هذا لعلي (ع) في الطبري والكشاف ومجمع الزوائد وحلية الأولياء والدر المنثور وكنز العمال، انظر: فضائل الخمسة ج ١ ص ٢٧٢- ٢٧٤.

وقال: حدثنا الأشج قال: سمعت علي بن أبي طالب يقول:

« ما رمدتُ ولا صدعتُ منذ دفع إليَّ رسول الله (ص) الراية يوم خيبر ».

وقال: حدثنا الأشج قال: سمعت علياً (ع) يقول:

« من جلس في مجلسه ينتظر الصلاة فهو في صلاة، وصلت عليه الملائكة، وصلواتهم عليه: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه ».

وقال: حدثنا الأشج قال: سمعت علياً (ع) يقول:

« كان رسول الله (ص) لا يحجبه ولا يحجزه من قراءة القرآن إلا الجنابة ».

وقال: حدثنا الأشج قال: سمعت علياً (ع) يقول: سمعت رسول الله (ص) يقول:

« الحرب خدعة ».

وقال: حدثنا الأشج قال: سمعت علياً (ع) يقول: « قضى رسول الله (ص) في الوتر قبل الوصية، وأنتم تقرأون من بعد وصيةٍ توصون بها أو دين، وإن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات، يرث الرجل أخاه لأبيه وأمه دون أخيه لأبيه ».

وقال أبو بكر المعروف بالمفيد: رأيت أثر الشجة في وجهه، وقال: أخبرت أمير المؤمنين (ع) بحديثي وقصتي في سفري وموت أبي وعمي، و(عين) الماء التي شربت منها وحدي، فقال (ع):

« هذه عين لم يشرب منها أحد إلا عمّر عمراً طويلاً، فابشر، فإنك تعمّر، ما كنت لتجدها بعد شريك منها ».

قال أبو بكر: وسألت عن الأشج أقواماً من أهل البلدة، فقالوا: هو مشهور عندنا بطول العمر، يحدثنا بذلك الأبناء عن آبائهم عن أجدادهم، وقوله في أنه لقي علي بن أبي طالب (ع) معلوم عندهم، متداول بينهم.

فأما الأحاديث التي رواها عن الأشج أبو محمد الحسن بن محمد الحسيني مما لم يروه أبو بكر محمد بن أحمد الجرجراي فهي:

قال الشريف أبو محمد: حدثني علي بن عثمان المعمر الأشج، قال: حدثني أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) قال: قال رسول الله (ص):

« من أحب أهل اليمن فقد أحبني، ومن أبغضهم فقد أبغضني ».

قال: وحدثني أمير المؤمنين (ع) قال: قال لي رسول الله (ص):

« أنا وأنت يا علي أبوا هذا الخلق، فمن عقنا فعليه لعنة الله، أمِّن يا علي، فقلت: آمين يا رسول الله.

فقال: يا علي، أنا وأنت موليا هذا الخلق، فمن جحدنا ولاءنا، وأنكرنا حقنا فعليه لعنة الله، أمّن يا علي، فقلت: آمين يا رسول الله ». آخر أخبار المعمّر المغربي:

حديث المعمر المشرقي:

هذا رجل مقيم ببلاد العجم من أرض الجبل، يذكر أنه رأى أمير المؤمنين (ع). ويعرفه الناس بذلك على مر السنين والأعوام.

ويقول إنه لحقه مثل ما لحق المغربي من الشجة في وجهه، وإنه صحب أمير المؤمنين (ع)، وخدَمَه.

وحدثني جماعة مختلفو المذاهب بحديثه، وأنهم رأوه وسمعوا كلامه.

منهم أبو العباس أحمد بن نوح بن محمد الحنبلي الشافعي. حدثني بمدينة الرملة في سنة إحدى عشرة وأربعمائة.

قال: كنت متوجهاً إلى العراق (للتفقه)[1] فعبرت بمدينة يقال لها شهرورد من أعمال الجبل، قريبة من زنجان، وذلك في سنة خمسين وثلاثماية[2]، فقيل لي: إن ههنا شيخاً يزعم أنه لقي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، فلو صرت إليه ورأيته لكان ذلك فائدة عظيمة.

---

(١) في النسخة: للنفقة.

(٢) في النسخة: سنة خمسين وأربعماية، وهو خطأ من الناسخ بقرينة ما سبق. وبقرينة أن المؤلف توفي (سنة ٤٤٩ هـ).

قال: فدخلنا عليه، فإذا هو في بيته يعمل النوار، وإذا هو شيخ نحيف الجسم، مدور اللحية، كبيرها، وله ولد صغير ولد له منذ سنة.

فقيل له: إن هؤلاء القوم من أهل العلم متوجهون إلى العراق، يحبون أن يسمعوا من الشيخ ما قد لقي من أمير المؤمنين (ع).

فقال: نعم، كان السبب في لقائي له، أني كنت قائماً في موضع من المواضع، فإذا أنا بفارس مجتاز، فرفعت رأسي فجعل الفارس يمر يده على رأسي ويدعو لي، فلما أن عبر، أُخبرت بأنه علي بن أبي طالب (ع)، فهرولت حتى لحقته وصاحبته.

وذكر أنه كان معه في تكريت، وموضع من العراق، يقال له تل فلان بعد ذلك، وكان بين يديه يخدمه إلى أن قبض (ع)، فخدم أولاده.

قال لي أحمد بن نوح: رأيت جماعةً من أهل البلد ذكروا ذلك عنه، وقالوا سمعنا آباءنا يخبرونا عن أجدادنا بحال هذا الرجل، وأنه على هذه الصفة، وكان قد مضى فأقام بالأهواز، ثم انتقل عنها لأذية الديلم له، وهو مقيم بشهرورد.

وحدثني أبو عبد الله الحسين بن محمد بن أحمد القمي رحمه الله: أن جماعة حدثوه بأنهم رأوا هذا المعمّر وشاهدوه، وسمعوا ذلك عنه.

وحدثني بحديثه أيضاً قوم من أهل شهرورد، وصفوا لي صفته، وقالوا: هو يعمل الزنانير.

وفي بعض ما ذكرناه في هذا الباب كفاية والحمد لله وصلاته على سيدنا محمد رسوله وآله.

فصل في الكلام في الآجال:

إن سأل سائل فقال: ما حقيقة الآجال؟

فقيل له: إن الآجال هي الأوقات، فأجل الحياة وقتها، وأجل الموت وقته الذي يوجد فيه.

وكذلك الأجل في الدَين إنما هو وقت وجوبه.

ويقال للإنسان: أجلّ لهذا الأمر أجلاً، معناه أجلً لحدوثه وكونه وقتاً.

فإن قال السائل: أفتقولون: إن الآجال محتومة لا يجوز تقديمها ولا تأخيرها، أم تجيزون أن يقدمها الله تعالى، ويؤخرها؟؟

قيل له: الذي نقوله: إن الله قادر على تأخير أجل الموت بالزيادة في مدة الحياة، وعلى تقديمه بالنقصان منها.

فإن قال: كيف يصح لكم القول بالتقديم والتأخير، وما معناه، والأجل عندكم هو الوقت؟ فأي وقت حضر موت الانسان فذلك أجله.

قيل له: المعنى في ذلك أن الوقت الذي أمات الله تعالى العبد فيه قد كان قادراً على أن لا يميته فيه، بل يبقيه بدلاً من ذلك ويحييه، فيكون هذا هو تأخير أجله، والزّيادة في عمره.

والوقت الذي أحياه الله تعالى فيه قد كان قادراً على أن يميته بدلاً من ذلك فيه ولا يحييه، فيكون هذا هو تقديم أجله، والنقص من عمره. وجميع ذلك في العقل غير مستحيل، وهو المعنى الذي ذهبنا إليه.

فإن قال: فإذا علم سبحانه أنه يحيي عبده هذا ماية سنة، حسبما تقتضيه عنده المصلحة، فكيف يصح مع ذلك أن يزيد في هذا المبلغ أو ينقص؟

قلنا: يصح أن يعلم أن المصلحة تقتضي أن يكون عمره ماية سنة ما لم يفعل شيئاً معيناً، فمتى فعله اقتضت المصلحة أن يزيده على الماية عشرين سنة، أو ينقصه منها عشرين. وهذا أيضاً غير مستحيل.

فإن قال: أفليس الله تعالى عالماً بأن العبد سيفعل ما تتغير المصلحة عند فعله، أو لا يفعله؟

قلنا: بلى، إن الله تعالى عالم به وبكل كائن قبل كونه، وبما لا يكون أن لو كان كيف يكون حاله.

فإن قال: فإذا كانت حاله معلومة له، فقد حصل عمره معلوماً، فلا معنى للزيادة والنقص ههنا.

قلنا: إنما ذلك على وجه التقدير الذي قد كان ممكناً غير مستحيل. وإن هذا الممكن لو كان كيف كانت تكون الحال من تأخيرٍ في الأجل وتقديم. وقد أخبر الله تعالى عن قوم نوح:

«يا قوم استغفروا ربكم إنه كان غفاراً، يرسل السماء عليكم مدراراً، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جناتٍ ويجعل لكم أنهاراً» نوح: ١٠ و١٢.

مع علمه سبحانه وعلم نوح أنهم لا يستغفرون ولا يتوبون، وأنهم بأسرهم يغرقون.

وقال عز وجل:

«ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض» الأعراف: ٩٦.

ولا يكون ذلك إلا وهم أحياء، وإنما عنى أهل القرى التي أهلكها، فأخبر أنهم لو آمنوا لأَحياهم، وأنعم عليهم، وهو يعلم أنهم لا يؤمنون، وأنه سيهلكهم.

وقد قال النبي (ص):

«إن صلة الرحم تزيد في العمر».

فأخبر (ع) أن عمر العبد يكون مقدراً معلوماً عند الله تعالى، وإن هو وصل رحمه زاد الله تعالى في عمره، والله تعالى عالم بأن هذا العبد إن لم يصل رحمه مات في وقت كذا، وإن هو وصلها عاش إلى وقت كذا. وهو مع هذا كله عالم بما يكون منه، وهل يصله أم لا يصله. قال الله عز وجل:

«وما يعمر من معمَّر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب» فاطر: ١١.

فإن قال السائل: فما تقولون في المقتول لو لم يقتل؟ أكان يجوز أن يبقى حياً أو كان منيته غير هذا أم لا؟

قيل له: كل ذلك جائز، وجوازه على قسمين:

أحدهما بمعنى أنا نشك فيه لعدم دليل القطع على حقيقته بما يكون منه.

والثاني بمعنى أن الله تعالى يقدر على ذلك كله ولا يستحيل منه. فهو عندنا لو لم يقتل جاز أن يبقى حياً وجاز أن يموت في الحال من غير قتل. ومهما كان من ذلك فهو معلوم قبل كونه لله تعالى.

ولو كان الظالم إنما يقتل المظلوم لأن أجله قد حضر، ولأن حضور أجله حمله على قتله، لم يكن ملوماً ولا ظالماً، بل كان محمولاً على ذلك مضطراً.

وقد ضُرب في معنى هذا مثل، فقيل:

لو كان كل مقتول لو لم يقتل لمات في ذلك الوقت لا محالة، ولم يعش لحظةً واحدة، لكان من قصد إلى أغنام رجلٍ فذبحها عن آخرها، لا يجوز أن يلومه صاحبها، ولا يغرمه بثمنها، بل كان يجب أن يشكره على ذبحها، لأنه لو لم يذبحها لماتت كلها، فكان لا ينتفع بشيءٍ منها.

وفي صحة توجه اللوم إليه دلالة على أنه لو لم يذبحها لجاز أن تبقى كلها حيةً أو يبقى بعضها، والله عالم بحقيقة أمرها.

فإن قال: أفتقولون: إن المقتول مات بأجله، أم تقولون إن قاتله قطع أجله؟؟

قلنا: قد ذكرنا أن حقيقة الأجل هو الوقت، وأجل الشيء وقته. وإذا كان هذا هو الأصل، فالوقت الذي قتل به فيه هو أجل موته، كما هو وقت موته. وقد ذكرنا قول الله تعالى في قوم نوح، أنهم لو آمنوا لأبقاهم إلى أجل مسمى، فلما لم يؤمنوا أُهلكوا قبل ذلك الأجل، وليس هذا بمانعٍ من أن نقول بأنهم قد هلكوا بآجالهم، نريد وقت حضور إهلاكهم.

فإن قال: فما معنى قوله سبحانه:

«إذا جاء لا يؤخر»[1]

وقوله:

---

(١) نوح: من الآية ٤ (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون).

« فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » الأعراف: ٣٤.

قلنا: المراد بذلك، الأجل الذي علم الله تعالى أنهم يميتهم فيه، والحمد لله.

فصل:

واعلم أنا نذهب إلى أن الله تعالى إذا علم من حال عبدٍ من عبيده أنه إذا أبقاه آمن من كفره أو تاب من معصيته وفسقه، فإن الواجب في حكمته عز وجل أن يبقيه ولا يخترمه.

فإن كان قد فعل به ذلك مرة فتاب وأقلع، ثم عاد في معاصيه ونكث، وعلم منه بعد ذلك أنه إن أبقاه تاب أيضاً وأحسن، فإن تبقيته لأجل التوبة غير واجبة، لأن ذلك لو وجب دائماً لم يكن للتكليف أجر، وأدى للخروج من الحكمة والعبث، تعالى الله عن كل صفة نقص.

مسألة فقهية

ذكرها شيخنا أبو عبد الله المفيد رضوان الله عليه.

امرأة ورثت أربعة أزواج، واحداً بعد واحد، فصار لها نصف أموالهم جميعاً، وللعصبة النصف الباقي.

جواب:

هذه امرأة تزوجها أربع أخوة واحداً بعد واحد، وورث بعضهم بعضاً، وكان جميع مالهم ثمانية عشر ديناراً، لواحد منهم ثمانية دنانير، وللآخر منهم ستة دنانير، وللآخر ثلاثة، وللآخر دينار واحد. فتزوجها الذي له ثمانية دنانير، ومات عنها فصار لها الربع مما ترك، وهو ديناران، وصار ما بقي بين الأخوة الثلاثة، لكل واحدٍ منهم ديناران، فصار لصاحب الستة ثمانية دنانير، ولصاحب الثلاثة خمسة، ولصاحب الدينار ثلاثة.

ثم تزوجها صاحب الثمانية ومات عنها، فورثت منه بحق الربع دينارين، وصار ما بقي وهو ستة دنانير بين أخويه، لكل واحد منهما ثلاثة دنانير، فصار للذي له خمسة دنانير ثمانية دنانير، وللذي له ثلاثة ستة. ثم تزوجها صاحب

الثانية ومات عنها فورثت منه الربع دينارين، وصار ما بقي لأخيه وهي ستة دنانير، فحصل له بهذه الستة مع الستة الأولى اثنا عشر ديناراً.

ثم تزوجها وهو الباقي من الأخوة وله اثنا عشر ديناراً، ومات عنها، فورثت الربع ثلاثة دنانير، فصار جميع ما ورثته عنهم تسعة دنانير، لأنها ورثت من الأول دينارين، ومن الثاني دينارين، ومن الثالث دينارين، ومن الرابع ثلاثة دنانير، فذلك تسعة، وهي نصف ما كانوا يملكونه، والباقي للعصبة كما قلنا.

خبر ضرار بن ضمرة عند دخوله على معاوية

أخبرنا أبو المرجا محمد بن علي بن أبي طالب، قال: أخبرني أبو المفضل محمد بن عبد الله بن محمد بن المطلب الشيباني الكوفي[1] قال: حدثني منصور بن الحسن بن أبي جلة بأنطاكية، قال: حدثنا محمد بن زكريا بن دينار، قال: حدثنا العباس بن بكار، عن عبد الواحد بن أبي عمرو الأسدي، عن محمد بن السائب، عن أبي صالح مولى أم هاني[2]، قال:

دخل ضرار بن ضمرة الكناني على معاوية بن أبي سفيان يوماً، فقال له: يا ضرار، صف لي علياً. قال: أوتعفيني من ذلك؟ قال: لا أعفيك. قال:

أما إذ لا بد، فإنه كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة عن لسانه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل وظلمته.

(١) في فهرست الطوسي: يكنى أبو المفضل كثير الرواية حسن الحفظ، غير أنه ضعفه جماعة من أصحابنا، له كتاب الولادات الطيبة الطاهرة وكتاب الفرائض وكتاب المزار وعن النجاشي: كان سافر في طلب الحديث عمره أصله كوفي وكان في أول أمره ثبتاً ثم خلط ورأيت جل أصحابنا يغمزونه ويضعفونه له كتب كثيرة، وقال الخطيب البغدادي: نزل بغداد وحدث بها عن محمد بن جرير الطبري ومحمد بن العباس اليزيدي وأمثالهم، وكان يضع الحديث الرافضة... ولد سنة ٢٩٧ وتوفي سنة ٣٨٧.

(٢) هي أم هاني بنت أبي طالب، أخت علي (ع) كان الأسراء من دارها، ودخل رسول الله (ص) على أم هاني يوم الفتح وكان جائعاً، فقالت: يا رسول الله، إن أصهاراً لي قد لجأوا إليّ، وإن أخاف أن يعلم بهم علي بن أبي طالب فيقتلهم، قال (ص): قد أجرنا من أجرت يا أم هاني (سفينة البحار م١ ص ٤٢٥ وم٢ ص ٧٢٤).

كان والله غزير الدمعة، طويل الفكرة، يُقلِّب كفه، ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما جشب.

كان والله، معنا كأحدنا، يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه، وكان مع دُنوِّه لنا، وقربه منا، لا نكلمه هيبةً له.

فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ النظيم، يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله.

أشهد بالله، لرأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، متماثلاً في محرابه، قابضاً على لحيته، يتململ تململ السليم[1]، ويبكي بكاء الحزين، وكأني أسمعه وهو يقول: يا دنيا، يا دنيا، أبي تعرضت أم إليّ تشوفت، هيهات، هيهات، غُرِّي غيري، لا حان حينك، قد أبنتك ثلاثاً. عمرك قصير، وخيرك حقير، وخطرك كبير، آهِ آهٍ من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق.

فوكفت دموع معاوية على لحيته، وجعل يستقبلها بكمه، واختنق القوم جميعاً بالبكاء، وقال: هكذا كان أبو الحسن يرحمه الله. فكيف وجدك عليه يا ضرار؟

فقال: وجد أُم واحد، ذبح واحدها في حجرها، فهي لا يرقى دمعها، ولا يسكن حزنها[2]

فقال معاوية: لكن هؤلاء لو فقدوني لما قالوا، ولا وجدوا بي شيئاً من هذا.

---

(١) السليم هو الملسوع من حية أو عقرب.

(٢) خبر ضرار مستفيض، وقد عرض له في الاستيعاب ج ٣ ص ٤٣ من المطبوع بهامش (الاصابة) بمصر سنة ١٩٣٩م - ١٣٥٨هـ والقيرواني في زهر الآداب المطبوع بهامش العقد الفريد م١ ص ٤٧ - ٤٨، والسبط في التذكرة، ص ١١٩، والمسعودي في مروج الذهب ج ٢ ص ٤٣٣، وابن حجر في الصواعق ص ١٣٩ - ١٤٠ والقالي في الأمالي ١٤٣ - ١٤٤، والبيهقي في المحاسن والمساوىء ج ٢ ص ٧٢ - ٧٣ وغيرها. أنظر كتابنا (مصادر نهج البلاغة) ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

ثم التفت إلى أصحابه فقال: بالله، لو اجتمعتم بأسركم، هل كنتم تؤدون عني ما أدّاه هذا الغلام عن صاحبه؟

فيقال: إنه قال عمرو بن العاص: الصحابة على قدر الصاحب.

تروى هذه الأبيات عن أمير المؤمنين (ع):

إذا كنت تعلم أن الفراق	فراق الحياة قريب قريب
وإن المعدَّ جهاز الرحيل	ليوم الرحيل مصيب مصيب
وأن المقدم ما لا يفوت	على ما يفوت معيب معيب
وأنت على ذاك لا ترعوي	فأمرك عندي عجيب عجيب

وقال أمير المؤمنين (ع):

« ما زالت نعمة عن قوم، ولا غضارة عيش إلا بذنوب اجترحوها. إن الله ليس بظلام للعبيد ».

بلغنا أن من كلام الله تعالى الذي أنزله على بني إسرائيل:

إني أنا الله لا إلّه إلا أنا، ذو... مفقر الزناة، وتاركٌ تاركي الصلاة عراة.

وقال رسول الله (ص):

« أحسنوا مجاورة النعم، لا تملوها ولا تنفروها، فإنها قلّ ما نفرت عن قومٍ فعادت إليهم ».

وقال عليه الصلاة والسلام:

« من قال قبَّحَ الله الدنيا، قالت الدنيا: قَبَّحَ الله أعصانا للرب ».

وقال عليه السلام:

« من عف عن محارم الله كان عابداً، ومن رضي بقسم الله كان غنياً، ومن أحسن مجاورة من جاوره كان مسلماً، ومن صاحب الناس بالذي يحب أن يصاحبوه كان عدلاً ».

وقال عليه السلام:

« من اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن

المحرمات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات، ومن ارتقب الموت سارع في الخيرات».

فصل:

مما جاء في الخصال:

قال رجل لأحد الزهاد أوصني.

فقال: أوصيك بخصلةٍ واحدة، إن الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيهما.

ولقي حكيم حكيماً فقال له: عظني وأوجز.

قال: عليك بخصلتين: لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك.

قال: زدني. قال: ما أجد للحالين ثالثة.

قال حكيم الفرس:

«ثلاث خصال لا ينبغي للعاقل أن يضيعهن، بل يجب أن يحث عليهن نفسه وأقاربه ومن أطاعه».

عمل يتزوده لمعاد، وعلم طب يَذبّ به عن جسده، وصناعة يستعين بها في معاشه.

وقال بعض الحكماء:

أربع خصالٍ يمتن القلب: ترادف الذنب على الذنب، وملاحاة الأحمق، وكثرة مناقبة النسا، والجلوس مع الموتى.

قيل له: ومن الموتى؟

قال: كل عبدٍ مترف فهو ميت، وكل من لا يعمل فهو ميت.

وقال ابن عباس رحمة الله عليه:

خمس خصال تورث خمسة أشياء:

ما فشت الفاحشة في قوم قط إلا أخذهم الله بالموت.

وما طَفَّف قوم الميزان إلا أخذهم بالسنين.

وما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم.
وما جار قوم في الحكم إلا كان القتل بينهم.
وما منع قوم الزكاة إلا سلط الله عليهم عدوهم.

وقال لقمان الحكيم لابنه في وصيته:

يا بنيّ، أَحثك على ست خصال، ليس من خصلة إلا وهي تقرّبك إلى رضوان الله عز وجل، وتباعدك من سخطه.

الأُولى أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً.
والثانية الرضا بقضاء الله فيما أحببت وكرهت.
والثالثة: أن تحب في الله، وتبغض في الله.
والرابعة، تحب للناس ما تحب لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك.
والخامسة، تكظم الغيظ، وتحسن إلى من أساء إليك.
والسادسة، ترك الهوى، ومخالفة الردى.

وقال بعضهم: ذو المروءة الكاملة، من اجتمع فيه سبع خصال، إذا ذكَّرَ ذكر، وإذا أُعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا عُصي غفر، وإذا أحسن استبشر، وإذا أساء استغفر، وإذا وعد أنجز ويسر.

وقال بعض الحكماء:

تحصن بثمانٍ من ثمانٍ:
بالعدل في المنطق من ملالة الجلساء.
وبالروية في القول من الخطأ.
وبحسن اللفظ من البذاء.
وبالانصاف من الاعتداء.
وبلين الكف من الجفاء.
وبالتودد من ضغائن الأعداء.
وبالمقاربة من الاستطالة.
وبالتوسط في الأمور من لطخ العيوب.

وروي أن تسع خصال من الفضل والكمال، وهنّ داعية إلى المحبة مع ما فيها من القربة والمثوبة:

الجود على المحتاج، والمعونة للمستعين، وحسن التفقد للجيران، وطلاقة الوجه للاخوان، ورعاية الغائب فيمن يخلف، وأداء الأمانة الى المؤتمن، وإعطاء الحق في المعاملة، وحسن الخلق عند المعاشرة، والعفو عند المقدرة.

وأوصى أفلاطون أحد أصحابه بعشر خصال قال:

لا تقبل الرئاسة على أهل مدينتك البتة.
ولا تتهاون بالأمر الصغير إذا كان يقبل النماء.
ولا تلاح رجلاً غضباناً فإنك تقلقه باللجاج.
ولا تجمع في منزلك نفسين فيتنازعان في الغلبة.
ولا تفرح بسقطة غيرك، فإنك لا تدري متى يحدث الزمان بك.
ولا تنتفخ في وقت الظفر، فإنك لا تدري كيف يدور عليك الزمان.
ولا تهزل بخطأ غيرك فإن المنطق لا تملكه.
وألق الخطأ من الناس بنوع الصواب الذي في جوهرك
ولا تبذلن مودتك لصديقك دفعةً واحدة.
وصير الحق أبداً أمامك تسلم دهرك ولا تزال حراً.

تأويل آية[1]:

إن سأل سائل عن تأويل قوله عز وجل:

« وجاؤا على قميصه بدم كذب، قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » يوسف: ١٨.

فقال: كيف يصح وصف الدم بالكذب، والكذب من صفات الأقوال، لا من صفات الأجسام؟

---

(١) تكلم على هذه الآية الشريف المرتضى في كتاب الأمالي م ١ ص ١٠٥- ١٠٧.

وما معنى قول يعقوب (ع): فصبر جميل، وكيف وصفه بذلك، ونحن نعلم أن صبره لا يكون إلا جميلاً؟؟

الجواب:

قيل له: أما كذب فمعناه في هذا الموضع، مكذوب فيه وعليه، مثل قولهم: هذا ماء سُكب وشراب صب، يريدون مسكوباً ومصبوباً.

وكقولهم: رجل صوم، وامرأة نَوَح، والمعنى صائم ونائحة. قال الشاعر:

فظــــل جيادهم نَوحـــاً عليهم   مقلـــــدة أعنتهـــــا صفوفـــا

أراد نائحة.

ويقولون أيضاً: ما لفلان معقول، يريدون عقلا، قال الشاعر:

حـــتى إذا لم يتركوا لعظامــــه   لحماً ولا لفؤاده معقولا

وقد قال الفراء وغيره: يجوز في النحو، بدمٍ كذباً بالنصب على المصدر، وتقدير الكلام، كذبوا كذباً.

وإنما كان دماً مكذوباً فيه، لأن أخوة يوسف (ع) ذبحوا سخلة ولطخوا قميص يوسف بدمها، وجاؤوا أباهم بالقميص، وادعوا أكل الذئب له، فقال لهم يعقوب (ع): يا بني، لقد كان هذا الذئب رفيقاً حين أكل ابني ولم يخرق قميصه، وعند ذلك قالوا: بل قتله اللصوص، فقال: فكيف قتلوه وتركوا قميصه وهم إلى قميصه أحوج منهم إلى قتله.

وقد قيل: إنه كان في قميص يوسف ثلاث آيات:

إحداهن حين جاؤا إليه بدمٍ كذب، فتبينه أبوه على أن الذئب لو أكله لخرق قميصه.

والثانية، حيث قدَّ قميصه من دبر.

والثالثة، حين ألقي على وجه أبيه فارتدَّ بصيراً.

وأما وصف الصبر بأنه جميل فلأن الصبر قد يكون جميلاً وغير جميل، وإنما

يكون جميلاً إذا قصد به وجه الله تعالى. فلما كان في هذا الموضع واقعاً على الوجه المحمود صح وصفه بالجميل.

وقد قيل إنه أراد صبراً لا شكوى فيه ولا جزع معه، ولو لم يصفه بذلك لظُنّ مصاحبة الشكوى والجزع له.

وقد قال أهل العربية: إن ارتفاع الصبر ههنا، إنما هو لأن المعنى، فشأني صبر جميل، والذي اعتقده صبر جميل، وقد أنشدوا:

شكا إليَّ جَمَلي طول السرى يا جملي ليس إليّ المشتكى
صبر جميل فكلانا مبتلى

معناه، فليكن منك صبر جميل.

وقد روي أن في قراءة أُبيّ، فصبراً جميلاً بالنصب، وذلك يكون على الاغراء، والمعنى، فاصبري يا نفس صبراً جميلاً. قال ذو الرمة:

ألا إنما ميٌّ فصبراً بليةٌ وقد يبتلى الحر الكريم فيصبر

تأويل خبر:

إن سأل سائل، فقال: ما معنى الخبر المروي عن النبي (ص) أنه قال: «إن الله تعالى خلق آدم على صورته».

أو ليس ظاهر هذا الخبر يقتضي التشبيه له تعالى بخلقه، فإن لم يكن على ظاهره، فما تأويله؟

الجواب:

قلنا: أحد الأجوبة عن هذا أن تكون الهاء عائدة الى الله تعالى، والمعنى أنه خلقه على الصورة التي اختارها، وقد يضاف الشيء إلى مختاره.

ومنها أن تكون الهاء عائدة الى آدم، ويكون المراد أن الله تعالى خلقه على صورته التي شوهد عليها، لم ينتقل إليها عن غيرها كتنقل أولاده الذين يكون أحدهم نطفةً ثم علقة ثم مضغة، ويخلق خلقاً من بعد خلق، ويولد طفلاً صغيراً

ثم يصير غلاماً ثم شاباً ثم كهلاً، ولم يكن آدم (ع) كذلك، بل خلق على صورته التي مات عليها.

وما منها ما رواه الزهري عن الحسن قال: مرَّ النبي (ص) برجل من الأنصار وهو يضرب وجه غلام له ويقول: قبَّح الله وجهك ووجه من تشبهه، فقال له النبي (ص): بئسما قلت، إن الله خلق آدم على صورته، يعني صورة المضروب.

وهذه أجوبة صحيحة والحمد لله.

فصل:

من الاستدلال على صحة النص بالإمامة على أمير المؤمنين (ع) من قول النبي (ص): «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي».

اعلم - أيدك الله تعالى - أن مما يدل على أن أمير المؤمنين (ع) المنصوص بالإمامة عليه، ما نقله جميع الأُمة، وتلقاه بالقبول الخاصة والعامة، من قول النبي (ص) له (ع):

«أنت مني بمنزلة هارون بن موسى إلا أنه لا نبي بعدي»[1].

فأوجب له جميع منازل هارون من موسى عليهما السلام، إلا ما خصه العرف من الأُخوة، واستثناه هو (ع) من النبوة. وذلك موجب له الخلافة والإمامة، وكاشف عن استحقاقه على الكافة فضل الطاعة.

واعلم أنك تسأل في هذا الدليل عن خمسة مواضع:

أولها أن يقال لك: ما حجتك على صحة الخبر في نفسه، وما الذي يدفع به إنكار من أنكره؟؟

وثانيها، أن يقال لك: إذا ثبت الخبر، فما الحجة على أن المراد بمنزلة

---

(١) تجده في البخاري ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، ومستدرك الصحيحين، ومسند أحمد، والنسائي، وطبقات ابن سعد، وحلية الأولياء، وتاريخ بغداد، وتاريخ الطبري، وكنز العمال، ومجمع الزوائد، والرياض النضرة وغيرها «أنظر فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ١ ص ٢٩٩ - ٣١٦). وتجده في مناقب ابن المغازلي مروياً بعدة عدة طرق انظر: ص ٢٧ - ٣٧.

هارون من موسى (ع)، المذكورة فيه، عموم ما يستحقه منه سوى ما ذكرتموه، وما أنكرتم أن يكون منزلة واحدة؟ وهي التفضيل المزيل لإرجاف المنافقين (في) قولهم: إن رسول الله (ص) قلاه لما خلفه في غزاة تبوك.

وثالثها، أن يقال لك: إذا ثبت العموم، فمن أي وجه استنبطت من ذلك النص بالإمامة، ووجوب الخلافة لأمير المؤمنين (ع)؟

ورابعها، أن يقال لك: إذا ثبت له به الخلافة، فما الحجة على أنه أراد استحقاقه لها بعده؟ وما أنكرتم أن يكون قصد أنه خليفته في حياته فقط، كما أن هارون إنما خلف موسى في حياته فقط؟؟

وخامسها أن يقال لك: إذا ثبت له بذلك الخلافة بعده، فما الحجة على أنه أراد بذلك، الفور، فيكون خليفة الذي يليه، دون التراخي، فيكون خليفةً بعد عثمان؟؟

الجواب عن السؤال الأول:

أما الحجة على صحة هذا الخبر في نفسه فهي الحجة على صحة خبر الغدير بعينه، لمماثلته له في الظهور والانتشار، وتواتر الشيعة به تواتراً يقطع الأعذار، ورواية أكثر أصحاب حديث العامة له في الصحيح عندهم من مسند الأخبار، وتلقي الكافة له مع ذلك بالتسليم والاقرار. فمن شيعي يحتج به، وناصبيٍ يتأوله، وليس بينهما دافع له.

ومن قبل ذلك، فاحتجاج أمير المؤمنين (ع) في يوم الشورى وغيره، لم ينكره أحد ممن سمعه.

وكل هذا قد سلف ذكره في خبر الغدير، فلا حاجة إلى إعادته، وهو أوضح حجة على ثبوت الخبر وصحته.

الجواب عن السؤال الثاني:

وأما الحجة على أنه أراد بقوله: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى)، جميع منازله منه على العموم، وإن عبّر عن ذلك بلفظ التوحيد إلا ما استثناه العرف والقول، فهو أنا وجدنا الناس في هذا الخبر على فرقتين لا ثالث لهما:

أحدهما يذهب إلى أن المراد به منزلة واحدة على التحقيق، وتدّعي أن السبب في ذلك ما روي في غزاة تبوك، وهي نفر يسير.

والفرقة الأخرى تذهب إلى عموم القول لجميع المنازل، إلا ما خصصه الدليل، وهو قول الشيعة وأكثر الخصوم.

وإنما أنكر هؤلاء المخالفون المعترفون بأن الخبر يقتضي العموم، أن يكون موجباً لخلافة أمير المؤمنين بعد الرسول عليهما السلام، من حيث لم يثبت عندهم أن هارون لو بقي بعد موسى عليهما السلام، كان خليفةً له، ولم يهتدوا في الخبر إلى دليل على أنه أراد الاستخلاف من بعده. وإن كان منهم من قد علم ذلك، ولكن جذبه الهوى، فأصرّ على الإنكار وعاند.

وإذا لم يكن في الخبر غير هذين القولين، فلا شك في أنه متى فسد قول من ادّعى فيه الخصوص، علم صحة قول من ذهب إلى العموم.

والذي يدل على فساد قول من قصره على منزلة واحدة، وجود الاستثناء الظاهر فيه، الذي لا يصح إيراده إلا والمستثنى منه أكثر من واحد، لأن الاستثناء هو إخراج بعضٍ من جملة، لو لم يستثن لدخل فيها. والخصلة الواحدة لا يصح هذا فيها.

ألا ترى أنه لا يحسن أن يقال: رأيت زيداً إلا عمراً، ويحسن أن يقال: رأيت القوم إلا عمراً. فعلم بهذا فساد مقال من قصر الخبر على منزلة واحدة.

فأما ما تعلقوا به من أن السبب في ذلك ما جرى في غزاة تبوك، فغير صحيح، لأنا عالمون بصحة الخبر، ولسنا نعلم صحة ما ذكروه كعلمنا بالخبر، فلا طريق لنا إلى تخصيص المعلوم، بما ليس بمعلوم.

على أن الروايات قد اتصلت واشتهرت عن رسول الله (ص)، بأنه قال لأمير المؤمنين (ع): (أنت مني بمنزلة هارون من موسى) في مواقف عدة، وأماكن كثيرة، وأوقات متفرقة. فيجوز أن يكون غزاة تبوك أحدها، ولكنه لا سبيل لنا إلى قصره عليها. وإن كنا متى خصصناه بها لم يكن منا ما ظنه المخالف، من أن الخبر دال على فضيلة المحبة فقط، لا يستحيل أن تكون هي السبب، فيقول

رسول الله (ص) قولاً يقتضيه، ويتضمن (عديدة) ويزيد عليه، فيكون بما قاله قد أعلم المرجفين أنه ما قلاه، وأن منزلته عنده في المحبة والفضل وعلوّ القدر والخلافة له في حياته وبعد وفاته، نظير هارون من موسى (ع). وهذا مستمر غير مستحيل.

وأما ما ورد الخبر (به) بلفظ التوحيد في قوله: (منزلة هارون من موسى)، ولم يقل منازل هارون، فقد جرت العادة بمثل ذلك من إيراد القول مضمناً ذكر منزلةٍ، والمراد عدة منازل، فيقولون: منزلة فلان من الأمير، كمنزلة فلان، وهم يشيرون إلى عدة أحوال من منازل مختلفة وأسباب، ولا يكاد يقولون: منازل فلان من الأمير كمنازل فلان.

وإنما استعملوا لفظ التوحيد في هذا المكان من حيث اعتقدوا أن المنازل الكثيرة والرتب المختلفة، قد حصل جميع ذلك له كالمنزلة الواحدة، التي هي جملة، وإن تفرّعت إلى أشياء عدة، فعبّروا عنها بلفظ التوحيد اتّساعاً لهذه العلة.

الجواب عن السؤال الثالث:

وأما الوجه الذي عُلِم منه دلالة الخبر على الخلافة، والحجة في أنه نص على أمير المؤمنين (ع) بالإمامة، فهو أن منازل هارون من موسى عليهما السلام معروفة، وقد حصل عليها الإجماع، ونطق بها القرآن.

فمنها أنه كان أخاً بالولادة، وكان أحب الخلق إليه، وأفضلهم لديه.

وكان شريكه في النبوة والرسالة.

وكان عضده الذي شدَّ الله تعالى به أزره، قال الله جل اسمه:

«واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخي، اشدد به أزري، وأشركه في أمري» طه: ٢٩.

وكان خليفته على قومه عند غيبته قال الله تعالى:

«وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين» الأعراف: ١٤٢.

فلما قال النبي (ص) لأمير المؤمنين (ع)، أنه مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، علمنا أنه أراد جميع ما كان لهارون من موسى (ع) من المنازل، إلا ما أخرجه الاستثناء، وأخرجه أيضاً العرف من أُخوة الولادة. واتضحت الحجة في أن أمير المؤمنين (ع) أحب الخلق إلى رسول الله (ص)، وأفضلهم عنده، وأنه عضده الذي شدَّ الله به أزره، ووزيره في أمره، وخليفته في أُمته. وهذا بَيِّن لمن تدبره.

الجواب عن السؤال الرابع:

اعلم أن الكلام في هذا السؤال هو معظم ما يدور بينك وبين المخالفين، إذا استدللت بهذا الخبر، وفي إحكام هذا الجواب عنه، حسم مادة ما يوردونه عليك من العتب والشغب، لأنهم أبداً يقولون: إذا ثبت لكم بهذا الخبر، الاستخلاف، فما الدليل على أن رسول الله (ص)، أراد به استخلاف أمير المؤمنين (ع) في حياته وبعد مماته، دون أن يكون مراده قصر هذا الأمر على أيام حياته فقط. ويقولون: هذا أشبه، لأن خلافة هارون لموسى (ع) لم تكن إلا في حياة موسى.

ولو أراد بذلك النص على خلافته له من بعده، لقال: أنت مني بمنزلة يوشع من موسى، لأن خلافة موسى (ع) من بعده كانت ليوشع، دون غيره. فعن هذا جوابان:

أحدهما في قوله: أنت مني بمنزلة هارون من موسى فوائد لا يحصل مثلها لو قال: أنت مني بمنزلة يوشع من موسى، (فإنه)[1] يدل على أن أمير المؤمنين (ع) أعلى الناس قدراً (عند) رسول الله (ص)، وأنه تاليه في الفضل والعلم، كما (كان) هارون من موسى (ع)، وكان خليفته في حياته إذا غاب. ولو بقي بعد موسى لكان أحق بخلافته من يوشع.

فجمع رسول الله (ص) لأمير المؤمنين (ع) بقوله: أنت مني بمنزلة هارون من

---

(١) في النسخة: (وقال إنه).

موسى هذه الخصال، فهو أعلى الناس قدراً ومحلاً، وهو تاليه في العلم والفضل، وخليفته في حياته.

ولما بقي بعده كان أحق الناس بخلافته. ولو قال له: (أنت بمنزلة يوشع من موسى) لم يعطه من جميع ما ذكرناه إلا الخلافة من بعده فقط، ولم يبق بعد هذا أكثر من أن نبين أن هارون لو بقي بعد موسى كان أحق بالخلافة من يوشع.

والذي يدل على ذلك أنه قد ثبت خلافته له في حال حياته بقوله تعالى: « وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح »، وفي ثبوتها له في حال حياته وجوب حصولها له لو بقي بعد وفاته، لأن خروجها عنه في حال من الأحوال مع بقائه حط له عن رتبة عالية، كان عليها، وصرفٌ له عن ولاية عظيمة فُوّض إليه الأمر فيها، وذلك يقتضي الضعة منه وغاية (التنفير) عنه، لأنه خلافة النبوة ليست كالخلافة على قريةٍ ومدينة. وإنما هي النيابة عن النبي (ع) في جميع ما كان يتولاه من أمر الأمة والقيام مقامه في إصلاح أمور الكافة، من تعليمهم وتهذيبهم، ووعظهم وتأديبهم، وزجرهم وتخويفهم، وتوقيفهم، وتعريفهم.

وهذا يقتضي التدين بفرض طاعته، وغاية التبجيل والتعظيم له. فمتى حُطّ عن هذه المرتبة بعد كونه عليها، وأُنزل عن درجة الخلافة التي رقى إليها، زال ما كان له في النفوس من التبجيل والتعظيم. وفي ذلك ما ذكرناه من غاية التنفير.

ومن ذا الذي تكون نفسه ساكنة إلى قبول وعظ خليفة، يعلم أو يجوز أنه سينحط عن رتبة الخلافة إلى أن يصير رعية، ويهبط عن درجة الإمامة إلى أن يحصل من أحد الأُمة، كسكونها إلى من لا يجوز ذلك عليه؟

بل كيف يصح من التابعين غاية التبجيل والتعظيم لمن يعلمون من حاله، أو يجوزون ذلك من أمره، أنه سيتأخر بعد مقامه، ويصير لمن كان من أتباعه، ومتعلماً (ممن) كان يعلمه، ومقتدياً بمن كان يقتدي به، حتى يسقط ما كان يلزم الناس من فرض طاعته، ويصير هو وهم طائعين لمن كان من جملة المطيعين له.

ومن دفع أن يكون الخروج من هذه المنزلة منفِّراً، كمن دفع أن تكون القباحة في الخلق والدمامة المفرطة في الصور منفّراً.

وقد أجمع معنا خصومنا من المعتزلة على أن الله تعالى يجنب أولياءه وأنبياءه عليهم السلام جميع هذا.

فبان بما ذكرنا أن منزلة هارون من موسى (ع) منزلة لا يجوز خروجه عنها ما دام حياً، وأنه لو بقي بعد موسى لكان أحق بها من يوشع وأولى.

وفي ذلك دليل على أن أمير المؤمنين (ع) يستحقها من رسول الله (ص) في حياته وبعد وفاته، لبقائه بعده.

وليس موت هارون في حياة موسى (ع) بمانعٍ لأمير المؤمنين (ع) مما هو مستحقه ببقائه.

ألا ترى أن رجلاً لو قال لوكيل له: أجرِ على عبدي الرومي في كل يومٍ جرابة، وفي كل شهر صلة، ثم قال بعد ذلك: إن منزلة عبدي الحبشي عندي كمنزلة ذلك الرومي، فأجره مجراه، واجعل له من الجاري والصلة نظير ما جعلت له، ثم مات الرومي، فمعلوم أن موته لا يقطع جرانة الباقي، ولا يحرمه صلته.

هذا ما لا يدفعه أحد ولا ينكره.

فإن قال الخصم: فيلزمك على هذه الطريقة، أن نقول: إن طاعة أمير المؤمنين (ع) كانت مفترضة على الأمة في حياة رسول الله (ص).

قيل له: كذلك نقول، ولكن بشرط غيبته. وأما عند حضور النبي (ص) فإنه لا يجوز أن تكون الطاعة واجبة إلا له، وهذا حكم الخليفة في المتعارف والعادة.

الجواب الثاني عن هذا السؤال:

إن النبي (ص) قد أوضح مراده في كلامه لمن فهم، وأبان عن قصده من قوله لمن علم.

وذلك أنه أتى بجملة أوجب منها لأمير المؤمنين (ع) ما أراده، واستثنى

منها ما لم يرده، وعلق ذلك بوقتٍ، نفى عنه فيه ما نفى، فوجب أن يكون هذا له فيه ما أوجب.

ولا يجوز أن يتضمن الكلام استثناءً ويكون مقيداً بوقتٍ، إلا وهو وقت المنفي منه والموجب.

مثال ذلك، قول القائل: قام القوم إلا زيداً اليوم، فلا يجوز أن يكون اليوم إلا وقتاً للحالين. ففيه قام القوم، وفيه بعينه لم يقم زيد، ولولا أن الأمر كما ذكرناه لم يحسن الاستثناء وذكر الوقت، وقد قال النبي (ص) بعدما أوجبه لأمير المؤمنين (ع)، من منازل هارون من موسى (ع): (إلا أنه لا نبي بعدي)، فعلمنا أن جميع ما أثبته له مما استحقه هارون من موسى في حياته، وهو مثبت له من بعده، لأنه الوقت الذي قرنه بالاستثناء.

ولو كان الأمر على ما ذكره الخصم من أنه أراد بذلك أيام حياته، لقال: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي معي، أو لا نبي في حياتي. وفي نفيه لما (لم) يرده بعده، دليل على أنه قد أثبت له ما أراده بعده، والحمد لله.

فإن قال الخصم: ما تنكرون من أن يكون مراده (ص) بقوله: (إلا أنه لا نبي بعدي) إنما هو بعد كوني نبياً، وذلك يقتضي حال الحياة.

قلنا: أنكرنا ذلك من قِبَلِ أن لفظة (بعد) إذا خرجت مخرج قول النبي (ص) أوجبت بالعرف والعادة حال الوفاة التي هي بعد الحياة، دون أن يوجب حالاً في الحياة.

ألا ترى الى قوله (ص) لأمير المؤمنين:

«تقاتل بعدي الناكثين والقاسطين، والمارقين»

وقوله: «ستغدر بك الأمة من بعدي».

وقوله: «ستفرق كلمتكم من بعدي».

وقوله:

«ألا لا تُرجعنّ بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض».

كل ذلك يفيد، بعد وفاتي.

وكذلك قول القائل: فلان وصيي من بعدي، والقائم مقامي من بعدي.

فإن المعنى فيه بعد موتي. وهذا يبطل ما ظنه الخصم.

على أنه لو سُلِّم له ما ادعاه، وبلغ منه مناه، لم يخرج عن الحق الذي قصدناه، لأن نفي النبوة بعده ينتظم بعد كونه نبياً في حياته وبعد وفاته وإلى آخر الأبد.

وما ثبت لأمير المؤمنين (ع) في متضمن اللفظ من المنازل التي لم تنتف بنفي النبوة، يجب أن يثبت له في سائر أحوال النفي، حتى يكون خليفته في حياته في كل حالٍ غاب فيها عن أمته، وخليفته من بعده ما دامت حياته (ص)، وهذا واضح لمن تأمله.

الجواب عن السؤال الخامس:

وأما الحجة على أن الخلافة الواجبة لأمير المؤمنين (ع) بنص رسول الله (ص) في هذا الخبر، تجب له بعده بغير فصل، دون أن يكون المراد بذلك وجوبها له بعد عثمان، فهي واضحة من وجوه:

أحدها أنا قد بينا استحقاقه للخلافة بعد رسول الله (ص) بهذا الخبر، وأنه القائم بعده، مقام هارون بعد موسى (ع)، وأقمنا الدليل على أن هارون لو بقي لكان خليفةً لموسى من بعده، يليه بغير فصل.

والوجه الثاني أن قول النبي (ص) في الخبر: (إلا أنه لا نبي بعدي) قد أفاد أنه الخليفة بعده بما قدمنا بيانه، وقد علمنا أن نفيه للنبوة بعده لا يتخصص بزمان دون زمان، بل يعم جميع الأوقات والأحوال، فيجب أن يكون الثابت لأمير المؤمنين (ع) في الخبر عاماً بعده في جميع الأوقات، غير مخصص بحالٍ دون حال، فهو الخليفة بعده على الفور وما اتصل ببقائه الزمان، وقد تقدم هذا القول على البيان، وإنما أعدناه لأنه جواب عن هذا السؤال..

والوجه الثالث:

إن الناس في إمامة أمير المؤمنين (ع) طائفتان:

فإحداهما تقول إن الخلافة إنما وجبت له بعد عثمان باختيار الأمة له، ولم

تجب له بهذا الخبر، ولا بغيره من الأخبار، وأن النص عليه المتضمن كونه خليفة بعد رسول الله (ص) لم يكن في حالٍ من الأحوال.

والطائفة الأخرى تقول إن الإمامة لا تجب لأحد إلا بالنص دون الاختيار، وأن هذا الخبر من جملة النصوص (على) أمير المؤمنين بالخلافة بعد رسول الله (ص)، وأنه أول خلفائه، ومتقدم أوصيائه، وتدبيره يلي تدبيره، وإمامته بعد وفاته بغير فصل بينه وبينه.

وليس في الأُمة من يذهب إلى غير هذين القولين. وفي ثبوت الخبر وضوح ما تضمنه من النص على أمير المؤمنين (ع) بالإمامة، واستحقاقه لذلك بعد رسول الله (ص) دلالة على بطلان مقال من ذهب إلى الاختيار، فلم يبق إذن إلا قول أصحاب النص الذين يعتقدون أنه الخليفة بعد رسول الله (ص) بغير (فصل)[1]، وهذا مغنٍ لمن كان له عقل والحمد لله.

فصل:

من الحديث المسند في نقل العامة، الشاهد بأن رسول الله (ص) قال لأمير المؤمنين (ع): (أنت مني بمنزلة هارون من موسى) في أوقات عدة، وأحوال مختلفة، غير المذكور في غزاة تبوك.

حدثني القاضي أبو الحسن أسد بن ابراهيم بن كليب السلمي الحراني بمدينة الرملة في سنة عشر وأربعماية، قال: أخبرني الخطيب أبو حفص عمر بن علي بن الحسن العتكي، قال: قرأت على محمد بن ابراهيم السمرقندي، (حدثنا)[2] محمد بن عبد الله بن حكيم قال: حدثنا سفيان بن بشر الأسدي، قال: حدثنا علي بن هاشم، عن محمد بن عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه، عن جده أبي رافع: أن النبي (ص) جمع بني عبد المطلب في الشعب، وهم يومئذٍ أربعون رجلاً.

قال: فجعل لهم علي (ع) فخذاً من شاه، ثم ثرد لهم ثريدة، وصب عليها

(١) في النسخة: (فرق).

(٢) في النسخة: (حدثكم).

المرق، وترك عليها اللحم، وقدمها فأكلوا منها حتى شبعوا، ثم سقى عساً واحداً فشربوا كلهم منه حتى رووا، فقال أبو لهب: والله، إن منا لنفراً يأكل الرجل منهم الجفنة، ويشرب الفرق وما يرويه. وإن هذا الرجل دعانا على رجل شاة وعسٍ من لبن، فشبعنا، وروينا منها، إن هذا هو السحر المبين.

ثم دعاهم فقال: إن الله عز وجل أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ورهطي المخلصين، وأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا جعل له من أهله أخاً ووارثاً، ووزيراً، ووصياً، وخليفة في أهله.

فأيكم يبايعني على أنه أخي ووزيري ووارثي دون أهلي، ويكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي.

فسكت القوم، فأعاد الكلام عليهم ثلاث مرات. وقال: والله، ليقومنّ قائمكم أو يكون في غيركم، ثم لتذمنّ.

قال: فقام علي (ع)، وهم ينظرون كلهم إليه، فبايعه وأجابه إلى ما دعاه، فقال له: ادنُ مني، فدنا منه، فقال: افتح فاك، ففتح فاه، فمج فيه من ريقه، وتفل بين كتفيه، وتفل بين قدميه.

فقال أبو لهب: بئس ما حبوت به ابن عمك إذ جاءك فملأت فاه بزاقاً.

فقال رسول الله (ص): ملىء حكمةً وعلماً وفهماً.

فقال لأبي طالب: ليهنئك أن تدخل اليوم في دين ابن أخيك، وقد جعل ابنك مقدماً عليك(١).

وحدثني القاضي السلمي رحمه الله قال: أخبرني أبو حفص العتكي، قال: حدثني سعيد بن محمد الحافظ، قال: أخبرني أبو حصين محمد بن الحسين الكوفي

---

(١) رواه الطبري في تاريخه ج ٢ ص ٢١٧ من طبعة دار القاموس للطباعة والنشر - بيروت - المصورة عن النسخة المطبوعة بمصر في المطبعة الحسينية سنة ١٣٢٣ هـ كما في الختم الممهور عليها، وانظر: خصائص النسائي ص ٩ ويراجع مصادر هذا الحديث فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ٢ ص ١٩ - ٢١ وشرح النهج لابن أبي الحديد م ٣ ص ٢٩٣ رواه عن أبي جعفر الاسكافي، ولهذا الحديث مصادر كثيرة.

قراءةً، قال: حدثنا عبادة بن زياد الأزدي، قال: حدثنا كادح بن جعفر العابد، عن عبد الله لهيعة، عن عبد الرحمن بن زياد الافريقي، عن مسلم بن يسار، عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال:

لما قدم علي (ع) على رسول الله (ص) بفتح خيبر، قال له رسول الله (ص):

لولا (أن) تقول فيك طائفة من أُمتي ما قالت النصارى في المسيح بن مريم، لقلت فيك اليوم مقالاً، لا تمر بملأ إلا أخذوا التراب من تحت قدميك، ومن فضل طهورك، فاستشفوا به، ولكن حسبك أن تكون مني وأنا منك، وترثني وأرثك، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، وأنك تبرىء ذمتي، وتقاتل على سنتي، وأنت غداً في الآخرة أقرب الناس مني، وأنك أول من يرد عليّ الحوض، وأنك على الحوض خليفتي، وأنك أول من يكسى معي، وأنك أول داخل الجنة من أمتي، وأن شيعتك على منابر من نور، مبيضةً وجوههم حولي، أشفع لهم، ويكونون غداً في الجنة جيراني، وأن حربك حربي، وسلمك سلمي، وأن سريرتك سريرتي، وعلانيتك علانيتي، وأن ولدك ولدي، وأنك منجز عداتي، وأنك على الحوض، وليس أحد من الأُمة يعدلك عندي، وأن الحق على لسانك وفي قلبك وبين عينيك، وأن الإيمان خالط لحمك ودمك، كما خالط لحمي ودمي، وأنه لا يرد على الحوض مبغض لك، ولن يغيب عنه محب لك[1] حتى يرد عليَّ الحوض معك يا علي.

فخر علي (ع) ساجداً ثم قال: الحمد لله الذي منَّ عليّ بالاسلام، وعلمني القرآن، وحببني إلى خير البرية، خاتم النبيين، وسيد المرسلين، إحساناً منه إليّ، وفضلاً منه عليَّ.

فقال رسول الله (ص): يا علي، لولا أنت لم يعرف المؤمنون من بعدي[2].

وحدثني القاضي السلمي، قال: أخبرني العتكي، قال: أخبرني محمد بن أحمد بن صفوة المصيصي، قال: حدثنا الحسن بن علي العلوي، قال: حدثنا الحسن بن

---

(١) في النسخة غير واضحة، والتصحيح عن الأمالي للصدوق.

(٢) انظر: أمالي الصدوق ص ٨٥ من المجلس الحادي والعشرين وتجده في مناقب ابن المغازلي ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

حمزة النوفلي، قال: حدثنا سليمان بن جعفر الهاشمي، قال: حدثنا جعفر بن محمد بن علي عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب (ع) قال:

آخى رسول الله (ص) بين أصحابه، فقلت: يا رسول الله، آخيت بين أصحابك، وتركتني فرداً لا أخ لي.

فقال: إنما أخرتك لنفسي، أنت أخي في الدنيا والآخرة، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى.

فقمت وأنا أبكي من الجذل والسرور، فأنشأت أقول:

أقيك بنفسي أيها المصطفى الذي	هدانا به الرحمن من عمه الجهل
وأفديك حوبائي وما قدر مهجتي[1]	لمن أنتمي معه إلى الفرع والأصل
ومن جده جدي ومن عمه أبي	ومن أهله ابني ومن بنته أهلي
ومن ضمني إذ كنت طفلاً ويافعاً	وأنعشني بالبر والعل والنهل
ومن حين آخى بين من كان حاضراً	دعاني فآخاني وبيّن من فضلي
لك الخير إني ما حييت لشاكر	لإحسان ما أوليت يا خاتم الرسل[2]

وحدني أيضاً القاضي أبو الحسن السلمي رحمه الله، قال: حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد الحنظلي الباب سيرى بواسط قال: حدثني عبد الله بن أحمد بن عامر، قال: حدثنا أبو العباس محمد بن يونس، قال: حدثنا أحمد بن مغا (كذا)، قال: حدثنا الأردبيلي، قال: حدثنا محمد بن يعقوب ومعاذ بن حكيم عن عبد الرزاق بن همام، عن معمر عن الزهري عن عوف بن مالك المازني عن ابن عباس، قال:

رأيت أبا ذر الغفاري، متعلقاً بحلقة ببيت الله الحرام، وهو يقول:

يا أيها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني أنبأته باسمي، أنا جندب الربذي الغفاري.

---

(١) في النسخة كلمات غير واضحة. والتصحيح عن البحار ج ٣٨ ص ٣٣٧.

(٢) انظر: البحار ج ٣٨ ص ٣٣٧ نقله عن مناقب ابن شهراشوب ج١ ص ٣٦٧ - ٣٣٨ كما في الهامش.

إني رأيت رسول الله (ص) في العام الماضي وهو آخذ بهذه الحلقة، وهو يقول:

أيها الناس، لو صمتم حتى تكونوا كالأوتاد، وصليتم حتى تكونوا كالحنايا، ودعوتم حتى تقطعوا إرباً إرباً، ثم بغضتم علي بن أبي طالب، أكبكم الله في النار. قم يا أبا الحسن، فضع خمسك في خمسي (يعني كفك في كفي) فإن الله اختارني وإياك من شجرةٍ، أنا أصلها، وأنت فرعها. فمن قطع فرعها أكبه الله على وجهه في النار. علي سيد المرسلين، وإمام المتقين، يقتل الناكثين والمارقين والجاحدين، علي مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي.

وحدثني الشيخ الفقيه أبو الحسن محمد بن أحمد بن شاذان القمي رضي الله عنه بمكة في المسجد الحرام سنة اثنتي عشرة وأربعماية، قال: حدثنا القاضي المعافى بن زكريا الجريري إملاءً من حفظه، قال: حدثنا محمد بن مزيد، قال: حدثنا أبو كريب محمد بن العلا، قال: حدثنا اسماعيل بن صبيح، قال: حدثنا أبو ادريس، قال: حدثنا محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله (ص) لعلي بن أبي طالب: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، ولو كان لكنته .

ومما رواه السلمي أيضاً، وكتبه لي عن الحنظلي الباب سيري قال: حدثنا محمد بن خلف، قال: حدثنا محمد بن سليمان البافيدي، قال: حدثنا جعفر بن عمر الايلي، قال: حدثنا أربعة: ابن أبي (ذويب)، وإبراهيم بن سعد، ويزيد بن عياض الليثي، ومالك بن أنس، قالوا: حدثنا الزهري عن سعيد بن المسيب أنه قال لسعد:

(هل) سمعت رسول الله (ص) يقول لعلي بن أبي طالب حين خرج إلى غزاة تبوك: إن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي

قال: نعم. وقد سمعت رسول الله (ص) يقول لعلي هذه المقالة في غزاته هذه غير مرة.[1]

(١) وتجده في مناقب ابن المغازلي ص ٣٣- ٣٤.

والأخبار المروية في هذا المعنى كثيرة في نقل الخاصة والعامة. وفيما أوردته كفاية، والله أعلم، والحمد لله.

فصل: من آداب أمير المؤمنين (ع) وحكمه:

المرء حيث يجعل نفسه.

من دخل مداخل السوء اتهم.

من عرّض نفسه للتهمة فلا يلومنّ من أساء به الظن.

من أكثر من شيء عرف به.

من مزح استخف به.

من اقتحم البحر غرق.

المزاح يورث العداوة.

من عمل في السر عملاً يستحي منه في العلانية، فليس لنفسه عنده من قدر.

ما ضاع امرؤ عرف قدره.

اعرف الحق لمن عرّفه لك رفيعاً كان أم وضيعاً.

من تعدَّي الحق ضاق مذهبه.

من جهل شيئاً عاداه.

أسوأ الناس حالاً من لم يثق بأحد لسوء ظنه، ولم يثق به أحد لسوء فعله.

لا دليل أنصح من استماع الحق.

من نظّف ثوبه قل همه.

الكريم يلين إذا استعطف، واللئيم يقسو إذا لوطف.

حسن الاعتراف يهدم الاقتراف.

أخِّرِ الشر، فإنك إذا شئت تعجلته.

أحسن إذا أحببت أن يحسن إليك.

إذا جُحِدَ الإحسان حَسُن الامتنان.

العفو يفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم.

من بالغ في الخصومة أثم، ومن قصر عنها خُصِم.

لا تظهر العداوة لمن لا سلطان لك عليه.

فصل:

قال شيخنا المفيد رحمه الله:

أحد عشر شيئاً من الميتة التي تقع عليها الذكاة حلال.

وهي: الشعر، والوبر، والصوف، والريش، والسن، والعظم، والظلف، والقرن، والبيض، واللبن، والأنفحة.

وعشرة أشياء من الحي الذي تقع عليه الذكاة حرام وهي: الفرث، والدم، والقضيب، والأنثيين، والحيا، والرحم، والطحال، والأشاجع، وذات العروق.

قال: ويكره أكل الكليتين لقربهما من مجرى البول، وليس أكلها حراماً.

فصل:

أملى عليّ شيخي رحمه الله:

إن في الرأس والجسد أربع فرايض، وعشر سنن.

ففريضتان في الرأس وهما غسل الوجه في الوضوء، والمسح بالرأس.

وفريضتان في الجسد، وهما غسل اليدين ومسح الرجلين.

وأما السنن فهي سنن إبراهيم الخليل (ع)، وهي الحنيفية، خمس منها في الرأس، وهي: فرق الشعر لمن كان على رأسه شعر، وقص الشارب، والسواك، والمضمضة، والاستنشاق.

وخمس منها في الجسد وهي: الختان، وقص الأظافير، ونتف الإبط، وحلق العانة، والاستنجاء.

قضية لأمير المؤمنين (ع):

روي أن امرأة علقت بغلام فراودته عن نفسه، فامتنع عليها، فقالت: والله لئن لم تفعل لأفضحنك فلم يفعل، فأخذت بيضةً، فألقت بياضها على ثوبها،

وتعلقت به، واستغاثت بأمير المؤمنين (ع) وقالت: يا أمير المؤمنين إن هذا الغلام كابرني على نفسي، وقد أصاب مني، وهذا ماؤه على ثوبي.

فسأله أمير المؤمنين (ع) فبكى، وقال: والله، يا أمير المؤمنين لقد كذبت، وما فعلت شيئاً مما ذكرت.

فوعظها أمير المؤمنين فقالت: والله، لقد فعل، وهذا ماؤه.

فقال أمير المؤمنين (ع): عليَّ بقنبر فجيء به، فقال له: مُر من يغلي ماءً حتى تشتد حرارته، وصوبه إليّ.

فلما أُتي بالماء الحار أمر أن يلقى على ثوبها، فانسلق بياض البيض، وظهر أمره، فأمر رجلين من المسلمين أن يطعماه ويلفظاه ليقع اليقين به، ففعلا، فرأيا بيضاً، فخلى الغلام، وأمر بالمرأة فأوجعها أدباً.(١)

مسألة في المني ونجاسته ووجوب غسل الثوب منه

إن سأل سائل فقال: ما الحكم عندكم في المني، فهل هو طاهر أم نجس؟؟

قيل له: المني نجس، يجب غسل ما أصاب الثوب منه، وإن كان قليلاً، ولا تجوز الصلاة في ثوبٍ فيه شيء منه، سواء كان رطباً أو يابساً.

فإن قال: ما الدليل على ذلك؟

قيل له: نقل الشيعة بأسرهم على كثرتهم، واستحالة التواطؤ على ذلك منهم. والخبر يتواتر بنقل بعضهم، وقد روى جميعهم ما ذكرناه عن سلفهم عن أئمتهم (ع) عن رسول الله (ص) جدهم. وفي هذا الدليل غنى عن غيره.

وبعد ذلك فقد نستدل بما روى عمار بن ياسر رحمه الله أنه قال: رآني رسول الله (ص)، وأنا أغسل من ثوبي موضعاً،

فقال: ما تصنع يا عمار؟

فقلت: يا رسول الله، نخمت نخامة فكرهت أن تكون في (ثوبي)(١)، فغسلتها.

---

(١) رواه المفيد في الإرشاد ص ١٠٣، ورواه في البحار ج ٤٠ ص ٢٦٣ ص ٢٦٣ عن الإرشاد وعن مناقب ابن شهراشوب.

(٢) في النسخة: (ثوب).

فقال: يا عمار، وهل نخامتك ودموع عينيك وما في أدواتك إلا سواء. إنما يغسل الثوب من البول، أو الغائط أو المني.

ووجوب غسل الثوب منه، لأن رسول الله (ص) أضاف الطاهر إلى الطاهر، والنجس إلى النجس. فلو كان المني طاهراً لا يغسل الثوب منه، لإضافة إلى ما ميّزه بالطهارة، ولم يخلطه بما قد علم منه النجاسة التي أوجب غسل الثوب منها في الشريعة.

فإن قال السائل: خبركم هذا الذي رويتموه عن عمار غير سالم، لأنه قد عارضه خبر عائشة وقولها: إن رسول الله (ص) كان يصلي وأنا أفرك الجنابة من ثوبه.

وفي صلاة النبي (ص) بها وهي في ثوبه دلالة على طهارتها.

قيل له: هذا غير صحيح لما روي من أن رسول الله (ص) كان له بردان معزولان للصلاة، لا يلبسها إلا فيها.

وكان يحث أمته على النظافة، ويأمرهم بها، وأن من المحفوظ عنه في ذلك قوله:

«إن الله يبغض الرجل القاذورة».

قيل: وما القاذورة يا رسول الله؟

قال: الذي [يتأفف] به جليسه.

ومن يكون هذا قوله وأمره، لا يجلس والمني في ثوبه، فضلاً عن أن يصلي وهو فيه.

وليس يشك العاقل في أن المني لو لم يكن من الأنجاس المفترض إماطتها لكان من الأوساخ التي يجب التنزه عنها.

وفيما صح عندنا من اجتهاد رسول الله (ص) في النظافة وكثرة استعماله للطيب- على ما أتت به الرواية- دال على بطلان خبر عائشة.

وشيء آخر، وهو أن عماراً رحمه الله قد اجتمعت الأمة على صحة إيمانه، واتفقت على تزكيته. وعائشة قد اختلف فيها وفي إيمانها، ولم يحصل الاتفاق

على تزكيتها، فالأخذ بما رواه عمار رضي الله عنه أولى.

وشيء آخر، وهو أن خبر عمار يحظر الصلاة في ثوب فيه مني أو يغسل، وخبر (عائشة) يبيح ذلك. والمصير إلى الحاظر من الخبر أولى وأحوط في الدين.

وشيء آخر، وهو أن عماراً رضي الله عنه حفظ قولاً عن رسول الله (ص) رواه، وعائشة لم تحفظ في هذا قولاً، وإنما أخبرت عن فعلها، وقد يجوز أن يكون توهمت أن في ثوبه جنابة، أو رأت شيئاً شبيهاً بها. هذا مع تسليمنا لخبرها، فروت بحسب ظنها.

ثم يقال للخصم: إذا كانت الجنابة عندك طاهرة يجوز الصلاة (فيها)، فلِمَ تركتها عائشة واجتهدت في قلعها، (فألا) تركتها كما تركها عندكم رسول الله (ص) وصلى فيها؟

فإن قال السائل: إذا كان المني نجساً، فكيف خلق الله تعالى منه الطاهرين من الأنبياء المصطفين والعباد الصالحين؟

قيل له: هذا السؤال عائد على سائله، وهو أن يقال له: إذا كان المني طاهراً، فكيف خلق الله تعالى النجسين من الفراعنة والشياطين والكفار والمشركين؟

وبعد فالمني جسم، ونجاسته عرض، والأعراض تنتقل، وقد رأينا نجساً صار طاهراً، وطاهراً عاد نجساً.

ولو قال للخصم قائل: إذا كان الدم نجساً فكيف (جعله) الله تعالى قوام جسم المؤمن وصحة كونه حياً.

وإذا كانت العذرة نجسة فكيف حملها المؤمن، واستقرت في جسمه: والسؤال عن هذه المواضع ساقط لا معنى له.

فصل:

جاء في الحديث أن قوماً أتوا إلى رسول الله (ص)، فقالوا له: ألست رسولاً من الله تعالى؟ قال لهم: بلى، قالوا له: وهذا القرآن الذي أتيت به كلام الله تعالى؟ قال: نعم، قالوا: فأخبرنا عن قوله:

«إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون»[١]

إذا كان معبودهم معهم في النار، فقد عبدوا المسيح (ع)، أفنقول أنه في النار؟

فقال (لهم) رسول الله (ص): إن الله أنزل القرآن عليَّ بكلام العرب، والمتعارف في لغتها، وعند العرب أن (ما) لما لا يعقل و(من) لمن يعقل، و(الذي) يصلح (لهما) جميعاً. فإن كنتم من العرب فأنتم تعلمون هذا. قال الله تعالى: (إنكم وما تعبدون)، يريد الأصنام التي عبدوها، وهي لا تعقل، والمسيح (ع) لا يدخل في جملتها، لأنه يعقل.

ولو قال: إنكم ومن تعبدون لدخل المسيح (ع) في الجملة. فقال القوم: صدقت يا رسول الله[٢].

وفي هذا الخبر دليل على أن رسول الله (ص) كان يحاج ويناظر، ويعارض، ويفصل ويوضح الجواب لسائله، ويثبت الحجة على خصمه، ولا يدعو إلى التقليد، بل يوضح التقليد بإقامة الدليل.

فإن قال قائل: إذا كان الذين عبدوا الأصنام في شركهم وكفرهم، فلأي وجه تكون الأصنام في النار معهم، وهي لم تكفر، ولا يصح أن يعذب أيضاً ما ليس بحي؟

قلنا: إن المراد بذلك أن يرى العابدون لها أنها لم تغن عنهم شيئاً، وأنها بحيث هم لا تدفع عن أنفسها لو كانت حيةً قادرة، ولا عنهم.

وعلى هذا المعنى يتأول قوله سبحانه:

«وقودها الناس والحجارة»

(بأنها) الحجارة التي عبدوها، وهي الأصنام، قال الله تعالى حكاية عن أهل النار:

---

(١) سورة الأنبياء: ٩٨.

(٢) طريقة هذا الحديث في المحاورة وأسلوبها تبعد جداً أن يكون من حديث الرسول (ص) بل هو بكلام بعض علماء المسلمين أشبه.

«لو كان هؤلاء آلهةً ما وردوها وكل فيها خالدون»

سؤال عن آيات:

إن سائل فقال: ما معنى قول الله تبارك وتعالى:

«ذلك يوم مجموع له الناس، وذلك يوم مشهود وما نؤخره إلا لأجل معدود، يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه» هود: ١٠٣-١٠٤[١]

وقوله تعالى في موضع آخر:

«هذا يوم لا ينطقون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون» المرسلات: ٣٥-٣٦.

وقال في موضع آخر:

«فأقبل بعضهم على بعضٍ يتساءلون» الصافات: ٢٧ والطور: ٢٥.

وظاهر هذه الآيات مختلف، لأن بعضها ينبىء عن أن النطق لا يقع منهم في ذلك اليوم، ولا يؤذن لهم فيه.

وبعضها ينبىء عن خلافه:

فالجواب أنه تعالى إنما أراد بما نفاه، نفي النطق المسموع المقبول الذي يكون لهم فيه حجة أو عذر، ولم ينف الذي ليست هذه حاله.

ويجري هذا المجرى قولهم: خرس فلان عن حجته، ومرادهم بذلك أنه لم يأت بحجة ينتفع بها، وإن كان قد تكلم كلاماً كثيراً.

وقولهم: حضرنا فلاناً يناظر، فلم يقل شيئاً. والمراد أنه لم يأت بكلام سديد، ولا قول صحيح، وإن كان قد قال قولاً غزيراً، فأطلقوا اللفظ في الكلام، والمراد ما ذكرناه، وقد قال الشاعر:

أَعمى إذا ما جارتي خرجت حتى يواري جارتي الخدر
ويَصَمُّ عما كان بينهما سمعي وما بي غيره وقر[٢]

---

(١) الأنبياء: ٩٩

(٢) تجد الكلام على ذلك في أمالي المرتضى م ١ ص ٤٣- ٤٤.

وهذا التأويل في نفي القول، لا يمنع من وقوع التساؤل، والتلاوم بينهم الذي ليس لهم فيه حجة، ولا يثمر فائدة.

فأما قوله سبحانه: (ولا يؤذن لهم فيعتذرون) فالتأويل الحسن أن يحمل (يؤذن لهم) على معنى أنه لا يسمع منهم، ولا يقبل عذرهم.

والعلة في امتناع قبول عذرهم، هي ما قد بينا من أنهم لا يعتذرون بعذرٍ صحيح، ولا يأتون بقول مصيب.

سؤال آخر:

فإن قال: فقد قال الله تعالى في موضع من كتابه:

« وقفوهم إنهم مسئولون » الصافات: ٢٤.

فأوجب السؤال. وقال في موضع آخر:

« فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » الرحمن: ١٥.

فنفى السؤال. وظاهره متناقض واختلاف.

فالجواب:

إن السؤال الذي أوجبه سبحانه هو سؤال المطالبة بالواجبات وتضييع المفروضات.

والسؤال الذي نفاه عز وجل هو سؤال الاستعلام. والمعنى في ذلك أن الله تعالى، علم جميع ما فعلوه، ولا يخفى عليه شيء مما أتوه، فلا حاجة إلى السؤال عن ذنبهم، ولا حاجة للملائكة أيضاً الى السؤال عن المذنب منهم، لأن الله تعالى يجعل لهم سيماءً يعرفون به، وذلك قوله عز وجل:

« يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام » الرحمن: ٤١.

فصل مما ورد في ذكر النصف

روي أن رسول الله (ص) قال:

التودد إلى الناس نصف العقل.

وحسن السؤال نصف العلم.

والتقدير في النفقة نصف العيش.

وجاء في خبر آخر عنه (ع):

التقدير نصف المعيشة.

وروي عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال:

الهم نصف الهرم، والسلامة نصف الغنيمة.

وقال بعض الحكماء: الخوف نصف الموت.

وقال آخر: المخافة شطر المنية.

وقيل: الراحة نصف السلامة، وحُسن الطلب نصف العلم، والتودد نصف الحزم، وحُسن التدبير نصف الكسب.

وقال بعض الحكماء: نصف رأيك مع أخيك.

يريد بذلك وجوب المشاورة ليجتمع الرأي.

وقيل: إذا بان منك أخوك، بان شطرك، وإذا اعتلّ خليلك فقد اعتلّ نصفك.

وأُنشد:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده
فلم يبق إلا صورة اللحم والدم[1]

وكتب أبو العتاهية إلى أحمد بن يوسف[2]:

لئن عُدت بعد اليوم إني لظالم
سأصرف نفسي حيث تبقى المكارم

---

(١) البيت من معلقة زهير بن أبي سلمى، التي أولها:
أمن أم أوفى دمنة لم تكلّم بحومانة الدرّاج فالمتثلم

(٢) أحمد بن يوسف من مشاهير الكتاب في عصر المأمون ومن الشعراء الجيدين ومن وزراء المأمون، يكنى بأبي جعفر أحمد بن يوسف بن صبيح وهو أخو القاسم بن يوسف بن صبيح الشاعر الشيعي، وتجد أخبار أحمد بن يوسف في كتاب الأوراق لأبي إسحاق الصولي ص ٢٠٦ - ٢٣٦ الذي ذكر فيه كثيراً من شعره وإنشائه، وقد توفي سنة ٢١٣ هـ ورثاه أخوه بعدة أبيات.

متى ينجح الغادي إليك بحاجةٍ
ونصفك محجوب ونصفك نائم

ولما اتّهم قتيبة بن مسلم[1] أبا مجلد قال أبو مجلد:

أيها الأمير تثبت فإن التثبت نصف العفو.

وقيل: السفر نصف العذاب.

وقال سعيد بن أبي عمرويه[2]:

لأن يكون لي نصف وجهٍ ونصف لسان، على ما فيهما من قبح المنظر وعجب المخبر، أحب إليّ من أن أكون ذا وجهين ولسانين وذا قولين مختلفين.

ولبعضهم:

بسطت لساني ثم أوثقت نصفه
فنصف لساني في امتداحك مطلق

فإن أنت لم تنجز عداتي تركتني
وباقي (لسان)[3] الشكر باليأس موثق

ووجد مكتوباً على قبر:

يا قبر أنت سلبتني إلفاً قدمته وتركتني خلفا
وأخذت نصف الروح من جسدي فقبرته وتركتني نصفا

وقيل: إذا اتخذت جاريةً فعليك بالبيضاء، فإن البياض نصف الحسن.

لابن عيينة:

إن دنياً هي التي بسحر العين سافره
سرقوها نصف اسمها هي دنيا وآخره[4]

---

(١) قتيبة بن مسلم الباهلي من أعاظم قواد الأمويين صاحب الفتوحات الكبيرة في المشرق قتله وكيع بن أبي سود سنة ٩٧ هـ.

(٢) هو سعيد بن أبي عروبة لا عمروية كما في البيان والتبيين ج ٢ ص ١٢٢ - ١٢٣، وتجد كلمته في الكتاب المذكور. توفي ١٥٦هـ أنظر: فهرست ابن النديم ص ٣١٧.

(٣) في النسخة: لساني.

(٤) كذا في النسخة.

لابن المعتز[1] في جارية له:

يـــا دهر كيــف شققــت نفساً	فخلست منهـــا النصـــف خلسا
وتركـــــت نصفــــاً للأسى	جعـــل البقـــاء عليـــه نحسا
سقيـــاً لوجـــه حبيبـــةٍ	أودعتهـــا كنفـــاً ورمسا

وأنشد لذي الرمة[2]:

وإن امرءاً في بلدة نصف قلبه	ونصـــف بأخرى إنـــه لصبور

فصل من الأدب:

روي عن بعض الأدباء أنه قال لابنه:

اقتن من مكارم الأخلاق خمساً، وارفض ستاً، واطلب العز بسبع، واحرص على ثمان، فإن فزت بتسع بلغت المدى، وإن أحرزت عشراً أحرزت الدنيا والآخرة.

فأما الخمس المقتناة، فخفض الجانب، وبذل المعروف، وإعطاء النصفة من نفسك، وتجنيب الأذى، وتوقي الغرم.

وأما الست المرفوضة، فطاعة الهوى، وارتكاب البغي، وسلوك التطاول، وقساوة القلب، وفظاظة القول، وكثرة التهاون.

وأما السبع التي ينال بها العز، فأداء الأمانة، وكتمان السر، وتأليف الجانب، وحفظ الإخاء، وإقالة العثرة، والسعي في حوائج الناس، والصفح عند الاعتذار.

وأما الثمان التي تحرص عليها، فتعظيم أهل الفضل، وسلوك طرق الكرم، والمواساة في ملك اليد، وحفظ النعم بالشكر، واكتساب الأجر بالصبر،

---

(1) هو عبدالله بن محمد وقيل الزبير المعتز ابن المتوكل العباسي ولد سنة ٢٤٩هـ ومات قتلا سنة ٢٩٦هـ بويع له بالخلافة ولم يستقم أمره سوى يوم واحد، ثم أخذ هو ووزيره وحاجبه وحبس. كان من الأدباء والشعراء الجيدين وبخاصة في الوصف وهو أول من صنف في علم البديع.

(2) هو أبو الحرث غيلان بن عقبة ينتهي نسبه إلى نزار من فحول الشعراء الإسلاميين ولقب بذي الرمة بالضم والكسر وهو قطعة حبل لقوله: (أشعث باقي رمة التقليد) كانت وفاته سنة ١١٧هـ ولما حضرته الوفاة قال: أنا ابن نصف الهرم وأنا ابن أربعين سنة.

والإغضاء عن زلل الصديق، واحتمال النوائب، وترك الامتنان بالاحسان.

وأما التسع التي تبلغ بها المدى، فالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وحرز اللسان عن سقوط الكلام، وغض الطرف، وصدق النية، والرحمة لأهل البلاء، والموالاة على الدين، والمسامحة في الأمور والرضا بالمقسوم.

وأما العشرة الكاملة التي تنال بها الدنيا والآخرة، فالزهد فيما [يفنى]، والاستعداد لما يأتي، وكثرة الندم على ما فات، وإدمان الاستغفار، واستشعار التقوى، وخشوع القلب، وكثرة الذكر لله تعالى، والرضا بأفعال الله سبحانه، وملازمة الصدق، والعمل بما ينجي.

فصل في ذكر الغنى والفقر

قال رسول الله (ص):

ليس الغنى في كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس.

وقال (ص):

ثلاث خصالٍ من صنعة أولياء الله تعالى:

الثقة بالله في كل شيء، والغنى به عن كل شيء، والإفتقار إليه عن كل شيء.

وقال (ص):

ألا أخبركم بأشقى الأشقياء، قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: من اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة.

نعوذ بالله من ذلك.

وقال أمير المؤمنين (ع):

الفقر يخرس الفَطِنَ عن حجته، والمقل غريب في بلده.

من فتح على نفسه باباً من المسألة فتح الله عليه باباً من الفقر.

وقال (ع):

العفاف زينة الفقر، والشكر زينة الغنى.

وقال: من كساه الغنى ثوبه خفي عن العيون عيبه.

وقال: من أبدى إلى الناس ضره فقد فضح نفسه، وخير الغنى ترك السؤال، وشر الفقر لزوم الخضوع.

وقال:

استغن بالله عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، وأفضل على من شئت تكن أميره.

وقال (ع): لا ملك أذهب للفاقة من الرضا بالقنوع.

وروي أن الماء صب على صخرةٍ فوجد عليها مكتوباً:

إنما يتبين الفقر والغنى بعد العرض على الله عز وجل.

وقال رجل للصادق (ع): عظني، فقال:

لا تحدث نفسك بفقر، ولا بطول عمر.

وقيل: ما استغنى أحد بالله إلا افتقر الناس إليه.

وقيل: الفقير من طمع، والغني من قنع.

وأُنشد لأمير المؤمنين (ع):

ادفع الدنيا بما اندفعت	واقطع الدنيا بما انقطعت
يطلب المرء الغنى عبثاً	والغنى في النفس لو قنعت

ومن قطعةٍ لأبي ذؤيب:[1]

والنفس راغبة إذا رغبتها	وإذا ترد إلى قليل تقنع

لمحمود الوراق:[2]

أراك يزيدك الإثراء حرصاً	على الدنيا كأنك لا تموت
فهل لك غاية إن صرت يوماً	إليها قلت حسبي قد غنيت
تظل على الغنى أبداً فقيراً	تخاف فوات شيء لا يفوت
وأغنى منك ذو طمرين راضٍ	من الدنيا ببلغة ما يفوت

وله أيضاً:

---

(١) مرت ترجمته.

(٢) مرت ترجمته.

يـــا عائـــب الفقر ألا تزدجر عيـــب الغنـــى أكـبر لو تعتـبر
من شرف الفقر ومن فضلـــــه علـى الغنى إن صح منك النظر
أنـــك تعصي لتنـــال الغنـــى ولست تعـــــصي الله إن تفتقر

لغيره:

أرى أناساً بأدنـــى الـــدين قـد قنعوا
ولا أراهم رضوا في العيش بالـــدون
فاستغن بـــالله عن دنيـــا الملوك كما
استغنـــى الملوك بدنياهم عن الـــدين

فصل في الكلام في الأرزاق

اعلم أن الرزق في الحقيقة هو التمليك، وأصل التمليك من الله تعالى، وهو الرازق للعباد. وقد جعل بحكمته وعلمه من مصالح بريته، أرزاقهم على قسمين:

أحدهما ما يوصله إليهم من غير سعيٍ يكون منهم ولا اكتساب، ولا تحمّل شيء من المشاق، كالمواريث ونحوها من الأمور المتيسرات.

والآخر مشترط بحركة العبد وسعيه واجتهاده، وحرصه. فمن سعى ناله، ومن قعد فاته، وقد أمر الله تعالى بالاكتساب والطلبة، قال تعالى:

« فإذا قُضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » الجمعة: ١٠.

وقال:

« إن الذين تدعون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه » العنكبوت: ١٧.

فلا يجوز مخالفة أمر الله تعالى، وترك التكسب والطلب، وليس ذلك بمضاد للتوكل على الله تعالى، لأن له التعرض ومنه الطلب.

وقد أجرى العادة بأن لا يؤتى هذا القسم من الرزق إلا بعد الحركة والطلب. ومثل ذلك كثير في أفعاله تعالى التي قد أجرى العادة بأن لا يفعلها

إلا بعد فعلٍ يقع من العباد قبلها، كالولد بعد الوطء، والنبات بعد الزرع والسقي.

وليس المجتهد في كل وقتٍ مرزوقاً، وذلك لأن العطاء والمنع، والزيادة في الرزق، والنقص منوط كله بالمصالح (المعلومة) عند الله تعالى.

وإنما يحسن من العاقل أن يسأل الله تعالى في الرزق بشرط أن لا يكون له مفسداً، قال الله تعالى:

«ولولا أن يكون الناس أُمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضةٍ ومعارج عليها يظهرون» الزخرف: ٣٣.

وكل شيء رزقه الله تعالى للعبد فقد أباحه التصرف فيه، قال الله تعالى:

«يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم» البقرة: ٢٥٤.

وقال: «كلوا من طيبات ما رزقناكم» البقرة: ٢٦٧.

وقال: «قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانيةً من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال» ابراهيم: ٣١.

وما رزقه الله وأباح التصرف فيه، فإنه لا يعاتب عليه.

فأما المغتصبات فليست بأرزاق لغاصبيها، ولا ملكّهم الله تعالى إياها، وإنما تسمى أرزاقاً على المجاز، من حيث أنها من الأشياء التي خلقها الله تعالى (ليغتذى) بها.

والدليل على أن الله تعالى لم يرزقهم ما اغتصبوه إخباره بأنهم ظالمون فيه، وأنه يعاقبهم عليه، قال الله تعالى:

«الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً، وسيصلون سعيراً» النساء: ١٠.

وأمره سبحانه بقطع يد السارق في قوله تعالى:

«والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله» المائدة: ٣٨.

ولو كان الغاصب قد أخذ ما رزقه الله تعالى على الحقيقة، لكان المطالب له

برد ما أخذه ظالماً له، ولم يجز في العدل أن يعاقب عليه في الدنيا والآخرة، بل ان يكون ممدوحاً على تصرفه فيه، وإنفاقه له، كما مدح الله تعالى من أنفقه من حله، فقال:

«إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم» الأنفال: ٢ - ٤.

فجعل إنفاق الرزق من صفات المؤمنين، فلما لم يكن للغاصبين إنفاق ما اغتصبوه، وكانوا مذمومين عليه، معاقبين على تصرفهم فيه، دل ذلك على أن الله تعالى لم يرزقهم إياه في الحقيقة، وإذا لم يكن رزقاً للغاصب، فهو رزق للمغصوب منه، وإن حيل بينه وبينه.

فصل مما روي في الأرزاق

روي عن سيدنا رسول الله (ص) أنه قال:

أكثروا الاستغفار فإنه يجلب الرزق.

وقال (ع):

من رضي باليسير من الرزق رضي الله عنه باليسير من العمل.

وروي أن الله تعالى أوحى إلى عيسى (ع):

ليحذر الذي يستبطئني في الرزق أن أغضب فأفتح عليه باباً من الدنيا.

وقال أمير المؤمنين (ع):

الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك، فإن لم تأته أتاك.

وروي عن أحد الأئمة (ع) أنه قال في الرزق المقسوم بالحركة: إن من طلبه من غير حله فوصل إليه حوسب من حله، وبقي عليه وزره.

فالواجب أن لا يطلب إلا من الوجه المباح دون المحظور.

وروي عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال:

من حسنت نيته زيد في رزقه.

واعلم أن الدليل على جواز الزيادة في الأرزاق هو الدليل على جواز الزيادة في الأعمار، لأن الله تعالى إذا زاد في عمر عبده وجب أن يرزقه ما يتغذى به.

ذكروا أن ابراهيم بن هرمة انقطع إلى جعفر بن سليمان الهاشمي، فكان يجري له رزقاً، فقطعه، فكتب إليه ابن هرمة:[1]

إن الـــــذي شقّ فمي ضامن	للرزق حـــــتى يتوفـــاني
حرمتـــني خـــيراً قليــلاً فما	إن زادني مالـــك حِرمـــاني

فرد إليه رزقه وأحسن إليه.

وأُنشد لبعضهم:

التمس الأرزاق عنـــد الـــذي	ما دونه إن سيل من حاجب
من يبغــض التــارك تسئالــه	جوداً ومن يرضى عن الطالــب
ومن إذا قـــال جرى قولـــه	بغـــير توقيـــع إلى كاتـــب

وروي عن الصادق (ع) أنه قال:

ثلاثة يدعون فلا يستجاب لهم: رجل جلس عن طلب الرزق، ثم يقول: اللهم ارزقني، يقول الله تعالى (له): ألم أجعل لك طريقاً إلى الطلب.

ورجل له امرأة سوء، يقول: اللهم خلصني منها، يقول الله تعالى: أليس قد جعلت أمرها بيدك.

ورجل سلم ماله إلى رجل ولم يشهد عليه به، فجحده إياه، فهو يدعو عليه، فيقول الله تعالى: قد أمرت بالاشهاد فلم تفعل.

لابن وكيع التنيسي:

لا تحيلنّ على سعدك في الرزق ونحسك
وإذا أغفلك الدهر فذكره بنفسك
لا تُعجّل بلزوم بيتك ما قبل رمسكـ

(١) هو أبو اسحاق ابراهيم بن علي بن سلمة القرشي الفهري من الشعراء المجيدين كان حياً سنة ١٤٦هـ وكان معروفاً بالتشيع عند الأمويين والعباسيين.

إنما يحمد حسن الرزق من جدة حسك

وروي في بعض الكتب، أن الله تعالى يقول:

«يا ابن آدم حرِّك يدك أبسط لك في الرزق، وأطعني فيما آمرك، فما أعلمني بما يصلحك».

وقيل لبعضٍ: لو تعرضت لفلان لوصلك، فقال:

ما تلهّفت لشيء من أمر الدنيا منذ حفظت هذه الأربع آيات من كتاب الله تعالى. قوله:

«ما يفتح الله للناس من رحمةٍ فلا ممسك لها» سورة فاطر: ٢.

وقوله (تعالى):

«وإن يردك بخيرٍ فلا راد لفضله» يونس: ١٠٧.

وقوله سبحانه:

«وما من دابةٍ في الأرض إلا على الله رزقها» هود: ٦.

وقوله جل اسمه:

«وفي السماء رزقكم وما توعدون» الذاريات: ٢٢.

فروي أن صلة الرجل الذي قيل له: لو تعرضت له، أتت إلى منزله من غير طلب.

وأُنشد لابن الاصبغ:

لو كان في صخرةٍ في الأرض راسبةٍ
صماء ململمةٍ (ملسا) نواحيها
رزق لنفسٍ براها الله لانغلقت
عنه فأدَّتْ إليه كل ما فيها
أو كان بين طباق السبع مطلبها
لسهل الله في المرقى مراقيها
حتى يلاقي الذي في اللوح خُط له
إن هي أتته وإلا سوف يأتيها

وروي عن رسول الله (ص) أنه قال:

« ما من مؤمن إلا وله باب يصعد منه عمله، وباب ينزل منه رزقه، فإذا مات بكيا عليه، وذلك قوله تعالى:

« فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ».

فصل:

مما ذكر في تأويل قول الله عز وجل:

« فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » الدخان: ١٩[١].

اعلم أن هذه الآية نزلت في قوم فرعون الذين أهلكهم الله عز وجل، وأورث أرضهم ونعمهم غيرهم، وفيها وجوه:

أحدها ما ورد به الخبر الذي قدمناه عن رسول الله (ص) من ذكر البابين اللذين لكل مؤمن، يصعد من أحدهما عمله، وينزل من الآخر رزقه، وأنهما يبكيان عليه بعد موته. ومعنى البكاء ههنا الاخبار عن الاختلال بعده، كما يقال: بكى منزل فلان بعده.

قال مزاحم العقيلي:

بكت دارهم من أجلهم فتهللت دموعي فأي الجازعين ألوم
أمستعبراً يبكي من الهون والبلى وآخر يبكي شجوه ويهيم

فإذا لم يكن لها ولا للقوم الذين أخبر الله تعالى ببوارهم مقام صالح في الأرض، ولا عمل كريم يرفع الى السماء، جاز أن يقال: فما بكت عليهم السماء والأرض.

وقد روي عن ابن عباس رحمه الله أنه قيل له: وقد سئل عن هذه الآية: أو تبكي السماء والأرض على أحد؟ فقال: نعم مصلاه في الأرض، ومصعد عمله في السماء.

---

(١) أنظر الكلام على هذه الآية في أمالي المرتضى م١ ص ٤٩- ٥٥.

والوجه الثاني من التأويل، أن يكون تعالى أراد المبالغة في وصف القوم الذين أهلكهم بصغر القدر وسقوط المنزلة، لأن العرب إذا أخبرت عن عظم المصاب بالهالك، قال: كسفت لفقده الشمس وأظلم القمر وبكاه الليل والنهار والسماء والأرض.

يريدون بذلك المبالغة وعظم الأمر وشمول المصيبة، قال جرير[1] يرثي عمر بن عبد العزيز:

الشمس طالعـــة ليست بكاسفـــةٍ تبكي عليك نجوم الليل والقمـــرا

وفي انتصاب النجوم والقمر في هذا البيت ثلاثة وجوه:

أحدها أنه أراد أن الشمس طالعة وليست مع طلوعها كاسفة نجوم الليل والقمر، لأن عظم الرزية قد سلبها ضوءها، فلم ينافِ طلوعها ظهور الكواكب.

الوجه الثاني أن يكون انتصابها على معنى قوله: لا أكلمك الأبدَ وطول المسند[2] وما جرى مجرى ذلك، فكأنه أخبر بأن الشمس تبكيه ما طلعت النجوم وما ظهر القمر.

والوجه الثالث أن يكون نجوم الليل والقمر باكين الشمس على هذا المفقود، فبكّهن أي غلبتهن بالبكاء، كما يقال: باكاني عند الله فبكيته، وكاثرني فكثرته، أي فضلت عليه وغلبته.

والوجه الثالث من التأويل أن يكون الله تعالى أراد بقوله: فما بكت عليهم السماء والأرض، أهل السماء وأهل الأرض، وحذف أهل، كما قال عز وجل: (واسأل القرية)، وكما قال: (حتى تضع الحرب أوزارها)، وإنما أراد أصحابها، ويجري ذلك مجرى قولهم: السخاء سخاء حاتم.

قال الشاعر:

---

(١) هو جرير بن عطية الخطفي ينتهي نسبه إلى نزار مات باليمامة عن نيف وثمانين سنة، سنة ١٢١هـ وهو من أشهر الشعراء الإسلاميين وأرقهم ديباجة، هاجى شعراء عصره وبخاصة الفرزدق، وكان أبو عمرو يشبه جريراً بالأعشى، والفرزدق بزهير، والأخطل بالنابغة.

(٢) المسند: الزمان.

قليـــل عيبـــه والعيـــب جم ولكن الغـــــــــنى رب غفور

يريد ولكن الغني غنى ربٍ غفور.

والوجه الرابع من التأويل، أن يكون معنى الآية، الإخبار عن أنه لا أحد أخذ بثأرهم، ولا أحد انتصر لهم، لأن العرب كانت لا تبكي على قتيلٍ إلا بعد الأخذ بثأره، فكنى بهذا اللفظ عن فقد الانتصار والأخذ بالثأر، على مذهب القوم الذين خوطبوا بالقرآن.

والوجه الخامس من التأويل أن يكون البكاء المذكور في الآية كناية عن المطر والسقيا، لأن العرب تشبه المطر بالبكاء، ويكون معنى الآية، أن السماء لم تسق قبورهم، ولم تَجُدْ بقطرها عليهم، على مذهب العرب المعهود بينهم، لأنهم كانوا يستسقون السحائب لقبور من فقدوه من أعزائهم يتعشبون الزهر والرياض لمواقع حفرهم. قال النابغة:

فلا زال قبر بين تبنى وجاسمٍ[1] عليـه من الوسمي طـل ووابـل
فينبـت حوذانـاً[2] وعوفاً مُنَوَّراً سأُتبعـه من خـير ما قـال قائـل

وكانوا يجرون هذا الدعاء مجرى الاسترحام ومسألة الله تعالى لهم الرضوان.

والفعل إذا أُضيف إلى السماء، وإن كان لا تجوز اضافته إلى الأرض، فقد يصح عطف الأرض على السماء، بأن يقدر فعل يصح نسبته إليها. والعرب تفعل مثل هذا، قال الشاعر:

يـا ليـت زوجـك قـد غـدا متقلـــداً سيفـــاً ورمحـــا

بعطف الرمح على السيف، وإن كان التقلد لا يجوز فيه، لكنه أراد حاملاً رمحاً.

ومثل هذا يقدر في الآية، فيقال: إنه تعالى أراد أن السماء لا تسقي قبورهم، والأرض لم تعشب عليها. وكل هذا كناية عن حرمانهم رحمة الله عز وجل.

---

(١) موضعان بالشآم.

(٢) الجوذان والعوف نباتان لها رائحة.

وربما شبه الشعراء النبات بضحك الأرض، كما شبهوا المطر ببكاء السماء، وفي ذلك يقول أبو تمام حبيب بن أوس[1]:

إن السماء إذا لم تبـــك مقلتهـــا
لم تضحك الأرض عن شيء من الخضر
والزهر لا تنجـــلي أبصـــاره أبـــداً
إلا إذا رمـــدت من كـــثرة المطر

ذكر مجلس

جرى في القياس مع رجل من فقهاء العامة، اجتمعت معه بدار العلم في القاهرة.

سألني هذا الرجل بمحضر جماعة من أهل العلم، فقال: ما تقول في القياس، وهل تستجيزه في مذهبك، أم ترى أنه غير جائز؟؟

فقلت له: القياس قياسان: قياس في العقليات، وقياس في السمعيات.

فأما القياس في العقليات فجائز صحيح. وأما القياس في السمعيات فباطل مستحيل.

قال: فهل يتفق حدهما أم يختلف؟

قلت: الواجب أن يكون حدهما واحداً غير مختلف.

قال: فما هو؟

قلت: القياس هو إثبات حكم المقيس عليه في المقيس، هذا هو الحد الشامل لكل قياس، وله بعد هذا شرائط لا بد منها، ولا يقاس شيء على شيء إلا بعلة تجتمع بينهما.

قال: فإذا كان الحد شاملاً للقياسين فلا فرق إذاً بين القياس الذي أُجزته، والقياس الذي أحلته.

(١) ينتهي نسبه إلى طيء وهو واحد عصره في ديباجة لفظه وفصاحة شعره وحسن أُسلوبه ولد سنة ١٨٨ هـ وتوفي سنة ٢٧٢ هـ له كتاب الحماسة الذي يدل على حسن اختياره وذوقه، وله أيضاً كتاب فحول الشعراء من جاهليين واسلاميين ومخضرمين، وكتاب الاختيارات من شعر الشعراء وديوان شعره وهو مطبوع عدة طبعات.

قلت: بل بينهما فروق، وإن شمل الحد.

قال: وما هي؟

قلت: منها أن علة القياس في العقليات موجبة ومؤثرة تأثير الايجاب، وليست علة القياس في السمعيات عند من يستعمله كذلك. بل يقولون هي تابعة للدواعي والمصالح المتعلقة بالاختيار.

ومنها أن العلة في العقليات لا تكون إلا معلومة، وهي عندهم في السمعيات مظنونة وغير معلومة.

ومنها أنها في العقليات لا تكون إلا شيئاً واحداً، وهي في السمعيات قد تكون مجموع أشياء، فهذه بعض الفروق بين القياسين وإن شملهما حد واحد.

قال: فما الذي يدل على أن القياس في السمعيات لا يجوز؟

قلت: الدليل على ذلك أن الشريعة موضوعة على حسب مصالح العباد التي لا يعلمها إلا الله تعالى، ولذلك اختلف حكمها في المتفق الصور، واتفق في المختلف، وورد الحظر لشيء والإباحة لمثله، بل ورد الحكم في الأمر العظيم صغيراً، وفي الصغير بالإضافة إليه عظيماً، واختلف كل الاختلاف الخارج عن مقتضى القياس.

وإذا كان هذا سبيل المشروعات، علم أنه لا طريق إلى معرفة شيء من أحكامها إلا من قِبَل المطلع على السرائر، العالم بمصالح العباد، وأنه ليس للقائسين فيه مجال.

فقال أحد الحاضرين: فمثّل لنا بعض ما أشرت إليه من هذا الاختلاف المبائن للقياس.

قلت: هو عند الفقهاء أظهر من أن يحتاج إلى مثال، ولكني أورد منه طرفاً لموضع السؤال.

فمنه أن الله عز وجل أوجب الغسل من المني ولم يوجبه من البول والغائط، وليس هو بأنجس منهما، وأكثر العامة يروون أنه طاهر.

وألزم الحائض قضاء ما تركته من الصيام، وأسقط عنها قضاء ما تركته

من الصلاة، وهي أوكد من الصيام.

وفرض في الزكاة أن يخرج من الأربعين شاةً، شاةً، ولم يفرض في الثمانين شاتين، بل فرضها بعد كمال المائة والعشرين، وهذا خارج عن القياس.

ونهانا عن التحريش بين بهيمتين، وأباحنا إطلاق البهيمة على ما هو أضعف منها في الصيد.

وجعل للرجل أن يطأ من الإماء ما ملكته يمينه، ولم يجعل للمرأة أن تمكن من نفسها من ملكته يمينها.

وأوجب الحد على رمي غيره بفجور، وأسقطه عن من رمي بالكفر، وهو أعظم من الفجور.

وأوجب قتل القاتل بشهادة رجلين، وحظر جلد الزاني الذي يشهد بالزنا عليه، إلا أن يشهد بذلك أربعة شهود، وهذا كله خارج عن سنن القياس.

وقد ذكروا عن ربيعة بن عبد الرحمن[١] أنه قال: سألت سعيد بن المسيب[٢]، فقلت: كم في اصبع المرأة؟

قال: عشر من الإبل.

قلت: كم في اصبعين؟

قال: عشرون.

قلت: كم في ثلاث؟

قال: ثلاثون.

قلت: كم في أربع؟

قال: عشرون.

قلت: حين عظم جرحها، واشتدت مصيبتها نقص عقلها؟

فقال سعيد: أعرابي أنت؟

قلت: بل عالم مثبت، أو جاهل متعلم.

(١) في فهرست ابن النديم ص ٢٨٥ ربيعة بن أبي عبد الرحمن ويعرف بربيعة الرأي، من الموالي ويكنى أبا عثمان أخذ عن أبي حنيفة، وكان بليغاً وخطيباً، توفي بالأنبار سنة ١٣٦ هـ.

(٢) هو أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن من التابعين جمع بين الحديث والفقه والنسك والتعبير. ولد سنة ١٣ وتوفي سنة ٩٤هـ.

قال: هي السنة يا ابن أخ.

ونحو ذلك مما لو ذهبت إلى استقصائه لطال الخطاب، وفيما أوردته كفاية لذوي الألباب.

قال السائل: فإذا كان القياس عندك في الفروع العقلية صحيحاً، ولم يكن في الضرورات التي هي أصولها مستمراً ولا صحيحاً، فما تنكرون أن يكون كذلك الحكم في السمعيات، فيكون القياس في فروعها المسكوت عنها صحيحاً، وإن لم يكن في أصول المنطوق بها مستمراً ولا صحيحاً؟

فقلت: أنكرت ذلك من قبَل أن المتعبدات السمعية وضعت على خلاف القياس مما ذكرناه، فوجب أن يكون ما تفرع عنها جارياً مجراها.

ولسنا نجد أصول المعقولات التي هي الضرورات موضوعة على خلاف القياس، وإنما امتنع القياس فيها، لأنها أُصول لا أُصول لها، فوضح الفرق بينهما.

ومما يبيِّن لك ذلك أيضاً أنه قد كان من الجائز أن نتعبد بخلاف ما أتت فيه أُصول الشرعيات، وليس بجائز أن يتعبد بخلاف أصول العقليات التي هي الضرورات، فلا طريق إلى الجمع بينهما.

قال: فما تنكرون على من زعم أن الله تعالى فرق لنا بين الأُصول في السمعيات وفروعها، فنص لنا على الأُصول وعرّفنا بها، وأمرنا بقياس الفروع عليها، ضرباً من التعبد والتكليف، ليستحق عليه الأجر والثواب.

قلت: هذا مما لا يصح أن يكلفه الله تعالى للعبادة لأن القياس لا بد فيه من استخراج علةٍ يحمل عليها الفروع على الأُصول، ليماثل بينهما في الحكم. والأحكام الشرعية لو كانت مما توجبه العلل، لم يجز في المشروعات النسخ. وفي جواز ذلك في العقل دلالة على أنها لا تثبت بالعلل.

وقد قدمنا القول بأن علل القائسين مظنونة، والظنون غير موصلة إلى إثبات ما تعلق بمصالح الخلق، ولا مؤدية إلى العلم بمراد الله تعالى من الحكم.

ولو فرضنا جوازَ تكليف العباد، القياس في السمعيات، لم يكن بد من

ورود السمع بذلك في القرآن أو في صحيح الأخبار. وفي خلو السمع من تعلق التكليف به دلالة على أن الله تعالى لم يكلفه خلقه.

قال: فإنا نجد ذلك في آيات القرآن وصحيح الأخبار، قال الله عز وجل: « فاعتبروا يا أُولي الأبصار ». الحشر: ٢.

فأوجب الاعتبار، وهو الاستدلال والقياس.

وقال:

« فجزاؤ مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدلٍ منكم ». المائدة: ٩٥.

فأوجب بالمماثلة المقايسة.

وروي أن النبي (ص) لما أرسل معاذاً إلى اليمن، قال له: بماذا تقضي؟ قال: بكتاب الله.

قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟

قال: بسنة رسول الله.

قال: إن لم تجد في سنة رسول الله؟

قال: أجتهد رأيي.

فقال (ع): الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضاه الله ورسوله.

وروي عن الحسن بن علي (ع) أنه سئل فقيل له: بماذا كان يحكم أمير المؤمنين (ع)؟

قال: بكتاب الله، فإن لم يجد فسنة رسول الله (ص)، فإن لم يجد، رجم فأصاب.

وهذا كله دليل على صحة القياس والأخذ بالاجتهاد والظن والرأي.

فقلت له: أما قول الله عز وجل: (فاعتبروا يا أُولي الأبصار)، فليس فيه حجة لك على موضع الخلاف، لأن تعالى ذكر أمر اليهود وجنايتهم على أنفسهم في تخريب بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، ما يستدل به على حق رسول الله (ص)، وأن الله أمده بالتوفيق ونصره، وخذل عدوه، وأمر الناس باعتبار ذلك (ليزدادوا) بصيرةً في الإيمان.

وليس هذا بقياسٍ في المشروعات، ولا فيه أمر بالتعويل على الظنون في استنباط الأحكام.

وأما قوله سبحانه: (فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم) فليس فيه أن العدلين يحكمان في جزاء الصيد بالقياس، وإنما تعبّد الله سبحانه عبادة بإنفاذ الحكم في الجزاء عند حكم العدلين بما علماه من نص الله تعالى.

ولو كان حكمهما قياساً لكانا إذا حكما في جزاء النعامة بالبَدَنَة قد قاسا، مع وجود النص بذلك. فيجب أن يتأمل هذا.

وأما الخبران اللذان أوردتهما فهما من أخبار الآحاد التي لا يثبت بهما الأصول المعلومة في العبادات. على أن رواة خبر معاذ مجهولون، وهم في لفظه أيضاً مختلفون.

ومنهم من روى أنه لما قال: اجتهد رأيي قال له (ع): لا أحب إلى (أن) أكتب إليك.

ولو سلمنا صيغة الخبر على ما ذكرت لاحتمل أن يكون معنى قوله: أجتهد رأيي، أني أجتهد حتى أجد حكم الله تعالى في الحادثة من الكتاب والسنة.

وأما ما رويته عن الحسن (ع) من حكم أمير المؤمنين صلوات الله عليه، ففيه تصحيف ممن رواه. والخبر المعروف أنه قال: فإن لم يجد في السنة زجر فأصاب.

يعني بذلك القرعة بالسهام، وهو مأخوذ من الزجر والفال.

والقرعة عندنا من الأحكام المنصوص عليها، وليست بداخلةٍ في باب القياس. فقد تبين أنه لا حجة لك فيما أوردته من الآيات والأخبار.

فقال أحد الحاضرين: إذا لم يثبت للقائسين نص في إيجاب القياس، فكذلك ليس لمن نفاه نص في نفيه من قرآن ولا أخبار، فقد تساويا في هذه الحال.

فقلت له: قد قدمت من الدليل العقلي على فساد القياس في الشرعيات، وما يستغنى به متأمله عن إيراد ما سواه.

ثم إن الأمر بخلاف ما ظننت، وقد تناصرت الأدلة بحظر القياس من القرآن وثابت الأخبار قال الله عز وجل:

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» المائدة: ٤٤.

ولسنا نشك في أن الحكم بالقياس حكم بغير التنزيل، قال الله عز وجل:

«ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب» النحل: ١١٦.

ومستخرج الحكم في الحادثة بالقياس لا يصح له أن يضيفه إلى الله ولا إلى رسول الله (ص).

وإذا لم يصح إضافته إليهما فإنما هو مضاف إلى القائس دون غيره، وهو المحلل والمحرم في الشرع بقولٍ من عنده، وكذبٍ وصفه بلسانه، فقال سبحانه:

«ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا» الإسراء: ٣٦.

ونحن نعلم أن القائس معول على الظن دون العلم، والظن منافٍ للعلم. ألا ترى أنهما لا يجتمعان في الشيء الواحد. وهذا من القرآن كافٍ في إفساد القياس.

وأما المروي في ذلك من الأخبار فمنه قول رسول الله (ص):

«ستفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة، أعظمها فتنةً على أمتي، قوم يقيسون الأمور برأيهم فيحرمون الحلال، ويحللون الحرام».

وقول أمير المؤمنين (ع):

«إياكم والقياس في الأحكام، فإنه أول من قاس إبليس».

وقال الصادق جعفر بن محمد (ع):

إياكم وتقحم المهالك باتباع الهوى والمقاييس، قد جعل الله تعالى للقرآن أهلاً، أغناكم بهم عن جميع الخلائق، لا علم إلا ما أمروا به، قال الله تعالى:

« فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »

إيانا عنى.

وجميع أهل البيت (ع) أفتوا بتحريم القياس.

وروي عن سلمان الفارسي رحمه الله أنه قال:

« ما هلكت أمة حتى قاست في دينها ».

وكان ابن مسعود يقول: « هلك القائسون »

وفي هذا القدر من الأخبار غنى عن الإطالة والإكثار.

وقد روى هشام بن عروة عن أبيه قال:

إن أمر بني إسرائيل لم يزل معتدلاً، حتى نشأ فيهم أبناء سبايا الأمم، فقالوا فيهم بالرأي، فأضلوهم.

قال ابن عيينة:

فما زال أمر الناس مستقيماً حتى نشأ فيهم ربيعة الرأي بالمدينة، وأبو حنيفة بالكوفة، وعثمان البني بالبصرة، وأفتوا الناس، وفتنوهم، فنظرنا فإذا هم أولاد سبايا الأمم.

فحار الخصم والحاضرون مما أوردت، ولم يأت أحد منهم بحرف زائد على ما ذكرت والحمد لله.

ذكر مجلس

جرى لشيخنا المفيد أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان رضوان الله عليه، مع بعض خصومه في قولهم:

« إن كل مجتهد مصيب ».

قال شيخنا المفيد رضي الله عنه:

كنت أقبلت في مجلس على جماعة من متفقهة العامة، فقلت لهم: إن أصلكم الذي تعتمدون عليه في تسويغ الاختلاف، يحظر عليكم المناظرة، ويمنعكم من

الفحص والمباحثة، واجتماعكم على المناظرة يناقض أصولكم في الاجتهاد، وتسويغ الاختلاف.

فإما أن تكونوا مع حكم أصولكم، فيجب أن ترفعوا النظر فيا بينكم، وتلزموا الصمت.

وإما أن تختاروا المناظرة، وتؤثروها على المتاركة، فيجب أن تهجروا القول بالاجتهاد، وتتركوا مذاهبكم في الرأي وجواز الاختلاف، ولا بد من ذلك ما أنصفتم وعرفتم طريق الاستدلال.

فقال أحد القوم: لِمَ زعمت أن الأمر كما وصفت، ومن أين وجب ذلك؟

قال شيخنا رضي الله عنه فقلت له:

عليَّ البيان عن ذلك، والبرهان عليه حتى لا ... على أحدٍ من العقلاء.

أليس من قولكم أن الله تعالى سوّغ خلقه الاختلاف في الأَحكام للتوسعة عليهم، ودفع الحرج عنهم رحمةً منه لهم، ورفقاً بهم، وأنه لو ألزمهم الاتفاق في الأحكام، وحظر عليهم الاختلاف لكان مضيقاً عليهم، (معنتاً) لهم، والله يتعالى عن ذلك، حتى (أكّدتم) هذا المقال بما رويتموه عن النبي (ص) أنه قال:

«اختلاف أمتي رحمة».

وحملتم معنى هذا الكلام منه على وفاق ما ذهبتم إليه في تسويغ الاختلاف.

قال: بلى، فما الذي يلزمنا على هذا المقال؟

قال شيخنا رحمه الله قلت له:

فخبرني الآن عن موضع المناظرة، أليس إنما هو التماس الموافقة، ودعاء الخصم بالحجة الواضحة إلى الانتقال الى موضع الحجة، وتتغير له عن الإقامة على ضد ما دل عليه البرهان؟

قال: لا، ليس هذا موضوع المناظرة، وإنما موضوعها لإقامة الحجة والإبانة عن رجحان المقالة فقط.

قال الشيخ: فقلت له:

وما الغرض في إقامة الحجة والبرهان على الرجحان، وما الذي يجرانه إلى

ذلك، والمعنى الملتمس به، أهو تبعيد الخصم من موضع الرجحان والتنفير له عن المقالة بإيضاح حجها، أم الدعوة إليها بذلك، واللطف في الاجتذاب إليها به؟؟

فإن قلت: إن الفرض للمحتج التبعيد عن قوله بإيضاح الحجة عليه والتنفير عنه بإقامة الدلالة على صوابه؟ قلت قولاً يرغب عنه كل عاقل، ولا يحتاج معه لتهافته إلى كسره.

وإن قلت: إن الموضح عن مذهبه بالبرهان داعٍ إليه بذلك، والدال عليه بالحجج البينات يجتذب بها إلى اعتقاده ضرب بهذا القول- وهو الحق الذي لا شبهة فيه- إلى ما أردناه، من أن موضوع المناظرة إنما هو للموافقة ورفع الاختلاف والمنازعة.

وإذا كان ذلك كذلك، فلو حصل الفرض في المناظرة وما أجرى بها عليه لارتفعت الرحمة، وسقطت التوسعة، وعدم الرفق من الله تعالى بعباده، ووجب في صفة العنت والتضييق، وذلك ضلال من قائله. فلا بد على أصلكم في الاختلاف من تحريم النظر والحجاج، وإلا فمتى صح ذلك، وكان أولى من تركه فقد بطل قولكم في الاجتهاد، وهذا ما لا شبهة فيه على عاقل.

فاعترض رجل آخر في ناحية المجلس فقال:

ليس الغرض في المناظرة الدعوة الى الاتفاق، وإنما الغرض فيها إقامة الغرض من الاجتهاد.

فقال له الشيخ رضي الله عنه:

هذا الكلام كلام صاحبك بعينه في معناه، وأنتما جميعاً حائدان عن التحقيق والصواب. وذلك أنه لا بد في فرض الاجتهاد من غرض، ولا بد لفعل النظر من معقول.

فإن كان الغرض في أداء الفرض بالاجتهاد، البيان عن موضع الرجحان، فهو الدعاء في المعقول إلى الوفاق والإيناس بالحجة الى المقال.

وإن كان الغرض فيه التعمية والإلغاز فذلك محال، لوجود المناظر

مجتهداً في البيان التحسين لمقاله بالترجيح له على قول خصمه في الصواب.

وإن كان معقول فعل النظر ومفهوم غرض صاحبه، الذب عن نحلته والتنفير عن خلافها، والتحسين لها، والتقبيح لضدها، والترجيح لها على غيرها، وكنا نعلم ضرورةً أن فاعل ذلك لا يفعله للتعبيد من قوله، وإنما يفعله للتقريب منه والدعاء إليه، فقد ثبت بما قلناه.

ولو كان الدال على قوله الموضح بالحجج عن صوابه، المجتهد في تحسينه وتشييده، غير قاصدٍ بذلك الى الدعاء إليه، ولا مزيد للاتفاق عليه، لكان المقبح للمذهب الكاشف عن عواره الموضح عن ضعفه ووهنه داعياً بذلك الى اعتقاده، ومرغباً به الى المصير إليه.

ولو كان ذلك كذلك لكان إلزام الشيء مدحاً له، والمدح له ذماً له، والترغيب في الشيء ترهيباً عنه، والترهيب عن الشيء ترغيباً فيه، والأمر به نهياً عنه، والنهي عنه أمراً به، والتحذير منه إيناساً به، وهذا ما لا يذهب إليه سليم.

فبطل ذلك ما توهموه، ووضح ما ذكرناه في تناقض نحلتهم على ما بيناه، والله نسأل التوفيق.

قال شيخنا رضي الله عنه:

ثم عدلت إلى صاحب المجلس فقلت له:

لو سلم هؤلاء من المناقضة التي ذكرناها- ولن يسلموا أبداً من الله- لما سلموا من الخلاف على الله فيما أمر به، والرد للنص في كتابه، والخروج عن مفهوم أحكامه بما ذهبوا إليه من حسن الاختلاف وجوازه في الأحكام، قال الله عز وجل:

«ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم» آل عمران: ١٠٥.

فنهى الله تعالى نهياً عاماً ظاهراً، وحذّر منه وزجر عنه، وتوعد على فعله بالعقاب، وهذا منافٍ لجواز الاختلاف، وقال سبحانه:

«واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا» آل عمران: ١٠٣.

فنهى عن التفرق، وأمر الكافة بالاجتماع، وهذا [يبطل] قول مسوغ الاختلاف، وقال سبحانه:

«ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك» هود: ١١٨.

فاستثنى المرحومين من المختلفين، ودل على أن المختلفين قد خرجوا بالاختلاف عن الرحمة، لاختصاص من خرج عن صفتهم بالرحمة، ولولا ذلك لما كان لاستثناء المرحومين من المختلفين معنى يعقل، وهذا بيّن لمن تأمله.

قال صاحب المجلس: أرى هذا الكلام كله يتوجه على من قال: إن كل مجتهدٍ مصيب. فما تقول فيمن قال: إن الحق في واحد ولم يسوغ الاختلاف.

قال الشيخ رضي الله عنه فقلت له:

القائل بأن الحق في واحد، وإن كان مصيباً فيما قال على هذا المعنى خاصة، فإنه يلزمه المناقضة بقوله: إن المخطىء للحق معفو عنه غير مؤاخذ بخطئه فيه، واعتماده في ذلك على أنه لو أوخذ به للحقه العنت والتضييق. فقد صار بهذا القول إلى معنى قول الأوّلين فيما عليهم (من) المناقضة، ولزمهم من أجله ترك المباحثة والمكالمة، وإن كان القائلون بإصابة المجتهدين الحق يزيدون عليه في المناقضة، وتهافت المقالة، بقول الواحد لخصمه قد أخطأت الحكم مع شهادته له بصوابه فيما فعله مما به أخطأ الحكم عنده. فهو شاهد بصوابه وخطئه في الإصابة، معترف له ومقـر بأنه مصيب في خلافه، مأجور على مباينته، وهذه مقالة تدعو الى ترك اعتقادها بنفسها، وتكشف عن قبح باطنها بظاهرها، وبالله التوفيق.

ذكروا أن هذا الكلام جرى في مجلس الشيخ أبي الفتح عبيد الله بن فارس[1] قبل أن يتولى الوزارة.

---

(١) ورد ذكره في كتاب: (تثبيت دلائل النبوة) ص ٥٥٧ - ٥٥٨ للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني المتوفى سنة ٤١٥هـ باسم: أبو الفتح بن فراس، لا فارس وقال عنه: كان أبو الفتح بن فراس الكاتب وهو أحد الشيع ومن كبار الإمامية... إليه ترجع الشيع في الرواية ويعرض عليه شعراؤهم شعرهم مثل أبي الحسن الناشئ.

مسألة:

إن سأل سائل فقال: ما معنى قول رسول الله (ص):

« اختلاف أُمتي رحمة » .

الجواب:

قيل له: المراد بذلك اختلاف الواردين من المدن المتفرقة على رسول الله (ص) في وقته، وعلى وصيه القائم مقامه من بعده، ليسألوا عن معالم دينهم، ويستفتوا فيما لُبس عليهم، فذلك رحمة لهم، (إذ يعودون الى قومهم فينذرونهم)[1]، قال الله سبحانه:

« فلولا نفر من كل فرقة طائفةٍ منهم ليفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » التوبة: ١٢٢.

وليس المراد بذلك اختلاف الأُمة في اعتقادها، وتباينها في دينها، وتضادّ أقوالها وأفعالها.

ولو كان هذا الاختلاف لها رحمةً، لكان اتفاقها - لو اتفقت - سخطاً عليها ونقمةً.

وقد تضمن القرآن من الأمر بالاتفاق والائتلاف والنهي عن التباين والاختلاف ما فيه بيان شاف.

فصل: من الاستدلال بهذه الآية على صحة الإمامة والعصمة

قال الله تعالى:

« فلولا نفر من كل فرقةٍ طائفة منهم ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » التوبة: ١٢٢:

---

(١) في النسخة جملة مشوشة وهي: (ولم يعودون إليه بنذورهم من قومهم) فصححناها بما ذكرنا انسجاماً مع المعنى المقصود.

فحث سبحانه وتعالى على طلب العلم ورَغَّب فيه، وأوجب على من به نهضة أن يلتمسه ويسارع إليه، وهذا لازم في وقت رسول الله (ص) وبعده. ولا يضح أن يتخصص به زمان دون غيره، لأن التكليف قائم لازم، والشرع شامل دائم.

وقد علمنا ومن خالفنا أن النافرين للتفقه في الدين أيام النبي (ص) كانوا إذا وردوا عليه أرشدهم إلى الحق بعينه، وهداهم الى قولٍ واحدٍ من شرعه ودينه، فرجعوا إلى قومهم متفقين، وعلى شيء واحدٍ مجتمعين، لا يختلفون في تأويل آية، ولا في حكم فريضة، حلالهم واحد، وحرامهم واحد، ودينهم واحد، فثبتت بهم الحجة، وتتضح للمسترشدين المحجة، وينال الطالب بغيته، ويدرك المستفيد فائدته.

والناس بعد رسول الله (ص) مكلفون من شرعه بما كلفه من كان في وقته، فوجب في عدل الله وحكمته وفضله ورحمته أن يزيح علل بريته، ويقيم لهم في كل زمانٍ عالماً أميناً، حافظاً مأموناً، لا تختلف أقواله، ولا تتضاد أفعاله، وتثق النفوس بكماله ومعرفته، وتسكن إلى طهارته وعصمته، ليكون النفير[1] إليه، والتعويل في الهداية عليه. ولولا ذلك، لكان الله تعالى قد أمر بالنفير الى المختلفين وسؤل المتباينين المتضادين، والتعويل على المرجحين الظانين، الذين يحار بينهم المستجير، ويضل المسترشد، ويشك الضعيف، وهذا عنت في التكليف، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

سؤال في الغيبة يتعلق بما ذكرناه:

إن قال قائل: إذا كانت علل المكلفين في الشريعة، لا تنزاح إلا بحافظٍ للأحكام ينصب لهم، مميز بالعصمة والكمال منهم، يقصده المسترشدون، ويعوّل على قوله السائلون. وكان الإمام (ع) اليوم على قولكم غائباً لا يوصل إليه، ومستتراً عن الأمة لا يقدر عليه، فعلل المكلفين إذن غير مزاحة في الشرع،

---

(١) الأولى النفر لا النفير.

ووجود الحافظ لم يغن، لكونه بحيث لا يقدر عليه الخلق، فإلى من حينئذٍ يفزع الراغبون، ومن يقصد الطالبون، وعلى من يعوّل السائلون، ومن الذي ينفر إليه المسترشدون؟؟؟

الجواب:

قلنا: إن الله سبحانه قد أزاح علل المكلفين في هذا العصر، كما أزاح علل الأمم السابقة من قبل، الذين بعث فيهم أنبياءه فكذبوهم وأخافوهم، وشردوهم، وظفروا بكثير منهم فقتلوهم.

ولم يرسلهم الله تعالى إليهم إلا ليقيموا أحكامه بينهم، وينفذ أوامره فيهم، ويعلموا جاهلهم وينبهوا غافلهم، ويجيبوا سائلهم، وينفر إليهم الراغب، ويقتبس منهم الطالب، فحال بينهم وبين ذلك الظالمون، ومنعهم مما بعثوا له الآفكون، وقطعوهم عن الإبلاغ، وحرموا أنفسهم الهداية منهم والإنذار، فكانوا في قتلهم أنبيائهم كمن قصد إلى نفسه وأعمى بصره عن النظر إلى سبيل النجاة، ووقر سمعه عن استماع ما فيه هداه، ثم قال: لا حجة لله عليّ، ولا هداية منه وصلت إليّ، يقول الله عز وجل:

«ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين» البلد: ٩.

فللّه الحجة البالغة على الناس، ولو شاء لمنعهم من الضلال منع اضطرار، ولأخرجهم بالجبر عن سنن التكليف والاختيار، تعالى الله الحكيم فيما قضى، الحليم عمن عصاه.

والذي اقتضاه العدل والحكمة في هذا الزمان من نصب الإمام للأنام، فقد أزاح الله سبحانه العلة فيه، وأوجده، ودل عليه بحجة العقل الشاهدة في الجملة بأنه لا بد من إمام كامل معصوم في كل عصر، وبحجج النصوص على التعيين، المأثورة عن رسول الله رب العالمين، وعن الأئمة من أهل بيته الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين، في التعريف بصاحب هذا الزمان (ع)، بنعته ونسبه اللذين يتميز بهما عن الأنام، ولكن الظالمين سلكوا سنن من كان قبلهم في قصدهم لإهلاك هداتهم، وحرصهم على إطفاء نور مصابيحهم، فقصدوا قصده

فأخافوه، وانطوت نياتهم على قتله متى وجدوه. فأمر(ه) الله بالاستتار، (لما) علمه من مباينة حاله لحال كل نبيٍ وإمامٍ أبدى شخصه فقتلهم الناس، إذا كانت مصلحة الأمة بعد آبائه صلوات الله عليهم، مقصورةً على كونه إماماً لهم، وأن غيره لا يقوم مقامه في مصلحتهم، وسقط عنهم فرض التصدي للسائلين لعدم الأمن والتمكن، فكانت الحجة لله تعالى على الظالمين الذين (وجدوا) سبيل الهداية، وأُرشدوا إليها، فمنعوا أنفسهم سلوكها، وآثروا الضلالة عليها، (فكانوا) كمن شد عينه عن النظر إلى مصالحه، وسد سمعه عن استماع مناصحته، ثم قال: لو شاء الله لهداني، قال الله سبحانه فيمن ماثلت أحواله حاله:

« فأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » فصلت: ١٧.

تعالى الله ذو الكلمة العليا والحجة المثلى.

ولسنا مع ذلك نقطع على أن الإمام (ع) لا يعرفه أحد، ولا يصل إليه، بل قد يجوز أن يجتمع به طائفة من أوليائه تستر اجتماعها به وتخفيه.

فأما الذي يجب أن يفعله اليوم المسترشدون ويعول عليه المستفيدون فهو الرجوع إلى الفقهاء من شيعة الأئمة، وسؤالهم في الحادثات عن الأحكام، والأخذ بفتاويهم في الحلال والحرام. فهم الوسائط بين الرعية وصاحب الزمان عليه السلام، والمستودعون أحكام شريعة الاسلام، ولم يكن الله تعالى يبيح [لحجته] صلى الله عليه، الاستتار إلا وقد أوجد (للأمة) من فقه آبائه (ع) ما تنقطع به الأعذار، وليس الرجوع إليهم كالرجوع إلى القائسين، ولا التعويل عليهم بمماثلٍ للتعويل على المستحسنين، المفتين في الشريعة وبالظن والترجيح، وإنما هو رجوع إلى ما استودعوه من النصوص (المفيدة) للعلم واليقين، وتعويل على ما استحفظوه من الآثار المنقولة من فتاوى الصادقين، التي فيها علم ما يلتمسه الطالبون، وفيه ما يقتبسه السائلون. ومن أخذ من هذا المعدن فقد أخذ من الإمام صلى الله عليه، لأنها علومه، وأقوال آبائه صلوات الله عليهم وسلامه.

وكثيراً ما يقول لنا المخالفون عند سماعهم منا هذا الكلام:

إذا كنتم قد وجدتم السبيل إلى علم ما تحتاجونه من الفتاوى في الأحكام، المحفوظة عن الأئمة المتقدمين (ع)، فقد استغنيتم بذلك عن إمام الزمان.

وهذا قول غير صحيح، لأن هذه الآثار والنصوص في الأحكام موجودة مع من لا يستحيل منه الغلط والنسيان، ومسموعة بنقل من يجوز عليه الترك والكتمان.

وإذا جاز ذلك عليهم لم يؤمن وقوعه منهم إلا بوجود معصوم يكون من ورائهم، شاهد لأحوالهم، عالم بأخبارهم، إن غلطوا هداهم، أو نسوا ذكرهم، أو كتموا علم الحق منه دونهم.

وإمام الزمان (ع)، وإن كان مستتراً عنهم، بحيث لا يعرفون شخصه، فهو موجود بينهم، يشاهد أحوالهم، ويعلم أخبارهم، فلو انصرفوا عن النقل، أو ضلوا عن الحق، لما وسعته التقية ولأظهره الله سبحانه، ومنع منه إلى أن يبين الحق، وتثبت الحجة على الخلق.

ولو لزمنا القول بالاستغناء عن الإمام فيما وجدنا الطريق إلى علمه من غير جهته، للزم مخالفينا القول بالاستغناء عن النبي (ص) في جميع ما أدّاه مما عُلم بالعقول قبل أدائه، وفي إطلاق القول بذلك خروج عن الإسلام وأحكامه. وقد ورد في جواب هذا السؤال ما فيه بلاغ للمسترشدين وهداية، والحمد لله.

تأويل آية:

إن سأل سائل فقال: ما عندكم في تأويل قول الله سبحانه:

«ولو شاء ربك لجعل الناس أُمةً واحدة، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم»[1].

وظاهر هذه الآية يقتضي أنه لم يشأ أن يكون الناس أُمة واحدة متفقين على الهدى والمعرفة.

---

(١) هود: ١١٨ وتجد الكلام على هذه الآية في الأمالي للمرتضى ج ١ ص ٧٠- ٧٥.

وما معنى قوله: (ولذلك خلقهم) وظاهره يقتضي أنه خلقهم للاختلاف، ولو كان عنى به الرحمة لقال: ولتلك خلقهم، لأن الرحمة مؤنثة، ولفظة ذلك لا يكنى بها إلا [عن] مذكر.

وأما الرحمة فإنا لا نعرفها إلا رقة القلب والشفقة، وهذا لا يجوز على الله سبحانه.

الجواب:

أما قوله تعالى: (ولو شاء ربك لجعل الناس أُمةً واحدة) فإنما عنى به المشيئة التي يقارنها الإلجاء والاضطرار، ولم يعن بها المشيئة التي تكون معها على حكم الاختيار.

ومراده سبحانه في الآية أن يخبرنا عن قدرته، وأن الخلق لا يعصونه على سبيل الغلبة له، وأنه قادر على إلجائهم وإكراههم على ما أراده منهم.

فأما لفظة (ذلك) في الآية فحملها على الرحمة أولى من حملها على الاختلاف، لدليل العقل وشهادة اللفظ.

فأما دليل العقل فمن حيث علمنا أنه سبحانه كره الاختلاف في الدين ونهى عنه وتوعد عليه، ولا يجوز أن يخلفهم لأمرٍ يكرهه، ويشاء منهم ما نهى عنه وحظره.

وأما شهادة اللفظ فلأن الرحمة أقرب إلى هذه الكناية من الاختلاف، وحمل اللفظ على أقرب المذكورين إليها أولى في لسان العرب من حمله على الأبعد.

وأما قول السائل: إن الرحمة مؤنثة، ولفظة ذلك لا يكنى بها إلا مذكر، ففاسد، لأن تأنيث الرحمة غير حقيقي، وإذا كني بها بلفظ التذكير، كانت الكناية على المعنى، لأن معنى الرحمة هو الانعام والتفضل، وقد قال الله سبحانه:

«هذا رحمة من ربي».

ولم يقل: هذه، وإنما أراد هذا فضل من ربي.

قال امرؤ القيس:

برهرهـــــــةٍ رودةٍ رخصـــــــة   كخربوعـــة البانـــة المنفطـــــر

فقال: المنفطر ولم يقل المنفطرة، لأنه عنى الغصن فذكّره.

وقال آخر:

قامـــت تبكيـــه عـــلى قـــبره   من لي من بعـــدك يـــا عامر
تركتـــني في الـــدار ذا غربـــةٍ   قـــد ضـــاع من ليس لـــه ناصر

فقال: ذا غربة، ولم يقل: ذات غربة، لأنه عنى شخصاً ذا غربة.

والمراد بالاختلاف المذكور في الآية إنما هو الاختلاف في الدين، والذهاب عن الحق فيه بالهوى والشبهة.

وقد ذكر بعضهم في قوله (مختلفين) وجهاً غريباً، وهو أن يكون معناه، أن خلف هؤلاء الكافرين يخلف سالفهم في الكفر، لأنه سواء قولك خلف بعضهم بعضاً، وقولك اختلفوا، كما أنه سواء قولك قتل بعضهم بعضاً، وقولك اقتتلوا، ومنه قولهم: لا أفعل كذا وكذا ما اختلف العصران والجديدان، أي جاء كل منهما بعد الآخر.

وأما الرحمة فليست رقة القلب والشفقة، لكنها فعل النعم والإحسان، يدل على ذلك أن من أحسن إلى غيره وأنعم عليه، يوصف بأنه رحـيم بـه، وإن لم تعلم منه رقة قلبه عليه وشفقته، بل وصفهم بالرحمة من لا يعهدون منه رقة القلب أقوى من وصفهم الرقيق القلب بذلك، لأن مشقة النعمة والإحسان على من لا رقة عنده، أكثر منها على الرقيق القلب.

وقد علمنا أن من رق عليه أو امتنع من الافضال والإحسان لم يوصف بالرحمة، وإذا أنعم وصف بها، فوجب أن يكون معناها ما ذكرناه، وقد يجوز أن يكون معنى الرحمة في الأصل الرقة والشفقة، ثم انتقل بالتعارف إلى ما بلغ

هذا آخر ما وجدنا من كتاب كنز الفوائد.

نصوص مفقودة من نسخة الكتاب المطبوعة

هناك طائفة كبيرة من نصوص هذا الكتاب مفقودة، وجدناها في عدة مؤلفات نقلها أصحابها عن كنز الفوائد، رأينا إدراجها في خاتمة هذا الكتاب، تتمة للفائدة. وهذه النصوص هي:

١ - قال المحدث الشيخ عباس القمي في كتابه: الأنوار البهية: ص ١٣٤-١٣٥.

«وعن كنز الفوائد قال:

جاء في الحديث أن أبا جعفر المنصور خرج في يوم جمعة متوكئاً على يد الصادق جعفر بن محمد (عليه السلام) فقال رجل يقال له رزام مولى خالد بن عبد الله: من هذا الذي بلغ من خطره ما يعتمد أمير المؤمنين على يده؟

فقيل له: هذا أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق (ع). فقال: إني والله ما علمت لوددت أن خد أبي جعفر نعل لجعفر. ثم قام فوقف بين يدي المنصور، فقال له: سل يا أمير المؤمنين، فقال له المنصور: سل هذا.

فالتفت رزام إلى الإمام جعفر بن محمد (ع) فقال: أخبرني عن الصلاة وحدودها، فقال الصادق (ع):

للصلاة أربعة آلاف حدٍ، لست تؤاخذ بها، فقال: أخبرني بما لا يحل تركه ولا تتم الصلاة إلا به.

فقال أبو عبد الله (ع):

لا تتم الصلاة إلا لذي طهر سابغ[1]، واهتمام بالغ، غير نازغ ولا زائغ، عرف فوقف، وأخبت[2] فثبت، فهو واقف بين اليأس والطمع، والصبر والجزع، كأن الوعد له صُنع، والوعيد به وقع، بذل عرضه وتمثل غرضه، وبذل في الله المهجة[3]، وتنكب غير الحجة، مرتغماً بارغام[4]، يقطع علائق الاهتمام، يعين من له قصد وإليه وفد، وفيه استرفد، فإذا أتى بذلك كانت هي الصلاة التي بها أمر، وعنها أخبر، وإنها هي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر.

فالتفت المنصور الى أبي عبد الله (ع) فقال له:

يا أبا عبد الله، لا نزال من بحرك نغترف، وإليك نزدلف[5]، تبصِّرُ من العمى، وتجلو بنورك الطخياء غير نازغ ولا زائغ.

النزغ الظن والاغتياب والافساد والوسوسة، والزيغ الميل، والطخياء في قول المنصور الظلمة، وتعوم أي تسبح. ففي الخبر: علموا صبيانكم العوم، أي السباحة، وسبحات وجه ربنا، جلاله وعظمته، وقيل: نوره، وطما البحر امتلأ. فانظر إلى أعدائهم أقروا بفضلهم هل فوق ذلك فخر.

٢ - قال ابن طاووس في كتابه: (فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم) ص ٦٠ - ٧٤ ما يلي:

فصل:

وقال الشيخ الفقيه العالم الفاضل العارف بعلم النجوم، المصنف بها عدة مصنفات، أبو الفتح محمد[6] بن عثمان الكراجكي رحمه الله في كتاب (كنز الفوائد) في الرد على من قال إن الشمس والقمر والنجوم علل موجبات ما هذا لفظه:

---

(١) الوافي التام.

(٢) أخبت الى الله أطمئن إليه تعالى وخشع له.

(٣) أي الدم والنفس.

(٤) أي ذل وخضع.

(٥) أي نقترب.

(٦) سقط من النسخة كلمة (علي) إذ هو محمد بن علي.

«اعلم أنهم سئلوا عن مسألة حيرتهم، وأظهرت عجزهم وأخرستهم، فقيل لهم: إذا كان سائر ما في العالم من النفع والضرر والخير والشر، وجميع أفعال الخلق، والشمس والقمر والنجوم واجبة، وهي علته وسببه، وليس داخل الفلك غير ما أثّرت، ولا فعل لأحد، يخرج به عما أوجبت، فما الحاجة الى الاطلاع على الأحكام، وأخذ الطوالع عند المواليد، وعمل الزوايج وتحويل السنين.

قالوا: الحاجة الى ذلك حصول العلم [بما] سيكون من حوادث السعود والنحوس.

قيل لهم: وما المنفعة بحصول هذا العلم؟ فإن الإنسان لا يقدر أن يزيد فيه سعداً، ولا ينقص منه نحساً، مما أوجبه مولده، فهو كائن لا مغيّر له.

فمنهم من استمر على طريقه، وبنى على أصله، فقال: ليس في ذلك أكثر من فضيلة العلم بالحادثات قبل كونها.

فقيل له: ما هذه الفضيلة المدّعاة في علم، لا ينال به مكتسبه نفعاً، ولا يدفع به عن نفسه ولا عن غيره ضراً، وما هذا العناء في اكتساب ما لا ثمر له؟ والجاهل به كالعالم في عدم المنفعة منه.

وسئلوا أيضاً عن هذا الاكتساب وسببه؟ وهل الفلك موجبه أو غير موجبه؟

فلم يرد منهم ما يتشبث العاقل به.

ومنهم من تعذر عليه عند توجه الإلزام، فأنزله الاحجام درجة عن قول أصحاب الأحكام، فقال: بل للعلم تأثير في اكتساب نفع كثير، وهو أن يتعجل الانسان بالسعادة، ويتأهب لها، فيكون في ذلك مادة فيها، ويتحرز عن النحاسة ويتوقاها، فيكون بذلك دفعاً لها أو نقصاً منها.

فقيل له: ما الفرق بينك وبين من عكس عليك قولك، فقال: بل المضرة باكتساب هذا العلم حاصلة، والأذية الى معتقده واصلة، وذلك أن متوقع السعادة والمساءة، معه قلق المتوقع، وحرقة الانتظار، ففكره منقسم، وقلبه

معذب، يستبعد قرب الساعات، ويستطيل قرب الأوقات، شوقاً الى ما يرد، وتطلعاً الى ما وعد. وفي ذلك ما يقطعه عن منافعه، ويقصر به عن حركاته في مطامعه، اتكالاً على ما يأتيه، وتعويلاً على ما يصل إليه. وربما أخلف الوعد، وتأخر السعد، فليست جميع أحكامكم تصيب، ولا الغلط منكم بعجيب، فتصير المضرة حسرة، والمنفعة مضرة.

فأما متوقع المنحسة فلا شك أنه قد تعجلها لشدة رعبه بقدومها، وعظم هلعه بهجومها، فهو لا ينصرف بفكره عنها، فيجعلها أكبر منها. فحياته منغصة، ونفسه متغصصة، وقلبه عليل، وتغممه طويل، لا يهنيه أكل ولا شرب، ولا يسليه عذل ولا عتب، ضعيف النبضات، فاتر الحركات، إذا احترز لا ينفع، وربما كان باحترازه لا ينتفع.

فهذا القول أشبه بالحق مما ذكرتم، وهو شاهد يلزمكم الاقرار به إن أنصفتم.

ونحن الآن نعترف في مقابلتكم به، ولا نطالبكم بشيء من موجبه، ونعود الى دعواكم التي ذكرتموها فنقول سائلين لكم عنها: أخبرونا عن هذه المسرة التي تحصل للعالم والتأهب الزائد في السعد الواصل، وعن هذا الاحتراز من المنحسة والتأتي من المضرة والمهلكة، هل جميع ذلك مما توجبه وتقضي به الكواكب، أم هو عن أحكامها خارج مضاف في الحقيقة الى اختيار الحي القادر؟؟

فرأوا أنهم إن قالوا مما توجبه الكواكب، وتقضي بكونه أحكام الفلك في العالم.

قيل لهم: فيكون ذلك، سواء اطلع الانسان على أحكام النجوم أم لم يطلع، وسواء عليه اهتم لمولده وتحويل سنته أم لم يهتم؟

فعرجوا عن هذا وقالوا: إن أفعالنا منفصلة عما يوجبه الفلك فينا، فتصح بذلك الزيادة والنقص الذي قلنا.

قلنا لهم: لقد نقضتم أصولكم، وخرجتم عن قوانين علمائكم فيما أقررتم به من جواز أفعالٍ يحيط بها الفلك، ليست حادثة من جهته، ولا من تأثير كواكبه،

وما نراكم قنعتم بهذا الإقرار حتى جعلتم الأفعال البشرية واقعة لما توجب الأقضية النجومية، ومانعة مما تؤثر الحركات الفلكية بقولكم: إن الإنسان يمكن أن يحترز من المنحسة فيدفعها، أو ينقص منها ما سلطته لها. فلولا أن فعله أقوى، واحترازه أمضى لم يرفع عن نفسه سوءاً.

ثم سئلوا أيضاً، فقيل لهم: إذا سلمتم أن أفعال الإنسان مختصة بهم، وليست مما توجبه النجوم فيهم، وأنتم مع هذا تقولون للانسان: احذر على مالك من طروق سارق، فقد أقررتم أن حذره من تأثير المختص به، فأخبرونا الآن عن طروق السارق، وما الموجب له؟ فإن قلتم: النجوم رجعتم عما أعطيتم، ورددتم إليها أفعال العباد ونافيتم، وإن قلتم إن طروق السارق مختص به ولا موجب له غير اختياره أجبتم بالصواب، وقيل لكم: فما نرى للنجوم تأثيراً في هذا الباب.

واعلم - أيّدك الله - أنهم لم يبق لهم ملجأ إلا أن ينزلوا عن قول أصحابهم درجة أخرى، فيقولون: إن النجوم دالة، وليست بفاعلة، وعلامة غير ملجئة، فإذا قالوا ذلك، انصرفوا عمن يقول إنها موجبة قادرة، وأبطلوا دعواهم أنها مدبرة، وقيل لهم: أفتقولون كل أمر تدل عليه فإنه سيكون لا محالة؟

فإن قالوا: نعم نقضوا ما تقدم، وإن قالوا: قد يجوز أن يحرم تداولها، ويحرم ما دلالته عليه منها، لم تبق بعد هذا، درجة ينتهون إليها، واقتصروا على مقالة لا يضرك مناقشتهم فيها.

وأنا أخبرك بعد هذا، بطرقٍ من بطلان أفعالهم، ونكت من إفساد استدلالهم، والأغلاط التي تمت عليهم، فاتخذوها أصولاً لأحكامهم.

اعلم: أن تسمية البروج الاثني عشر، بالحَمَل والثور والجوزاء إلى آخرها، لا أصل لها ولا حقيقة، وإنما وضعها الراصدون لهم، متعارفاً بينهم، وكذلك جميع الصور التي عن جنبي منطقة البروج الاثني عشر وغيرها، والجميع ثمان وأربعون صورة، عندهم مشهورة، وعلماؤهم معترفون بأن ترتيب هذه الصور وتشبيهها، وقسمة الكواكب عليها، وتسميتها، صنعه متقدموهم، ووضعه حذاقهم الراصدون لها.

وقد ذكر أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفي ذلك، وهو من جلتهم،

وله مصنفات لم يعمل مثلها في علمهم، وقد بينه في الجزء الأول من كتابه (المعمول في الصور)، وقد ذكر رصد الأوائل منهم الكواكب، وأنهم رتبوها في المقادير والعِظم لست مراتب، وبيّن أنهم الفاعلون لذلك، ما أنا مبينه على حقيقته، وناقله من كتابه، وهو: أنهم وجدوا من هذه الكواكب التي رصدوها تسعماية وسبعة عشر كوكباً، ينتظم منها ثمان وأربعون صورة، كل صورة تشتمل على كواكبها، وهي الصور التي أثبتها بطلموس في كتابه (المجسطي)، بعضها في النصف الشمالي من الكرة، وبعضها على منطقة البروج التي في طريقة الشمس والقمر والكواكب السريعة السير، وبعضها في النصف الجنوبي.

ثم سموا كل صورة باسم الشيء المشبه لها، بعضها على صورة الانسان مثل كواكب الجوزاء، وكواكب الجاثي على ركبتيه.

وبعضها على صورة الحيوانات البرية والبحرية، مثل الحمل والثور، والسرطان، والأسد، والعقرب، والحوت، والدب الأكبر، والدب الأصغر.

وبعضها خارج عن شبه الإنسان وسائر الحيوانات، مثل الاكليل، والميزان، والسفينة.

وليس ترتيبهم لها وتسميتهم إياها، وما فعلوه فيها لدليل. وذكر عذرهم في ذلك، فقال: وإنما أنهوا هذه الصور وسموها بأسمائها، وذكروا كوكباً من كل صورة، ليكون لكل كوكب اسم يعرف به إذا أشاروا إليه، وذكروا موضعه من الصورة، وموقعه في فلك الأبراج، ومقدار عرضه في الشمال والجنوب على الدائرة التي تمر بأوساط البروج، لمعرفة أوقات الليل والنهار، والطالع في كل وقت، وأشياء عظيمة المنفعة، تعرف بمعرفة هذه الكواكب.

وهذا آخر الفصل من كلامه في هذا الموضع، وهو دليل واضح على أن الصور والأشكال والأسماء والألقاب، ليست على سبيل الوجوب واستحقاق، وإنما هي اصطلاح واختيار، ولو عزب عن ذلك الى تشبيه آخر لأمكن وجاز.

ثم إنهم بعد هذا الحال جعلوا كثيراً من الأحكام مستخرجاً من هذه الصور والأشكال، ومنتسباً الى الأسماء الموضوعة والألقاب، حتى إنهم على ما ذكروه

على نحو واجب، ودليل عقل ثابت، فقالوا: إن الحكم على الكسوف، على ما حكاه ابن هبنتي عن بطليموس، أنه إن كان البرج الذي يقع فيه الكسوف من ذوات الأجنحة، مثل العذراء والرامي، والدجاجة، والنسر الطائر وما أشبهها، فإن الحادث في الطير الذي يأكل الناس، وإن كان الحيوان مثل السرطان والولين فإن الحادث في الحيوانات البحرية أو النهرية.

وهذه فضيحة عظيمة، وحال قبيحة، أفما يعلم هؤلاء القوم أنهم هم الذين جعلوا ذوات الأجنحة بأجنحة، والصور البحرية بحرية، وأنهم لولا ما فعلوه لم يكن شيء مما ذكروه، فكيف صارت أفعالهم التي ابتدعوها وتشبيهاتهم التي وضعوها، موجبة لأن حكم الكسوف مستخرجاً منها، وصادراً عنها. وهذا يؤدي إلى أنهم المدبرون للعالم، وأن أفعالهم سبب لما توجبه الكواكب.

فصل:

ولم يقنع ابن هبنتي[1] بهذه الجملة حتى قال في كتابه المعروف (بالمغني)، وهو كتاب نفيس عندهم، قد جمع فيه عيون أقوال علمائهم، وذوي الفضيلة منهم، رأيته بدار العلم في القاهرة بخط مصنفه قال فيه:

إن وقع الكسوف في المثلث أي في الدرج التي تحتوي عليه دل ذلك على فساد أصحاب الهندسة والعلوم اللطيفة.

وهذا المثلث - أيدك الله - هو من كواكب على شكل مثلث، لأن في السماء عدة مثلثات ومربعات، مما هو داخل الصورة التي ألفوها وخارج عنها، فكيف صار الحكم مختصاً هذا دونها، وما نرى العلة فيه إلا تسميتهم له بذلك، فكان سبباً لوقوع أهل الهندسة في المهالك.

---

(١) هبنتي بالهاء والباء والنون والتاء وألف تكتب ياءً وألفاً عن محاضرات علم الفلك طبعة مصر ص ١٨٥، وابن هبنتى منجم نصراني عاش ببغداد وألف كتاباً في التنجيم أسماه المغني بعد سنة ٣٣٠هـ- ٩٤١م وكان الجزء الثاني لا يزال محفوظاً في مكتبة (موينخ) وذكره حاجي خليفة في كشف الظنون مع إسم ابن هبنته محرفاً أنظر دائرة المعارف اللبنانية ج٧ ص ١١٧.

قال ابن هبنتي: وإن كان الكسوف في الكاس، دل على فساد الأشربة.

وهذا أعجب من الأول، وذلك أن الكأس عندهم من سبعة كواكب شبهوها بالكأس وبالباطية أيضاً.

فإن كان الحكم الذي ذكروه إنما اختص بذلك من أجل التشبيه والتسمية، فإن هذه الكواكب بأعيانها قد شبهتها بالمعلف، وسميتها بهذا الاسم، فكيف صار تشبيه المنجمين وتسميتهم لها بالكأس أولى من أن يكون تشبيه العرب لها بالمعلف، وتسميتهم لها بهذا الاسم موجباً لانصراف الحكم فيها الى الدواب. اللهم إلا أن يقولوا إن المعول على تشبيهها للمنجمين دونهم فلا اعتراض.

قال ابن هبنتي: وقد شاهدنا بعض الحذاق من أهل هذه الصناعة قد نظر في مولد إنسان من الأصاغر، فوجد النسر الطائر في درجة وسط السماء، فقال: يكون بإزاء دار الملك، وزعم أن الأمر كما ذكر.

وهذا يؤكد ما ذكرناه من تعويلهم على الأسماء والصور المدونة من اصطلاح البشر.

فصل: وقد اطلعت أنا في مولد فوجدت فيه الكواكب التي يقولون إنها النسر الطائر في وسط السماء، فلم يدل من حال صاحبه على نظيرها.

قال ابن هبنتي: وكان هذا الرجل فقيراً فأثرى، ولم أره قط إلا ماقتاً لأنواع الطير، غير مقيد بشيء منها في حالتي الفقر والغنى.

فإن صدق ابن هبنتي فيما ذكر، فما هو إلا عن شيء لا أصل له، يصح بعضه فيوافق الظنون، ويبطل بعضه فلا يكون، فإن كان اختلافه في حال لا يدل على بطلان حكمهم، فاتفاقه في حالٍ أُخرى لا يدل على صحة حكمهم وجزمهم.

ومن هذيانهم أيضاً الموجود في عيون كتبهم والمأثور من أحكامهم، قولهم: إن الحمل والثور يدلان على الوحوش وكل ذي ظلف، والجدي مشترك بينهما، والأسد والنصف الأول من القوس يدلان على كل ذي نابٍ ومخلب.

وإنما ذكروا نصف القوس، لأن صورته التي ألفوها وشبهوها صورة دابة وإنسان، فجعلوا النصف الأول للوحوش، والنصف الآخر للناس.

قالوا: والسرطان والعقرب يدلان على حشرات الأرض، والثور للفرس، والسنبلة للبذر.

وهذا كله قياس على الصور والأسماء التي لم يوجبها العقل، ولا أتاهم بها خبر من الله تعالى في شيء من النقل. وإنما هو شيء من اختيارهم. وقد كان يمكن غيره، ويجوز خلافه.

قالوا: ومن يولد برأس الأسد يكون فتن الغم.

فمن شبه تلك الكواكب بصورة الأسد غيركم، ومن سماها بهذا الاسم سواكم؟

وكيف لم تقولوا: إنها الكلب، أو تشبهوها بغير ذلك من دواب الأرض.

هذا – أيدك الله – والصور عندهم لا تثبت في مواضعها، ولا تستقر على إقامتها.

فصورة الحمل التي يقولون إنها أول البروج، قد تنتقل إلى أن تصير البرج الثاني، ويصير البرج الأول الحوت.

وهذا عندهم هو القول الصحيح، لأن الكواكب عندهم كلها تتحرك إلى جهة المشرق، بخلاف ما يتحرك بها الفلك، والخمسة المضافة الى الشمس والقمر هي السريعة السير، وحركاتها مختلفة في الإبطاء والسرعة. وبقية الكواكب تتحرك عندهم بحركة واحدة خفيفة بطيئة، ولخفاء حركتها سموها الثابتة، وهي على رأي بطليموس ومن قبله في كل مائة سنة تتحرك درجةً واحدة.

وعلى رأي أصحاب (سمين) ومن رصد في أيام المأمون، وحسب في كل ست وستين سنة درجة.

والصوفي يقول في كتاب (الصور):

إن مواضع هذه الصور التي كانت على منطقة فلك البروج كانت منذ ثلاثة آلاف سنة، على غير هذه الأجسام، وأن صورة الحمل كانت في القسم الثاني عشر، وصورة الثور كانت في القسم الأول.

وكان يسمى القسم الأول من البروج، الثور، والثاني الجوزاء، والثالث السرطان. ولما جددت الأرصاد في أيام طيموخارس وجدوا صورة الحمل قد انتقلت إلى القسم الأول من القسم الثاني عشر الذي هو بعد منطقة التقاطع، فغيّروا أسماءها، فسموا القسم الأول الحمل، والثاني الثور، والثالث الجوزاء.

قال: ولا يخالفنا أحد في أن هذه الصور تنتقل بحركاتها على مرّ الدهور من أماكنها حتى تصير صورة الحمل في القسم السابع الذي للميزان، والميزان في القسم الأول الذي هو الحمل، فيسمى أول البروج الميزان، والثاني العقرب.

ثم مرَّ في كلامه موضحاً عما ذكرناه من تنقلها الموجب لتغير أسماء بروجها، وهم مجمعون على أن الكوكبين المتقاربين المعروفين بالشرطين على قرني الحمل، هما أول منازل القمر، فيجب أن يكون أول البروج الاثني عشر.

ومن امتحنها في وقتنا هذا (وهو سنة ثمان وعشرين وأربعماية للهجرة) الموافقة لسنة ألفٍ وثلاثماية وثمان وأربعين لذي القرنين، وجد أحدهما في عشرين درجة من الحمل، والآخر في إحدى وعشرين منه، أعني من البرج الأول، ويعرف ما ذكرته من كانت له خبرة وعناية بهذا الأمر.

فأي برج من البروج الاثني عشر يبقى على صورة واحدة، وكيف ثبت الحكم الأول بأنه دال على الوحوش وعلى كل ذي ظلف، وقد انتقلت إليه أكثر صورة الحوت، وكذلك حال جميع البروج، فافهم هذا، فإنه طريف.

فصل:

ومن عجيب غلطهم في الأسماء الدالة على عدم معرفتهم بمعانيها، أنهم سمعوا العرب التي تسمي الكواكب التي عن جنوب التوأمين، الجوزاء، فلم يفهموا هذا الاسم، وظنوا أنه مشتق من الجوز الذي يؤكل، فرأوا من الرأي أن يسموا النسر المواقع مع الكواكب الغربية من اللوز، قياساً على الجوزاء، وهذا من الغاية في الجهل والعناد، وليس تقوله إلا شيوخهم ومصنفو الكتب منهم. ومن اطلع في ذكرهم الصور الثمان والأربعين، وقف على صحة ما حكيته عنهم. فهل سمع أحد قط بأعجب من هذا الأمر؟

فصل :

وإنما سمت العرب هذه الكواكب بالجوزاء ، لتوسطها إذا ارتفعت ، أو لأنها تشبه رجلاً في وسطه منطقة ، فاشتقوا لها اسماً من التوسط ، يقولون : (جوز الفلا) يعنون وسطه .

ومن قولهم الدال على فساد أحكامهم ، أن كل درجة من درج الفلك ، ستون دقيقة ، وكل دقيقة ستون ثانية ، وكل ثانية ستون ثالثة ، وهكذا إلى ما لا نهاية له .

ولكل هذه الأجزاء التي لا تنحصر حكم مختص به ، ولا ينضبط ، فكيف يصح الحكم على هذا الأصل ، وليس في أيديهم إلا الجمل التي تفاضلها يختلف .

وقد ولد لي ولدان توأمان ، ليس بين ظهورهما من الفرق والزمان بقدر ما يبين الاسطرلاب ، فاشتركا في درجة واحدة من طالع واحد في نصبه ، ولم يدرك فيهما التغيير ، ولو قلت : إنهما اشتركا في الدقيقة لصدقت ، فلما رأيت ذلك ، قلت : هذه حالة في الجملة قد اتفقت فيها النصبة ، وفي غاية ما يمكن إدراكه بالآلة ، فإن الحكم على الحَمَل يوجب أن تكون حالة هذين المولودين متماثلة . فلا والله ما تماثلت صورتها ولا أحوالها ولا صحتهما من سقمهما ، ولقد مات أحدهما بعد ولادته بأيام ، ومات الآخر وامتدت بعمره الأيام ، أسأل الله السعد التام .

ولقد سألت بعضهم عن هذا الحال ، فقال لي : (النمودار)[1] يخرج لك الفرق بين المولودين .

فقلت له : الذي عرفت من علمائكم أنهم لا يقولون على النمودار إلا عند عدم الرصد ، فمتى حصل الرصد أغنى عنه ، ويوضح ذلك أنكم تقولون في عمل النمودار ، خذ ساعات الجزر ولا يكون الجزر إلا عند عدم الرصد ، وإذا كان الرصد ههنا لم يخط الحقيقة ، ولا أتاه الفرق ، فبان بأن لا يعطيه النمودار بعد الرصد .

---

(١) النمودار هو أخذ درجة الطالع من أقرب درجة إليه بالتخمين. (عن الهامش).

وقلت له أيضاً: لست أشك في كثرة الاختلاف بينكم في كل أصل وفرع، وعلى كل وجه فإنما يُعمل النمودار بين الساعات، سواء كانت عند رصد أو جزر. وقد كانت ولادة هذين التوأمين في ساعة واحدة، لم يصح فيها الفرق، فما الحيلة في هذا الأمر، فخلط في ذلك ولم يأت بشيء يفهم.

فصل:

واعلم- أيدك الله- أن (نمودار) واليس يخالف نمودار بطليموس، ونمودار الفرس يخالفهما جميعاً. وليس في ذلك ما يتفق عليه، ولا يؤدي إلى أمرٍ متفق، ولا يدل على صحة واحدٍ منها العقل، وجميعها دعاوى لا يعلم لها أصل. ولو تتبعتُ مواضع اختلاطهم، وذكرت ما أعرفه من تناقض أصولهم المبطلة لأحكامهم، لخرجت عن الغرض في الاختصار. وفيما أوردته غنًى عن الإكثار.

فصل:

وأنا أذكر لك بعد هذا، مقالتنا في النجوم، وما نعتقده فيها، لتعرف الطريقة في ذلك، فتعتمد عليها.

اعلم - أيدك الله - أن الشمس والقمر والنجوم أجناس محدثة من جنس هذا العالم مؤلفة من أجزاء تحلها الأعراض، وليست فاعلة في الحقيقة، ولا ناطقة، ولا حية قادرة.

وقال شيخنا المفيد رضوان الله عليه: إنها أجسام نارية، فأما حركاتها فهي فعل الله تعالى فيها، وهو المحرك لها، وهي من آيات الله الباهرة لخلقه، وزينة في سمائه، وفيها منافع لعباده لا تحصى، وبها يهتدي[1] السائرون براً وبحراً، قال الله تعالى:

«وعلامات وبالنجم هم يهتدون». النحل: ١٦.

---

(١) في النسخة: (لا يهتدي) وهي خطأ بزيادة (لا).

وفيها للخلق مصالح لا يعلمها إلا الله تعالى.

فأما التأثير المنسوب إليها، فإنا لا ندفع كون الشمس والقمر مؤثرين في العالم، ونحن نعلم أن الأجسام، وإن كان لا يؤثر أحدها بالآخر إلا مع مماسة بينهما بأنفسها، أو بواسطة، فإن للشمس والقمر شعاعاً متصلاً بالأرض وما عليها يقوم مقام المماسة، وتصح به التأثيرات الحادثة.

ومن ذا الذي ينكر تأثير الشمس والقمر، وهو شاهد وإن كان تأثير الشمس أظهر للحس وأبين من تأثير القمر في الأزمان والبلدان والنبات والحيوان.

وأما غيرهما من الكواكب فلسنا نجد لها تأثيراً يُحس، ولا نقطع وجوبه بالعقل، وهو أيضاً ليس من الممتنع المستحيل، بل هو من الجائز في العقول، لأن لها شعاعاً متصلاً في الأرض، وإن كان من دون شعاع الشمس والقمر. فغير منكر أن يكون لها تأثير خفي على الحس خارج عن أفعال الخلق. فإن كان لها تأثير كما يقال، فتأثيرها مع تأثير الشمس والقمر في الحقيقة، من أفعال الله تعالى، وليس يصح إضافته إليها إلا على وجه التوسع والتجور، كما نقول: أحرقت النار، وبرد الثلج، وقطع السيف، وشج الحجر، وكذلك قولنا: أحمت الشمس الأرضَ، ونفعت الزرع، وفي الحقيقة أن الله أحمى لها ونفع.

ومما يدل على أن الله تعالى يشغل شيئاً بشيء قوله سبحانه:

«هو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته، حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه إلى بلدٍ ميت، فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات، وكذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون».

وليس فيما ذكرناه رجوع إلى قول أصحاب الأحكام، ولا قول بما أنكرناه عليهم في متقدم الكلام، لأنا أنكرنا عليهم إضافة تأثيرات الشمس والقمر إليهما من دون الله سبحانه، وقطعهم على ما جوزناه من تأثيرات الكواكب بغير حجة عقلية ولا سمعية، وإضافتهم إليها جميع الأفعال في الحقيقة، مع دعواهم لها الحياة والقدرة.

وأنكرنا أن تكون الشمس أو القمر أو شيء من الكواكب موجباً لشيء من أفعالنا، بشهادة العقل الصحيح.

فإن أفعالنا لو كانت مخترعة فينا، أو كانت عن سبب أوجبها من غيرنا، لم تصح بحسب قصودنا وإراداتنا، ولا كان فرق بينها وبين جميع ما يفعل فينا من صحتنا وسقمنا، وتأليف أجسامنا، وحصول الفرق لكل دلالة على اختصاصها بنا وبرهان واضح بأنها حدثت من قدرتنا، وأنه لا سبب لها غير اختيارنا.

وأنكرنا عليهم قولهم ان الله تعالى لا يفعل في العالم فعلاً إلا والكواكب دالة عليه. فإن كل شيء يدل عليه لا بد من كونه، - وهذا باطل- يثبت لها تأثيراً أو دلالة، فإن الله أجرى تلك العادة، وليس يستحيل منه تغير تلك العادة لما يراه من المصلحة، وقد يصرف الله تعالى السوء عن عبده بدعوة، ويزيد في أجله بصلة رحم أو صدقة، فهذا الذي ثبتت لنا عليه الأدلة، وهو الموافق للشريعة، وليس هو بملائم لما يدّعيه المنجمون والحمد لله.

وأنكرنا عليهم اعتمادهم في الأحكام على أصول مناقضة، ودعاوى مظنونة متعارضة، وليس على شيء منها بينة.

فإن كان لهذا العلم أصل صحيح على وجه يسوغ في العقل ويجوز، فليس هو ما في أيديهم، ولا من جملة دعاويهم.

وقد قال شيخنا المفيد رضوان الله عليه، إن الاستدلال بحركات النجوم على كثير مما سيكون ليس يمتنع العقل منه، ولا يمنع أن يكون الله عز وجل عَلَّمه بعض أنبيائه وجعله عَلَمَاً على صدقه».

قال ابن طاووس: هذا آخر ما ذكره الكراجكي رضوان الله عليه في كتابه، ونعتقد أنه اعتمد عليه.

٣-ونقل في البحار ج ٤٠ ص ٥٤ عن (كنز جامع الفوائد)[1] الذي جاء فبه:

روى أبو جعفر محمد الكراجكي في كتابه «كنز الفوائد» حديثاً مسنداً، يرفعه إلى سلمان الفارسي قال:

«كنا عند النبي (ص) في سجده، إذ جاء أعرابي، فسأله عن مسائل في الحج وغيره، فلما أجابه قال له:

يا رسول الله، إن حجيج قومي مما شهد ذلك معك، أخبرنا أنك قمت بعلي ابن أبي طالب (ع) بعد قفولك من الحج، ووقفته بالشجرات من (خم)، فافترضت على المسلمين طاعته ومحبته، وأوجبت عليهم جميعاً ولايته، وقد أكثروا علينا من ذلك. فبيِّن لنا يا رسول الله، أذلك فريضة علينا من الأرض، لما أدنته الرحم والصهر منك؟ أم من الله، افترضه علينا، وأوجبه من السماء؟

فقال النبي (ص): بل الله افترضه وأوجبه من السماء، وافترض ولايته على أهل السموات وأهل الأرض جميعاً.

يا أعرابي، إن جبرئيل (ع) هبط عليَّ يوم الأحزاب وقال:

إن ربك يقرؤك السلام ويقول لك: إني قد افترضت حب علي بن أبي طالب ومودته على أهل السموات وأهل الأرض، فلم أُعذر في محبته أحداً، فمُر أُمتك بحبه، فمن أحبه فبحبي وحبك أُحبه، ومن أبغضه فببغضي وبغضك أبغضه.

أما إنه ما أنزل الله تعالى كتاباً، ولا خلق خلقاً إلا وجعل له سبداً، فالقرآن سيد الكتب المنزلة، وشهر رمضان سيد الشهور، وليلة القدر سيدة الليالي، والفردوس سيد الجنان، وبيت الله الحرام سيد البقاع، وجبرئيل (ع)

---

(١) هو كتاب ما زال مخطوطاً، لمؤلفه الشيخ علم بن سيف بن منصور النجفي الحلي، كما في نسخته التي كتبت سنة ١٠٨٣هـ في ١٥ ذي العقدة والموجودة في مكتبة السيد حسن الصدر بخط درويش بن محمد النجفي، بعنوان: (كنز جامع الفوائد). أما في النسخة المخطوطة الأخرى. والمحتمل أنها بخط المؤلف الموجودة بمكتبة المولى محمد علي الخوانساري والمخطوطة سنة (٩٣٧هـ) فهي باسم: (جامع الفوائد ودافع المعاند) من دون كلمة: (كنز). والكتاب مختصر ومنتخب من كتاب (تأويل الآيات الظاهرة) للسيد شرف الدين الاسرابادي. (انظر: الذريعة ج٥ ص ٦٦، وج ١٨ ص ١٤٩).

سيد الملائكة، وأنا سيد الأنبياء، وعلي سيد الأوصياء، والحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، ولكل امرئ من عمله سيد، وحب وجب على علي بن أبي طالب سيد الأعمال وما تقرَّب به المتقربون من طاعة ربهم.

يا أعرابي، إذا كان يوم القيامة نصب لابراهيم منبر عن يمين العرش، ونصب منبر لي عن شمال العرش، ثم يدعى بكرسيٍّ عالٍ يزهر نوراً، فينصب بين المنبرين، فيكون إبراهيم على منبره، وأنا على منبري، ويكون أخي عليّ على ذلك الكرسيّ، فما رأيت أحسن منه حبيباً بين خليلين.

يا أعرابي، ما هبط عليّ جبرئيل (ع) إلا وسألني عن عليَ، ولا عرج إلا وقال: اقرأ على عليٍّ مني السلام».

فهرس الجزء الثاني